سلسلة أبواب العقل الموحدة

الجنس والنفس
في الحياة الإنسانية

الجزء الأول

الدكتور علي كمال



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية
برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع: عمان
ص.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٦٠٥٤٣٢، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

الطبعة الثالثة

(منقحة وموسعة)

١٩٩٤

◆ سلسلة أبواب العقل الموصدة ◆

الجنس والنفس

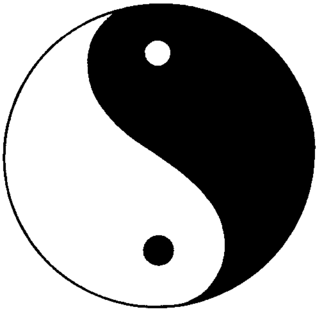
في الحياة الإنسانية

الجزء الأول

الدكتور علي كمال

BA, MD, DPM, FRCPsych.
زميل الكلية الملكية للاطباء النفسانيين
المملكة المتحدة

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر



عن رسم الغلاف

يمثل رسم الغلاف مفهوم الفلسفة الشرقية ، وخاصة في الصين واليابان ، والتي تعود اصولها الى القرن الثالث قبل الميلاد ، والمعروفة باسم (ين -يانغ Yin Yang) . وخلاصة هذه الفلسفة هي أن هناك قوتان أو مبدآن يتحكمان بجميع نواحي الحياة ،وظواهرها، وهما قوتان متضادان غير أنهما متكاملتان وبصورة متوازنه ومتناغمه، فالين (Yin) في هذه العقيدة الفلسفية هي الأرض ، ومن صفاتها أنها : انثى ، وسمراء ، ومستسلمة ، وممتعة ، وهي متواجدة بأعداد مزدوجة في الوديان والجداول . وهي تمثل بالقمر، وباللون البرتقالي، وبخط متقطع . أما يانغ (Yang) فينظر اليها كالسماء، والتنين، واللون اللازوردي ، وبخط غير منكسر، والذكر... وطبقا لهذا المعتقد فان كل قوة من هاتين القوتين تنشآن من المطلق الأعلى، وهما بذلك تصفان عملية الكون الواقعية وكل ما هو فيه. وهما في حالة من التوازن والتكامل الهارموني ، ويصوران لذلك على صورة نصفي دائرة واحد فيها أسود اللون، والنصف الآخر أبيض اللون .

لقد نفذت هذه العقيدة الفلسفية إلى مجمل نواحي الحياة في اقطار الشرق الأقصى لآلاف السنين ، بما في ذلك علوم الفلك والعرافة ، والفن ، والطب ، والحكم ، والأجتماع والتنبؤ، وغيرها من مجالات الحياة ، وفيما يتعلق بالحياة الجنسية . فإن هذه الفلسفة تعتقد بأن الكون ، والقائم على مبدأ التكامل بين المتضادات ، فان مثاله الأعظم هو التكامل بين الذكر والأنثى في الحياة.

الإهـــداء :

الى رائعة الأزمان والآباد ،
عروس الأنهار
الأخت الأبهى لعشتار
الى . . . . . بغداد .

هو الذي خلقكم من نفس واحدة
وجعل منها زوجها ليسكن إليها
«سورة الأعراف»

المحتويات

محتويات الجزء الأول

مقدمة الطبعة الجديدة

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب قبل حوالي التسع سنوات، وتم بعد ذلك إعادة طبعه على حاله أكثر من مرة، ومع أنه ليس لي أن أقيم هذا المؤلف أو غيره مما ألفته، إلا أن ما حظي به الكتاب من تقييم قارئيه قد حفزني ليس فقط إلى إعادة طبعة، وإنما أيضاً إلى إضافة عدد من الفصول في مواضيع جديدة لم أتناولها من قبل، وهي في مجموعها فصول متممة لأي بحث متكامل في النواحي الجنسية للحياة الجنسية، وعلاقة هذه النواحي بمجالات أخرى من حياتنا من نفسية وحضارية واجتماعية وغيرها من المجالات، ويتضح ذلك من أن الإصدار الجديد للكتاب يحتوي على إحدى وعشرين فصل جديد مما اقتضى إصدارها في جزء خاص وجديد (الجزء الثاني)، كما يتبين من مواضيع الفصول الجديدة بأننا حاولنا تناول الحياة الجنسية الإنسانية من عدة منظورات تشمل العلاقة القائمة بين هذه الحياة وبين العلم والأدب والطب والمجتمع، إضافة إلى واقع الجنس في الحاضر، وما نتشوف له من مستقبل يبدو واضحاً بما فيه الكفاية لمن اهتم بمتابعة مسيرة الحياة الجنسية المعاصرة في العالم أجمع، وخاصة في السنوات الأخيرة، بأن تحولات عديدة وخطيرة قد حدثت، وما زالت تحدث

وتتكـاثر في الحياة الجنسية للإنسان المعاصر. وما تأتي عن هذه التحولات من نتائج وعواقب لا تحمد، والتي تتجاوز حدود ما يمكن اعتباره انذاراً بالخطر. ذلك أن الذي حدث هو الخطر نفسه، وما ينذر به من خطر أعظم. ومنذ الإصدار الأوّل للكتاب ونحن على وعي ببوادر التحولات الحادثة في الحياة الجُنسية، والتي ينظر إليها الكثيرون بأنها ثورة في مسيرة الجنس، على اعتبار أنها حررت الإنسـان من الكبت والحرمـان الجنسي، غير أن تأمل النتائج الناجمة عن هذه الثورة تظهر بوضـوح بأن ثمن هـذا التحرير كان باهظا، ذلك أن ما بـدى حـرية قـد راح يسلب الحياة الجنسيـة فعلها الإنساني. وحولها من فعالية تجمع بين معاني الخلق والخلاقية، إلى طاقة عبثية هوجاء خالية من هذه المعاني أو الأهداف.

لقدْ تشوفنا مسيرة الحياة الجنسية. وتوقعنا النتائج الخطيرة المتوقعة لاستمرار أنماط السلوك الجنسي المعاصر بما يتسم به من تهافت وتسيب وانفلات، ولنا في هذه المقدمة أن نستعيد مع القارىء فقرة وردت في فصل (الخاتمة) للطبعة الأولى لهذا المؤلف والتي نصت على ما يلي:

... «وهناك نتيجة سلبية هامة للإنفتاح الجنسي والتي قلما تحظـي بمـلاحظة واهتمام الباحثين، وهي الأثر الحضاري الناجم عن الإنفتاح الجنسي المعاصر وما صاحبه من ثورة على العرف الجنسي... فعصرنا الحاضر يشهد الكثير من طرق التعبير المسرفة والسافرة من الحياة الجنسية، مما يترك القليل منها للإرتباط المجدي والخلاق مع حياتنا النفسية. ذلك أن التسامح الجنسي له أن يرد الجنس إلى مجرد طاقة بايولوجية، وأن لا يترك شيئاً مما يكمن في هذه الطاقة لكي يتسرب إلى حيـاتنا النفسيـة، وبالتـالي إلى النشاطات الحياتية المختلفة من حضارية واجتماعية...».

*

إننا الآن نشاهد تحقيقاً متسارعاً وصادماً ومأساويـاً لما تشـوفناه حـول مستقبل الجنس في عالمنا المعاصر، وتأمل ما هو حادث الآن لـه أن يتشوف مستقبلاً لحاضر الحياة الجنسية مما هو أكثر صرامة ومأساوية مما نشاهده الآن، وهو مستقبل إن لم نهتدي قبل فوات الزمن له أن ينهي دور الجنس كطاقة تولد الحياة ويستبدلهـا بطاقـة تولـد الموت، ومن لم يصبه ذلك فله أن يعيش حياة مفرغة من كل فعل خلاق ومبدع وجميل في حياتنا.

المقدمـــة

لم يكن هذا الكتاب من ضمن أولوياتي في الكتابة، ولعله لم يكن في ذهني على الاطلاق، وهو لذلك ربما يأتي قبل أوانه وفي غير زمانه. والذي يفسر هذه الولادة الطارئة والمبكرة، هو انني دعيت قبل بضع سنوات لالقاء بحث في مؤتمر عالمي يعقد في بغداد تنظمه الرابطة العالمية لتنظيم الأسرة، وطلب إليّ أن يكون البحث في موضوع من المواضيع المتعلقة بالحياة الجنسية، وقبلت التكليف وأنا لم أتأمل بعد مدى اتساع عالم الحياة الجنسية ومتاهات مجاهل هذه الحياة، وصعوبة الاستقرار على ناحية منها لتكون موضوعاً للبحث. كما اني لم أفطن في حينه لما يكتنف البحث في المواضيع الجنسية من محاذير، ذلك أن الأمور الجنسية تظهر أحياناً وفي الكثير من المجتمعات وكأنها أرض حرام، زرع مجالها بما يشبه الألغام من التزمت والجهل والتحيز وسوء الظن وخطأ الفهم والحساسية والنفاق، وغيرها من المواقف، التي لها ليس فقط ان تعيق البحث العلمي والهادىء في هذه المواضيع، وانما أيضاً أن تواجه الباحث فيها بخطر الانجراف، وكأنه يضع خطاه في الرمال المتحركة يغيض فيها قبل أن يدري.

لقد كان من الصعب عليّ ان استقر على موضوع واحد أتناوله بالبحث والمتابعة، فسرعان ما تبين لي بأن في الحياة الجنسية أكثر بكثير مما يبدو في الظاهر، وان هذه الحياة متعددة النواحي متشعبة الجوانب وبعيدة النفاذ في كل ناحية من نواحي الحياة والنشاط الانساني، وهكذا وجدت نفسي أجوب هذه النواحي، بعضها بفعل التأمل، وبعضها بفعل الارادة، وبعضها بفعل الاسترسال، ولم أفطن إلى نفسي، إلا وأنا في خضم محيط واسع، وإذا بي قد تجاوزت غايتي في بحث موضوع محدد، ووجدت بأن من الأسهل عليّ ان اتناول بحث الحياة الجنسية في نواحيها

المختلفة، وهو ما فعلت. والكتاب الحالي يمثل لذلك وإلى حد بعيد رحلة في البحث عن موضوع في الحياة الجنسية أكثر مما يمثل بحثاً في الحياة الجنسية بكامل نواحيها.

* * *

إن من المفارقات، إن لم تكن من المتناقضات الجديرة بالتأمل والبحث الجاد، هي انه بينما لا يوجد أي شك في ان الدافع للسلوك الجنسي هو دافع أساسي وعام وضروري في حياة الانسان، وبأنه لا يمكن له ان يوجد أوان يستمر في البقاء بدونه، ومع انه يستطيع العيش بدون ممارسته، إلا أنه في الوقت نفسه يتسرر في حياته الجنسية وسلوكه الجنسي وكأن هذا الدافع ليس من دوافعه، وهو يتكتم في هذه الحياة إلى حد اغلاق باب الفهم عنها، كما انه يجد من اللازم عليه ان يتخذ من المواقف المعلنة والظاهرة من الأمور الجنسية مما لا يتوافق، إن لم يكن يتعارض، مع دوافعه ورغباته وممارساته الفعلية للحياة الجنسية.

إن هذه المفارقات، لا شبيه لها في حياة الكائنات الحية الأخرى، ولا مثيل لها بمثل هذه الدرجة من التناقض في أي مجال آخر من مجالات الحياة الانسانية. ومع أننا نجد ما يفسر دوافع الانسان للتكتم والتسرر في حياته الجنسية، وما يفسر اتخاذه لمواقف مزدوجة، من فعلية أو معلنة نحو الأمور الجنسية، ونجد في هذه المواقف ضرورة لمطاوعة القواعد الاجتماعية والمعتقدات الدينية، كما اننا نجد في ذلك ما يعطي للجنس خصوصيةلازمة وحتى جاذبية خاصة تذكي الرغبة الجنسية وتعززها، إلا أننا في الوقت ذاته نجد بأن الامعان في التسرر ومد المفارقات الازدواجية بين المكتوم والمعلن إلى حدود كبيرة، فان من شأن ذلك ان يخلق نتائج سلبية في حياة الفرد، وذلك باضطراره لأن يعيش نمطين من الحياة الجنسية والنفسية، وما لذلك أن يؤدي إليه من صراعات نفسية، إضافة إلى واقع من الجهل والتحيز والنفاق والانحراف. ومع أننا نميل إلى ضرورة الابقاء على خصوصية الحياة الجنسية في أقصى حدودها، إلا أن ذلك يجب ان لا يحدث على خلفية من الجهل بالحياة الجنسية ومحلها من الحياة الانسانية، كما انه يجب ان لا يتم مع حالة من المبالغة في التستر على هذه الحياة وإلى الحد الذي يناقض الانسان فيها نفسه بين ما هو معلن وبين ما هو عليه في الفعل، وهو تناقض من شأنه ان يفقد الجنس ليس خصوصيته فحسب، أو قيمته كقوة اجتماعية، وانما أيضاً قيمته كطاقة محركة جميلة وخلاقة في حياة الفرد وحياة المجتمع والحياة الانسانية بكاملها، والتي لا مثيل لها في طاقات الانسان كلها.

* * *

إن أهم ما يلاحظه الباحث في موضوع الحياة الجنسية لبني الإنسان هو تعدد المواقف من الأمور الجنسية بين مجتمع وآخر وزمن وآخر وحتى بين فرد وآخر وحتى في الفرد نفسه بين حين وآخر، كما ان الأبحاث والاستبيانات تفيد بوجود الكثير من مظاهر عدم التوافق بين المواقف الظاهرية من الأمور الجنسية والمواقف الفعلية كما يمارسها الفرد أو يتمنى ممارستها لو أمكن له ذلك، وهذه الحالة من عدم التوافق ولدت عند غالبية الناس مقاييس ثنائية في النظر إلى الأمور الجنسية، واحد منها، وهو المقياس المعلن، يتوافق مع الضرورات الاجتماعية السائدة، والموقف

الثاني، وهو الموقف الخفي، يتوافق مع ما يشعر به الفرد ويتوق إليه في أعماق نفسه أو يمارسه بالفعل في السِّر. ومثل هذه الحالة من ازدواجية المواقف قد لا يكون لها مثيل وبنفس الدرجة من مواقف الانسان من أمور حياتية أخرى، ولها ان تخلق في الذي يحملها حالة من الصراع النفسي بين ضرورة الامتثال لقانون المجتمع ومثله، وبين ضرورة الاستجابة لحاجات الفرد وخيالاته وميوله التي قد تخرج عن قواعد هذا القانون ومثله. ومع ان الآثار السلبية الناجمة عن مثل هذا الصراع عديدة سواء كانت في الحياة النفسية للفرد أو في سلوكه وتصرفاته إلا أن لهذه الثنائية في المواقف بعض الفوائد الايجابية إذ إن لها أن تحد من امكانية التسامح والتحرر والاباحة في الأمور الجنسية، وهي الحالات التي لها ان تجعل من الحياة الجنسية مجرد حاجة بايولوجية حيوانية قائمة في ذاتها وفي معزل عن حياتنا النفسية وواقعنا الإنساني، ولا بد لذلك من تبني صيغة معقولة من المواقف تضمن توافر أكبر قدر ممكن من التوازن النفسي مع أكبر قدر ممكن من القيم الخصوصية والمثالية للحياة الجنسية، وهي صيغة يبدو بأن من الصعب التوصل إليها أو التصرف بموجبها في شعورنا وفي سلوكنا في آن واحد.

* * *

هنالك كما هو معروف تخلف كبير في ثقافتنا الخاصة والعامة حول المواضيع الجنسية من حيث طبيعة ومسالك هذه الحياة ومن حيث ابعادها ومشاكلها إلى غير ذلك من الأمور المتعلقة بها. وهذا لا يقتصر على الثقافة الفردية لعامة الناس، وانما يشمل أيضاً أولئك الذين يجب ان يلموا بالحقائق الأساسية والمناسبة عن الأمور الجنسية، فالمناهج الدراسية المقررة أو غير المقررة وفي جميع مراحل الدراسة من ابتدائية ومتوسطة وثانوية، وفي الكليات والجامعات، تكاد تكون خالية ان لم تكن خالية كلياً من أي إشارة إلى المواضيع الجنسية، وفي كليات الطب لا تدرج الحياة الجنسية في مناهجها، ويغض النظر عنها عادة حتى في تلك المجالات من الدراسة التي تتطلب بالضرورة الإحاطة بها.

إن مثل هذا الواقع يعكس قيام حالة من الحرج فيما يتعلق بالأمور الجنسية، وما يتسبب عنه ذلك من النهي والتكتم والجهل، وقد لا يكون ذلك الخطر الوحيد من هذا الاغفال. ولعل الخطر الثاني والأعظم هو أن الفجوة الناجمة عن هذا الاغفال لها ان تُملأ بفيض من المعلومات الخاطئة والضارة والعبثية والتي لها ان تزيد من سوء الفهم من ناحية وان تشوه الحياة الجنسية للجيل الناشيء وإلى الحد الذي قد يتعذر فيه إصلاحه في المستقبل بأي وسيلة تثقيفية أخرى. ومع إدراكنا للمحاذير الكامنة في تناول المواضيع الجنسية بصورة صريحة، إلا أن بالامكان تجاوز هذه المحاذير باتباع الأساليب التثقيفية الموضوعية والتي اتبعتها بلدان أخرى واجهت مثل هذه المحاذير والحاجة إلى تجاوزها، وكلما فعلنا ذلك بسرعة أعظم، كل ما أمكن لنا تفادي النتائج السلبية للطغيان الاعلامي في المواضيع الجنسية والذي يستهدف الاثارة والعبث والافساد والانحراف، وهي المظاهر التي تعانيها مجتمعاتنا بتزايد وتسارع واضحين ومزعجين.

* * *

لعل من أهم ما تمخض من نتائج الأبحاث والدراسات في الأمور الجنسية خلال هذا القرن هو ان للطفولة حياة جنسية من درجة أو أخرى، وبأن اغفال ذلك خطأ تربوي، له ان يؤدي إلى تعقيد الحياة النفسية للطفل في المستقبل، والنتيجة الثانية، هي الاقرار بأن للأنثى حياتها الجنسية، والتي لا تعتمد بالضرورة على الرجل، وبأن اغفال ذلك هو من الأخطاء الكبرى التي سببت وتسبب المعاناة للأنثى، كما تسبب فقدان التوافق بين الرجل والأنثى. والنتيجة الثالثة، هي الادراك المتنامي بأن حياتنا الجنسية وثيقة الصلة بحياتنا النفسية، وان تكامل الحياتين له ان يضمن انفراج وهدوء الحياة الانسانية، وأن تعثر أي منها له ان ينعكس على الناحية الأخرى، وله ان يفقد الانسان هدوءه وتوازنه وفعاليته الحياتية، والنتيجة الرابعة هي ان الحياة الجنسية قد تكون هدفاً في حد ذاتها، يسعى إليها المشارك فيها للمتعة والايناس بدون التقيد بضرورات الانجاب والبقاء. وهذه النتائج على أهميتها، وبالرغم مما حققته من فهم للحياة الجنسية، إلا انها لم تستطع بعد ان تقدم أخلاقية جديدة للحياة الجنسية المعاصرة، كما انها لم تقلل كثيراً من ازدواجية المواقف من هذه الحياة. ولعله ليس من شأن العلم أن يقدم مثل هذه الأخلاقية، وانما يقع عبء ذلك على الأفراد والمجتمعات، والذين يترتب عليهم مهمة تطوير مواقفهم طبقاً للمعطيات العلمية. ولمثل هذا التطوير ان يتأخر كثيراً عن ادراك هذه الحقائق والمعطيات بالوسائل العلمية.

لقد اخترت عنواناً لهذا المؤلَّف من شأنه ان يدلل على الارتباط بين الجنس والنفس في الحياة الانسانية، وهذا الاختيار يجسد ما اعتقد به من مدى وثوق الصلة بين النواحي الجنسية والنواحي النفسية في حياتنا، وهذا يتجلى بوضوح في المواضيع التي تناولتها بالبحث والتي تشمل أوجهاً عديدة من النشاط الانساني والتي لم يكن بالامكان التطرق اليها لولا هذه الرابطة الوثيقة بين الجنس وبين أوجه الحياة الأخرى. ومن الواضح لمن ألم بموضوع السلوك والدوافع الجنسية ومحلها في الحياة النفسية للانسان، بأني لست البادىء بادراك مثل هذه المكانة، فقد أدركت من علماء النفس وأخصهم فرويد الذي ربط بين النمو الجنسي والنمو النفسي للفرد في أدوار سماها بالأدوار النفسية الجنسية، ووجد في طبيعة هذه الرابطة وأدوار النمو التي تمر بها ما له ان يؤثر تأثيراً جذرياً على نمو الشخصية في الكبر وعلى مستقبل الحياة النفسية للفرد، وقد ادركت هذه الحقيقة ممن سبق فرويد من علماء وفلاسفة عديدين، كما أفادت بها بعض الأديان والمعتقدات في حضارات ومجتمعات عديدة.

إن هنالك الكثيرين في كل عصر وحضارة ومجتمع ممن ينظرون إلى الأمور الجنسية نظرة بايولوجية صرفة، وبأنها مجرد شهوة ترضى بأقصرسبلها، وهم لا يجدون مكانة لها في الحياة النفسية، ومنهم من يذهب إلى أبعد من ذلك فينزه النفس عن ان تتلوث بشهوة الجنس. وهذه المواقف يمكن ادراكها وفهمها، وهي تنم أما عن جهل أصحابها بالقوى والطاقات الفعالة في الحياة الانسانية، أو أنها تمثل محاولة واعية منهم لطمس معالم الجنس في النواحي المختلفة من سلوكهم وحياتهم، وهم بذلك يغالطون أنفسهم ويقفلون باب التأمل فيها. ومع ان الجنس في

حياتهم يظل فعالاً ومؤثراً في حياتهم النفسية بالضرورة التي لا يعونها في أنفسهم، إلا أنهم بنتيجة هذا الجهل والمغالطة إنما يحرمون أنفسهم من التمتع بما للجنس من جمالية ونفاذ في حياتنا النفسية. ومع ان هنالك ما يبرر كتابة هذا الكتاب من أجلهم، إلا ان معظم الدوافع لكتابته تأتي من قناعتي بأن في الجنس من المعاني والأهمية في حياتنا النفسية ما هو أكثر وأعظم وأعمق مما يتبادر للذهن من مقام الجنس في الحياة.

* * *

لم يكن هنالك بد من أن أسأل نفسي في مرحلة أو أخرى من مراحل إعداد هذا الكتاب عن الهدف من تأليفه، وعن الفرد أو الفئة من القراء الذين أتوجه به إليهم. والواقع أنني تجنبت تقييد نفسي باجابة محددة في الأمرين، واتجهت بدلاً من ذلك إلى تحقيق غايتين في نفسي، أولهما إعطاء الحقائق المعروفة كما هي عن حياتنا الجنسية وسلوكنا الجنسي في الحالات الطبيعية وفي حالات الانحراف، أما الغاية الثانية، وهي الأكثر إلحاحاً وأهمية في نظري، فهي ربط الحياة الجنسية الإنسانية بحياتنا النفسية، وهو الربط الذي يميز الحياة الانسانية عن غيرها من حياة الكائنات الأخرى، والذي بسببه أمكن تطوير الحياة الانسانية في النواحي الاجتماعية والحضارية، ولعلي استطعت بذلك ان أضع الجنس في مكانه الصحيح، ورفعه من مجرد الطاقة الغريزية، إلى مكانه اللائق كقوة حياتية رئيسية تنفذ إلى كل ناحية من حياتنا، وهي المكانة التي أرادها خالق كل شيء، لا كوسيلة للخلق والبقاء فقط، وانما للإيناس والسكون والمتعة، وكرباط لا بديل ولا مثيل له للجمع بين الذكر والأنثى في نفس واحدة، كما بدأ منها. أما لمن كتبت هذا الكتاب؟، فهو تساؤل لا يجيب عنه إلا القارىء له، والذي آمل أن لا يخطىء في فهم غاية الكتاب، أو أن يسارع في تطبيق المقاييس المزدوجة عليه، أو أن يجد فيه ما ليس منه. فليس في الكتاب ما يمكن ان يتخذه القارىء وسيلة لمتعة أو نزوة جنسية من نوع أو آخر، وليس من أغراضه ان يستغله القارىء للتندر والمسامرة، وليس من أهدافه ان يكون دليلاً جنسياً عن السلوك الجنسي الطبيعي أو المنحرف، وليس من أغراضه إدانة المسالك الجنسية من نوع أو آخر، وليس من غاياته أيضاً استبدال مواقف جنسية معينة بأخرى غيرها، وهو لا يتجه إلى تشجيع الجنس والتسامح فيه، أو على عكس ذلك، بالنهي عنه والتزمت والزهد فيه. وما عدا ما ليس في الكتاب، فان فيه ما يقتضي لأي فرد أن يلم به عن موقع حياتنا الجنسية من حياتنا الانسانية، وعن مدى الرابطة الوثقى بين هذه الحياة الجنسية وبين حياتنا النفسية، وهي الرابطة الأهم في اعتقادي، والتي تبرر النظر إلي الانسان بأنه المخلوق الأعلى قدراً من بين الكائنات الأخرى. هذا هو ما حاولت إدراكه، وليس لي أن أحكم على مقدار حظي من الفشل أو الوصول.

المؤلف

الفصل الأول

بحوث تمهيدية

* الدافع الجنسي
* الحوافز الجنسية
* الاكتفاء الجنسي
* السلوك الجنسي
* الحاجة للجنس
  ١ ـ حاجات التكاثر
  ٢ ـ الجنس ضرورة اجتماعية
  ٣ ـ الجنس واللذة
* مقررات الحياة الجنسية
  مقررات السلوك الجنسي في الانسان
* الحضارة والسلوك الجنسي الانساني
* الجنس والنفس

بحوث تمهيدية

الدافع الجنسي:

اين وكيف ولماذا يبدأ الدافع الجنسي وما الذي يحركه او يوقفه ؟ ذلك من المواضيع التي ما زالت تستأثر باهتمام الباحثين. وعلى الرغم من وفرة الحقائق والملاحظات العلمية التي افادت بها البحوث، الا اننا نجهل الكثير عن هذا الموضوع الذي ما برح غامضاً ومبهماً في بعض نواحيه وفي بعض حقائقه النهائية.

ان من المسلَّم به أنَّ الحاجة للجنس قد وجدت في الانسان كما وجدت في غيره من الكائنات الحية بحكم مقررات وراثية، غير ان هذه المقررات، في الانسان بصورة خاصة، تتحور تبعاً للتدريب والتقاليد. ومع ان هذه الحاجة للجنس لا تتساوى مع الحاجة للطعام والشراب من حيث اهميتها الآنية للحياة، الا ان اهميتها بعيدة المدى، هي اكثر واعظم من الغذاء، لأنها تضمن التكاثر وبقاء الجنس وتنوعه وتطوره. ولهذه الحاجة الجنسية ان تبتعد او تنحرف عن حاجات الفرد الاساسية الاخرى او تتعارض معها، وهذه ظاهرة بقيت غير مفهومة تماماً وتحتاج الى تفسير، ومثل هذا الانحراف والتضارب بين الحاجات الاساسية والحاجات الجنسية قد يعكس وضعاً مماثلاً من التضارب بين حاجات الفرد الخاصة، بما فيها حاجاته النفسية والاجتماعية، وبين حاجات الجنس الانساني بصورة عامة.

ومهما كانت طبيعة واهداف الحاجة الجنسية في الانسان فان هنالك عمليات فيزيولوجية تحدث في الجسم وتأتي على الصورة التي تجعل من الضروري على معظم الناس بين حين وآخر أن

تثار اعضاؤهم الجنسية وان يؤدي ذلك إلى حدوث الذروة وهو ما يقع في الذكور وفي معظم الاناث. اما المصدر الاول والمحرك البادىء في اثارة هذه الحاجة وتكوين حالة التوتر التي تلي هذه الاثارة، فما زال امراً غير واضح او مفهوم. وقد أثيرت في وقت ما امكانية ان يكون المصدر الاول للاثارة الجنسية يأتي بنتيجة التجميع التدريجي للمني او لافرازات الحويصلات المنوية، غير انه لم يثبت حتى الآن وجود مستلمات حسية تقيس هذا التجمع وتنبىء عن وجوده، ثم ان الانثى لايوجد عندها مثل هذا التجمع في الافرازات.

ان الرأي العام الغالب في الوقت الحاضر هو ان الدافع الجنسي عند الانسان، ذكراً او انثى، ربما كانت بدايته في الدماغ، ومع انه لا يوجد برهان على ذلك عند الانسان، الا ان الابحاث العلمية اثبتت وجود مثل هذا المركز في الحيوانات، ففي الأرنب مثلاً، الذكر او الانثى، يوجد مركزان في نواة الهابيوثلموس في الدماغ، مركز يسيطر على المدى الآني القصير، ويتأثر بهرمون الأستروجين الذي ينشط هذا المركز ويؤدي الى السلوك الجنسي، اما المركز الثاني فهو يسيطر على المدى الطويل، ويقع تحت تأثير التغيير في الفصول وما يصاحب هذا التغيير من ظواهر محسوسة مثل الضوء. اما في الانسان فان مثل هذه المراكز ما زالت غير اكيدة تماماً. وعلى الاصح فان هذه المراكز موزعة على مستويات في الدماغ مثل القشرة الدماغية والجهاز الحافي (اللمبي Limbic System) إلى جانب الهابيوثلموس. وجميع هذه المناطق قد تفرض فعلاً مثيراً او ناهياً للسلوك الجنسي، كما ان لعوامل اخرى مثل الصوت والرائحة واللمس ان تؤثر بصورة مباشرة او غير مباشرة على هذه المناطق وبالتالي على السلوك الجنسي، هذا ولا يعرف على وجه التحديد كيف تتعاون او تتظافر هذه المراكز المختلفة في امر اثارة الدافع الجنسي. ومن النظريات في هذا الشأن هو ان هنالك في نواة الهابيوثلموس في الدماغ خلايا عصبية ربما تكون حساسة لهرمونات الجنس. ومتى اثيرت الهابيوثلموس فان لها ان تؤثر في الغدة النخامية الصماء، وان يؤدي ذلك إلى صنع الهرمونات والمني وربما البويضات ايضاً. وهكذا فقد يكون لنواة الهابيوثلموس وللهرمونات الجنسية فعل متبادل. اما ما تفعله المراكز الجنسية في الدماغ بالفعل لكي تجعل الفرد متجهاً نحو الجنس الآخر وللسعي نحو اثارة الاعضاء الجنسية وللحصول على الذروة! فانا ما زلنا لا نعلم ما يكفي للاجابة عن هذا السؤال، كما اننا ما زلنا نجهل الكيفية التي تتزايد فيها الحاجة الجنسية تدريجياً وإلى الحد الذي يحتم على الفرد عندها ان يبحث عن مخرج لهذه الحاجة وايجاد هذا المخرج. وكل ما يمكن قوله الآن، هو الافتراض بان هنالك مراكز في الدماغ، وعلى اكثر من مستوى، وفي الأعضاء الجنسية والتناسلية، وبأن هذه المراكز هي التي تحدث الحاجة المتكررة للاثارة الجنسية والاطلاق الجنسي للفرد. اما اين وكيف ومتى تبدأ الشرارة الاولى لهذا الدافع، فما زال امراً غامضاً، ولعل جلاء هذا الغموض سيظل مستعصياً بالنظر لما تتسم به الحياة الجنسية في الانسان من خصوصية واختلاف وتنوع.

ان اصالة واساسية الدافع الجنسي في الحياة الانسانية لا يمكن الجدل فيها وبما يناهضها، فالتكوين البايولوجي للانسان عضوياً وهرمونياً وعصبياً مهيأ كله لتحقيق هذا الدافع، ثم ان عمومية تحقيق الدافع في المملكة الحيوانية كلها بما في ذلك الانسان لا يمكن ان يفسر على اساس

اكتساب الخبرة في الحياة، اضافة الى أن ظهور بوادر الرغبة الجنسية والسعي إلى تحقيقها بشكل تلقائي وبدون اثارة خارجية في الادوار الاولى من الطفولة، له أن يدلل على أن الجانب الاكبر من دوافعنا الجنسية يتقرر من استعداد بايولوجي هو جزء اساسي من واقعنا البايولوجي.

ان هنالك اوجه شبه، ونواحي اختلاف بين الدافع الجنسي من ناحية وبين الدوافع الأولية كالجوع والعطش، فالشبه يكمن في انها جميعها دوافع بايولوجية تحتاج إلى ارضاء، الحرمان منها يسبب الألم او المعاناة، والارضاء لها يعني شعور القناعة او اللذة والاكتفاء. والدوافع كلها لها مراكز مخصصة في الجهاز العصبي، كما ان النشاط المتعلق بها، بما في ذلك الشعور بالحاجة اليها، يعتمد الى حد كبير على الافادات الفيزيولوجية التي تصل مراكز الجهاز العصبي الخاصة من المستلمات الحسية في الاطراف. كما ان شعور القناعة والاكتفاء بما في ذلك ما يصاحبه من تغييرات فيزيولوجية تشمل الحركة الدماغية، يتشابه الى حد كبير في ارضاء جميع هذه الحاجات البايولوجية. اما اوجه الخلاف بين دوافع الجوع والعطش من ناحية والدافع الجنسي من ناحية اخرى فهي كثيرة، ومنها ان الدافع للجوع مثلاً يعتمد على البينات الكيمياوية التي تنجم عن تمثل الطعام والتي يحملها الدم وهي عملية متواصلة، غير ان مثل هذه البينات غير ضرورية لقيام الدافع الجنسي. فبينما يرتبط دافع الجوع أو العطش بالحاجة الداخلية الى الغذاء او الماء، فان الدافع الجنسي لا يأتي من حاجة داخلية بقدر ما يأتي من حوافز خارجية. واخيراً، فبينما نجد بأن دوافع الجوع والعطش والاستجابة هي دوافع اساسية ضرورية للحياة، فان الدافع الجنسي ليس فيه مثل هذه الضرورة، اذ يستطيع الفرد البقاء بدون التحسس به او بدون االاستجابة له عند قيامه. وعلى العكس فان الافراط في الجنس قد يؤذي صاحبه ويضعف من مقاومته لما يهدد حياته، اضافة الى انه قد يشغل الفرد عن الاهتمام بما يقيه، وهو بالتالي يعرض حياته للخطر. وهنالك فرق آخر بين الدوافع الأولية كالجوع والعطش وبين الدافع الجنسي، فبينما الدوافع الأولية يتم ارضاؤها عن طريق تزويد الكائن العطش أو الجائع بما ينقصه من الماء والغذاء، فإن الدافع الجنسي على العكس من ذلك لا يتم ارضاؤه الا عن طريق الاخلال بالتوازن الفيزيولوجي وذلك بانهاك الكائن. ولا يعود الدافع الجنسي من جديد الا بعد زوال هذا الانهاك.

الحوافز الجنسية:

ما زال من الصعب التوصل إلى فهم كامل لكيفية قيام الدافع الجنسي والعناصر اللازمة لقيام هذا الدافع. ومهما كانت النظريات المطروحة لتفسير ذلك فانها لا بد ان تعتمد اولاً افتراض وجود قاعدة بايولوجية أساساً للدافع الجنسي، وهذه القاعدة البايولوجية جذرية في حياة الانسان، كما هي في حياة غيره من الحيوانات، وهي تزود الجسم بالبرمجة اللازمة التي تقرر شهيتنا الجنسية وتعين الاثارات التي تثير هذه الشهية وتؤدي الى استجاباتنا لها فيزيولوجياً أو خيالياً. والقاعدة البايولوجية لحياتنا الجنسية متعددة المراكز والاجهزة، وتكاملها ضروري للأداء الصحيح لوظيفتها ولبرمجة الدافع الجنسي واثارة حوافزه والحصول على الاستجابة اللازمة له،

والتوصل الى الاكتفاء منه، وايقافه عند حد معين من الاكتفاء. وتشمل هذه المراكز والاجهزه المراكز الجنسية في نواة الهايبوثلموس في الدماغ المتوسط وطرق الاتصال بين هذه المراكز ومراكز اخرى متعددة في الدماغ، ومن دون هذه المراتب العليا. فان هنالك المراكز العصبية في النخاع الشوكي، وفي الاجهزة العصبية التلقائية (السمبثاوية والبارسمبثاوية) وفي الغدد الهرمونية الصماء وهي الغدة النخامية Pituitary، وغدة الأدرينال Adrenal، ثم الغدد الجنسية الخاصة وهي المبيض في الأنثى، والخصيتان في الذكر، وأخيراً في الاعضاء الجنسية ذاتها الموضوعية منها، او التي اكتسبت الصفة أو العلاقة الجنسية بالطبيعة او بالتعلم والممارسة، كالفم، والثدي وغيرهما من مناطق الاثارة الجنسية.

ان السؤال الذي لا بد ان يطرح هو اين وكيف يبدأ الحافز الجنسي على هذه الخلفية الواسعة والمعقدة من القاعدة البايولوجية؟ وهنالك تفسيرات عدة لمثل هذا الواقع . والرأي السائد هو ان مثل هذا الحافز قد يحدث بطرق عدة منها ما هو شعوري ومنها ما هو غير شعوري، ومنها ما يثار تلقائياً ومنها ما يثار بواسطة فعلية. فالدافع الجنسي قد يحس الفرد بوجوده وبتطوره نحو الأستجابة والارضاء، كما انه يمكن ان يعرض له وهو في حالة غير واعية أثناء الحلم أو النوم او حتى في حالة اليقظة وهو منصرف عن التفكير الواعي بالجنس. وقد يكفي لاثارة الحافز الجنسي ان يتوجه ذهن الفرد الى الناحية الجنسية سواء استعان الفرد بالصور الخيالية الجنسية او لم يستعن. وهنالك حالات الاثارة التي تأتي عن طريق الحوافز الجنسية الفعلية، سواء جاءت هذه على شكل اثارة حسية بصرية او سمعية، او بالشم او اللمس او الاثارة الموضعية للمناطق الجنسية. واخيراً فان من الممكن ان يكون التغير الفيزيولوجي في العضو التناسلي، مهما كان سببه، حافزاً في ذاته للاثارة الجنسية، وبعض الانتصاب التلقائي عند الذكر مثلاً يمكن ان يكون حافزاً جنسياً في حد ذاته، وان يؤدي الى المزيد من الاستجابة الجنسية التي تزيد في التوتر، وهذا يزيد في الحافز وهكذا، ومثل ذلك قد يحدث في الانثى، فاحتقان الفرج وتنديته أو توتر البظر، يمكن ان يكون حافزاً جنسياً في حد ذاته وان يؤدي الى المزيد من الاستجابة، وهكذا بشكل متصاعد فان الحافز الجنسي يزداد بازدياد التقدم نحو الذروة. ولعل من الخطأ اعتبار الحافز الجنسي عملية تلقائية من الأعضاء الجنسية ذاتها، فان من المتعذر تصاعدها الى حدود الذروة بقوتها الذاتية وفي معزل عن فعل ومشاركة المراكز العليا للقاعدة البايولوجية، اذ يقتضي لهذا التصاعد ان تكون الاحساسات الحاصلة من التغيير في الاعضاء الجنسية احساسات ملذة، ومثل هذا الاحساس يتطلب مشاركة الشعور بكامله، ومثل هذا الشعور باللذة هو امر ضروري لزيادة الحافز الجنسي وبدونه يتوقف الحافز ويتشتت. ان لبعض الناس دون غيرهم حوافز معينة للاثارة الجنسية او انهم اكثر او اقل اثارة بالحوافز المعتادة عند غيرهم، والسبب في هذه الفوارق يعود جزئياً الى الفوارق المقررة في التكوين للقاعدة البايولوجية الجنسية من عصبية وهرمونية وعضوية. كما يعود بعضه الى الفروق في نمو التجارب الجنسية للفرد واثر التعلم او التطبع على هذه التجارب. وهذه الفروق يمكن ان تقرر نوع الحافز الجنسي وقوته ومدته لكي يثير الاستجابة الجنسية، كما انه يقرر على سبيل المثال فيما اذا كان الفرد يحفز جنسياً بطريقة التأمل والخيال، او

أنه يقتضي تحفيزه بواقع العلاقة الجنسية المباشرة والفعلية. فالذي يلاحظ هو انه كلما ازدادت ثقافة الفرد وتجربته، ازداد فعل الحافز التأملي والخيالي (فانتزي) للاثارة الجنسية، على عكس من هم دون ذلك ممن لا يتحفزون جنسياً الا بفعل المواجهة الحقيقية للعلاقة الجنسية، كما يلاحظ ان الرجل يَختلف عن الأنثى في تحفيزه الجنسي. فالرجل كثيراً ما يثار بصورة تلقائية، وغالباً ما يكون ذلك بفعل التخيل، بينما الأنثى تثار عادة بحوافز موضعية وفعلية، وقلما تثار بفعل الخيال او بصورة تلقائية الا بنتيجة امعان عظيم ولمدة طويلة وباسناد من حوافز اضافية موضعية في الأعضاء الجنسية.

الاكتفاء الجنسي:

بوصول الفرد إلى الحد الاقصى من الاستجابة للحافز الجنسي وهو (الذروة Orgasm)، فإن المراكز الخاصة بالدماغ توقف عملية تسارع الاستجابات الجنسية أو تنهى عن استمرارها، ولا بد عندئذ من عملية الهبوط في مستوى الاستجابات التي حدثت، واذا حدث ذلك، فان استعادة هذا الحد الأقصى ثانية لا يتم الا بعد فترة من الراحة، واية محاولة لتحفيز هذه الاستجابات قبل أوانها فإنها تكون عادة غير مثمرة او غير مثمرة كلياً، كما انها قد تكون محاولة متعبة ومؤلمة لصاحبها، وهذا الواقع يلاحظ في الذكر اكثر مما يلاحظ في الانثى، ويبدو لذلك بأن المركز العصبي الخاص بالسيطرة الجنسية في الدماغ هو اكثر فعالية في الذكر منه في الأنثى. ويفسر التفاوت بين الذكور والاناث في خاصية المقدرة على معاودة الاستجابات الجنسية المؤدية للذروة، في ان الاحتقان الدموي الذي يحدث في الاعضاء الجنسية للانثى اثناء الاستجابات للدافع الجنسي يظل مدة طويلة في الانثى، ولهذا فقد يهيء للانثى امكانية الاستمرار للتحفيز الجنسي، مما يمكنها من تصعيد استجاباتها الجنسية الى ذروة سريعة لاحقة، وهو الامر الذي يتعذر على الذكر الذي يتنازل عنده الاحتقان الدموي بسرعة حال الوصول الى الذروة، ويحتاج الى فترة من الراحة لكي يستطيع اثارته مجدداً. ويتزامن مع هذا الواقع في كل من الذكر والانثى تغير في الدماغ كما يتبين ذلك من الحركة الكهربائية الدماغية والتي تتغير من نمط حالة اليقظة النشطة اثناء الاستجابة الجنسية، الى نمط يقترب في بعض مظاهره من حالة النوم، وهو تغير اكثر وضوحاً في الذكر منه في الانثى، مما يعزز الاعتقاد بأن الدماغ اكثر فعالية في التحفيز الجنسي وفي السيطرة على الاستجابات الجنسية في الذكر منه في الانثى، وهو لذلك اكثر تأثراً بالمحفزات المثيرة للخيال والفكر في الذكر منه في الانثى، سواء تعلق الأمر باثارة الرغبة او النهي عنها او تعطيلها وايقافها عند قيامها.

السلوك الجنسي:

يعتمد السلوك الجنسي على الإثارة الجنسية، وهي اثارة خارجية في معظمها. وهي اشبه ما تكون بالاثارة العاطفية، والاثارة في كليهما اثارة يتعلمها الفرد بالتجربة. وتفيد الدراسات على الحيوانات بأن انعدام الاثارات الخارجية كلياً يؤثر تأثيراً جذرياً في استجابة الحيوان بسلوك جنسي. فتربية كل من الأنثى والذكر من القردة على حدة منذ بداية نموهما، ثم الجمع بينهما لا

يؤدي الى قيام سلوك جنسي بينهما حتى ولـو كانت الأنثى في دورة الـودق Oestrous. ويكون سلوكهما اشبه ما يكون بسلوك الاخوة والاخوات. وفي حالة الجمع بين الذكر المجـرب جنسياً والأنثى المعزولة عن كل خبرة جنسية، فإن السلوك الجنسي للأنثى يتسم بالرفض والرغبـة في الانزواء، او دفع الأنثى لمقاتلة الذكر، كما أن الجمع بين انثى مجربة وفي فترة الودق مع ذكر غير مجرب، يؤدي الى عراك شديد بينهما. وهكذا فإن التجربة المتأتيـة من التقلب والتعليم هي أمر ضروري لاثارة السلوك الجنسي في الحيوانات. ولعل درجة من هذه القاعدة هو أمـر ضروري للسلوك الجنسي في الانسان.

ان السلوك الجنسي اذا حدث في أي من الجنسين بنتيجة اثارة الدوافع الجنسية من مصدر معين مناسب، فهو سلوك له أن يختلف من فرد وآخر وبين حين وآخر، ولعل من المتعذر حصر هذا السلوك في نمط أو انماط معينة بسبب العدد الكبير من انواع الاستجابات الجنسية التي تحدث في الفرد واختلافها بين فرد وآخر. وصعوبة حصر هذا السلوك في الانسان تتضح من أن كائنات ادنى كالفئران مثلاً تمر باثني عشر دوراً من استجـابات التهيـج الجنسي والتي تقترن بـالتغيرات الهرمونية. وقد افادت دراسات ماشرس وجونسون في موضوع الاستجابات الجنسية وجود انماط عديدة من الاستجابات السلوكية اثناء اللقـاء الجنسي، وإن كانـا قد جمعـا هذه الاستجـابات فسيولوجياً بأربعة ادوار. غير ان هـذه الأدوار لا تصـف المظاهـر السلوكية او المشـاعر النفسيـة المختلفة اثناء اللقاء.

الحاجة للجنس:

هنالك مراتب في حاجـات الكائن الحيّ تتقـرر تبعاً لضـروراتها للحيـاة والبقاء بـالنسبة للكائن وبالنسبة للجنس الذي ينتمي اليه. وهذه الحاجات ربما لا تكون واعية في ذهن الكائن الحي بما في ذلك الانسان، وهو يندفع الى ارضائها بفعل قوة «غريزية» او بالاحرى بايولوجية. وهو على العموم لا يستطيع ايقاف أو منع ارضائها طويلاً او بسهولة. واهم هذه الحاجات واكثرها ضرورة والحاحاً هي تلك التي تتصل بالمحيط الداخلي للكائن الحي وضرورة تنظيم هذا المحيط، ذلك ان مثل هذا التنظيم هو امر حيوي لحياة الفرد وبقائه. والحاجات الاساسيـة التي يشملها هذا التنظيم للمحيط الداخلي هي الحرارة والطعام والماء. وبفعل هذه الحاجات فـان الكائن الحي ـ والانسان ـ ينجذب او يبتعد عن مؤثرات تضمن او لا تضمن تلبية هذه الحاجات. غير ان للكائن الحي حاجات اخرى اقل ضرورة واسـاسية وحفـظاً للحياة، وهي تتعلق بعـلاقات الفرد مع غيره في المحيط الخارجي، وليس لها ضرورة ماسة في المحافظة على التوازن في المحيط الداخلي للفرد. والجنس والعلاقة الجنسية هي في مقدمة هذه الحاجات.

١ ـ **حاجات التكاثر**: ان ابسط الدلائل على اهمية (الجنس والعـلاقة الجنسيـة) تأتي من استحالة الابقاء على الجنس بدونهما. فالكائنات الحية كلها باستثناء البكتيريا وبعض الفطريات، وبعض (البروتزوا (Protozoa) تتكاثر عن طريق جنسي. ويقتضي لتكاثر الكائنات الجنسية ان تلتقي الخلايا الأنثوية مع خلايا الجنس الآخر. وهكذا فان حيـاة الجنسين يجب ان تتـوافر في

المحيط الواحد. وان يسهل التلاقي بينهما، وان تتوافر الامكانيات البايولوجية التي تسهل هذا التلاقي وتجعله مثمراً ولو الى حين ضمان الالتحام بين خلايا الجنسين. ويقتضي لضمان هذا التلاقي ان يتوقف، ولو الى حين، العمل بالقاعدة الطبيعية، وهي مطاردة المعتدي وهرب الفريسة، فمعظم الحشرات مثلاً تلتقي جنسياً مرة واحدة يصبح بعدها الذكر كائناً لا ضرورة له، او انه كما هو الحال في بعض مراتب الحشرات المتقصدة، فان الأنثى تأكل الذكر حالما تقضي حاجة حافزها الجنسي، ويخف هذا الحافز، وينهض الدافع للجوع والطعام من جديد. ويبدو في مثل هذه الكائنات الحية أن الحاجة الجنسية تخدم أغراضاً كثيرة تعلو على كل غرض آخر، واهمها غرض ضمان التكاثر، وهنالك امثلة عديدة منها ذبابة مايس Mayfly وانثى الاخطبوط وغيرها والتي تموت حال الانتهاء من التوالد او بعده بقليل.

ان معظم الحيوانات دون مرتبة الطيور تلتقي (جنسياً) مرة في السنة، وخلال فصل يضمن للنسل الحرارة الملائمة والغذاء الكافي، اما الطيور والحيوانات الثديّية فانها اكثر تنوعاً في سلوكها الجنسي، فبينما بعضها يتمشى مع الدورة الفصلية للتكاثر، الا ان بعضها قد استطاع التوصل الى مقدرة اعظم في التكيف على ضرورات المحيط، وبهذا تجاوزت ضرورة التوافق مع التلاقي الجنسي الفصلي. وبعض الاصناف الحيوانية اصبحت تتأثر بعوامل شتى تسهل التلاقي وتمكن منه، فمن هذه العوامل ما هو قائم في المحيط الخارجي بما في ذلك الاشارات المنوهة من الذكر او الانثى، ومنها ما هو قائم في المحيط الداخلي بما في ذلك التغيرات الهرمونية وخاصة في الانثى، وهي التغيرات التي تجعل الأنثى اكثر تقبلاً لملاقاة الذكر، واكثر تهيؤاً من الناحية البايولوجية لجعل هذا اللقاء مثمراً. ومع ان سلوك بعض الحيوانات الثديية فيه الكثير من درجات التحرر من السيطرة الهرمونية الجنسية على السلوك الجنسي والحاجة اليه، الا ان اكثر درجات التحرر من هذه السيطرة نجدها في الانسان، ومثال هذا التحرر يتبين من الملاحظة التجريبية والسريرية بان انعدام هرمون الاستروجين في الانثى عقب استئصال المبيضين لم يؤد الى تبديل في السلوك الجنسي عند الانثى، ولا في خيالاتها الشهوانية او حساسيتها، او في تكرار ذروتها الجنسية. ومثل ذلك يلاحظ ايضاً في فترة سن اليأس عندما يقل هرمونا الاستروجين والبروجستيرون، ومع ذلك تظل الرغبة الجنسية بظواهرها المختلفة على حالها.

ان من الواضح مما بيناه مدى اعتماد الانسان في بقائه بوصفه جنساً على عملية التكاثر، والتي تعتمد بدورها على الاخصاب بين خلايا الجنسين، والذي لا يتم الا بالالتقاء الجنسي بين الذكر والانثى. وهذه القاعدة لم تتبدل حتى باللجوء الى التخصيب الصناعي ذلك ان الاجهزة البايولوجية الواسعة في كل من الذكر والانثى ما زالت ضرورية لجعل الاخصاب ممكناً سواء كان اخصاباً طبيعياً او صناعياً.

٢ ـ الجنس ضرورة اجتماعية: للسلوك الجنسي عند الانسان بصورة خاصة، ضرورات اجتماعية وهي تنبع بالاساس من حاجة كل من الانثى ومولودها الى الحماية والعناية وتوفير الطعام، وهذه الحاجة، كما هو واضح، لها قيمة بقائية وبدونها فانه سيكون من الصعب على

الانثى وحدها المحافظة على الجيل الجديد ومن ثمة المحافظة على البقاء للفرد وللجنس. ولضمان هذا الهدف، فقد بات من الضروري للانثى في هذه الحالة ان تظل جذابة للذكر بطريقة او اخرى، وهكذا فقد ادت طبيعة العلاقة بين الجنسين والنابعة من ضرورات المحافظة على النسل، الى قيام مظاهر سلوكية جديدة في المجال الجنسي لا تخدم فقط غايات المحافظة على الجنس بقدر ما تخدم تكوين الجماعة وتماسكها. وفي التحليل الاخير لهذا التحول في اهداف الجنس فلا بد لنا من ان نجد أن الاغراض الاجتماعية التي نجمت عن العلاقة الجنسية تخدم في النهاية اغراض المحافظة على الجنس وبقائه. وان ظهرت في مجال مقاومة العدوان بدلاً من مجال التكاثر.

٣ ـ **الجنس واللذة**: ان مما لا يجادل فيه ان العلاقة الجنسية في معظم الناس وفي معظم الحالات تعطي اللذة للمشاركين فيها. ومن الواضح بان هذا الشعور باللذة يتوافر بصرف النظر عن غاية العلاقة الاخصابية والتكاثرية. فهو يتوافر مع وجود هذه الغاية وموجود بدونها وموجود بدون الحاجة اليها. وهكذا فللباحث ان يستنتج بأن العلاقة الجنسية لها وظيفتان من الناحية البايولوجية، الواحدة منها مستقلة عن الاخرى، الأولى للتكاثر والأخرى لضمان اللذة. ومع أن الكثيرين من الناس في مختلف الحضارات والمعتقدات عبر العصور المتعاقبة ينكرون ان تكون للجنس غاية اخرى غير غاية التكاثر والخلق، الا ان انكار هذا الواقع لا يغير من واقع ان العلاقة الجنسية هي بلا استثناء تقريباً، ملذة في الحالات الطبيعية، وبانها تمارس بشكل مستقل في كثير من الأحيان عن حاجات التكاثر والاخصاب، فالذكر يجد لذة في الاستمناء وبدون اي امكانية للتكاثر، والانثى قد تجد ذروتها في اثارة منطقة جنسية غير التي ترتبط بشكل مباشر في عملية الاخصاب. والذكر والانثى يواظبان على العلاقة الجنسية في الفترات التي لا تؤدي الى اخصاب كما هو الحال اثناء الحيض والحمل، وسن اليأس وما بعده، او في الحالات التي يتعمد فيها ان لا تؤدي العلاقة الى الاخصاب، كاستعمال موانع الحمل كالحبوب والوسائط الأخرى، وكل ذلك يؤكد بان معظم السعي الجنسي للانسان يهدف الى تحقيق اللذة للمشاركين في هذا السعي.

ان من الإسئلة التي يمكن ان تثار في موضوع اهداف الجنس هو اذا ما كان هنالك تعارض بين هدفي التكاثر واللذة؟ والسؤال الثاني هو أي من الهدفين اكثر اهمية؟ ان تأمل السؤال الاول لا يعطي مسوغاً لقيام تعارض بين هدفي التكاثر واللذة، ذلك ان شعور اللذة الناجم عن العلاقة الجنسية يوفر الحافز الكافي للاقبال على هذه العلاقة، وبدون ذلك ربما لا يتوافر الحافز القوي الذي يمكن في النهاية من عملية التكاثر والابقاء على الجنس. وهكذا فان اللذة الجنسية تخدم، ان لم يكن هدفها الاساس والاول، غرض السعي نحو العلاقة الجنسية، وما يؤدي اليه ذلك في النهاية من تكاثر وتنوع وابقاء على الجنس.

ان من الواضح ان كلاً من الانسان والحيوان لا يقبلان على تلبية وتحقيق الدافع الجنسي من اجل ضمان عملية التكاثر والابقاء على الجنس، وان كان الانسان يسوغ هذا الاقبال احياناً

على اساس مثل هذه المقتضيات، وتأمل ما يبدو من تضارب بين الجنس بوصفه واجباً وضرورة يحتمها بقاء الجنس وبين الجنس بوصفه مصدراً للذة، فان هذا التعارض ليس في جوهر الجنس، وانما في الكيفية التي نظر فيها الى هذا السلوك. ففرويد مثلاً يرى بأن مبدأ اللذة سواء كان ذلك من مصادر جنسية او غير جنسية، هو المبدأ السائد والاكثر تقريراً للسلوك الانساني. وقد وجد فرويد بان تطبيق هذا المبدأ يتعارض مع حاجات المجتمع والذي يتحرك دائماً للتحديد من فعل هذا المبدأ. ومن الواضح ان هذا التضارب هو على المستوى التطبيقي فقط، ولا يكون حقيقة بايولوجية. فالضرورات الاجتماعية لا تنفي الحاجات الجنسية، ولا ضرورة توافر اللذة فيها، وانما تحدد فقط وفي بعض الأحيان مجالات وطرق التعبير عنها، وهو تحديد لا يناقض الجنس وحاجاته، بل على العكس يكملها لانه يتوافق مع حاجات الانسان للنمو والتطور.

مقررات الحياة الجنسية

تتراوح الحياة الجنسية ضيقاً واتساعاً طبقاً لموقع الكائن الحي في سلم التطور. وهي حياة أضيق ما تكون في الكائنات التي تتحدد فيها الحياة الجنسية بعملية التكاثر فقط. كما انها اوسع ما تكون في الانسان المتطور والذي يكون فيه عامل التكاثر جزءاً صغيراً فقط من مضمون الحياة الجنسية، بينما الجزء الاكبر من هذا المضمون يشمل النواحي الحياتية الأخرى من اجتماعية ونفسية وحضارية والتي يتميز بها الانسان عن غيره من الكائنات الحية.

ان الحياة الجنسية في اضيق حدودها تتمثل بالكائنات ذات الخلية الواحدة، والتي يتحقق فيها التكاثر في عملية ذاتية من الانقسام إلى خليتين، وهكذا. وحتى في هذه المرتبة الخلوية من التطور البايولوجي، فإن نوعاً من التزاوج يحدث أحياناً بين خليتين، ويحمل هذا التزاوج بعض مظاهر السلوك الجنسي، وفيه تتبادل كل خلية نصف كروموسوماتها مع الخلية الأخرى. وفي الكائنات الحياتية الأعلى مرتبة، فإن عملية التكاثر تتم عن طريق الجمع بين الكروموسومات بطريقة أخرى، ففي هذه الكائنات توجد خلايا معينة تحمل هذه الكروموسومات. وتدعى بالبويضة Ova في الأنثى، والنطفة في الذكر Sperm. ويتم الوجود الجديد، ومن ثمة التكاثر، بتلقيح النطفة للبويضة، وما يلي ذلك من انقسام للبويضة الملقحة ونموها حتى النضج الى كائن حي جديد. غير ان هنالك اختلافاً بين اصناف حياتية واخرى من حيث الطريقة التي يتم بها التلاقي بين بويضة الأنثى ونطفة الذكر. وهنالك عدة طرق من هذا الالتقاء، لعل من ابسطها هو أن تبث الأنثى بويضاتها والذكر نطفاته في الماء في ذات الوقت وفي ظروف محيطية ملائمة مما يسهل الالتقاء بينهما، كأن يكون ذلك في اعلى المد او في تمام البدر. غير أن معظم الحيوانات تمكن من هذا اللقاء بالعلاقة الجنسية المباشرة بين الذكر والانثى. ويتضمن هذا اللقاء دخول نطفة الذكر الى الانبوب التناسلي للأنثى وتلقيح البويضة فيه. وهو ما يحدث في الانسان ايضاً..

ان الذي يقرر عملية التكاثر الجنسي، بما في ذلك عمليات التلاقي بين الجنسين، وعلى أي مستوى، هو حادث يتقرر بالطبيعة البايولوجية، وهي طبيعة تتقرر بما يقرر عناصر الوجود

لكل مرتبة من مراتب الكائنات الحية. وهي عملية في اصولها خارجة عن فعل الارادة ولتحقيق الامكانية البايولوجية بصورة ناجحة، فلا بد من توافر عوامل محيطية ملائمة. وهي عوامل تتفاوت في طبيعتها وفي فعلها بين مرتبة واخرى من مراتب هذه الكائنات. فالبناء البايولوجي للكائن، بما في ذلك الاعضاء الخاصة بعملية الجنس والمراكز المؤثرة في وظائف هذه الاعضاء، كالهرمونات والمراكز العصبية، كلها تتقرر بالقوانين البايولوجية، غير ان للعوامل المحيطية من فصول السنة ودرجة الحرارة والضوء والرائحة وغيرها من العوامل المحيطية أثرها في فعالية العمليات البايولوجية اللازمة لتحقيق العلاقة الجنسية وعملية التكاثر. غير أن مثل هذا التأثير المحيطي يتفاوت فعلاً بين صنف حيواني وآخر. فبينما نجد مثلاً أن بعض اصناف الطيور والحيوانات تمارس العلاقة الجنسية طبقاً لقواعد موسمية. فإن هنالك فصائل اخرى تخلصت من هذا القيد، واستطاعت ان تكيف نفسها للمحيط، وان تتصرف بحرية اعظم في علاقاتها الجنسية، كما أن بعضها استطاع ان يدخل عوامل جديدة مؤثرة في حياتها الجنسية مستمدة من الاشارات التي يستلمها من الشريك أو الشريكة الجنسية الممكنة.

مقررات السلوك الجنسي في الانسان

السلوك الجنسي في الانسان، حاله حال الكائنات الأخرى، يتقرر بالعوامل الاساسية المقررة للسلوك الجنسي في معظم الكائنات الحية، وهي المقررات البايولوجية أولاً، والعوامل المحيطية المتفاعلة معها بالدرجة الثانية. غير ان الحياة الجنسية في الانسان تتميز عن الحياة الجنسية في المراتب الادنى من التطور، باضافة عامل آخر مقرر للسلوك الجنسي وهو العامل الحضاري، وهو العامل الفعال في اعطاء الحياة الجنسية في الانسان ما تعرف به من مظاهر التنوع والاختلاف والانحراف، مما لا تتصف به الكائنات الأخرى. ولعل من الخطأ الاعتقاد أن الانسان وحده هو الذي استطاع اضافة هذا البعد الحضاري لحياته الجنسية من دون غيره من الكائنات، ذلك ان هنالك الكثير من مظاهر السلوك الجنسي في كائنات أخرى، مما يتسم بفعل مؤثرات تزيد على الفعل البايولوجي والمحيطي، مما يتوجب الافتراض بأن تطوراً قد حدث في حياتها فيه بعض ما يمكن اعتباره سماتٍ حضارية بالقياس مع الانسان في سلوكه الجنسي، فقد وجد الباحثون تنوعاً وتفنناً وانحرافاً في السلوك الجنسي لبعض الحيوانات مما لا يمكن تفسيره على اساس من المقررات البايولوجية والمحيطية فقط. ولا بد بذلك من رده الى فعل التعلم والتقليد والاختبار والحاجة، وكل هذه عوامل فعالة في العملية الحضارية في حياة الانسان، ولها ما يماثلها في حياة بعض الحيوانات الأخرى. وعلى سبيل المثال فان الدراسات قد أفادت بأن الأفراد من الناس الذين يتربون من صغرهم في معزل عن الجماعة والاتصال الاجتماعي فإنهم على العموم يظهرون اهتماماً قليلاً بالنواحي الجنسية، ومثل هذه الظاهرة لوحظت ايضاً في القردة التي ربيت في معزل عن غيرها. فمع ان الذكور منها ابدوا ميلاً شديداً للاناث، الا أنها اظهرت كفاءة قليلة، وعجزاً كبيراً في المقدرة على الولوج وهي ظاهرة تدلل على أهمية التجربة الاجتماعية في وقت مبكر من تطوير السلوك الجنسي. ومع توافر بعض مظاهر التأثير الحضاري في الحياة

الجنسية لبعض الحيوانات، الا أن من الواضح انه لا يمكن مساواة هذا الفعل بما هو عليه في الانسان. والذي يبرز فيه اهمية التطور الحضاري الى حدود بعيدة من الفعل والوضوح وإلى حد يفوق فعل المقررات المحيطية من جانب، والحد من المقررات البايولوجية، والى حد السيطرة عليها من جانب آخر. ومثل هذا التأثير واضح، ليس على السلوك الجنسي فقط، وانما على الهوية الجنسية التي يحملها الفرد عن نفسه بسبب تأثير العوامل الاجتماعية والنفسية التي يتعرض لها الفرد في صغره. ولهذه العوامل ان تعطي للفرد هوية جنسيةِ تختلف سلوكياً وفي محتواها النفسي عن هويته الجنسية الفعلية كما هي مقررة بايولوجياً.

الحضارة والسلوك الجنسي الانساني

تضمن المقررات البايولوجية في الانسان الهوية الجنسية للفرد ذكراً أو انثى، كما تضمن نوعية وشكل الأعضاء ذات العلاقة بالعمليات الجنسية في الجنسين بما يطابق هذه الهوية. واخيراً فهي تضمن الاداء الوظيفي والاستجابات المناسبة التي تتناسب معها. ولعل الحد الأدنى من السلوك الجنسي، وهو يتمثل في العلاقة الجنسية الفعلية بين الذكر والأنثى، يمكن توافره وممارسته بصورة مطلقة وعامة بين الجنسين وبمعزل عن المؤثرات والعوامل الاجتماعية والحضارية. وهذا السلوك في هذه الحدود الدنيا لا يتطلب التعلم او التقليد الاجتماعي. غير ان السلوك الجنسي عند الانسان يتجاوز هذه الحدود الدنيا من العلاقة البايولوجية الجنسية. وهذا التجاوز لا يوجد بدرجة متساوية من الاتساع والتنوع بين جميع البشر في مختلف الحضارات. فالاختلافات واسعة بين مجتمع حضاري وآخر في مظاهر سلوكهم الجنسي، وفي مكانة الحياة الجنسية في نفوسهم، وفي القيم التي تعطيها كل جماعة حضارية للجنس وما يترتب عليه من علاقات. والدراسات العديدة والمقارنة للمواقف نحو الجنس في حضارات قديمة ومعاصرة، متقدمة، او بدائية، كلها تؤيد الاستنتاج بأن الجزء الأكبر من حياتنا الجنسية يتقرر بفعل الواقع الحضاري الذي يعيشه الفرد.

ان النواحي الجنسية التي تأثرت وتتأثر بالفعل الحضاري عديدة ومتنوعة وهي تشمل السلوك الجنسي من حيث طرق الممارسة الأصلية للجنس، والأعضاء التي تشملها الاثارة والعبث الجنسي، واختيار الشريك الجنسي وتنوع أو تعدد العلاقات الجنسية، والعلاقات الجنسية المقبولة أو المحرمة، والجواذب الجنسية لكل من الجنسين، والنواحي الجمالية والقيم المعنوية للجنس، والارتباطات العاطفية والعقلانية للجنس، وغيرها من المعاني والارتباطات التي نشأت حول الجنس والدافع الى تحقيقه في الحياة. وجميع هذه الظواهر والمعاني والارتباطات قد نشأت وتطورت في الانسان بفعل المؤثرات الحضارية. والتي بدورها قد أثرت في التطور الحضاري للانسان. وهكذا نجد أن الجنس والحضارة هما في حالة تفاعل مستمرة تؤدي الى تطور كل منهما.

مع أن من غير الممكن لنا ان ننفي وجود قدر ما من الحياة النفسية في الكائنات التي هي دون الانسان في مراتب التطور، الا انه مما لا شك فيه أن الحياة النفسية في الانسان هي اعظم عمقاً واوسع مدى وتأثيراً في الحياة الانسانية منها في اي كائن حي آخر. وهو الأمر الذي يتضح في الحياة الجنسية اكثر من غيرها من نواحي الحياة. والفعل الحضاري على الحياة الجنسية ما هو الا فعل نفسي يمكن توافره في حياة الانسان وبصورة متطورة ومتزايدة بسبب ما حظي به الانسان من تطور وتزايد في خصائصه النفسية والعقلية والمرتبطة بالطبيعة البايولوجية والمتطورة لدماغه، وبفضل هذه الميزة للانسان، فقد تيسر له ان يمارس عمليات التأمل وما ينجم عنها من التوصل الى رموز ومعانٍ للأشياء من ناحية، وإلى امكانية تصور البدائل والطرق الجديدة في التعامل مع الواقع. . ومع أن الانسان قد ظل بالضرورة يعتمد الاساس البايولوجي قاعدة لسلوكه، الا انه بفعل تطوره النفسي والعقلي قد اصبح يملك فعلاً ارادياً في التعامل مع هذا الأساس البايولوجي، وهو فعل ـ من النواحي الجنسية على الأقل ـ يمارسه الفرد بصفته الفردية وبكونه جزءاً من المجتمع الحضاري الذي يعيشه.

إن الحياة الجنسية في الكثيرين من الناس تتحدد في نطاق اكثر ما يكون تطابقاً مع القاعدة البايولوجية والحياة الجنسية. ومثل هذا النمط من الحياة قد يؤدي الى اراحة الفرد من المعاناة اذا ما تم ارضاء المتطلبات البايولوجية للجنس، وهو ما يحدث في حياة الكثير من الناس، غير ان تحديد نطاق الحياة الجنسية بالقاعدة البايولوجية لا بد ان يحرم الفرد من استثمار طاقاته الجنسية بالتفاعل مع طاقاته النفسية، وإذا حدث ذلك فإن الشخص لا بد له ان يفقد ليس فقط رموز الجنس ومعانيه وقيمه، وانما يفقد ايضاً امكانية استعمال الجنس وسيلة للتعامل والاتصال الانساني، على المستوى الفردي والمستوى الاجتماعي، وبدون مثل هذا التعامل والاتصال، فإن الانسان سيظل في معزل عن التحرك الحضاري، وسيظل على مستوى ادنى او متوقف عن النمو في عملية التطور بمضمونها النفسي والحضاري.

الفصل الثاني

ثنائية الجنس

* مقدمة
* ثنائية الجنس في القصص والاساطير
* الدلائل العلمية على ثنائية الجنس
  - الأدلة البايولوجية
  - البينات الطبية
  - بينات أخرى

ثنائية الجنس

(ثنائية الجنس) مفهوم قديم في تصورات الفكر الانساني عن اصل كل من الجنسين، غير ان هذا المفهوم قد برز مجدداً في العصر الحديث. واصبح مثاراً للجدل والاهتمام في السنوات الاخيرة لما يمكن ان يلقيه هذا المفهوم من ضوء على بعض الممارسات الجنسية والسلوكية في حياة البعض من الجيل المعاصر.

ان المفهوم المعاصر لمصطلح (ثنائية الجنس) ينبع من الملاحظة بأن بعض الافراد من الجنسين يتجه بميول رومانسية او جنسية، او بممارسات جنسية فعلية مع افراد من الجنسين. وتفسر هذه الميول والممارسات بأنها الدليل على الطبع الانساني، وبالتالي الأصول البايولوجية (بثنائية الجنس). والأخذ بهذا المفهوم لا يدلل بالضرورة على التساوي في طرفي هذه الثنائية، كما لا يعني التوجه نحو ممارستها بالفعل، فقد يظل الاتجاه كافياً في الشعور الواعي او غير الواعي، كما ان التعبير عنه ان حدث، فهو يحدث تبعاً للقوة النسبية للاتجاهين في هذه الثنائية.

ان هنالك من ينفي وجود الجنسية الثنائية، ومن العلماء من يفسر المظاهر السلوكية الثنائية بأنها حصيلة مؤثرات بيئية وحضارية واجتماعية، ولا اساس لها في طبيعة الانسان واصوله البايولوجية، ومع انه لا ينكر أن بعض المظاهر السلوكية للجنسين تحمل طابع المؤثرات البيئية والحضارية والاجتماعية، الا انه لا يمكن تفسير جميع انواع ودرجات السلوك الواردة في هذا المجال على هذا الاساس فقط، ولا بد لذلك من افتراض فعل بايولوجي يقرر السلوك او الاتجاه اليه. والتقدم بمثل هذا الافتراض هو من اقدم الافتراضات التي جالت في الفكر الانساني، ولا

غنى لذلك عن استعراض هذه الافتراضات القديم منها والحديث اذا ما اردنا التوصل الى فهم لهذا المصطلح والى تقدير لاصوله ومدى تفسيره للظواهر التي تنبىء عنه. وفي هذا الاستعراض سنتناول بالتتابع مفهوم ثنائية الجنس في القصص والاساطير القديمة، ثم البينات العلمية في المجال البايولوجي والنفسي، واخيراً الملاحظات السلوكية السريرية والتي تدلل على وجود هذه الثنائية.

(ثنائية الجنس) (في القصص والاساطير)

لا يمكن التوصل بدقة الى الزمان او المكان في عصور التاريخ السحيق الذي بدأ الانسان فيه بتأمل الاصول الاولى لوجوده، وايهما اسبق الذكر او الانثى في الخليقة... ولعل الانسان القديم قد وجد أن الحل الافضل لهذه المعضلة الجدلية هو الافتراض بأن الانسان الاول قد جمع في كيانه خصائص الجنسين، ويبدو هذا الافتراض واضحاً في مخلفات حضارية قديمة في بلدان عدة كالشرق الاوسط والصين وغيرها من البلدان التي تظهر بان شعوب هذه الحضارات قد جمعت الذكر والانثى في هوية ثنائية وفي جسد واحد وعبدتها كآلهة لها، مثال ذلك (استارتي Astarte)، وكانت انثى ملحاة، وعبدت في سوريا وفينيقيا. وفي بلاد ما بين الرافدين عبدت عشتار والتي صورت بأن لها بعض مظاهر الرجولة والانوثة في آن واحد. وفي غانا عبدت الألهة نيامي Nyame وهي ذات صفات مشتركة من الأنوثة والذكورة، وما زالت تعبد حتى الآن من بعض قبائل (الآكان Akan) في تلك البلاد.

وقد جسدت الاساطير اليونانية القديمة فرضية ثنائية الجنس بشكل ادق واكثر رومانسية وذلك بالأسطورة المعروفة باسطورة (هرم افروديتوس Hermaphroditus) والذي كان ابناً للالاهة (هيرميس Hermes) والربة افروديت. وكان هرم أفروديتوس شاباً في غاية الحسن، نصفه ذكر، ونصفه الآخر انثى. وطبقاً للأسطورة فان الحورية (سلمسيس Salmacis) هي التي كانت سبباً في (ثنائيته)، إذ انها وقعت في حبه عندما كان ذكراً، ومن فرط حبها له وخشيتها من فراقه، فقد طلبت من الآلهة ان لا تفرق عنه ابداً، فاستجابت لها بأن جمعت بين الاثنين في جسد واحد (نصفه ذكر ونصفه انثى)، وهذه الاسطورة تفسر اكتساب (الخنثى) وهو الذي له ما للذكر والأنثى، لمصطلح (هرم افروديت) الاسطورية. وقد خلد الاغريق مفهوم هذه الاسطورة في اعمالهم الفنية كالنحت، وفي آدابهم، ومن ذلك ما اشار اليه افلاطون في احدى محاوراته (السمبوزيوم Symposium) بقوله: «.. كان هنالك في الماضي ثلاثة أجناس، لا جنسين كما هو الآن ذكر وانثى، اما الثالث فقد اشترك في طبيعة الاثنين ثم اختفى، غير ان الاسم قد بقي، ويقول افلاطون على لسان، ارستوفانيس Aristophanes في المحاورة نفسها، بأن الانسان لم يخلق (خنثى) جنسياً فحسب، وانما كان انساناً (مزدوجاً) كلياً، وله اربعة أيد واربعة اقدام ووجهان، وكانت قواه الحسية والعضلية هائلة، وكان يتحرك بسرعة فائقة، ويدور على نفسه كبرميل مستدير، وكان يلاحظ كل شيء يتحرك حوله أو خلفه، وكان يرى ما هو امامه وخلفه في آن واحد. غير ان هذه القوة الخارقة له لم ترض الآلهة، وقضت بتكليف الأله ابولو ان يقطعه

الى نصفين، فقام ابولو بالمهمة الجراحية بدقة واتقان. وهنالك من يفسر اسطورة نارسيسوس (النرجس)، على اساس الهوية الجنسية الثنائية. ولبيان ذلك التفسير نذكر باختصار مضمون الأسطورة وتفسيرها التقليدي. فالاسطورة تروي قصة الحورية (ايكو= الصدى Echo) التي احبت الشاب نارسيسوس،غير انه اعرض عنها، والتمست الحورية من افروديت ان تثأر لها منه. وجاء الثأر بأن رأى نارسيسوس خياله في بركة ماء، فظنه وجه حورية في الماء، فأحب ما رأى، وانثنى على الماء ليمسك بها ويعانقها، غير انه اخفق في الوصول اليها، وفسر اخفاقه بانها كانت تعاني من الضيق، فراح يحاول انقاذها، فلم ينجح، وعاود الكرة مرات وبفشل مماثل، وظل يحاول الى ان تسرب اليأس في نفسه ومات حزناً عليها. ومن التفسيرات المعطاة للاسطورة أن نارسيسوس رأى في الماء انعكاس وجهه فوقع في حب نفسه، وهو حب لا وصل معه، وأن الاسطورة ترمز الى أن اليونانيين لم يؤمنوا بحب الفرد لنفسه، وبجدوى هذا الحب. غير أن (ميلاني كلاين) تجد في الاسطورة تفسيراً آخر وهي تعتقد أنه اقرب الى مغزى الاسطورة مما هو متداول، فهي تعتقد أن نارسيسوس وهو ينظر الى الماء، بدا وكأنه ينظر الى العالم الخارجي، بينما كان في الواقع يحدق في نفسه عندما عاين بدون وعي خيال المحبوب الذي عرفُ هويته به. وهكذا فان (ميلاني كلاين) تجد في الاسطورة رمزاً للهوية الثنائية للجنس، وهي نظرة ترى في هذه الحالة اساساً للحب. ومن التفسيرات لأسطورة ثنائية الجنس، هو التفسير الذي جاء به (يونغ) لاسطورة هوموفروديتوس، والذي ضمنه لتصوراته عن النماذج البدائية للانسان. ففي تصور (يونغ) ان عنصرين اساسيين يمثلان في هذا النموذج وهما (الانيموس Animus) (والانيما Anima)، فالانيموس هو الناحية الذكرية في الأنثى، والانيما هي الناحية الأنثوية في الذكر، وكلاهما يمثلان في نظره اعظم مصادر القوة في حياة كل من الجنسين. فالانيما في الرجل هي التي تدفعه الى البحث عن شريكته في الحب والتي تطابق الجزء الانثوي في نفسه، بينما الانيموس في الأنثى فانها تتوق الى العثور على نفسها الذكرية في الشخص الذي تحبه. ويرى يونغ في هاتين القوتين الأجزاء الخفية من جنس كل واحد منا، وأنهما يمثلان رمزاً للرغبات والمثل المشتركة بيننا جميعاً والتي لا تفنى ابداً. وقد رمز يونغ للانيما بـ (ايروس Eros) والذي عدّه جوهر الأنوثة، بينما رمز الى الانيموس بـ (لوجوس = العقل = المنطق Logos)، وعدَّه جوهر الرجولة. وفي التعاليم البوذية، فإن كل ذكر وانثى يحمل في نفسه أو نفسها مزيجاً من العناصر الذكرية والأنثوية. فالذكر هو ذكر فقط لأنَّ فيه الأكثر من عنصر الذكورة ومثل ذلك الأنثى. وهذه الذكورة والأنوثة يظلان في نزاع دائم ولا يمكن التناغم بينهما الا لفترة وجيزة اثناء اللقاء الجنسي بينهما وهي الفترة التي يحقق فيها الشريكان حالة المطلق، غير أن تحقيقُ ذلك أمر مستحيل الا إذا فقد الواحد منهما ذكراً او انثى وعيه لهويته الجنسية ووجد الهوية الأخرى.

ان ما نوهت به الاساطير وغيرها من الآثار القديمة تفيد كلها عن انشغال الانسان وحيرته في تأمل اصوله، ولكن ليس هنالك من دليل على ان القدامى سواءً في اساطيرهم او آثارهم الحضارية قد فسروا السلوك الانساني سواء في المجال الجنسي او غيره من المجالات على اساس من ثنائية الجنس في الفرد الواحد. واذا كان الجمع بين الجنسين في حب واحد هو بمثابة الحل

الأقصر للغز في أيهما الاسبق في الوجود، الذكر ام الانثى، فإن القرآن الكريم قد حل اللغز بصورة حاسمة بما بينه في انهما قد خلقا من نفس واحدة، وهو القول الذي قد بدأ يتأكد من الابحاث والملاحظات العلمية المعاصرة.

الدلائل العلمية لثنائية الجنس

كان العالم (دارون Darwin) اول من استعمل المصطلح (ثنائية الجنس Bisexuality) في كتابه (نزول الانسان) بقوله: «ان البداية السحيقة القدم للمملكة الحيوانية كلها تبدو أنها كائناً خنثى». وكان من رأي داروين ان الحلقة المفقودة في هذه الثنائية الجنسية هي الحيوان البحري (اسكيديان Ascidian)، وعدَّه الأصل الذي تطورت منه الحيوانات الفقرية. وقد كان لملاحظة (داروين) أثرها القوي في توجه اهتمام العديد من العلماء في النصف الثاني في القرن التاسع عشر الى بحث موضوع ثنائية الجنس. واشترك في هذا الاهتمام علماء من مجالات عدة منها البايولوجيا، والحيوان، وعلم النفس، واخصائي الحياة الجنسية. فالعالم النفسي (كايرنان Kiernan) (١٨٨٨) يقول في الموضوع: «ان اصول ثنائية الجنس في الأسلاف، كما تظهر في المخلفات الانثوية الباقية في جسم الذكر، فانه لا بد لها ان تسبب عودة وظيفية، ان لم تكن عضوية، اذا ما حدث اعتراض للمظاهر العقلية او الجسمية بسبب المرض او النقص الولادي. . . ويبدو اكيداً أن عقلاً انثوي الوظيفة يمكن له ان يحتل جسد الذكر، والعكس بالعكس». وبالنسبة للعالم الجنسي المشهور (كرافت ايبنج Kraft - Ebing)، فان ثنائية الجنس التكوينية تعطي افضل الحلول للغز الجنسية المثلية وغيرها من اشكال الخنثوية الجنسية النفسية. ويعطي ايبنج في كتابه «السايكوباثية الجنسية» وصف حالة المرأة التي اصابها تحول جنسي وهي في سن الثلاثين. ففي سنة ١٨٩١ بدأت المرأة المذكورة فجأة باظهار لحية، ونما الشعر بغزارة على بطنها وصدرها، كما طرأ تحول جذري على صوتها، اما مزاجها فاصبح انفصالياً وحاداً، واصبح سلوكها عدوانياً، كما ان اعضاءها التناسلية الخارجية اظهرت علامات تحول ذكري. وقد وجد ايبنج في هذه الحالة مثلاً لوجود (جنس آخر) يكمن في كل واحد منا وبأنه يمكن له ان يظهر في ظروف ملائمة. اما العالم الحيواني (كلاوس Claus) (١٨٩١)، فقد اكتشف ان بعض انواع الحيوانات المائية المعروفة بـ (كرستيزيا Crustacea) تعيش النصف الاول من حياتها ذكوراً، والنصف الثاني من حياتها إناثاً. ومما يجدر ذكره ان كلاوس كان استاذاً لفرويد وشجع فرويد على دراسة هذه الظاهرة.

ومن العلماء الذين ابدو اهتماماً بثنائية الجنس في القرن التاسع عشر هو العالم (فلايس Fliess)، وهو احد اصدقاء فرويد المقربين لفترة ما، وكان له تأثير عظيم عليّ بعض نواحي الفكر الفرويدي. وكان فلايس هو الذي اقنع فرويد بان جميع الناس (ثنائيو الجنس)، وبأن ذلك حقيقة فيزيولوجية، وبأن لهذه الحقيقة تأثيرها في تكوين الأمراض النفسية. فقد كان فلايس صاحب نظرية (الدورية) في الأنثى وفي الذكر. وبأن الدورة توجد في الجنسين، وبأن الجنين الانساني هو ثنائي الجنس في ادواره الاولى، وان ما يحدث بعد ذلك هو غلبة او تسلط طرف واحد من هذه الثنائية على الطرف الاخر، غير ان الطرف الآخر لا ينعدم كلياً بسبب هذه

السيطرة وانما يكبت، وهكذا فان اللاوعي يحوي في نواته الطرف الاضعف. وهو في كل انسان يتطابق مع الجنس الآخر، وهذا يعني بـان تغلب جنس الذكـر يؤدي الى كبت الجزء الانثـوي الضعيف في الفرد، والعكس بالعكس، وتظل قوته كامنـة في اللاوعي. وقـد وجد فـلايس في نظريته هذه ما يفسر له بعض الظواهر السلوكية. ومن ذلك تفسيـره للخنثى او الجنسي المثلي، بانها ضحايا اضطراب أو توقف في عملية النمو الجنسي، مما يؤدي الى الفشـل في كبت الاتجاه الجنيني نحو ثنائية الجنس. ومنه تفسيره للامراض النفسية بانها نتيجة تركيز الطاقة الجنسيـة في اللاوعي على الجنـس المماثل لجنسهم ـ فالذكر مثلاً، في لا وعيه للانثى والطاقة الجنسية المرتبطة بها تتوجه نحو الميل الى الذكر. واخيراً فان فلايس حاول تفسير مختلف حالات الأمراض النفسية بانها تعبير عن النهي عن دوافع جنسية معينة ـ مثل دوافع الجنسية المثلية، وكان هذا الرأي الاخير اهم المؤثرات على تفكير فرويد وفي تكوين نظريته التحليلية النفسية للأمراض النفسية. وقد جاء فلايس بملاحظات مثيرة لاثبات نظريته بأن ثنائية الجنس هي اسـاس الجنسية الانسـانية وبـأنها منبت الانفعالات البايولوجية النفسية. ومن هذه الملاحظات ان هنالك يومين هامين في الدورة الزمنية لكل ذكر وانثى وهما رقم ٢٨ و٢٣، وهما يمثلان بالتوالي دورة الانثى ودورة الذكر، وبأن هذين الرقمين يقرران مصيريهما ومصير ذريتهما، وبأن الدورتين توجدان في كل من الذكر والانثى بسبب الجنسية الثنائية الكامنة في كل منهما. ثم ملاحظته عن عدم التناسق بين الناحية اليسرى والناحية اليمنى من الجسم، فالناحية اليمنى في الجسم تمثل الجزء الذكري من الفرد، والنـاحية اليسرى تمثل الجزء الانثوي، ولـذلك فـان الواحـد منا يمتلك في جسده الخصائص الـذكريـة والانثوية. كما انه لاحظ في مؤلف له (١٩١٤) بان النـاحية اليمنى من الـوجه تـرتبط بذكـرية الانثى، والناحية اليسرى من الوجه بالانثوية للرجل. واعطى امثلة عن وجوده في عدد من المشاهير في عالم الابداع ممن برز فيهم الجانب الايسر من الوجه ومنهم مايكل انجلو وليوناردو دي فنشي، وشومان، وجيته، والاولان منهما كانا اعسرين. وقد دفعته هذه الملاحظات بان (ثنائية الجنس) هي اكثر وضـوحاً في الفنـانين، والاسـماء التي ذكرهـا، وغيرهـا، قد عـرف اصحابهـا بميولهم وممارساتهم الجنسية المزدوجة مع الذكور والاناث. كما استنتج من ذلك بأن اليد اليمنى تمثل النواحي الفعالة والعقلانية في الفرد، بينما اليد اليسرى تمثل النواحي الالهامية والخيالية في الشخصية وهي النواحي الأنثوية، والتي تعطي الفرد ابداعيته الفنية. ورأى في مراوحة الانسان بين المزاج الفعال والعقلاني وبين المزاج الخيالي والالهامي دليلاً على وجود وترين من المزاج في مـزاج واحد. ومن الذين تأثروا بنظرية فلايس عن ثنائية الجنس الفيلسوف (واينغر Weininger) (١٩٠٣) الذي جاء بآراء جريئة حول ثنائية الجنس، والتي يمكن متابعة اصولها الى آراء فلايس التي اوردناها. ومن آراء واينغر ان كل كائن انساني يتراوح بين الذكر والانثى، وبأن هذا التأرجح قد يكون كبيراً او صغيراً في بعض الافراد، غير انه يتفاوت الى حد كبير ايضاً في الفرد نفسه. فقد تكون المراوحة واسعة او قد تكون ضيقة احياناً، ولكنها موجودة دائماً، وعندما يكون التراوح كبيراً، فإنه يؤثر في مظهر الفرد (مثل تعابيره وايمـاآته)، كـما ان لهذا التـراوح أن يأخـذ شكلاً دوريـاً من حيث وضوحه ومواعيد ظهوره.

وبالنظر للصلة الوثيقة التي ربطت كلاً من فلايس وفرويد وبسبب تتلمذ فرويد على استاذه عالم الحيوان كلاوس، فان فرويد قد تهيأ لاعتناق فكرة ثنائية الجنس، وادرك لذلك بسرعة ما لمفهوم ثنائية الجنس من اهمية ودور في تكوين العقل الباطن، كما انه اعتمد الفكرة وكأنها حجر الزاوية في نظرياته التحليلية النفسية. ورأى في ثنائية الجنس القوة المحركة للحياة النفسية، وبانها تتحكم في كل من العقل والعواطف في حالات الصحة او المرض، وعدَّها عاملاً حاسماً في تكوين الاضطرابات النفسية والعاطفية، واكد على اهميتها الخاصة في نمو الحياة النفسية والجنسية للاطفال، وعدَّها على العموم العامل الحاسم، وهو يقول: «بدون أخذ الثنائية بعين الاعتبار، فاني لا اعتقد أن بالامكان ابداً فهم الظواهر الجنسية التي تلاحظ في الذكور والاناث». ومن تأمل هذه الآراء يتضح مبلغ تأثر فرويد بصديقه فلايس، وهو التأثير الذي حاول فرويد التنصل او التخفيف من الاقرار به، بالنظر لما تدين به آراؤه لآراء فلايس الرائدة والأصيلة عن اهمية ثنائية الجنس في الحياة النفسية والامراض النفسية.

ومن الذين عنوا بثنائية الجنس، (جورج جرودك Groddeck) الذي عاصر فرويد واتصل به، فهو ايضاً رأى بان ثنائية الجنس، هي الطريقة الطبيعية للحب، وبانها غير محددة بفترة الطفولة والبلوغ كما يتصور البعض، ويقول: «ان الانسان هو ثنائي الجنسية طوال حياته، ويبقى على هذا النحو، واقصى ما يستطيعه من التغيير، هو ان يوافق في فترة او اخرى من فترات حياته على التنازل، مطاوعة للقانون المعنوي السائد عندئذ، عن جزء ـ وهو جزء صغير جداً ـ من ثنائيته. وان يكبته، وفي فعله هذا فانه لا يفني هذه الثنائية، وانما يضيق من مداها، وكما انه ما من فرد هو جنسي مخالف (ميل نحو الجنس الاخر Hetrosexual)، فان ما من فرد هو ايضاً جنسي مثلي (ميل نحو نفس الجنس Homosexual) (١٩٢٣)». اما العالم الجنسي (هافلوك اليس)، فقد كان واثقاً من أن ثنائية الجنس هي حالة بايولوجية، غير انه لم يكن واثقاً من وجودها بالمعنى النفسي، وان كان مقتنعاً بنظريات فرويد عن الصلة بين ثنائية الجنس والامراض النفسية والعقلية. وقد رأى اليس أن اللواتي يمارسن اللسبية الجنسية (الجنسية المثلية بين الاناث) هن دائماً انات (مذكرات). ومما يجدر ذكره بان زوجته كانت واحدة منهن، وبانها كانت في غاية الذكاء، ولعله بسبب ذلك عدَّ اللسبيات من الاناث بأنهن اكثر ذكاءً ومقدرة ومجازفة واكثر حساسية جنسية من بقية النساء اللواتي لا تظهر عليهن ميول جنسية مثلية نحو اناث من جنسهن.

وتؤيد المحللة البايولوجية (ميلاني كلاين Melanie Klein) نظرية ثنائية الجنس، وتعتقد تبعاً لذلك أن خيالات الاطفال عن والديهم وهم في السنة الاولى من العمر تطابق الى حد ما صورة ارستوفانيس عن الانسان الخنث الاسطوري الرجل بثديين، والانثى بقضيب وكلاهما في عناق جنسي دائم. ومن هذا الحلم فان الطفل يوجه اهتمامه نحو الواحد أو الآخر من والديه بالتوالي. وفي بعض الاوقات الى الاثنين في آن واحد. وتبعاً لرأي كلاين ان ثنائية الجنس في هذه المرحلة المبكرة من الحياة هي بالتأكيد خنثية متكافئة Ambisexual. فعواطف الطفل من حب وغيرة وكراهية، تتوجه نحو الأم او نحو الاب تبعاً للموقف القائم في تلك اللحظة، وانتقالها من التوجه نحو الام الى الاب او بالعكس يظهر في نظر كلاين أن ثنائية الجنس هي امر طبيعي،

وبانها متكافئة الاتجاهين منذ وقت مبكر.

هذا ويمكن ايراد الكثير من اسماء العلماء والباحثين في امر ثنائية الجنس، مع آرائهم حول هذا الموضوع،وربما لا تخرج معظم هذه الآراء عما ذكرناه من آراء العلماء الـذين سبق ذكرهم، وهي في معظمها آراء نظرية وان بني بعضها على مـلاحظات بـايولـوجية او سـريريـة. غير ان افتراض ثنائية الجنس يحتاج الى ما يثبته من الواقع البايولوجي. فهل هنالك ما يثبت ذلك؟ هذا ما سنحاوله فيما يلي من البينات العلمية المعاصرة، وهي البينات التي لا يمكن اغفالها او اهمـال دلالاتها.

الأدلة البايولوجية

ان من اهم الـدلالات عـلى ثنـائيـة الجنس يـأتي من اكتشـاف الكـرومـوسـومـات الجنسية وهي X و Y. فالانثى تتكـون عندمـا يكون كـلٌ مـن كرومـوسومـات الجنس XX. والذكر يتكون عندما يكونِ واحد منها هو X والثاني هو Y. ولمدة شهرين تقريباً من حياة الجنين. فان للجنين الامكانية لأن يتـطور الى أي من الجنسين الـذكر او الانثى. وفي الاسبوع السابع من حياة الجنيـن الذي لم تتبلور بعد غدده الجنسيـة، فان هـذه الغدد تكوّن (قنوات ولفيان ومـوليريـان Wolffian and Müllerian ducts). ففي الجنين الـذي سينمو الى ذكر، فان القناة الاولى تنمو، والقناة الثانية تضمر، والعكس يحدث في الجنين الذي سينمو الى انثى. غير ان الضمور في الحالتين لا يكون كاملاً. وهذا الواقع يبقي بعض بقايا الجنس الآخر في كل جنس، فيظل (البظر Cliotoris) في الانثى، وتبقى غدة البروستات والثديين في الذكر. غـير ان التطور الحـاسم الى اي من الجنسين يحـدث في الشهر الثـالث. فافـرازات الخصيتـين ضرورية لتكوين الاعضاء الجنسية الذكرية، بينما افرازات المبيضين في الانثى غير ضرورية، مما يؤكد بأن الانثى هي الجنس الاكثر بدائية من الناحية البايولوجية. والبينة البايولوجية على الجنس الثنائي تأتي من حالات (الخنوثة الجسدية)، فاضافة الى المظاهر المشتركة الجسدية للذكر والانثى في الخنثى، فان الغدد الجنسية في الخنثى تحتوي على انسجة خصيوية وبويضية، كما ان هنالك درجات عدة من المشاركة في المظاهر، بعضها يتجه نحو غلبة مظاهر الذكر، وبعضها يميل نحو غلبة مظاهر الانثى..

والبينة البايولوجية الثالثة تأتي من فعل الجهاز الهرموني وتأثيره اثناء نمو الجنين وخلال فترة ما بعد الحمل Postnatal، فالهرمونات ذات أثر بيِّن في النمو، فهي اما توجهه وجهة طبيعية او غير طبيعية. ومع ان الفعل الكلي للهرمونات غـير مفهوم تمـاماً حتى الآن، غـير ان الافرازات الهرمونية للغدد الجنسية وغدد الأدرينال (الغدة الكـظرية Adrenal) والغـدة النخاميـة، فانها تلعب دوراً هـاماً في تقـرير التكـوين النفسي الجنسي للفرد. والمعـروف هو انْ الغـدد الجنسية (الخصيتين والبويضين) وغدة الادرينال، كلها تفرز هرموني الاندروجين والاستروجين. فالهرمون الاول مسؤول عن نمو العضلات، ونمو الشعر والدافع الجنسي في الذكر والانثى، بينما الثاني (الاستروجين) وهو الهرمون الانثوي (وان كان يوجد في الذكر ايضاً) فهو لا يلعب دورا هاما في

السلوك الجنسي للأنثى، غير ان له اثره الهام في عملية النمو الجنسي. وهكذا فلا بد لنا ان نجد في توافر الهرمونين في كل من الذكر والانثى، بأن ثنائية الجنس هي جزء من طبيعة الانسان، ولنا ان نفترض أن الاضطراب في مجال الجهاز الهرموني، وغلبة هرمون على آخر، ربما يحدث حالة من (الخنثى الكاذبة Pseudohermaphrodism)، وبدرجات متفاوتة من الشدة، وقد يصعب تشخيص الحالات الخفيفة منها. ومثل هذه الحالات قد تحدث بسبب نقص او زيادة طبيعية في احد الهرمونات، او بسبب العلاج الهرموني للأم الحامل. وهنالك امثلة عديدة على مظاهر الذكرية في الاناث من الاطفال المولودين لامهات تناولن هرمون البروجستيين لغرض منع الاجهاض، ومثل هذه النتيجة تحدث اذا ما اعطيت الأم اثناء الحمل الهرمونات الذكرية. وفي ابحاث حديثة تبين بأن الارهاق للمرأة الحامل يمكن له ان يقلل من انتاج الاندروجين عندها، وهذا يؤدي الى تأنيث الطفل الذكر.

والبينة البايولوجية الرابعة هي ما توصل اليه الباحثون في امريكاواوروباالغربية وروسيا من ان نواة الهابيوثالموس Hypothalamus في (الدماغ المتوسط) فيها المراكز الجنسية المحددة ذكراً او انثى، وبان هذه المراكز في بداية نمو الجنين غير مقررة ذكراً او انثى، وان هذا التقرير يحدث في مرحلة لاحقة من النمو. وحتى اذا ما حدث هذا التقرير فان بالامكان قلبه، اما بفعل الخصي او بفعل زرع مادة الغدد الجنسية الأنثوية في المركز الجنسي في متوسط الدماغ، او بحقن هرمون الأندروجين او الاستروجين. وكلها اجراءات يمكن ان تؤدي الى تأنيث الذكر. وقد قام احد العلماء (دورنر Dorner) (١٩٦٩) بتجارب على الجرذان البيضاء لاثبات هذه النظرية، وكانت النتيجة ان هذه الحيوانات قد ولدت ذكوراً تحول المركز الجنسي عندها الى مركز جنسي انثوي عند الولادة، واصبح سلوكها اما جنسياً مثلياً، او ثنائياً. ويعتقد دورنر بأن تجاربه على الحيوان تنطبق على الانسان ايضاً. وقد تأيدت ابحاث دورنر من ابحاث سريرية على الانسان قام بها علماء آخرون (ماسيا Maseia، وموني، وايرهارد) الذين افادوا بأن انماطاً معينة من الخلل الهرموني يمكن لها ان تؤثر في المراكز الجنسية في الهابيوثالموس بصورة دائمة. وهكذا فان اي اضطراب او نقص هرموني من الهرمونات ذات العلاقة بالحياة الجنسية يمكن له أن يؤدي الى تغيير في المراكز الخاصة التي تتحكم بحياتنا الجنسية من حيث الشكل او الممارسة او الميل.

ان هذه الحقائق العلمية وغيرها من البينات لا بد لها ان تفيد أن الحياة الجنسية للذكر والانثى تنبع في اصولها من وحدة واحدة، وأن هذه الوحدة تظهر في بداية حياة الجنين، ولكنها تتجه نحو الانفصال الى ذكر او انثى بحكم العوامل الوراثية وبفعل التوازن بين الهرمونات الجنسية من المصادر المختلفة. غير ان هذا الانفصال ربما لا يكون تاماً، وهو في اقل درجة من الانفصال في حالات (الخنثى)، ومنها قد يتدرج الى حدود يتعذر تفريقها في نهاية المطاف عن الانفصال الكامل الا بظهور او ورود بعض المظاهر الشعورية او السلوكية للفرد، مما يدلل على ان في الذكر ولو قليل من الانوثة، او بالعكس، واذا امكن قبول هذا الاساس البايولوجي لثنائية الجنسية، فان هذا يعني امكانية المشاركة بين الذكر والانثى في الفرد الواحد وبدرجات من المشاركة النسبية لا حد لها من التفاوت في درجة المشاركة.

البينات الطبية

ان اهم البينات الطبية بشأن ثنائية الجنس، هي تلك المستمكة من الواقع البايولوجي الذي يتميز به الخنثى، سواءً الخنثى الكامل الذي يجمع بين المظاهر الجنسية لكل من الجنسين بنسب متساوية او متقاربة، او في الدرجات المختلفة من الخنثوية التي تشترك فيها الانوثة والذكورة بدرجات متفاوتة من المساهمة البايولوجية. غير ان هنالك ملاحظات طبية اخرى تنوه بثنائية الجنس وبدون توافر قاعدة بايولوجية واضحة او يمكن اثباتها بطريقة علمية او اختيارية. ومعظم هذه الملاحظات مستمدة من الاستبيانات حول الميول الجنسية، والممارسات والانحرافات الجنسية، والتي يتعذر تفسيرها كلياً الا على اساس من توافر قدر من ثنائية الجنس في الافراد الذين يتجهون بميولهم او سلوكهم او ممارساتهم نحو فرد من نفس جنسهم اما كلياً او جزئياً.

يفيد كنزي في دراسته عن الحياة الجنسية عند الذكور (١٩٤٨) بان ٥٠٪ من الذين استبينت آراؤهم افادوا بان ممارساتهم الجنسية كانت مع فرد من الجنس الآخر (الجنس المخالف Hetrosexual) بصورة كلية، وان ٤٪ كانت ممارساتهم مع فرد منْ جنسهم كلياً (الجنسية المثلية)، اما الباقون وهم ٤٦٪ فقد افادوا بوقوع تجارب جنسية ثنائية مع الجنس الآخر ومع جنسهم. وفي دراسة لاحقة عن الحياة الجنسية عند الاناث افادت الدراسة بان ١٧٪ من الاناث غير المتزوجات كانت لهن تجارب جنسية ثنائية (١٩٥٣). وهذه النسب العالية، خاصة عند الذكور، للممارسات الجنسية الثنائية قد لا تمثل الحجم الطبيعي لثنائية الجنس، فالكثير من الممارسات الجنسية مع الجنس الآخر قد تقوم بالضرورة، وهي بذلك لا تعني ثنائية الجنس، كما ان هنالك الكثيرين من الناس ممن يحملون ميولاً جنسية مثلية او ثنائية لكنهم اما لا يمارسون ذلك او لا يبوحون بميولهم. لقد افادت دراسة استبيانية دقيقة قامت بها (شارلوت ولف Charlotte Wolff) (١٩٧٩) على مجموعة من الذكور والاناث في مراحل مختلفة مِن العمر، بأن ٢٠٪ من الذكور المشاركين في الدراسة ابدوا رغبة في ان يكونوا منتمين الى الجنس الآخر، بينما ابدت ٦,٧٪ من الاناث الرغبة بالانتماء الى الجنس الآخر. وافادت نفس الدراسة بأن ٢٩,٣٪ من الذكور المشاركين لهم ارتباطات ذات طابع جنسي مثلي، مقابل ٥٨٪ من الاناث، بينما افاد ٥٩٪ من الذكور بانشغال عاطفي غالب نحو جنسهم، مقابل ٨١,٣٪ من الاناث. وهذه الدراسة تبين بأن ثنائية الجنس هي اوسع في الناحية الشعورية منها في الممارسة الفعلية، وان هذا يبدو واضحاً في حياة الاناث اكثر منه في حياة الذكور.

وهنالك حالات الانحراف الجنسي التي يبدو فيها الفرد المنحرف مكتسباً للهوية الجنسية للجنس الآخر. وتبدو هذه الحالة بشكل خاص في انحرافات التلبس Transvestism، وفي الانحراف المعروف بالجنس المضاد Transexuality والتي يبدو فيها صاحب الحالة أنه روح الجنس الآخر في جسد جنسه (روح انثى في جسد ذكر، او روح ذكر في جسد انثى). وهي حالات يصعب تفسيرها كلياً بدون افتراض قدر من ثنائية الجنس.

ومن الابحاث الطبية الحديثة ما يؤيد الافتراض بان لكل واحد منا دماغين بدل دماغ واحد، الدماغ الأيمن والدماغ الايسر، ولكل وظيفته المتميزة عن الآخر. ويرى العلماء بأن سيطرة دماغ على آخر في الرأس الواحد ليست امراً يتقرر بان احدهما في اليمين والآخر في اليسار، وانما لان احدهما انثوي (اليسار) والدماغ الآخر ذكري (اليمين)، وان غلبة الواحد على الآخر تقرر غلبة الخصائص الانثوية او الخصائص الذكرية في الفرد مهما كان جنسه الفعلي. وهذا الافتراض ان صح، يتمشى مع ما اشرنا اليه سابقاً من ان الناحية اليسرى من الجسم، بما في ذلك الوجه والجسم واليد، تمثل الانثى، والناحية اليمنى منها تمثل الذكر.

بينات اخرى

هنالك بينات عديدة عن اصول ثنائية الجنس في الوجود الانساني غير ما افادت به الملاحظات العلمية البايولوجية او الطبية، وهي بينات تأتي من ملاحظة السلوك الانساني في الحياة اليومية. او من متابعة النشاط الانساني في بعض مجالات الخلق والابداع. فهنالك الكثير من المظاهر السلوكية من لباس او زينة او طريقة المشي او الحركة او الكلام مما يبدو واضحاً بأنه اقرب للجنس الآخر منه للجنس الفعلي للفرد. كما ان هنالك الكثير من مظاهر التعامل الحياتي بما في ذلك طبيعة العاطفة المرتبطة بهذا التعامل، مما ينوه بهوية جنسية فيها بعض الثنائية او حتى الغلبة لهوية الجنس المخالف لجنس الفرد. وهنالك امثلة كثيرة عن مبدعين ومبدعات في عالم الفن والادب ممن تتضح فيهم سمات ثنائية الجنس، ومن هؤلاء (صافو Sappho)، في الحضارة الاغريقية والكاتبة (ساكفيل وست Sackville West) (وفرجينيا ولف)Virginia Wolf والكاتب (سمرست موم Maughain)، (وفلوبر Flaubert) ودوستيوفسكي، وغيرهم من الفنانين والأدباء والذين استطاعوا ان يصوروا دقائق الحياة النفسية للجنس المخالف لهم. وهي المقدرة التي ربما لم تكن ممكنة لو انهم حملوا في ذاتهم هوية جنسية اخرى مخالفة لجنسهم الظاهر، ولو في عقولهم ومشاعرهم. وقد يكون ملائماً ان نقتطف الفقرة التالية من رسالة الكاتب الفرنسي المشهور فلوبير (مؤلف رواية مدام بوفاري)، والتي جاء وصفه الدقيق فيها لعشيقته (لويس كوليت Colet) بمثابة تأكيد على جنسيته الثنائية. ولعلها مثله كانت تتمتع بمثل هذه الجنسية. قال: «انك لست امرأة، وقد احببتك اعظم واعمق من حبي لنساء غيرك، لاني شعرت بأنك انثى اقل من الأخريات... تأملي هذا القول، وستجدين فيها اذا كنت مخطئاً.. اني تمنيت فقط لو بقينا جسمياً كما نحن على ان نكون روحاً واحدة. فعندما افكر بك كامرأة، فاني فقط اريد جسمك، انك تعلمين أن الحب ليس شهوة. وانما هو شيء اسمى، ويبدو لي ان هذه الرغبة للروح هي الجوهر الأساس للحياة، الحاجة الى ان يمد الانسان نفسه ويصبح اعظم. ان جميع المشاعر تمد من وجود الانسان، وبسبب ذلك فان الحرية هي امثل العواطف». ولعل العلاقة بين فلوبر وكوليت، وكلاهما ثنائي الجنس بشكل واضح، يسوغ القول الذي جاء به يونغ من ان هنالك اربعة اشخاص يشاركون في كل علاقة جنسية بين ذكر وانثى، وهم الذكر في الذكر مع الانثى في الانثى، والانثى في الذكر مع الذكر في الانثى، والانثى في الانثى مع الذكر في الذكر، والذكر في الانثى مع الانثى في الذكر. وقد يكون في هذا القول ما لا يصدق لاول

وهلة، غير ان تنوع الممارسات الجنسية وتنوع المشاعر المرتبطة بها يلقي الكثير من الضوء على هذا القول ويذهب الى تأكيده الى حد بعيد.

لسبب ما، عبر التاريخ القديم، اعتقد الانسان أن اصله الاول هو مزيج خنثوي من الذكر والانثى، وعبر عن تصوره وخلده في اساطيره وفنونه. وانسان العصر الحديث يبحث في هذه الاصول ويحاول اثباتها علمياً. ومنذ أن وضع داروين مصطلح ثنائية الجنس (١٨٦٨)، وبين الرأي بأن هذه الثنائية وحدها تستطيع تفسير بعض الخصائص الوراثية في كل من الذكر والانثى، فان الابحاث والنظريات ما زالت متواصلة لاثبات هذه الثنائية واعطائها اسساً علمية مقبولة. وقد تكون البينات الحالية كافية لاثبات هذا الاصل الثنائي من جوانبه الجسمية، غير أن اهمية الموضوع لا تكمن في اثبات الجانب الجسمي من هذه الثنائية بقدر ما تكمن في الثنائية العقلية والنفسية. فهذه الثنائية الاخيرة هي التي تعطي الفرد هويته الجنسية الفعلية وتعين قدر المشاركة بين عناصرها الذكرية او الانثوية وايهما الاكثر تغلباً، وبالتالي تقريراً لميوله واتجاهاته الجنسية. ومن الواضح ان اثبات هذه الهوية (العقلية والنفسية) لا يمكن التوصل اليها او نفيها، كما ان من غير الضروري ان تظهر من الممارسة التي يمكن لها التدليل على وجودها، فالكثيرون يشعرون بهويتهم الجنسية الثنائية دون ان يقوموا بممارستها بالفعل. فقد يعبر الفرد عن ذلك بميل او بممارسة او سلوك لا علاقة واضحة به مع النواحي الجنسية. ولكنه مع ذلك ينم عن هوية لا واعية من الثنائية الجنسية.

ان الجنسية الثنائية لا تفترض وجود فوارق عاطفية وعقلية محددة يتخذها الفرد دليلاً على هويته كذكر أو انثى، وانما تفترض وجود قاعدة مشتركة بين الجنسين وبدرجات متفاوتة من المشاركة، غير ان النمو الكامل للفرد هو ليس نمو احد طرفي هذه الشراكة وانما نمو الاثنين معاً، وحصيلة النمو في النهاية لا تتوفر في أي الجنسين هو الاكثر غلبة، الذكر او الانثى، وانما تتوافر في الاثنين معاً في ثنائية واحدة: الذكر والانثى، وهي الاكثر غلبة من اي من الجنسين كلاً بمفرده.

قد ينقضي وقت طويل قبل ان يستطيع العلم اثبات هذه الهوية الثنائية في حياة كل واحد منا، والى ان يصبح ذلك ممكناً، فان افتراض وجود هذه الثنائية لا يمكن دحضه لمجرد حرص الواحد منا على ان يكون واقعه الجنسي مطابقاً لواقعه الجسمي، وحتى بدون البينة العلمية، فان هنالك، كما بينا، نسبة غير قليلة من الذكور والاناث، ممن يتمنون العكس، وذلك في ان يكون واقعهم الجسمي مطابقاً لواقعهم النفسي.

الفصل الثالث

العلم والجنس

العلم والجنس

منذ فجر التاريخ وحتى زمن غير بعيد في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، تناول الباحثون في الامور الجنسية موضوع الجنس في ضوء التعاليم والمعتقدات الدينية التي يعتنقها المجتمع، او في ضوء التقاليد المرعية والمتعاقبة فيه. ومع ان هنالك شواهد كثيرة في التاريخ تفيد بخروج بعض الباحثين في هذه الامور عن القواعد الدينية والتقليدية، الا ان هذا الخروج في حينه لم يكوّن منعطفاً هاماً في تاريخ الحياة الجنسية للانسان، وظل الدين، وما تفرع عن اخلاقياته من عرف او قانون، هو القوة الغالبة والمسيطرة في تكوين المواقف الهامة نحو هذه الناحية الهامة والاساسية في حياة الانسان. ومع ان هذه القوة قد حفظت للجنس قدسيته واخلاقيته، وساعدت في الابقاء على ممارساته ضمن الحدود الطبيعية، الا انها في نفس الوقت قد دفعت بالممارسات الجنسية الطبيعية منها وغير الطبيعية الى مجال التكتم والتسرر، وبهذا فقد اكتسبت الحياة الجنسية مفهوماً اقرب ما يكون الى اللااخلاقية والادانة المعنوية، اضافة الى تعزيز حالة الجهل لحقائق هذه الناحية الهامة من حياتنا، وهي الحالة-التي ما زالت تميزها بالمقارنة مع ما ادركناه من تقدم عظيم في فهم النواحي الأخرى من حياتنا الانسانية والحياة بشكل عام.

ان من الصعب تعيين المكان والفترة الزمنية التي بدأ فيها التوجه الى تناول الامور الجنسية باسلوب ولغايات علمية. وقد قامت عبر العصور بعض الممارسات التي لم تخلُ من دلالة او نتائج علمية، ومن هذه الممارسات عمليات الختان والخصي وفض البكارة واستعمال الوسائط المثيرة، ومحاولات الزيادة او الانقاص من الشهوة او الاداء الجنسي بوسيلة او بأخرى، وجميع هذه الممارسات تدلل على سعي الانسان للسيطرة على حياته الجنسية في محاولة للحد من قوتها او

زيادتها أو تنويعها. ومع صعوبة او تعذر البحث في تاريخ الانسان في هذه الناحية لاسباب معنوية، الا اننا نجد الكثير من البينات التي تفيد بأن بعض مفكري الماضي قد امعنوا النظر في الناحيةِ الجنسية من جوانب علمية وتوصلوا الى بعض الآراء عن اهمية هذه الناحية في حياة الانسان، وعن الآثار التي يمكن ان تنجم عن حبس طاقتها أوالافراط في تصريفها.

ان لم يكن بالامكان معرفة نقطةَ الابتداء للتوجه العلمي نحو الامور الجنسية، فان مما لا شك فيه ان القرن التاسع عشر على الرغم مما عرف عنه من تزمت في الامور الجنسية، فانه يكون معلماً اساسياً في التاريخ العلمي للجنس. وقد حدث ذلك بنتيجة تظافر تيارات مختلفة من الفكر منها ما هو فلسفي ومنها ما هو بايولوجي ومنها ما هو نفسي او طبي. وقد كان من حصيلة فعل هذه التيارات وتفاعلها ان اخرجت حياتنا الجنسية من مجال الكتمان والتسرر الى مجال الافضاء والبحث. غير ان هذا الاخراج لم يأت الا بصورة تدريجية، وفي وجه تيارات معاكسة من التزمت والتحيز، والتي ما زالت فعالة حتى الآن في الكثير من البلدان والمجتمعات.

لعل الفيلسوف شوبنهور (١٧٨٨ - ١٨٦٠) هو اكثر الفلاسفة افصاحاً عن اهمية الحياة الجنسية في حياة الانسان وهو بالتالي اكثرهم اثراً في توجيه الانتباه إلى دراسة هذه الناحية على اسس علمية. ففي كتابه (العالم كارادة وفكرة)، اكد شوبنهور على النواحي غير الواعية وغير العقلانية للارادة. فهنالك في رأيه غريزتان وراء فعل الارادة، وهما غريزة البقاء وغريزة الجنس. وفي رأيه ان غريزة الجنس هي الاكثر اهمية من بين الغريزتين. ويقول: «ان الانسان هو تجسيد للغريزة الجنسية... ذلك انه يدين باصله الى عملية النكاح، وغاية أمانيه هي تلك العملية.. والفعل الجنسي هو الفكر الذي لا يتوقف لغير العفيف، وحلم اليقظة اللاارادي والمعاود للعفيف، ومفتاح كل ايماءة...». وابدى شوبنهور الرأي بأن عملية الكبت الجنسي قد تفضي الى حالة من الجنون. ان شوبنهور لم يكن سباقاً في تقدير اهمية الجنس في الحياة الانسانية، فمنذ القدم ورد الرأي الذي يؤكد هذه الاهمية، وبان الحب (الجنس) والجوع هما اهم قوتين في حياة الانسان. غير ان شوبنهور جاء بآرائه في الجنس في الوقت المناسب من تاريخ النهضة العلمية، كما انه اعطى الجنس فعلاً لا واعياً ولا ارادياً ويتعارض مع فعل العقل، وهو بذلك اسبق من فرويد وغيره في تعيين أثر الناحية الجنسية في حياتنا اللاواعية، فلا بد ان فرويد كان على علم بآراء شوبنهور وان كان قد نفى هذا العلم بها.

والبداية الثانية للتوجه العلمي نحو الجنس جاءت على يد العالم داروين، فقد كان اول من اكد على الاهمية البايولوجية لغريزتي البقاء والتكاثر، ووجد في هاتين الغريزتين الأساس الاولي للسلوك الحيواني. وقد ذهب داروين الى ابعد من ذلك، فهو قد اورد في كتابه المشهور (تحدر الانسان والاختيار فيما يتعلق بالجنس) أن الاختيار الجنسي يمكن له ان يتصرف، وهو يتصرف بالفعل، بصورة مستقلة عن مبدأ الاختيار الطبيعي. وبأن المحك النهائي للنجاح البايولوجي يكمن في التكاثر وليس في (بقاء الأفضل)، ذلك لان الأفضل اذا لم يستطع التكاثر، فانه لا فائدة منه لتطوير الصنف. ولعل من اهم ملاحظات داروين، والتي كان لها الاثر البعيد

على البحث في موضوع الانحراف الجنسي، هي الملاحظة بان ما من ناحية فيزيولوجية في الحيوان هي اكثر عرضة للتنوع من الناحية الايجابية (الجنسية)، وخاصة في الحيوانات التي ابعدت عن الحالات الطبيعية. وقد دفعت هذه الملاحظة العالم (البرت مول) الى ابداء الرأي بان التطور الحضاري قد ساهم الى حد بعيد في تكوين الانحراف في الانسان.

ومن هذه البدايات في المجال الفلسفي والبايولوجي، اتسع وتزايد الاهتمام بالموضوعات الجنسية خاصة في المجال الطبي والنفسي. ومن اشهر الذين توجهوا الى البحث الجدي في الموضوعات الجنسية، كرافت ابينج، والكسندر لكاسان، وتوماس كلوستون، وستانلي هول، وهافلوك الس، وفلايس، وكنج، والبرت مول، وايوان بلوخ، وماجنوس هيرشفيلد، ويولنبرج وغيرهم، غير ان اهمهم واكثرهم بعداً في التأثير على الحركة الجنسية ككل، هو سجموند فرويد. وقد اتخذت ابحاث هؤلاء وغيرهم نواحي مختلفة من الحياة الجنسية، منها ما يتعلق بالنواحي الفيزيولوجية، ومنها ما اتجه نحو الحياة الجنسية في الكائنات الحياتية. واتجه آخرون الى البحث في ادوار النمو الجنسي الطبيعي، او الى حالات الانحراف والشذوذ الجنسي، اما فرويد فقد اتجه الى دراسة العلاقة بين الجنس والحياة النفسية والعقلية للفرد واثر الكبت في تكوين الحالات المرضية.

لقد كان لجميع هذه الاتجاهات في البحث آثارها الايجابية في النظر الى الحياة الجنسية بروح من التجرد العلمي. وفي رفع البحث في اوجه هذه الحياة الى مستويات البحث العلمي في مجالات اخرى من المعرفة، غير ان هذه المحاولات العلمية لم تخل من نتائج سلبية، ذلك أن اقبال العلماء على البحث في هذا المجال الحساس، قد اثار معارضة شديدة في الأوساط العامة والخاصة، وحتى بين بعض العلماء، وهو الأمر الذي دفع الى المزيد من التحفظ والتزمت في النواحي الجنسية والعلائق الجنسية، وهذه النتيجة تمثل الخشية من ان يؤدي العلم الى استبدال الاخلاقيات الجنسية التقليدية من دينية واجتماعية ببدائل جديدة من التسامح العلمي. وقد ظل مثل هذا الصراع بين الانفتاح والانغلاق على النواحي الجنسية قائماً حتى منتصف هذا القرن، وهو المنعطف الزمني الذي يمثل بداية غلبة العلم على التحفظ.

لعل من اهم العوامل الفعالة في التوجه العلمي نحو الامور الجنسية في هذا القرن، قد جاء بنتيجة الأبحاث التي قام بها الدكتور كنزي في منتصف هذا القرن عن السلوك الجنسي للذكور والاناث. وقد كان لطريقته الجريئة في البحث، والنتائج التي تمخضت عنها، الأثر العظيم في التوجه الحثيث نحو البحث في هذا الموضوع المغلق تاريخياً، وفي ازالة الكثير من التحيز والتسرر في هذا الموضوع. ومع ان اهم ما يعرف به كنزي هو عن ابحاثه عن السلوك الجنسي وتنوعاته في الذكر والانثى، الا انه قام ببعض الابحاث الفيزيولوجية الخاصة بالعلاقات الجنسية، وهي الابحاث التي تابعها بالمشاركة كل من وليم ماسترز وفيرجينيا جونسون. وقد استطاع الأخيران التوصل الى اجابات ومعلومات هامة بشأن فيزيولوجية الجنس لم تكن تعرف في الماضي، وقد كان لنتائج ابحاثهما اهمية عظمى في فهم السلوك الجنسي الطبيعي والمنحرف، وفي

ايجاد الوسائل العلاجية الملائمة لحالات الاضطراب في السلوك الجنسي، سواءً كان ذلك بالطرق الطبية او الجراحية او النفسية أو السلوكية.

قد يبدو للمتتبع للأبحاث العلمية المختلفة في الحياة الجنسية أن هذه الابحاث قد سلبت الحياة الجنسية بعض قدسيتها التقليدية، وهي القدسية التي ارتبطت بالخصوصية والكتمان عبر العصور، غير ان هذا الأمر ان حدث بالفعل فانه اقل خطراً على الحياة الانسانية واقل تسبيباً للمعاناة من الابقاء على هذه الناحية الهامة في حياتنا بصورة مغلقة، لما في هذا الغلق من خطر ومعاناة وسوء فهم لطبيعة الانسان وقيم الحياة الانسانية، ومحل الحياة الجنسية من هذه الطبيعة وهذه القيم. ومع أن الأبحاث العلمية ما زالت متواصلة، وربما لن تنتهي في هذا الموضوع الهام والمرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياتنا الجسمية والنفسية وبأوجه نشاطاتنا الحياتية المختلفة، الا ان ما كشف من اسرارها العلمية حتى الآن لم يقلل، بل ربما زاد في سعادة الانسان وبمتعته وفي استخدامه لطاقاته الكامنة بفعالية اعظم واكثر جدوى في سبيل تحقيق ذاته.

الفصل الرابع

الهرمونات والجنس

* مقدمة
* الهرمونات وتكوين الهوية الجنسية
* الهرمونات والسلوك الجنسي
* تأثير هرمونات الأندروجين على السلوك الجنسي
* اثر التجربة النفسية على الأندروجين

الهرمونات والجنس

منذ بداية اكتشاف الهرمونات وحتى الآن، وهنالك اهتمام عظيم بهذه المواد ومدى علاقتها بحياتنا الجنسية. ويتضح هذا الاهتمام بوجه خاص عند اضطراب الحياة الجنسية، وعندما يتوجه الأمل الى الهرمونات لتكون وسيلة علاجية، وهذا ما يحدث عادة في الاضطرابات الجنسية عند الذكور. لقد مرت فترات ساد فيها الاعتقاد باهمية هذه المواد في الحياة الجنسية مما ادى الى التوسع في استعمالها، وقد انجلت هذه الفترات الطويلة من الاستعمال عن موقف اقل حماساً واكثر تحفظاً في استعمالها، وهو الموقف الذي يسود الآن الاوساط العلمية والمعنية بهذه الناحية من حياتنا. ومع هذا التحفظ بشأن الهرمونات واثرها في الحيلة الجنسية، فليس هنالك من شك في أن هذه المواد ذات اثر على قوة الدافع والأداء الجنسي، كما ان لها آثاراً اخرى على السلوك بصورة عامة، وعلى تكوين الهوية الجنسية في الجنين وما لذلك من تأثير على المظاهر الجسمية والسمات النفسية والسلوكية للفرد في ادوار لاحقة من الحياة بعد الولادة. وهذا الجانب من تأثير الهرمونات على السلوك الجنسي والعام عند الفرد له جانب مقابل وهو تأثير تجربة الفرد، والعامل النفسي بوجه خاص في هذه التجربة، على مستوى الهرمونات الجنسية، وبالتالي على مستوى فعاليتها.

هنالك العديد من الهرمونات ذات العلاقة بالنواحي الجنسية عند الذكر والانثى وتتم هذه العلاقة بينها على مستويات ثلاثة، اولها وثانيها في الدماغ، وثالثها في الغدد الجنسية في الجسم. فالمستوى الاول هو نواة الهابيوثالموس Hypothalamus في الدماغ، وهي النواة التي تفرز مادتين

كيمياويتين يعرفان على التوالي FSH - RF وLH - RF. وكلتاهما تؤثران في الغدة النخامية في الدماغ، وذلك بحفز هذه الغدة على اطلاق هرمونين. الاول يدعى بـ هرمون (LH)، وهو خاص بالانثى ووظيفته لوتينية (يمكن البويضة من الانبثاق من غلافها)، والآخر خاص بالذكور ويدعى (ICSH)، وهذان الهرمونان ينشطان الغدد الجنسية في الذكر (الخصيتين) وفي الانثى (المبيضين) لافراز الهرمونات الجنسية. فالغدد الذكرية تنتج هرمون الاندروجين بصورة غالبة، والغدد الانثوية تنتج هرمون الاستروجين والبروجيستيرون بصورة غالبة. غير ان كل جنس، من ذكر او انثى ينتج ايضاً مقادير قليلة من الهرمون الذي يتوافر بصورة غالبة في الجنس الآخر. ويضاف لذلك ان غدة السوبرارينال (الكظرية)، تنتج مقادير اضافية من هرمون الاندروجين (الذكري) في كل من الذكر او الانثى.

من هذا العرض يتبين أن هنالك عدة حلقات متواصلة من التأثير على مقادير الهرمونات الجنسية في كل من الجنسين، وأن الاضطراب او العطل في أي حلقة منها قد يؤدي الى اضطراب مناسب في النواحي الجنسية، كما يتضح أن للمؤثرات النفسية والعصبية فعلاً هاماً على تنظيم الهرمونات الجنسية وفعاليتها، ذلك لان غدة الهابيوثالموس، وعن طريقها الغدة النخامية، لها صلة وثيقة بالمراكز العصبية العليا من فكرية او عاطفية. والحقيقة الثالثة التي يستفاد منها، هي أن كل جنس من ذكر او انثى، يحمل مقادير قليلة من الهرمون الذي يحمله الجنس المخالف بصورة غالبة، ومصدر هذه المقادير، وخاصة في الانثى، يأتي في معظمه من غدة السوبرارينال (الكظرية)، وفيما يلي مختصر لنواحي العلاقة المختلفة بين الهرمونات الجنسية وبين الحياة الجنسية، وهي تقع في المجالات التالية:

(١) علاقتها بتكوين الهوية الجنسية من ملامح جسمية وخصائص نفسية.
(٢) علاقتها بالدافع والاداء الجنسي في الكبر.
(٣) أثرها على السلوك اللاجنسي للفرد.

الهرمونات وتكوين الهوية الجنسية

تصنيف الجنس الى ذكر او انثى، وتكوين الهوية الجنسية، وهي الهوية التي يشعر بها الفرد في نفسه عن اتجاهه الجنسي، هي عملية معقدة ومتواصلة وتلعب فيها الهرمونات دوراً هاماً. والنظرية التي يؤخذ بها الآن هو ان الفعل الأول في تقرير الجنس الى ذكر او انثى يأتي عن طريق الكروموسومات X وY في (البيضة الملقحة Zygote) الجنينية، وهذه الكروموسومات تقرر فيما اذا كانت الغدد الجنسية غير المتفرقة ستكون مبيضاً او خصية. وحالما يتم التفريق، فان هذه الغدد تلتقط البرمجة المناسبة للنمو، فاذا كانت الغدد مبيضية البرمجة، اتجه النمو نحو الانوثة، واذا كان خصوية، اتجه نحو الذكورة، وفي هذه الحالة الاخيرة فان الغدد تفرز هرمون الأندروجين، والذي يذكر جسم الجنين، والا ظل هذا الجسم انثوياً في تكوينه بدون فعل هذا الهرمون. وعلى هذا فان الهرمونات تؤثر على نمو واداء الاعضاء الجنسية، وعلى تكوين الخصائص الجنسية الثانوية لكل من الجنسين. وهنالك الى جانب هذا التأثير، تأثيراً آخر على دماغ الجنين، وخاصة على نواة

الهايبوثالموس، والمنطقة الحافية (اللمبية). وهذا التأثير اذا جاء في الوقت الحاسم فانه يذكر او يؤنث الجنين تبعاً لذلك، فيأتي المولود في بعض خصائصه النفسية والسلوكية اما بخصائص ذكرية أو انثوية.

والهرمون الاعظم اثراً في تكوين هذه الهوية الدماغية هو هرمون الاندروجين، والذي اذا كثر دفع الى اتجاه ذكري، واذا قل دفع الى اتجاه انثوي،واذا انعدم كلياً فان الجنين يصبح من الناحية الجسمية انثى كلياً. هذا وقد لا تظهر بوادر هذا الأثر الا في وقتٌ لاحق من حداثة الفرد وبلوغه سن الرشد. ومما تجدر الاشارة اليه هو أن بعض الحيوانات كالقردة، اذا ما اعطيت هرمون الاندروجين اثناء الحمل، فان المولودة الانثى تنمو لتصبح مذكرة في سلوكها الجنسي، كما انها تصبح اكثر حركة وعتفاً ومنافسة. اما في الانسان، فان الملاحظ بانه بدون هرمون الاندروجين، فان جميع الأجنة تصبح من ناحية التكوين الجسمي اناثاً، كما ان سلوكها فيما بعد يصبح سلوكاً انثوياً، ومثل ذلك يحدث اذا لم يكن هرمون الأندروجين متوافراً في الاوقات الحاسمة للتفريق الى ذكر او انثى. غير ان فعل الهرمون في تقرير الهوية الجنسية الكاملة للفرد ليس فعلاً كاملاً كما هو الحال عند القردة، ذلك لأن للعائلة وللحضارة التي يعيش فيها المولود فعلاً هاماً في تكوين الهوية الجنسية، وهذا الفعل يتكون بصورة اكثر وضوحاً عند بلوغ الطفل او الطفلة سن الثامن عشر شهراً.

وهنالك افتراض بأن توافر مقادير أقل من المعتاد من هرمون الاندروجين أثناء نمو الجنين له ان يؤدي الى الاتجاه نحو نشوء خصائص انثوية في السلوك، فيأتي الطفل هادئاً ولطيفاً وكارهاً للعنف والى دفعه نحو سلوك سلبي مع افراد عائلته، وخاصة الأب، وهو الأمر الذي يهيئه الى الاتجاه نحو السلوك الجنسي المثلي، ويكون دوره فيه سلبياً. وهنالك نظرية اخرى جاء بها (الدكتور انجبورج Ingeborg) ومفادها ان اجهاد الأم اثناء الحمل قد يؤدي الى التقليل من خصائص الذكورة في الطفل الذكر، وذلك لأن الاجهاد يسبب افراز هرمون اندروستنديون Androstendione من غدة السوبرارينال، وهذا الهرمون له صفات غير كاملة لصفات التستسترون. ويمكن له ان يمنع من تذكير دماغ الجنين الذكر.

اثر الهرمونات على السلوك الجنسي (الدافع والاداء الجنسي)

لهرمونات الاندروجين تأثير هام على الدافع والاداء الجنسي. ويبدو ان هذا الفعل فعل متخصص، فتوافر الهرمون يزيد في الدافع الجنسي لكل من الذكر والانثى، ونقصه، وخاصة في الذكر، يؤدي الى انقاص هذا الدافع. ويفسر فعل الهرمون بأنه يحدث بسبب تأثيره المنشط على المراكز الجنسية في الدماغ. اما في الذكور فان نقص هرمون التستسترون الذي يحدث بالخصي او بسبب الاستئصال الجراحي او المرضي للخصيتين او لأسباب اخرى، فان من نتائجه أن الذكر يفقد تدريجياً وبسرعة الاهتمام بالامور الجنسية، كما انه يفقد المقدرة على الانتصاب، ومثل ذلك يحدث اذا ما اعطي الفرد علاجاً مضاداً في فعله لفعل هرمون الاندروجين، فاعطاء مركب سايبروتيرون Cyproterone ، كعلاج لحالات الشبق القسري الجنسي، يؤدي الى خسارة الفرد السريعة لطاقته الجنسية، ومثل ذلك يحدث عند اعطاء هرمون الأستروجين لعلاج بعض أمراض

الجهاز البولي، ذلك لأن زيادة هذا الهرمون تؤدي الى اخلال للنسبة بين الأندروجين والاستروجين. أما في الاناث، فان اثر الاندروجين يشبه الى حد ما أثره في الذكور، ذلك ان توافره، له ان يكوّن فعلاً منشطاً للدافع الجنسي في الاحوال الاعتيادية، وفعلاً مقوياً في حالات قلة الدافع الجنسي وضعفه. والملاحظ أن الانثى التي حرمت من مصادر الأندروجين الطبيعية بسبب استئصال المبيض او غدة السوبرارينال (الكظرية)، فانها تفقد دوافعها الجنسية، وتتوقف عن الأحلام والخيالات الجنسية ويتعذر اثارتها جنسياً بما كان يثيرها في السابق، غير انها اذا اعطيت اندروجين التستسترون لأغراض طبية، فانها تصبح اكثر حزماً واكثر استثارة بالجنس، ولهذا الفعل ان يكون مفيداً في علاج حالات البرودة الجنسية في الانثى لولا ما يمكن ان يسببه استعمال التستسترون في الأنثى من مظاهر الذكور، كنمو الشعر واختلاف نبرة الصوت. وفيما يلي خلاصة لما هو معروف حالياً من علاقة بين الهرمونات الجنسية والسلوك الجنسي في كلا الجنسين.

(١) ان اهمية الهرمونات الجنسية في عملية النمو والنضج الجنسي هي اهمية لا جدال فيها، غير ان اهمية هذه الهرمونات على السلوك الجنسي في الكبر لكل من الجنسين، فانها اهمية غير واضحة حتى الآن.

(٢) ان الاضطرابات أو الأمراض التي تصيب الغدة النخامية او السوبرارينال (الكظرية) او الغدد الجنسية، لها ان تؤدي الى ضعف في الاستثارة والدافع الجنسي عند كل من الذكر او الانثى. وفي حالة الذكر فانها تؤدي الى نشوء العنة (العجز الجنسي).

(٣) الخصيتان في الذكر هما المصدر الأهم لهرمون الأندروجين، واستئصال الخصيتين في الذكور لا يؤدي بالضرورة الى فقدان الدافع الجنسي او المقدرة على الانتصاب، كما ان العلاج بهرمون الاندروجين لا يحدث فائدة عظيمة في حالات العنة.

(٤) ان توافر حد ادنى من هرمون الأندروجين يبدو ضرورياً في الذكر لاثارة الدافع الجنسي والاستجابات الجنسية، وما يزيد على هذا الحد الأدنى فان المؤثرات الهرمونية هي عديمة الأثر في التأثير على السلوك الجنسي وفي علاج الاضطرابات الجنسية.

(٥) ليس هنالك من برهان على ان الهرمونات الانثوية الغالبة وهي (الاستروجين والبروجستيرون Oestrogen and Progesterone)، لها أي اثر هام على السلوك الجنسي في الانثى، فاستئصال المبيضين مثلاً لا يصاحبه عادة أي نقص في الدافع الجنسي عند الانثى، الا ان هنالك اثراً اعظم لنقص الهرمون الذكري (الأندروجين) عند الانثى، واكثر مصادر هذا الهرمون هو من غدة السوبرارنيال فاذا ما استؤصلت هذه الغدة مثلاً فان الاندروجين ينعدم تقريباً عند الانثى، ويصاحب ذلك نقص في الدافع الجنسي والاستثارة الجنسية عندها ومثل هذه الحالة تستجيب عادة للعلاج بهرمون الاندروجين. والمعروف ايضاً ان نقص الاستروجين عند الانثى له ان يؤدي الى ضمور الفرج.

تأثير هرمونات الاندروجين على السلوك غير الجنسي

لهرمون الاندروجين تأثير هام على السلوك يتجاوز تأثيره المتخصص باثارة الرغبة الجنسية وتهيئة المحيط الكيمياوي الضروري لتأدية الوظائف الطبيعية اللازمة للاستجابات الجنسية. ومن هذه المؤثرات اللاجنسية لتوافر الاندروجين هي: زيادة الشهية للطعام وتنمية قوة عضلية اعظم والدفع الى نشاط اكبر، والى تنافس اكثر، وفي المراهقين الى اتجاه عدواني وجامح. اما في حالة قلة الاندروجين، فان العكس يحدث تماماً اضافة الى ميل الفرد نحو المظاهر النفسية التي تتصف بها الام عادة.

اثر التجربة النفسية على الاندروجين

كما ان لمستوى الاندروجين ان يؤثر في سلوك الفرد وفي شعوره النفسي، فان للتجربة النفسية ان تؤثر على مستوى الاندروجين في الجسم فتزيد او تقلل من مستواه مع ما يمكن ان ينجم عن هذا التغيير في المستوى من آثار ثانوية. والملاحظ في هذه الشأن هو أن تعرض الفرد الى فرص جنسية جذابة او الى اثارات جنسية، فان ذلك يؤدي الى زيادة مستوى هرمون التستسترون في دم الذكر. وعلى العكس فان تعرض الفرد الى تجربة حياتية تسبب الكآبة او الفشل او الاذلال فان لذلك التعرض ان يؤدي الى انقاص مستوى التستسترون في الدم. وهو ما يحدث ايضاً في حالات الاجهاد النفسي المزمن. اما في الانثى فان تأثير الارهاق النفسي على مستوى هرموناتها فهو اثر غير واضح كلياً حتى الآن. وان كان لذلك أن يحدث اضطراباً في دورة الحيض من حيث زمن الحيض ومدته وطبيعته.

الفصل الخامس

الحياة الجنسية للأطفال

* المقدمة
* فرويد وادوار النمو الجنسي
  ١ ـ الدور الفوهي
  ٢ ـ الدور الشرجي
  ٣ ـ الدور القضيبي
  ٤ ـ دور الكمون
  ٥ ـ دور البلوغ
* الجنس والحياة النفسية للطفل
  مركب اوديبوس
  مركب الكترا
  الاهمية النفسية لموكب اوديبوس
* المعارضة لنظريات فرويد
* فهمنا الحاضر للجنسية الطفولية
* بداية الحياة الجنسية
* الاستفاقة الجنسية
* الذروة الجنسية عند الاطفال
* الاستمناء عند الاطفال
* الأساس البايولوجي للجنس عند الاطفال
* الجنسية المثلية عند الاطفال
* خلاصة وتعليق.

الحياة الجنسية للاطفال

مالت المجتمعات المختلفة عبر عصور التاريخ الى انكار وجود الحياة الجنسية عند الاطفال، وتبعاً لذلك فقد نظر الى بعض المظاهر الجنسية في سلوك الاطفال على انها انحراف وخروج على قواعد التربية والأخلاق. هذا وما زالت مثل هذه النظرة سائدة الى حد ما في الكثير من الحضارات على الرغم من الدراسات والابحاث العديدة والمتواصلة في هذا الموضوع خلال المئة سنة الاخيرة والتي تفيد عن الحياة الجنسية عند الاطفال بما يدحض الاعتقاد التقليدي أن الحياة الجنسية تبدأ عند البلوغ. ولعل اهم ما افادت به الأبحاث والملاحظات المختلفة في هذا الموضوع هو: (اولاً) ان الحياة الجنسية لا تبدأ عند البلوغ، وانما تبدأ وبمظاهرة بسيطة بعد الولادة بقليل. (ثانياً) ان من الضروري ان نفرق بدقة بين ما هو (جنسي Sexual) وبين ما هو (تناسلي Genital). فالاول يشمل مفهوماً اوسع، ويتضمن الكثير من النشاطات التي لا علاقة لها بالاعضاء الجنسية (التناسلية). و(ثالثاً) ان الحياة الجنسية تتضمن عملية الحصول على اللذة في مناطق متعددة من الجسم، او ما يسمى بمناطق الشهوة Erotogenic Zones، وهي عملية توضع في المستقبل في خدمة التناسل. والعمليتان، عملية الحصول على اللذة وعملية التناسل، كثيراً ما يحدث الفشل في التوافق الكامل بينهما.

ان قصة الوصول الى هذه الحقائق الثلاث التي يؤمن بها العَلم المعاصر، هي قصة طويلة وطريفة وقد كتبت فصولها تباعاً خلال اكثر من مئة عام، وهي قصة مليئة بالجدل حول الادعاء بالاسبقية في اكتشاف الجنسية الطفولية، وبجدل مماثل، وان كان اكثر حدة، حول وجود الجنس عند الاطفال او عدم وجوده، وحول اهمية التجارب الجنسية في الاطفال في تكوين الاضطرابات

النفسية في الكبر. ونحن نجد حتى هذا اليوم بعض آثار نار الجدل الطويل حامية حتى الآن.

* *

يرتبط موضوع الجنس عند الاطفال باسم فرويد والى حد يظن فيه بأن فرويد هو اول من جاهر بالرأي بوجود الجنسية الطفولية. وقد اراد فرويد لنفسه مثل هذا السبق، خاصة وان الجنسية الطفولية وكبتها تكون حجر الزاوية في مدرسته التحليلية وفي نظرياته الخاصة بالكبت واللاوعي والتعبير عن التجارب المكبوتة (المركبات او العقد) بصور رمزية بما في ذلك الصور المرضية النفسية. وقد حاول فرويد انتزاع الاولوية ممن سبقه الى مثل آرائه، كما انه حاول التقليل من شأنهم بوسائل مختلفة. غير ان الحقائق التاريخية قد وضعت الامور في نصابها. وان كان الكثيرون، حتى في المجال الطبي والنفسي، يعتقدون أسبقية فرويد في هذا الشأن.

ربما كان ايرازموس داروين، جد العالم المشهور داروين صاحب نظريات النشوء والارتقاء، هو اول من بيّن بوضوح ملاحظاته عن الجنس عند الاطفال، وذلك في قوله بان احساس الطفل الرضيع باللذة اثناء رضاعه من ثدي امه يجد تعبيراً واضحاً عنه في المستقبل في السعي العظيم للانسان نحو الجمالية. وهو في ذلك قد سبق حفيده داروين الذي لاحظ ابنه ملاحظة دقيقة وهو يرضع من ثُدي امه. ففي سن السبعة اسابيع رأى داروين ابتسامة الرضا في طفله، وعيونه السابحة وهو يمتص الثدي. وقد اقنعته الملاحظة بان الاطفال قادرون حقاً على الحصول على تجربة (الشهوة) في هذه السن المبكرة (داروين ١٨٧٧). وقد تلا داروين كثيرون من العلماء في الملاحظة ودراسة الجنس عند الاطفال ومن هؤلاء العالم المشهور في الامور الجنسية (كرافت ابينج Kraft - Ebing) وبلوخ، ومواينرت، وشامبارد، وشاركو، وهافلوك اليس. ولعل اهم هؤلاء الباحثين واكثرهم تأثيراً على فرويد هما العالمان فلايس Fliess، ومول Moll، على الرغم من محاولة فرويد انكاره لهذا التأثير. هذا وقد لخص الكاتب (كيرن ـ ١٩٧٣)، الموقف بقوله: «ان كل عنصر تقريباً في نظرية فرويد عن جنسية الاطفال قد كان متوقعاً بدقة، او انه قد نوه عنه بشكل ما او اوحى به قبل فرويد».

يقول فلايس Fliess، وهو صديق وزميل لفرويد، وتعادى معه فيما بعد بسبب قناعته بعدم امانة فرويد العلمية : «اريد ان اشير الى ان حركات المص التي يقوم بها الأطفال الصغار بشفاههم والسنتهم في ايام دورية. . . بما في ذلك مص الابهام، فانه يجب اعتبار هذه الحركات مساوية للاستمناء. . . كما ان هذه الحركات يمكن لها ان تسبب العصاب والنحول. . .». وبذلك يكون فلايس قد لاحظ المدلول الجنسي للفم. وادرك بان مثل هذه التجربة يمكن لها ان تسبب نتائج نفسية، ويكون بذلك قد نسبق فرويد في هذا الادراك. كما ان فلايس قد ربط بين الاعضاء الافرازية وبين التعبير عن الجنس في الاطفال الصغار، فهو يلاحظ بان سلس الميول في الاطفال يظهر على فترات. وهو يعدّ هذه الظاهرة تعبيراً عن الحالة الجنسية عند الطفل، وهي ظاهرة لا بد انها لوحظت في الماضي من حيث ارتباطها بالعمليات الجنسية. وقد كان لهذه الملاحظة ايضاً تأثيرها على فرويد عندما قام بتحليل حالات سلس البول. وكان من آراء فلايس

ان النمو الجنسي يأتي على شكل دفعات أو موجات متلاحقة من الدفع او التدفق. ومن ان تجمع الطاقات عن طريق النمو الفيزيولوجي، تمكن الكائن الانساني من ان يصبح في موقف يمكنه عند البلوغ وبعده، من صرفها فيما يحقق حفظ الجنس، كما انه كان يرى أن القوى الغريزية الجنسية قد قرر لها ان تجمع وتخزن حتى تخدم بعد البلوغ غرض تحقيق غايات حضارية عظيمة. ومن الوقائع الهامة التي نشرها فلايس لاثبات الجنسية الطفولية وآثارها النفسية حالة الطفل (فريتز Fritz). فقد كان الطفل المذكور، وهو دون الرابعة، تحت عناية فلايس الطبية (عام ١٨٩٥). وأفاد التاريخ الطبي للطفل بانه في وقت يقارب ميلاده الثالث، لاحظت مربيته بأن الطفل قد ابدى اهتماماً مبكراً بالجسم العاري للمرأة. وبان اهتمامه قد اقترن بشعور عميق من العار في ساعات اليقظة. وقد افادت بانه في الليل كان يعاني من نوبات متكررة من القلق والبكاء والهلوسة. وهي نوبات تم انتصاب قضيب الطفل اثناءها، مما ينوه بمدلولاتها الجنسية. فالشهوة الجنسية المثارة، وما يليها من فشل التحقيق، وما ينجم عن ذلك من قلق، بعضه بسبب الفشل، وبعضه بسبب الشعور بالعيب، فانها كلها تكون سلسلة واضحة من السبب والنتيجة. واخيراً فان فلايس قد نظر الى الجنسية الطفولية بانها طاقة بايولوجية تأتي بشكل (دوري) ومتذبذب، وهي النظرية التي كان لها تأثيرٌ حاسمٌ على نظرية فرويد عن ادوار النمو الجنسي النفسي في الاطفال.

والتأثير الهام الثاني الذي وقع على فرويد، قد جاء ايضاً من احد اصدقائه ومعاصريه العالم مول والذي لم يؤمن كثيراً بالآراء التحليلية النفسية لفرويد، وهو الامر الذي اثار حفيظة فرويد وسبب قطيعة بينهما. ولعل مرد هذه القطيعة هو شعور فرويد بأن مول قد سبقه الرأي حول الجنسية الطفولية. ومن آراء مول Moll (١٨٩٧)، رأيه بان معظم مظاهر العبث الجنسي في الاطفال يجب ان ينظر اليها بوصفها اعداداً تكيفياً اولياً للممارسة الجنسية النامية عند البلوغ. وقد لاحظ مول أن المغازلة والمداعبة ذات الطابع الجنسي هي امور مألوفة في الحيوانات العليا، وهي في الانسان (في الاطفال) تكون نشاطاً مسبقاً لتطبيع الغريزة الحيوانية. واستناداً الى هذه الملاحظات فان مول قد فند المعتقدات السابقة من ان البلوغ العضوي هو شرط اساسي وضروري للرغبة الجنسية في الذكر والانثى، وهو على العكس يرى أن العنصر النفسي في العديد من الحالات، يمكن له ان يظهر ابكر بكثير من العنصر الجسمي للبلوغ (مول ١٨٩٩). كما انه رأى أن الغيرة، والعار (العيب)، وحتى تقبيل احد الوالدين او الاشخاص عند ابداء عاطفة الحب، فكلها امور تتلون بعنصر جنسي اثناء الطفولة. فالممارسة الجنسية في نظره لا تتحدد بعلاقة الحب والمداعبة عند الاطفال، وبانها قد تبدأ بالانتصاب القضيبي للطفل، وعادة الاستمناء، وبأن هذا يحدث في السنة الاولى او الثانية من الحياة. وكان في رأيه أن بعض الممارسات الجنسية في الاطفال مثل الجنسية المثلية (الميل الى شخص من نفس الجنس) وغيرها من الميول غير الاعتيادية، لا تمثل انحرافاً جنسياً، كما كان يعتقد سابقاً، فمثل هذه الدوافع قد تظهر في الاطفال وتختفي عند البلوغ.

* *

ان من الواضح مما سبق ذكره، ومن غير ذلك من البينات، بأن فرويد قد تأثر بصورة بالغة بآراء من سبقه، وملاحظاتهم حول الحياة الجنسية في الاطفال، وبشكل خاص آراء فلايس في الموضوع. وقد كتب فرويد (١٨٩٨) يقول: «اننا نخطىء في اغفالنا للحياة الجنسية كلياً في الاطفال، وحتى جزئياً، ففي خبرتي فاني وجدت أن الاطفال هم قادرون على كل نشاط جنسي نفسي، وعلى الكثير ايضاً من النشاطات الجنسية الجسمية،ومع ذلك فان من الصحيح أن تكوين وتطوير الجنس البشري قد جاهد لكي يتفادى درجة كبيرة من النشاط الجنسي في الطفولة. ويبدو في الانسان، أن القوى الغريزية الجنسية يقصد لها ان تخزن لكي يمكن اطلاقها عند البلوغ لخدمة اهداف حضارية عظيمة». وفرويد بذلك يتفق مع فلايس الذي سبق وجاء برأي مماثل. وبعد ثلاث سنوات من قول فرويد هذا أردفه بقول آخر: «بكبتها، او بتحويلها الى اهداف لاجنسية عليا، فان الدوافع الجنسية للطفل يتم تصعيدها، ويقرر لها بذلك ان تزود الطاقة اللازمة لكثير من انجازاتها البشرية». ومن آراء فرويد في جنسية الاطفال: «ان المظاهر العامة للنمو الجنسي في الطفولة هي مظاهر دورية ومتذبذبة. وهذا التذبذب يفسر جزئياً بخفوت أو تعزيز الدوافع الجنسية، كما يفسر جزئياً بسبب تجمع القوى المعارضة للجنس». ورأيه بان «اضطرابات النمو الجنسي في الاطفال يمكن ردها الى تغيرات زمنية لموجات متتالية من النمو». ومن ارائه الهامة هو أن هنالك معارضة دينامية بين الموجات المتتالية من الدفق للطاقة الجنسية في الاطفال وبين قوى الكمون. ويقول في ذلك: «ان الطفل الوليد يأتي الى هذا العالم وبذور الغريزة الجنسية موجودة فيه، وهذه البذور تستمر على النمو بصورة دورية، وهذا النمو الدوري يعاكسه موانع من الكبت من تكوين انفعالات أو تصعيد. وهي العناصر النفسية لفترة الكمون. وظاهرة الكمون تعزى لعوامل عضوية وحضارية . . .».

فرويد وادوار النمو الجنسي

اخذ فرويد بالرأي بان الحياة الجنسية في الطفل تنمو في عدة مراحل او ادوار، وبأن اطلاق الطاقة الجنسية في الاطفال يأتي من عدة مواطن في الجسم، وبأن الطفل يتخلى عن هذه المواطن بالتتابع الى ان تصبح منطقة اثارة الشهوة الجنسية اكثر تحديداً في الكبر. اما المناطق التي تخلى عنها، ربما تكون سطح الجسم كله، فانها في وقت لاحق تظل تثير الى حد ما، ما يشبه اطلاق الرغبة الجنسية. وعلى العموم فان ذاكرة الفرد تعاف المناطق التي تخلى الطفل عنها وبشيء من الاشمئزاز، ولهذا فان هذه الذاكرة تكبت، والاخلاق وشعور العيب، وغيرها من العمليات العقلية الشعورية العليا، لا بد لها لذلك من ان تظهر مع اطفاء الجنسية الطفولية المتعددة في مظاهرها.

وقد افترض فرويد: «أن الحياة الجنسية في الطفل، لا تظهر في الاطفال بطفرة نحو الشكل النهائي المعروف عند البلوغ، وانما تأتي على شكل سلسلة من الادوار المتتابعة لا تشبه بعضها بعضاً، وانه تحدث فيها تغيرات كثيرة، والهدف الاساس لهذه الادوار هو أن تصبح جميع عناصر الغريزة الجنسية تحت السلطة العظمى للمنطقة الجنسية، وانخراط الجنسية في خدمة

التناسل». وقد فصل فرويد المناطق الجنسية وادوار النمو الجنسي بتقسيمه المشهور الذي يقع في صنفين، التقسيم الاول يختص بالادوار، وهي الدور السابق للاعضاء الجنسية Pre - genital، ودور الاعضاء الجنسية Genital. وبيّن فرويد أن الطفل منذ سن الثالثة وما بعد، يبدأ باظهار ما لا شك في انه يدلل بان عضوه الجنسي قد بدأ بالتهيج، كما ان هنالك فترات منتظمة من الاستمناء، أي اشباع الرغبة من إثارة العضو التناسلي. وصنف فرويد مناطق الاثارة الجنسية المتلاحقة الى ثلاث مناطق، هي المنطقة الفوهية Oral، والشرجية Anal، والعضوية الجنسية Genital، واعطى لكل منها خصائص معينة من حيث زمنها وموضوعها وما يمكن ان يتصل منها من خصائص الشخصية. وفيما يلي خلاصة لهذه الادوار كما وردت في نظريات فرويد.

١ ـ **الدور الفمي Oral Stage** هذا الدور يبدأ في الأيام الاولى من حياة الطفل. وموضوعه يتحدد منذ البداية بثدي امه التي تعطيه الغذاء بالرضاع، والفم في هذه الحالة منطقة لارضاء ليس للطعام فحسب بل لارضاء الطاقة الجنسية ايضاً. وهذا يجعل الفم بالتالي منطقة للاثارة الجنسية الذاتية Autoerotic، ويستطيع الطفل ان يثير هذه المنطقة بشكل ذاتي بوسائل مختلفة غير ثدي امه، كمص اصابعه، ووضع الاشياء في فمه، واصرار الطفل على هذه الممارسات اضافة الى اصراره على التعلق بثدي امه حتى بعد اشباعه، يدلل على ان فمه يمكنه من الحصول على لذة اخرى مستقلة عن الغذاء، وهو الامر الذي يسوغ اعتبار هذه اللذة بانها جنسية.

ومع ان الفم بوصفه منطقة للتعبير هي اكثر ما تكون قوة في الاشهر الاولى من حياة الطفل، الا انها لا تفقد هذه الاهمية كلياً في الادوار التالية من النمو، وتظل حتى الكبر مصدراً هاماً للحصول على اللذة كما هو واضح من عادة التقبيل في مختلف مراحل العمر، ومن استعمال الفم في بعض الممارسات الجنسية الطبيعية او المنحرفة.

٢ ـ **الدور الشرجي Anal Stage** من سن ١٨ شهراً حتى ٣ سنوات وخلال هذا الدور ينتقل مركز الارضاء الجنسي في الطفل في معظمه من منطقة الفم الى منطقة الشرج، وهذا الانتقال يتضح في السنة الثانية من العمر عندما يبدأ الطفل بتعلم ممارسة ضبط افرازاته البولية والشرجية والسيطرة عليها. وتأتي اللذة للطفل اولاً من اخلاء امعائه، واللذة الثانية تأتي من شعور الطفل بأنه يقوم بهذا العمل ارضاءً لوالديه. ولعل هنالك لذة ثالثة تأتي من تأخير التغوط والاحتفاظ به، وقد يكون في ذلك لذة تأتي من اطالة عملية التغوط.

٣ ـ **الدور القضيبي ـ الاوديبي Phallic - oedipal** من سن ٣ ـ ٦ سنوات: في هذا الدور تصبح الاعضاء الجنسية في الذكر او الانثى منطقة الاهتمام والشهوة بالنسبة للطفل وخاصة القضيب في الطفل والبظر Clitoris في الطفلة. وفي هذا الدور يكتشف الاطفال لذتهم في هذه الاعضاء عن طريق محاولة ما يشبه الاستمناء. وفي هذا الدور يبدأ التمييز بين نمو الطفل ونمو الطفلة من الناحية الجنسية النفسية. فتبعاً لنظرية فرويد التحليلية النفسية، فان الاهتمام الطبيعي للطفل (الذكر) في امه يصبح مشحوناً بالشهوة، وهذا يؤدي الى قيام شعور غير واع بالكراهية لوالده وبالرغبة

في ايذائه بسبب ما يشعر به الطفل من ان والده يتملك والدته وحده من دونه، في الوقت الذي يرغب الطفل في ان تكون امه ملكاً صرفاً له وحده. وهكذا فان الطفل يغار من والده. وقد اجمل فرويد هذا الموقف من ميل الطفل الشهواني نحو امه، ومن كراهية ورغبة في ايذاء والده، بالمركب الاوديبي Oedipal Complex. ويلي هذا الدور عملية التخلص من هذا المركب مما سنشير اليه في مكان لاحق من هذا الفصل. اما في الطفلة الانثى، فان فرويد يرى بان مداعبتها للبظر Clitoris بالاستمناء لا تجديها كثيراً، وهي لذلك تتحول الى مداعبة الرغبة في ان تنجب طفلاً، وتتخذ الأوضاع والهيئات التي ترمز الى ذلك، وجميع هذه الامور في الذكر او الانثى تحدث في اللاوعي.

٤ ـ دور الكمون Latency Stage: حدد فرويد هذا الدور بين سنين الخامسة او السادسة وحتى سن البلوغ. وقد وصف فرويد هذه الفترة بما يلي: «انه خلال هذه الفترة من الكمون الكامل أو الجزئي، فإن القوة العقلية تبنى، وهذه تصبح فيها بعد عائقاً أمام مسيرة الغريزة الجنسية، فهي اي القوة العقلية تحدد مسيرتها. وهذه القوة العقلية هي: الاشمئزاز، والشعور بالعار، ومتطلبات القضايا الجمالية والأخلاقية، وقد يحصل الواحد على الانطباع بأن اقامة هذه العوائق او السدود في الاطفال المتمدنين تأتي بسبب التعليم، ومع انه ما من شك في أن للتعليم علاقة كبيرة في ذلك، غير ان واقع الامر هو ان هذا النمو يتقرر بشكل عضوي ويتعين بالوراثة. ويمكن له ان يحدث احياناً بدون اي عون من التعليم». ولم ينظر فرويد الى هذه الفترة من الكمون وكأنها خالية كلياً من النشاط الجنسي، وانما تصور ستراً جزئياً للدوافع الجنسية الطفولية، ولم يستبعد الظهور الجزئي لهذه الطاقة الجائشة، وهو يقول: «ان حركة هذه الدوافع الطفولية لا تتوقف خلال فترة الكمون هذه، وان كانت طاقتها تتحول كلياً او جزئياً من استعمالاتها الجنسية، وتتوجه الى نواحٍ اخرى». وقد افترض فرويد بان هذا التحويل يأخذ اتجاهين للتعبير، اولهما يتألف من (الانفعالات Reaction Formation، كالاشمئزاز والشعور بالعار)، والاتجاه الثاني نحو التصعيد والتسامي Sublimation، وبه تتحول الطاقة الجنسية جزئياً نحو القضايا الجمالية والافكار الاخلاقية. وفي رأي فرويد ان هاتين العمليتين من التحول يكونان جوهر (فترة الكمون).

من الواضح ان الادوار الاولى من الحياة الجنسية الطفولية، وهي الفمي، والشرجي، والقضيبي، كلها ذات طابع جنسي ذاتي Autoerotic، ذلك ان الطفل يجد لذته من اثارة مواطن الشهوة المختلفة في جسمه. وحتى لو ركز الطفل انتباهه على شيء او موضوع خارج نفسه للاثارة، فان الاثارة المعطية للذة وارضاء الشهوة تقع ضمن نطاق جسمه, وبانتهاء هذه الادوار، وما يلحقها من دور الكمون، فان الدور النامي من الحياة الجنسية يبدأ في اقرار سلطته، وهو دور يتحدد في المنطقة الجنسية، اما الادوار السابقة فانها تندمج وتنضوي في هذا الدور الاخير، وتصبح المناطق الجسمية المرتبطة بهذه الادوار مواطن للاثارة السابقة للعمل الجنسي المباشر أو جزءاً منه.

دور البلوغ

يمثل البلوغ المرحلة الاخيرة من ادوار النمو الجنسي. والتحولات التي تحدث في هذه المرحلة تضع تقرير الغريزة الجنسية تحت سيطرة الاعضاء التناسلية في الذكر، أما في الانثى، فان فرويد يعتقد بانها تحتاج الى موجة جديدة من الكبت كضرورة لاطفاء المنطقة الجنسية الذكرية منها وهي البظر Clitoris، مما يسمح باستيقاظ منطقة اساسية جديدة عندها وهي منطقة الفرج. اما المهمة الأخرى لتحولات البلوغ فهي اتخاذ شريك للعمل الجنسي. ففي الطفولة السابقة لهذا الدور فان الشريك الجنسي ان وجد، فهو موجود في خيال الطفل، وهو خيال يكتسب صفة المحرمات، خاصة اذا ما تركز على على احد الوالدين من الجنس الآخر، ولا بد من التغلب على هذا الخيال للوصول الى حياة جنسية طبيعية. واختيار البالغ للشريك الجنسي يأتي عادة على مرحلتين، المرحلة الاولى يكون فيها الشريك في الكثير من الحالات فرداً من نفس جنس البالغ أو البالغة (الجنسية المثلية)، وفي المرحلة الثانية، وهي المرحلة الكاملة من النضج يتجه فيها البالغ نحو اختيار شريكه من الجنس الاخر (الجنسية المخالفة).

الجنس والحياة النفسية للطفل

لقد اولى فرويد بشكل خاص اهتماماً فائقاً بالحياة الجنسية للاطفال، واولاها اهمية قصوى في تكوين شخصية الطفل ونموه النفسي، ويتضح ذلك من انهاعتبرالادوار الجنسية التي ينموها الطفل ادواراً جنسية نفسية، كما انه اعطى لتجارب الطفولة وخيالاتها الجنسية الغلبة في عمليات الصراع النفسي، وفي ما تقتضيه من عمليات الكبت، وما قد ينجم عن ذلك من اضطراب لاحق في الحياة النفسية للشخص النامي. وقد ركز فرويد اهتمامه بشكل خاص على الميول (الشهوانية) التي يداعبها الطفل في مرحلة من مراحل عمره ونموه نحو احد والديه من الجنس الآخر، الطفل الذكر نحو امه، والطفلة نحو والدها. واطلق فرويد على الحالة الاولى مصطلح (مركب اوديبوس)، وعلى الناحية الثانية (مركب الكترا...).

مركب (عقدة) اوديبوس Oedipal Complex

ان الطفل منذ اول طفولته يتحسس بوجود موضع معين يخدم غرض نقطة ارتكاز لاثارته الجنسية ابتداء من ثدي امه المرضعة له. ومع توالي نقاط الارتكاز التي اشرنا اليها سابقاً، وهي الفم والشرج والقضيب، الا ان الطفل في اختياره للشريك قبل وصوله لمرحلة الكمون، فانه يعود الى تبني الموضع الذي ارتبط باللذةالفوهية. وهذا الموضوع هو في رأي فرويد «الأم، وان لم يكن ثديها». ويقول فرويد: «... اننا نسمي الام موضوع الحب الاول.... وحوالى الوقت الذي تصبح فيه الام موضوعاً للحب، فان العملية العقلية للكبت تكون قد بدأت، وهي تسحب منه معرفة بعض اجزاء اهدافه الجنسية، والآن وبهذا الاختيار للام موضوعاً للحب، يرتبط كل شيء يتعلق بالمركب الأوديبي. ويفسر فرويد المركب الاوديبي، وهو المصطلح الذي

اختاره للعلاقة الناجمة بين الطفل وامه وما يتأتى عنها من اشكالات بقوله: «ان الاسم يبين لكم: انكم جميعاً تعلمون الاسطورة الاغريقية للملك اوديبوس والذي كان مقدراً له ان يقتل اباه وان يتزوج امه، والذي حاول كل شيء في مقدوره لكي يتجنب هـذا المصير الـذي انبأتـه به نبـوة الكاهن العراف، والذي فقأ عينيه لكي يكفر عن الذنب الذي اقترفه في هاتين الجريمتيـن. ولي الثقة بان الكثيرين منكم قد جربوا التأثير العميق لهذه الدراما التراجيدية التي صاغها سوفوكليس في هـذه القصة... ان جـوكاستـا Jocasta، الملكة الأم، والـزوجة لابنهـا فيـها بعـد، تقـاوم الاستمرار في تحقيق النبؤة كما ورد في حوار الاسطورة، وهي تشير الى ان الكثيرين في احلامهم قد واقعوا امهاتهم، ومن ان الاحلام لا قيمة لها... ونحن لا نشك في ان الحلم الذي تحدثت عنه جوكاستـا يتصل اتصالاً وثيقاً بالقصة الرهيبة للاسطورة. ويتابع فرويد القول: «انه لعجيب ان مأساة سوفوكليس هذه لا تستدعي من مشاهديها احتجاجاً غاضبـاً... انها تترك السـامع بدون مبالاة، انه لا ينفعل لذلك، وانما للمعنى والمحتوى الخفي لـلاسطورة ذاتها، وهو ينفعـل وكأنما بعملية التحليل الذاتي، فانه قد اكتشف مركب اوديبوس في نفسه، ومن انه قد تبين ارادة الآلهة ونبؤة الغيب، كستر معظمه لِـ لاوعيه الخاص، وكأنه تذكر في نفسـه الرغبـة في ان يفني والده وان يتخذ من امه زوجة، وبانه يجب عليه أن يبغض ذلك باشمئزاز.. وكلمات الشاعر تبدو له بانها تعني: «ان منِ العبث عليك ان تنكر مسؤوليتك، ومن العبث آن تعلن بأنك قـد جاهدت ضد هذه التصاميم الشريرة. انك مذنب مع ذلك، لانك لم تستطع ان تخمدها، فهي ما تزال باقية فيك، في اللاوعي». ويتابع فرويد القول لتفصيل المركب الأوديبي عند الاطفـال بقوله... «ان من السهل علينا ان نرى كيف ان هذا الرجل الصغير (الطفل) يريد امه كلهـا لنفسه، ويجد والده في طريقه، ويصبح قلقاً مضطرباً عندما يقوم والده بمداعبتها، ويظهر رضاه عندما يجد والده قد ابتعد او كان غائباً. وهو يعبر احياناً عن شعوره بالكلمات عندما يعد امه بانه سيتزوجها، وربما لا يكون ذلك ما يشبه اوديبوس بالمقارنة، غير ان لب الحالتين واحـد». ويبين فرويد بان الولد الصغير «يظهر حب استطلاع مفضوح نحو امه، ويرغب في النوم معها في الليل ويصر على ان يبقى في غرفتها اثناء التعري واللبس. وحتى انه يحاول احيانـاً مظاهـر من سلوك الاغتصاب... والصفة الشهوانية لهذا التعلق بالأم قائمة بدون شك».

مركب الكترا Electra Complex

ان حالة القلق التي يبديها الطفل نحو امه في مركب اوديبوس، يفترض فرويد وجوداً لها في ميول الطفلة نحو والدها في «المحبة والاخلاص للاب، والحاجة الى اقصاء الأم الزائدة وأخذ مكانها»، والمظاهر المبكرة للتغنـج والتفنن الأنثوي. وقـد استعار فـرويد اسم الكتـرا Electra لمصطلحه هذا من الأسطورة الأغريقية التي تحكي قصة الكترا ابنة أجاممنون، والتي حثت أخاها اوريستيس لقتل امهما وزوجها الحالي وهو عشيقها السابق لكي تثأر لمقتل والدها.

هذا ولا يستعمل هذا المصطلح كثيراً في الوقت الحاضر. ويفضل عليه استعمال مركب اوديبوس ليشمل الحالتين، حالة تعلق الطفل بامه، وتعلق الطفلة بوالدها.

لقد افترض فرويد ان الفترة الزمنية لنشوء مركب اوديبوس في كل من الطفل والطفلة هي حوالى الثالثة من العمر، وهي الفترة التي تتوافق في الطفل الذكر مع الدور الجنسي القضيبي، وتستمر هذه الفترة من سن الثالثة حتى سن السادسة او السابعة. وفي هذه الفترة، وبنشوء المركب الاوديبي، فان الطفل الذي تراوده الرغبات الجنسية نحو امه والتعدي على والده، يبدأ بشعور الخشية من ان يعاقبه والده بخصيه، وهذا الخوف يؤدي الى قيام مركب الخصي في الطفل، اما الانثى في هذه المرحلة، فانها ـ حسب التفسير التحليلي الفرويدي، تشعر (بمركب الحسد) بسبب الفوارق العضوية التي تلاحظها بينها وبين الطفل الذكر مما ليس لها، وهو الامر الذي يدفعها الى الاتجاه نحو اكتساب مظاهر الذكور والاقتداء بهم والظهور بمظهرهم.

ان فرويد واتباعه يعتبرون ان الدور الاوديبي هو اهم الادوار في نمو الشخصية، ففيه يبدأ الطفل بالاهتمام الجنسي نحو فرد من الجنس الاخر، بما يخلقه ذلك من محاولة للاستئثار، والشعور بالمنافسة والعداء، والرغبة في التعدي بشكل ما، والخوف من نتائج ذلك، وضرورة الكبت للتخلص من معاناة الرغبة ونتائجها. ويتحسس الطفل أن الافكار والخيالات والرغبات التي تراوده هي محرمة او ممنوعة عليه فان اتجاهاً جديداً يطرأ على نفسيته، فهو يبدأ بحمل شعور ثنائي نحو الوالد من جنسه، شعور الحب والكراهية في آن واحد، وهذا التعارض في الشعور يؤدي الى قيام حالة من القلق والشعور بالاثم والخوف من العقاب. وهذا الخوف (الخوف من الخصي)، قد يصل حداً من الشدة يدفع الطفل الى الخضوع الى غريمه القوي (الوالد) من جنسه والتخلي عن ميوله نحو الوالدة من الجنس الاخر، وبهذا يتم كبت المشاعر الجنسية، وهي (الرغبة الجنسية نحو الوالد من الجنس الآخر، والتعدي على الوالد من نفس الجنس). ويتم التعويض عن هذا المركب بشكل جزئي عن طريق تشبه الطفل أو الطفلة ببعض صفات الوالد من الجنس الآخر، وجعل هذه النواحي بعضاً من نفسيهما. وهذه النواحي المتشبه بها تصبح بمثابة الأنا العليا Super Eqo للطفل، وتتكون مما يتحسس به الطفل من المثل والأخلاق في والده، ويكون ذلك بداية لنشوء الضمير والمثل الذاتية ـ وبمثل هذا التشابه يتم حل مركب اوديبوس حلاً مقبولاً ومريحاً، وان كان في الواقع حلاً بديهياً، ذلك ان الطفل او الطفلة في تشبههما بأحد والديهما، فانما يتقمصان شخصية الواحد منهما، ويخدم هذا التقمص اعطاء الشعور بان الطفل قد حصل على رغبته بدمج الوالد المرغوب به في نفسه، وكأنه بذلك يتحايل على واقعه ويخدع نفسه ويرتضي بهذا الخداع، ويقبل بتمثل ما في والده من ضمير ومثل، عوضاً عن تملكه بالواقع.

ان فرويد يفترض أن عملية تكوين المركب الاوديبي موجودة في نمو كل طفل وطفلة، وأنها ضرورية وتخدم اغراضاً هامة منها اختيار شريك من الجنس الآخر، وكبت المحرمات من العلائق الجنسية، وتكوين الضمير والمثل، والتمثل بالوالد من نفس الجنس واكتساب صفاته. والذي يحدث في معظم الاطفال ان هذا المركب، بما فيه من صراعات ومعاناة، يحل بشكل مرضٍ ومناسب وبعضه بالكبت، وبعضه بنقل العاطفة الى شخص غير الأب، وبعضه في تكوين مثل

الأنا العليا. غير ان هذا المركب قد لا يحل حـلاً مناسباً وكافياً، مما قد يؤدي الى قيام اضطرابات عاطفية عديدة في الطفل، او ان يكون ذلك سبباً في قيام اضطرابات مماثلة في الكبر. ولعل اهم الأسباب التي تحول دون الوصول الى الحل الطبيعي والملائم لمركب اوديبوس هي: (١) وصول الطفل الى هذا الدور الأوديبي في الوقت الذي ما زال يحمل فيه صراعات من ادوار جنسية سابقة للنمـو، (الـدور الفمي، والشـرجي والقضيبي)، ممـا يقلل من الـطاقـة النفسيـة التي يمكن استخدامها في هذا الدور. (٢) غياب احد الوالدين في هذه الفترة وبدون توافر البديل (بالموت او التغيب او التفريق). (٣) ما قد يبدر من الوالدين مما يشجع استمرار المركب الاوديبي قائماً، سواء كانْ مصدر ذلك هو سلوك احد الوالدين، او شخصيته، مما قد يحرم الـطفل من التشبـه بوالدهٔ (والطفلة بوالدتها)، ويحول دون قيام الذات العليا بشكل ثابت ومستقـر. هذا وقـد بين فرويد ما يمكن ان يترتب على الفشل في الحل الطبيعي لمركب اوديبوس في الطفلة من انحرافات جنسية، ومن عطل جنسي، وامراض نفسية، واعتبر جذور الكثيرمن هذه الحالات بأنها تقع في هذا الدور الاوديبي من النمو. واخيرا فان فرويد يرى أن المركب الاوديبي حتى بعد حله الناجح في نهاية المرحلة الاوديبية، فانه ينشط ثانية، وبشكل عابر على الأقل،في مرحلة البلوغ، وهذا التنشيط، يبدو انه يهدف الى تعزيز الشعور بتجنب المحرمات من الرغبات الجنسية، كما انه قد يعزز الميل نحو تشبه البالغ بخصائص والده من نفس الجنس.

المعارضة لنظريات فرويد

لقد حمل فرويد نفسه الكثير من العبء والمعاناة بادعائه اكتشاف الجنسية الطفولية. ومع أن هذا الادعاء قد اثار الاعتراض والتفنيذ في حينه ممن سبقوا فرويد الى السرأي بوجـود الحياة الجنسية في الاطفال، الا ان اسم فرويد قد ظل يرتبط بهذه الفكرة خاصة بعد ان جاء فرويـد بالنظرية المثيرة عن مركب اوديبوس في الأطفـال، وعن اهمية هـذا المركب في تكـوين الحالات المرضية النفسية، وهي الاهمية التي اصر فرويد عليها. وقد اثارت آراء فـرويد.الجـريئة مـوجة عارمة من الانتقاد الشديد، والجارح احياناً، وتسبب عن ذلك انفصال عدد من اشهر مريديـه واتباعه في الحركة التحليلية النفسية. ومن اهم نواحي الانتقاد التي وجهت له هي عدم تمكنه من اثبات وجود المركب الأوديبي، وحول اصراره المطلق على أن كبت التجربة الجنسية الطفولية يمثل الاساس العام للأمراض النفسيـة. وانسحبت هذه الانتقادات على موضوع الجنسية الطفوليـة بشكل عام وانكار وجودها. وقد دافع فرويد بقوة وحرارة عن نظرياته،وظل متمسكاً بجوهرها طـوال حياتـه، وراح يثبت وجود المـركب الاوديبي من الأساطـير التي تحرم العـلاقـة الجنسيـة بالمحرمات ـ بما في ذلك العلاقة الجنسية مع الام، ومن ملاحظة الاطفال في سلوكهم المبـاشر، ومن ذكريات الطفولة ومن محتوى الأحلام. غير ان فرويد قـد اعتمد التحليـل النفسي وسيلة موثوقة في نظره لاكتشاف المركب الاوديبي في تجربة الطفولة. ويدعي فرويد أنه وقع عـلى هذا الاكتشاف بنتيجة التحليل الذاتي الذي قام به على نفسه ويقول في ذلك: «لقد وجدت حب الام والغيرة من الوالد في حالتي أيضاً، والآن فاني اعتقد أنها ظاهرة عامة في الطفولة المبكرة.. واذا

كان الامر كـذلك، فـان القوة المـوجهة للملك اوديـبـوس. . . تصبح مفهـومة. . فـالاسطورة اليونانية تركز على دافع قسري يتعرف عليه كل انسان، لانه يشعر بشيء من آثاره في نفسه. ان كل واحد من الحاضرين قد كان في الماضي برعماً اوديبياً في الخيال، وارضاء هذا الحلم في الواقع يؤدي الى انكماش من الرعب في كل واحد، ومع كل قدر من الكبت الذي يفصل بين الطفولي وبين الحالة الحاضرة». ويقول فرويد مستنـداً على مـا اكتشفه من اسلوبـه التحليلي من العقـد الاوديبية في مرضاه: «ان كل واحد من هؤلاء المرضى المصابين، كان في الماضي اوديبوس، او بما يتساوى مع ذلك، اصبح مثل هاملت في انفعاله بسبب هذا المركب. والواقع الأكيـد، هو ان الصورة التحليلية لمركب اوديبوس انما هي صورة مكبرة للمخطط الطفولي :كـره الأب والرغبة في موته.وهذه لم تعد اشارات غامضة، فالعلاقة نحو الام تعلن نفسها وتهدف الى تملكها بوصفها امرأة».

لعـل من اهم الانتقادات التي وجهت الى فـرويد، هي انتقـادات زميله ونصيـره الاول يونغ، فيونغ اعلن عدم قناعته بنظريات فرويد عن الطاقة الجنسية بكاملها بما في ذلك الجنسية الطفولية وعن افتراضه لفترة الكمون، وبسبب تأكيد فرويد على تجارب الطفولة في تكوين المرض النفسي. ومما قاله يونغ: «ان الحصول على اللذة لا يمكن ان يعني ابداً التساوي مع الجنس». وقال في مكان آخر: «ان رأي فرويد عن الجنسية الطفولية لا يمكن قبوله بايولوجياً» وفي اعتراض يـونغ عـلى، فترة الكمـون Latency يقول: «ان مثـل هذه العمليـة من النمو ستكـون عملية بايولوجية فريدة، فللتوافق مع هذا الرأي، فان النبتة عندما تخرج برعماً لكي يتفتح بالزهر، فان الزهر يجب ان يعاد ثانية قبل ان يتفتح، ويختفي ثانية في البرعم لكي يظهر فيما بعد على شكل مماثل». ثم يقول إن نظرية فرويد عن هذه الفترة اي فترة الكمون، هو «افتراض غير ممكن». وبدلاً من ذلك فان يونغ جاء برأي مضاد، وهو ان الحياة الجنسية للطفل تتوافق بدايتها تماماً مع بداية فترة الكمون التي افترضها فرويد (حوالى السن السادسة او السابعـة). واعترض يـونغ، حاله في ذلك حال أدلر وجانيت على دور التجارب الجنسية في تكوين الامراض النفسيـة. وبين الرأي بأن الصراعات النفسية الآنية، وليس صراعات الطفولة هي التي تسبب العصاب. امـا الحالات التي يظهر فيها عنصـر من الجنسية الـطفوليـة سبباً للمـرض النفسي، فمرد ذلـك هو نكوص الفرد الى تجارب الطفولة في وقت لاحق. هذا وقد كان من رأي يونـغ أن الذي يقـرر تجارب الطفولة هو استعداد ولادي شاع بين الجنس البشري، او ما سماه يونغ (بالنمط الاول Archetype)، وهو الاستعداد الذي يعطي للانسان حصيلة اللاوعي الجماعي، وهو اللاوعي الذي يمكن ان ينشط في الكبر عن طريق النكوص النفسي، وبأن هذا النكوص يلعب دوراً كبيراً في تكوين الأضطرابات العقلية. وفي رأي يونغ ان عدم مقدرة الفرد على تمثل محتويات اللاوعي الجماعي هو الذي يؤدي به الى المرض النفسي. وهكذا فقد استقطبت آراء فرويد عن الجنسية الطفولية وفترة الكمون بعقدها الأوديبية، معارضة شديدة شارك فيها انصار فرويد السـابقون، ومنهم يونغ وفلايس وأدلر وهول وستيكل، وجميعهم اتهموه بأن آراءه تناقض الواقع البايولوجي، وبأنها تستند على تفسيرات سايكولوجية يتعذر اثباتهـا. وبهذا وجـد فرويـد نفسه منفصـلاً عن

زملائه وأنصاره السابقين بفجوة علمية واسعة، غير ان ذلك لم يقلل من تصميم فرويد على الاحتفاظ بنظرياته النفسية، وراح يعاقب كل نصير له لا يؤمن بها ايماناً كاملاً. كما جاهر بالقول: «ان اكتشافاتي هي اساس لفلسفة في غاية الخطورة، وهنالك القليلون جداً ممن يفهمون ذلك، هنالك القليلون جداً ممن يستطيعون فهم ذلك».

لقد حاول فرويد تفسير التجارب الجنسية الطفولية والمركب الاوديبي وقيام الحالات المرضية النفسية على اساس سايكولوجي. وهو يقول: «اني احاول بشكل عام ان ابقي السايكولوجية بعيدة عن كل شيء يختلف عنها في الطبيعة، حتى الخطوط البايولوجية في التفكير». ومع ان فرويد حاول في الوقت نفسه ان يكسب نظرياته السايكولوجية اساساً بايولوجياً، الا ان خشيته من ان يضيع اكتشافه، وخاصة نظرياته التحليلية، في خضم التفكير البايولوجي، فقد وجد من الضروري له الامعان في التفكير السايكولوجي وبدرجة ابعد مما اقتنع في داخله، كما انه شجع، والى حد بعيد، اجبر انصاره وتابعيه على التمثل به. والكثيرون منهم واصلوا هذا التأييد له بخماس يفوق قناعة فرويد بالأصول النفسية البحتة لنظرياته، غير أن الكثيرين من الفرويديين الجدد، والقارئين لفرويد بعد وفاته، قد فسروا نظرياته بشكل يتلاءم مع الافتراضات البايولوجية، وهو ما لم يشجعه فرويد في حياته ولم يدركه اتباعه في حينه. وقد تساءل فرويد في حياته عن مصير نظرياته بعد موته بقوله: «ماذا سيفعلون بنظريتي بعد وفاتي؟.. وهل تظل تشابه افكاري الاساسية؟». ان هنالك اليوم، وبعد نصف قرن تقريباً من وفاة فرويد، ممن يؤمنون بنظريات فرويد كما جاء بها واراد فهمها، وهنالك آخرون ممن يحاولون فهم نظرياته بربطها بالأساس البايولوجي الذي داعبه فرويد في تفكيره بينما شجع التفكير النفسي في الواقع، كما ان هنالك الكثيرين ممن ينظرون الى آراء فرويد نظرة انتقاد مر، ولا يجدون فيها ما يمكن اثباته، او يمكن اعتماده على اساس علمي. وحصيلة كل هذه الاتجاهات المتعارضة، هي اننا بعد هذا الزمن الطويل من مجيء فرويد بنظرياته الجريئة، ما زلنا نتحدث عن فرويد على انه أسطورة، وننطق بلغته وكأنها واقع حياتي لا خلاف فيه.

فهمنا الحاضر للجنسية الطفولية

ان صعوبة فهم الحياة الجنسية في الاطفال تأتي من صعوبة ملاحظة السلوك الجنسي عند الاطفال وتعيين ما هو ذو طابع جنسي من ممارسات الطفل، وما هو شبه جنسي وما هو غير جنسي. والصعوبة في ذلك تأتي من تعذر معرفة ما يفكر أو يحس به الطفل من افكار وخيالات ومشاعر وهو يقوم مثلاً بمداعبة اعضائه الجنسية. ومن الامور التي لا تيسر فهمنا للحياة الجنسية في الاطفال هو صعوبة البحث والاختبار في نواحي هذه الحياة لأسباب حديثة، منها صعوبة افضاء الطفل عما يصاحب تجربته من شعور، وتعذر اجراء التجارب ذات الطابع الجنسي على الاطفال لاسباب اجتماعية واخلاقية وتربوية. وهكذا فان معظم ما نعرفه عن الحياة الجنسية للاطفال مستمد من الحقائق البايولوجية في النمو، اضافة الى ما يمكن رصده من الممارسات الجنسية، او الجنسية الطابع، في مراحل العمر المختلفة.

بداية الحياة الجنسية

تفيد الأبحاث البايولوجية بأن العمليات الفيزيولوجية التي تكمن وراء سلوك الاعضاء الجنسية هي عمليات كاملة النمو حتى قبل الولادة. والمعروف الآن بان الجنين في بطن امه يمارس مص الابهام ومص اصابع اليدين والقدمين. اما بعد الولادة فقد لوحظ احياناً بان الطفل اثناء الولادة نفسها يظهر انتصاباً للقضيب، كما أن الطفلة في الوقت نفسه يبدو عليها ترطيب الفرج في الـ (٤٠) ساعة الاولى بعد الولادة. وبعد ذلك يلاحظ في الطفل الرضيع انتصاباً تلقائياً أثناء حالات اليقظة، وان ذلك يقل تدريجياً مع تزايد نموه، كما لوحظ أن الطفل الصغير يظهر انتصاباً مصاحباً للنوم الحالم (ر. ي. م، .R.E.M) وفي جميع ادواره، الا اذا كانت الأحلام كابوسية، كما لوحظت تندية مماثلة في فرج الطفلة اثناء هذا الدور من النوم. ويلاحظ ايضاً مظاهر شعور الطفل بالاثارة عند رضاعته من الثدي ومحاولاته مص الثدي والتعلق به حتى بعد زوال الحاجة للغذاء. وهي ظواهر واضحة ومتكررة في جميع الاطفال، وتستمر هذه الاثارة اللمسية طوال الحياة وينظر اليها على انها ممارسة تمهيدية للرغبة الجنسية. هذا وما زلنا حتى الآن نجهل تماماً الدلالة الفيزيولوجية لهذه المظاهر التلقائية في الأطفال الصغار (الانتصاب والترطيب) وان كان من الواضح أن امكانية الحصول على ذروة اللذة الجنسية في الكبر تصبح اكثر حظاً في التحقيق في مثل هذه الحالات، ويفسر بعض العلماء بان للنقص في التستسترون الحر Free Testesterone، علاقة بهذه الظاهرة. وقد تكون الوظيفة البايولوجية لهذه الظاهرة هي أن تجعل امكانية الحصول على ذروة بالمصادفة امراً اكثر احتمالاً.

في فترة لاحقة من نمو الطفل يصبح واعياً لنفسه بعض الشيء، ويتزامن ذلك مع نمو تجربته ومعها محتوى خياله، اضافة الى التغيرات الهرمونية التي تتحكم في سرعة نمو الاستجابات للاثارات الحسية. وهذه العوامل كلها تجعل من النمو الجنسي في الطفل نمواً لا يتم على نهج مستقيم الاتجاه. وعلى العموم فان الطفل في طفولته المبكرة يظهر في البداية ما يدلل على استجابته للاثارات الحسية او الانعكاسية بسبب اللمس التلقائي او العرضي من غيره.

الاستفاقة الجنسية

ان من الصعب تحديد الزمن الذي تحدث فيه الاستفاقة الجنسية للطفل، أي ادراكه الواعي بالرغبة وكيفية إثارتها وارضائها. غير ان ذلك يحدث عندما يصبح الطفل واعياً لنفسه وواعياً لاستجاباته النفسية الحسية، أي عندما يصبح قادراً على تحفيز نفسه وعلى المسارعة في التجربة وعلى الوعي للارضاء الشهواني. وعلى العموم فان الاستفاقة الجنسية في الطفل تتخذ شكلين؛ الشكل الاول هو استفاقة الاثارة الجنسية الذاتية، وذلك عندما يصبح الطفل واعياً بان بامكانه أن يثير نفسه باللمس وارادته على القيام بذلك. اما الشكل الثاني للاستفاقة، فهو ينجم عن الاثارة الجنسية الخارجية، وهذه الاستفاقة ذات طابع اجتماعي جنسي، ذلك ان الطفل يثار من الغير عن طريق احاسيس اللمس والبصر والشم والذوق او عن طريق الخيالات الفكرية.

ومع ان من الصعب تحديد الفترة الزمنية التي تبدأ فيها هذه التحولات من الاستيقاظ، الا ان بعض الناس يتذكرون الشكل الاول من اليقظة الجنسية الذاتية وهم في عمر ٣ ـ ٤ سنوات، كما افاد بعضهم بأنهم كانوا يمارسون الاستمناء حتى في هذا السن المبكر وكانوا يجدون اللذة والرضا بسبب ذلك. وقد افاد كنزي في دراساته عن السلوك الجنسي بأن الاطفال بين سن (٢ ـ ٥) سنوات يقومون اضافة الى عبثهم باعضائهم الجنسية بحضن وتقبيل والديهم وغيرهم، وبأن بعض الاطفال يبدون انتصاباً عندما يشاهدون فتاة جميلة. واورد كنزي حالة طفلة كانت تشعر باحساس عام من التنميل العام في جسمها عند رؤيتها لقفا طفل عارٍ في صورة فوتوغرافية. هذا وقد افاد الكثيرون بما هو معروف عن حدوث الاحلام الجنسية في الاطفال، وهي تجربة طفولية غير نادرة ان لم تكن عامة. وفي حالات اليقظة فان الممارسات ذات الطابع الجنسي كثيرة الوقوع عند الاطفال الصغار، وبعض هذه الممارسات تأتي بالصدفة، وبعضها يأتي نتيجة التقليد او حب الاستطلاع، وبعضها يأتي بهدف محدد لارضاء الرغبة. هذا وليس بالنادر جداً ان نرى بعض الاطفال من الجنسين، وفي سن طفولة مبكرة، يقومون بحركات امتطاء، او باوضاع استلام، تماماً كما يحدث من حركات جنسية في الكبر في كل من الذكر او الانثى، ومعظم هذه الممارسات تحدث تلقائياً وبدون تعرض الى تعلم أو مشاهدة او تلقين وحتى قبل ان يبدأ الطفل الوعي بما يفعله. ان الممارسات الجنسية الطفولية تستمر سواء اثيرت عمداً او تلقائياً او بالصدفة أو بالاثارة الخارجية. والظروف التي يحياها الطفل تساعد على كل ذلك، فاطعام الطفل وتحميمه وتطبيبه بالزيت والبودرة وحمله ودغدغته وتعريضه لمشاهدة الغير في اوضاع عارية او جنسية الطابع، كلها فرص تهيء له ما لا حد له من امكانيات الاثارة.

الذروة الجنسية عند الاطفال

لا تقترن معظم الممارسات الجنسية في الاطفال بالوصول الى حالة الذروة كما هو الحال في البالغين او الكبار. غير ان هنالك من يعتقد أن هذه الذروة تحدث فعلا، وأن الشعور باللذة بسببها هو شعور متماثل في الطفولة والكبر، ومن أن حدة الذروة واحدة في الحالتين، وأن البلوغ لا يغير من حدتها، وأن كل ما يحدث هو ان التغيرات الهرمونية الطارئة والغامرة عند البلوغ تقصر المدة بين الاستمناء وبين الوصول الى الذروة. ومع ان موضوع الذروة مجادل فيه بسبب تعذر اثباته بالقذف كما يحدث عند البلوغ، الا ان بعض الدراسات الاستبيانية افادت بان اثنين من كل خمسة من الاطفال من الجنسين قد افادوا بحصولهم على الذروة اثناء الاستمناء.

الاستمناء عند الاطفال

الاستمناء عند الاطفال Masturbation، ظاهرة مألوفة تبدأ في الطفولة المبكرة وتستمر خلال الطفولة بكاملها وبتزايد في نسبة وقوعها وتكرارها. وبسبب صغر الطفل وعدم اكتمال وعيه وارادته، فاننا نميل في معظم الحالات الى اغفال الطبيعة الاستمنائية للاثارة التلقائية او المتعمدة للاطفال وعبثهم باعضائهم الجنسية، وهو اغفال يجعلنا نعاني من قصور وسوء فهم

للحياة الجنسية عند الاطفال.

ان الدراسات حول موضوع الاستمناء تفيد بان واحداً من كل خمسة من الاطفال يستمني حتى الذروة في طفولته الصغيرة، وببلوغ السادسة او السابعة من العمر تزداد النسبة خاصة في الاولاد. وقد احصي بان نصف الاولاد يستنمون في سن او آخر قبل وصولهم مرحلة البلوغ، ومعظمهم يقومون بذلك عن طريق التقليد لغيرهم من الاطفال او الاحداث او بسبب وسائل التعريف من اولاد آخرين او بسبب وسائل الاعلام. وبالبلوغ فان معظم الاولاد يستنمون، واولئك الاحداث الذين لم يسبق أن استمنوا نتيجة التعليم من غيرهم او بسبب الصدفة، فانهم يبدأون عملية الاستمناء تلقائياً عند اول عملية قذف عند البلوغ. اما في الاناث فان الزيادة في عدد اللواتي يقمن بالاستمناء اثناء الطفولة والحداثة، تأتي على شكل زيادة طولية بين سن السادسة والسابعة وحتى سن العشرين، كما انه لا يوجد في الاناث أي عامل نفسي او فيزيولوجي محدد يبدأ عملية الاستمناء. ومع ان الاولاد قد يبدأون عملية الاستمناء تحت مؤثرات اجتماعية من التقليد او التعلم، الا ان الاناث يبدأن عادة الاستمناء بشكل مستقل عن المؤثرات الاجتماعية، ويتعلمن ذلك بالصدفة، وهن لا يصلن الذروة في عملية الاستمناء مع تمكنهن من ذلك.

الاساس البايولوجي لجنسية الاطفال

ليس هنالك من شك في اعتماد الحياة الجنسية عند الاطفال على اسس بايولوجية تقرر بداية مظاهر الحياة الجنسية ونموها في ادوارها المتعاقبة. ومع ان العامل الاجتماعي والمحيطي له تأثير كبير على مجرى الحياة الجنسية، الا ان هذا التأثير لا يحدث الا على خلفية من الواقع البايولوجي ويتفاعل معه، وهكذا فان التجربة الجنسية منذ بدايتها في الطفولة والحداثة وحتى البلوغ والكبر هي تجربة بايولوجية اجتماعية متكاملة ومتفاعلة.

لقد بين موني وابرهارت (١٩٧٢) بأن النمو الجنسي يحدث على شكل ادوار متلاحقة ومتواصلة من النمو، وبيّنا أن الدور الاول من هذا النمو هو دور مبرمج عند تكوين الجنين من كروموسومات (X)و(Y)، وهذا التكوين مع ما يتضمنه من برمجة يقرر فيما اذا كانت الغدد غير المتفرقة في البداية ستنمو في اتجاه تكوين المبيضين او الخصيتين، وعندما يحدث هذا التفريق الغددي فان كل الغدد المعينة تلتقط برنامجها الخاص من النمو، فاذا كانت الغدة مبيضاً فان الطفل المتكون يكون أنثى، واذا كانت خصية فانه يكون ذكراً، وبنتيجة ذلك فان افراز هرمون (الاندروجين Androgen) الذي يذكر التكوين الجسمي يحدث، وبدون ذلك فان من غير الممكن ان (يذكر) ما هو انثى. وتفيد الدراسات على ان الهرمونات الذكرية للجنين تؤثر في نواة الهايبوثالموس في الدماغ وبان هذا يؤدي الى اطلاق الهرمونات الجنسية (الجونادوتروبين Gonadotropine) من الغدة النخامية الصماء. واذا ما تم افراز هرمون الأندروجين (الذكري) في الجنين في اوقات حاسمة Critical - Periods من النمو، فان من شأن هذا الافراز ان يؤثر على

مراكز اخرى من الدماغ وخاصة الجهاز المعروف بـ (الجهاز الحافي Limbic System) وهو الجهاز الذي ينظم السلوك والعاطفة في سن الطفولة او الكبر.

وعند الولادة يبدأ الدور الثاني من المسيرة نحو تحقيق الهوية الجنسية، وذلك عندما تسلم الهرمونات الجنينية الطفل المتنامي الى المجتمع. ومع هذا التسليم، فان الهرمونات تظل تؤثر في عملية تكوين هذه الهوية لفترة اخرى بعد الولادة. وخلال هذا الدور (الاجتماعي)، فان الوالدين يعاملون اطفالهم بشكل يتناسب مع هويتهم الهرمونية. وعلى العموم فان معظم الأطفال يتعلمون هويتهم الجنسية (الذكر أو الأنثى)، من هذه المعاملة المختلفة من الوالدين. ومن تبين الاطفال لهذه الهوية الجنسية، فانهم يبدأون في تقليد الجنس الذي ينتمون اليه (الاب او الام). وتشمل مظاهر هذا الدور محاولة الطفل، ذكراً او انثى، (تكميل الهوية Complementation) عن طريق الرقص واللعب والمداعبة مع الجنس الآخر، الذكر مع امه، والانثى مع ابيها، وخلال هذا الدور يبدأ الطفل بملاحظة اعضائه الجنسية والقيام بمقارنتها بغيره ممن هم من جنسه او من الجنس الآخر. وهذه الملاحظة تساعد الطفل في ادراك هويته الجنسية والوعي بانه ذكر او انثى. ومنذ بداية الخامسة، يبدأ الاطفال العبث مع غيرهم من الاطفال بالأعضاء الجنسية، ويبدأون باظهار حركات مشتركة او جماعية من اللعب الجنسي، بما في ذلك حركات الامتطاء والتقبيل وحتى محاولات الولوج.

الجنسية المثلية في الاطفال

الجنسية المثلية في الاطفال (الممارسة الجنسية بين طفلين، او بين طفلتين) هي ظاهرة تختلف كثيراً عن الجنسية المثلية في سن الكبر. ومع التشابه في الأداء الجنسي، الا ان من الخطأ بحث الظاهرة في الاطفال والكبار في مجال واحد من البحث، وهو الخطأ الذي يقع فيه الكثيرون في مجتمعات وحضارات عديدة عندما يحكمون على الممارسات الجنسية المثلية في الاطفال بنفس الاحكام المعنوية والخلقية التي يحكمون بها على الكبار من ممارسي هذا النمط من العلاقة الجنسية. لعل من المتعذر التوصل الى تقدير صادق للممارسات الجنسية المثلية عند الاطفال من الجنسين في المجتمعات المختلفة، فالاطفال عادة، وخاصة في المجتمعات المتزمتة والتي لا تنظر الى مثل هذه الممارسات بارتياح، ان لم تكن معرضة للزجر والعقاب، فانهم يتكتمون في امر البوح بهذه التجربة في حياتهم، والكثيرون منهم ينكرونها في الكبر حتى في الاستبيانات السرية عن حياتهم الجنسية في زمن الطفولة. ومن الدراسات المفيدة ذات الدلالة على مدى انتشار هذه الظاهرة في الاطفال في المجتمع الامريكي اثناء فترة من التزمت والمحافظة الجنسية، ما افادت دراسة كنزي الاستبيانية بأن ٥٠٪ ممن استبينت آراؤهم من الذكور الكبار افادوا بانهم قد مارسوا الجنسية المثلية في وقت او آخر قبل وصولهم سن البلوغ، وبان نسبة ممارسة الاناث لها كانت اقل من ذلك بكثير. وقد تكون النسبة الفعلية في طفولة الجنسين اعلى من ذلك بكثير. وفي بعض الحضارات الاجتماعية الاخرى قد تقل او تزيد نسبة الممارسين للعمل الجنسي المثلي عند الاطفال وذلك تبعاً للنظرة الاجتماعية والاخلاقية لهذه الممارسة. ففي احدى هذه الحضارات الاجتماعية

East Bay وهي حضارة مجتمع ميلانيزي، فان العالم الباحث دفينبورت Davenport افاد في دراسة له (١٩٦٥) بأن الاطفال الصغار في المجتمع الذي درسه يمارسون الاستمناء بتقبل من اهلهم، كما وجد بان المجتمع يتوقع أن كل صبي قد مارس الجنسية المثلية في حياته قبل ان يتدرج الى العلاقة الجنسية مع الجنس الآخر، غير ان هذه الاباحة المتطرفة في هذا المجتمع لها ما يقابلها من التزمت والتحريم تحت طائلة العقاب في مجتمعات اخرى. وهنالك بطبيعة الحال درجات من الممارسة الجنسية المثلية في الأطفال بين هذين الحدين المتباعدين. والذي يلاحظ في هذا الموضوع هو التغير المستمر في درجة هذه الممارسات المباحة او المتسترة، وذلك تبعاً للتغيرات الاجتماعية والحضارية التي لها ان تميل الى التزمت اوالتسامح، والاتجاه الاخير هو الاكثر غلبة ووضوحاً في العصر الحاضر.

وبالنظر للانتشار الواسع لهذه الممارسة الجنسية بين الاطفال في مختلف الاعمار السابقة للبلوغ، وبصرف النظر عن البيئة والحضارة الاجتماعية، فان هنالك ميلاً الى الاعتقاد أن هذه الممارسة هي حدث طبيعي في مرحلة الطفولة، وأن هذا الحدث يتقرر بضرورات بايولوجية قد يكون من غاياتها تدريب الطفل على الممارسة الجنسية في الكبر. وقد وجد على سبيل المثال ما يؤيد هذه النظرة في ان الاطفال الذين لا يمرون بهذه التجربة هم اقل نمواً في ادائهم الجنسي في الكبر واكثر عطلاً في هذا الناحية. ويبرهن بعض العلماء على الاساس البايولوجي لهذه الظاهرة من شواهد الممارسات عند الحيوانات. ومن هذه الشواهد، ما تقوم به بعض فصائل القردة من سلوك جنسي من امتطاء وولوج واوضاع استسلام. وتفسر هذه الملاحظات بانها ممارسات ضرورية للحيوان الصغير لكي يتقن ممارسة العمل الجنسي عند الكبر. وقد لوحظ ايضاً أن ذلك يبدو اكثر ضرورة في الذكر منه في الانثى. اما في الطفل الانساني، فقد لوحظت حركات واوضاع الامتطاء وحركات الاستسلام (التقديم)، وقد لوحظت هذه الحركات في الثانية من العمر بدون أي دليل على ان الطفل قد تعلمها بالتقليد والمشاهدة. وقد لاحظ لويس Lewis (١٩٦٥) في الاطفال، ظهور حركات حوضية دافعة فيما بين الشهر الثامن والعاشر من العمر. وقد لاحظ ايضاً أن الطفل الذي يقوم بالامتطاء يبدي انتصاباً، بينما الطفل المستقبل لا يظهر بالضرورة مثل ذلك. والاطفال من الجنسين اثناء اللعب الجنسي يتخذون الوضعين في حركاتهما على التوالي في جلسة واحدة، غير ان بعضهم قد يتخذ وضعاً واحداً. والتبادل بين الاطفال في الممارسة الجنسية المثلية يحدث عادة في سن الرابعة، وفي سن لاحق، فان الذي يحدث هو ان الطفل الاكبر سناً يمتطي الطفل الأصغر سناً، وعلى الصغير كما يبدو ان يتقبل الدور الاستلامي، وهي ظاهرة متماثلة في جميع الحضارات الاجتماعية المعروفة. هذا وقد وجد كنزي في احدى دراساته الاستبيانية أن ٦٠٪ من الاولاد قد مارسوا الجنسية المثلية قبل وصولهم سن المراهقة.

ومع ان الممارسات الجنسية المثلية هي الممارسات الجنسية الغالبة عند الاطفال، الا ان من الممكن ان تكون هذه الممارسات ثنائية ويقوم بها الطفل مع من هم من جنسه من الأطفال او من الجنس الآخر، وهو الامر الذي يدلل على وجود الأساس الجنسي الثنائي في الانسان. ومثل هذا

الاتجاه الثنائي لوحظ في بعض صغار الحيوانات. وقد يرد السؤال عن سبب كثرة الجنسية المثلية في ممارسات الأطفال بدلاً من الاتجاه نحو الممارسات الجنسية مع الجنس الآخر، وهو الامر الذي يبدو اكثر منطقية. وقد نجد تفسير ذلك في أن معظم المجتمعات الحضارية تمارس درجة قليلة او شديدة من العزل الاجتماعي بين الذكر والانثى في الاطفال. ولهذا الواقع ان يعزز بالضرورة امكانيات الاتصال بين فئتي الاطفال وتحديد العبث الجنسي بينهما، والدفع الى الاتجاه نحو الجنس المماثل. هذا وقد يرد تفسير هذه الظاهرة الى عوامل اخرى قد يكون بعضها بايولوجياً وبعضها متصلاً بنمو الطفل وخيالاته وتركيزه في دور ما من نموه الجنسي النفسي على المنطقة الشرجية، وهو الامر الذي يترك اثراً لا ينمحي بسهولة من مخيلة الطفل، وله في وقت لاحق أن يؤثر في توجهاته للارضاء الجنسي.

ان الممارسات الجنسية المثلية في الطفولة على انتشارها وتركزها في حياة الطفولة، لا تمثل ابداً الهوية الجنسية النهائية للطفل او الطفلة. فقد يكون الواحد منها في طفولته ممتطياً او مستلماً او الاثنين معاً، وقد يكون ثنائي الممارسة يتجه نحو الجنسين في وقت او آخر، وجميع هذه الحالات لا تشير ابداً الى ما ستؤول اليه الهوية الجنسية في الكبر، او اذا كانت ستتجه نحو تكوين حالات الانحراف المعروفة بالجنسية المثلية Homosexuality في الكبر، ذلك ان تكوين هذه الحالات الانحرافية من الميول والأداء الجنسي لا تنجم عن الممارسات الجنسية المثلية في الاطفال والاحداث، وانما تأتي نتيجة تظافر عوامل عدة، من اهمها العوامل المحيطية، وخاصة العلائق التي تربط الطفل (او الطفلة) بوالديها. وسنتناول هذا الموضوع في مكان آخر عند بحثنا في الانحرافات الجنسية.

خلاصة وتعليق

لعل من المتعذر تلخيص الفيض العظيم من المعلومات والآراء والنظريات والمواقف بشأن الحياة الجنسية عند الاطفال. ومصادر كل هذه وافرة في المجال البايولوجي والنفسي والاجتماعي وغيرها من المجالات ذات العلاقة. وفيما يلي مختصر للموقف المعاصر بشأن هذا الموضوع الهام، ومنه يتبين أننا ما زلنا بعيدين عن الاتفاق علمياً واجتماعيا حول جوهر هذا الموضوع، وان كان من الواضح اننا نسير في اتجاه علماني في محاولة الفهم للأوجه المختلفة للحياة الجنسية في الاطفال.

(١) ان هنالك في الوقت الحاضر وفي الكثير من المجتمعات المتحضرة منها وغير المتحضرة، الكثير من سوء الفهم والتحيز بشأن الحياة الجنسية عند الاطفال، وبعض ذلك ناجم عن الجهل، وبعضه يعد استمراراً للتقاليد المتوارثة في النظر الى هذا الموضوع والاتجاه المتزمت والمتعصب حوله، والتشبث بالرأي بنقاوة وطهر الأطفال مما لا يقبل بأي تنويه بوجود حياة جنسية للطفل. ويعتبر اصحاب هذا الموقف ان ظهور مثل هذه البوادر في الطفل هو بمثابة رذيلة او انحراف، يقتضي عقابه او تقويمه بالشدة والقسر او العلاج.

(٢) هنالك الكثيرون، حتى ممن هم في المجال العلمي النفسي، ممن يحملون الرأي بان الحياة الجنسية عند الاطفال تبدأ فعلاً عند مرحلة البلوغ او قبيل ذلك بفترة قصيرة، وهم يعتقدون لذلك أن مظاهر الممارسة المختلفة قبل هذه المرحلة، هي مظاهر لعب وعبث، وأنها لا تمت للحياة الجنسية بسبب. وقد ورد الكثير من هذا الرأي على لسان معارضي فرويد في نظرياته عن الجنسية الطفولية، وقد كان حماسهم في نفي قيام الجنسية الطفولية متناسباً مع حماس فرويد في تأكيدها وبيان اهميتها.

(٣) ان هنالك الكثير من الملاحظات والشواهد التي تدلل بدون شك على وجود الممارسات الجنسية الطابع عند الاطفال في مختلف مراحل العمر من الولادة وحتى البلوغ. وجميع هذه الممارسات لا بد من تعليلها وفهم معانيها وغاياتها، ولهذا فان من الخطأ الفادح اعتبارها مجرد عبث لا طائل تحته: فالملاحظات تدل على ان الطفل يجد لذة وانفراجاً عندما يمارس أي مظهر من مظاهر الحياة الجنسية، وأنه يعاني من حصر وانفعال اذا ما اعيق انفراج ما هو قائم في نفسه من رغبة وتوتر، وأن توالي هذه الاعاقة قد يؤثر في سلوكه ونموه النفسي.

(٤) ان هنالك من يرى أن الممارسات الجنسية عند الاطفال تبدأ بصورة ما عند الولادة وحتى قبلها. وهي في هذه المرحلة تظهر بشكل تلقائي قبل ان تصبح واعية وارادية وهادفة، وأن هذا الوعي يحدث في سن الثانية من عمر الطفل. وبعد ذلك يمر الطفل في سلسلة متواصلة من الممارسات الجنسية والتي تاخذ مظاهر مختلفة، وخاصة بارتباطها بمناطق معينة من الجسم. وقد اعطى فرويد مراحل النمو ادواراً معينة، وربطها بمراحل معينة من النمو المقرر بايولوجياً. ومع ان فرويد لم يكن البادىء كلياً بنظرياته عن الجنسية الطفولية أو بمقرراتها البايولوجية وبارتباطها بمناطق جسمية في فترة ما من النمو، الا انه كان اول من نظم هذا النمو في مراحل محددة، كما انه حاول ربطها بالنمو النفسي للطفل، وعدها مراحل جنسية نفسية من النمو.

(٥) لقد قام جدل، وما زال قائماً حتى الآن حول ما يكوّن الممارسة الجنسية!! وهنالك في قطب متطرف من يرى أن الحياة الجنسية عند الاطفال تبدأ حتى قبل الولادة بمص الابهام او اصابع اليدين والقدمين، وأن مص الثدي عند الرضاعة ومص الاصبع في اي وقت، وعملية التبول والتغوط كلها مظاهر جنسية تعبر عن حالة من قيام التوتر والسعي للانفراج والحصول على اللذة. وفي القطب الأخر المتطرف يقع رأي اولئك الذين يعتقدون قيام الحياة الجنسية فقط عند البلوغ ومقدرة البالغ على القذف والاخصاب. ولعل الخطأ الكامن في كل من قطبي الجدل هو تباعدهما القائم بدرجة اساسية على محاولتهم التشبيه بين الحياة الجنسية في الصغر والحياة الجنسية في الكبر. والذي لا بد من ادراكه في هذا الامر، هو اختلاف مظاهر هاتين الحياتين عند الاطفال والكبار. فالحياة الجنسية عند الاطفال هي حياة من عملية النمو والتطور والحصول على تجربة، بينما حياة البالغ والكبير قد وصلت الى حالة كاملة من البلورة والنمو. ثم ان تجربة الطفولة الجنسية هي تجربة متعددة المظاهر سواء كان ذلك بفعل المؤثرات البايولوجية أو بفعل المحيط، بينما تجربة الكبر هي تجربة نامية ومحددة وهادفة وذات مظهر واحد في الحالات الطبيعية. ومهما

كان التباعد بين مظاهر الحياة الجنسية عند الاطفال والكبار، فلعل جوهر هذه الحياة واحد في كل منهما. فالرغبة الجنسية في الطفل سواءً كانت تلقائية وغير واعية او كانت واعية، فانها تسعى للانفراج، ويؤدي انفراجها الى حدوث اللذة، وهو تماماً ما يحدث في الكبار. ولو امكن لنا ان نتبين المراكز العصبية والهرمونية في الدماغ والجهاز العصبي التي تشترك في هذه العملية منذ بدايتها بقيام الرغبة وحتى الانفراج، فربما لا نجد فرقاً اساسياً بين ما يحدث من ذلك في الاطفال او الكبار.

(٦) ان ظهور الممارسات الجنسية المختلفة عند الاطفال بمظاهرها المختلفة لا بد انها تقرر بعوامل بايولوجية، وهو امر يتضح من توافق هذه المظاهر في مراحل النمو عند الغالبية العظمى من الاطفال وفي معزل عن عامل التعلم والتقليد، كما يتضح من التشابه في مظاهر السلوك الجنسي عند الاطفال ومظاهر هذا السلوك عند بعض الصغار في المراتب الحيوانية خاصة العليا منها كالقردة وغيرها. غير ان الممارسات الجنسية عند الاطفال تتأثر ايضاً بفعل العوامل الاجتماعية والحضارية والتربوية التي ينتمي اليها الطفل، وبهذا فهي ليست بالممارسات العبثية التي قد توحي بها، فهي قد تخدم اغراضاً بايولوجية من اعداد الطفل للمستقبل، وهو اعداد يمكنه من الأداء الجنسي بما يضمن التكاثر والبقاء، كما انها ممارسات قد تكون ذات اهمية في التكوين الاجتماعي والحضاري. فقيام هذه الرغبة، ومحاولة ارضائها ومصادر هذا الارضاء قد تكون حافزاً للطفل على حب البقاء وعلى اقامة العلائق العاطفية مع والديه بما يحقق أمنه واطمئنانه من ناحية، ويبقي على الرابطة العائلية من ناحية اخرى. ولهذه الممارسات اهميتها النفسية البالغة ايضاً لخيال الطفل وتصوراته وتفكيره وانفعالاته، فكلها تتشرب بالطاقة الجنسية، ولهذا لا يمكن البحث في الحياة الجنسية بدون البحث المتساوي والمتفاعل في الحياة النفسية كلها، وهو امر يصدق في الطفولة كما يصدق في الكبر، واهميته في الطفولة اعظم، ذلك انها تكون اساساً للنمو الجنسي النفسي في الكبر.

(٧) قد لا تقتصر أهمية الحياة الجنسية في الاطفال على النواحي البايولوجية المقررة، والتي تهدف الى البقاء والاعداد للمستقبل، او النواحي الاجتماعية والحضارية والنفسية، فهنالك علاقة لا شك فيها بين التجارب والخيالات الجنسية في الطفولة والصبا، وبين الاهداف العليا التي قد يتمثل بها الفرد ويسعى الى تحقيقها. فقد تكمن في الحياة الجنسية عند الاطفال معانٍ كثيرة تدفع به الى الاحساس والتعلق بالاشياء الجميلة في الحياة، وبالتالي الى تطوير هذا الاحساس نحو تجربة الخلق والابداع في مجال أو آخر من مجالات الحياة. هذا ومن الصعب علينا ان نتصور طفلاً يبدع في المستقبل، وقد خلت حياته الجسمية والنفسية من كل جذوة او حركة من الحياة الجنسية.

(٨) ان هنالك الكثيرين في يومنا هذا ممن يدركون اهمية الحياة الجنسية في الاطفال، كما ان هنالك الكثيرين، وبخاصة من المؤمنين بنظريات فرويد، ممن يربطون بين كبت الحياة الجنسية في الطفولة وبين قيام الأمراض والعلل النفسية في الكبر. وقد يصعب علينا الاعتراف كلياً

بالنظريات الفرويدية في الكبت، وما يتأتى عنه، فمصادر هذا الاثبات غير موضوعية ومن المتعذر تكرارها. غير ان من الخطأ الاعتقاد أن الرغبات الجنسية في الاطفال تتخذ احياناً مظاهر من الصعب او من المتعذر ارضاؤها مع الأهداف التي تثيرها او تتوجه نحوها، وهكذا لا بد من كبتها او كظمها، او التخلي عنها بمرارة او خجل او ارتباك أو خوف أو كراهية او حنق أو غيظ أو توتر او اضطراب في وظائف الجسم او الحياة النفسية للطفل النامي، مما قد يكون له اثره على حياته النفسية في المستقبل، غير ان مثل هذه الردود المسببة عن الفشل في احراز الانفراج الجنسي في الطفل ربما لا تؤدي الى ما يتوقعه لها البعض من آثار الكبت، والظهور فيها بعد بصور من الانحراف او المرض النفسي، فقيام مثل هذه النتيجة يعتمد على عوامل عدة منها قدرة الدافع الجنسي وطاقته، ومدى تكرار الفشل في ارضاء الدافع عند التحسس به، ومدى انعدام وسائل التصريف الممكنة للطاقة الجنسية على غير صورتها الجنسية المباشرة، اضافة الى أثر العوامل الاجتماعية والتربوية التي لها ان تقلل او تزيد من امكانية الكبت وقوته ومجاري تسربه في الحياة النفسية. ولعل من الخطأ ان يفترض احد أن الرغبات الجنسية للاطفال يجب ان تلبى وتسهل وتشجع على طبيعتها، وهي نظرة بمثل الفداحة من الخطأ كتلك التي تحرم الممارسة الجنسية في الاطفال بكاملها وتدعو الى كبتها وزجرها وعقابها. لقد تبنى الكثيرون، خاصة في العالم الغربي وامريكا بوجه خاص، الرأي التربوي النفسي بأن حياتنا النفسية قد نقيها من شوائب الامراض النفسية عن طريق التسامح في الممارسات الجنسية الطفولية، وذلك تفادياً لعمليات الكبت الطفولي والتي تكون الأساس للمرض النفسي. وقد ذهب بعض المتحمسين لهذه النظرية الى تأليف جمعيات للدعوة الى الاباحة الجنسية بين الاطفال، وبين الاطفال والكبار. وقد اثبت تطبيق هذا الأتجاه من التساهل والاباحة خطأه، وهو خطأ يكمن في عدم ادراك اصحابه أن نمو الحياة الجنسية في مراحل الطفولة لا بد له من ان يصطدم بعقبات من الفشل في الارضاء، ولولا ذلك، ولو امكن لكل طفل ان يرضي رغبته الجنسية بالشكل السريع والآني والذي لا يعترضه اشكال، لآلت الرغبة الجنسية وارضاؤها الى عملية بايولوجية حيوانية صرفة لا تخدم غرضاً غير غرض التكاثر والبقاء، ومثل هذا الغرض لا يمكن أن يخدم الجنس الانساني الذي يحتاج الى اكثر من الرغبة الحيوانية وارضائها لكي يجد ما يشده الى الحياة، واكثر من ذلك بكثير، لكي يكون خلاقاً ومبدعاً فيها. وهكذا فان درجة ما من الكبت والفشل والتحويل للرغبة الجنسية امر ضروري في حياة الطفل، اما المدى الذي يجب ان يذهب اليه ذلك، ومدى التساهل والتسامح في امر التعبير عن مظاهر الحياة الجنسية، فما زالا في حدود غير مقررة، كما يدلل على ذلك واقع التقاليد في مجتمعات عديدة منها ما هو متشدد ومنها ما هو متسامح، ومما لا شك فيه اننا ما زلنا في حاجة الى ابحاث اكثر دقة وموضوعية في هذا المجال، والى ان يتم ذلك، فليس لنا او لأي احد ان ينكر وجود الحياة الجنسية في الاطفال، او اغفال اهميتها في النمو النفسي للطفل، وفي مستقبل حياته في المجالات المختلفة.

الفصل السادس

الجنس في مراحل العمر

* مرحلة البلوغ
* مرحلة المراهقة
* مرحلة الكبر

الجنس في مراحل العمر

مرحلة البلوغ

الحياة الجنسية في سن البلوغ والمراهقة مرحلة حاسمة من مراحل النمو الجنسي وهي حصيلة عدة عوامل، فهي من ناحية تمثل استمراراً للنمو البايولوجي في اتجاه النضج الجنسي والذي تبدأ معالمه حتى في دور الجنين ويستمر في الطفولة بمراحلها المختلفة. ومن ناحية اخرى فان الحياة الجنسية في هذه المرحلة تمثل جانباً هاماً من عملية التحول الهرموني، وهي العملية التي تؤثر تأثيراً جذرياً على العمليات الفيزيولوجية من ناحية، وعلى المظاهر الجسمية من ناحية اخرى. ولهذا التحول أن يدخل عناصر جديدة من الدوافع الجنسية في حياة البالغ، وان يؤدي في نفس الوقت الى جلب انتباه البالغ الى التغييرات الحادثة في جسمه وأحاسيسه، والى اعادة رسم صورته عن نفسه بسبب هذه التغيرات. ويضاف الى هذه العوامل المؤثرة في تكوين الحياة الجنسية أثر المجتمع بما فيه من عادات وتقاليد ومثل وقيود متعلقة بالجنس، اضافة الى فعل عوامل حضارية وجغرافية وبيئية اخرى لها ان تقرر السن الذي يبدأ فيه البلوغ بالنسبة للفتى او الفتاة، وسرعة النمو من هذه النقطة والوصول الى علاقات جنسية طبيعية كالتي تميز الشباب وكبار السن.

ان البلوغ يبدأ عادة في سن الثالثة عشرة. غير انه من الناحية الفيزيولوجية لا يتحدد بهذا السن، فقد يبدأ قبل او بعد ذلك السن في كل من الفتى والفتاة. وهنالك مثلاً بعض المجتمعات التي يلاحظ فيها بلوغ الانثى وهي في الثامنة او التاسعة من العمر، وهنالك بعض الحالات التي يتأخر فيها بلوغ الصبي حتى السادسة عشرة او حتى بعد ذلك السن. ومع ان هنالك من يعتقد

أن بداية البلوغ تمثل الوصول الى حالة النضج الجنسي لكل من الذكر او الانثى، الا ان هذه البداية تستغرق حوالى العامين منذ هذه البداية تحدث خلالها تحولات جسمية جنسية تسمى بالخصائص الجنسية الثانوية، وذلك استجابة للزيادة الطارئة والمستجدة لهرمونات الاندروجين او الاستروجين. ولهذه التحولات الجسمية والجنسية ان تحدث اخلالاً بصورة البالغ عن نفسه وان تجعله اكثر وعياً وحساسية لما اصابه من تغيير. وقد يكون كل هذا التغيير بمثابة صدمة نفسية للبالغ، ولهذه الصدمة ان تكون أكثر او اقل ايذاءً تبعاً للمفاهيم السائدة نحو الجنس في مجتمع البالغ، وخاصة في مجتمعه البيتي وفي علاقته مع والديه وفي الطريقة التي يتناولان فيها هذه المرحلة الطارئة والهامة من حياة البالغ او البالغة من اولادهما.

مع التحول في الخصائص الجسمية الجنسية في سن البلوغ يطرأ تحول آخر يتحسس به البالغ على شكل دافع داخلي للتعبير عن طاقته الجنسية. وينظر الى هذا الدافع في هذه المرحلة لا كمجرد استعادة مختصرة لادوار النمو النفسي الجنسي في الطفولة، وانما كحدث جديد كلياً في شعور البالغ بما يدفعه بالحاح في اتجاه التعبير عنه بطريقة او اخرى، ولما كان البالغ لا يملك بعد المقدرة على التصرف بهذه الطاقة الجنسية على النمط الاجتماعي الطبيعي، او حتى ادراكها، فلا بد له ان يتجه لاثارة نفسه بنفسه للحصول على الاستجابات التي تطفىء شعلته الجنسية الى حين، وذلك بممارسة الاستمناء، وسرعان ما تصبح هذه العادة وممارستها بدرجة الفكر والفعل القسري، وهذه ظاهرة تكاد تكون عامة تشمل جميع الذكور في هذه المرحلة، وقل ان يخلص من ممارستها أحد. اما في الاناث فهي اقل انتشاراً وان كانت معظم الاناث منذ سن المراهقة وحتى سن الزواج يمارسن الاثارة الذاتية لاغراض مماثلة. والذي يحدث من اثر لهذه الممارسة على البالغ او المراهق يعتمد على موقف والديه من الممارسة، وما توافر لديه من معلومات عن نتائجها، ومن هذه الآثار الشعور بالذنب او الاثم، والخوف من المرض الجسمي او العقلي، والقلق خشية أن ينفضح أمر الممارسة في نطاق العائلة او المجتمع. غير ان من اهم آثار الممارسة هو ما يمكن ان تدفع به المراهق من امعان في الخيالات الجنسية، وهي خيالات قد تصطدم مع مثله الحياتية والتي بدأ في تكوينها، واهمها عاطفة الحب، خاصة اذا ما اتخذ الفتى او الفتاة من يحب شريكاً جنسياً في الخيال.

**

ان هنالك بعض الاختلاط في مفهوم كل من البلوغ والمراهقة، ومع التداخل الزمني بينهما. الا ان البلوغ شيء والمراهقة شيء آخر. فمن الناحية الزمنية فان الجزء الاول من فترة البلوغ، ومدتها حوالى السنتين، تتداخل مع الفترة الاخيرة من الطفولة وتقع فيها، وفي هذه الفترة يسمى الحدث (قبل المراهق، او البالغ) وهو في هذه الفترة لا يعتبر ناضجاً من الناحية الجنسية، الا ان مظاهره الجسمية لم تعد طفولية كما كانت. اما الجزء الثاني من عملية البلوغ فيلي هذا الجزء الاول ويستمر لمدة سنتين اخريين. وفي هذه الفترة تكمل عملية البلوغ والنضج الجنسي، ويقع هذا الجزء الثاني من البلوغ ضمن مرحلة المراهقة الأولى، وهو يتضمن ليس فقط نضج النواحي

الجنسية، بل يشمل تغييرات هامة في شخصية المراهق وفي علاقاتـه مع الحيـاة والمحيط ليصبح اكثر اندفاعاً واقل توازناً واستقراراً.

مرحلة المراهقة

مرحلة (المراهقة) تعني اشياء مختلفة بالنسبة للكثيرين. ولهذا فان من الصعب تحـديدهـا وان كان هناك اتفاق ضمني على انها تمثل دورة النمو في الشخصية بين فترة الطفولة السابقة لها، وفترة الرجولة التالية لها. وهنالك من يعرف هذه الفترة الحياتية بانها تلك الفترة التي تقـع بين وصول الحدث الى مرحلة الاكتمال الجنسي كحد ادنى، وبين وصول الفرد الى مرحلة المسؤولية القانونية الكاملة، والتي يعتبر سن الثامنة عشرة عتبـة لها. وهنـالك اختـلاف في تحديـد الفترة الزمنية لمرحلة المراهقة، وفي مسألة عدّها فترة واحدة او فترتين او ثلاثاً. وهنالك كما هو معروف ما يقرر الاختلاف في تحديد كل ذلك في المتغيرات الفردية وفي الفروق الحضارية والاجتماعيـة والاقتصادية. وعلى العموم فان مرحلة المراهقة تقع ما بين حوالى سن الثالثة عشرة والثامنة عشرة بالنسبة للاناث، وبين الرابعة عشرة والثامنة عشرة بالنسبة للذكور. وتقسم ادوار المراهقة عادة الى مرحلتين، تنتهي المرحلة الاولى قبيل السابعة عشرة، وتمتد المرحلة الثانية بين السابعة والثامنة عشرة، وهنالك من الباحثين من يقسم فترة المـراهقة الى ثـلاث مراحـل، مبكرة، ووسـطى، ومتأخرة.

ان اهم مـا يعنينا في مـرحلة المراهقـة في هذا البحث هـو تعيين سمـات الحياة الجنسيـة للمراهق والكيفيـة التي تتفاعل فيها طاقته الجنسية مع واقع حيـاته وامكـانياتـه، ففي السنتين الأوليين من فترة المراهقة يكمل الحدث الجزء الثاني من عمليـة البلوغ، وخلال هـذه الفترة لا يحدث فقط النضج الكامل للجنس من النواحي البايولوجية (الاعضاء الجنسية والجسم بشكـل عام)، وانما يطرأ ايضاً نمو وتحول في سمات الشخصية من الناحية السلوكية والعاطفية بما في ذلك ما يتعلق منها بالحياة الجنسية. وفي مرحلة المراهقة بكاملها نجد أن المراهق يتجه باهتمام شديد وملح نحـو الامور الجنسيـة، وهذا الاهتمـام يقترن بتغيـير في اتجاهـات المراهق في عـلاقـاتـه الاجتماعية، كما انه يتخذ من هذه العلاقات وسيلة للتعبير عن طاقـاته الجنسيـة. ففي الفترة الاولى من المراهقة، فان المراهق البالغ يجد نفسه مضطراً للاتجاه في علاقاته الوثيقة نحو مراهقين من جنسه، وبعض هذا الاضطرار يأتي بسبب الموانع الاجتماعية والتي تفرق بين الجنسين عند وصول مرحلة البلوغ، وبعضه يأتي بسبب ما يحدث من تغيرات جسمية في هـذه الفترة، وهي التغيرات التي تشوه صورة المراهق عن نفسه وتبعده عن الاتجاه نحو الأنثى. ولهـذه الاسباب، اضافة الى الفعاليات المشتركة بين البالغين من نفس الجنس، فان المراهق يتصرف بكليتـه نحو تأكيد وترسيخ علاقاته مع مراهقين من جنسه. ومن الطبيعي في مثل هذه الحالة ان يجد من هذه العلاقات وسيلة لتصريف طاقته الجنسية الملحة، ويأتي ذلك اما عن طريق الاستمناء الفردي او المتبادل او المشترك او طريق العلاقة الجنسية المثلية. وللرابطة بين المراهقين ان تتطور الى علاقة تقترب من مفهوم الحب الافلاطوني، وان كان من الصعب تحديد الفروق بين النواحي الروحية

والنواحي الجسدية في مثل هذه العلاقة. وانغماس المراهق في هذا النوع من العلاقة مع مراهق من جنسه، لا يقفل الباب امام توجه اي منهما نحو الاهتمام الجنسي بفرد من الجنس الآخر، وهذا الاهتمام يتطور وينمو تبعاً للظروف الحضارية السائدة والامكانيات المتاحة للمراهق للتعامل او الاتصال بفرد من الجنس الاخر. ومتابعة الحياة الجنسية للمراهق يفيد بأن هذا النمو والتطور يمر في عدة ادوار، تبدأ عادةبالاعجابعن بعد، ثم بفيض من عاطفة الحب تتركز على شخص معين، وما يحدث بعد ذلك يعتمد على امكانية الاتصال ومداه، وهي الامكانية التي تحددها القواعد الاجتماعية السائدة. والغالب في نمط هذه العلاقات في مجتمعنا هو مرور المراهق في دور من التعلق وبعاطفة اكثر ما تكون ضرباً من عاطفة الحب الرومانسي، والتي يكون هدفها النهائي الزواج. ودخول المراهق في مثل هذه العلاقات مع فرد من الجنس الآخر، وهي علاقات في معظمها، ان لم تكن في كليتها، علاقات وجدانية، لا تكفي لتبديد الطاقة الجنسية، فمثل هذه العلاقات قد تربط بعض هذه الطاقة وتبددها، غير ان لها ان تزيد في اذكائها واثارتها والحاحها. ذلك لان المراهق قد يجد نفسه مدفوعاً لاراحة نفسه من التوتر والمعاناة الناجمين عن تعلقه العاطفي وما قد يصادفه فيه من فشل، وهو يحاول ذلك عادة بالتنفيس الجنسي عن طريق الاستمناء او عن طريق علاقة جنسية مماثلة او طبيعية.

ان هذه الادوار التي يتطور فيها المراهق في حياته الجنسية، تتلاءم مع ما يحدث في نفسه من تطورات نفسية وهذا التطور في المجالين قد يكون ضرورياً لاعداد المراهق لتجاوز مرحلة المراهقة والدخول في مرحلة النضج والرشد والمسؤولية. غير ان هنالك ما يؤيد الاعتقاد أن هذه المرحلة، اي مرحلة المراهقة بمحتواها الجنسي والعاطفي، غير ضرورية لبلوغ مرحلة النضج والرشد، ذلك ان هنالك اقواماً ومجتمعات عديدة لا تعرف فيها فترة المراهقة، والتي ينتقل فيها الفرد من الطفولة حتى الرجولة في مرحلة واحدة فاصلة وهي البلوغ، وهي المرحلة التي تهيىء البالغ للزواج والانجاب. وعلى ذلك فيمكن اعتبار المراهقة مرحلة حضارية في حياة الفرد وليست بايولوجية، وان زمنها وما يحدث خلالها يحمل بالضرورة سمات هذه الحضارة وتقاليدها. ان التجارب الجنسية التي يمر بها المراهق بما في ذلك احلام اليقظة الجنسية والاستمناء والجنسية المثلية وغيرها من مظاهر التعبير عن الدافع الجنسي اما بصورة طبيعية او بصورة محزنة، لها ان تتضارب مع مثل المراهق، وكلما امعن المراهق في وسائل الافضاء الجنسي زاد خطأه وارتباكه في احتواء طاقاته الجنسية ووضعها في سياقها ونطاقها الصحيح في مجمل حياته النفسية. ومن شأن ذلك الخطأ ان يؤدي الى تشويه الصورة المثلى للعلاقة بينه وبين الجنس الآخر. واذا ما انتهت هذه العلاقة باستعجال الزواج، فان سلبيات تجاربه تلتصق حتماً بالحياة الزوجية، مما له ان يؤدي الى افشالها، ولهذا فقد يكون من الخطأ اقدام الفرد على الزواج وهو في خضم فترة المراهقة، وهو الحال الذي يمنعه من تمييز ما يريده بالفعل لحياته المستقبلية. ولوصول المراهق الى مرحلة النضج الكامل والملائم في حياته الجنسية والنفسية، فلا بد له من ان يستطيع اولاً التحكم بدوافعه الجنسية، والتخلي عن الممارسات وطرق التعبير غير الناضجة لحياته الجنسية، والتوصل الى تبني قيم ثابتة ومقنعة ومتلائمة مع واقعه الاجتماعي، والشعور بالمقدرة على ان بامكانه تحقيق رغباته

الجنسية والنفسية بصورة ثابتة ومستديمة مع شخص من الجنس الآخر مع الاحتفاظ بهويته الكاملة.

مرحلة الكبر

هنالك تفاوت في تعيين حدود هذه المرحلة بين مجتمع وآخر، وبين فترة زمنية واخرى، ويعود التفاوت الى اختلاف حول معدل متوسط العمر فبينما قد تكون مرحلة العمر بين الخمسين والستين هي المرحلة الأخيرة من الحياة في بلد او زمن ما، فان سنة السبعين او الثمانين تمثل هذه المرحلة الاخيرة في بلد او زمن آخر. وهنالك في هذا العصر ارتفاع مستمر في حدود المرحلة الاخيرة من العمر، كما ان هنالك تضييقاً في مجال الفرق بين حدود هذه المرحلة بين مجتمع وآخر. وفي المجتمع الغربي تعد بداية مرحلة الكبر عند بلوغ الخامسة والستين وتمتد حتى نهاية الحياة. ويقدر افراد هذا الدور الحياتي بحوالى ١٢٪ من مجموع السكان، ويتوقع بلوغهم ٢٥٪ من السكان في مطلع القرن القادم.

ان الحياة الجنسية للفرد في هذه المرحلة تتوافق على العموم مع حالة الفرد الجسمية والنفسية وهي في جميع هذه النواحي تميل تدريجياً، وان كان ذلك بصورة غيرمنظورة، الى التنازل والانحدار. وكما هو الحال في المجالين الجسمي والنفسي، فان كفاءة الفرد في هذه المرحلة وسرعة التنازل في هذه الكفاءة تتقرر بعوامل عديدة، منها كفاءة الفرد من الناحية الجنسية طوال حياته السابقة، ومحل الجنس في حياته الحالية، وحالته الصحية بشقيها الجسمي والنفسي، اضافة الى خصائص شريكه الجنسي في الحياة. واذا ما ضمنت جميع هذه العوامل بصورة ايجابية، فان للفرد في هذه المرحلة ان يتوقع حياة جنسية متوافقة مع عمره، وتتسم بالقناعة والرضا والمتعة حتى بلوغه سن السبعينات والثمانينات. وقد ايدت ذلك الكثير من الدراسات والتي افاد بعضها بأن هنالك ٧٠٪ ممن بلغوا الثامنة والستين ممن ما زالوا نشطين جنسياً، وحوالى ٢٥٪ من اولئك الذين بلغوا سن الثامنة والسبعين. وهي نسبة عالية اذا ما اخذنا بعين الاعتبار العوامل السلبية المرضية التي يكثر توافرها في هذه المرحلة.

* *

ان للحياة الجنسية في مرحلة الكبر ان تتأثر بفعل عوامل عدة منها ما هو فيزيولوجي، ومنها ما هو نفسي، ومنها ما هو جسمي ويتعلق بالامراض المختلفة التي قد يصاب بها المسن. فالعامل الفيزيولوجي يرتبط بالحقائق البايولوجية للحياة ويعبر عنها. واهم هذه الحقائق اتجاه العمليات البايولوجية الى التنازل والانحدار بعد سن الشباب. فقوة الانتصاب تبلغ اقصاها في هذه المرحلة، ومن بعد ذلك اما أن يحتفظ الفرد بهذه المقدرة لفترة ما، او يبدأ ولو بصورة غير محسوسة، بفقدان قدر منها. وقد اجريت الابحاث لقياس درجة انتفاخ القضيب اثناء النوم الحالم، فتبين بان مدة هذا الانتفاخ تبلغ ٣٢٪ من زمن النوم في الأحداث بين سن ١٣ ـ ١٥ سنة، وبان هذه المدة تتنازل تدريجياً لتبلغ ٢٠٪ من زمن النوم بين سن ٦٠ و٦٩ سنة من العمر. ومن مظاهر التنازل البايولوجي مع تقدم العمر تزايد الصعوبة في التوصل الى الانتصاب،

والتأخر في الوصول الى القذف، وتزايد الضعف في قوة القذف ومداه، والتـزايد في طـول فترة استعصـاء الانتصاب Refractory Phase، وتـزايد الحـاجة الى مـا يثير استجـابة الانتصـاب. وهنالك بطبيعة الحال التناقص في درجة الالحاح او الدافع للجنس وممارسته، كما يتضح ذلك من تناقص معدل العلاقات الجنسية مع تقدم العمر منذ المراهقة وحتى الكبر. اما من الناحية النفسية فان للحياة النفسية للفرد ان تقلل او أن تزيد من النشاط والمتعة الجنسية للفرد المسن، فكثيراً ما تحصل هذه الزيادة بسبب ما قد يجلبه الكبر للفرد ولشريكه الجنسي من التحرر من هموم الحياة ومسؤولية الاولاد، وسبب اكتشاف الواحد في الآخر بجوانب تعزز التفاهم والتعاطف والتجاذب بينهما مما لم يكتشفاه في انفسهما من قبل. وبهذا يستطيعان المقدرة على التعبير الجنسي بصورة تفوق قوة ونوعاً ما تعودوه في الماضي، ولهذا أن يتواصل بصورة طبيعية حتى سن طويل الا اذا اعترض الواحد علة او مرض يحدد من حيويته وطـاقاتـه. والى جانب هـذه العوامـل النفسية الايجـابية فهنالك عوامل نفسية سلبية لها ان تؤثر في الحياة الجنسية للفرد الكبير، ومن هذه شعـور الفرد بعدم الثقة بنفسه من الناحية الجنسية، وقلة او انعدام التوافق في الشراكة الجنسية، وقلة او ندرة الفرص الجنسية، ونظرة المجتمع الى الحياة الجنسية عند الكبار، وهي نظرة قد تنكر على الكبار وجود مثل هـذه الفعاليـة في حياتهم. ومن اهم العـوامل السلبيـة التي يمكن ان تؤثر في الحيـاة الجنسية للفرد في هذه المرحلة هي ما يمكن ان يحدث من تغيير في الحياة النفسية للفرد خاصة في اتجاه الكآبة او القلق. فالكآبة لهـا ان تصرف الفـرد عن التفكير بـالجنس وان تقلل من دوافعه الجنسيـة، اما القلق، وخـاصة القلق النـاجم عن الخـوف من ان يؤدي الجنس الى المـرض او الموت، فان له ان ينهي العلائق الجنسية. والعامل الثالث المؤثر في الحياة الجنسية لكبار السن هو عامل المرض الجسمي، وتأثير هذا العامل يعتمد على شخصية المريض وما يعنيه المرض بالنسبة له، وعلى طبيعة المرض ودرجته. وموقف المرضى من حالات مرضهم يتراوح بين اللامبالاة او التحدي او المحاذرة. وأي مرض جسمي يصيب الكبير يمكن له ان يحدث تأثيراً جسمياً او نفسياً قد ينعكس بدرجة ما على دوافعه ونشـاطه الجنسي، ولهـذا الفعل أن يكـون اكثر شـدة واكثر استدامة من اثر الامراض في مرحلة سابقة من مراحل الحياة. وقد لخص ماسترز وجونسون أهمية العامل المرضي الجسمي بقولهما (١٩٦٦): «اذا كانت هنـالك مستـويات مـرتفعة من النشـاط الجنسي حافظ عليها الفرد في سن مبكر، وبدون تدخل امراض حـادة او مزمنـة، فان الـرجل الـذي يتجـه نحـو الكبـر لـه ان يستمـر في التمتـع بنـوع مـا من التعبـير الجنسي النشط حتى السبعينـات، او حتى الثمانينـات من العمر». وقـد لخص بفايفـر Pfeiffer الموضـوع بقـولـه: «باستثناء امراض موجودة ومعينة، فان التغييرات الفيزيولوجية لا تسدل الستار على الجنس، لا في الرجل الكبير او في المرأة الكبيـرة. ولأي مرض هـام ان يصيب الكبار ان يؤدي الى عـطل جنسي من نوع او آخر، غير ان ما من مرض له ان ينفي على المريض كونه كائناً جنسياً». كما قال مثل ذلك جولدن (١٩٧٦) «مهما كان الفرد مقعدا او مشوها بسبب الاصابة بالسرطان او التهاب المفاصل، وامراض القلب، وشلل الاطراف السفلى، او غيرها، فان الرجل او المرأة لا يتوقفان عن كونهما كائنين جنسيين، لهما نفس الرغبات والتوقعات والحاجات التي لمثلنا جميعاً».

**

ان المسألة التي تثار في موضوع الكبر والجنس هي مسألة العلاقة بين الاسراف الجنسي في المراهقة والشباب ومتوسط الحياة، وبين مقدار الكفاءة الجنسية في الكبر، وهنالك اعتقاد شائع في هذا الموضوع هو ان لكل فرد رصيداً محدداً من الطاقة الجنسية، وبان الاسراف في الجنس يؤدي الى استنفاد هذه الطاقة في وقت ابكر من المعتاد، مما له ان يؤدي الى العنة المبكرة او العطل الجنسي. هذا وليس هنالك ما يسند هذا الاعتقاد، وعلى العكس فان للنشاط او الفعالية الجنسية في الصغر أن تنبىء باستمرار ذلك في الكبر، الا اذا طرأت عوامل اخرى معطلة للجنس. وعلى العموم فان لسمات الحياة الجنسية في الصغر ان تتواصل في الكبر مع أخذ اثر العمر بعين الاعتبار. وهنالك من الدراسات ما يبين أنه على عكس ما هو متوقع، فان ما بين ١٠ الى ٢٠٪ من الكبار يزيد نشاطهم الجنسي في الكبر على ما كان عليه في فترة سابقة من العمر.

* *

ومن المسائل الاخرى التي تسترعي الاهتمام في هذا الموضوع هو الفرق في اثر الكبر على الحياة الجنسية لكل من الذكر والانثى؛ فمعظم الدراسات تبين أن التحولات البايولوجية التي تؤثر عادة في الذكور، لا تأثير لها على الحياة الجنسية للانثى. وعلى العموم فان المرأة تستطيع اكثر من الرجل، ان تستجيب بكفاءة للدوافع الجنسية بمعدل مرة او مرتين في الاسبوع حتى الستينات والسبعينات من العمر. وهي لا تعاني من عطل العنة الذي يعانيه الرجل والذي يزداد شدة ووقوعاً بتجاوز الرجل سن الخمسين. ويبدو ان قلة او توقف هرمون المبيضين في الأنثى بعد سن اليأس لا تأثير له على امكانياتها او نشاطها الجنسي. ولهذا ان يفيد بأن السيطرة على هذه الامكانيات وهذا النشاط تأتي بفعل هرمونات غير مبيضية او بفعل عوامل نفسية او بفعل الاثنين معاً. واذا كانت الانثى لا تفقد الكثير من امكانياتها ونشاطها الجنسي في الكبر، الا أن الاستجابات الفيزيولوجية للاثارات الجنسية تتباطأ مع تقدم العمر، ومن هذه الضعف والبطء في المقدرة على ترطيب الفرج، والضعف في التقلصات العضلية المصاحبة للذروة، والبطء في استرخاء حلمة الثدي المنتصبة، وهذا يقتضي لاحتفاظ الانثى بقابليتها الجنسية ان تكون ممارستها للجنس متواصلة طوال عمرها الناضج. ذلك ان هنالك من البينات ما يفيد بأن الترك لمدة طويلة قد يؤدي الى حالات من الضمور وضعف الاستجابة في اعضائها الجنسية، مما يقلل من دوافعها الجنسية.

الفصل السابع

الجنس والزواج

* رابطة الزواج
* انماط الحياة الزوجية
* الجنس والزواج
  ١ ـ الجنس قبل الزواج
  ٢ ـ الجنس في الزواج
  ٣ ـ الجنس خارج الزواج
* الحياة الزوجية والمستقبل

الجنس والزواج

رابطة الزواج

قد لا يستطيع الباحث ان يتوصل الى تحديد الكيفية التي بدأ فيها الزواج في تاريخ الانسان او الزمن الذي ابتدأ فيه، غير ان لنا ان نفترض بأن ذلك قد حدث في تلك الفترة التي انتقل فيها الجنس من مجرد سلوك بايولوجي الى مرتبة اوسع من السلوك الحياتي. ففي وقت ما من نشوء الانسان لا بد ان حياته الجنسية تحددت بالعلاقة الطارئة والمتاحة والعابرة بين الذكر وبين الانثى. ولعل الذكر في هذه العلاقة قد مارس اسلوب الصيد في علاقاته الجنسية كما مارس غيرها من الحاجات الضرورية في حياته. اما ما تأتى عن مثل هذه العلاقة الجنسية من حمل الانثى وانجابها، فلا بد ان مسؤولية رعاية النشء الجديد قد وقعت على الانثى دون الرجل.
وفي وقت لاحق من تطور الانسان نشأت الرغبة عند الذكور نحو اختيار شريك جنسي معين والاحتفاظ بها لأطول مدة ممكنة، ونشوء هذه الرغبة يمثل في آن واحد بداية الاختيار للشريك الجنسي، وهي بداية تدلل على نفاذ الجنس الى النفس، كما تمثل خطوة تطورية اخرى انتقل فيها الانسان من اسلوب التعامل الآني مع المحيط، الى اسلوب التعامل على المدى الاطول، وهو الاسلوب الذي يضمن ارضاء حاجاته بصورة اكثر دواماً. ولعلنا نجد في هذه الخطوة التطورية في العلاقة الجنسية، من علاقة عرضية وعابرة، الى علاقة من الاختيار والاحتفاظ، بأنها بداية للحياة الزوجية، وهي على هذا المستوى من البداية تتوافر في حياة كائنات اخرى ومنها مجتمعات الخيول غير المدجنة في البراري، والتي تقوم فيها العلاقات الجنسية على اساس من التفضيل والاحتفاظ والاستئثار.

لقد عرف احد القانونيين الزواج بأنه الرابطة التي تلبي ثلاثة اغراض، اولها انجاب الاطفال، وثانيها ارضاء الرغبة الجنسية، وثالثها المصاحبة وما تعطيه للشريكين من راحة وايناس واطمئنان. وقد لا يجد احد تعريفاً افضل او اكثر تحديداً لمؤسسة الزواج في الحياة الانسانية واهميته في تلبية حاجات الطبيعة الانسانية. وقد اعتمد بعض الباحثين هذه العناصر الثلاثة في الدراسات المقارنة عن مؤسسات الزواج المختلفة في حضارات ومجتمعات مختلفة. وقد قام تيرنر Turnner (١٩٧٠) بتحليل هذه العناصر الثلاثة كما يلي:

الرابطة الجسدية: الجنسية، الشهوانية ـ والتي تتسم بالرغبة والدافع الآني لارضائها.

الرابطة النفسية: من الحب والتعاطف ـ والتي تتصف بالتواصل بين شخصين.

الروابط الاجتماعية: القانونية والاقتصادية: والتي تتقيد بالحقوق والواجبات للطرفين وبالمسؤوليات البيتية المستمرة. ومن الواضح من امعان النظر بهذه العناصر الرئيسية الثلاثة ومن محتوى كل عنصر منها، ان مؤسسة الزواج يمكن ان تقوم على ركيزة واحدة منها دون الركيزتين الاخريين، فالزواج قد يلبي الحاجة الجنسية بينما يكون مفرغاً من المحتوى العاطفي والمسؤولية الاجتماعية والعائلية، وقد يضمن الرابطة العاطفية بدون قيام علاقة جنسية أو مسؤولية اجتماعية او بيتية، كما انه قد يحقق الروابط الاجتماعية والعائلية، بينما هو خالٍ من المحتوى الجنسي والعاطفي. وهذه كلها امكانيات وظواهر متوافرة في الحياة الزوجية لكثيرين من الناس، كما ان نمطاً او آخر منها له ما يشابهه في الحياة الزوجية لمجتمعات بدائية عديدة. وفي تقرير الأهمية النسبية لجميع هذه العناصر، فليس هنالك ما يدلل على ان توافر الواحد منها اما بمفرده او بصورة اقوى من غيره من الروابط، له ان يقرر اما نجاح الزواج كمؤسسة، او يقرر مدى استمراريته من الناحية الزمنية.

ان من المعروف جيداً في حياة الانسان قديماً وحديثاً، وفي مجتمعات حضارية وبدائية، بأن العناصر الثلاثة التي اشرنا اليها وهي الرغبة الجنسية، والرابطة العاطفية، والرابطة البيتية ـ بما في ذلك الاولاد ـ لها ان تتوافر في حياة الانسان ذكراً او انثى وبدون قيام مؤسسة الزواج، اضافة الى ان توافر اي عنصر منها قد يكون اكثر قوة في حياة الفرد من قوته داخل مؤسسة الزواج، فقد تلبى الحاجة الجنسية خارج الزواج اكثر من داخل الزواج في حياة الكثيرين من المتزوجين، كما ان الرابطة العاطفية قد تكون اكثر قوة وعنفاً خارج الزواج، ومثل ذلك في الرابطة الاجتماعية بمضمونها الاقتصادي والمعنوي. ومع هذا الواقع من امكانية توافر الضعف في العناصر المكونة للزواج وامكانية توافرها بصورة اكثر قوة خارج الزواج الا انه يبدو مع ذلك بأن الزواج كان في الماضي وما زال في الحاضر اكثر انماط العلاقة قبولاً واعتناقاً عند الغالبية العظمى من بني الانسان وبصرف النظر عن اصولهم الحضارية ومستوياتهم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية. ولعلنا نجد تفسير هذه الظاهرة، إما في ان الزواج يوفر الحد الادنى من العناصر الثلاثة التي بنيت عليها مؤسسة الزواج مما لا يمكن توافره بهذا القدر في معظم العلاقات الاخرى التي يمكن ان تربط بين الجنسين، او ان الزواج في حد ذاته يعطي للزوجين هوية من الانتماء لحياة جديدة لا يمكن

الحصول عليها بدونه، حتى ولو تحتم على الزوجين أو احدهما، ان يدفع ثمن هذا الانتماء بما يزيد ظاهرياً عن مزايا الرابطة التي تربط الشريكين في العلاقة الزوجية.

انماط الحياة الزوجية

في عملية نشوء وتطور الحياة الزوجية اتجه الانسان الى اعتماد صيغة الارتباط بين الشريكين على الصورة التي تتوافق مع العرف الاجتماعي والعقيدة الدينية. ومع الاختلاف الواضح في الاعراف الاجتماعية والعقائد الدينية عبر العصور وحتى الزمن الحاضر، فان الاتجاه الغالب في الحياة الانسانية هو الجمع بين الزوج والزوجة في مسكن واحد او الرعاية المشتركة لمن ينجم عن هذه الرابطة الزوجية من اطفال. كما اتخذت الرابطة بين الزوجين الاجراءات والمراسيم اللازمة والتي تثبت قيام حالة من التعاقد بين طرفي الرابطة، وهو تعاقد يلزم الطرفين بالالتزام اما بنص التعاقد او بروحه، وبصرف النظر عما اذا كان العقد مكتوباً او مضمناً بطبيعة العلاقة الزوجية. غير ان الانسان في الماضي قد خرج عن هذاالمضمونللحياة الزوجية، كما أن اقلية من الناس في عصرنا الحاضر قد خرجوا ايضاً عن الصيغة التقليدية للرابطة الزوجية، ولهذا فقد عرفت انماط متعددة للرابطة الزوجية نذكر منها الانماط التالية:

١ ـ تعدد الزوجات، والذي عرف في تاريخ الحضارة العربية والاسلامية، وهو نمط من الحياة الزوجية قد تناقص كثيراً في عصرنا الحاضر، غير ان له ما يماثله في حضارات قديمة وفي حياة مجتمعات عديدة معاصرة.

٢ ـ تعدد الازواج، وهو نمط عرف في الماضي، وما زال ممارساً في حضارات معاصرة خاصة في جنوبي وسط آسيا، حيث تستطيع الانثى ان تتخذ اكثر من زوج واحد، وتمارس حق اختيار من تعاشره جنسياً، كما انها تختار من احد ازواجها من تضفي عليه صفة الابوة لمولودها، والذي يتوجب عليه ان يرعاه كابن.

٣ ـ زواج المتعة، وهو صيغة من الزواج قد لا تلزم الزوج باكثر من رعاية ما ينجم عن العلاقة الزوجية من اطفال، وان كانت الرعاية لا تفرض المساواة بين اولاد الزواج التعاقدي واولاد زواج المتعة.

٤ ـ زواج يسمح للزوجة بأن تنجب طفلاً من غير زوجها اذا اراد زوجها ذلك، وهو نمط عرف عند عرب الجاهلية. وكان الدافع له هو الحصول على اطفال من صلب رجل عرف بالشجاعة والفروسية.

٥ ـ زواج مجتمع سكان جزر تروبرياند Trobriand، وهو نمط من الزواج يحقق ارضاء الرغبة الجنسية للشريكين، كما يحقق انجاب الاطفال، وتسود هذا النمط من الزواج الالفة والمودة والحرارة. غير ان عبء رعاية الاطفال من الزواج يقع على عائلة الزوجة مما يحرر الزوجين كلياً من الالتزامات الاقتصادية والاجتماعية التي ترتبط عادة بالاطفال.

٦ ـ زواج مجتمع الأكان Akan، وهو زواج له جميع خطوات ومراسيم العلاقات المؤدية للزواج من حب بين الطرفين، وخطوبة، وموافقة الأهل وتقديم الهدايا، غير أن الزوجين يعيشان منفصلين عن بعضهما، فالزوجة تظل في بيت والديها، وكذلك الزوج، وتقوم الزوجة بزيارة زوجها في الليل، كما تقوم بتزويده بالطعام الذي تعده في بيت والديها، ويقوم الزوجان برعاية الاطفال بالمشاركة، غير انهم يظلون في حوزة والدي الزوجة او اخوتها. وهذا النمط من الزواج كما هو واضح يحرر الزوجين من الارتباطات القانونية والاقتصادية. كما انه يسهل عملية انهاء الزواج في حالة استنفاد العلاقة الزوجية للحب والعاطفة والجاذبية الجمالية والجنسية بينهما. وهو امر لا يفرض اي التزام على الطرفين، ذلك لأن العائلة عن طريق الام، وليس العائلية الزوجية، هي الوحدة القانونية والاقتصادية الدائمة.

٧ ـ الزواج الجماعي، وهو زواج يشترك فيه عدة افراد من الجنسين. وتكون العلاقة الجنسية فيه مشاعاً بين الشركاء من الجنسين. ومثل هذا الزواج معروف في بعض المجتمعات في الوقت الحاضر، غير ان عدد المنتسبين اليه يعدون بالآلاف فقط. وبالنظر لتعذر اقامة حالة من التوافق بين اعضاء الجماعة، فان معظم حالات هذا الزواج تنتهي بالفشل بعد اسابيع او اشهر من بداية الزواج.

٨ ـ زواج المبادلة ـ التأرجح Swinging، وفيه يتبادل الزوجان العلاقة الجنسية مع زوجين آخرين أو مع اكثر من زوجين. ومثل هذا النمط من الزواج عرف في الماضي وذكر عن عصر الجاهلية. وقد انتشر هذا النمط في بعض المجتمعات الغربية وخاصة في امريكا، ويقدر عدد المشاركين فيه بين ١ الى ٢٪ من السكان. ومعظم حالات هذا الزواج تنتهي بالفشل السريع.

٩ ـ التعايش الزوجي Cohabitation، وفي هذا النمط من العلاقة يعيش الذكر والانثى في بيت واحد وفي غرفة نوم واحدة ويمارسان العلاقة الجنسية ولكن بدون زواج شرعي، وهذا النمط من العلاقة واسع الانتشار في امريكا بصورة خاصة، وتقدر نسبة المشاركين فيه من طلبة الجامعات ما بين ربع الى نصف عدد الطلبة. وترتفع النسبة تدريجياً لتصل ٥٠٪ بانتهاء الدراسة الجامعية. وتفيد متابعة هذا النمط من العلاقة الجنسية بأن معظم حالات التعايش تنتهي بالزواج بين الشريكين، او ان احدهما ينتقل الى حالة مماثلة من التعايش مع شريك او شريكة اخرى وهكذا الى ان ينتهي الامر بالزواج.

١٠ ـ الزواج المفتوح Open Marriage، وهو زواج بين اثنين يتفقان قبل الزواج او في بدايته على حق الطرفين باقامة علائق جنسية مع طرف آخر او بدون ان يؤدي ذلك الى توتير العلائق بين الزوجين. وهنالك في المجتمعات الغربية الكثير من انواع هذا الزواج. ومثل هذا النمط من الزواج لا يعتبر ممارسة جديدة، فطالما قبلت الانثى بحق الرجل في مثل هذه الممارسة، غير ان الجديد في الأمر هو قبول الزوج بحق الزوجة في ممارسة مماثلة.

١١ ـ الزواج التعاقدي، وهو زواج ينص منذ البداية على مواد معينة تحدد حقوق

وواجبات طرفي الزواج بما في ذلك النواحي الجنسية. ومثل هذا النمط التعاقدي غير جديد ايضاً في الحياة الزوجية، فالتقاليد العبرية القديمة قد تبنت قواعد معينة للحقوق الجنسية لكل من الزوج والزوجة، وحددت الحد الادنى من المواقعات الجنسية لكل فئة من الفئات الاجتماعية. ومما تجدر الاشارة اليه ان الكاتبة المعروفة اثيل مانتج قد دعت قبل اكثر من ثلاثين عاماً لأن يكون الزواج تعاقدياً لفترة زمنية محددة قابلة للتجديد.

الجنس والزواج

في مفهوم بعض الديانات والتقاليد الاجتماعية تتحدد ممارسة الجنس في نطاق الرابطة الزوجية. ويعتبر كل نشاط يخرج عن هذا النطاق اما امراً محرماً او مخالفاً للتقاليد وما يترتب على هذا الخروج من عقاب او تأنيب، ومع ان هذا التحديد شمل الجنسين من الناحية النظرية، الا ان وطأة التقييد قد وقعت على الانثى بصفة خلصة بينما نظر الى خروج الذكر عن هذه القاعدة العامة امراً اقل تجريماً ومدعاة للعقاب بكثير. وعلى مثل هذه الخلفية من التحديد والتسامح، فقد نشأت اتجاهات عديدة من الخروج على هذه القاعدة، وقد حظيت هذه الاتجاهات بمواقف متباينة من القبول او الرفض في حضارات ومجتمعات مختلفة قديمة ومعاصرة. ومع أن هنالك ميلاً تلقائياً للاعتقاد بأن الناس في الماضي كانوا اكثر التزاماً بالقواعد الدينية والاجتماعية من حيث العلاقة بين الجنس والزواج، الا ان البينات تثبت بأن كل خروج معاصر عن هذه القواعد له ما يماثله في ماضي الانسان نوعاً او كماً. غير ان خروج الانسان المعاصر عن القواعد التقليدية في السلوك الجنسي هو اكثر اثارة بالنسبة لنا، ذلك انه اكثر وضوحاً مما كان في الماضي، كما انه اكثر علانية وانفضاحاً بسبب ما يحظى به من سبل الترويج والاعلام المعاصرة مما لا نظير له في الماضي وحتى زمن ليس ببعيد. ولكي نقدم صورة واضحة عن هذه الناحية من الحياة الجنسية، فإنا سنتناولها في مجالات ثلاثة، وهي اولاً: الجنس قبل الزواج، وثانياً، الجنس في العلاقة الزوجية، وثالثها الجنس خارج نطاق الزواج. وبالنظر لافتقارنا الى بحوث احصائية حول هذه المجالات من السلوك الجنسي في مجتمعاتنا، فإنا سنقصر انفسنا على تقديم بعض البينات المتوافرة عن هذا الموضوع في مجتمعات اخرى.

١ - الجنس قبل الزواج

افادت بعض الدراسات في المجتمع الامريكي (١٩٢٩) بأن ٥٤٪ من الذكور قد مارسوا الجنس قبل الزواج، وان هذه النسبة ارتفعت لتبلغ ٩٨٪ من اولئك الذين لم يكملوا دراسة البكلوريا (١٩٤٨). وبالنسبة للاناث فان نسبة اللواتي قمن بعلائق جنسية قبل الزواج تراوحت بين ٣٥٪ سنة ١٩٢٩، و٥٠٪ سنة ١٩٤٨. وفي دراسات تالية بين سنوات ١٩٧٤ - ١٩٧٨ سجل ارتفاع ملحوظ في النسب خاصة بين طلبة وطالبات الكليات والجامعات. فارتفعت النسبة في الاناث الى ٦١ - ٧٧٪ وفي الطلاب الذكور الى ما بين ٧٠ - ٩١٪. وقد ظهرت نتائج مقاربة لهذه في استبيان اجرته مجلة بلي بوي Play boy سنة ١٩٧٣، تبين بان ٨٤٪ من الرجال الذين تجاوزوا سن الخامسة والخمسين قد افادوا بأنهم مارسوا الجنس قبل الزواج، بينما افاد ٩٥٪ من

الذين هم دون الخامسة والعشرين بقيامهم بهذه الممارسات وذلك مقابل ٣١٪ من الاناث ممن بلغن الخامسة والخمسين، و٨١٪ من الاناث دون سن الخامسة والعشرين. وهي دراسة تدلل على ارتفاع كبير جداً في نسبة الممارسة الجنسية السابقة للزواج من الاناث في السنوات الاخيرة. وفي دراسة في انجلترا على الفين من الفتيان والفتيات، (سنة ١٩٦٣) طرح السؤال فيما اذا كانت الممارسات الجنسية قبل الزواج تكون خطأ في جميع الحالات، أجاب ٥٩٪ من الاناث و٢٩٪ من الذكور بالايجاب. وفي دراسة تالية (سنة ١٩٧٠)، طرح السؤال على عينة جديدة، فاجاب ١٥٪ من الاناث و١٠٪ من الذكور بالايجاب، مما يظهر تحولاً كبيراً في المواقف نحو الممارسات الجنسية قبل الزواج. ولعل اكثر الحضارات الغربية خروجاً عن قاعدة العذرية قبل الزواج، وخاصة للأنثى، هي الحضارة السويدية. والتي أجاز فيها القانون الحرية الجنسية للأنثى وذلك بالقول: «ان المعادلة القديمة عن فضيلة الانثى التي تتمتع بالعذرية قبل الزواج، قد اختفت». وبنتيجة التشريع السويدي فقد دخلت الثقافة الجنسية في صميم مناهج التعليم للطلاب والطالبات معاً، بما في ذلك تلقين الانثى عن موانع الحمل، وتدريب الجنسين على العناية بالاطفال. ومع الاعتراف بحق الجنسين بالحرية الجنسية قبل الزواج، فان القانون قد نظم حق الانثى بالاجهاض والاحتفاظ بطفلها على المستوى الشرعي.

لقد اثار موضوع التسامح الجنسي واباحته او التغاضي عنه في حياة الجنسين قبل الزواج الكثير من الجدل. وحجة الذين يؤيدون هذا التسامح اما يجدون في الحرية الجنسية تحريراً للفرد من الكبت،وما يتأتى عنه من معاناة واضطراب نفسي او سلوكي، او انهم يجدون في الممارسة الجنسية قبل الزواج التجربة اللازمة التي تتيح للجنسين التيقن من ان الركيزة الجنسية لعلاقتهما تفي بتوقعاتهما، وتشجع على الارتباط بينهما بعقد دائم من الزواج،(وهي وجهة النظر السائدة في السويد والتي ترى في الجنس قبل الزواج نمطاً مقبولاً من السلوك الجنسي، وبأنه في هذه الفترة الزمنية من النمو يكون مجالاً لاختبار الحياة الزوجية قبل قيامها الفعلي. وهم يخلصون الى الرأي بأن العلاقة الجنسية قبل الزواج، خاصة العلاقة الثابتة، تؤدي الى الزواج في معظم الحالات. والذين يعارضون الحرية الجنسية قبل الزواج، يجدون فيها اتجاها نحو التبذل، ونحو تخفيض القيمة المعنوية لخصوصية وقدسية الجنس في الحياة، وبعضهم يجد في التسامح الجنسي ما يمكن ان يفقد الجنس دوره في الحياة كعامل اساسي في عملية التطوير والابداع، وما يشجع الرغبة في التنوع والتعدد الجنسي بعد الزواج وخارج اطار الحياة الزوجية. ويضيفون الى ذلك المشاكل التي كثيراً ما تتأتى عن مثل هذه العلاقات الجنسية وأهمها الولادة غير الشرعية او غير المرغوبة من الاطفال لعلاقة قد تكون عابرة وغير ذات معنى بالنسبة لاحد الطرفين او كليهما. ولعل من اهم ما يوجه من انتقاد للممارسات الجنسية قبل الزواج هو ان هذه الممارسات لها ان تسلب الحياة الزوجية من فعل العامل الجنسي، مما له ان يضعف الرابطة الزوجية وان يدفع الى حالة سريعة من الملل من العلاقات الزوجية الجنسية، وهم يدللون على هذا الرأي بارتفاع نسبة الطلاق وبقصر فترته الزمنية بعد الزواج في حياة اولئك الذين بدأوا العلاقات الجنسية قبل الزواج في سن مبكرة وباسراف وتنوع وتعدد.

٢ - الجنس في الزواج

تمثل الرابطة الزوجية المجال الأوسع والاكثر دواماً للممارسات الجنسية بالنسبة للانثى، وبالنسبة للذكر ايضاً وإن كان ذلك في حدود اقل. وحتى زمن غير بعيد في حضارات ومجتمعات عديدة نظر الى الجنس في الحياة الزوجية بانه العلاقة التي تربط الزوجين من أجل عملية الانجاب، كما انه رمز للرابطة العائلية. ونظر الى دور الزوج في العلاقة الجنسية بأنه دور امتياز وحق. والى دور الزوجة بأنه دور مطاوعة وواجب. وفي العقود الاخيرة من هذا القرن طرأ تطور واضح على هذه المعادلة غير المتكافئة بين الزوج والزوجة. واصبح ينظر الى الزواج والعلاقة الجنسية فيه على اساس من التكافؤ في الحقوق والواجبات لكل من الشريكين.

لقد افادت الدراسات الاستبيانية بأن معدل المواقعات الجنسية للزوجين قد زاد عما كان عليه في الماضي. ويفسر ذلك ليس على اساس التكافؤ بين الجنسين، وانما لأن الانثى اصبحت اكثر وعياً لحقوقها الجنسية، كما انها اصبحت اكثر تحرراً من النتائج غير المرغوبة في الجنس، وذلك بفضل موانع الحمل وامكانية الاجهاض. وقد كان من نتيجة فعل هذه العوامل انها زادت من عدد المواقعات الجنسية بين الزوجين بمعدل ٢٥٪ عما كانت عليه في مراحل العمر المختلفة، آخذين بعين الاعتبار ان عدد المواقعات الجنسية تتناقص بصورة متواصلة بعد سن العشرين، وخاصة في الانثى.

في رأي برنارد شو ان الزواج هو ترتيب يهدف الى تصعيد الاغراء الجنسي كما يهدف ايضاً الى زيادة الفرص لتحقيقه بالفعل. ومما لا شك فيه ان هذا الترتيب يحقق الهدفين معاً. غير ان الذي يحدث عادة هو استمرار توافر الفرص لتحقيق الجنس ما دام الزواج قائماً، بينما يتناقص الاغراء لممارسته مع الشريك الزوجي. وهو امر يقع في حياة الزوج اكثر من وقوعه في حياة الزوجة، وقد يصل التناقص حداً يعكس تصورات برنارد شو بحيث يأتي الزمن من الحياة الزوجية الذي يتوافر فيه الحد الأعلى من فرص العلاقة الجنسية، والحد الأدنى من الاغراء الجنسي. ومع ان مثل هذه النتيجة هي أمر متوقع بالنظر لهبوط الدافع الجنسي مع تزايد العمر، الا ان هنالك عوامل اخرى عديدة تساهم في تكوين هذه النتيجة. ففي المرحلة الأولى من الزواج يلعب الجنس دوراً هاماً، كما يتضح ذلك من عدد العلاقات الجنسية وعنفها والحماس في السعي الى تحقيقها، وباستمرار الحياة الزوجية يقل دور العامل الجنسي في الحياة الجنسية، فتقل العلاقات عدداً وحدة. ويقل الحماس الدافع لها. وبعض هذا الانخفاض ناجم عن ان العلاقة الجنسية بين الزوجين تصبح روتينية وينقصها التنويع. كما انها تفقد عنصر الاغراء والاثارة التي ترتبط مع العلاقات الجديدة والصعبة او المنحرفة. ويضاف الى هذه العوامل النفسية عوامل اخرى حياتية، ذلك ان للحياة الزوجية مشاكلها العديدة، ولهذه المشاكل ان تكشف عن وجود اختلافات كبيرة في وجهات النظر بين الزوجين، مما له أن يؤدي الى توتر في علائقهما الشخصية، وما لذلك ان يسببه من انعكاسات على الميول الجنسية بينهما.

ان مثل هذا الانخفاض في الرغبة الجنسية بين الزوجين له ان يؤدي الى حالة من الشعور

بالفشل والتوتر، ولهذا الشعور ان يؤدي الى قيام بعض مظاهر العطل الجنسي في كل منهما: ضعف الانتصاب في الزوج، وقلة حدوث الذروة في الزوجة، او ان يزيد من درجة العطل الجنسي ان وجد اصلاً في أي منهما. وعلى العموم فان الانثى هي اكثر من الرجل حاجة لتوافر العوامل النفسية والعاطفية لكي تثار ولكي ترتضي جنسياً. وهذا الواقع يتضح من ان احدى الدراسات الاستبيانية (١٩٧٨)، قد بينت بأن بين ١٥ ـ ١٧ في المئة من الزوجات لا يحصلن على الذروة ابداً مع ازواجهن، وان ما بين ٢٤ الى ٤٨٫٨٪ يعانين من صعوبة في الوصول الى الذروة. أي انهن يصلن الذروة في نصف حالات الجماع فقط، وان ٣٧٪ فقط من الزوجات لم يفدن بوجود اي عطل جنسي.

ان انخفاض الجاذبية الجنسية بين الشريكين مع مرور الزمن قد يكون العامل الاساسي في التفريق او الطلاق بين الزوجين. ومعظم حالات الطلاق تحدث بعد مرور السنوات الست على الزواج. وهو الزمن الذي يكفي لبلوغ المرحلة الحاسمة من الشعور بالفشل الجنسي بين الزوجين في تعزيز الرابطة النفسية بينهما. وفي حدوث ذلك، فان امكانية الطلاق تصبح امراً اكثر احتمالاً من امكانية استمرار العلاقة الزوجية. وعلى سبيل المثال فان زواجاً واحداً من كل ثمانية ينتهي بالطلاق في انجلترا، بينما في امريكا فان النسبة ترتفع لتبلغ واحداً من كل اربعة. وهنالك بينات اخرى من مجتمعات اخرى، بما في ذلك المجتمعات التقليدية والمتدنية والمحافظة، والتي اخذت فيها نسبة الطلاق تتزايد عما كانت عليه في الماضي. ومما لا شك فيه ان فشل الحياة الجنسية في ادامة روابط الزواج هو سبب اساسي في هذا التزايد، مهما اعطي له في الظاهر من مبررات اخرى. ومما يؤيد هذا الاعتقاد، هو ان قيام احد الطرفين بزواج جديد، يحيي عادة، ولو لبضع سنوات، الحماس الجنسي والكفاءة الجنسية من جديد. ويعتقد بعض الباحثين في العلاقة بين الجنس والزواج، ان استمرار هذا النهج من العلاقة الجنسية في الزواج له ان يؤدي الى التزايد من عدد اولئك الذين يقبلون على الزواج لفترات قصيرة يعقبها الطلاق، ثم الزواج من جديد. وهكذا عدة مرات، وهي الظاهرة التي تلاحظ في مجتمعات عديدة معاصرة، مما له ان يهدد مؤسسة الزواج، والتي طالما اعتبرت اكثر المؤسسات الاجتماعية استمرارية ودواماً. وقد علق احد الباحثين على هذا الاحتمال بقوله بأن الوقت سيأتي، والذي فيه سيتغير مضمون قسم الزواج الذي يقول: بالاخلاص حتى الموت، الى قسم آخر يتعهد بالاخلاص «حتى الموت او الملل».

ان هذه السلبيات الكامنة في الحياة الزوجية، لها ان تعطي التوقع بالعزوف والاعراض عن الحياة الزوجية، غير ان الوقائع تثبت عكس ذلك، وعلى سبيل المثال فان نسبة الذين لم يتزوجوا ابداً في بريطانيا قبل مئة عام بلغت ٦١٪، الا ان النسبة الآن للمتزوجين زادت عن ٦١٪. غير ان هنالك واقعاً آخر يفيد بأن دوام الزواج وثباته الآن هو اقل بكثير مما كان قبل مئة عام، غير ان هذا لا يعني بالضرورة بأن ثباته واستمراره في الماضي يتساوى مع كونه اكثر اقناعاً وارضاءً للمشاركين فيه جنسياً، ونفسياً. فامكانية هذا الاقناع والرضا في العصر الحاضر هي اكثر توافراً في العلاقات الزوجية منها من الماضي، وذلك بفضل المواقف من الجنس والتوافق

النفسي عند الزوجين وتكافؤ الزوجين في التمتع بحرية الرأي والرغبة والاختيار. وما نشاهده الآن من تناقص في ثبات الحياة الزوجية لا بد ان يرد الى فعالية هذه العوامل في الحياة الزوجية مما لا نظير له في الماضي. هذا وليس لهذا الواقع ان يقلل من الخطر الماثل والذي يدلل على ان مؤسسة الزواج تواجه المصاعب والتحديات التي من شأنها اذا تواصلت، ان تؤدي الى انقراض هذه الرابطة بمفهومها التاريخي، وهنالك اكثر من ظاهرة توحي بمثل هذا المصير، وهو الأمر الذي يقضي باستعجال الحلول العقلانية للابقاء على الحياة الزوجية كالوحدة النووية الاصغر والأهم فى الحياة الاجتماعية. ولعلنا نجد في بعض مظاهر الخروج عن المألوف والتقليدي في الحياة الجنسية لا مجرد الدليل على فشلها، بقدر ما هو الدليل على سعي الانسان لتطوير هذه الحياة بالشكل الذي يضمن استمرارها وثباتها حتى ولو بدا سعيه في الظاهر متجهاً نحو تحطيم هذه الحياة واستبدالها بانماط اخرى من العلائق بين الجنسين.

٣ ـ الجنس خارج الزواج

منذ بداية سن الشرائع وظهور الاديان المعروفة، وضع التأكيد على القيمة الاخلاقية لممارسة الزوجين الاخلاص لبعضهما في علائقهما الجنسية وحصر هذه العلائق في الرابطة الزوجية. ومع ان هذا التأكيد قد شمل الزوجين في معظم الاديان والحضارات، الا ان تأكيده على الانثى كان اكثر من تأكيده على الذكر. ولعل اصول هذا التأكيد ناجمة عن الحاجة الى ضمان حقوق التملك للزوج على زوجته ولضمان هوية النسل من العلائق الجنسية. وهذا الموقف يتضح في شدة العقوبات المترتبة على الزنا لكل من طرفي العلاقة، واهمال عقاب الذكر الزوج على ممارساته الجنسية خارج نطاق حياته الجنسية بما لا يكوّن حالة الزنا. وبسبب هذا التسامح، فان ممارسة الأزواج للعلائق الجنسية خارج الزواج قد انتشرت في الماضي في معظم الحضارات والمجتمعات، والى حد يصعب معه القول بأن هذه الممارسات في عصرنا الحالي تزيد كثيراً عما كانت عليه في الماضي. غير ان مما لا شك فيه هو ان ممارسة الانثى للعلائق الجنسية خارج الرابطة الزوجية كان امراً نادراً في الماضي، اذا ما قيس بممارسات الذكر، او بممارسات الانثى في عصرنا الحالي.

وقد افاد كنزي في دراسته سنة ١٩٤٨ بأن ٥٠٪ من الازواج قد مارسوا العلاقات الجنسية خارج اطار الزواج مع البغايا او الصديقات، بينما وجد النسبة عند الاناث في حدود ٢٦٪. وبينت دراسة كنزي ان نسبة اكبر من الأزواج غير المثقفين ثقافة جامعية يقبلون من صغرهم على العلاقات الجنسية خارج الزواج، بينما تزداد نسبة المثقفين الذين يقومون بهذه العلائق في سن اكبر، غير انهم لا يصلون الى الحد الذي يصله الاقل ثقافة في صغرهم من هذه الممارسات. وبينت الدراسة بأن الزوجة قلما تمارس الجنس خارج الاطار الزوجي في السنوات الاولى من الزواج، الا ان هذه الممارسة تزداد تدريجياً بعد تجاوز هذه المرحلة. وافادت الدراسة ايضاً بأن الانثى التي مارست الجنس قبل الزواج، هي الزوجة التي تحتمل ممارستها للجنس خارج اطار الزواج فيما بعد. وفي دراسات لاحقة، بين فرنش French (١٩٧٠) بأن نسبة اعلى من الذكور

والاناث يمارسون الجنس في سن اصغر مما كان في الماضي، وان نسبة اعلى من الجنسين تمارس الجنس في وقت ابكر من الزواج. وفي دراسة اخرى اجرتها مجلة (ردبوك Redbook) سنة ١٩٧٥، **افادت ٢٥٪ من الزوجات في سن ٢٠ ـ ٢٥ بانهن يقمن بالممارسات الجنسية خارج الزواج، وارتفعت النسبة لتبلغ ٣٨٪ في الزوجات بين سن ٣٥ وحتى سن ٣٩.** واظهرت الدراسة ايضاً بان هذه النسبة اعلى في الزوجات اللواتي يعملن منها في الزوجات ربات البيوت. هذا ولا يرى الباحثون في هذه النسبة ما يهدد الحياة الزوجية. ويعللون ذلك على اساس ان الزيادة ما بين دراسة كنزي ودراسة ردبوك هي زيادة طفيفة نسبياً (من ٢٦٪ الى ٣٨٪) اذا ما اخذنا بعين الاعتبار طول الفترة الزمنية بين الدراستين (حوالى ٣٠ سنة)، والتحولات العظيمة في المواقف الجنسية التي حدثت خلال هذه الفترة. ثم انهم يجدون في التوقف في زيادة حالات الطلاق، ما يؤيد الاعتقاد بان الحياة الزوجية تميل الى الثبات بدل الزوال.

في محاولة تحليل الدوافع التي تحفز الزوج او الزوجة الى السعي للارضاء الجنسي خارج العلاقة الزوجية يقدم الباحثون نظريات عديدة. منها ان مرور الجنسين بتجربة جنسية او اكثر قبل الزواج، له في حد ذاته ان يؤدي الى احتمال اعظم للقيام بممارسات مشابهة بعد الزواج. ومن الدوافع التي لا يمكن اغفالها هي حاجة كل من الجنسين الى اعادة التمتع بشعور الحب التي سبقت الزواج وهو الشعور الذي يقل بين الزوجين بعد الزواج، وهذا يدفع بالضرورة الى محاولة الدخول في تجربة جديدة حتى ولو كانت العلائق الزوجية متوافقة ومرضية جنسياً ونفسياً للطرفين. ويرى البعض بأن ضمان العلاقة الجنسية ورتابتها وروتينيتها وارتباط هذه العلاقة بسلبيات الجو العائلي ومشاكله، لها ان تقلل من جاذبية العلاقة الجنسية، اضافة الى ما يحدث على الجسم، وخاصة جسم المرأة من تحولات تضعف من الصورة الجمالية التي يحملها الذكر عن زوجته قبل الزواج او في بدايته. ويحلل آخرون هذه الظاهرة بأنها تعبير عن اصابة الذي يقبل عليها باضطراب نفسي. هذا ولا يمكن اغفال عامل هام يدفع الى قيام مثل هذه العلاقات، وهو توتر حالة من البناء النفسي بين الزوجين، والى حد يفقد الواحد منهما شعور المصاحبة والتناغم والايناس مع الطرف الآخر، ومتى حدث ذلك، فان شعوراً بالفراغ لا بد ان يحدث في حياة الواحد او الآخر، مما له ان يدفع الى محاولة ملئه بعلاقة من تحويل العاطفة نحو فرد آخر، وما قد يترتب على ذلك من علائق جنسية.

ان هنالك ممن يجد الدافع الاساسي نحو العلائق الجنسية خارج الزواج، سواء كانت مفردة او متعددة، بأنه يصدر عن طبيعة انسانية من الميل الى التنويع والتعدد في حياته الجنسية، وان كل ما نشاهده الآن من انتشار وتعدد هذه العلاقات في الجنسين لا يعتبر حدثاً او طبيعة جديدة في الانسان، بقدر ما هو الدليل على توافر هذه الطبيعة والقيام بتحقيقها اذا ما أتيحت الفرص والظروف الملائمة لذلك. وعلى خلفية من مثل هذه القناعات تفسر انماط العلائق الجنسية والروابط الجنسية داخل الزواج وخارجه. وهي الانماط التي تهدف الى اعطاء الصفة القانونية او الاجتماعية لمثل هذه الممارسات. ولعل اهم هذه الانماط، هو النمط المعروف بالزواج المفتوح Open Marriage، والذي نعته احد الباحثين بمصطلح «الزنا المتمدن» ويقول

السر Ellis (١٩٧٣) في تعريفه ما يلي:

« ان الزوجين يتفقان قبل او بعد زواجهما الشرعي بأن الزوجة او الزوج يحتمل ان يدخلا في علاقة خارج الزواج وبالموافقة الكاملة لكل منهما، وبدون قيام حالة من الغيرة، فانهما سيؤيدان هذا الاتفاق».

والمعروف ان مثل هذه الاتفاقيات بين الزوجين قائمة فعلاً في بعض المجتمعات سواء بصيغة كتابية او شفوية او بتفاهم صامت، ومع ان نسبة الذين يعملون بها هي نسبة قليلة جداً في الوقت الحاضر، الا ان هنالك من يتوقع لها انتشاراً اوسع في المستقبل. واذا حدث ذلك، فان نمطاً آخر من الحياة الزوجية سيظهر وبصورة لا بد لها ان تهدد المعالم الاساسية للحياة الزوجية المعروفة، واذا حدث ذلك، فان شكلاً آخر من الحياة الاجتماعية لا بد ان يظهر. مع ما يحمله ذلك من امكانيات التغيير في الحياة والحضارة الانسانية.

الحياة الزوجية والمستقبل

ان من الواضح ان تغييراً عظيماً قد حدث على الحياة الزوجية في هذا العصر، ومع ان انماط التغيير في معالم وطبيعة هذه الحياة قد عرفت وطبقت كلها في الحياة الزوجية عبر العصور، الا ان درجة واتساع التحول الذي نشاهده في هذا العصر هو اكثر مدى وقوة مما مضى، واكثر انتشاراً مما يهدد الحياة الجنسية في المستقبل المنظور.

ان الكثير من التحول في الحياة الجنسية يمكن اعتباره تطوراً ايجابياً، واهم ما في هذا التطور من ايجابية هو تمكين الانثى من ان تصبح في مرتبة متكافئة جنسياً مع زوجها، وهو الأمر الذي عزز حياتها النفسية وجعل من حياتها الزوجية اكثر من مجرد شريك غير كامل. وقد نجم عن اطلاق طاقة الانثى الجنسية في الزواج ليس فقط ارضاءها هي، وانما ادى الى متعة اعظم للزوج في علاقاته الجنسية. وهو امر يتضح من ارتفاع معدل المواقعات الشهرية للزوجين بمقدار الربع في جميع مراحل الحياة عما كان عليه في الماضي. وهنالك بيّنة ايجابية اخرى، وهي ان ارتفاع نسبة الطلاق المتزايدة خلال هذا القرن قد توقفت. وهنالك بوادر تشير الى احتمال تناقصها. واخيراً فان الاقبال على الزواج قد اصبح اكثر مما مضى ويكاد يشمل ٩٨٪ من الناس عاجلاً او آجلاً. وربما كانت هذه اعلى نسبة بلغها الانسان حتى الآن. وهذه البينات جميعها يمكن اعتبارها دلائل ايجابية لمصير نظام الزواج في المستقبل.

الى جانب الدلائل الايجابية عن مصير الزواج في المستقبل، تتوفر دلائل اخرى للباحث ان يعتبرها مؤشرة لاحتمالات تهدد مستقبل الحياة الزوجية. ولعل اهم هذه الدلائل تأتي من مصدرين، اولهما التسامح الجنسي قبل الزواج، وثانيهما، التسامح في العلائق الجنسية خارج رابطة الزواج، وخاصة العلائق التي يمكن ان تقيمها الزوجة. ولهذين المصدرين ان يقللا من اهمية العلاقة الجنسية بين الزوج والزوجة كأساس هام في تكوين الحياة الزوجية. غير ان اي محاولة للحد من التسامح نحو هذين المصدرين من السلوك الجنسي لا بد ان تأخذ بعين الاعتبار

ما يبدو من حـاجة ملحـة للممارسـات الجنسية في دور مبكـر من الحياة وعنـد كل من الـذكر والانثى، كما يقتضي الالتفات الى حاجة الجنسين، وخاصة الرجل، للتنويع والتعدد في سلوكه الجنسي. هذا وليس من السهل دحض الاعتقـاد بأن الحـاجات الجنسيـة قبل الـزواج، واتجاه الانسان لتنويعها وتعددها، قد يكون لها اساس بايولوجي يصعب التغلب عليه في حياة الكثيرين من الناس، غير ان مثل هذا التغلب قد يكون ممكناً، وذلك عن طريق جعل الحياة الزوجية اكثر جاذبية للجنسين. وتحقيق هذا الهدف قد لا يكـون ممكناً الا اذا ردت للحيـاة الزوجيـة قيمتها المعنوية، واعطي لطرفي هذه الرابطة حق الاختيار المبني على اكبر درجة من التوافق بينهما، واعطيا ايضاً، وخاصة الزوجة، المعرفة والحرية للمشاركة الجنسية والنفسية وعلى قدم المساواة مع زوجها.
وقد يبدو مما يظهر من السلوك الجنسي المتسامح في عصرنا بان الوصول الى مثل هذه الاهداف هو امر عسير، غير ان هنالك امثلة عـديدة ومن حضـارات تاريخيـة مختلفة، سـادها التسـامح والتبذل الجنسي، ثم انحسر ذلك ليعطي من جديد حياة امثل للحيـاة الزوجيـة، وان لم تكن بالضرورة الحياة الامثل من الناحية الجنسية.

الفصل الثامن

الحياة الجنسية للأنثى

* مقدمة
* الملاحظات والدراسات والابحاث
* الدافع الجنسي عند الانثى
* الاثارات الجنسية عند الانثى

مواطن الاثارة الجنسية

* الهرمونات والجنس
* استجابات الانثى الجنسية

دور التهيج

دور الهضبة

دور الانحلال والذبول

* المشاكل الجنسية للأنثى

١ ـ عطل الرغبة والمتعة الجنسية :

أ ـ عطل الرغبة

ب ـ عطل الارضاء الجنسي

ـ العوامل المؤثرة في الذروة

* العطل في العلاقة الجنسية

١ ـ عطل الاحتقان (الترطيب)

٢ ـ عطل تشنج الفرج

٣ ـ الجماع المؤلم

* المشاكل المشتركة في حياة الانثى الجنسية

١ ـ الاستمناء

٢ ـ الجنسية المثلية

٣ ـ الانحراف الجنسي

* مواقف الانثى من الجنس
* أدوار الحياة الجنسية للأنثى

١ ـ الحيض الاول

٢ ـ الدورة الشهرية

٣ ـ فترة الحمل

٤ ـ سن الياس

* الجنس في الكبر
* علاج العطل الجنسي في الاناث

الحياة الجنسية للأنثى

مع ان كل علاقة جنسية بين الجنسين منذ بداية الـوجود الانسـاني وحتى الآن قد تمت بالمشاركة بين الذكر والانثى، الا اننا ما زلنا نعيش في ظلام من الفهم للحياة الجنسية عند المرأة بالمقارنة مع ما هو معروف عن معالم هذه الحياة عند الذكور. ولهذا الواقع من عدم الفهم، او خطئه، أسبابه، والتي تنجم في معظمها من مقدرة الذكر على الاستئثار والتملك والدفاع عن ذلك، ومن حاجة الأنثى الى الرعاية والحماية التي لا يستطيع توفيرها الا الرجل. ومن هذه البداية في توزيع الأدوار الحياتية، اتجه الرجل نحو السعي الحيـاتي وضمان حـاجات الحيـاة، واتجهت المرأة الى العمل الذي يضمن تلبية الحاجات البيتية بما فيها حاجات الرجل الجنسية. وقبلت المرأة طوعاً او كرهاً بهذه الأدوار المختلفة والتي تجاوزت في بعض الأحيان ما هو معقول او مقبول من النـاحية البايولوجية والنفسية. ولم يكن مستغرباً لذلك أن يتوارث الرجل النظرة بان الحياة الجنسية هي للرجل دون المرأة، وبان دور المرأة هو دور الانثى المطاوعة لحاجات الرجل بما يتطلبه ذلك من توفير الاثارة له واستلام استجاباته الجنسية. وحتى انجاب الاطفال، فقد اعتبر الى زمن غير بعيد بانه من فعل الرجل، لأنه يعطي المني الذي يخرج منه الجنين، اما المرأة فهي تحمل هذا الجنين فقط ثم تلده دون ان يكون لها دور (وراثي) في تكوينه وبالشكل الذي نعرفه الآن عن المشاركة الـوراثية الكـاملة للأم عن طـريق البويضـات التي تخصب، والتي بدونها لا يمكن للحمـل أن يحدث. وجاء التطور الحضاري عبر التاريخ ليسند هـذه المعتقدات الخـاطئة عن دور المـرأة في الحياة الجنسية، ومالت معظم الحضارات الى الأخذ بالرأي بان لا حياة جنسية للمرأة، وانكرت عليها المتعة الجنسية، وعُدَّ اي مظهر سلوكي للمرأة يبتعد عن هذا الرأي دليلاً على الانحراف وان فيه اثم، او سحر، او استرجال، او شبق ينم عن مرض. ولم يكن للمرأة بد من ان تتكتم

وتستر عن حاجاتها الجنسية وممارساتها الجنسية، وعُدّ خروجها على هذا التقليد بأنه ينوه بضلالها وفساد خلقها. ولعل من المفارقات التي تحتاج الى تفسير وتحليل، هو كيف ان الرجل عبر عصور التاريخ قد توقع من المرأة ان تغريه وان تثيره وان توفر له المتعة، بينما ظل هو قابلاً بالجهل لحاجاتها الجنسية، وحتى منكراً لوجودها. ومهما كان تفسير هذه المفارقة، فانها قد حرمت الرجل من ادراك عملية (التلاقي) بينه وبين المرأة، وهي العملية التي لا يمكن ادراكها والتمتع بها الا اذا آمن الواحد بوجودها عند الآخر كما هي عنده، وبدون هذا الايمان والتوجه، فان الواحد، رجلاً او انثى، لن يستطيع بلوغ المرتبة العليا من حس الالتقاء والدمج في الشراكة الجنسية، مهما تصور أنه استطاع الحصول عليه من جانب واحّد.

* *

ان الكثير من المجتمعات الحضارية ما زالت تتمسك بمثل هذه الأراء والمواقف بشأن الحياة الجنسية للمرأة. غير ان هنالك الكثير من مظاهر التغيير في هذه الأراء والمواقف وبدرجات متفاوتة من الابتعاد عن المواقف التقليدية التي تنكر الحياة الجنسية على المرأة. وهنالك ضمن هذا التفاوت من يرى أن للمرأة حياتها الجنسية، غير انها اضعف بكثير مما يتمتع به الرجل من هذه الحياة، ومنهم من يرى أن هذه الحياة موجودة، غير انها مرتبطة بشكل اوثق بدور الانثى في الحياة زوجة واماً وربة بيت. وهي بذلك ليس لها حرية الانطلاق الجنسي، او حتى الاستعداد لهذه الحرية، بمعزل عن هذا الدور الحياتي، على عكس ما يتصف به الرجل من استعداد للفصل بين الحياة الجنسية ودوره الحياتي. وهنالك من استثير بنتائج الابحاث والدراسات العلمية عن الحياة الجنسية عند الانثى، او من ربط بين الحرية الجنسية وبين تحرر المرأة ومساواتها مع الرجل. ولعل الخطأ يكمن في البعدين المتطرفين من هذه الأراء المتباينة، فكما ان هنالك خطأ عظيماً في انكار الحياة الجنسية للمرأة، فان هنالك خطأ كبيراً مماثلاً في تصورنا أن الحياة الجنسية للانثى تتماثل وتتساوى مع الحياة الجنسية للرجل. ومع ان العلم لم يستطع بعد التوصل الى فهم كافٍ او كامل لحياة المرأة الجنسية، الا ان ما هو معروف حتى الأن يلقي بعض اضواء المعرفة التي لها ان تفند الكثير من الأراء السائدة والمتطرفة في هذا الموضوع.

* *

الملاحظات والدراسات والابحاث

ان مجمل الدراسات عن الحياة الجنسية للانثى هي حديثة العهد نسبياً ولا تتجاوز كثيراً المئة سنة الاخيرة، غير اننا لا نستطيع اغفال الملاحظات حول هذا الموضوع والتي وردت في سياق البحث في الامور الجنسية في عصور وحضارات مختلفة من التاريخ من صينية وهندية واغريقية وعربية وغربية. ومع ان الكثير مما جاء في هذه الابحاث كان لغرض التندر او الاثارة للشهوة عند الذكور، الا ان بعض ما ورد فيها يحمل دلالات الادراك والفهم للحياة الجنسية للمرأة بما لا يختلف كثيراً عن الفهم المعاصر لأوجه هذه الحياة. غير انه لم يقدر للمعلومات الهامة

في بعض هذه الابحاث ان تؤثر في مجرى تاريخ الابحاث الجنسية، وظلت هذه الكتابات، وحتى هذا الزمن، مجرد مصدر اعلامي عن الحياة الجنسية للمرأة يثير الشهوة ولا يدعو للفهم. وهو الامر الذي افقد هذه الكتابات قيمتها الحقيقية، او ربما الغاية من كتابتها.

ان معظم مصادر البحث المعاصرة في موضوع الحياة الجنسية عند المرأة قد بدأت في منتصف القرن الماضي وما بعده كجزء من البحث عن طبيعة الحياة الجنسية واصولها البايولوجية. ومع ان معظم الابحاث عن السلوك الجنسي وانحرافاته قد توجهت نحو الرجل، الا ان معظم الابحاث المتصلة بتأثير التجربة الجنسية وكبتها وتحويلها الى علة نفسية قد توجه الى الانثى، وكانت الحياة الجنسية للانثى المحرك الاول لنشوء النظريات التحليلية النفسية. وظلت معظم الدراسات في هذا المجال محصورة بالبينات السريرية التحليلية، مما له ان يضلل عن الفهم الصحيح للحياة الجنسية للمرأة. وتعد اول دراسة جدية للحياة الجنسية للمرأة، الدراسة التي قام بها كنزي Kinsey (١٩٥٣) - عن (السلوك الجنسي عند الانثى) وتلتها دراسة شسر Chesser (١٩٥٧) عن العلاقات الجنسية والزوجية والعائلية للانثى الانجليزية، ثم جاءت ابحاث ماسترز وجوشون (١٩٦٦) والتي انصبت في معظمها على ملاحظة الاستجابات الفيزيولوجية للعلائق الجنسية للانثى. ثم دراسة سيجوش وجماعته Sigusch (١٩٧٠) عن الفروق بين الجنسين في الاثارة الجنسية النفسية، ودراسات سيمون فشر Fisher (١٩٧٠ - ١٩٧٣) عن الذروة عند الانثى، وغيرها من المواضيع المتصلة بالحياة الجنسية للمرأة. ومن اهم الابحاث الحديثة هو بحث العالم النفسي ايزانك Eysenck (١٩٧٦) القائم على اساس قائمة استبيان مواقف الانثى نحو الجنس، وهو بحث يقارن ايضاً مواقفها مع مواقف الرجل بالنسبة لفردات الاستبيان. ومن هذه الابحاث وغيرها يمكن استخلاص النتائج التالية، وقبل عرض هذه النتائج، يقتضي ان نبين ان هذه الدراسات قد قامت على عينات من الاناث في مجتمعات غربية، لا تتشابه مع التركيب الاجتماعي لحضارتنا في هذا الجزء من العالم. ثم ان العينات المدروسة لا تمثل بالضرورة واقع الحال العام في المجتمعات الغربية، كما ان النتائج قد لا تنطبق مع واقع اصحابها الذين اجريت عليهم الابحاث والتجارب والملاحظات، فالامانة في الافادة عما يحدث فعلاً، ربما لا تتوافر في جميع الافراد بالتساوي، ثم ان مقدرة الفرد على تفسير ووصف ما يحدث بالفعل خاصة في المجال الشعوري، قد تتباين في حدود واسعة، ثم ان ما يلاحظ في تجارب دراسية، قد يختلف جذرياً عما يحدث في واقع الحياة. ومع هذه الاحترازات، فان ما حصل عليه الباحثون في ابحاثهم من نتائج يمثل جانباً هاماً من واقع الحياة الجنسية للأنثى لا يمكن اهمال اعتباره.

الدافع الجنسي للانثى

مع ان غير القليل من الناس ما زال يحمل الاعتقاد أن الانثى خالية من الدوافع الجنسية، وبان متعتها ان حدثت بسبب العلاقة الجنسية، فما هي الا متعة ناجمة عن شعورها برضى ومتعة شريكها الجنسي، الا ان مثل هذا الرأي لا يمكن اثباته او الدفاع عنه في اوجه البينات المتوافرة

والكافية لدحضه. فقد بات من المعروف والواضح ان الانثى، حتى في سني طفولتها الصغيرة تمارس العبث الجنسي بصورة او اخرى، وحتى بدون ملاحظة او مشاطرة الذكر، سعياً للاثارة الجنسية، وهذا السعي ليس له ان يكون ممكناً لولا ان الانثى، حالها حال الذكر، تتحسس بدافع يحملها على السعي للاثارة الجنسية بصورة ما. ثم ان من الضروري لنا ان نفسر الاستجابات الفيزيولوجية التي تصاحب الاثارة الجنسية، وهي استجابات لا يمكن ان تحدث تلقائياً وبدون تحريك من دافع او حافز. واخيراً فان شعور الانثى بالتوتر والتوقع، وما ينتهي اليه هذا الشعور من شعور الانفراج والمتعة والرضا، لا يمكن ان يحدث بدون توافر الدافع الى هذا التوتر ثم ارضائه واطفائه بالاستجابة لمقتضياته. وهكذا فان لنا ان نفترض ان الانثى لا تمثل فقط الاستجابة الجنسية للذكر، وانما تمثل استجابتها الذاتية للعلاقة الجنسية والتي تنطلق في الاساس من رغبتها ودافعها الجنسي، وهي بذلك تتساوى مع الرجل في توفير هذا الدافع في حياتها. غير ان القول بالتساوي لا يعني ان قوة الدافع الجنسي متساوية في الجنسين وفي جميع الاحوال. ومن الفوارق بين الجنسين في هذا الامر هو انه بينما لا يدخل الذكر في علاقة جنسية الا عند توافر الدافع الجنسي في شعوره، فان الانثى كثيراً ما تشارك بالعلاقة الجنسية بدون توافر هذا الدافع مطاوعة للذكر وارضاءً له. وفي مثل هذه الحالة فان استجاباتها الجنسية الفيزيولوجية والشعورية تكون ناقصة وتنم عن فقدان الدافع الجنسي. ولا يمكن لها لذلك ان تنتهي بالمتعة والرضى، لانه ليس هنالك من دافع يرضي ويستجاب له.

ان تفسير الدافع الجنسي للانثى، كالدافع الجنسي عند الذكر، ما زال بعيداً عن الاحاطة التامة بطبيعته واسسه البايولوجية، ومراكزه العصبية، والكيفية التي يبدأ ويتجمع بها. ومع الافتراض بوجود اساس بايولوجي للدافع الجنسي، الا ان هذا الاساس لا يبدو كافيا لتفسير مظاهر هذا الدافع في الانسان كما يفسرها في معظم الحيوانات. وهذا ينطبق على الانثى الانسانية كما ينطبق على الذكر. ومع أن هنالك اوجه شبه بين الدوافع الاساسية في الانسان كالجوع والعطش، وبين الدافع الجنسي من حيث تجمع قوة الدافع بالحرمان، وقلة الدافع بالارضاء والاشباع، الا ان هنالك مظاهر اخرى تتباين في موضوع الدافع الجنسي، والتي لا بد من تفسيرها، ومهما كان التفسير للدافع الجنسي وفروق هذا الدافع عن دوافع اساسية اخرى، فان مما لا شك فيه ان هذا الدافع وجد لكي يحقق فعله ويرضي، وأن عملية الأرضاء تعطي الشعور باللذة، وأن اعطاء هذا الشعور ضرورة حياتية لا لمجرد التكاثر فحسب، بل لتشجيع الانسان على البقاء في عالم غير خال من اللذة، وليس هنالك من فرق في اجزاء هذه الفرضية بين الذكر والأنثى.

يعرض التساؤل فيما اذا كان للانثى نفس القوة من الدافع الجنسي، ونفس المقدرة على تجميع الدافع بعد الارضاء من حيث المثابرة والتكرار، او اذا ما كان دافع الانثى يتوافق مع دافع الذكر من حيث السن الذي يبدأ او ينتهي فيه، ومن حيث تزايد قوته او خبوة هذه القوة مع الزمن، كما يحدث عند الذكر، واخيراً فيما اذا كانت الاستجابة لهذا الدافع تتم بنفس الطريقة

التي تتم بواسطتها الاستجابة للدافع الجنسي عند الذكر؟ وهنالك بعض البينات المتوافرة حول هذه الامور ومنها:

● ما افادت به دراسة (كنزي ١٩٥٣) من ان الأنثى اقل استثارة من الذكر بعوامل الاثارة الجنسية النفسية، وخاصة اذا كانت المثيرات بصرية. فهي لا تثار بشدة برؤية الجسم العاري او المواضيع البصرية المماثلة كما هو الحال عند الذكر، وقد استنتج من ذلك أن المرأة اقل من الرجل في موضوع الاستثارة الجنسية. غير ان هذا الواقع مهما كان تفسيره، لا يدلل بالضرورة على ان الدافع الجنسي عند الانثى اقل قوة من الذكر، وكل ما قد تعنيه هذه الظاهرة هو ان الدافع الجنسي للانثى يثار على حقيقته وبقوته بغير ما يثير الرجل في جميع المواقف والحالات، وقد تحتاج الانثى الى توافر مثيرات خاصة لا تتوافق بالضرورة مع ما يثير هذا الدافع في الذكور. وافادت دراسة سيجوش Sigusch (١٩٧٠) ان المرأة تثار بنفس المواضيع الجنسية النفسية بما في ذلك المواضع المرئية حالها حال الرجل، وان كان الرجل اكثر استثارة من المرأة، غير ان هنالك بعض النساء ممن يثيرهن ذلك اكثر من كثير من الرجال، ويبدو ان العوامل الحضارية هي التي تمنع المرأة من المجاهرة بدوافعها واثاراتها الجنسية، ولولا ذلك، فان بعض الباحثين يتوقعون ان لا يكون هنالك فرق بين الجنسين من حيث الدافع والاثارة الجنسية.

● بينت الدراسات المختلفة انه اذا ما تساوت الفرص بين الجنسين للعلاقة الجنسية، واذا ما توافر الاختيار بدون ضرورات المطاوعة، فان للانثى من قوة الدافع وتكراره ما لا يقل كثيراً عن الرجل.

● يتأخر بلوغ الدافع الجنسي في الانثى الى درجة الالحاح عن بلوغ الذكر هذه الدرجة، وهذا يتضح من ظاهرتين اولهما ان ممارسة الاستمناء اقل الحاحاً عند الانثى منها في الذكر، وبان انتشارها في الاناث لا يبلغ حد انتشارها في الذكور ولا يتسارع مع النمو كما هو الحال عندهم، والظاهرة الثانية هي تأخر الذورة في الانثى الى حوالى سن العشرين، ولعل في هاتين الظاهرتين من تخلف الانثى عن الذكر، ما قد تكون له ضرورته البايولوجية، وذلك بتمكين الانثى من الاحتفاظ بطاقاتها الجنسية الى حين نضجها الجنسي، ومتى اكتمل هذا النضج، فليس هنالك من دليل على ان الدافع الجنسي اذا اثير عند الانثى، فهو اقل قوة وحاجة للارضاء منه عند الذكر.

● وهنالك ملاحظة اخرى تميز الدافع الجنسي للانثى عنه في الذكر، فبينما الذكور بشكل عام يستيقظ دافعهم الجنسي تلقائياً في الكثير من الاحيان وبدون الحاجة الى اثارة خارجية او جنسية موضعية، فان الانثى على العكس قليلة التحسس بدافعها الجنسي بشكل تلقائي، وهي في معظم الاحيان في حاجة الى اثارة خارجية او موضعية، وقد لا يمكن تفسير هذا الفرق بين الجنسين، غير ان وجود هذه الظاهرة في الانثى من شأنه ان يوفر عليها الفشل في ارضاء دوافع جنسية تلقائية لا سبيل الى ارضائها، وفي هذا ما يجنبها المعاناة، وقد يكون في كل ذلك غاية بايولوجية تخدم اغراض المرأة والجنس الانساني في آن واحد.

الاثارات الجنسية

هنالك شعور عام بان المرأة تثار بصورة اضعف مما يثير الرجل عادة من اثارات جنسية. وقد ساعد في انتشار هذا الرأي ان الانثى نفسها تعتقد ان الذكور يتأثرون بشكل اسرع واشد مما تثار به هي من مواضيع تنوه بالجنس. وقد اجريت في السنوات الاخيرة ابحاث استبيانية واختبارية لامتحان صحة هذا الرأي، وقد تباينت النتائج لمثل هذه الابحاث، فمنها ما أيد وجود فروق واضحة بين استثارة الانثى والذكر عند تعرضها لمثيرات معينة، ومنها ما اكد عدم وجود اية فروق جوهرية بين الجنسين في الاستثارة لفعل عوامل مختلفة. وقد استخدمت في هذه الابحاث الصور والافلام والتسجيلات الصوتية والقصص والرزايات وتعرية الجسم وغيرها من عوامل الاثارة الجنسية ومن النتائج الواردة في هذا الامر ما يلي:

● افاد كنزي في دراسته الاستبيانية عن الحياة الجنسية للانثى (١٩٥٣) ان هنالك فروقاً كبيرة بين الذكر والانثى من حيث استثارتهم بالمواضيع الجنسية، فقد وجد أن الذكور اكثر استثارة من الاناث بالمواضيع الجنسية الواضحة.

● بينت دراسة شمدت وسيجوش Schmidtand Sigusch (١٩٧٠)، ان الانثى اقل من الرجل استثارة بصور الممارسات الجنسية، غير انها اكثر من الذكر استثارة بالانتاج الادبي (ولعل هذا يفسر الاقبال الاشد للمرأة على قراءة القصص والروايات والمجلات الغرامية).

● وبينت دراسة هايمان Heiman (١٩٧٧)، ان الانثى اكثر استثارة بالافلام، واقل بالخيال، واقل من ذلك بالقصص المسجلة على الاشرطة. غير ان المرأة كالرجل تثار بشكل اشد بالتسجيلات التي تصف العلاقة الجنسية، من الاستثارة بالتسجيلات التي تصف الحب الرومانسي. وقد كانت حصيلة هذه الابحاث هي ان الجنسين اكثر تأثراً بالافلام ذات المواضيع الجنسية الواضحة منها بالافلام القصصية، غير ان هذا الفرق والتأثير هو اكثر وضوحاً في الذكر منه في الانثى.

● قامت بتريشا جيلان وكرستوفر فرث P. Gillan and C. Firth (١٩٧٧) بتجارب لامتحان الرأي بان الذكور يستجيبون باستثارة أشد للمواضيع المرئية (الافلام) من الاناث اللواتي يثرن بالمواضيع الكلامية ـ الصوتية (القصص). وقد بينت الدراسة ان الجنسين يثاران بهذه المواضيع بصورة اوسع واشد مما كان عليه الحال عندما قام كنزي بدراسته عام ١٩٥٣، غير ان الدراسة بينت وجود فروق بين الجنسين، فالذكور في الدراسة، استجابوا اكثر للاثارات التي تقدم لهم تصويرياً: (المرئيات)، بينما استجابت الاناث بصورة اعظم عند تقديم هذه المثيرات بصورة كلامية ـ اي عن طريق الصوت والسمع. وقد بينت الدراسة ايضاً طريقة الاستثارة. ففي رأي الباحثين ان الانثى تثار عن طريق الانعكاس او الاسقاط، فهي عندما ترى الفلم فانها تعكس ذاتها فيه وتتصور انها الفتاة في العلاقة، بينما الذكر فانه يثار عن طريق الموضوعية، وذلك بتصوره انه هو الذي يقوم بالعلاقة مع الفتاة في الفيلم. وخلص الباحثان الى الرأي بأن

العرض الصوتي يساعد الاستثارة الانعكاسية، وبأن العرض البصري يساعد الاستثارة الموضوعية. وهذا يؤكد ان المرأة اكثر تأثراً بالقصة وبالكلام وبالصوت، وأن الذكر اكثر تأثراً بالموضوع والمرئي. ونتائج هذا البحث تؤيد الملاحظة بان الذكور ينشغلون بصورة اعظم في الامور الجنسية عن طريق التفكير والخيال، وهي عمليات عقلية تقوم في معظمها على اساس التجزئة البصرية، بينما الاناث ينشغلن بهذه الامور عن طريق الحديث او القصص وهي التي تبنى على الكلام ـ والصوت والسمع. والتوافق بين هذه الملاحظة والدراسات الفعلية يؤيد الرأي المطروح كبديهية ـ وهو ان الذكر يحب بعينيه، أما الانثى فهي تحب باذنيها. وقد يكون هنالك صعوبة في تعليل هذه الظاهرة لاعتماد الانثى على الصوت في الاثارة الجنسية واعتماد الذكر على البصر، وهي ظاهرة لها ما يشابهها في حياة الكائنات الاخرى خاصة الطيور. وقد يساعد في فهم هذه الظاهرة الابحاث الحديثة عن الدماغ والعقل. فهذه الابحاث تؤيد الاعتقاد ان لكل انسان دماغين وعقلين، الايمن والايسر، وكل واحد منهما يكوّن فص الدماغ او نصف الكرة الدماغية. ويعتقد الباحثون ان كل فص من الدماغين يقوم بعمل مستقل بما في ذلك التفكير. فالدماغ الايسر يقوم بالاعمال العقلية التي تعتمد في معظمها على النطق والكلام، بينما الأيمن فإنه يقوم بالاعمال العقلية غير الكلامية كالتفكير المجرد والخيال والامور الواقعية المبنية على الابصار. وينظر العلماء الى ان الدماغ او العقل الايسر وهو العقل الصوتي او الكلامي هو العقل المؤنث، وان العقل الايمن او غير الكلامي فهو يشمل العقل المذكر. ومع ان الواحد منا، ذكراً او انثى يملك الدماغين والعقلين في آن واحد، الا ان الغلبة في الانثى هي للعقل الايسر (الكلامي)، بينما الغلبة للرجل هي للعقل الايمن (غير الكلامي). ويعطي هذا التحليل تفسيراً لغلبة السمع والكلمة في حياة الانثى، وغلبة الفكر والخيال والبصر في حياة الذكر. واذا صح هذا التحليل، فقد يقتضي السؤال عن الاسباب الحياتية التي جعلت من هذه الظاهرة ضرورة بايولوجية، ويمكن تعليل ذلك على اساس الضرورات الحياتية التي تتطلب من الرجل الاعتماد على بصره وفكره المجرد وخياله لضمان بقائه بما في ذلك عائلته، بينما الانثى فهي تحتاج الى الصوت والكلمة والسمع كوسيلة للاتصال والتخاطب مع طفلها. فصوتها كصوت الطفل له اهمية قصوى في الابقاء على العلاقة بينهما، وهي علاقة تمكن الأم من الانتباه والرعاية لطفلها، كما ان صوت الطفل يعطي الأم اهم دلالات التعلق. ولا غرابة ان يكون للصوت والكلمة في حياة الانثى اكثر مما هو لها في حياة الذكر، وان يظل الصوت يحمل الانثى من معاني الحب والاثارة الجنسية ما لا يحمله شيء آخر.

● اجريت ابحاث لبيان تأثير التعرية الجسدية على استجابة الاناث للاستثارة الجنسية. وقد وضع السؤال التالي لمجموعة مختلطة كبيرة من الاناث (عدد ٥٣٦): هل يلذك النظر الى جسم الذكر العاري / الى حد عظيم بعض الشيء/قليلاً، او لا ابداً. وقد كانت نتائج الاستبيان كما يلي: ٢٦,٠٪ الى حد عظيم، و٣٥,٧٪ بعض الشيء و٢٢٪ قليلاً، و١١,٧٪ ابداً، و٤,٨٪ لم يجبن. وافادت ثلاثة ارباع الاناث بانهن يجدن جسم الرجل جذاباً والثلثان يجدنه مثيراً، وثلاثة ارباعهن يجدنه مهيجاً جنسياً. وهذه الدراسة تدحض الآراء السابقة بأن الانثى لا

تجد معانٍ في جسم الرجل تثير رغبتها الجنسية. ومن الابحاث الأخرى عن تأثير جسم الذكر على استثارة الانثى، البحث الاستيباني عن اثر التكامل الجسمي العضلي عند الذكور على الانثى، وقد افادت معظمهن ٥٧,٦٪ بان هذا الغرض من التنمية العضلية هو غير طبيعي، و٤٨,٤٪ بأنه غرور، و٣٨,٢٪ بأنه تشويه، ،وافادت ١٤,٩٪ منهن بالاستحسان لذلك. وهكذا يتضح بان الغالبية العظمى من الاناث ينظرن بعدم الرضا والاستحسان للرجل العضلي وبانهن يفضلن عليه الرجل (الاعتيادي).

واخيراً فان هنالك مسألة الاستثارة التلقائية والاستثارة المحدثة، فالذكور على العموم لديهم القابلية على الاستثارة التلقائية في الامور الجنسية، اما بدون سبب او بفعل التأمل والخيال والحلم، بينما الانثى لا تستثار عادة او بسهولة بنفس الاسباب، فهي بحاجة الى مثير خارجي مباشر كالصوت او الكلمة او الصورة، او الى مثير داخلي مباشر في منطقة او اخرى من المناطق الجنسية في جسدها. وهكذا فانها تثار بالاثارة الفعلية اكثر بكثير من استثارتها بالاثارات غير الفعلية، التلقائية منها او الخارجية. وهذا الواقع يعطي الانثى خصوصية اعظم في اختيار ما يثيرها مما هو عليه الحال عند الذكر، وهذا يجعل الانثى بالضرورة البايولوجية اكثر اتزاناً ووفاءً وحصراً في علاقتها الجنسية من الذكر.

مواطن الاثارة الجنسية

للانثى من مواطن الاثارة الجنسية اكثر واوسع مما للذكر. فبينما تتحدد هذه المواطن عند الذكر بالأعضاء الجنسية، فانها عند الانثى تتضمن بالاضافة لهذه الاعضاء مناطق اخرى في الجسم يمكن ان يثير لمسها اثارة جنسية، ومن هذه المناطق النهدان وبخاصة الحلمتان، والفم وجانب العنق من الناحيتين. ويمكن عدّ كون الفم موطناً للاثارة بأنه استمرار للدور الفمي في ادوار النمو الجنسي النفسي في الطفولة، اما النهدان والحلمتان فان بالامكان ان نفترض أنهما عضوان للاتصال بين الام والطفل، وان طبيعة المرأة قد اقتضت ان تجد الاثارة، وبالتالي المتعة من التماس معهما. وقد تكون هذه المتعة ضرورية لحمل الام على الاقبال على ارضاع طفلها وتقبله، وهكذا يصبح الثدي والحلمة مركزاً للاثارة يمكن استثارتها لاغراض ذات طابع جنسي. وهنالك تفسيرات اخرى نحو وظيفة النهدين لاغراض الاثارة، ومنها ما يجد ذلك نتيجة لعمليات التعليم والتلقين التي تتعرض لها الأنثى خاصة في المجتمعات التي تعطي النهدين منزلة خاصة في الجاذبية الجنسية. هذا وهنالك تفاوت عظيم بين الاناث في قوة ومدى استثارتهن عن طريق هذين العضوين، الصدر والحلمة، وفي مدى استجابتهن الجنسية لهذه الاثارات، فمنهن من لا تتحسس بشيء، ومنهن من تستطيع الحصول على الذروة من هذه الاثارة **فقط**. اما الاعضاء الجنسية للانثى التي تعدّ مصدراً للاثارة فهي الفرج والبظر. وهنالك جدل عن اهمية كل من العضوين في الاستثارة الجنسية، كما ان هنالك تبايناً بين الاناث في مدى استجابتهن الجنسية باثارة البظر او الفرج. ومما تجدر ملاحظته في هذا الامر، هو ان البظر في تركيبه البايولوجي واصوله الجنينية يتشابه مع القضيب عند الذكور، كما انه في الانثى كما يبدو، لا يخدم غرضاً غير

غرض المتعة. اما الفرج، فان لثلثه الخارجي اعصاب حسية يمكن ان تثار بـاللمس اوالضغط، بينما الثلثان الداخليان لا يتوافر فيهما اي اعصاب حسية. وهذا الجزء لذلك لا يمكن اثارته. هذا وسنعود الى هذا الموضوع عند البحث في الاستجابات الجنسية للانثى.

الهرمونات والجنس

تتوافر في الانثى هرمونات متعددة، غير ان هذه الهرمونات تتراوح في مقادير توافرهـا في جسم الانثى بين الحين والآخر، كما انها ليست ذات اهمية متماثلة ومتسـاوية في تـأثيرهـا على الحوافز الجنسية. والمعروف ان الهرمونات المعروفة بـ (الستيرويدز Steroids)، هي الهرمـونات الاساسية المؤثرة في هذه الحوافز، وهذه الهرمـونات ـ الستيرويدز، هي جـزئيات صغيـرة نسبياً ومتشابهة الى حد كبير في تركيبها، وهي تفرز من الغدد التناسلية (المبيض في الانثى، والخصية في الذكر)، ومن القشرة الخارجية (للغدة الكظرية Suprarenal). واهم الهرمونات التي تفرزها هذه الغدد هي الاندروجينـات Androgens والاستروجينـات Estrogens وهرمـون البروجستيـرون Progesterone. واقـوى الانـدروجينـات هـو هـرمـون التستستـرون Testesterone. واكـثر الاستروجينات فعالية هو هرمون استرديول Estradiol. والهرمونات الاندروجين والاستروجين، كلاهما يوجدان في الذكر والانثى، غير ان نسبة الاندروجين لـلاستروجـين هي اعلى بكثـير في الذكور منها في الاناث، والمصدر الاساسي للاندروجـين في الانثى هي الغدة الكـظرية، بينـما المصدر الاساسي للاستروجين هما المبيضان. وقد افادت الابحاث بـان استئصال المبيضـين في الانثى لا يقلل بالضرورة من حوافز ورغبة الانثى الجنسية. اما استئصال الغـدد الكظريـة فهو يفقد الانثى كل مصدر للاندروجين، ويؤدي ذلـك عادة الى التـوقف الكامـل للرغبة الجنسيـة عندها. وهكذا يبدو ان الاندروجينات، خاصة تلك التي يكون مصدرها الغدد الكظرية، هي الهـرمونـات التي تثير الـرغبة والحـوافز الجنسيـة عند الانثى. بينـما الاستروجينـات ومصدرهـا المبيضـان، فان لا تأثير لهما على هذه الحوافز، فيلاحظ مثلاً أن الرغبة الجنسية قد تكون عالية بينما مستوى الاستروجينات منخفض كما هو الحال في فترة الرضاعة بعد الولادة.

والذي ينظم افرازات الستيرويدز هي الهرمونات التي تفرزها الغدد النخامية في الدمـاغ Pituitary. وفيما يتعلق بالأنثى فان هذه الهرمونات تغير انتاج الاستروجين وتسبب نضج البيضة في المبيض، وتتفاعل مع الدماغ لتكوين العادة الشهرية، ومنها ما يثير القشـرة الخارجيـة للغدة الكظرية لكي تنتج الستيرويدز بما في ذلك هرمونات الاندروجين، وهذه الهرمونات التي تفرزها الغدة النخامية لتنظيم انتاج الستيرويـدز، تخضع نفسهـا لتنظيم من هـرمونـات اعلى والمسمـاة بالهرمونات المطلقة Releasing Hormones، او ما يسمى ايضاً بالهرمـونات العصبيـة. ومركـز انتاج هذه الهرمونات هو في نواة الهابيوثلموس Hypothalamus. وهي نواة عصبية هامة تقع فوق الغدة النخامية مباشرة. وحتى هذه الغدة، فان هرموناتها العصبية خاضعة للتأثير من عدة مراكز عصبية.

ومن هذا العرض المختصر للهرمونات الفعالة في جسم الانثى يتضح ان امكانيات التأثير

على مستوى الهرمونات، خاصة الحافزة للرغبة الجنسية ـ الاندروجين ـ متعددة، وأن مصادر هذا التأثير قد تكون فيزيولوجية عضوية او نفسية. ومن الممكن لهذه المؤثرات ان تحدث اثرها على الحافز الجنسي بزيادتها لانتاج الاندروجينات، غير ان هنالك من الحالات التي يزيد فيها الحافز الجنسي عند الانثى بدون حصول اي زيادة في هذه الهرمونات.

ويطرح السؤال فيما اذا كانت دوافع الانثى الجنسية تتغير اثناء الدورة الشهرية، وهي فترة تتغير فيها مستويات هرمونات الاستروجين والبروجستيرون بشكل واضح وواسع، وهرمونات الاندروجين بشكل بسيط يصل ذروته في منتصف الدورة، وقد قام أدري وموريس (١٩٦٨ ـ ١٩٧٠) Udry and Morris بدراسة هذا الموضوع. وهما يعتقدان ان الحافز الجنسي للمرأة يزداد خلال الجزء الاول من الدورة ويصل ذروته في منتصفها، ثم يتنازل تدريجياً، ثم يرتفع ثانية في نهاية الدورة، ويرى باحثون آخرون ان الذي يقرر شدة وضعف الحوافز الجنسية عند الانثى لا يتبع التغيرات الهرمونية، وانما يتقرر تبعاً للنظرة السائدة بشأن العادة الشهرية، وبان الامتناع الجنسي خلالها يهيىءلرغبة جنسية أشد بعد انتهائها، والى رغبة مماثلة قبيل ابتدائها تحسباً من ضرورة الامتناع.

وعلى الرغم من تعدد الهرمونات المؤثرة في حياة المرأة، وعلى الرغم من التفاوت الكبير في مستوى هذه الهرمونات خلال الدورة الشهرية، فان هنالك ما يدعو للاخذ بالرأي بان المرأة في اثارتها الجنسية تعتمد على الدوافع المحفزة من خارج نفسها اكثر مما يعتمد الذكر، وهذا يتفق مع ما اشرنا اليه في بداية هذا الفصل من ان الاستثارة التلقائية هي اقل ظهوراً في الحياة الجنسية للانثى منها عند الذكر. ولعل في هذا تفسير في كون الانثى تستمني بالحاح اقل وبتكرار اقل من الذكر، كما انها غير معروفة بالاغتصاب، وهي ظاهرة سلوكية يختص بها الذكور دون الاناث، وتدلل على امكانية وشدة اثارتهم الجنسية التلقائية.

استجابات الانثى الجنسية

هنالك تشابه عظيم في نوعية الاستجابات الجنسية بين الذكر والانثى بما في ذلك التشابه في ادوار هذه الاستجابات من حيث التتابع والمدة الزمنية والتغيرات الفيزيولوجية والمحتوى الشعوري الذي يصاحبها. وهذا التشابه ليس مستغرباً اذا اخذنا بعين الاعتبار بأن معظم الاعضاء الجنسية في الذكر والانثى لها مصدر بايولوجي جنيني واحد، ثم ان الجنس بالنسبة لكل من الذكر والانثى هو عملية جسمية عاطفية تشمل الجسم بكامله كما تشمل التفاعل الكامل بين الجسم والعقل للوصول الى نهاية الاستجابات الجنسية. كما ان المراكز العصبية المركزية العليا والمراكز العصبية المحيطية التي تخدم الاستجابات الجنسية هي واحدة في الجنسين. وكما بينا في الفقرة السابقة، فان الاساس الهرموني الذي يشارك في تنظيم الاستجابات الجنسية متماثل في الجنسين مع فروق نسبية بينهما تلائم طبيعة المرأة وطبيعة الرجل ولاغراض تناسلية اكثر منها جنسية. وبالنظر لاننا تناولنا بالبحث موضوع الاستجابات الجنسية للذكر والانثى في فصل آخر، فاننا سنختصر في بحث هذا الموضوع في هذا الفصل الخاص بالمرأة، غير اننا سنؤكد على

بعض هذه الاستجابات واهمها الذروة عند الانثى :

**

ان معظم الحقائق التي نعلمها عن الاستجابات الجنسية عند المرأة مستمدة من نتائج الابحاث الاختيارية التي قام بها ماسترز وجونسون Masters and Johnson. ومع انه لا يمكن عدّ الاستجابات الجنسية التي تتم في ظروف اختبارية وعلنية (الى حد ما) مساوية تماماً للاستجابات الجنسية الاعتيادية التي تتم في ظروف خاصة ومتسررة، ومع ذلك فان النواحي الفيزيولوجية في هذه الاتجاهات واحدة في جميع الحالات. وقد قسم الباحثان ماسترز وجونسون هذه الاستجابات الى اربعة ادوار اساسية هي على التوالي ١) دور التهيج، ٢) دور الهضبة، ٣) دور الذروة، و٤) دور الانحلال او الذبول. وهي تناظر الادوار الاربعة المعروفة عند الذكور وهي دور الانتصاب ودور الهضبة، ودور القذف (دور الذروة)، ودور الانحلال، ومع التشابه في الأدوار بين الجنسين، الا ان استجابات المرأة اكثر تنوعاً من استجابات الذكر **واكثر** مطابقة لنمط الاستجابة. وهنالك تشابه آخر في الاستجابات بما في ذلك سرعة التنفس وتزايد فعالية الجهاز القلبي الدموي. غير ان اهم الفروق في الاستجابات الجنسية عند الانثى تقع في دور الذروة.

الدور الاول ـ دور التهيج

وتظهر آثاره في اعضاء غير تناسلية وفي اعضاء تناسلية. فالانفعال في الاعضاء غير التناسلية يظهر في الثدي والحلمة، فيحدث تغير في حجم ولون الثدي والحلمة، فالحلمة تنتصب في هذا الدور وتزداد طولاً وعرضاً (من القاعدة) ويحتقن النهد وتبرز اوردته تحت الجلد مما يزيد من حجمه. وهنالك في هذا الدور تورد في الجزء الاعلى من البطن قد يصل الى الصدر والنهدين، كما ان هنالك الانفعالات الفيزيولوجية الحادة التي تحدث عند الذكور من تزايد النبض والتنفس، وارتفاع الضغط، وزيادة التوتر العضلي خاصة في الجزء الاخير من هذا الدور. اما التغيرات التي تحدث في الاعضاء الجنسية والتناسلية فهي تشمل الشفران، والفرج، والبظر، والرحم، ووظيفة هذه التغيرات هي ان تهيىء للولوج والى جعل اثارة البظر امراً ممكناً. فالشفران الاشعران يرتفعان قليلاً ويبتعدان عن فتحة الفرج، أما الشفران الاصغران (الاسكتان) فانهما يزيدان حجماً الى حوالى الثلاث مرات ويبرزان عبر الشفرين الاشعرين وكأنهما بذلك يزيدان في عمق قناة الفرج. اما الثلثان الخارجيان من الفرج، فانهما يزدادان توسعاً. واستجابة لهذا الدور فان جدار الفرج يفرز سائلاً مندياً ومرطباً اشبه ما يكون بالتعرق، وهذا يحدث خلال ١٠ الى ٣٠ ثانية، كما ان لون جدار الفرج يتغير بسبب الاحتقان الدموي فيه. والذي يلاحظ في هذا الدور انه يتشابه ويتساوى زمناً مع دور الذكر، وهو كما هو واضح يهيىء الذكر للولوج والانثى لتسهيل ذلك.

الدور الثاني ـ دور الهضبة

لا يحدث تغير هام في الشفرين الاشعرين، خلال هذا الدور، غير ان الاحتقان الدموي يستمر ويتزايد خلال هذا الدور. كما يتزايد الاحتقان في الثلث الخارجي من الفرج مما يقلل من سعته، وخلال هذا الدور يبدو وكأن البظر قد اختفى كلياً، غير ان هذا مجرد سراب، ذلك ان البظر قد كمن وراء الغطاء المتكون من التقاء الشفرتين الصغيرتين، ويعتبر هذا الدور دور توتر جنسي **شديد**، وينظر البعض الى هذا الدور وكأنه(**منصة الذروة Orgasmic Platform**)، فهو إما يهيىء الانثى للذروة، واما ينتهي بالفشل في ادراكها، وله لذلك ان يستمر فترات متفاوتة في مدتها الزمنية بين انثى واخرى، وفي الأنثى ذاتها بين استجابة جنسية واحدة واخرى، وهو بذلك لا يتوافق من حيث الزمن مع هذا الدور من الاستجابة الجنسية عند الرجل والذي يستغرق نحو دقيقتين او ثلاث.

الدور الثالث ـ دور الذروة

يهيىء الدور السابق لبلوغ الذروة، والواقع ان الانثى، او بعض الاناث في بعض الحالات، يستطعن الحصول على الذروة بدون ضرورة تجاوز هذا الدور، كما يمكن لهن معاودة الذروة مع بقائهن في هذا الدور. غير ان التغيرات الفيزيولوجية التي تحدث في هذا الدور هي التقلص المتواتر والايقاعي والذي يحدث في الثلث الخارجي من الفرج، وبوصول الذروة الى حد الثلثين الداخليين للفرج فان قناة الفرج تستطيل، كما تحدث حركات دافعة للحوض. وتقلصات الذروة التي تحدث في الفرج تتتابع بفاصل زمني مدته ثمانية اعشار الثانية بين تقلص وآخر، وتبلغ التقلصات بين ٣ ـ ١٥ عدداً في كل شعور بحدوث الذروة. غير ان الفترة الفاصلة بين تقلص وآخر تزداد تدريجياً بعد الثلاث او الست تقلصات الاولى، كما ان شدة التقلصات تقل تدريجياً مع تزايد عددها. والحصيلة الأجمالية للشعور بالذروة تعتمد بالتالي على شدة هذه التقلصات وعلى عددها. هذا ويمكن للذروة ان تتكرر مرتين الى عدة مرات بدون ان تفقد الانثى ما يسمى (بمنصة الذروة)، كما يمكن لبعض الاناث ان يتمتعن بذروة غامرة (حالة ذروية **متواصلة** (Status Orgasmus) تستمر بدون فواصل زمنية لمدة تصل الى ما بين عشرين وستين ثانية، **هذا** لا يحدث اي تغير في البظر اثناء دور الذروة.

الدور الرابع ـ دور الانحلال ـ الذبول

اول التغيرات في هذا الدور تحدث في الثلث الخارجي للفرج والذي يكوّن منصة الذروة. وفي هذا الجزء يزول الاحتقان الدموي بسرعة، غير ان عكس عملية التوسع في الثلثين الداخليين يتم بشكل اكثر بطأ. أما البظر فانه يعود بالظهور في خلال مدة ٥ ـ الى ١٠ ثوان بعد انتهاء عمليات التقلص في الفرج المصاحبة للذروة، غير ان عكس الاحتقان في البظر يحتاج الى ما بين ١٥ الى ١٠ دقائق بعد انتهاء الذروة، غير ان الانثى اذا ما وصلت الى دور الهضبة، ولم تستطع بلوغ دور الذروة، فان عكس عملية الاحتقان في البظر قد تستغرق ساعات عديدة.

المشاكل الجنسية للانثى

ان المشاكل التي يمكن ان تعانيها الأنثى في حياتها الجنسية عديدة ومتنوعة وقد تكون في بعض نواحيها اكثر تعقيداً من المشاكل الجنسية التي يعانيها الذكور واكثر عسراً على الفهم. ولعلنا نجد التعليل لذلك في ان الاعضاء الجنسية في الانثى اكثر عدداً واوسع انتشاراً في الجسم، وبانها اكثر اتصالاً بدور الانثى كأم، وما يقتضيه ذلك من ارتباط بين حالاتها الفيزيولوجية والهرمونية اثناء الدورة الشهرية وخلال فترات الحمل والوضع والرضاعة وسن اليأس، وكلها قد تؤثر في اثاراتها واستجاباتها الجنسية. ثم ان الانثى اكثر اعتماداً على الذكر في اثاراتها الجنسية، ولهذا فان حياتنا العاطفية تتقرر بامكانية وطبيعة علاقتها مع الذكر، ولهذا فلا يمكن فهم الحياة الجنسية للمرأة ومشاكلها بدون الاحاطة الكاملة بوضعها الحياتي ككل، وبالدور الانثوي الذي يتوجب عليها الالتزام به. ومع ان من البديهي ان تفهم مشاكل الحياة الجنسية للأنثى على هذا الاساس الواسع من التسبيب، الا ان الذي حدث لا ينم عن مثل هذا التوجه نحو الفهم، فقد اغفلت الحياة الجنسية للمرأة زمناً طويلاً بسبب انكار هذه الحياة عليها اصلاً، او بسبب الجهل، او بسبب التستر والاستحياء وغيرها من دواعي الكتمان لحياتها الجنسية. وحتى عندما بدأ التفطن بوجود حياة جنسية للمرأة، فان فهم هذه الحياة ومشاكلها قد جاء يمثل وجهة نظر الرجل وبالقياس مع حياته الجنسية ومشاكلها، وحكم عليها بناءً، على مدى نجاحه او فشله في ارضاء حاجاته الجنسية. ومع ان الوضع قد تغير كثيراً في العصر الحاضر، الا ان الانثى قلما تسعى للاستشارات الطبية من اجل حل مشاكلها الجنسية، وهي ان فعلت ذلك، فانما تقوم به تحت ستار شكواها من مشاكل تناسلية، او ضمن نطاق شكاوى طبية عامة او نفسية مختلفة. ويفسر احجام الانثى عن البوح بمشاكلها الجنسية بأن بعضه يأتي بضرورة التوافق مع الواقع الاجتماعي، وبعضه بسبب عدم فهم الانثى فهماً كاملاً لحدود حياتها الجنسية وما هو طبيعي او غير طبيعي في هذا المجال، كما ان بعضه يأتي من كون الانثى اكثر قابلية من الذكر على التعايش والتكيف مع واقعها الجنسي مما يدعو الى الاعتقاد أن للانثى حداً ادنى من المتطلبات الجنسية ترضى به وتتكيف عليه، ولا تعاني كثيراً من فشلها في تجاوزه.

* *

يمكن ان تعاني الانثى من طائفتين من المشاكل في حياتها الجنسية، الطائفة الاولى، تتعلق بميولها الجنسية وبمقدرتها على الحصول على المتعة من ممارستها الجنسية، والطائفة الثانية من المشاكل تتعلق بالاعضاء الجنسية التي تشملها العلاقة الجنسية. ومع وضوح الفرق بين الطائفتين من المشاكل، الا ان الاضطراب في واحدة منها يمكن له ان يسبب اضطراباً في مجال الآخر، وهكذا فكثيراً ما تبرز شكوى المرأة بشكل متعدد الجوانب من الناحيتين. ولتسهيل فهم هذه النواحي المعقدة نحاول بحث ذلك في موضوعين اساسيين، اولهما العطل في الرغبة والمتعة الجنسية وثانيهما العطل في العلاقة الجنسية ذاتها.

١ - عطل الرغبة والمتعة الجنسية

مع ان العطل في الرغبة الجنسية يؤدي عادة الى عطل مماثل في المتعة الجنسية، الا ان العطل في اي منهما قد يكون منفصلاً تماماً عن العطل في الجانب الآخر، ومثال ذلك ان توافر الرغبة الجنسية لا يؤدي بالضرورة الى حصول المتعة الجنسية، ولهذا يقتضي النظر في الحالتين على صورة منفصلة، وان كانت الصلة بينهما وثيقة.

أ) عطل الرغبة

تبدأ الرغبة الجنسية من بداية التفكير او التحسس بالحاجة الجنسية، وتمتد الى ابعاد متفاوتة بين انثى واخرى، وفي الانثى نفسها بين حين وآخر وبين لقاءٍ جنسي وآخر. وعطل الرغبة لذلك يمكن ان يحدث في البداية فيقل او ينعدم التفكير او الرغبة في الجنس، واذا ما بدأ، فانه ينقصه الدافع لمتابعة الرغبة، وبالتالي فان الرغبة ليست لديها القوة لاثارة الاستجابات الفيزيولوجية المصاحبة للاثارة الجنسية. وقد يحدث ان تكون لدى الانثى الرغبة النظرية في الامور الجنسية غير انها تعجز عن نقل هذه الرغبة الى دافع جنسي لسبب او آخر، كما انها قد لا تبدي اهتماماً او رغبة تلقائية في الأمور الجنسية في البداية، وانما تتولد الرغبة عندها بالاثارة عن طريق او آخر، كما انها قد تكون ذات رغبة جامحة في البداية، ثم تخبو هذه الرغبة عند اول محاولة لتحقيقها فعلياً. وفي جميع الحالات فان الانثى اكثر حاجة من الذكر للحوافز المثيرة للرغبة الجنسية، واذا لم تتوافر هذه الحوافز بالقدر الكافي والملائم ومن الشريك الجنسي القادر على اثارتها، فان الرغبة الجنسية عندها تظل كامنة او غير واضحة بحدود امكانياتها الفعلية، ولهذه الاسباب فان الذكور يحكمون على الاناث بانهن اقل منهم رغبة في الامور الجنسية، مع انه ليس هنالك ما يثبت هذه الملاحظة، والتي ربما لا تفيد اكثر من ان حوافز الانثى هي اكثر خصوصية ودقة ورقة وتعقيداً من حوافز الذكر، وبأنه يترتب عليه عبء التوافق مع هذه الخصوصية في تعامله معها، والا فشل في اثارة الرغبة الكامنة في نفسها وفي دفعها نحو الاستجابة الناجحة. والامثلة على عطل الرغبة عند الانثى كثيرة، فهنالك الانثى التي لا تثار مطلقاً بأي عاطفة جنسية ومن اي مصدر وفي اي موقف، وهنالك التي تشعر بالعاطفة ولا تستطيع الاستثارة بها والاستمرار نحوالاستجابة او الشعور بالمتعة، وهنالك الانثى المتزوجة والتي لا تشعر باي رغبة جنسية مع زوجها الذي لا تحبه او تميل اليه، مع انها تحتفظ برغبة طبيعية في ذاتها. وهنالك التي لا تظهر رغبة جنسية في المعاشرة الجنسية، مع انها تظهر هذه الرغبة في انماط اخرى من الممارسة الجنسية كالاستمناء او العلاقة الجنسية المثلية، او تتطلب ممارسة منحرفة لاثارة رغبتها والاستجابة لها.

ان اسباب عطل الرغبة الجنسية متعددة، وقد يشارك اكثر من سبب واحد في احداث هذا العطل. واسبابها على العموم تتشابه مع اسباب العطل في الرغبة الجنسية عند الذكور وان كانت للانثى خصوصياتها من بين هذه الاسباب؛ فخوفها التقليدي مما قد يترتب على العلاقة الجنسية من نتائج، قد يخلق في نفسها حالة من التطبع على الخوف مما يقيد رغبتها الجنسية، كما ان تربيتها المحافظة في النواحي الجنسية قد يكون لها نفس الفعل الناهي عن الرغبة. وهنالك ايضاً عوامل

النهي الناجمة عن تخوف الانثى من العلاقة الجنسية في حد ذاتها، ومن نتائجها في الحمل ومسؤولية الانجاب والتربية، وكلها قد تضعف او تجمد الرغبة الجنسية. ومن هذه الاسباب تخوف الانثى من ان تكون علاقتها الجنسية سبباً في ارتباط زوجي لا تستطيع التخلص منه مما يوقف رغبتها، وهنالك ايضاً حالات هبوط الرغبة الجنسية التي تحدث بسبب ما يضعف الجسم بشكل عام مهما كان سبب ذلك،او بنتيجة اجراء عمليات جراحية كاستئصال الرحم او الثدي. وفعل مثل هذا الاجراء هو فعل نفسي اكثر منه فعل فيزيولوجي. واذا عددنا هذه الاسباب جميعاً، فانا نجد أن فقدان التوافق والميول والجاذبية الجنسية بين الشريكين في العلاقة الجنسية، هو اهم واكثر الاسباب تفسيراً لاضطرابات الرغبة الجنسية في مجموعها عند الانثى.

ب) عطل الارضاء الجنسي

ربما لا تستطيع الانثى الحصول على متعتها او لذتها الجنسية بسبب العطل في رغبتها الجنسية، كما اوضحنا ذلك في الفقرة السابقة، غير ان هذا العطل في الارضاء قد يحدث مع توافر الرغبة الجنسية بشكل طبيعي، ويمكن لعطل الارضاء الجنسي ان يقع في قلة او عدم وجود متعة في العلاقة الجنسية اثناء الاعداد او القيام بها، غير ان هذه المتعة قد تكون متوافرة الا ان الانثى لا تحصل في علاقتها الجنسية على حالة (الذروة)، او انها لا تحصل عليها دائماً وبالقدر او المدة الزمنية او بالتكرار المقنع لها.

ان اهم ما يقتضي ادراكه في هذا الموضوع هو ان الانثى قد تحصل على الارضاء الكافي لحاجاتها الجنسية بدون ضرورة وصولها الى حالة الذروة. والكثير من الاناث يقنعن بما تجلبه العلاقة الجنسية في حد ذاتها من تماس وتوافق والتقاء بصرف النظر عن حصول الذروة في هذه العلاقة، غير ان ما حدث من انفتاح على المواضيع والابحاث الجنسية في السنوات الاخيرة، قد **ابرز اهمية الذروة في التجربة الجنسية للأنثى والتي راحت تعتقد بسبب هذا الابراز ان فشلها في** الحصول على الذروة يدلل على عطل هام في حياتها الجنسية اذ انها حرمت من تجربة ضرورية لاكمال هذه الحياة. ومثل هذا الاعتقاد قد ادى الى ظهور اضطرابات نفسية فيها الكثير من المعاناة، كما ادّى الى قيام التوتر في العلاقات بين الذكر والانثى بما في ذلك تحمل جانب او آخر لمسؤولية ذلك. وبالنظر لما اكتسبه هذا الموضوع من اهمية طارئة في السنوات الاخيرة، وما نجم عن ذلك من تعقيدات في حياة الكثيرات من الاناث فقد بات من الضروري تناول الموضوع بقدر اكبر من العناية والبحث، وفيما يلي خلاصة لما هو معروف علمياً حول الذروة في الانثى.

- افادت دراسة كنزي، وهي دراسة استبيانية تعدُّ قديمة بالنسبة للدراسات الحديثة غير انها هامة بوصفها اساساً للمقارنة مع المعلومات الحديثة، بان هنالك فرقاً واضحاً بين امكانية وعدد الذروات التي تحدث للانثى في حالة كونها انثى غير متزوجة او انها متزوجة ومن أي مصدر كان، فبينما يحصل حوالى ١٠٠٪ من الذكور على الذروة في سن العشرين، فان ٤٠٪ من غير المتزوجات و٦٠٪ من المتزوجات يحصلن على الذروة في هذه السن، وتزداد نسبة حصول الذروة

تدريجياً في الحالتين فتبلغ ٥٠٪، و٨٠٪ على التوالي في سن الخامسة والعشرين، و٧٠٪ و٩٥٪ على التوالي في سن الخامسة والاربعين، اما عدد الذروات فانه يظل، على عكس الذكور، قليلاً في حالة عدم الزواج، ويظل ثابتاً على هذه القلة طوال حياة الانثى، بينما تكون الذروات اكثر عدداً عند المتزوجات في سن مبكر وتقل تدريجياً مع تقدم العمر (معدل ٩ مرات في الشهر في سن العشرين مقابل مرتين في الشهر في سن الستين). وهي بذلك تتشابه مع الذكر من حيث التنازل التدريجي مع العمر، وان كانت اقل منه بفارق ١٠ الى ٣٠٪ من حيث عدد الذروات في مراحل العمر المختلفة. وافادت دراسته بان الانثى التي تمكنت من الحصول على الذروة قبل الزواج بأي طريقة، هي اكثر حظاً في الحصول عليها بسبب الزواج، من تلك الانثى التي لم تستطع الحصول على الذروة قبل الزواج. كما وجد كنزي ان ثقافة الانثى تعطيها حظاً اعظم في الحصول على الذروة. كما وجّد أن الانثى بنهاية السنة الاولى من الزواج لها ٧٥٪ من امكانية الحصول على الذروة، وان هذه النسبة تبلغ ٩٠٪ بعد عشرين سنة من الزواج، كما ان واحدة من كل ثلاث من اناث عينة كنزي الدراسية افادت بحصولها على ذروات متعددة في اللقاء الجنسي الواحد.

ـ ان البينات الدراسية تفيد بأن الانثى منذ زمن كنزي (١٩٥٣) وحتى الآن قد اصبحت اكثر قدرة على الحصول على الذروة،وهذا لا يعني أن الانثى المعاصرة تختلف في طبيعتها البايولوجية عن انثى عهد كنزي. وكل ما حدث هو ان الانثى المعاصرة اصبحت تتمتع بحرية جنسية اوسع، وبادراك لمواطن اثارتها الجنسية وكيفية الحصول عليها، كما ان شريكها الجنسي اصبح اكثر وعياً لحاجاتها الجنسية وضرورة ارضائها لا من اجلها فقط، وانما من اجل تمتعه بتوافق الذروتين. ثم ان استعمال مانعات الحمل بصورة واسعة في الوقت الحاضر قد جعلت المرأة تقبل على العلاقة الجنسية من اجل ارضاء الرغبة وبدون المخاوف السابقة من عواقب العلاقة الجنسية وهي المخاوف التي كانت تنهي في الكثير من الاحيان عن بلوغ الانثى لذروتها، وقد تأيد الانطباع بتزايد نسبة حصول الانثى على الذروة بالدراسات التي قام بها هنت Hunt (١٩٧٤) عن السلوك الجنسي في السبعينات في الولايات المتحدة، كما تأيد ذلك من دراسات مماثلة في فرنسا والمانيا الغربية.

ـ **افادت** دراسة ماسترز وجونسون بأن العمليات الفيزيولوجية متشابهة في كل من ذروة الذكر والانثى، غير ان الانثى اكثر قابلية من الرجل للحصول على ذروات متعددة، ويرى البعض في هذه الظاهرة (شيرفي Sherfay) (١٩٦٦) أنها دليل على ان امكانية الذروة للانثى اعظم من امكانية الذكر.

ـ تفيد الابحاث أن الأنثى تستطيع الحصول على الرضا الجنسي بدون اعتماد ذلك على الحصول على الذروة، وهكذا فلا يمكن النظر الى الرضا الجنسي والذروة وكأنهما شيء واحد تماماً. فكنزي مثلاً وجد بأن ٣٠٪ من النساء المتزوجات لا يحصلن على الذروة ابداً او لماماً، وبأن ٥٠٪ من المتزوجات لا يحصلن عليها الا لماماً، غير ان نسبة كبيرة من هؤلاء يجدن متعة في العلاقة الجنسية على الرغم من ذلك.

ـ يعتقد بعض الباحثين أن معظم الاناث يحصلن على الذروة ولو بدرجة طفيفة غير ان الكثيرات من الاناث ينكرن ذلك لسبب او آخر. ويمكن تفسير هذه الانكار في بعض الحالات على انه نتيجة لطبيعة الذروة، فقد يكون الشعور بها قليلاً بحيث لا يلاحظ، وقد تكون غير مرضية او ملذة، كما انها قد تؤدي الى مزيد من التوتر. وهنالك بعض الاناث ممن لا يقبلن بتجربة الذروة.

ـ تجد معظم الاناث ان اثارة البظر اليدوية هي عملية هامة في الحصول على الذروة فحوالى ١٩٪ يجدونها ضرورية جداً، و٦٤٪ يفضلنها على اثارة الفرج، ومعظم الدراسات تؤيد الاعتقاد أن حظ الانثى من الذروة يكوَن اعظم باثارة البظر بأي طريقة. وينظر الى اثارة الفرج بانها اثارة مباشرة تنتهي باثارة البظر ميكانيكياً. وتفرّق بعض الابحاث بين شعور المرأة في ذروة البظر وذروة الفرج، فشعور ذروة البظر هو اكثر حدة وعنفاً، بينما تكون ذروة الفرج اكثر عمقاً وهدوءاً. وهذه الابحاث قد ادت الى تقسيم الانثى من حيث الاثارة الجنسية الى صنفين من الاناث من حيث طبيعتهن النفسية، الانثى الموجهة بظرياً، والانثى الموجهة فرجياً. وفي هذا التصنيف تعتبر الانثى الموجهة فرجياً اكثر قلقاً، واكثر انكاراً لجسدها، وأنها لا تملك صورة واضحة عن تكوينها الجنسي والتناسلي. ويفسر بعض المحللين لظاهرة التفضيل بين الذروة والأخرى على انه يرد لا الى مكان الاثارة بالذات، وهي الاثارة التي تؤثر في البظر في الحالتين، وانما يرد الى الطبيعة النفسية للانثى، فالانثى التي تميل في نفسها الى ان تكون هي مركز الاهتمام، ويكون شريكها الجنسي منفصلاً عنها او مهتماً بها، فانها تفضل اثارة البظر والحصول على ذروتها عن هذا الطريق، اما الانثى التي تميل في نفسها الى الدمج الكلي مع شريكها الكامل في اللقاء الجنسي، فانها تفضل طريق الفرج في الاثارة للحصول على الذروة.

العوامل المؤثرة في الذروة

لوحظت بعض العوامل المؤثرة في ذروة الانثى وبعض هذه الملاحظات العلمية تؤيد او تنفي ما هو متناقل عن هذا الموضوع. وفيما يلي بعض هذه الملاحظات.

● ليس هنالك من اثبات أن الانثى المتدينة هي اقل حصولاً على الذروة من نظيرتها التي لا تتجه للامور الدينية.

● الانثى الاعلى تعليماً هي اكثر امكانية في الحصول على الذروة من غير المثقفة الى هذا المستوى، وهذه الملاحظة تنفي ما هو شائع من ان الانثى المتعلمة هي اقل تحسساً بالاثارة الجنسية.

● ليس هنالك اية علاقة بين عدد المعاشرات الجنسية وبين الذروة، وكما ان الزمن في حد ذاته غير كفيل بتحقيق الذروة للانثى التي لا تستطيع الوصول، فهنالك نسبة قليلة من الاناث ممن يساعد مرور الزمن على وصولهن الى الذروة.

● ليس هنالك من علاقة وثيقة بين امكانية الحصول على الذروة وبين خصائص الشريك الجنسي من حيث شخصيته وخبرته الجنسية، وان كان هنالك بعض الباحثين ممن يحمّلون الذكر مسؤولية فشل الانثى في الحصول على الذروة.

● لم يستطع احد حتى الآن اثبات ان ذروة الانثى تعتمد على عوامل هرمونية او جسمية.

● ان ما لا يمكن اغفاله في بحث الذروة عند الانثى وامكانية الحصول عليها، هو ان المعدل الزمني لحصول الذكر على ذروته، وبالتالي توقفه عن اثارة الانثى، يقل بشكل واضح في نسبة كبيرة من الاناث عن الزمن اللازم لاثارة الذروة عندهن، ومن شأن هذا التفاوت الزمني ان يترك الكثير من الاناث، وفي الكثير من العلاقات الجنسية، في منتصف الطريق، ولهن لذلك اما القبول بالواقع، او ممارسة الاثارة اليدوية او مثلها ذاتياً او بمعاونة الشريك الجنسي او بالاستمناء.

● هنالك الرأي الذي تأخذ به الاوساط التحليلية الجنسية والذي يفيد بأن الانثى التي تفشل في الحصول على الذروة تعاني من اضطراب نفسي، وأن فشلها يدلل على تكوين نفسي غير قادر على التكيف، وأنها مضطربة وينقصها تكامل الذات (الأنا). وانها تعاني من صراعات غير واعية مما يجعلها قلقة وغير مستقرة. ومن اهم هذه الصراعات ما يتصف (بالمركب الاوديبي)، او ما هو ناجم عن عقدة الحسد للذكر بسبب القضيب، او بسبب الشعور بالاثم، او النزعة السادية. وهكذا ففي نظر التحليليين، فان فشل الذروة ما هو إلا عارض من الاعراض المدللة على اضطراب نفسي عام. وتأخذ المدرسة التحليلية برأي فرويد في ان الذروة الطبيعية للمرأة هي التي تحصل عن طريق ولوج الفرج، وتعدّ ذروة البظر عن طريق اي اثارة دليلاً على عدم نضج الانثى وأنها ناقصة التكيف، غير انه لا يتوافر الدليل الكافي لاسناد هذه الآراء التحليلية. فجميع الابحاث والدراسات التي قامت حتى الآن لا تبين وجود اي ارتباط او توافق بين الذروة من ناحية وبين التوازن النفسي من ناحية اخرى الا في القلة القليلة من الحالات. ويمكن ان يخلص المرء الى الاستنتاج من متابعة الابحاث العلمية التي جرت حتى الآن أنه لا يوجد هنالك مسوغ للاعتقاد أن الأنثى التي تعاني من صعوبات في الذروة هي بالضرورة انثى مضطربة نفسياً.

**

ان موضوع الذروة واثارتها او احباطها ما زال موضوعاً يحتاج الى الدراسة والفهم. ومع كثرة ما قيل وكتب في الموضوع، فان هنالك حقيقة واحدة واضحة، وهي ان الانثى منذ بداية هذا القرن، لها حظ متزايد في الحصول على الذروة، في المجتمع الغربي على الاقل، وقد يكون لتزايد تحرر الأنثى وزيادة وعيها لذاتها ولامكانياتها الأثر الكبير في زيادة تحقيقها لامكانية حصولها على الذروة. ومما تجدر الاشارة اليه هو ان الانثى في بعض المجتمعات البدائية المعاصرة تحصل على ذروتها في معظم او جميع العلاقات الجنسية، فقد افادت الابحاث الحضارية الانثروبولوجية

على مجتمع (مانجايا Mangaia) في جنوبي المحيط الهادي، بان الأنثى في هذا المجتمع تحصل دائماً على ذروتها الجنسية، وبانها تعجب من الأنثى في الحضارة الغربية التي لا تستطيع ذلك وتعدّ فشلها مضراً بصحتها. ويفسر الباحثون هذه الظاهرة في هذا المجتمع بانها الى حد ما نتيجة التسامح في الامور الجنسية، والى القيمة الكبرى التي تعطى في هذا المجتمع للمتعة الجنسية، كما تفسر على اساس ان هذا المجتمع البدائي يختلف عن المجتمعات الغربية وغيرها في أن الرابطة العاطفية بين الشريكين في العلاقة الجنسية تبدأ بعد اكمال الصلة الجنسية لا قبلها. وقد يكون في ذلك ما يساعد المرأة على الوصول الى ذروتها.

٢ ـ العطل في العلاقة الجنسية

يمكن ان تعاني الانثى من عدة اضطرابات عضوية او فسيولوجية موضعية لها ان تؤثر في حياتها الجنسية، واهم هذه الاضطرابات هي الحالات التالية:

١ ـ عطل الاحتقان: وهذا يؤدي الى النقص في تندية الفرج واعاقة امتداده وتوسعه. ويماثل هذا العطل عطل الرجل في الانتصاب. وقد يحدث هذا العطل بسبب ضعف استجابة الانثى للرغبة الجنسية، او قلة هذه الرغبة، او بسبب عدم توافر الحافز المناسب لها من حيث الشريك او طريقة الاثارة. وقد يكون في ذلك دليلاً على ان الانثى تشعر بالفشل والغيظ بسبب عدم تفهم الشريك لحاجاتها. ومن اهم الاسباب لهذا العطل النقص الهرموني (الاستروجين) بسبب سن اليأس، او عجز المبيضين المبكر او بسبب علة عصبية تؤثر في محور الهايبوثالموس ـ الغدة النخامية ـ المبيض. ومن الاسباب ايضاً، مرض السكري، والقلق والغضب وغيرها من الحالات الشعورية التي يمكن لها ان تسبب تهيباً من الجنس، خاصة مع شريك جنسي تشعر بأنه يستغلها ويستعبدها لاغراضه الجنسية بصرف النظر عن حاجاتها، او لانها لا تميل اليه او لم تعد تجد فيه الجاذبية الكافية لاستثارتها جنسياً.

٢ ـ عطل تشنج الفرج: Vaginismus . وهو يحدث على شكل تشنج وتقلص في عضلات الثلث الخارجي من الفرج (Vaginismus)، ويحدث ذلك بشكل انعكاس لمجرد التفكير بالعلاقة الجنسية او الهم بها، مما يجعل العلاقة الجنسية مؤلمة جداً او مستحيلة، ويمكن لهذا التشنج ان يتعقد باضافة تقلصات الفخذين مما يمنع محاولة الولوج. وتحدث هذه الحالة في بداية الزواج عند بعض الاناث وهذا يعبر عن تطبع الانثى على الخوف من العلاقة الجنسية، كما ان الحالة قد تحدث بسبب الزواج نتيجة لتجربة مؤلمة او اغتصابية الطابع، وقد تحدث الحالة في ظروف معاكسة تماماً كأن يكون الزوج رقيقاً ولطيفاً وسلبياً مما يشجع الانثى على الاستمرار في عطلها. ومن الأسباب المهيئة للعطل، الثقافة الخاصة للانثى ونضجها النفسي الذي يقرر مدى تقبلها لمسؤوليات ونتائج الحياة الزوجية. ويضاف الى هذه الاسباب امكانية توافر اية آفة او ضرر عضوي موضعي يمكن له ان يجعل العلاقة الجنسية مؤذية او مؤلمة.

٣ ـ الجماع المؤلم: Dyspareunia، وهي حالة اكثر وقوعاً في الأنثى منها في الذكر.

وهنالك اسباب عديدة نفسية وجسمية وجراحية لهذه الحالة والتي، كما بينا سابقاً، يمكن لها ان تكون السبب الاولي لحالة تشنج الفرج. ومن الأسباب الهامة لهـذه الحالـة، هي ان الشريـك الجنسي يقبل على الجنس بعنف، ويفرض حاجته على شريكته بدون مراعاة لها. ومن الاسباب ايضاً التهاب او تهيج البظر او الفرج، والنقص في ترطيب الفرج لسبب او آخر، أو استعمـال الانثى لبعض مستحضرات منع الحمل (غير الحبوب)، بما في ذلك استعمال المعاجين والفرزجة ـ اللولب Pessary والدوش، والرفال (كيس الذكـر). ومن الجلي ان هـذه الحالـة لها ان تعيق الانثى عن استجاباتها الجنسية، وان تمنعها من الحصول على الرضا الجنسي بما في ذلك الذروة.

المشاكل المشتركة في حياة الانثى الجنسية

يمكن للانثى ان تعاني من تجارب جنسية مما يمكن عدّه مغـايراً للنمط الـطبيعي في الحياة الجنسية. وقد يقع ذلك في احدى المجالات التالية وهي الاستمناء والجنسية المثلية، والانحراف الجنسي. وقد تناولنا هذه المجالات بالبحث المفصل في الفصول الخاصة بهـا، وسنختصر هنـا بعض النقاط الهامة في هذه المواضيع بقدر تعلقها بالحياة الجنسية للانثى.

١ ـ الاستمناء

يمارس الاطفال من الجنسين العبث الجنسي منذ السنة الأولى او الثانية من العمر، وهم يحصلون على شيء من المتعة من هذا العبث ويعانون من توتر وعصبية في حالة منعهم من هذه الممارسة. ومع انه يصعب مساواة هذا العبث مع العلاقة الجنسية الـطبيعية في الكبـر، الا انه يصعب تفريق الشعور بالمتعة بين ممارسات الطفولة وممارسات الكبر. ويمكن اعتبار الاستمناء، وهو عملية يدوية، امتدادا للعبث الجنسي في الطفولة. وان كان هذا الامتداد اكثر وضوحاً وانتشاراً واكثر ابكاراً في الأولاد منه في الاناث. فقد افادت دراسة دويتش وسيجوش على مجموعة كبيرة من المراهقين والمراهقات بين سن ١٦ ـ ١٧، من غير المتزوجين، بانه في سن الثالثة عشرة وما دون فان ٢٨٪ من الاناث يمارسن الاستمناء، ويرتفع ذلك الى ٣٩٪ من سن الرابعة عشرة وما دون و٤٩٪ في سن الخامسة عشرة وما دونها، و٥٠٪ في سن السادسة عشرة وما دونها. ويقابل ذلـك في الذكـور ٦١٪ و٨٢٪، و٩٢٪، و٩٣٪ على التـوالي. كما افـادت الدراسـة بان معـدل الممارسة في الانثى كانت ٤ و١ مرة في الشهر، وان المعدل هو ١ و٥ مرة في الشهر عند الذكور. وبأن ٢٥٪ فقط من الاناث يمـارسن الاستمناء بشكـل نشط، مقابـل ٧٨٪ من الذكـور. وفي استطلاع كنزي عن هذه الممارسة تبين بأن ٦ من كل ١٠ من الانـاث يمارسن الاستمنـاء حتى الذروة. وبان ثلث الاناث وهن في سن العشرين يمارسن الاستمناء بينما يمارس العادة ٩٠٪ من الذكور في هذا السن. وتتفق نتائج شمت وسيجوش مع نتائج كنزي من ان الاستمناء يبدأ في سن متأخرة في الانثى بالمقارنة مع الذكر، وأن الانثى تمارس العادة بتكرار اقل بكثير من الذكر. وقد وجد (كنزي ـ ١٩٥٣) أن النساء المتزوجات يمارسن العادة بمعدل مرة او مرتين في الشهر. وقد جلبت هذه الظاهرة اهتمام الباحثين في دوافع الانثى للاستمناء في الوقت الذي اتيحت لها فيه فرصة العلاقة الجنسية الطبيعية. ويجد الباحثون تفسيرات من جوانب متعددة لهذه الظاهرة.

فيرى ماسترز وجونسون بان الاستمناء من الناحية الفيزيولوجية للاستجابة، هو اكثر ارضاءً للانثى من الجماع الفعلي، وأنه يخدم غرض تعليم الانثى في موضوع معرفة العلامات المبكرة للاستجابة الجنسية وللوصول الى الذروة. ويجد آخرون تعليل هذه الظاهرة بانها دليل على أن الاثارة اليدوية الذاتية وخاصة للبظر، هي اكثر الاثارات تحقيقاً للاستجابات الجنسية الكاملة بما في ذلك الذروة، وهكذا فان الانثى تتجه نحو هذه الاثارة الذاتية، اما لعدم توافر مصادر الاثارة الاخرى، او لفشل هذه المصادر في اثارتها. وهنالك تعليلات نفسية لتفسير اقبال بعض الاناث المتزوجات على هذه الممارسة، ومن هذه التفسيرات ما جاء به لينج Laing ـ ١٩٥٩ من ان عملية الاستمناء في بعض النساء تتسم بالانعزال عن الآخرين، وبانحراف عن الانماط المقبولة، مما يعطي الممارسة هالة غير طبيعية من اللاواقعية ويقول: «ان وعي المستنمي لجسده يتعقد من حقيقة ان جسمه قد اغتصب من الفعل الحقيقي الى المشاركة في موقف خيالي، والجسد في الاستمناء يستعمل للغرض الواضح وهو الحصول على الرضا عن طريق حذف مشكلة مواجهة التعامل مع مواضيع فعلية، ويصبح الموضوع (الفعلي) للرغبة مجرد ظل للموضوع الآخر المتخيل، وهذه هي مشكلة المستنمي: خياله يلقي ظلاله عليه». ويعبر ماسترز عن وجهة نظر مقاربة (١٩٦٧)، من ان المستمني اثناء الاستمناء مجبر على اتخاذ منظورات متجزئة متعددة نحو جسده، فهو في آن واحد المعطي للاثارة والمستلم لها، وربما في خياله هو شخص آخر جلب الى هذا الموقف. وهذا يعني أن الاستمناء يشجع على تفتيت او تقسيم الهوية الذاتية، وتكوين عدة طرق للنظر الى جسم الفرد. وهذه الملاحظات كلها تطبق على الانثى كما تطبق على الذكر. وكما ان هنالك دوافع للاستمناء فان هنالك نواهٍ عنه، واكثر النساء امتناعاً عن هذه الممارسة هن اولئك اللواتي لا يؤمنَّ بالحرية الجنسية او باهمية الجنس في الحياة. وممن يؤمن بحياة رتيبة نظيفة في الحياة، فهؤلاء يعددن الممارسة امراً قذراً ومخالفاً للمثل الدينية ان لم يكن اثماً محرماً.

ومهما تكن اسباب الاستمناء عند الانثى، من اقبال او امتناع، فان هذا الموضوع قد اتخذ اهمية وابعاداً جديدة عندما بدأ علماء المعالجة للعطل الجنسي في الانثى او في الشريكين الجنسيين معاً، في اللجوء الى الاستمناء كوسيلة علاجية، وقد وضع العديدون مناهج تدريبية لتعليم الاستمناء كجزء من الارشاد الجنسي لحالات العطل الجنسي. ومن هذه المناهج، وصفة لوبكولوا (١٩٧٢) Lo Piccolo وكوبلنبرج Koolenberg (١٩٧٤)، وبارباخ Barbach (١٩٧٥)، ويدعى اصحاب هذه التقنيات العلاجية الاستمنائية نجاحاً في علاج حالات العطل الجنسي بقدر يتراوح بين ٨٠ و١٠٠ في المئة.

٢ ـ الجنسية المثلية ـ اللسبية

لقد سبق بيان الجوانب المختلفة من هذه الظاهرة في الفصل الخاص بها، وقد يكون من المفيد ان نبين هنا بعض الحقائق الاضافية عن الموضوع. فقد افادت دراسة ايزانك ١٩٧٦ الاستبيانية المقارنة في بريطانيا بأن ٢٪ من الاناث و٣٪ من الذكور (بين سن ١٨ ـ ٦٠) يفضلون جنسهم على الجنس الآخر. وبأن ٤٪ من كل من الجنسين ينجذبون الى جنسهم بكثرة. كما افاد

٧٠٪ من الاناث و٧٤٪ من الذكور بان الجنسية المثلية هي شيء طبيعي بالنسبة لبعض الناس. ان الاتجاه العلمي الآن يقضي بضرورة التفريق بين الممارسات الجنسية المثلية وبين الميول الجنسية المثلية، ويرى الباحثون في هذا الأمر أن مجرد بيان وجود الممارسة لا يفيد شيئاً عن اتجاهات الفرد الجنسية المثلية، فالكثير من الناس لهم ممارسات جنسية عديدة، او احلام وخيالات جنسية مثلية، ويبدون بعض الانجذاب الى من هم من جنسهم بدون ان تكون عندهم اية مظاهر للاضطراب في شخصيتهم، غير ان الفئة المهمة، هي تلك الفئة من الاناث او الذكور الذين لا يتميزون بممارساتهم الجنسية الفعلية بقدر تميزهم بميولهم الجنسية، فهم لا يستطيعون الحصول على الرضا الجنسي الا بالعلاقة الجنسية مع من هم من جنسهم، وهؤلاء يقدرون بحوالى ٣٪ من الاناث (من النساء حتى سن ٤٥) و٨٪ من الذكور (بين سن المراهقة والكبر). ومن أهم مظاهر الجنسية المثلية في الأنثى هي ان الهوية الجنبية هي على العموم هوية انثوية على الرغم مما يبدو على بعض إللسبيات من السلوك (الاسترجالي)، كما يلاحظ أن العلاقة اللسبية تبدأ متأخرة عن مثيلتها في الذكور، وتستديم مدة اطول، وتتخذ صفات الرابطة القوية والمخلصة. ومع أن الجنسية المثلية في الاناث تسترعي اهتماماً وانتباهاً اقل من الجنسية المثلية في الذكور، ومع انها تدان قانونياً واجتماعياً وادبياً بحدود واضحة الفرق عن ادانتها في حياة الذكور، الا ان لهذا الاتجاه الجنسي ان يسبب مشاكل اجتماعية وزوجية كثيرة، خاصة وان بعض اللسبيات يتزوجن وينجبن الأطفال.

٣ ـ الانحراف الجنسي عند الانثى

تنحرف الميول والممارسات الجنسية للانثى في نفس المجالات والصور التي تنحرف بها هذه الميول والممارسات عند الذكر. وقد ورد بيان ذلك في الفصل الخاص بالانحرافات الجنسية، ويستفاد من مقارنة الانحرافات الجنسية عند الانثى بمثلها عند الذكر، بان نسبة وقوع ما يعتبر انحرافاً في الحياة الجنسية للانثى هو اقل من هذه النسبة عند الذكر. وبعض التعليل لهذا الواقع يكمن في كون الانثى اقل من الذكر الحاحاً في الممارسة الجنسية الذاتية والفعلية، وفي كونها اكثر اكتفاءً بالحد الادنى من الارضاء الجنسي، وهي لذلك اقل حاجة وسعياً في الكثير من الحالات التي تجاوز هذا الحد الادنى عن طريق الارضاء بطرق ووسائل انحرافية، ثم ان الوضع الاجتماعي التقليدي للانثى يحتم عليها ان تكون اقل جرأة في ممارسة الانحراف برغبة ذاتية، وهي لذلك تطاوع الذكر في انحرافه سواءً تلاءم ذلك مع ميولها المنحرفة او لم يتلاءم. وكما هو الحال في الذكر، فان الانحراف الجنسي للانثى يمكن ان يتمثل في تبديل الهدف الجنسي، او ان يكون في تبديل الموضوع الجنسي. وينظر المحللون لظاهرة الانحراف في الانثى كما ينظرون اليها في الذكر ويعللونها على نفس الاسس السببية. والانحرافات في الانثى كما هي في الذكر،ليست عازلة بعضها عن بعض، فقد تعاني الواحدة من اكثر من انحراف في آن واحد. والأنثى، كما ذكرنا، هي اقل من الذكر تعرضاً لهذه الانحرافات، وبعض هذه الانحرافات تظهر فقط في الذكور وندر ان توجد في الاناث كالاستعراضية، والتبصصية (التلصصية) والالباسية في العلاقة

الجنسية المغايرة Hetrosexual Transvestism. ونحن في تأملنا لقلة الانحرافات الجنسية في الانثى بالمقارنة مع حدوثها في حياة الذكر نجد ما يوحي بان في الانثى من (انوثة) جنسها اكثر مما للذكر من (ذكورة) جنسه. وهي لذلك في ميولها وممارساتها اكثر تطابقاً مع هويتها الغالبة، بوصفها انثى، من الذكر.

مواقف الانثى من الجنس

الحديث عن مواقف الانثى من الجنس هو موضوع حديث العهد نسبياً حتى في الحضارة الغربية المعاصرة، غير انه مع حداثته راح يأخذ ابعاداً جديدة والى حد يصعب معه اهمال رأي الانثى وموقفها من ناحية هي في غاية الاهمية من حياتها. لقد قام الكثيرون في ربع القرن الاخير بأبحاث استطلاعية عديدة في محاولة تحديد مواقف الانثى من موضوعات جنسية عديدة ومتنوعة، وما تمكن الباحثون الحصول عليه من معلومات يلقي الكثير من الضوء على الحياة الجنسية للمرأة، ويساعد على فهم بعض جوانبها، بما في ذلك النواحي المتعلقة بالشعور والممارسة الجنسية. وللحصول على هذه المعلومات، استبين رأي المرأة وسلوكها ولمعورها في مواضيع شتى، كالطريقة التي تحصل فيها على الذروة، وشعورها النفسي والجسدي المصاحب لها، والتفضيل بين اثارة البظر واثارة الفرج، والمداعبة السابقة للجنس، وظروف العلاقة الجنسية، والخيالات والصور الجنسية التي قد تصاحب العمل الجنسي، والاحاسيس المختلفة في المناطق الجنسية المختلفة، وممارسة الاستمناء، والجنسية المثلية، والتنوع الجنسي وانحرافاته، والجواذب في الشريك الجنسي، الى غير ذلك من المواضيع. وقد جرت محاولات جادة لقرن بعض مظاهر السلوك الجنسي بشخصية المرأة وبظروفها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية وغيرها من العوامل التي يمكن لها ان تؤثر في الشعور او السلوك الجنسي. واذا امكن استنتاج مبادىء عامة من هذه الابحاث فهي تتلخص فيما يلي: (اولاً) ان الاناث يختلفن بعضهن عن البعض في حدود واسعة في رغباتهن الجنسية، وفي نوعية المداعبة الجنسية المقبولة لديهن وفي اوضاع العلاقة الجنسية وفي طرق الاثارة الجنسية. (ثانياً) ان الانثى في معظم الحالات لا تعلم بهذا التباين بينها وبين غيرها، وهكذا فان الفروق القائمة هي فروق اصيلة وغير متعلمة او متلقنة من الغير. (ثالثاً) هنالك تباين واسع بين الاناث في مدى الحاجة للارضاء الجنسي، فمن تلك التي لا ترضى الا بالالحاح والاكثار من العلاقة الجنسية الفعلية، الى تلك التي تجد قناعة ورضى بمجرد القرب والتماس. (رابعاً) هنالك اختلاف بين الاناث ليس فقط في الاثارة المفضلة التي تضمن الاستجابة بالذروة، انما ايضاً في الفترات الزمنية الأكثر اثارة كالدورة الشهرية، وفترة العادة او الحمل. وخلاصة هذه الابحاث حتى الآن هي ان الحياة الجنسية عند الانثى هي اكثر ارتباطاً بشخصيتها وحالتها النفسية وظروفها المتأثرة بعوامل عدة، من مثل هذا الارتباط في حياة الذكر، وهي لذلك ذات حياة جنسية في غاية الدقة والتعقيد، وتحتاج الى فهم اكثر بكثير مما تحتاجه هذه الحياة من الفهم في الذكور. ومع ان الانثى تكون مصدراً هاماً واساسياً لهذا الفهم، الا انها قد لا تعي في نفسها جميع ما تمر به من تجربة، ولذلك فلا بد من رصد

سلوكها الجنسي من خارج نفسها عن طريق شريكها الجنسي، وعن طريق الرصد الاختباري للاثنين معاً. وهكذا فان للحياة الجنسية للانثى ابعاداً ثلاثة يقتضي الاحاطة بها لادراك بعض نواحي هذه الحياة. والاكتفاء ببعد واحد فقط، كالنظر اليها من جانب الانثى فقط او من جانب شريكها الجنسي فقط، كالنظر للاشياء بعين واحدة، فقط تطل من جانب واحد ولا ترى كل شيء. وهنالك مسألة اخرى هامة بشأن الانثى، وهي مسألة الزمن، فبينما الذكور يتصفون بميول وممارسات جنسية تكاد تكون ثابتة المعالم منذ سنوات البلوغ والمراهقة، الا ان مثل هذه البوادر لا تتضح في الانثى في هذه السن المبكرة، كما انها حتى عندما تتضح، فانها لا تثبت بالضرورة على نمط معين من حيث الرغبة والشعور والارضاء والممارسة، ولهذا فان لها ان تتغير في حدود واسعة في حياة الانثى الواحدة بين حين وآخر، وبين تجربة واخرى، وهو ما لا يحدث كثيراً في حياة الذكر، وكل هذه الظواهر تجعل الحياة الجنسية للمرأة كالمرأة ذاتها، تعصى على الفهم وتتحداه، وقد يكون في ذلك السر الذي يربط الرجل بالانثى ويخدم غرض البقاء للانسان.

ادوار الحياة الجنسية

تمر ادوار الحياة الجنسية للانثى لمراحل معينة تؤثر في دوافعها الجنسية وفي استجاباتها للحوافز الجنسية، وهي بذلك اكثر تقلباً في مظاهر حياتها الجنسية من الذكر والذي تأخذ حياته الجنسية نمطاً بيانياً ثابت الشكل الى حد بعيد. والمراحل التي تمر بها الانثى والتي تؤثر في حياتها الجنسية هي بداية الحيض، ثم الدورة الشهرية، والحمل، والولادة وما بعدها، وسن اليأس، ومرحلة الكبر، ومع ان لكل مرحلة من هذه المراحل خصائصها العامة فيما يتعلق بالنواحي الجنسية، الا ان لكل انثى خصوصيتها الفردية من هذه النواحي، سواء تقررت هذه الخصوصية بعوامل تكوينية ووراثية، او جاءت بحكم واقع الانثى الحضاري والاجتماعي والتربوي والصحي وظروف حياتها الجنسية. وفيما يلي خلاصة مختصرة لطبيعة وخصائص المراحل الجنسية المتوالية في حياة الانثى:

١ ـ الحيض الاول Menarche

الحيض الاول، هو مرحلة هامة ونقطة انعطاف اساسية في حياة الانثى وهو يؤذن بانتقال الانثى من مرحلة الطفولة والحداثة الى مرحلة البلوغ والأنوثة، مع ما يصاحب ذلك من تغييرات جسمية وهرمونية تتناسب مع هذه المرحلة الجديدة. ان معدل عمر الفتاة عند اول حيض لها يتفاوت بين فتاة واخرى، كما يتفاوت تبعاً لمؤثرات اجتماعية وحضارية مختلفة، ويتراوح المعدل بين (٨ ـ ١٣) سنة. ويقع بين (١١ ـ ١٢) سنة في الحضارات الغربية، واقل من ذلك بسنة او اكثر في البلدان الشرقية والحارَّة. ومن الفروق الهامة بين بلوغ الفتى وبلوغ الفتاة، ان بلوغ الفتى يصاحبه فورة جنسية، مع مقدرة الفتى على انزال المني، اضافة الى اتجاه الفتى البالغ الى ارضاء دوافعه الجنسية بالاستمناء عادة. اما الأنثى فان حيضها الاول لا يصاحبه دوافع جنسية، كما ان الفتاة تظل لمدة عام او عامين في الأقل عاجزة عن تكوين وانزال البويضات اثناء الدورة

الشهرية، وهي لا تسعى الى اثارة او ارضاء نفسها جنسياً بالاستمناء كما يفعل الفتى البالغ.

٢ ـ الدورة الشهرية Menstrual Cycle

تبدأ مرحلة الدورات الشهرية بما تتضمنه من فترة الحيض، بالحيض الاول Menarche، وتستمر هذه الدورات لمدة (٣٠ ـ ٤٠) سنة بعد ذلك وحتى توقف الدورة عند بلوغ الانثى سن اليأس. وترتبط الحياة الجنسية للأنثى الى حد كبير بما يجري خلال هذه الدورة من تغيرات بايولوجية وفيزيولوجية، وهي التغيرات التي تنظمها وتسيطر عليها مراكز خاصة في الدماغ، اهمها يقع في نواة الهايبوثالموس، وهي نواة لها اهميتها في السيطرة على الانفعالات العاطفية.

ان الدورة الشهرية للأنثى تستغرق فترة معدلها (٢٨ ـ ٢٩) يوماً، ويعدّ اليوم الأول لبداية الحيض بداية لهذه الدورة، ويستمر الحيض مدة تتراوح بين ثلاثة الى سبعة ايام. وهي مدة تختلف بين انثى واخرى، غير انها تكاد تكون ثابتة بالنسبة للأنثى المعينة. وتقسم الدورة من الناحية البايولوجية الى ادوار ثلاثة: الدور السابق للتبييض، ودور التبييض، والدور التالي للتبييض. ويقع دور التبييض في منتصف الدورة الشهرية تقريباً. وتلاحظ مع هذه التغيرات اثناء الدورة بعض المظاهر من التغير في الدوافع والاستجابات الجنسية وهي مظاهر مشتركة في الاناث، الا انها تختلف ايضاً بين انثى واخرى تبعاً لمؤثرات ومقررات فردية. وعلى العموم فان أيام الحيض تتسم بهبوط كبير في الرغبة والاستجابة الجنسية وقد يكون ذلك مسبباً عن مؤثرات هرمونية، غير انه يتقرر ايضاً والى حد كبير باعتبارات نفسية بالنظر الى مما يمثله الحيض بالنسبة لكل من الذكر والانثى من انه حالة غير نظيفة، وأن الانثى في هذه الحالة يجب ان يتجنب معاشرتها، وحتى ملامستها في بعض الحضارات. وهنالك بعض الاناث اللواتي على عكس معظم الاناث، فانهن يشعرن باذكاء الرغبة والاستجابة الجنسية اثناء الحيض، ويفسر ذلك على ان الحيض يرمز لهن ليس للأنوثة فقط، وانما لفض البكارة وما يصاحبها من نزف، وبذلك الدخول الى عالم المرأة. وقد تبين من بعض الابحاث، أن الدافع الجنسي يتزايد تدريجياً خلال النصف الاول من الدورة الشهرية ويبلغ اقصاه في منتصف هذه الدورة ثم يتناقص الدافع تدريجياً في النصف الثاني من الدورة. وهنالك على العكس دراسات اخرى تبين أن الدافع الجنسي يزداد في بداية الدورة (بعد الحيض)، او في نهاية الدورة وقبيل حدوث الحيض مباشرة. ويفسر ذلك على انه نتيجة للاثارة وسرعة الاستجابة التي تحدث بسبب احتقان اعضاء الحوض، وهو الاحتقان الذي يزداد في هذه الفترة. وهذا التضارب من البيانات يدلل على وجود فروق فردية بين الاناث خلال الدورة الشهرية.

٣ ـ فترة الحمل

ان الحمل في حد ذاته لا يكون عائقاً لنشاط المرأة الحامل. والواقع هو ان التغيرات الفيزيولوجية التي تحدث اثناء الحمل في اعضائها الجنسية يمكن جعلها درجة من درجات الاستثارة الجنسية، ولهذا فان من الطبيعي ان تتوقع زيادة في استجابة المرأة اثناء الحمل وفي

الفترة التالية له. ومما يلاحظ في شأن العلاقة بين الجنس والحمل، هو ان بعض الاناث لا يحصلن على ذروتهن الا عندما يصبحن حاملات لاول مرة، ويفسر ذلك كله على ان المرأة الحامل، وخاصة في الثلث الاخير من الحمل، تتمتع بدرجة عالية من احتقان اعضاء الحوض مما يزيد في امكانياتها للاستثارة او الاستجابة الجنسية. ومن شأن توالي الحمل للأنثى ان يؤدي الى قيام حالة دائمية من الارتفاع في نشاطها الجنسي وفي سرعة استجاباتها للاثارات الجنسية. وفي دراسة لماسترز وجونسون افادت ٨٢ امرأة من مجموع ١٠١، بأنهن لاحظن زيادة في الدافع والفعالية الجنسية اثناء الثلث الاخير من فترة الحمل. وفي دراسة اخرى افادت ست حوامل بزيادة الدافع والاستجابة الجنسية اثناء الحمل، كما افادت امرأتان بانهما احسستا بعدة ذروات اثناء الحمل ولاول مرة. وتفيد معظم الدراسات بان هنالك هبوطاً ملحوظاً في الدافع والاستجابة الجنسية بعد الولادة. وبأن هذا الهبوط يستغرق ثلاثة اشهر قبل ان يعود الى مستواه السابق قبل الحمل، وقد لا يعود النشاط الجنسي الى مستواه السابق ابداً، وذلك نتيجة للاثارة السلبية الفيزيولوجية والعاطفية التي يمكن ان تصاب بها بعض النساء. غير ان هنالك بعض النساء اللاتي يشعرن على عكس ذلك بزيادة في الدافع الجنسي بعد فترة الولادة، وقد يكون لاحتقان الأعضاء والانسجة الحوضية فعل في هذه الزيادة. هذا ولا بد لنا من ان نأخذ بعين الاعتبار في بحث العلاقة بين الجنس والحمل من ان اقبال الانثى الحامل على العلاقة الجنسية له ان يتقيد كثيراً بمخاوفها من أن العلاقة الجنسية يمكن لها اما ان تسبب الاجهاض او ان تؤدي الى الاضرار بالطفل. وهنالك ايضاً التأثير الناهي عن الجنس الذي يمكن ان يحدث للمرأة الحامل اذا كان حملها غير مرغوب فيه لسبب او آخر. وعلى العموم فانه يحسن بالمرأة الحامل تجنب العلاقة الجنسية التامة في الفترة الاخيرة من الحمل وتجنب الاثارة الجنسية مهما كانت، ذلك لأن الرحم في هذه المرحلة شديد الحساسية، وله ان ينقبض بشدة مما قد يؤدي الى النزيف او الاجهاض.

٤ - الجنس وسن اليأس Menapause

سن اليأس مصطلح يتحدد بالأنثى، وهو ينوه بتوقف الحيض، وبما يمكن ان يصاحبه من شعور الأنثى باليأس من امكانية الحمل والانجاب للأولاد، ولا علاقة لهذا السن بامكانيات المرأة ونشاطها الجنسي. ويتراوح سن اليأس في الأنثى بين الخامسة والاربعين والخمسين من العمر، وله ان يبدأ قبل الحد الادنى او بعد الحد الاعلى لهذا السن. والذي يحدث في هذا السن هو هبوط في هرمونات المبيضين، وتوقف العادة، وتوقف المقدرة على الانجاب، ويصاحب ذلك عادة بعض التغيرات الجسمية والنفسية، غير ان هذه التغيرات لا تشمل حياتها الجنسية. وقد افادت معظم البحوث بان الأنثى بعد سن اليأس تتمتع بنشاط جنسي لا يمكن تفريقه عن نشاطها قبيل ذلك السن ما دامت تتمتع بصحة جسمية ونفسية طبيعية. وهنالك على العكس ما يؤيد أن الحياة الجنسية لبعض النساء تزداد نشاطاً ومتعة عند بلوغ سن اليأس، ويرد ذلك الى زوال الخوف من الحمل ومسؤولية الانجاب ومسؤولية استعمال موانع الحمل وآثارها الجانبية الممكنة. وقد يجد الباحث في هذه الظاهرة أن بعض هذا النشاط الزائد والطارىء بمثابة محاولة

للتعويض عن أي تنويه بأن المرأة قد خسرت شيئاً من أنوثتها بسبب بلوغها هذا السن . ومعظم الاناث يصيبهن تحول في أغشية الفرج بسبب نقص الأستروجين مما يؤدي إلى ترقيق وضمور الفرج وصعوبة ترطيبه مما يجعل العلاقة الجنسية مؤلمة للمرأة بعد سن اليأس ، غير ان هذه النتيجة قد تقل كثيراً إذا ما واصلت الانثى علاقاتها الجنسية بصورة منتظمة بعد وصولها إلى هذا السن .

٥ ـ الجنس والكبر

سن الكبر للأنثى كما هو الحال في الذكر يبدأ بتجاوز سن الخامسة والستين ، وان كان هذا السن يختلف بين مجتمع وآخر ، وهو على كل حال سن افتراضي لا يمثل بالضرورة أي تحول جذري لا من الناحية الصحية النفسية أو الجسمية ، ولا من الناحية الجنسية ، وخاصة بالنسبة للأنثى . وقد بحثت العلاقة بين الجنس وكبر السن في مكان آخر من هذا الكتاب . ويستخلص من الملاحظات في هذا الشأن ، أن المرأة في حياتها الجنسية لا تتأثر بما يتأثر به الرجل في الكبر من مظاهر العنة ، وهي على العموم تحافظ على قدر كبير من نشاطها الجنسي إلى السبعينات وحتى الثمانينات من العمر .

علاج العطل الجنسي في الاناث :

إضافة إلى المباديء والطرق العلاجية لحالات العطل الجنسي في الجنسين بصورة عامة فإن هناك طرقاً علاجية مخصصة لكل حالة من العطل الجنسس في كل من الأنثى والذكر ، وبعض هذه الطرق يتم تطبيقها على الفرد الذي يعانيها بصورة فردية ، وبعضها يقتضي تناولها بصورة ثنائية تجمع بين الفريقين ، واختيار أي من الإسلوبين : الفردي أو المشترك ، لا يتقرر فقط بنوعية العطل الجنسي ، وإنما برغبات المشاركين في العلاقة الجنسية ، هذا ويمكن تطبيق الاسلوبين معاً إذا وجد ذلك ضرورياً أو ممكناً . وفيما يلي نتناول باختصار علاج أهم حالات العطل الجنسي في الإناث .

عطل الذروة :

لما كان عطل الذروة في الانثى يتباين نوعاً ودرجة ، فإن علاجه لا يتماثل في جميع هذه الحالات ، فهناك الانثى التي لم تحصل أبداً على الذروة من علاقاتها الجنسية ، أو ممارستها الجنسية التي تهدف إلى اثارتها ، وهناك الانثى التي لا تحصل على الذروة من علاقتها الجنسية المباشرة ، ولكنها تحصل عليها عن طريق اثارتها لمنطقة جنسية معينة بطريقة يدوية (الاستمناء) ، وهناك من

الاناث من يحصلن على الذروة أحياناً وربما في مواقف معينة او بعد جهد جهيد .

ان اسلوب علاج عطل الذروة على الانثى يتخذ الطرق التالية وطبقاً لنوعية العطل:

١ ـ تشجيع الانثى على الحصول على ذروتها بالطريقة التي تجدها مناسبة ، ولها ان توجه شريكها الى مواطن الاثارة التي تؤدي الى استجابة الذروة.

٢ ـ في حالة عدم الاستجابة لمثل هذه الاثارة الذاتية او الموجهة من شريكها فان للأنثى ان تلجأ لاستعمال (الذبذبات) لإحداث اثارة سريعة ومتكررة في موطن ما من اعضائها الجنسية .

٣ ـ تدريب الانثى على القيام بالاستمناء ، وطبقاً لتقنية معينة تشمل : (١) تعرف الانثى على اعضائها الجنسية ، (٢) تعيين المواطن الحساسة من هذه الاعضاء ، (٣) قيامها باثارة هذه المواطن لاحداث الاستشارة الجنسية ، (٤) القيام بتمارين لعضلات الحوض ، (٥) وتمكينها من الاستعانة بطرق أخرى مثل : النشرات الجنسية ، والخيالات الجنسية .

تشنج المهبل :

يتضمن اسلوب علاج هذا العطل في الانثى القيام بالخطوات التالية :

١ ـ مساعدتها على تكوين مواقف اكثر ايجابية نحو اعضائها الجنسية وذلك عن طريق تفهمها لطبيعة وشكل هذه الاعضاء وتفقدها لها .

٢ ـ قيامها بتمارين للحوض مما له ان يساعدها على التمكن من السيطرة على العضلات المحيطة بمدخل المهبل .

٣ ـ ولوج المهبل بأصابعها : اصبع واحد في البداية ، ثم أصبعين ، ولشريكها ان يقوم بذلك ، وهدف ذلك تطمينها بأن الولوج ممكن وغير مؤذي لها .

٤ ـ التمرينات المساعدة على تمكين المهبل من الإحتواء للعضو الذكري .

ويتم هذا الاحتواء (للقضيب) باتباع الخطوات التالية :

ـ الاقدام على ذلك والشريكين في حالة هدوء وارتخاء واستشارة جنسية .

ـ قيام الانثى بإيلاج

قضيب شريكها في المهبل وبقاء شريكها في حالة سكون .

- اتخاذها الوضع الأعلى في العلاقة .

- إدخال عنصر الحركة (خاصة حركة الحوض لتمكينها من إحراز السيطرة ، وتبادل هذه الحركات بين الشريكين) .

عسر الجماع :

يحدث عسر الجماع إما لإسباب عضوية أو لأسباب نفسية ، ومن أهم الاسباب النفسية هو فشل أحد الشريكين او كليهما في بناء حالة الاستثارة ، وتعالج الأنثى التي تنقصها الاستثارة اللازمة باستعمال تقنية اثارة المنطقة الجنسية التي سبق بيانها ، أما الحالات العضوية لعسر المزاج فان الشريكين يوجهان إلى اتخاذ وضع ملائم للمضاجعة (جانباً او وجهاً لوجه) ، كما ينصح الشريك الذكر بتجنب الولوج العميق في المهبل .

عطل الاهتمام الجنسي :

يتضمن علاج هذا العطل القيام بعدة فعاليات : (١) القيام بالنشاط الجنسي في ظروف ملائمة ، (٢) التقليل من القلق ، (٣) تشجيع المداعبة الجنسية (السابقة للجماع) ، (٤) التركيز على الاثارات والافكار الجنسية ، (٥) محاولة حل المشاكل القائمة في العلاقة بين الشريكين ، (٦) رصد النواهي عن السلوك الجنسي ، ومحاولة ازالتها .

عطل الاستثارة الجنسية :

مما يساعد على توفير هذه الاستثارة هو : (١) العمل بمنهاج الواجبات البيتية (تحسيس المناطق غير الجنسية ، ثم تحسيس المناطق الجنسية الخ) ، (٢) اللجوء الى الاثارة عن طريق الخيالات الجنسية ، (٣) معالجة ما يمكن ان تعانيه الانثى من جفاف جدار المهبل وهو الجفاف الذي له ان يعطل عملية الاستثارة (استعمال كريم هرمون الاستروجين) .

الفصل التاسع

البرودة الجنسية عند الانثى

* مقدمة
انواع البرودة الجنسية
اسباب البرودة
الاسباب النفسية للبرودة
* لتطبع
الاسباب النفسية غير الواعية

البرودة الجنسية

مصطلح البرودة الجنسية قديم الاستعمال. ويفضل عليه الآن مصطلح العطل الجنسي عند الاناث كما هو الحال في مصطلح العطل الجنسي عند الذكور. وهنالك من يساوي بين مصطلح العنة عند الذكور والبرودة عند الاناث، كما ان هنالك من يعارض الرأي في تشابه الحالتين على اساس ان الذكر العنين له دوافع جنسية طبيعية غير انه عاجز عن الأداء الجنسي الطبيعي، بينما الانثى الباردة جنسياً، فانها لا ترغب في الجنس، وتدير ظهرها له، وليس لديها المقدرة على ان تأمر نفسها بالرغبة الجنسية اكثر مما يستطيع الذكر ان يحقق ارادته باحداث الانتصاب.

قد يكون هنالك ما يسوغ الابقاء على تعبير البرودة الجنسية لا لقدمه فقط، وانما لشيوع تداول المصطلح تعبيراً عن واقع في الحياة الجنسية عند نسبة غير قليلة من الاناث، ثم ان لمصطلح البرودة ان ينوه بهذا الواقع وطبيعته اكثر من أي مصطلح آخر. ومع ذلك فانه ينبغي محاولة تعريف هذا المصطلح وتعيين حدوده ودرجاته وبيان انواعه واسبابه. ولعل افضل ما يعرف به مصطلح البرودة، هو انه حالة من الشعور والدافع السلبي عند المرأة للامور المتعلقة بالجنس والسلوك الجنسي. وهذا الشعور اما يكون دائماً او محدداً لفترة زمنية، وقد يكون عاماً، وقد يرتبط بموقف او ظرف معين او بعلاقة جنسية معينة، وقد يكون عاماً يشمل المجال الجنسي بكامله، وقد يتحدد اما في الرغبة الجنسية او الاستثارة الجنسية او في الاستجابة الجنسية او في تعذر الحصول على الذروة الجنسية. وجميع هذه الدرجات من البرودة يقتضي تحديدها، وإلا

تعـذر حصر العـطل الجنسي في نطاقـه، وتعذر معـه البحث في اسبابـه والتوصـل الى علاجـه المناسب.

**

هنالك من يتخذ موقفاً من الحياة الجنسيـة للانثى ينفي فيـه على الانثى انها تملك طـاقة جنسية، وأصحاب مثل هذا الرأي يجدون أن الاثارة والتوتر الجنسي هو شيء مقبول وطبيعي في الرجل، بينما هو شيء غير طبيعي وغير مقبول في حياة الانثى. ويسوغ بعضهم هذا الرأي بأن الاثارة والتوتر الجنسي قد يكون ضرورياً لبقاء الجنس الانساني، غير ان الرجل ما دام يملك هذه المقدرة على الاثارة والتوتر، فانه لا توجد هنالك حاجة بيولوجية ضرورية للاثارة والتوتر الجنسي للمرأة. وباختصار فان مثل هذه الآراء تجرد الانثى من الرغبة الجنسية والدور الايجابي في العملية الجنسية، وتعطيها فقط دوراً سلبياً ومستلماً في هذه العملية. وقد توطنت مثل هذه الآراء في تفكير وتقاليد الكثير من الناس في العديد من المجتمعـات. ومثل هـذا التصور للطاقـة الجنسية عنـد الانثى، يتعارض مع ما هو ثابت علمياً وواقعياً من ان الانثى قادرة كالرجل على النشاط الجنسي ان لم تكن اكثر منه قدرة على الأداء الجنسي، وهو الواقع البايولوجي الذي ظل كامناً في التجربة الجنسية للانثى بفعل عوامل اجتماعيـة وحضاريـة شجعت النظر الى الانثى عـلى انها اقل من الرجل في هذا المجال، او ان عليها ان تكون او ان تظهر على مستوى من الفعالية الجنسية اقل مما يتصف به الذكر. وقد كان من نتائج هذه النظرة الاجتماعية والحضارية النظر الى الاثارة والتوتر الجنسي شيئاً مقبولاً ومرغوباً فيه عند الذكر، غير انـه غير مقبـول ومرغـوب فيه عنـد الانثى. واقتضى لذلك ان يفرض على المرأة ضرورة النهي عن الجنس او انكاره او تصعيده وتحويله الى نواحٍ تعبيرية اخرى، او اظهاره بشكل مشوه وغير طبيعي.

ان هنالك من يحمل الرأي بان مهمة المرأة في العلاقة الجنسية هي ارضاء الرجل، وبأن قناعتها تأتي عن شعورها بانها استطاعت هذا الارضاء، وهذه نظرة تنفي عن الانثى امتلاكهـا لطاقة جنسية تحتاج الى تعبير وارضاء في ذاتها. ويقول احد الباحثين في تعليق على هـذا الرأي بانه: «لا يمكن قبول الرأي بأن الشيء الطبيعي هو ان يكون هـدف الانسان في الحيـاة الوفـاء بحاجات شخص آخر وعلى حساب اهمال حاجاتـه هو». وعـلى هذا فـان من الخطأ النـظر الى الانثى بانها باردة في الطبع، وبانها وجدت لكي تفي بحاجات ارضاء الرجل ولتحقيق اغراض التكاثر فقط.

لقد كان من آثار الفعل الاجتماعي والحضاري على حياة الانثى والنظر اليها طرفاً ادنى في العلاقة الجنسية ان الانثى اضطرت، في شعورها الواعي في الاقل، الى النظر الى نفسها بـانها ادنى من الرجل في مجال الجنس، «وبأن الانوثة المثالية هي حالة وسطى بين النشاط والسلبية في الحياة الجنسية، وضمن سيطرة الاتجاه العائلي السائد عن دور المرأة في العلاقة الجنسية».

انواع البرودة

يمكن تقسيم البرودة الجنسية عند الانثى على عدة اسس نوعية او سلبية. وعلى العموم فان هنالك فئتين من انواع البرودة، الفئة الاولى، وهي فئة قليلة العدد نسبياً، وتشمل الحالات الشديدة من العطل الجنسي العام، والذي يتمثل في النقص الكلي في الرغبة او الميول الجنسية وفي الاستجابة اللازمة للاثارات الجنسية. اما الفئة الثانية، فهي الفئة الاكبر من حالات العطل الجنسي عند الانثى، غير انها حالات اقل شدة وتشمل نوعين من عطل الذروة، النوع الاول هو عطل الذروة الاساسي والذي لا تستطيع فيه الانثى الحصول على الذروة في اية حالة وبأية طريقة، اما النوع الثاني فهو «عطل الذروة الموقفي»، وهو العطل الذي يحدث في مواقف معينة. ويفترض في عطل الذروة في أن الانثى ترغب في الجنس وأن لها الدوافع النفسية الكاملة نحوه، وتتكون عندها الاستجابة الفيزيولوجية اللازمة، غير انها لا تستطيع الوصول الى الذروة، سواء كان ذلك عن طريق الاستمناء الذاتي، او الاستمناء بفعل الشريك الجنسي او عن طريق الجماع المباشر.

اسباب البرودة

هنالك اسبابٌ عديدة للبرودة الجنسية عند الانثى، ومعظم هذه الاسباب قد ورد بيانها في موضوع العطل الجنسي عند الانثى في الفصل الخاص بالحياة الجنسية عند الانثى. ويمكن اختصار هذه الاسباب بما يلي: (كما اوردها ماسترز وجونسون ١٩٧٤).

الاسباب المادية والعضوية:

١ ـ استعمال الأدوية المسببة للأدمان الدوائي سواء المثبطة للجهاز العصبي مثل الكحول، والمنومات والمسكنات والمواد المخدرة الأفيونية، او منشطات الجهاز العصبي مثل النيكوتين (التدخين) والكافيين (الافراط في شرب القهوة) والامفيتامينات.

٢ ـ الادوية والمستحضرات التي تمنع ترطيب الفرج او تحول دون تورمه (احتقانه). او انها ترفع من عتبة الاستثارة الجنسية. ومن هذه الادوية المعقلة، والادوية المضادة الكولونية والادوية الخافضة لضغط الدم.

٣ ـ الامراض المزمنة والمسببة للوهن والنحول، مثل امراض القلب والدورة الدموية، وامراض الكلي وامراض الدم، والاورام السرطانية.

٤ ـ الاضطرابات الهرمونية والتي تشمل معظم الغدد الصماء وتؤدي عادة الى عجز في افرازاتها او الى عدم توازن في هذه الافرازات، ومن هذه الاسباب تناول بعض الهرمونات الانثوية مثل بروجستيرون Progesterone والاستروجين Estrogen ، والعمليات الجراحية لاستئصال المبيضين وغدة السوبرارينان.

٥ ـ اضطرابات الجهاز التناسلي البولي، من التهابات واورام او تشويه خلقي، او وجود

فرج ناقص النمو او طفولي، او عدم وجود بظر.

٦ ـ آفات الجهاز العصبي، وخاصة ما يؤثر منها على الجهاز العصبي السمبثاوي والبارسمبثاوي، وآفات النخاع الشوكي وخاصة مع وقع منها في المنطقة القطنية والعصعصية والعمليات والشدة على الظهر.

الاسباب النفسية للبرودة

الاسباب النفسية للبرودة الجنسية تكون معظم التسبيب للمشاكل الجنسية عند الانثى، وخاصة في مجال البرودة الجنسية. وفيما يلي بعض الآراء السببية النفسية:

١ ـ النظر الى البرودة الجنسية بانها استجابة تطبع غير طبيعي للقلق ومن مصادر مختلفة، ومن هذه المصادر المحركة للقلق:

● ان الشخص يحمل في ذهنه او يعيش قيماً جنسية متشددة وناهية عن الجنس. فالاثارات الجنسية من إي مصدر كان، لا بد ان تحرك في نفوسهم الصراعات النفسية كالشعور بالاثم والاشمئزاز والقلق.

● نتيجة تجربة جنسية فاشلة او مسببة للمعاناة، وخشية المرأة من تكرار هذه التجربة.

● الجهل وقلة المعرفة بالاستجابات الجنسية الطبيعية، سواء كان هذا الجهل مقرراً حضارياً، او ان الانثى المعينة قد اختصت له بالذات بسبب ظروفها الخاصة. وحضارتنا على العموم تشجع الانثى على ان تكون سلبية في العلاقة الجنسية، والتغاضي عن ادراك مشاعرها الجنسية، وضرورة التقليل من الدوافع والحاجات الجنسية، وتفادي اكتشاف المرأة لجواذب ومواطن الجنس في جسدها، والقبول بمبدأ المبادرة للرجل، والتسليم بحقه في هذه المبادرة. ونتيجة هذه العوامل فان المرأة تعيش وضعاً نفسياً غير متكافىء مع الرجل. مما يجعلها في الكثير من الاحيان مجرد مراقب للعملية الجنسية، وتنظر الى دورها فيها من زاوية كفاءتها ومقدرتها على ارضاء شريكها الجنسي. ومعنى ذلك ان المرأة لا تحس او لا تتقبل مشاعرها الجنسية وهي تنكرها، وما ينجم عن هذه الافكار من موانع نفسية امام التعبير الصريح والكافي عن طاقتها الجنسية.

٢ ـ الاسباب النفسية غير الواعية، وتشمل هذه الاسباب الصراعات النفسية غير الواعية، ومن هذه الصراعات ما يفسر على اساس (عقدة اوديبوس)، فالطفلة التي تفشل في حل هذه العقدة بشكل طبيعي، فانها تنمو بحيث انها عندما تتعرض للاثارة الجنسية في الكبر، فان هذا لتعرض له أن «يوقظ من جديد ميولها الجنسية المحرمة نحو والدها، مما له ان يؤدي الى اثارة حالة من القلق الطافح ويؤدي الى تعطيل ميولها واستجاباتها الجنسية» وهنالك نظريات نفسية اخرى تفسر خوف الانثى من الوصول الى الذروة، وهي ترد ايضاً الى صراعات نفسية داخلية غير واعية. ومن هذه ان المرأة تخشى الذروة لخوفها من الموت، وبانها تخشى فقدانها للسيطرة على

جسمها، وخشيتها من ان تذوب ذاتها في كيان شريكها الجنسي، وخوفها من النكوص وخسارة هويتها الشخصية، وحاجتها الى انكار هويتها الجنسية الكاملة، الى غير ذلك من التعليلات النفسية التحليلية.

**

مع كثرة ما قدم من نظريات واعطي من اسباب لحالات البرودة الجنسية، فان البحث في هذا الموضوع ما زال في بدايته، ومع تشدد الانثى التقليدي في الافضاء بحقائق حياتها الجنسية، الا ان هنالك من البوادر التي تشير الى انها اصبحت اكثر تحرراً في استعدادها واقبالها على مثل هذا الافضاء، غير انه سيمر وقت طويل قبل ان تقبل على ذلك بنفس الدرجة والصراحة التي يمارسها الرجل في بحث قضاياه الجنسية، وقد يكون من نتائج تحرر المرأة من قيود الافضاء التقليدية، ان تصبح تلقائياً في وضع يحررها من النواهي والكوابت العديدة والمتراكمة، والتي جعلتها حتى الآن تنظر الى نفسها شريكاً مستلماً وغير فعال في الحياة الجنسية وهي النظرة التي تخالف طبيعتها وتكمن وراء معاناتها وبرودتها.

الفصل العاشر

الاستجابات الجنسية

* ادوار الاستجابات في الذكر
  ١ ـ دور التهيج
  ٢ ـ دور الهضبة
  ٣ ـ دور الذروة والقذف
  ٤ ـ دور الانحلال والأفول
* ادوار الاستجابات في الانثى

الاستجابات الجنسية

الاستجابات الجنسية هي ردود الفعل الفيزيولوجية التي تحدث في الجسم حالما يبدأ تحسس الفرد بالدافع او الرغبة الجنسية، وتمر هذه الاستجابات بادوار متعاقبة معينة في معظم الناس. غير ان هنالك تنوعات كثيرة بين الافراد من حيث مدة هذه الأدوار وقوتها ووضوحها، كما ان هنالك تفاوتاً في الفرد ذاته بين حين وآخر وظرف وآخر في هذه الادوار. ولا يقتضي لأدوار الاستجابة ان تحدث كلها بسبب تحسس الفرد بالرغبة الجنسية، فقد تقف الاستجابة عند دور او آخر تبعاً لاستمرار التحسس او عدمه، وتبعاً لامكانية تحقيقه. ومع ان الأستجابات الجنسية هي عمليات فيزيولوجية يمكن ملاحظتها ورصدها وحتى قياسها الى حد ما، الا ان هنالك في نفس الوقت استجابات نفسية تصاحب الاستجابات الفيزيولوجية، وبعض هذه الاستجابات تأتي بسبب فعل الاستجابات الفيزيولوجية على المراكز العصبية، وبعضها يأتي بفعل الدافع الجنسي الأساسي.

قام الانطباع في الماضي بأن الاستجابة الجنسية تتكون من عمليتين اساسيتين: هما الانتصاب والقذف في الذكر، وعملية الذروة، ان حدثت، في الانثى. وظل هذا الانطباع سائداً لفترة طويلة من الزمن، وساعد في بقائه تعذر اخضاع العمليات الجنسية للملاحظة والبحث الموضوعي. ومن اوائل الذين قاموا بدراسة هذا الموضوع هو فيليكس روبود Roabaud، والذي قام عام ١٨٥٥ بنشر ملاحظاته الأولى عن المعاشرة الجنسية في الانسان. وبعد هذه المبادرة الاولى، توالت دراسات عديدة ولكنها صغيرة عن هذا الموضوع، وكان من اهمها دراسة كنزي عن الحياة الجنسية في الذكور (١٩٤٨) والاناث (١٩٥٣). غير ان دراسة

كنزي كانت استبيانية ولم تكن واقعية. وبعد ذلك بعام، (١٩٥٤)، قام الباحثان الدكتور وليم ماسترز Masters، وزميلته فيرجينيا جونسون Johnson بمشروعهما المشترك عن الحياة الجنسية، والذي تمخض عن نشر كتابهما (الاستجابات الجنسية الانسانية Human Sexual Responses) في عام ١٩٦٨. وقد استقى الباحثان معلوماتهما عن طريق الملاحظة والرصد العلمي المباشر للعلاقة الجنسية بين الذكر والانثى، او بملاحظة ذلك في العمليات الجنسية التي تقتصر على الأثارة الذاتية - الاستمناء او الاثارة من الشريك الجنسي بدون معاشرة كاملة. وبالنظر لما يحيط موضوع العلاقات الجنسية من تكتم وموانع اخرى تحجب حقيقة ما يحدث، فقد استعان الباحثان في بداية ابحاثهما بالمومسات، وبعد ذلك بالمتطوعين. واستطاعا عن هذا الطريق دراسة ٣٨٢ امرأة، ما بين سن ١٨ و٧٢ سنة، وبالنهاية استطاعا دراسة ما مجموعه ٦٩٤ حالة، منها ٢٧٦ من الازواج، وجميعهم كانوا قادرين على الوصول الى الذروة عن طريق الاستمناء او الجماع في المختبر المخصص لهذا الغرض. وقد استعمل الباحثان اساليب الملاحظة والرصد العلمي للتغيرات الفيزيولوجية التي تحدث بما في ذلك التغيرات العامة كالنبض والتنفس والتقلص العضلي، والتغيرات الموضعية في الاعضاء الجنسية في الذكر والانثى من توتر، وافراز وتغيرات في الأوعية الدموية. واستعمل الباحثان الاجهزة العلمية لاجراء هذه القياسات، كما استعملا آلات التصوير واجهزة التلفزيون لرصد سلسلة التغيرات في ادوارها المختلفة. واضافة الى سعي الباحثين لمعرفة ما يحدث بالفعل من الاستجابات الجنسية، فقد سعيا الى ملاحظة الفروق، إن وجدت، بين الاستجابات التي تحدث في عملية المعاشرة الجنسية الفعلية (الجماع) والاستمناء الذاتي، والاستمناء من قبل الشريك. وقد خلص الباحثان الى وضع تفاصيل الاستجابات الفيزيولوجية الجنسية وصنفاها الى اربعة ادوار، وهذه الادوار وان كانت متعاقبة، الا انها غير عازلة، فالانتصاب عند الذكر يستمر خلال دورين او ثلاثة، بينما الذروة في الجنسين هي اكثر تحديداً من حيث الشعور والزمن وتقع في دور واحد. وفيما يلي الأدوار الاربعة للاستجابة الجنسية كما اوردها الباحثان (ماسترز وجونسون)، وهي: دور التهيج Excitement، ودور الهضبة Plateau، ودور الذروة Orgasm ودور الانحلال او الذبول اوالأفول Resolution. وفيما يلي بيان هذه الادوار في الذكر وبعدها في الانثى.

١ - دور التهيج

يمكن لهذا الدور الأول من الاستجابة الجنسية ان يحدث على اثر اثارة نفسية مهما كان مصدرها، داخلياً او خارجياً، فالتفكير في الجنس او تخيله او مداعبته بأحلام اليقظة، يمكن له ان يبدأ عملية الاثارة، ويمكن لذلك ان يحدث بنتيجة تجارب حسية من مصدر خارجي ينوه او يرتبط بموضوع جنسي كالصورة او ألفيلم او الموسيقى او الرقص او الغناء او الشكل الانساني او حتى الحيواني احياناً. وللأثارة النفسية ان تأتي بشكل تلقائي غير مجلوب، ويكون لفعل العمليات النفسية الداخلية وغير الواعية دورها الاساسي في هذه الاثارة. وما عدا هذه المثيرات النفسية، فان هنالك مثيرات جسمية او فيزيولوجية تأتي بسبب اللمس او التماس او الاحتكاك وغيرها من وسائل الاثارة التي قد تنحصر في ناحية غير جنسية من الجسم او تتعرض الى منطقة

جنسية حساسة. وإذا ما حدث اي من هذه المثيرات النفسية او الجسمية او الفيزيولوجية، فان لها ان تبدأ سلسلة الاستجابات في الدور الأول التهيجي. وهذا الدور يتراوح من حيث الزمن من دقائق الى ساعات طويلة. وخلال هذا الدور تحدث التغيرات اللازمة للتمكين من الاتصال الجنسي وهي: الانتصاب في الذكر، وتندية وترطيب الفرج في الانثى، وفي الذكر يحدث الأنتصاب عادة في خلال ثوانٍ معدودة بسبب انقباض الاوعية الدموية، غير ان قوة الانتصاب قد تتراوح بين حين واخر وخاصة في بداية الاثارة، كما يحدث تقلص وتكثف في جلدة الكيس الخصوي مما يؤدي الى انهاض الخصيتين وارتفاعهما. وقد يحدث افراز سائل قليل اثناء ذلك (غير منوي)، اما التغيرات الجسمية فهي كثيرة وتشمل التوتر العضلي وارتفاع ضغط الدم، وزيادة النبض والتنفس ونهوض الحلمتين، وتورد الجلد وغيرها من المظاهر الخارجية.

٢ - دور الهضبة

يمكن لهذا الدور ان يتبع الدور الاول. وهو يعتبر دور اعداد للحصول على الذروة وإن كانت الذروة لا تحدث بالضرورة في كل مرة يصل فيها الفرد إلى هذا الدور. وخلال هذا الدور تستمر وتتعاظم التغيرات الفيزيولوجية التي تحدث في الدور الاول، ويمكن لهذا الدور ان يستمر مدة طويلة وذلك تبعاً للأثارات الجنسية والدافع الجنسي وقوتها او ضعفها، كما يمكن ان يحدث افراز سائلي يحوي بعض الحييّات المنوية.

٣ - دور الذروة والقذف

هذا الدور هو دور الوصول الى الأكمة او الذروة، وهو يأتي فجأة ويستمر عادة لمدة ثوانٍ قليلة. ويقسم هذا الدور عادة الى مرحلتين، المرحلة الاولى والتي تسمى بحتمية القذف Eja-culatory- Inevitability، وفيه تحدث الانقباضات في الخصيتين، والبروستات والحويصلات المنوية. وفي هذه المرحلة يشعر الفرد بان القذف قد بات وشيكاً وبانه ربما لا يستطيع تفاديه. هذا وقد يستطيع بعض الناس تفادي القذف في الداخل وتصريفه في الخارج بدلاً من ذلك، وهي العملية الجنسية التي يطلق عليها الجماع المتقطع Coitus Interruptus او جماع العزل. وبتقلصات الأعضاء السابق ذكرها، فان افرازات المني تجمع وتدفع الى مدخل الأحليل، ويلي هذه المرحلة مباشرة وعلى الفور مرحلة القذف الفعلية، وفيها تنقبض عضلات القضيب والأحليل ويقذف السائل المنوي الى القناة الأحليلية والى خارج القضيب. ويصاحب هذا الدور بمرحلته الحتمية والفعلية للقذف، شعور نفسي يدعى بالذروة، وهو شعور يصعب وصفه وتعريفه. وإذا امكن تجزئة مكونات هذا الشعور النفسي، فان منه الشعور الطاغي من التوقع، ويصاحبه أو يتبعه شعور آخر طافح من الوعي الجنسي، والحصيلة الكلية للشعورين هي لذة لا يستطيع وصفها حتى ممن يجربها.

٤ - دور الذبول - الانحلال - الافول

هذا هو الدور الاخير من عملية الاستجابات الجنسية، وهو دور غير فعال. وما يحدث فيه

هو مجرد عكس للتغييرات الفيزيولوجية والنفسية التي تحدث خلال الادوار السابقة الفعالة الثلاث، والعودة بالفرد الى حالته المحايدة الطبيعية والتي كان عليها قبل ان تبدأ اثارته الجنسية. ويستغرق هذا الدور ما بين ١٠ الى ١٥ دقيقة يعود في نهايتها الفرد الى وضعه الاولي. والقول، وضعه الاولي، ربما لا يطابق الواقع، ذلك ان الفرد قد صرف جزءاً من طاقته الجنسية. ولهذا فهو يعود الى وضعه السابق بدرجة اقل من هذه الطاقة، ولا بد من مرور مدة اطول لكي يستعيدها كلياً. غير ان الفرد قد يستطيع القيام بتجربة جنسية مماثلة لتجربته السابقة بانتهاء دور الذبول. وتدعى مرحلة الذبول بالدور العصي Refractory Period، ذلك لانه يستعصي على الفرد القيام باستجابات جنسية ناجحة خلال هذه الفترة. ومما تجدر الاشارة اليه هو ان هذه الفترة قد تطول الى عدة ساعات او ايام في بعض الناس وبعض الاعمار، غير ان الفرد الذي لم يتوصل الى الذروة فان دور الذبول قد يستغرق يوماً كاملاً. والسؤال الذي لا بد ان يبرز من تأمل هذا الدور الاخير بما فيه من استعصاء، هو مدى مقدرة الفرد على معاودة العملية الجنسية ثانية بانتهاء هذا الدور. فمن الناحية النظرية فانه ليس هنالك ما يمنع ان يعاود الفرد هذه العملية بانتهاء هذا الدور، وهكذا الى ما لا نهاية، غير ان الواقع لا يطابق النظرية، ذلك ان عمليات الاشباع او الانهاك لا بد ان تحدث في الدافع الجنسي وفي الاجهزة الفيزيولوجية المختلفة التي تخدم عمليات الاستجابة لهذا الدافع، ولهذا فان مجرد انتهاء دور الذبول لا يعني بالضرورة ايذاناً بالمقدرة على البدء بعملية جنسية جديدة.

الاستجابات الجنسية في الانثى

الاستجابات الجنسية عند المرأة لا تتقيد بنمط الادوار الاربعة الواضحة والمتعاقبة التي هي عليها في الذكر. ومع انه قد يحدث تنوع فردي في ازمان الادوار المختلفة عند الذكر، غير انه لا يوجد تنوع مماثل في شدتها، بينما في الانثى فانا نجد تنوعاً من حيث الزمن والشدة، مما قد يؤدي الى اظهار ما لا حصر له من التنوعات في دورة الاستجابات الجنسية عندها. وعلى العموم فان الاستجابات الجنسية في الانثى تمر بالادوار التالية:

١ ـ مرحلة التهيج

واهم ما تتسم به في هذا الدور هو حدوث الافرازات في الفرج وهي تحدث في خلال ٥ ـ ١٥ ثانية. وهذا الدور هو نظير دور الانتصاب عند الذكر ويساويه زمنياً. ومعظم الافرازات التي ترطب الفرج ومشارفه تحدث وتشتد خلال هذا الدور وتقل بعده. ومن مظاهر هذا الدور نهوض البظر، ونهوض حلمتي النهدين، وهذه التغيرات تحدث مصاحبة لتغيرات اخرى نفسية وفيزيولوجية كالتي ذكرناها في دور التهيج عند الذكر.

٢ ـ مرحلة الهضبة

تستمر في هذا الدور مظاهر التغير الفيزيولوجي التي تشاهد في الدور السابق، غير ان الافرازات تقل عادة في الفرج. كما يهبط نهوض البظر بعض الشيء، ويهبط نهوض الحلمتين.

وباقتراب حدوث الذروة، يتوسع ثلثا الجزء الداخلي من الفرج، ويرتفع الى الأعلى مع الرحم مما يمدد من طول الفرج ويوسعه.

٣ - دور الذروة

مكونات هذا الدور النفسية والفيزيولوجية واحدة في الجنسين مع فارق انعدام امكانية القذف عند الانثى. والذروة لا يمكن توقعها كما هو الحال في الذكر، فلها ان تقع او لا تقع، ولها ان تحصل على عدة ذروات بدون ان تخرج من دور الهضبة، كما ان من الممكن لها ان تعبر من دور الهضبة الى دور الذبول بدون ذروة. ولها في جميع هذه الحالات ان تحصل على الشعور الفيزيولوجي والنفسي بالرضا. وللانثى ان تحصل على الذروة باقل قدر ممكن من الاثارة الموضعية اليدوية او الجنسية، كما ان لها ايضاً ان لا تحصل عليها الا باعنف الاثارات واطولها او ان لا يثمر حتى هذا في وصولها الى الذروة.

٤ - دور الذبول

وهذا الدور اقصر بكثير من مثله في الذكر، وفيه لا يتعذر على الانثى الحصول على الذروة مجدداً، كما هو الحال في الذكر.

* *

ان معالم هذه الادوار من الاستجابات الجنسية هي المعالم المألوفة. وهي كما بينا اقل انتظاماً ووتيرة في الأنثى منها في الذكر، ولهذه المعالم في الجنسين ان تختلف من حيث الزمن والنوعية تبعاً لمرحلة العمر، ولتجارب الفرد، وبسبب المرض او الضرر الطبي او الجراحي، او بسبب استعمال العقاقير والمستحضرات او لأسباب نفسية. ثم ان معالم الاستجابة قد تتأثر بالاحوال الانثوية الخاصة كالدورة الشهرية والحمل والولادة والرضاعة، وفي المرأة التي تعذر حملها وفي سن اليأس وغيرها من الحالات التي تختص بها الأنثى دون الذكر.

الفصل الحادي عشر

الاستمناء

- مقدمات ممارسة الاستمناء
- انتشار الاستمناء
- تكرار الممارسة
- اهداف الاستمناء
- الاستمناء وامكانية الضرر
- هل للاستمناء فائدة
- الاستمناء والأثم والقانون
- الاستحلام

الاستمناء Masturbation (العادة السرية)

الاستمناء في اللغة معناه استنزال المني، وهو بهذا يحدد الممارسة بالحصول على المني، كما انه يحددها في الذكور فقط. ومن ناحية اخرى فان الكلمة بمعناها اللغوي تتضمن امكانية استنزال المني بوسائل متعددة. ومفهوم الاستمناء العام في الوقت الحاضر يتحدد في عملية الأثارة الجنسية باستعمال اليد Masturbation(*) سواء كان ذلك في الذكر او الانثى. غير ان المفهوم العلمي لهذا المصطلح يتجاوز ذلك ليشمل طرقاً اخرى غير اليد لاثارة المنطقة الجنسية للحصول على اللذة او الذروة. ومن المصطلحات الشائعة المرادفة للاستمناء مصطلح (العادة السرية) وهو النعت الذي اعطى للممارسة بسبب انفراد وتسرر الممارسين للعادة. وقد استرعت هذه الظاهرة الشائعة اهتمام القائمين بممارستها واهلهم واهتمام المربين وعلماء النفس والاطباء وتعددت في امرها النظريات ووجهات النظر، ولا بد لذلك من بحث اوجه عديدة من هذه الممارسة من حيث طبيعتها وانتشارها وسن البدء في ممارستها ووسائل ذلك في كل من الذكر والانثى، اضافة الى بحث موضوع الفائدة والضرر في الممارسة ووسائل التقليل منها.

مقدمات ممارسة الاستمناء

يمكن فهم جميع وسائل الأثارة التي يتعرض لها الطفل الصغير بالاحتكاك او اللمس او

(*) اصطلاح Masturbation يعني في اللغة ممارسة الأساءة للنفس. وبمفهومها الجنسي: (التدنيس باليد). ومن الالفاظ القديمة المستعملة مصطلح اوناني Onanism، نسبة الى اونان Onan الذي ورد ذكره في العهد القديم. ويستعمل المصطلح الان للتعبير عن ممارسة الأثارة الذاتية للشهوة الجنسية وإرضائها ذاتياً.

العبث او المداعبة للمنطقة الجنسية مقدمات اساسية وهامة توجه انتباه الطفل الى هذه المنطقة وما يمكن له ان يحصل عليه من لذة اذا ما اثيرت بوسيلة ما. وسرعان ما يدرك الطفل ان المداعبة الذاتية التي يقوم بها بنفسه يمكن لها ان تحقق الاثارة وبالتالي الرضا واللذة، وقد يحدث وعيه لهذه الظاهرة مصادفة، وخاصة عندما يحدث الانتصاب التلقائي عنده، والذي يحدث عادة عند امتلاء المثانة والاستيقاظ من النوم، ومتى حدث مثل هذا الوعي في ذهن الطفل اصبح من المتوقع له ان يسعى للأثارة الذاتية بين الحين والاخر او ان ينتظرها نتيجة لفعل التماس الخارجي. اما متى يحدث الاستمناء بشكل منتظم وبصورة تشبه ما يحدث في الحداثة والبلوغ فهو امر يختلف في اثباته. وسبب ذلك يعود الى صعوبة الاتفاق على السلوك الذي يكون عملية استمنائية. وهنالك بعض من لاحظ سلوكاً جنسياً في الاطفال اقرب ما يكون لعملية الاستمناء في سن الثالثة وحتى في سن الثانية من العمر. وقد افاد احد الكبار عن طفولته فقال: «ان اول مرة اتذكر فيها احساساً جنسياً ملذاً كان عندما كنت في سن الثالثة او الرابعة. واذكر أنني شعرت بفخر بسبب ما تعلمته (كيفية الاستمناء) والشعور الغريب الذي اثاره. وافاد احد الاحداث بقوله: «قمت باول استمناء وانا في سن السابعة من عمري، بقدر ما استطيع تذكره.. ولم يكن لدي فكرة بالذي كنت افعله ولا معناه. غير ان الشعور كان هائلاً..». وهنالك ملاحظات ذاتية وخارجية عما يحدث في الاطفال من توترات جنسية وعبث يدوي في اعضائهم الجنسية، اما بشكل تلقائي او بنتيجة التماس العرضي او المقصود مع غيرهم، او عند رؤيتهم لاشخاص ومواقف من شأنها ان تثير التوتر والشهوة ومحاولة الارضاء. ولا تقتصر المثيرات على ما يمكن رؤيته في الواقع، بل يمكن للصور المتخيلة في احلام اليقظة او احلام الليل ان تثير ذلك.

انتشار الاستمناء

ان من الصعب التوصل الى الحقائق فيما يتعلق بانتشار الاستمناء سواء بين الأطفال والاحداث، او المراهقين والكبار، ومرد ذلك ما هو قائم في اذهان المجتمع من تحيز وادانة للممارسة على الرغم من ان كل فرد تقريباً قد مارس الاستمناء في وقت او آخر من حياته ولو لمرة واحدة. وليس ادل على ما علق بالأذهان عن الممارسة، ان حوالى واحد من خمسة من الذين استطلعت ممارساتهم الجنسية امتنعوا عن الاجابة عن موضوع الأستمناء، اضافة الى ان الاقرار بالممارسة لا يتوافق مع حقيقة انتشارها، سواء بين الصغار او الكبار. وفيما يلي بعض الدراسات الاحصائية والتي لها ان تدلل بعض الشيء عن مدى انتشار ممارسة الاستمناء في مراحل العمر المختلفة.

● افاد واحد من كل خمسة من الاطفال الذين استبينوا بانهم مارسوا الاستمناء منذ طفولتهم الصغيرة حتى الذروة. وهكذا يبدو ان معظم الاطفال على الرغم من عنف الاثارة الجنسية التلقائية فانهم لا يصلون الى حدود الذروة(*).

(*) في دراسة على الاطفال في احدى مدارس الحضانة في امريكا شملت ٢٨٠ ولد و٣٠٠ بنت تراوحت اعمارهم بين سنتين وخمس سنوات لوحظ بان ٣٤٪ من الاولاد و٢١٪ من البنات يمارسون الاستمناء. غير ان الدراسة لا تعطي وصفاً لعملية

● ببلوغ السادسة والسابعة من العمر يبدأ التزايد في عدد الممارسين للعادة من الاطفال من الجنسين. غير ان الزيادة تتسارع في الاطفال والأحداث الذكور بينما تـزداد زيادة وئيـدة في الأناث من هذا السن وحتى سن العشرين.

● ببلوغ سن البلوغ، نجد أن معظم الاولاد يمارسون الاستمنـاء، ومن لم يمارس منهم قبل ذلك، فان اول (انزال) منوي يجلب انتباههم ويحفزهم على بدء الممارسـة. ولعل من اهم الدراسات الاحصائية عن الاستمناء هي الدراسـة التي اجراهـا الباحثـان شميدت وسيجـوش Schmidt and Sigusch (١٩٧٠). وتفيـد الاحصائيـة، والتي اجريت عـلى مجموعـة كبيرة من الذكور والاناث ممن اكملوا سن العشرين من طلبة وعمال، على ان الذكور عند بلوغهم ما بين ١٣ الى ١٦ سنة يمارسون الاستمناء بضعف نسبـة الأناث في هـذه المرحلة من العمـر. كما ان الاناث يتأخرن عن البدء في الممارسة بالقياس مع الذكور وبانهن ابطأ في تزايد الممارسة. وعلى العموم فانهن اقل ممارسة من الذكور في جميع مراحل العمر. وافادت الدراسة بانه لا توجد فروق كبيرة في الممارسة بين فئتي الطلبة والعمال من الذكور، بينما هنـالك زيـادة بين ١٠ ـ ٥٠٪ في المراحل المختلفة من العمر بين العاملات بالمقارنة مع الطالبات. واخيراً فان الدراسة الاحصائية تشير الى ان ١٠٪ من العمال و١٦٪ من الطلاب افادوا ببـدء الممارسـة في سن الحاديـة عشرة وبلغت في سن العشرين ٩٢٪ من العمال و٩٠٪ من الطلبة. وكانت الارقام في الطالبات ٥٪ من العـاملات و٩٪ من الـطالبات في سن الحـادية عشـرة. و٢٣٪ من العـامـلات و٢٢٪ من الطالبات في سن الـرابعة عشـرة. وفي العشرين بلغت الممـارسات بـين العامـلات ٥٧٪ وبين الطالبات ٤٠٪. وهنالك توافق في بعض نتائج هذه الدراسة التي اجـريت في مجتمع المـاني مع نتائج دراسة سبقتها بعدة سنوات اجراها كنزي في مجتمع امـريكي. وتفيد دراسـة كنزي بـانه ببلوغ سن العشرين فان ٩٠٪ من الذكور، وثلث الانـاث يمارسـون الاستمناء، وهـو احصاء يقارب نتائج الدراسة الألمانية. غير ان الدراسة التي قام بها كنزي افادت بـان اناث امـريكا لا يبلغن نسبة الممارسة التي تبلغها الأناث في المانيا في سن السادسة عشرة (٣٠٪) الا ببلوغهن سن الخامسة والعشرين، وهذا الفرق لا يمثل اختلافاً كبيراً بالنظر للفارق الـزمني بين الـدراستين. ويمكن ان يفسر ايضاً على الاستمناء حاله حال البلوغ يبدأ الآن في سن اصغر مما كان في الماضي في معظم المجتمعات(*).

تكرار الممارسة

ان الأكثرية العظمى من الذين بدأوا ممارسة الاستمناء يكررون ذلك بشكل منتظم قد يمتد سنوات طويلة. وعلى العموم فان (التكرار) الاسبوعي للاستمنـاء يحدث في بـداية العشـريات

الاستمناء. وفي دراسة اخرى في المانيا على الف طفل وطفلة، لوحظ بان ٥٣٪ منهم يستمنون، وبان معظمهم ما بين سن السابعة والتاسعة. وقد يكون الفارق بين الدراستين مبنياً على ما يعده الباحثون مكوناً للسلوك الاستمنائي.

(*) في دراسة احدث من الدراستين (١٩٧٦) ـ ملر ولايف-بين الباحثان بان ١٠٠٪ من الذكور تقريباً و٨٥٪ من الاناث قد مارسوا الاستمناء.

(المرحلة الاولى من البلوغ)، ولها ان تظل نسبة عالية من التكرار حتى نهاية سنوات المراهقة وخاصة في المجتمعات المقفلة والتي تحدد العلائق الجنسية. غير انه التكرار يقل في المجتمعات التي تتساهل في العلائق الجنسية، كما ان ذلك يقل عند المتزوجين، وتظل النسبة عالية في غير المتزوجين، وان كانت تقل بشكل واضح عند بلوغ العشرين من العمر. والأنطباع المتوافر من دراسات مماثلة على الانثى تفيد بان الاناث على العموم هن اقل تكراراً والحاحاً في الممارسة من الذكور، وان كانت بعض الاناث يزاولن الممارسة بمثل اقبال اكثر الذكور على الممارسة، غير ان عددهن قليل نسبياً. هذا وهنالك تفاوت عظيم في عدد الممارسات اليومية او الاسبوعية التي يقوم بها المستمنون وهي تتراوح بين النادر او القليل، الا ما يصل الى ما يزيد على العشر مرات يومياً.

اهداف الاستمناء

مما لا شك فيه ان الهدف الاساسي للاستمناء هو ارضاء الرغبة الجنسية سواء قامت هذه الرغبة بصورة تلقائية او مقصودة او بسبب اثارة خارجية. وقد يكون هذا الارضاء عبثياً في سن الطفولة الصغيرة، وهو فيهم، كما بينا سابقاً، لا ينتهي بالحصول على شعور الذروة وان كان يعطي شعوراً من الأرتياح والانفراج واللذة. وبعد هذه الفترة الطفولية يسعى الحدث السابق لسن المراهقة للحصول على الذروة، ومع ان هنالك من يشترط حصول (القذف المني Ejaculation) للوصول الى الذروة، الا ان ذلك غير ضروري، فهذا القذف يحدث في الذكور فقط عند البلوغ، بينما الوصول الى الذروة يحدث كثيراً قبل البلوغ بدون قذف، كما انه يحدث في الأنثى ايضاً بدون ذلك. والمعروف ان معظم الذكور بعد البلوغ يصلون الى الذروة وما يصاحبها من القذف. ففي دراسة كنزي تبين بأن ٩ في كل عشرة من الذكور افادوا بانهم يستمنون الى حد الذروة، (وهذا يؤدي الى القذف)، بينما افادت ستة من كل عشرة من الاناث بأنها تستمني حتى الوصول الى الذروة. ومن دراسة الحياة الجنسية عند الانثى تبين أن الحصول على الذروة لا يكون الغاية الاساسية والهامة التي تتخذها الذروة في حياة الذكور، وعدم تمكن المرأة من الوصول اليها لا يؤدي الى قيام حالة الفشل والمرارة والاحباط التي يعانيها الذكور الذين لا يحصلون عليها. وهذا الواقع يؤكد أن الارضاء الجنسي عند المرأة يعتمد الى درجة كبيرة على العلاقة الجنسية والنفسية اكثر من اعتماده على النتيجة النهائية للعلاقة بالحصول على الذروة.

الاستمناء وامكانية الضرر

ان الذين يأخذون بالتحيرات الاجتماعية، والنهي العائلي والتربوي والتي تسود الكثير من المجتمعات، لا بد لهم ان يستنتجوا بوجود الضرر من الممارسة ان لم يكن في المجال الصحي ففي المجال الاخلاقي. ولا غرابة لذلك ان تنتشر الكثير من الآراء التي تروج الاضرار الصحيّة على الجسم والنفس والعقل والتي يمكن ان تنجم عن الممارسة، ومثلها الاضرار في المجال السلوكي والاخلاقي. وقد نشأ بسبب هذه الاراء ما يقارب التحريم للعادة، واعتبرت حتى في اهون الحالات، اما اثماً او تجاوزاً على النمو الصحي والخلقي. فما هي حقيقة الامر؟ وفي الاجابة

على هذا التساؤل سنقصر انفسنا على الجانب الصحي من هذا الموضوع. ولعل في هذه الاجابة ما يساعد على قيام نظرة اكثر صواباً في الاحكام ووجهات النظر التي تدين الممارسين لها اخلاقياً.

ان الافكار المتناقلة عن الآثار والنتائج الضارة لممارسة العادة السرية قديمة الاصول، غير انها ما زالت راسخة حتى يومنا هذا. فبالاضافة الى مايلقن به الطفل او الحدث او المراهق من ان العادة عيب واثم، فهنالك ايضاً الأشارة الى ان ممارسة العادة او الاكثار منها يؤدي الى الفشل الجنسي (العنة) في الكبر، والى تلبيد الذهن ونقص الذاكرة والتدرن والنحول العصبي وحتى الجنون. ولم يقتصر بث هذه الآراء على عامة الناس، بل تبناها بعض العلماء المرموقين من الاطباء امثال فرويد ممن اعتبروا الاستمناء خطراً قد يؤدي الى قيام المرض النفسي، وقد اوجز فرويد آراءه في الآثار الضارة للاستمناء بقوله (١٩١٢) «البديهي، ان الواحد مجبر على معارضة التأكيد بأن الاستمناء لا بد ان يكون عديم الضرر، وعلى العكس يجب ان تكون هنالك حالات يكون فيها الاستمناء ضاراً. ولما كان سبب المرض النفسي (العصاب) يأتي بسبب الصراع بين الجنسية الطفولية وبين معارضة الأنا (الكبت)، فان الاستمناء الذي هو منفذ للجنسية الطفولية لا يمكن أن يقدم بديهياً كشيء غير ضار». وقد بين فرويد أن هذا الضرر هو ضرر تسممي يشيع في مختلف انحاء الجسم. ومن الطريف ان نذكر أن فرويد قد حذر ابنه الثاني من اخطار العادة عندما جاء ابنه يستشيره في بعض نواحيها، وافاد الابن بعد ذلك بانه بسبب هذا النهي الزاجر فاته لم يستطع اقامة العلاقة المقربة مع ابيه كالتي استطاعها اخوه الاكبر. وقد تغيرت هذه النظرة وامثالها من النظرات الطبية في الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن، واليوم قل من الاطباء ممن يعتقد ان هنالك ضرراً صحياً في ممارسة العادة السرية، وذهب احد الباحثين في هذا الموضوع الى ابعد من ذلك بقوله: «على الرغم من قرون عديدة من التحذير المعاكس، فليس هنالك من نتيجة سلبية واحدة للاستمناء في أي من الجنسين». هذا وهنالك من يعطي آراء تخالف هذا النفي القاطع، ومعظم هذا الأختلاف لا يتوجه الى العادة كعادة، وانما للأكثار منها والألحاح فيها، وبعض الباحثين يشير الى احتمال حدوث بعض النتائج في الحياة النفسية والسلوكية والجنسية في بعض الافراد. ومن ذلك اعتقاد البعض أن الاكثار من الاستمناء يقلل بالنهاية من الافراز المنوي ويضعفه بسبب الانهاك الذي يحدث لعملية صنع الافراز في الخصيتين ويؤدي بالتالي الى ضمورهما والى عجز الرجل عن الاخصاب لزوجته.

ومن المخاطر التي يجادل فيها الباحثون، ما يمكن ان ينجم عن الربط بين ممارسة الاستمناء وبين الخيالات الفانتزية التي تعرض للممارس او يستجلبها بالتصور وتوارد لاحلام اليقظة. ومن الآراء الواردة في هذا الموضوع ان مزاولة الاستمناء بالحاح من شأنها ان تعزز ورود هذه الخيالات في ذهن الطفل او الحدث او المراهق والى الحد الذي يباعد بينهم وبين الواقع المحسوس. ولعل امكانية هذه المباعدة هي اكثر وروداً في الانطوائيين بطبيعتهم منها في غيرهم، وهي في هؤلاء قد تكون ممارسة ضارة لانها تزيد في انطوائهم وفي عزلتهم عن الواقع والمجتمع، وقد تساعد في تطوير المهيىء بشخصية (شيزيه) الى الاتجاه نحو المرض بصورة أسرع، على اننا يجب ان ندرك

أن الأمعان في الممارسة قد يكون مظهراً من مظاهر المرض وليس سبباً فعالاً في تطوره. وهنالك امر العلاقة بين الاستمناء وبين بعض الانحرافات الجنسية، كالاتجاه نحو الجنسية المثلية، وانحراف الفتشية والاستبصاصية والاستعراضية والجنسية المحرمة، فمن المعروف ان الكثير من الخيالات والصور والاشياء التي تستعمل لتكون خلفية لأذكاء الرغبة الجنسية وللمساعدة على الحصول على اللذة بالاستمناء، فإن معظمها يتركز على مواضيع تبتعد عما هو مسموح به في العلاقات الجنسية الطبيعية من حيث الأسلوب او الموضوع، واذا ما تأكدت صور الممارسة ومتعلقاتها في ذهن الممارس، فان حالة من التطبع يمكن ان تحدث في بعض الافراد مما يصعب تجاوزها في المستقبل، وبهذا يتحول الممارس الى (منحرف) بحالة جنسية او اخرى. هذا وهنالك من الباحثين من ينفي ان تحدث هذه التصورات الفانتزية المصاحبة للاستمناء اية صعوبات مستقبلية في المجال الجنسي لممارسيها. اما في حياة الانثى فقد يكون لعادة الاستمناء بعض الآثار السلبية في بعض الأناث، فالاستمناء في الانثى عملية اكثر خصوصية، وتتم عادة بشكل فردي ومتكتم اكثر مما هو الحال في الذكور. والانثى تتعلم الممارسة تلقائياً في معظم الحالات على عكس الذكور الذين يتعلمونها بالتقليد او التلقين من اترابهم. ثم ان الانثى اكثر عرضة للعقاب والتأنيب من الذكور، وهي لذلك تعاني من القلق وشعور الأثم اكثر مما يعانيه الذكور، يضاف الى ذلك تسارع مجال الاثارة في الانثى لتشمل مناطق غير جنسية من الاعضاء. وكل هذه العوامل من شأنها ان تجعل عملية الاستمناء في الأنثى اكثر تماساً مع حالتها النفسية، كما انها تجعل العملية اقل تحديداً من حيث مكان الأثارة وطبيعة الحركة المثيرة ومن حيث الاستجابة لها. وقد يكون لكل ذلك اثره في تكيف الانثى على انماط غير طبيعية للأثارة الجنسية وموطنها واوقاتها والاستجابة لها. ان هنالك من طرق الاستمناء الكثير من الاساليب غير الاستمناء باليد، وتتخذ هذه الطرق احياناً اغرب السبل سواء قام بها الفرد منفرداً او بالمشاركة. وقد افاد الباحثون سريرياً في حالات العطل او الانحراف بأن هذه الصور الغريبة وغير اليدوية من الاستمناء تكمن وراء الكثير من مشاكل الحياة الجنسية وخاصة تلك التي يشكو اصحابها من ضعف في الأداء الجنسي. واذا امكن اعطاء خلاصة للموقف العلمي والطبي القائم بالنسبة للاستمناء فهو ان الاستمناء عملية جنسية في طبيعتها واهدافها. وهي ممارسة عامة قل من لا يمارسها في فترة او اخرى من الحياة. ولم يثبت حتى الان اي صحة للادعاء بان الاستمناء في حد ذاته يكون او يؤدي الى حالة مرضية من الامراض التي يرد ذكرها في تصور او تحذير القائمين بها كالعمى والتدرن والنحول والجنون والصرع. غير ان الامعان في الممارسة والى حدود الالحاح يمكن له ان يقلل من انتاج المني، كما ان له ان يضعف من الاداء الجنسي في بعض الافراد، ثم ان لبعض الصور الغريبة من خيالات الممارسة واساليب ممارستها ما يمكن ان يساعد على تكوين تطبعات غير طبيعية في الحياة الجنسية، تجعل الأداء الجنسي الطبيعي في المستقبل اكثر صعوبة. ولعل هذا اكثر وقوعاً في الأنثى منه في الرجل.

لقد سبق ان اشرنا في بحثنا عن الحياة الجنسية عند الاطفال الى رأي فرويد وزميله فلايس من ان (حبس) او (كبت) الطاقة الجنسية في فترة الكمون في الطفولة Latency، وهي التي تقع بين

السادسة وقبيل البلوغ، تخدم غرض منع هذه الطاقة من الهدر وتجميعها لغرض تحقيق اهداف حضارية هامة في المستقبل. ان من الواضح ان ممارسات الاحداث خلال هذه الفترة لا يمكن ان توصف بانها حبس لهذه الطاقة وتجميع لها وان كان من الممكن ان ما يكبت من هذه الطاقة هو اكثر مما يفضى به. فهل لنا ان نجد، على كل حال، أن صرف الطاقة الجنسية في الاطفال والاحداث والبالغين والمراهقين من شأنه ان يهدر هذه الطاقة ويفقرها وبالتالي ان يقلل من امكانية استخدامها لاغراض حضارية. ان الاجابة على هذا التساؤل وما اثاره فرويد وزميله، سيتم بحثه في الفصل الخاص بالعلاقة بين الحياة الجنسية والفن والابداع. ويكفي القول هنا إن فقر الطاقة الجنسية، او افقارها بصورة ما، له ان يقلل الى حد العدم من قابليات الابداع او المساهمة الحضارية في حياة الذين يعانون من ذلك.

هل للاستمناء فائدة؟

قد يكون من المفاجىء ان نورد هذا التساؤل بالنظر لأن ما تواتر وتناقل من الآراء حول الاستمناء يكون في معظمه التأكيد او الاشارة الى اضراره. غير ان الاكتفاء بتفنيد اضرار الاستمناء يوقفنا فقط عن حد لا يصح الوقوف عنده علمياً وهو تفسير شمولية الاستمناء للجنس البشري بدون استثناء تقريباً. وفي كل عصر وكل مجتمع، وتفسير بوادر ظهوره في سن مبكرة من الطفولة وتسارعه مع مراحل النمو المتتالية. ان هذا الواقع لا بد له ان يحملنا على الاستنتاج أن للاستمناء اهدافاً بايولوجية، وانه لا بد منه بصورة او درجة ما في مرحلة او اخرى من مراحل الحياة. ويمكن لنا ان نتصور أن هذه الأهداف تتضمن عدة جوانب منها تحسيس الفرد بجسمه واعداده للمستقبل. ومنها ضرورة تصريف بعض الطاقة البايولوجية القائمة في كيان الفرد، وقد يكون لذلك غرض آخر وهو ربط الطفل بمحيطه ومجتمعه. فالصور والخيالات والمواضيع التي تثير الاستمناء وترتبط به تؤخذ من هذا المحيط والمجتمع، وبالنظر لأن الطاقة الجنسية وارضاءها تكون اهم الحاجات الانسانية. فان استغلالها بالاستمناء وما يتصل به من ارتباطات من شأنه ان يوفر رابطة عظيمة بين الفرد ومحيطه ومجتمعه. وهو الامر الذي ربما لا يتوافر ابداً لو تأخر الارضاء الجنسي حتى مرحلة متأخرة من النمو.

لقد لوحظ في الكثير من الاطفال والأحداث حدوث حالات من التوتر والاضطراب النفسي بسبب تدخل اولياء الامور بممارسات اطفالهم الاستمنائية. ومع ان بعض هذه الاعراض تنجم عن قلق الطفل وتخوفه من العقاب، الا ان بعضها ينجم بالتأكيد عن منع تصريف الطاقة الجنسية التي تلح في ان ترضي. وقد تكون مثل هذه الاعراض اكثر وروداً في حياة الاطفال والاحداث مما قد يتبادر للذهن. ولعل هذا هو الأمر الذي دفع ببعض الاوساط الطبية الى عدم التدخل في عملية استمناء الاطفال والاحداث، وذهب البعض الى ابعد من ذلك فدعا الى عدم التدخل في الممارسات الجنسية للاطفال والاحداث ما دامت لا تلحق بهم ضرراً، ودعا اخرون من علماء التربية والنفس الى التسامح في هذه الممارسات وعدوا اباحتها امراً من شأنه ان يمنع الكبت وما قد يتأتى عنه من اضطرابات نفسية وسلوكية في المستقبل. هذا ولا يمكن

قبول مثل هذه التوصيات والآراء على علاتها، ولعل فيها من الاخطار الطبية والاجتماعية ما يعادل او يزيد على اخطار تقييد الاستمناء وغيره من مظاهر الممارسات الجنسية في الاطفال والاحداث. واذا كان من الصعب الوصول الى قرار بهذا الشأن، فلعل اهم ما يمكن للوالدين ان يدركاه، هو حاجة الطفل والحدث للارضاء الجنسي، وأن من الخطأ حبس هذه الحاجة او عقابها او تخويف الممارس من مزاولتها، او تثبيت شعور الاثم في نفسه. وكل ما يستطيعه اولياء الامور غير ذلك، هو اعطاء اولادهم ثقافة جنسية متزنة تتناسب مع اعمارهم، وان ييسروا لهم سبلاً غير جنسية تساعدهم على تصريف طاقاتهم كالرياضة والهوايات الاخرى. ومما تجدر الاشارة اليه ان الطبيب اليوناني جالينوس (القرن الثاني ب.م) كان اول من لاحظ فائدة الاستمناء في التفريج عن حالات التوتر او الانقباض.

الاستمناء والاثم والقانون

ارتباط الاستمناء بالاثم قديم في العقائد الدينية. وهذا يتضح من الاستمناء يصطلح عليه احياناً، بالاونانية Onanism نسبة الى اونان الذي ورد ذكره في (العهد القديم) والذي اخطىء تفسير سلوكه مما ادى الى ادانة ممارسة الاستمناء في المراجع الدينية قديماً وحديثاً، والتي ما زالت تعدّ الاستمناء اثماً ورذيلة. وقد امتد هذا الاعتقاد الى الكثير من الناس في مجتمعات كثيرة بما في ذلك المجتمعات المعاصرة والمتسامحة عادة بالقضايا الجنسية. ففي دراسة على طلبة الكليات من الجنسين في امريكا ممن افاد ٨٢٪ من الذكور و٣٣٪ من الاناث بانهم يمارسون الاستمناء، افاد اثنان من كل ثلاثة بانهم يشعرون بالأثم والقلق وعدم الارتياح بسبب ممارساتهم (١٩٦٧). وقد افادت دراسات اخرى بان المتزوجين من الممارسين للعادة وغيرهم ممن تخلوا عن العادة يشعرون بعيب العادة واثمها بنسبة اعلى من اولئك الذين كفوا عن ممارستها من المتزوجين وغيرهم. ويتضح الشعور بالأثم والتأنيب والعيب من ان نسبة غير قليلة من الناس يمتنعون عن الاجابة عن الاسئلة المتعلقة بالاستمناء. ولهذا الشعور بالأثم والعيب من الممارسة والخوف من انفضاحها للآخرين او ظهور ما يتصور من معالمها على المستنمين، اهمية كبيرة في اقامة حالة من القلق في نفس الكثيرين من الناس ولعل لهذا المصدر من القلق خطراً على الحياة النفسية والجنسية للفرد يزيد كثيراً على اي خطر ممكن من ممارسة العادة في حد ذاتها.

اما النواحي القانونية للاستمناء، فان القوانين المعمول بها لا تعاقب الاستمناء في حد ذاته الا اذا اتخذت الممارسات صفة علنية او مخجلة او مخلة بحقوق الآخرين كما يحدث في حالات الاستمناء في احوال استعراضية او تبصصية.

(*) في دراسة حديثة (١٩٧٣) قام بها جرينبرغ وارخبولت، افادا بأن ٤٠٪ من الذكور و٤٨٪ من الاناث بينوا معاناتهم من الشعور بالأثم للعادة، وفي دراسة اخرى على مراهقين بين سن ١٣ وحتى ١٩، افاد ١٩٪ منهم بانهم لم يعانوا ابداً من أي شعور بالاثم بسبب اي ممارسة للاستمناء قاموا بها.

الاستحلام

قذف المني الذي يمكن أن يحدث اثناء النوم يفيد بحدوث اثارة جنسية اثناء النوم وانتهاء هذه الاثارة بالذروة وانزال السائل المنوي. وارتباط هذه الظاهرة بالحلم واضح من الاصطلاح، فهي تحدث بسبب حلم، اما يتذكره المريض عند استفاقته في الصباح، او يقطع نومه عند وصوله الى الذروة والانزال. غير إن الاستحلام قد يحدث بدون استفاقة على الحلم او تذكر له، وهذا لا ينفي ان الحلم قد وقع بالفعل وبانه نسي كما تنسى معظم الاحلام التي تحدث في الادوار الاولى والوسطى من النوم. وللاستحلام في اذهان الكثيرين من الناس دلالات عيب واثم وتحريم، كما ان الكثيرين من اولياء الامور يوبخون اولادهم على الاستحلام مع ان من الواضح انه يتم في النوم وبدون ارادتهم، كما ان بعضهم يؤكد للأولاد ان الظاهرة حالها حال الاستمناء واي علاقة جنسية قبل الزواج لها ان تؤدي الى المرض الجسمي والعقلي، ولهذا النوع من التحذير والتلقين ان يساهم في تكوين حالات من القلق، كما ان له ان يؤدي الى درجة ما من العطل الجنسي في بعض الافراد وان يؤدي في البعض الى النهي عن الوصول الى الذروة او انزال المني.

الفصل الثاني عشر

القوة الجنسية

* القوة الجنسية في الاطفال
* القوة ما بعد الطفولة
* القوة الجنسية في الكبر
* مدى القوة الجنسية

  التفاوت في الفرد نفسه

  التفاوت بين الافراد

  الفروق العنصرية والحضارية

  الشبق

القوة الجنسية

هنالك مصطلحات عدة تستعمل احياناًكمرادفات للقوة الجنسية، وهذه المصطلحات قد وضعت في وقت او اخر للتعبير عن وجهة نظر معينة فيما يتعلق بناحية او اخرى من الحياة الجنسية، ومن المصطلحات المتواترة الاستعمال في المجال الطبي او العام مصطلح الغريزة الجنسية Sex Instinct. والدافع الجنسي Sex Drive، والرغبة الجنسية Sex Desire والاستجابة الجنسية Sex Response، والأداء الجنسي Sex Performance والطاقة الجنسية (اللبيدو Libido). ومن تأمل هذه المصطلحات يتبين لنا أنها تجمع بين ما ينوه بالاساس البايولوجي (الغريزة والطاقة والدافع) وبين ما ينوه بالأساس النفسي (الرغبة الجنسية)، وبين ما ينوه بالاساس الفيزيولوجي لهذه المصطلحات (الأداء الجنسي والاستجابة الجنسية). ومع الفوارق الواضحة بين مدلولات هذه المصطلحات، الا انها جميعها تكون نواحي مختلفة من عملية واحدة متكاملة وهي العملية الجنسية بمعناها الشامل. وتعبير القوة الجنسية، هو احد مظاهر هذه العملية كما تتحقق في الاستجابة الجنسية، وهي عملية فيزيولوجية. وفي الأداء الجنسي، وهي عملية فيزيولوجية ايضاً، في الاقل من حيث مكوناتها المباشرة. غير ان من الواضح ان هذه القوة الجنسية بدلالاتها الفيزيولوجية لا تقوم بمفردها، فهي تعتمد في اصولها على (الطاقة) او (الغريزة) الجنسية،وهي قوة بايولوجية اساسية كامنة في الكائن الحي، كما انها تعتمد على اسس اخرى عاطفية ونفسية لها ان توجه الطاقة الجنسية وتثيرها وتدفع الى تحقيقها. وهكذا فان اي بحث في القوة الجنسية لا بد ان يجرنا في النهاية الى ضرورة البحث في جميع العوامل المتفاعلة والمجتمعة والمتظافرة في تكوين العملية الجنسية، وهي العوامل البايولوجية والفيزيولوجية والنفسية.

* *

ان مصطلح (القوة الجنسية) في هذا المجال من البحث يقتضي تحديده بدرجة القوة المستخدمة في عملية الأداء الجنسي، او بشكل ادق فانها مقياس الاستجابات الفعلية اثناء العملية الجنسية، وهي الاستجابات التي يحكم عليها الفرد القائم بالعملية الجنسية بانها قوية او ضعيفة، وذلك تبعاً لمفهوم القوة والضعف في تجربته الخاصة وقياساً بما يعرفه عن تجارب الآخرين. ومن الواضح ان هذه القوة تتفاوت في تجربة فرد وآخر، كما انها تتفاوت تبعاً لمراحل العمر، ولها ان تختلف في الفرد نفسه في ظروف مختلفة من حيث المكان والزمان ومن حيث الشريك الجنسي، والحوافز والمثيرات، كما انها تتفاوت تبعاً للحالة الجسمية والنفسية الآنية للفرد. وكل هذه العوامل لها ان تشارك في تقرير الاستجابة الجنسية والاداء الفعلي الجنسي في كل عمل جنسي. ولعدم ثبات هذه العوامل على مستوى معين من الفعالية، فان العملية الجنسية يمكن لها ان تتراوح في الفرد الواحد بين حدود واسعة من القوة في الاداء. واكثر ما يحدث هذا التراوح في حياة الافراد الذين تتخذ حياتهم العامة والخاصة نواحي مختلفة من التعبير، وتتوزع اهتماماتهم في اكثر من مجال واحد، اما اولئك الذين ضاقت حياتهم العامة او الخاصة وانحصرت في حدود قليلة معينة، فان التغيير في مستوى القوة الجنسية، ان حدث، فانه يحدث في حدود غير واسعة. وفيما يلي خلاصة لبعض الملاحظات والدراسات والروايات عن القوة الجنسية والعوامل المؤثرة في تكوين هذه القوة.

القوة الجنسية في الأطفال

ليس هنالك من شك في وجود حياة جنسية في الاطفال منذ بداية اعمارهم. ووجود مظاهر هذه الحياة بشكل او اخر يكشف عن وجود الطاقة البايولوجية الكامنة للأداء الجنسي. غير ان مظاهر الحياة الجنسية في الاطفال، كما سبق وان بينا في القسم الخاص عن الحياة الجنسية في الاطفال، هي مظاهر متعددة الأشكال، ولا تتحدد في المنطقة الجنسية عضوياً الا في فترة متأخرة من نمو الاطفال. ولهذا فان من المتعذر قياس القوة الجنسية في الأطفال بشيء من الدقة والموضوعية. ويضاف الى هذه الصعوبة في الملاحظة أن الطفل نفسه لا يستطيع وصف درجة القوة التي يتمتع بها، كما اننا لا نستطيع قياس القوة الجنسية عند الطفل او الحدث النامي بمقارنتها مع البالغين والمراهقين وغيرهم من الكبار النامين. غير ان هنالك بعض الدلالات التي تشير الى ان ما يتمتع به الطفل من طاقة او دافع جنسي وذلك بما قد يظهر من ابكار في الممارسة الجنسية وتكرار والحاح فيها، وهو ما يعبر عنه احياناً (بالجنسية المبكرة Sex Precocity)، ومع ان هذه الظاهرة في الصغر تشير الى تدرج الطفل نحو نمو مماثل في الكبر، الا ان ذلك ربما لا يحدث بالضرورة، ويكون الانفتاح الجنسي المبكر مجرد فيض مبكر وعابر في حياة الفرد.

القوة ما بعد الطفولة

الاساس الذي يتخذه الباحثون في بيان القوة الجنسية يختلف في كل من الذكور والاناث، فهم يعتبرون القذف المنوي Ejaculation اساساً للتقرير في الذكور، والذروة اساساً في المرأة. ويكون عدد المرات التي يحدث فيها القذف في الذكر والذروة في الانثى مقياساً للقوة. ومع ان هذا الاساس القياسي يعطي بعض الانطباع عن قوة الدافع والاستجابة الجنسية، الا انه لا

يتضمن قياساً صادقاً لا لقوة الدافع او قوة الاداء، فقد يحدث القذف وكذلك الذروة بدون قوة دافعة عظيمة. ومع هذا الاحتراز في قياس القوة، الا ان القذف والذروة يكونان اساساً هاماً للقياس لا يمكن الاستغناء عنه. هذا ونشير الى ان معدل السن الذي يحدث فيه القذف في الذكور يتراوح بين ١٣ ـ ١٤ سنة (في دراسة كنزي)، وهنالك في الدراسات الاحدث التي تشير الى انه اكثر ابكاراً في المجتمع الحديث، كما انه ابكر من ذلك بكثير في بعض المناطق الحارة والمجتمعات الأقل حضارة. اما الذروة فان متوسط العمر لحدوثها هو في سن العشرين للانثى (دراسة كنزي) وهو اقل من ذلك في المجتمعات المعاصرة والبدائية والحارة. وبالنظر لأن العلائق الجنسية لكل من الذكور والاناث لا تتم او لا تتيسر في وقت واحد بعد البلوغ، فقد اتخذ الباحثون ايضاً تكرار الممارسة الاستمنائية عند الاناث والذكور دليلاً اخر على القوة الجنسية في مراحل العمر المختلفة. وقد درس كنزي هذا الموضوع بدقة في دراسته للحياة الجنسية عند الذكر والانثى، وشملت دراسته موضوع القذف في الذكر، والذروة في الذكر والانثى، المتزوجين منهم والعازبين، كما شملت عدد الممارسات الجنسية الفعلية للمتزوجين في مراحل مختلفة من العمر. ويستفاد من هذه الدراسة ان عدد مرات القذف عند الذكور يزيد على الثلاث مرات في الاسبوع بين سن الرابعة عشرة وسن الثلاثين ثم يهبط تدريجياً ليبلغ معدل مرتين اسبوعياً في السادسة والاربعين، ومرة واحدة في الاسبوع او اقل من ذلك بوصول عمر الستين. اما في الانثى فقد دلت دراسة كنزي على ان الذروة لا تدلل بالضرورة على قوة الحياة الجنسية عند المرأة، فقد ظهر من دراسته بان ٥٠٪ فقط من غير المتزوجات في سن الخامسة والعشرين افدن بحدوث الذروة عندهن و٨٠٪ من المتزوجات فقط في هذا السن ايضاً افدن بالشعور بالذروة. وفي بيان تكرار حدوث الذروة في الانثى والذكر من المتزوجين وغير المتزوجين، افادت دراسته بأن الانثى غير المتزوجة تظل امكانية حصول الذروة عندها اقل من نصف المرة اسبوعياً (اي مرة كل اسبوعين) طوال انوثتها الممتدة من ١٥ ـ ٦٠ سنة، اما في المتزوجات فانها تتراوح بين معدل اقصاه مرتان ونصف في الاسبوع الى نصف مرة في الاسبوع ببلوغ الستين، بينما في الذكور العزب فان الذروة تبلغ معدل مرتين ونصف اسبوعياً عند البلوغ وتهبط الى مرة واحدة في الاسبوع ببلوغ الخمسين، وفي المتزوجين من الذكور فهي تبلغ ٣١/٢ مرات اسبوعياً في سن الثامنة عشرة وتهبط الى اقل من معدل ذروة واحدة في الاسبوع ببلوغ الخامسة والخمسين.

اما معدل العلاقات الجنسية الزوجية فقد قام وستوف Westoff بدراسة ذلك (١٩٧٤)، وافادت دراسته، وهي دراسة تقارن ايضاً بين هذا المعدل عام ١٩٦٥ وعام ١٩٧١، ما يلي: يبلغ المعدل اقصاه وهو حوالى ١٢ مرة في الشهر في سن التاسعة عشرة، وينخفض تدريجياً ليصل الى حوالى الثماني مرات في الشهر. ولم تظهر الدراسة فرقاً في هذا المعدل بين عينتي الدراسة لعام ١٩٦٥ وعام ١٩٧٠. وقد هبط هذا المعدل تدريجياً ليصل الى ٨١/٢ مرة لعينة ١٩٧٠ و٦١/٢ مرة لعينة ١٩٦٥ ببلوغ الثانية والعشرين، وبمعدل ثماني مرات في الشهر لعينة ١٩٧٠ واقل من سبع مرات لعينة ١٩٦٥ ببلوغ الثانية والثلاثين. وتلاقت المعدلات بخمس مرات في الشهر ببلوغ سن الخامسة والاربعين في كل من العينتين. وقد اعطت الدراسة معدلاً شهريا عاماً لجميع

الاعمار الواردة (بين ١٩ ـ ٤٥) مقداره ٦,٨ مرة في الشهر لعينة ١٩٦٥ و٨,٢ مرة لعينة ١٩٧٠. وهذا يبين زيادة واضحة في عدد الممارسات الجنسية في السنوات الاخيرة. ولعله يعكس اهتماماً بالنواحي الجنسية اكثر مما يعكس واقع القوة الجنسية في الممارسين عبر الزمن.

القوة الجنسية في الكبر

كما اتضح من الدراسات التي اشرنا اليها فان هنالك هبوطاً في القوة الجنسية في حدودها العليا الملاحظة بعد سن البلوغ وخلال فترة المراهقة والعشرينات من العمر وحتى بلوغ مراحل العمر المتقدمة. وهذا الهبوط يتم بشكل تدريجي لا يلاحظه الفرد لحدوثه عبر فترة زمنية طويلة، ولتوافقه وتزامنه مع هبوط مشابه في الفعاليات الحياتية المختلفة خاصة الجسمية منها والتي تقع مع تقدم مراحل العمر. غير ان الفرد قد يصل الى حد من الهبوط الذي يوحي اليه بالعجز في قواه الجنسية، وخاصة اذا ما توافرت الرغبة الجنسية ولم تتوافر معها الاستجابة والأداء الجنسي الفعلي الناجح. هذا ولا يوجد سن قطعي في حياة اي انسان، رجلاً او انثى، يمكن جعله حداً نهائياً لزوال القوة الجنسية. وهنالك روايات وافادات كثيرة بان بعض هذه القوة تبقى وبشكل ناجح حتى ارذل العمر في عدد غير قليل من الناس. ومما يروى في تأييد هذا الامر ما افاد به الكبتن كوك عند زيارته لملك تونَجا لابيتاكاكا Lapetakaka الثاني والبالغ من العمر ٨٠ عاماً، والذي عرف بانه كان يعتقد أن من واجباته الملكية ان يفض بكارة كل انثى بالغة، فقد علم كوك أن الملك قد نفذ مهامه المقررة بين ٨ ـ ١٠ مرات يومياً. غير ان حقائق الممارسة الجنسية والقوة التي تتصف بها هذه الممارسات في الكبر تختلف عن هذا المثال الشاذ وغيره من الامثلة المتناقلة والتي لا تخلو من مبالغة. وعلى العموم فان عملية الكبر تقترن في الغالبية من الناس بتغييرات تدريجية في استجاباتهم وادائهم الجنسي تتجه كلها نحو الهبوط، ونوجز هذه التغيرات بما يلي: يظل المسن يحصل على الانتصاب، غير ان ذلك يتطلب لحدوثه اكثر من الثواني القليلة التي يحتاجها الاصغر سناً من الرجال. وعند حصول الانتصاب فان الرجل الاكبر سناً يستطيع الابقاء عليه لمدة اطول قبل وصوله الى الذروة، غير انه اذا ما فقد الانتصاب قبل بلوغ الذروة، فان الاكثر احتمالاً هو انه سيعاني من صعوبة اعظم في استعادة الانتصاب مجدداً. ويضاف الى ذلك ان التغيرات المعتادة في كيس الخصية، (نهوض الخصيتين وامتلاءهما والأفراز السائل السابق للقذف المنوي)، فانها جميعها تقل او تنعدم خلال دور الانتصاب في الرجل المسن. غير ان معظم التغيرات الفيزيولوجية تقع خلال دور القذف، فعنصر الافراز مع الشعور الذي يصاحبه من حتمية القذف، يمكن ان يختصر او ان لا يحدث ابداً، مما يؤدي الى ان يشعر الفرد بالذروة على انها عملية ذات دور واحد فقط. وخلال عنصر الدفق فان هنالك تقلصات عضلية اقل، ويتدفق المني بقوة اقل. اما دور الاستعصاء (الاسترخاء) Refractory، فانه يطول، فالكثير من الرجال في الخمسينات من العمر وما بعدها لا يستطيعون الحصول على تواتر انتصابي خلال ١٢ ـ ٢٤ ساعة بعد القذف، وهنالك انخفاض في الرغبة الذاتية للحصول على الذروة، وهي، اي الذروة، تحدث بشكل اقل تكراراً في الكبر، فالكبار يمكن لهم ان يجدوا لذة في الممارسة الجنسية بدون ضرورة القذف في كل مرة، غير ان الذروة اذا ما حدثت لهم فانهم يجدون فيها

لذة. وحالما تحدث الذروة، فان دور الانحلال الذي يليها Resolution يصبح في المسن اكثر سرعة واطول مدة ممن هم اصغر منه سناً، فالانتصاب يزول بسرعة وفي خلال ثوانٍ معدودة بالمقارنة مع المرحلتين الاطول زمناً لهذا الدور عند الرجال الأصغر سناً، كما يصعب النهوض الجنسي بعده مباشرة.

اما في المرأة فان الكفاءة الجنسية يصيبها بعض التغيير الذي يصيب الرجل مع تقدم العمر. ويبدأ هذا التغير مع سن اليأس وخاصة في سن الخمسين وما بعده. والذي يحدث في النساء في هذه المرحلة هو الابطاء في حدوث وتمام الترطيب الكافي من افرازات الفرج، وقد يستغرق ذلك ٤ ـ ٥ دقائق بالمقارنة مع ١٥ ـ ٣٠ ثانية في الاناث الاصغر سناً، اضافة الى ان ارتشاح السائل المرطب هو اقل غزارة، ثم ان الفرج لا يتوسع او يطول بسرعة كما في السابق. ومع ان الذروة تحدث، الا انها دون القوة التي هي عليه في سن اصغر. وهنالك غير ذلك فروق اخرى، منها ان التقلصات العضلية المصاحبة للذروة تصبح اقل عدداً وقوة، كما ان دور الانحلال في المرأة، كما هو الحال عند الرجل، يتم بسرعة اعظم مع تزايد عمر المرأة. . ومع ذلك تظل المرأة في سنها المتقدم قادرة على الحصول على العديد من الذروات في ممارستها الجنسية، وهي كالرجل في ذلك، لا يوجد سن نهائي محدد لزوالها كلياً. وهكذا فان الرأي العلمي السائد يفيد بان عملية التعمير الطبيعية لا تكون في حد ذاتها سبباً كافياً لاحداث العطل الجنسي في اي من الجنسين، وان كانت عملية الهبوط في حياة الانثى هي اقل تسارعاً واقل وضوحاً مما هو عليه الحال في حياة الذكر في مستوى مماثل من العمر.

مدى القوة الجنسية

تتفاوت القوة الجنسية، كما تظهر في الممارسات الجنسية المتنوعة، في مدى واسع من مجال القوة، فهنالك في الحد الادنى اولئك الذين ضعفت او خبت فيهم القوة الجنسية الى حد يوحي بانعدامها، وهنالك على نقيضهم اولئك الذين يتصفون بقوى جنسية غير اعتيادية من حيث القدرة والتكرار. ويلاحظ هذا التفاوت ليس في الفرق بين فرد وآخر فقط وانما ايضاً في الفرد نفسه بين حين وآخر وبين مرحلة واخرى من مراحل العمر وبين شريك جنسي وآخر.

التفاوت في الفرد نفسه

ان ما من احد يحتفظ بقوته الجنسية على مستوى ثابت ومحدد، ومع ان الفرد قد يتصف بقدر معين من القوة الا ان اظهار هذه القوة قد يقل في الكثير من الاحيان عن هذا المستوى بفعل عوامل متعددة منها ما هو جسمي او نفسي، او ان ذلك يأتي بسبب الامعان في الممارسة او بسبب فقدان الرغبة الكافية الى غير ذلك من العوامل المقررة، كما ان لهذا المستوى ان يرتفع احياناً اذا توافرت المثيرات والحوافز والمنشطات التي تشحذ الرغبة وتذكي الاستجابة وتعزز الاداء.

التفاوت بين الافراد

هنالك تفاوت فردي واسع يتراوح بين حدود الضعف الذي يقارب العنة الكاملة، والى

حدود الشبق في الجنسين، وقد يقتصر هذا التفاوت في المدى على مرحلة زمنية او ظرف معين، غير انه قد يميز السلوك الجنسي بين الافراد خلال مدة طويلة من الزمن. ومن الروايات المتناقلة عن هذه الفروق ما يروى عن الفيلسوف كانت انه لم يضاجع امرأة في حياته. بينما الروائي سيمنون Simenon ادعى بانه ضاجع عشرة الاف امرأة، او امرأة جديدة كل ٥٠ ساعة. ويقال ان الانسة (دبوا Dubois) التي عاشت قبيل الثورة الفرنسية، قد اعدّت فهرساً للذين ضاجعوها خلال عشرين عاماً فبلغ عددهم ١٦,٥٢٧ رجلاً. اي ثلاثة رجال في اليوم الواحد. وافادت زوجة المجرم المعروف بـ (خنّاق بوسطن) بانه كان يصر على مجامعتها ١٩ مرة في اليوم الواحد، بينما معظم الرجال يفعلون ذلك مرة في الاسبوع. ويحكى ان الامبراطورة كاترين العظيمة قد اوصت بست مجامعات في اليوم، وبانها مارست نصيحتها بالفعل. وقد تكون بعض هذه النماذج شاذة، وبعض هذه الروايات مبالغ فيها، غير انها مع ذلك تبين ما يمكن ان يحدث من تفاوت بين الافراد في مدى قوتهم الجنسية. هذا وتجدر الاشارة الى ان تنويه الفرد بقواه الجنسية الخارقة قد يدلل على وجود الضعف اكثر من توافر القوة، كما ان ما يعرف عن بعض الرجال من اتخاذ زوجات او خليلات متعددات، لا يدلل بالضرورة على القوة الجنسية. وقد يكون تعبيراً عن ضعف الرغبة او الطاقة الجنسية، وما التعدد في بعض الحالات الا محاولة لاذكاء الرغبة الخابية بمدد جديد وذلك باتخاذ شريك جديد. وهنالك حالات غير قليلة ينتهي فيها زواج الفرد بعد ليلة او ليلتين. وينتقل الفرد فاشلاً بعد ذلك وبأعذار متعددة الى زواج اخر. ولعل قصة الف ليلة وليلة ودور شهريار فيها يمثل العنة اكثر مما يمثل القوة.

الفروق العنصرية والحضارية

يتناقل الرواد والباحثون احياناً ما يفيد بوجود فوارق في القوة الجنسية بين بعض الشعوب والأقوام والحضارات. وفي تحليل هذه الفروق لا بد لنا ان نردها الى العوامل المختلفة التي يمكن لها ان تعمل في تكوين القوة الجنسية. فمن الممكن ان اجناساً بشرية خصت بايولوجياً بطاقة جنسية تفوق معدل ما خصت به اقوام اخرى، وقد يكون للظروف المناخية اثرها في بدء الاستفاقة الجنسية في وقت اكثر ابكاراً كما هو الحال في المناطق الحارة. كما ان مما لا شك فيه ان النظرة الاجتماعية السائدة في المجتمع المعين لها ان تقدم او ان تؤخر في الاستفاقة الجنسية، وهو الامر الذي له ان يؤثر في النواحي النفسية وبالتالي في المستوى الهرموني الجنسي. ثم ان طبيعة التغذية ومقدارها لها اثر هام على القوة الجنسية وعلى ابتداء الزمن للاستفاقة الجنسية، فمن الواضح مثلاً ان سن البلوغ يقل تدريجياً في هذا العصر وذلك بفعل تحسن وسائل التغذية، اضافة الى فعل عوامل التوعية الجنسية في الاحداث والتسامح في امرها.

ولعل من العوامل الهامة في تقرير القوة الجنسية هي العوامل الحضارية بالنسبة للفرد ومجتمعه. فالطاقة الجنسية بوصفها طاقة بايولوجية، يمكن لها ان تتحقق بطرق متعددة جنسية وغير جنسية في ظاهرها الفعلي. كما ان الطرق الجنسية لا تتحدد في هذه العلاقة المباشرة، ولكل هذه الطرق المتنوعة الجنسية وغير الجنسية ان تستنفد القليل او الكثير من الطاقة الجنسية، وربما لا

يبقى الا قدرٌ محدود منها لاستثماره في القوى الجنسية المباشرة. والمعروف ان الانسان الاكثر حضارة وثقافة وتجربة هو اكثر تنويعاً في انماط سلوكه الذي يستنفد بشكل مباشر او غير مباشر طاقته الجنسية، بينما الانسان الاقل حضارة وثقافة فانه يتحدد بالطرق المباشرة والمألوفة في العلائق الجنسية، وله بذلك ان يقلل من استنفادها في مجالات اخرى، وان يبدي لذلك من القوة في اداثها المباشر ما قد يزيد على الانسان المتحضر في الكثير من الحالات، غير ان اسرافه المتكرر في هذه الناحية، اضافة الى فعل عوامل سوء التغذية والوهن الصحي تجعل فترة تمتعه بالقوة الجنسية اقصر من نظيره المتحضر.

الشبق Hypersexuilety:

الشبق هو «شدة الغلمة» والالحاح في الدافع الجنسي، وقد تكون هذه الحالة في بعض الناس الحدُّ الأعلى للطاقة الجنسية في مداها الطبيعي، وهي على هذه الصورة غير نادرة، كما انها تحدث في فترات معينة في حياة بعض الأفراد وخاصة في مرحلة المراهقة. غير أن الرغبة الجنسية والالحاح في ممارستها قد يبلغا حدوداً غير طبيعية، وقد يتخذا صفة الدافع والسلوك القسري للعمل الجنسي المتكرر، وفي هذه الحالة فان الممارسة قد تكون دليلاً على انحراف جنسي، كما قد تكون مؤشراً على توافر اضطراب مرضي أو فيزيولوجي يقتضي تقصيه، ويحدث الشبق في الرجل «Satyriasis»، كما يحدث في المرأة «جنون الحورية nymphomania». هذا وهنالك ما يدل على توافره في بعض الحيوانات. ومن بعض أسباب الشبق المرضية، اضطراب أقسام الجهاز المنظم لانفعالاتنا العاطفية والمعروف بـ «Limbic system»، كما قد يحدث في بعض حالات الصرع «الصدغي Temporal» وبسبب تناول بعض الأدوية المنشطة للأعصاب الامفيتامين amphitamine، والمخدرة morphine وبعض الهرمونات اندروجين androgen، غير أن المنشطات الجنسية aphrodisiacs لا فعل لها في هذا الشأن، كما أن الشبق يمكن ان يحدث في بعض الحالات المرضية النفسية كالهستيريا، والأمراض العقلية كالمانيا، والسلوك السايكوماثي في مرحلة المراهقة، خاصة في أولئك الذين يعبرون في شبقهم عن امتهانهم للقيم والعادات التي تنظم سلوك المجتمع. أما في المرأة فإن التغيرات الفيزيولوجية والهرمونية التي تحدث في سن اليأس، وفي فترة الحيض، قد تزيد من الرغبة الجنسية إلى حد أكثر من المعتاد. . على أننا في جميع حالات الشبق في المرأة أو الرجل، يجب ان نفرق بين الشبق الفعلي، كانحراف أو مرض، وبين ما يبدو بأنه شبق بينما هو في الواقع مجرد انشغال ذهني بالأمور الجنسية بدون ان يقترن هذا الانشغال بدافع ملح للممارسة أو تكرارها وقد لا يتعدى مثل هذا الانشغال كونه تمويهاً عن عنة أو ضعف جنسي. وتجدر الاشارة إلى أن ما يبدو شبقاً جنسياً في بعض الاناث ما هو إلا تعبير عن فشلها في الحصول على الذروة الجنسية مما يدفعها إلى الإمعان في تكرار العلاقة الجنسية على أمل الحصول عليها.

الفصل الثالث عشر

الضعف الجنسي

* البنية الجسمية
* الحالات المرضية الجسمية
  - النحول المرضي العام
  - الامراض القلبية
  - أمراض الكلي والجهاز البولي
  - امراض المفاصل
  - امراض الجهاز العصبي
  - مرض السكري
  - امراض الاوعية الدموية
  - الاضطرابات الهرمونية
  - الاجراءات الجراحية

الضعف الجنسي

ان طبيعة الحياة الجنسية تجعل من الصعب التوصل الى مقياس يعين مقادير القوة او الضعف التي تتميز بها ناحية او اخرى من نواحي هذه الحياة المتعددة العناصر والمتشابكة في العوامل المؤثرة فيها. وهذه الصعوبة تجعل من الفرد نفسه او من شريكه الجنسي، الوازن للقوة او الضعف في العلاقة الجنسية. واي من المشاركين في العملية الجنسية يزن ذلك على اساس من توقعاته لما يجب ان يكون عليه من قوة، وهي التوقعات التي يتوصل اليها من تجاربه السابقة ومن معرفته بتجارب الاخرين ممن هم في سنه وفي ظروف وبيئة مماثلة لبيئته وظروفه. وتبعاً لهذا المنظور للقوة والضعف في الحياة الجنسية، فان الفرد قد يكون ضعيفاً اذا ما قورن بامثاله، او انه قد يصبح ضعيفاً بعد قوة لسبب او آخر، ومثل هذا الضعف قد يكون في درجات متفاوتة وقد يمتد الى فترات مختلفة الزمن، كما انه قد يظهر في ظروف حياتية معينة دون غيرها بما في ذلك المكان الذي تتم فيه العلاقة والشريك في هذه العلاقة، وفيما يلي بعض الاسباب الهامة التي يمكن لها ان تحدث ضعفاً في القابلية الجنسية بما في ذلك الدافع الجنسي والاداء الجنسي الفعلي.

البنية الجسمية

ليس للبنية الجسمية في حد ذاتها اي ارتباط اساسي بالقابلية الجنسية، فالطول والقصر والنحالة والبدانة وقوة العضل لا تقترن بالضرورة بمستوى معين من القابلية الجنسية، غير ان البنية الناحلة او البدينة تقترن عادة بوهن في القابليات الجسمية وسرعة الشعور بالتعب والاجهاد، ومثل هذا الاقتران يظهر ايضاً في الطاقات البايولوجية الاخرى بما في ذلك النواحي الجنسية،

ومع ان الدافع الجنسي والاداء الجنسي قد يكون طبيعياً في الممارسة الواحدة، الا ان آثار التعب تظهر على الممارس بشكل اسرع ولمدة اطول مما هو الحال عند غيره، كما ان معاودة وتكرار الممارسة تصبح اكثر صعوبة واقل عدداً مما هو مألوف.

الحالات المرضية الجسمية

يمكن للضعف الجنسي ان يحدث في الكثير من الامراض التي تصيب الجسم سواء ادت الحالة المرضية الى اتعاب المريض بشكل عام، او انها تركزت في عضو او جهاز معين من الجسم. أو جاءت بسبب فعل الادوية التي يتناولها المريض لعلاج المرض الذي يعانيه. هذا والامراض التي قد تسبب حالة الضعف قد تكون امراض جسمية طبية او جراحية، وقد تكون امراضاً عامة او امراضاً تصيب المناطق والاعضاء المرتبطة بالعملية الجنسية.

١ ـ النحول المرضي العام

ان من طبيعة معظم الامراض التي تصيب الجسم ان تسبب الشعور بالوهن الجسمي وان ينسحب ذلك على مستوى الرغبة الجنسية والأداء الجنسي. ويحدث ذلك بشكل عام في جميع الامراض التي تسبب النحول والالم والعجز مهما كانت اسبابها، وخاصة الحالات المرضية طويلة الاجل او التي تحتاج الى فترة طويلة من النقاهة. ولمثل الضعف الجنسي الذي يحدث عادة في هذه الحالات المرضية ان يثير حالة من القلق في نفس المريض وان يؤدي ذلك الى التأثير على مستوى قابلياته الجنسية عند ابلاله الكامل من مرضه.

٢ ـ الامراض القلبية

اجريت ابحاث عديدة في موضوع الارتباط بين الامراض القلبية وبين الاداء الجنسي، وقد افادت هذه الابحاث بعدة ملاحظات هامة منها ان اثر العلاقة الجنسية للمصابين بمرض قلبي يساوي اثر ارتقاء الدرج من طابق الى آخر او اثر المشي السريع لفترة وجيزة، وبان المريض اذا استطاع القيام بهذه الفعاليات بدون جهد واضح فان بامكانه ان يمارس العلاقة مع شريكه المعتاد. غير أن هنالك خطراً من هذه الممارسة مع شريك جديد او بعد غياب طويل. وفي دراسة اخرى قام بها بلوك (١٩٧٥)، تبين ان هنالك نقصاً في عدد الممارسات من معدل ٥,٢ مرة في الشهر قبل الاصابة الى حدود ٢,٧ مرة شهريا بعد ١١ شهراًمن وقوع الاصابة. ويعزو الباحث هذا الفرق الواضح الى عوامل نفسية من القلق والخوف من الاقدام على الممارسة. هذا وقد بينت دراسة اخرى اجريت على ٤٨ من المرضى الذين اصيبوا بالذبحة الصدرية، وافادت الدراسة بان ١٨ منهم قد عانوا من اعراض تسارع في التبض او حدوث (الأنجانيا ـ الذبحة الصدرية) وبان خمسة من هؤلاء اضطروا لايقاف العملية الجنسية بسبب الشعور بهذه الاعراض.

(*) فريدمان (١٩٧٨) ورجستاين وهورن (١٩٧٨) وواجنر (١٩٧٧) وغيرهم.

٣ - امراض الكلي والجهاز البولي

جرت معظم الابحاث على صنفين من المرضى، وهم الذين يؤدي بهم مرض الكلي الى التسمم وبالتالي اللجوء الى تصفية الدم. والصنف الثاني هم المرضى الذين اجري لهم عملية زرع الكلية. ففي الصنف الاول افادت الدراسة (١٩٧٣) بان نسبة عالية من هؤلاء المرضى يعانون من مشكلة القابلية الجنسية والتي تتكون من نقص في تكرار الدافع الجنسي والعملية الجنسية، مع صعوبة في الابقاء على الانتصاب (٦٠٪)، كما افادت الدراسة على الاناث بحصول نقص كبير في امكانية حدوث الذروة، فتناقصت هذه الامكانية. فبينما كانت ٩٠ انثى من مجموع ١٤٢ تحصل على الذروة قبل حدوث حالة التسمم الكلوي، فان ٤٧ منهن فقط حصلن على الذروة بعد قيام حال التسمم. وعلى العموم فان البدء والاستمرار بتصفية الدم قد ادى الى تدهور الوضع الجنسي في ٣٥٪ من الذكور و٢٤٪ من النساء، ونسبة قليلة فقط من هؤلاء يعودون الى حالة افضل. ويعزى هذا التدهور الى عوامل نفسية اكثر مما يعزى الى اسباب عضوية جسمية. اما الوضع بالنسبة للذين اجريت عليهم عمليات زرع الكلية، فهو وضع مشابه لوضع تسمم الكلي وتصفية الدم، غير ان معاناة المرأة كانت اقل بكثير من معاناة الرجل في مثل هذا الامر. وقد تأيدت هذه النتائج من دراسات تالية(*). ويظهر من هذه الدراسات بمجموعها أن هبوطاً في القوة الجنسية يحدث في معظم حالات مرض الكلي، ان لم يكن في كلها، ومن غير الواضح طبيعة هذا الارتباط وان كان يعتقد أن العامل النفسي في المريض هو العامل الفعال.

٤ - امراض المفاصل

تقترن امراض المفاصل عادة، وفي الكثير من الناس، بدرجة او اخرى من العطل الجنسي، وهو امر متوقع بالنظر للفعل الناهي الذي يحدثه الالم والتشنج والتصلب المفصلي والعضلي. وكل ذلك يجعل العملية الجنسية في الذكر او الانثى عملية مؤلمة قد يزيد المها على اللذة المتوقعة من اتمام العمل الجنسي، كما ان الالم يحدد في بعض الاوضاع والحركات اللازمة اثناء العلاقة الجنسية مما يعيق العلاقة او ينهيها قبل اتمامها او يختصرها. (هاملتون ١٩٧٥). هذا ويمكن لمرض المفاصل ان يؤدي الى تعقيدات اخرى بما في ذلك التهابات المناطق الجنسية، واثار العقاقير المقاومة لالتهابات المفاصل، وبسبب عوامل نفسية اخرى. ومن الملاحظات التي تمر بالكثير من الاطباء شكوى الرجال من آلام الظهر (الظهار Lumbago)، وارتباط ذلك بالضعف الجنسي في عدد غير قليل منهم. ومع ان هذه الالام قد تكون نتيجة مرض مفصلي في الفقرات، الا ان الكثيرين منهم لا يعانون من ذلك، ولهذا فان الارتباط بين الالم والضعف الجنسي هو ارتباط نفسي، وتكون شكوى المريض من آلام الظهر شكوى رمزية وتعبيرية غير واعية وخاصة في الذكور.

٥ - امراض الجهاز العصبي

يلعب الجهاز العصبي المركزي في الدماغ والنخاع الشوكي، وما تفرع عنه من اعصاب

(*) ابرام وابرايان (١٩٧٥) وسالفتيرا (١٩٧٥) وستيل (١٩٧٦) وغيرهم.

محيطية، بما في ذلك الجهاز العصبي الذاتي، دوراً هاماً في العمليات الفيزيولوجية التي تتكون منها الادوار المختلفة للعملية الجنسية منذ نقطة تكوين وانطلاق الدافع الجنسي وحتى نهاية الاستجابات المختلفة لهذا الدافع، وهكذا فان اي خلل في هذا الجهاز او ما تفرع عنه يمكن له ان يضر بالعملية الجنسية ويؤدي الى اضعافها او تعطيلها. وتشمل امراض الجهاز العصبي التي يمكن ان تؤدي الى عطل جنسي الامراض التي تصيب (١) المناطق الدماغية المختصة بالحياة الجنسية وهي المنطقة الحافية (اللمبية Limbic)، ونواة الهايبوثالموس، والثالموس. (٢) الاعصاب الحركية المحيطية والذاتية والتي تبدأ وتسيطر على عمليات الاستجابة الجنسية. (٣) الاعصاب الحسية التي تحمل الأفادات الحسية الى النخاع الشوكي. (٤) المراكز في النخاع الشوكي بما في ذلك الخيوط العصبية الصاعدة الى مراكز الدماغ والنازلة منها. ومن الامراض التي يمكن ان تؤثر في الجهاز العصبي وبالتالي في العملية الجنسية هي حوادث الشدة والاورام والالتهابات والنزيف الدموي ومرض التشمع المنتشر D.S والنقص الولادي في العمود الفقري Spina Bifida وقطع النخاع الشوكي كلياً او جزئياً. مع العلم أن هنالك مركزين متحكمين في الانتصاب في النخاع الشوكي احدهما ظهري قطني والاخر عصعصي، بينما القذف يعتمد على سلامة كل من المركزين.

٦ ـ مرض السكري

ان المرض في حد ذاته لا يسبب ضعفاً جنسياً، واذا ما حدث هذا الضعف فما ذلك الا نتيجة ما يمكن ان يؤدي اليه المرض من اصابة الجهاز العصبي الذاتي بقسميه السمبثاوي والبارسمبثاوي. وكلا القسمين لهما فعلهما في السيطرة على الاستجابات الجنسية. ومرض السكري هو اكثر الامراض تسبباً لاصابة هذا الجهاز بتسمية الامراض. والمعروف ان حوالى ٣٠ ـ ٦٠٪ من المصابين بالسكري يعانون من الضعف الجنسي بدرجة او اخرى. وهنالك اختلاف بين الباحثين فيما اذا كان تأثير مرض السكري هذا يأتي عن طريق عصبي او هرموني او عن طريق الأوعية الدموية، غير ان معظم البينات تشير الى ان تأثيرالمرض، على اعصاب الجهاز العصبي الذاتي مسؤول جزئياً في الاقل عن هذه النتيجة(*). وفي الابحاث على النساء المصابات بالسكري تبين اصابة نسبة كبيرة منهن (٥٤٪) بتوقف الحصول على الذروة(*)(*). غير ان هنالك ابحاثاً اخرى تعطي نسبة اقل من توقف الذروة في النساء المصابات بالسكري. هذا ويجب في كل حالة تقرير فيما اذا كانت هنالك اعراض عصبية اخرى او لا في المرض فوجود هذه الاعراض يجعل احتمال الضعف الجنسي اكثر امكانية.

٧ ـ امراض الاوعية الدموية

لما كانت امراض الاوعية الدموية لا تحدث بمفردها عادة، وانما كجزء من الامراض التي تصيب

(*) كولودني وآخرون (١٩٧٤)، وكوترس وبالودنوس (١٩٧٠).

(*)(*): النبرج ١٩٧٧.

جهاز الدورة الدموية وجهاز الكـلي والبـول وحتى الجهـاز العصبي الذي يتحكم الى حـد ما في الدورة الدموية من القلب حتى ادق الاوعية الدموية، فان من الصعب تقرير فيما اذا كان العطل الجنسي الذي يصاحب اضطرابات الاوعية الدموية هو عطل ناجم عن هذه الاوعية او عن فعل الامراض الاخرى المصاحبة لاضطراب هذه الاوعية. وعلى العموم فان اي شحة في تزويد الدم للاعضاء الجنسيـة بسبب اي علة مرضيـة او حادث فله ان يؤثـر في العملية الجنسيـة (كاننـغ واخرون ١٩٦٣). ومن امراض الاوعية الدموية التي يقترن وجودها بامكانية الضعف الجنسية هو مرض ارتفاع ضغط الدم. وليس هنالك ما يؤكد وجود ارتباط اساسي بين الحـالتين، وان كانت نسبة الذين يعانون من ضعف جنسي تزيد في مرضى الضغط، الا ان ذلك قد يكون نتيجة اما لتخوف المريض من الأجهاد والانفعال واثر ذلك الناهي عن اطالة الممارسة او تكرارها، او انـه يأتي نتيجـة الآثار الجـانبية للعقـاقير المستعملة في عـلاج ارتفاع ضغط الـدم. اما بـالنسبة لانخفاض ضغط الدم فان الملاحظ هو ان الذين يعانون من انخفاض واضح في الضغط فانهم يعانون ايضاً من سرعة الاجهاد بما في ذلك الأجهاد الجنسي. وهنالك موضوع العلاقة بين توسع الاوردة الشرجية (البواسير) وبين الشكوى المألوفة عند المصابين بها من الضعف الجنسي، ولعل تفسير هذه الرابطة يعود الى عوامل نفسية يردها المحللون الى تثبت الفرد او نكوصه الى دور جنسي نفسي سابق (الدور الشرجي). وقد لا يتجاوز الامر مجـرد انتشار الـرأي عن هذه العـلاقة في بعض الاوساط الاجتماعية، واقتناع المصابين بهذا التفسير، او اخذهم به، حتى بدون تـوافر الدليل على وجود البواسير، وهو الامر الـذي يدفعهم الى السعي الى اجـراء العملية الجـراحية لاستئصال البواسير.

٨ ـ الاضطرابات الهرمونية

هنالك علاقة وثيقة واساسيـة بين حيـاتنا الجنسيـة وبين الاجهـزة الهرمـونية المختلفـة في الجسم. وتتألف هذه الاجهزة الهرمونية من نواة الهايبوثالموس ومن الغدة النخـامية ومن الغـدد الجنسية (الخصيتين في الـذكر والمبيضـين في الانثى). والامراض او الاضـطرابات التي تصيب الغدة النخامية والغدد الجنسية وغدة السوبرارنيل (الكظرية Supra renal) يمكن لها ان تؤدي الى عطل في الدافع والاستثارة الجنسية في كل من الذكر والانثى. ومن هذه الامراض ضمور الغدد الجنسية الولادي وتشمع الكبد الذي يؤدي الى ضمور الخصيتين، وعجز الغدة النخامية، واورام غدة الأدرينال. والمعروف ان استئصال المبيضين لا يؤثر في حياة الانثى الجنسية على عكس التأثير الذي يحدث بعد استئصال غدة الادرينال. اما في الرجل فان استئصال الخصيتين اذا ما حدث بعد اكتمال النمو فانه لا يؤثر كثيراً في الدافع الجنسي او الانتصاب عند معظم المخصيين. وتفيد الابحاث الهرمونية ان الفرد، انثى او ذكراً، يحتاج الى مقادير قليلة من هرمـونات الأنـدروجين للقيام بالسلوك الجنسي الـطبيعي، وان هذه المقـادير تـأتي من مصدرين اولهـما الغدد الجنسيـة (الخصية في الذكر والمبيض في الانثى)، والمصدر الثاني من غدة الأدرينال. فاذا انقـطع المصدر الاول بسبب المرض او الاستئصال تزود ما يحتاجه الفرد من المصدر الثاني. وهكذا فان المهم هو توافر هذه المقادير القليلة، أما ما يزيد عليها فلا يعرف ان له اهمية علاجية، وان كان المعروف

هو ان زيادة الاندروجين في الانثى تؤدي الى زيادة الدافع الجنسي عندها.

٩ - الاجراءات الجراحية

الآثار الجراحية اما تأتي من فعل الالم الذي يحدد العلاقة الجنسية، او بسبب تأثير العملية على النظام العصبي المتصل بالعملية الجنسية، كعملية البروستات، او بسبب قطع الاعصاب السمبثاوية في المنطقة القطنية، كما انه يأتي في بعض الناس بسبب الصدمة النفسية التي قد يعانونها من العملية وما توحي لهم به من تشويه لتكامل صورتهم عن انفسهم.

الفصل الرابع عشر

العطل الجنسي

* عطل الرغبة الجنسية
* عطل العملية الجنسية الفعلية

عطل الانتصاب (العنة)

عطل القذف

القذف المبكر، القذف المتاخر أو المعدوم

عطل الذروة

تعقيدات العنة :

النتائج النفسية ، النتائج السلوكية ، النتائج الاجتماعية

النتائج القانونية

* انتشار العطل الجنسي.
* التفرقة بين العنة العضوية والعنة الوظيفية (النفسية)

العطل الجنسي Sexual Dysfunction

العنة لفظة قديمة في اللغة معناها (ان يعترض الفرد ما يحبسه عن النساء)(*) كما انها مصطلح مألوف ومتواتر الاستعمال بين عامة الناس وخاصتهم بما في ذلك المجال الطبي قديماً وحديثاً. غير ان المصطلح بمعناه المألوف ينوه عادة بعدم المقدرة او فقدان القوة على انجاز العلاقة الجنسية. وهو نفس التنويه الذي يعطيه مصطلح Impotence، وترجمته (عدم المقدرة) او (عدم القوة). وبالنظر لأن المصطلح بمعناه الدارج لا يتفق تماماً مع المعنى الاصلي للكلمة في اللغة، وبالنظر لانه يحدد هذا المعنى بدرجاته القصوى في فقدان القوة والمقدرة، وبالنظر لما في ذلك من تنويه له ان يخلق تعقيدات وملابسات ونتائج اجتماعية وقانونية ونفسية، فقد بات من الضروري اعادة اعطاء مصطلح العنة مفهوماً اكثر دقة، او استبداله كلياً بمصطلح آخر يتجنب التنويهات المعنوية ويضمن شمول الحالات المختلفة من (عدم المقدرة) بأنواعها ودرجاتها التي هي عليه. ومن المصطلحات البديلة التي قدمت مصطلح الضعف او الوهن الجنسي ومصطلح العجز الجنسي، ومصطلح الاضطراب الجنسي (العطل الجنسي Dysfunction). ومع ان جميع هذه المصطلحات لا تحيط بحدود (العنة) الواسعة، الا ان المصطلح الاخير منها وهو (العطل

(*) اوردت القواميس مشتقات كثيرة من اصل الكلمة وهو «عن»، والتي تعني من جملة المعاني (اعترض)، ومن مشتقاتها (عنان) وتعني الممتنع، او «البطيء عنة»، والعنين وهو الذي لا يأتي النساء ولا يريدهن، والعنة وهي ان يعترض المرء ما يحبسه عن النساء. والعنينة (وهي المرأة التي لا تريد الرجال ولا تشتهيهم. ويقال ان الفرد عنين، لانه يثني ذكره لقبل المرأة من عن يمينه او شماله فلا يقصده. ومن هذه الالفاظ والمعاني يتبين ان العنة بمعانيها الاصلية هي اوسع واكثر شمولاً من معناها المألوف الدارج، وهو عدم المقدرة على الولوج والمعاشرة من ناحية الرجل فقط.

الجنسي) هو اكثر المصطلحات اقتراباً من الوفاء بحاجات الحالات التي يتضمنها الاصطلاح، بما في هذه الحالات من تنوع في الشكل او الدرجة ثم ان مصطلح العطل يتوافق مع المصطلحات الطبية المماثلة لحالات العطل في وظيفة اعضاء واجهزة الجسم الاخرى، ونحن لذلك سنأخذ بالمصطلح الجديد: (العطل الجنسي) مرادفاً وبديلاً افضل لمصطلح العنة.

* *

لما كانت الحياة الجنسية في الانسان تتكون من سلسلة مترابطة من الفعاليات فان الاداء الملائم لهذه الحياة ومتطلباتها بحلقاتها المتعددة يعدّ اداءً طبيعياً، اما التقصير في الاداء في السلسلة كلها او في حلقة او اكثر منها فيعدّ عطلاً جنسياً، ويقتضي في تحديد هذا العطل، ان وجد، بيان نوعيته ودرجته، وهو بيان يجب ان يأخذ بعين المراعاة ما هو منتظر للشخص ان يدركه من كفاءة جنسية في مثل عمره وظروفه الشخصية والاجتماعية والحضارية، كما يقتضي ان نعين فيما اذا كان العطل القائم عطلاً اساسياً وجد منذ البداية، او انه عطل ثانوي جاء في فترة لاحقة بعد فترة اداء طبيعي ولسبب ما معلوم او غير معلوم. ومن الأمور التي يجب تعيينها ايضاً هي فيما اذا كان العطل دائمياً او انه عطل زمني ينحصر في فترة ما، او انه يتكرر بين الحين والاخر، ومع جميع الشركاء في العمل الجنسي، او انه ينحصر في العلاقة مع شخص او اشخاص محددين، او في ممارسة جنسية محددة دون غيرها، او في ظروف معينة من العلاقة مع شريك او آخر. وهنالك امر اخر يقتضي التنويه به، وهو ان العطل الجنسي في ناحية او اخرى من سلسلة الفعاليات لا يقتضي بالضرورة انسحاب العطل على النواحي الاخرى، فقد يعطل الاداء في ناحية ويظل فعالاً وطبيعياً في حالات اخرى، غير ان ما يحدث كثيراً هو ان العطل في ناحية يؤثر في ناحية اخرى من الفعاليات الجنسية، وهو امر متوقع بالنظر للترابط الزمني والوظيفي في مراحل هذه الفعاليات.

* *

ان الفعاليات الوظيفية التي يمكن ان يصيبها العطل الجنسي تنقسم الى قسمين، القسم الاول هي الفعالية التي يعبر عنها بالرغبة الجنسية، والقسم الثاني هي الفعاليات التي يتكون منها الاداء الفعلي لتحقيق هذه الرغبة. وهذه الفعاليات من الاداء تشمل (١) الانتصاب (٢) القذف (٣) المتعة الجنسية بما في ذلك الذروة.

١ ـ عطل الرغبة الجنسية

لا يتساوى جميع الناس في قوة رغباتهم الجنسية، كما انهم لا يبدون نفس القوة من الرغبة دائماً وفي جميع الظروف. غير ان العطل يفترض قيامه في هذه الناحية اذا كان الشخص بصورة عامة يبدي تحسساً طفيفاً ورغبة قليلة في الأمور الجنسية، سواء كانت الرغبة تلقائية، او تطلبتها الاثارة من مصدر او اخر من المصادر المألوفة للاثارة من خيال او صورة او صوت او حديث او شكل او وضع جنسي. وهذا العطل قد يكون قائماً منذ البداية، وقد يحدث بعد بداية طبيعية او

ضعيفة. وكونه شكوى رئيسة للمصابين بعطل جنسي، فهو يتراوح وقوعاً عندهم بين ١٠٪ من حالات العطل (جبوا Geboes) (١٩٧٥)، و٢٧,٨٪ (لايف Lief) (١٩٧٧).

ان من المتعذر وصف المحتوى للرغبة الجنسية، فهذا المحتوى يشمل نواحي فكرية ونواحي عاطفية، وهي نواحي شعورية ذاتية يصعب على الفرد التعبير عنها. والشعور بهذه الرغبة يشمل امر ورود الفكرة او الرغبة في النفس، ومدى مراودتها وتأملها ومداعبتها والاهتمام بها والمحافظة على وجودها في الذهن والاقبال على تحقيقها لشعور ما، ومدى تدخلها في اهتمامات الفردالاخرى،الى غير ذلك من مظاهر الشعور بالرغبة والتي يقتضي تحديدها للوصول الى تقدير صحيح لدرجة العطل فيها.وعلى هذه الخلفية من الفهم فان عطل الرغبة الجنسية قد يأتي على صورة او درجة من الصور والدرجات التالية:

١ - انعدام الرغبة الجنسية كلياً منذ البداية وفي جميع الظروف والاوقات. ومثل هذه الحالات غير نادرة، فهنالك البعض من الناس، ذكوراً او اناثاً، الذين ينفون تجربتهم لاي رغبة او خاطرة جنسية طوال حياتهم، كما انهم ينفون ممارستهم لاي شكل من اشكال اللعب او الممارسة الجنسية بما في ذلك الاستمناء والخيالات ومتابعة المواضيع المثيرة للشهوة والمداعبة الجنسية، والعلاقة الجنسية. وتعتبر هذه الحالة عطلاً جنسياً اولياً.

٢ - عطل الرغبة الجنسية (الثانوي) وهو العطل المستجد في هذه الناحية والذي قد يكون عطلاً كاملاً او عطلاً بالغاً او جزئياً، والذي قد يكون عطلاً شاملاً او يتحدد بظروف معينة. وقد يأتي هذا النوع من العطل لشخص اظهر قوة طبيعية من الرغبة في السابق، او انه كان فاتر الرغبة الى حد ما منذ البداية. ومثل هذا العطل قد يأتي لاسباب مرضية، او بسبب تناول علاجات ومستحضرات معينة كالاسباب التي بيناها باسهاب في موضوع الضعف الجنسي، كما انه قد يحدث لاسباب نفسية قائمة في حد ذاتها او ناجمة عن وجود المرض العضوي. فخوف الفرد من العلاقة الجنسية، وخشيته من الفشل من النتائج والعواقب المترتبة على الاندفاع نحو تحقيق الرغبة، كلها موانع قد تحبس رغبته الجنسية وتنهي عنها. كما ان فقدان الميل نحو شريك جنسي معين، او في ظروف خاصة لهذا الشريك، كالمرض والحيض والحمل والنفاس، لها ان تصد الرغبة الجنسية او تضعفها. ومن الاسباب النفسية التي يمكن ان تنهي عن الرغبة الجنسية قلق الفرد الناجم عن رغبته في اثبات رجولته او الالحاح عليه من اجل اثباب ذلك لشريكه او للعائلة او للمجتمع. ومن الموانع ايضاً النواهي الدينية التي لها ان تصرف عن الرغبة او ان تصدها عند عروضها للفرد، وكذلك الظروف الحياتية التي لها ان تشغل الفرد عن متابعة ومداعبة الرغبة الجنسية. ولعل من اهم اسباب عطل الرغبة هو ما يتعلق بالشريك الجنسي، فربما لا يكون هذا الشريك مثيراً للرغبةالجنسية،وقد يكون مثبطاً لها عند قيامها. وللرغبة الجنسية في مثل هذا الفرد ان تثار اما بممارسة جنسية اخرى او بعلاقة جنسية او اثارة جنسية من شريك اخر. ومن الحالات المرضية التي يمكن ان تعطل الرغبة الجنسية كلياً او جزئياً مرض الكآبة، فالهبوط الذي يعم فعاليات الفرد الجسمية والنفسية يشمل ايضاً الرغبة الجنسية، واهمية هذا الشمول واضحة

من ان عودة الرغبة الجنسية تعدّ احد البوادر الهامة التي تبشر بانحسار الكآبة. اما مرض الشيزوفرينيا فان الرغبة فيه قد تقل او تزيد او تنعدم كلياً، غير انها في معظم الاحيان تتخذ تعبيراً مضطرباً وغير مألوف من حيث طبيعة الرغبة وطريقة تحقيقها، واخيراً فان من العوامل المعطلة للرغبة الجنسية هي تلك التي تتعلق بالاثارة الجنسية. ومن الواضح في هذا الامر ان الناس جميعاً لا يثارون بنفس الدرجة عند التعرض لجميع الاشياء التي يمكن لها ان تثير الرغبة الجنسية. والفروق بين الناس في هذا الموضوع ترد الى عوامل عدة، منها ما يتعلق بشخصية الفرد وتجربته، ومنها ما يرد الى عوامل اجتماعية او حضارية او دينية، وللفروق الممكنة في هذه العوامل ان تغير من الرغبة والميول الجنسية بشكل عام او في مواقف خاصة.

ب ـ عطل العملية الجنسية الفعلية

قد يكون من الصعب تحديد نقطة البداية في العملية الجنسية. فنحن اذا اخذنا العملية الجنسية ككل، كانت الرغبة الجنسية هي بداية هذه العملية، اما اذا حددنا العملية بالاداء، فان العملية الجنسية تتحدد بما يلي الرغبة الجنسية من استجابات لارضاء هذه الرغبة. ولاغراض هذا البحث فان العملية الجنسية الفعلية تتحدد بالاستجابات الفيزيولوجية التي يمكن ان تحدث بسبب السعي لتخفيف الرغبة الجنسية وهي، الانتصاب او التوتر في القضيب، والقذف والذروة. وما يصاحبها من الشعور باللذة والمتعة. هذا ولا يفترض في العملية الجنسية ان تسير بالضرورة حتى نهايتها، فقد تتوقف بسبب او آخر وفي مرحلة او اخرى من هذه المراحل دون غيرها. وكما هو الحال في الرغبة الجنسية، فان الاستجابات الجنسية كلها او في اي مرحلة منها، قد تتعطل كلياً او جزئياً، وقد يكون العطل اساسياً منذ البداية، وقد يكون طارئاً، وقد يظهر في جميع الاثارات والممارسات الجنسية، وقد يقتصر ظهوره على اشكال محدودة من هذه الممارسات والاثارات، وقد يكون بشكل دائم، وقد يظهر فقط في ظروف وازمان معينة. واخيراً، فاننا بتقديرنا للعطل الجنسي يجب ان لا نهمل اثر العمر على الاستجابات الجنسية، ولا اثر العوامل الاجتماعية والحضارية على هذه الاستجابات.

عطل الانتصاب (العنة)

الاستجابات الفيزيولوجية المكونة للانتصاب خاضعة للفعل الوظيفي لعدة اجهزة في الجسم، اهمها الجهاز العصبي المركزي، والجهاز العصبي الذاتي، اضافة الى الأحاسيس الواردة من الاعضاء التناسلية الى النخاع الشوكي. والنتيجة النهائية لفعل هذه العناصر تؤدي في البداية الى توسع الشرايين، مما يؤدي الى التوتر والانتصاب. والعطل الذي يحدث في الانتصاب يعتمد على جميع هذه العوامل المقررة للاستجابات الفيزيولوجية. ان انتصاب القضيب هو المرحلة الاولى من مراحل الاداء الجنسي والاستجابات الجنسية، وربما لا يستغرق اتمامه اكثر من ثوانٍ معدودة في مراحل الشباب، غير انه مع ذلك يعدّ اهم الادوار الجنسية ليس في ذهن وشعور صاحبه فقط، وإنما في ذهن وشعور شريكه في العمل الجنسي، ذلك، ان الانتصاب حادث محسوس وملموس. وهو فوق كل ذلك الحدث الذي يستطيع او لا يستطيع اداء عملية الولوج

الجنسي، وبدون ذلك فان العلاقة الجنسية الفعلية ربما لا تحدث ابداً، او انها تحدث بصورة ضعيفة وغير مقنعة لكلا الطرفين في العلاقة الجنسية. وبالنظر لاعتماد فض البكارة في الزواج على قوة الانتصاب وزمنه عند التماس الفعلي، لهذا اعتبر الانتصاب والنجاح في الولوج الدليل القطعي على الكفاءة الجنسية. كما اعتبر الفشل في ذلك دليلاً على (عدم المقدرة Impotence)، او ما يصطلح عليه عادة (بالعنة). غير ان الجزم بعدم المقدرة (او العنة) يجب ان يبين فيما اذا كان هنالك او لم يكن هنالك القدر الكافي من الانتصاب ولمدة زمنية كافية عند التماس.

ان هنالك درجات متفاوتة من العطل في الانتصاب. وهذه الدرجات تتفاوت قوة وضعفاً تبعاً لمقررات عدة منها درجة الدافع الجنسي، والرغبة الجنسية، وتوافر المثيرات لها، والتهيؤ الجسمي والنفسي لتقبل هذه المثيرات والاستجابة لها. كما يتقرر بمراحل العمر وطول الفترة الزمنية التي مضت منذ آخر انتصاب أو علاقة جنسية. واخيراً فهو يتقرر بالجواذب الجنسية المتوافرة في العلاقة القائمة، من حيث الشريك الجنسي والظروف التي تتم فيها العلاقة، ولاي واحد ان يبدي انتصاباً كاملاً ولمدة معقولة في وقت ما ومع شريك ما، وان يعجز عن ذلك كلياً او جزئياً في ممارسة جنسية ذاتية او مثلية او طبيعية وفي ظرف او اخر ومع شريك معين او اخر. ولهذا الواقع ان يدعو الى تغيير المفهوم الشائع عن مصطلح العنة.

واذا اخذنا جميع هذه العوامل بعين الاهتمام، فاننا نجد انواعاً ودرجات مختلفة من عطل الانتصاب والتي يمكن حصرها في ثلاث فئات متميزة: اولها، حالات العطل الكلي او شبه الكلي التي يعاني منها بعض الناس منذ بداية حياتهم الجنسية، وتعرف هذه الحالات بعطل الانتصاب الاساسي او (العنة الاساسية)، والمصاب بها تنقصه عادة الرغبة الجنسية، وهو لا يستطيع فض البكارة او المباشرة الزوجية او الجنسية. وهو لا يستطيع الاستمناء او العلاقة الجنسية المثلية. ومعظم المصابين بهذه الحالة يظل عجزهم على حاله طوال حياتهم على الرغم من العلاج والمثيرات الجنسية. ونسبة هؤلاء قليلة بين الناس، ففي دراسة كنزي على ٤١٠٨ رجل (١٩٤٨) وجد ٦٦ منهم فقط يعانون من هذه العلة او حوالى ١,٦٪. وقد تكون النسبة اعلى من ذلك لو كان بامكان المستبينة اراؤهم ان يتجاوزا شعورهم بالتنويهات المعنوية لهذا النقص. اما الفئة الثانية من حالات عطل الانتصاب، فهم اولئك الذين يعانون بشكل مستديم من ضعف في الانتصاب يحسونه بانفسهم او يحس به شريكهم الجنسي او انهم لا يستطيعون الاحتفاظ به طويلاً اثناء الولوج والمجامعة. وهذه الفئة ضئيلة نسبياً في سن الشباب، ولكنها تزداد نسبة مع مراحل العمر المتقدمة، وهي تقدر بـ ١,٣٪ في سن الـ ٣٥، و٦,٧٪ في سن الخمسين، و١٨,٤٪ في سن الستين و٢٧٪ في سن السبعين و٥٥٪ في سن الخامسة والسبعين. ومع ان من الواضح ان الوهن المصاحب لتقدم السن هو السبب في هذه الفوارق، الا انه قد تتوافر اسباب اخرى تساهم في هذا النوع من ضعف الانتصاب. اما الفئة الثالثة من فئات العطل في الانتصاب، فهي فئة واسعة ومتعددة الاسباب، غير انها تتحد كلها في شيء واحد، هو ان الفرد فيها يستطيع الحصول على انتصاب في تجربة جنسية معينة من ذاتية او مثلية او طبيعية، ولا يستطيعها في تجربة اخرى، او كأن يستطيع الانتصاب في العلاقة الجنسية المثلية ولا يستطيعها في

العلاقة الجنسية (المخالفة) الطبيعية مع الجنس الآخر، او ان الفرد قد يستطيع الانتصاب والولوج مع شخص دون غيره وفي ظرف او مكان او وضع دون غيرهما. مثال ذلك ان يكون قادراً على مجامعة مومس بانتصاب كامل، ولكنه لا يستطيع ذلك مع زوجته في ليلة الزفاف، او انه لا يستطيع الانتصاب في ظروف عرسه لما في هذه الظروف من عوامل النهي والقلق، ولكنه يستطيع ذلك بزوال هذه الظروف. كما انه قد يصد عن الرغبة الجنسية والانتصاب لاسباب ناهية تتعلق بشريكه الجنسي من ممانعة او حيض او غير ذلك من عوامل النهي، التي يمكن ان تحدث في تجربة المتزوجين حديثاً. ومثل هذه الحالات، خاصة الأخيرة منها، لا يمكن اعتبارها (عنة) بالمعنى الصحيح، وانما هي عطل ظرفي يكشف عن طبيعة الحياة الجنسية النفسية لاحد الشريكين او كليهما. ويقتضي لذلك محاذرة اعطاء وصف العنة بمعناها المطلق في مثل هذه الحالات.

ان هذه الفئات الثلاثة تمثل انماطاً مختلفة من عطل الانتصاب، ولهذا يقتضي على الباحث في هذا العطل ان يقدر ليس فقط درجة العطل، وانما مدتها الزمنية والظروف التي قامت او تقوم فيها. ومثل هذا البحث ضروري ليس فقط لتعيين الاسلوب العلاجي، وانما للمساعدة على فض النزاعات القانونية التي يمكن ان تنجم عن فشل الزوج في اتمام فعل المعاشرة الزوجية في البداية او بعدها.

لعل من الضروري في هذا المكان من البحث ان نؤكد اهمية العوامل النفسية في موضوع الانتصاب، وهو التأكيد الذي ورد في موضوع الحياة الجنسية بشكل عام في جميع مراحلها وادوارها واستجاباتها النفسية والجسمية. والتجارب والملاحظات المتواترة والمستقاة من المعانين لعطل الانتصاب بدرجة او اخرى، كلها تشير الى ورود عوامل نفسية في معظم حالات العطل، وخاصة حالات العطل الحادة والمفاجئة، كما ان اي درجة من العطل، ولأي سبب نفسي او جسمي، يمكن لها ان تتزايد وان تتعاظم بسبب ما يثيره العطل من قلق، وربما اكتئاب لصاحبه، وهذا الواقع يمكن له، ان استمر، ان يكون حلقة مفرغة او متزايدة الاتساع من العطل والقلق، وهي الحلقة التي يقتضي ايقاف دوراتها وقطع تلاحقها لتمكين المعاني من التخلص من معاناتها.

وفي معرض البحث في عطل الانتصاب، لا بد من الأشارة الى ان قوة الانتصاب لا تعني دائماً قوة الشهوة الجنسية والرغبة الجنسية، فالكثيرون من الناس يملكون هذه القدرة غير انها لا تقترن بالرغبة الجنسية، وربما لا تنتهي بالحصول على القذف والذروة واللذة. وهنالك ايضاً الحالات النادرة من الانتصاب المستمر (قساحة Priapism). وهي حالة من الأنتصاب المتواصل والمؤلم، ولكنه انتصاب مفرغ من المحتوى الجنسي، وهو ينجم عن اثارة بعض اجزاء الجهاز العصبي بشكل مزمن. واخيراً فانه يقتضي ان لا نغفل الانتصاب الذي يحدث احياناً مصاحباً (للنوم الحالم REM)Sleep)، والانتصاب الذي يحدث عند الاستفاقة من النوم. وهذان النوعان من الانتصاب يحدثان تلقائياً وبدون ضرورة توافر محتوى جنسي من الحلم او عند الاستيقاظ. والمهم في امرهما في هذا المجال من البحث، ان توقفهما او ضعف الانتصاب فيهما قد يكون فيه اشارة الى ضعف مماثل في قوة الانتصاب في حالة اليقظة، كما انه لا يمكن اتخاذ الانتصاب في

الاستحلام وعند الاستيقاظ دليلاً على تمتع الفرد بقوة مماثلة في حياته الجنسية الواعية. واخيراً فهنالك الحالات المرضية العديدة التي يمكن لها ان تضعف الانتصاب، ومن هذه الحالات الامراض التي تصيب الجسم بشكل عام واهمها عجز الكلي، والامراض الهرمونية، واهمها السكري وتشمع الكبد وعجز الغدد، وامراض الجهاز العصبي، خاصة التي تصيب النخاع الشوكي. والأمراض الموضعية التي تصيب العضو التناسلي او الأوعية الدموية، والمداخلات الجراحية خاصة استئصال غدة البروستات والمثانة. وقطع الاعصاب السمبثاوية، واستعمال العقاقير الطبية مثل المسكنات والمهدئات والمعقلات والمخدرات وعلاجات ضغط الدم وغيرها.

عطل القذف Dysfunction of Ejaculation

القذف هو المرحلة الثانية من مراحل الاستجابة الجنسية (او هو المرحلة الثالثة اذا عددنا بان مرحلة الربوة من الانتصاب هي المرحلة الثانية). وهذه المرحلة الفيزيولوجية هي مرحلة انعكاسية Reflex، وتتم تلقائياً عند الوصول الى نقطة معينة من الأثارة الجنسية. وهي تتألف من مرحلتين، المرحلة الاولى وهي مرحلة شعور الفرد بان القذف اصبح حتمياً Ejaculatory Inevitability. والمرحلة الثانية هي مرحلة القذف للمني خارج القضيب. والفرد اثناء العملية الجنسية يستطيع التحكم بالقذف حتى نقطة الوصول الى مرحلته الحتمية، غير انه بابتداء هذه المرحلة لا يستطيع ايقاف او تأجيل القذف. وان كان بامكانه ان يمنع حدوث القذف داخل الفرج في بعض الحالات، اذا ما كان انسحابه اسرع من انزاله. ولهذا الدور من الاستجابة الجنسية اهمية قصوى في العلاقات الجنسية، وهي اهمية لا تقل عن اهمية الانتصاب، ذلك ان المرحلة التي يتم فيها القذف تقرر الذروة بالنسبة للذكر، وتقرر امكانية حصول المرأة عليها، كما ان القذف يؤذن بانتهاء العلاقة الجنسية، ولهذا فان المرحلة الزمنية التي يتم فيها القذف خلال عملية الانتصاب والعلاقة الجنسية بالغة الأهمية بالنسبة للشريكين الجنسيين.

ان العطل او الاضطراب الذي يمكن ان يحدث في مرحلة القذف متعدد الانواع والاسباب. ومن اهم انواع الاضطراب هي ان يحدث القذف بدون انتصاب او بدون انتصاب كاف، او ان يحدث قبل اوانه، اي قبل الولوج او بعد فترة وجيزة منه، او ان لا يحدث القذف ابداً، او ان يحدث بمقادير شحيحة، او ان يحدث بدون ان يفرز الى مرحلتين من الشعور: الحتمية والفعلية، او ان يحدث بدون ان يصاحبه شعور بالحدث من حيث التوقع او الشعور بالذروة او اللذة. وجميع هذه الانماط من اضطراب القذف ترد في شكوى المرضى ويقتضي تعيينها والبحث في اسبابها. ونقتصر في بحثنا الحاضر على اهم انواع العطل فيها.

١ ـ القذف المبكر (السابق لاوانه) Premature Ejaculation

القذف المبكر هو القذف الذي يحدث في غير سياقه، او بأسرع مما هو مألوف(*). فقد

(*) يعرف ماسترز وجونسون القذف المبكر بانه الحالة التي تقوم عندما يصل الفرد الى ذروته في اكثر من ٥٠٪ من العلاقات الجنسية من شريكه. وتعرف هيلين كابلان بان القذف المبكر هي الحالة التي تنقص فيها السيطرة الارادية للفرد على القذف حال الوصول الى مستوى مرتفع من الأثارة الجنسية.

يحدث قبل الانتصاب او قبل اتمامه او قبل الولوج او حال الولوج او بعد فترة قصيره منه. وجميع هذه الحالات مألوفة، ومع ان بعض هذه الحالات تزدوج بعطل الانتصاب، الا انها كثيراً ما تحدث في اولئك الذين يتمتعون بمقدرة طبيعية او كافية من الانتصاب. وهذا النوع من عطل القذف كثير الوقوع بين الناس، ويكوِّن الفئة الاكبر من جميع حالات المعاناة من عدم الشعور بالاكتفاء الجنسي والتي قام بدراستها الدكتور شسر Chesser. وفي دراسة اخرى قام بها ماسترز وجونسون (١٩٧٠) على ٤٤٨ حالة من حالات العطل الجنسي تبين أن ١٨٦منهم، او ما يزيد على ثلثهم، كانوا يعانون من العطل المبكر للقذف. ولعل اكثر من تحدث فيهم هذه الحالة هم اولئك المتزوجون الجدد الذين تغلب رغبتهم الجامحة على مقدرتهم على تأجيل القذف. ومنهم المراهقون الذين يعانون من لهف وشبق لا يستطيعون التحكم فيه. وفي اولئك الذين يصعب انتصابهم او يقصر مداه فيستعجلون القذف. وهنالك اسباب عديدة يمكن ان تفسر حالة او اخرى من حالات عطل القذف التي اشرنا اليها، ومن هذه الاسباب تطبع الفرد منذ المراهقة على سرعة الاستجابة بالقذف. ومنهم من يحدث فيهم مثل هذا العطل بسبب ضعف الانتصاب او قلة الرغبة الجنسية، او بسبب تعودهم على نمط من الممارسة الجنسية لغرض التنفيس السريع عن شهوتهم الجنسية كما يحدث في الاستمناء او معاشرة المومس، او بضرورات الاسراع في العمل الجنسي في ظروف خاصة تتطلب ذلك، فاذا ما نقل الفرد علاقته الجنسية الى مجال طبيعي مشروع مع زوجته، وجد نفسه قد تعود سرعة لا يستطيع التحكم فيها.

ومن اسباب القذف المبكر ان الفرد في علاقاته الجنسية قد ينظر الى الجنس بمعناه الضيق، او انه واجب لا بد من ادائه لافراغ شهوته او للاخصاب والتكاثر. كما ان هنالك الذين لا يأبهون لتوقعات الانثى وحقها بالحصول على الرضا، وهم لذلك لا يمارسون اية محاولة للتوافق بين حاجاتهم وبين حاجاتها.

مع ان معظم حالات الاضطراب في القذف تحدث لاسباب نفسية، او لسبب تعوُّد الفرد منذ سن مبكر، او لأسباب ظرفية، وحتى دينية كالشعور بالأثم. فان هنالك بعض الحالات التي تنجم عن اسباب عضوية، ويوحي بهذه الاسباب حدوث العطل بشكل طارىء بعد ممارسة طبيعية. ومن هذه الاسباب العضوية امراض الجهاز العصبي والنخاع الشوكي بشكل خاص، او التشمع المنتشر. كما ان هنالك القليل من الحالات التي تصاحب الامراض الجسمية العامة. وهذه الحالات كلها تكون فئة قليلة من مجموع الحالات، وتظل العوامل النفسية خاصة ما يكون منها قلقاً وتهديداً للفرد، اهم العوامل المسببة واكثرها وروداً. ويجب ان لا يغفل في امر هذا العوامل النفسية طبيعة العلاقات التي تربط بين الشريكين في العمل الجنسي، فقد تفرض هذه العلاقة ضرورة الاسراع في القذف سواء كان ذلك تعبيراً عن الشعور بالعداء نحوها، او لعدم التوافق بينهما، او انه تعبير عن مراعاة رغبتها في التقصير من أمد العلاقة الجنسية الى اقصر حد لسبب او اخر يتعلق بنفسيتها او بحالتها الصحية العامة او الموضعية.

٢ ـ القذف المتأخر او المعدوم Retarded or Absent Ejaculation

هذا النوع من العطل اكثر ندرة من النوع السابق، ولكنه مع ذلك يكون عطلاً هاماً لسببين اساسيين، اولهما، لانه يحرم الفرد من الذروة او يؤخرها كثيراً، وثانيهما لأنه قد يحول دون القذف اللازم لعملية الأخصاب والانجاب. وهنالك نوعان رئيسان من انعدام القذف، احدهما اساسي وينشأ منذ بداية البلوغ، اما النوع الثاني فهو مستجد ويحدث لسبب او آخر، وهذا النوع الاخير اكثر حدوثاً من النوع الاول، وقد افاد كنزي في دراسته ان ٤ , ٠٪ من الذكور يعانون من انعدام القذف. بينما افاد ماسترز وجونسون بانهما مسجلا حالة فقط من انعدام القذف خلال ١١ سنة من العمل في عيادة العطل الجنسي(*). ومن اهم الاسباب التي تؤدي الى حالات انعدام القذف هي الاسباب النفسية، وخاصة تلك التي تنجم عن تجارب الطفولة، وما يمكن لها ان تسبب من نهي عن الامور الجنسية في شعور وعاطفة الحدث النامي. ومنها ايضاً التخوف من الحمل، وخاصة على اثر تجربة تسبب قلقاً عظيماً من هذا الاحتمال، وهي تجارب غير نادرة في حياة المراهقين. ومن الاسباب الاخرى المحدثة، استعمال بعض العقاقير المسكنة او المعقلة او المهدئة وغيرها مما يقلل او يعدم القذف كلياً. ومن حالات انعدام القذف، تلك الحالات التي تقع فقط لبعض الاشخاص في ظروف ومواقف خاصة. ولا تقع في ظروف ومواقف اخرى، مثال ذلك ان نسبة كبيرة من المغتصبين جنسياً لا يستطيعون القذف، كما ان بعض الناس لا يستطيعون ذلك مع شريك جنسي دون آخر، وفي ظروف من المعاشرة الجنسية دون اخرى، وجميع هذه الحالات يمكن تفسيرها على اساس من النهي النفسي والذي يفرض نفسه في موقف دون آخر، ويضاف الى الاسباب النفسية المعطلة للقذف العديد من الاسباب العضوية وهي مماثلة للاسباب العضوية المعطلة للانتصاب. وهنالك ايضاً امر تطبع الفرد على نظرة ناهية عن الامور الجنسية. ولهذا التطبع ان يؤثر في اي دور من ادوار الاستجابة الجنسية او كلها. واخيراً فان هنالك طبيعة العلاقة التي تربط بين الرجل وشريكه الجنسي، وهي علاقة قد تكون معقدة وغير متوافقة مما قد ينهي عن اتمامها بالشكل الطبيعي بما في ذلك القذف. او ان يكون الرجل غير راغب في الانجاب لسبب ما. وهنالك حالات انعدام القذف والتي يشعر الفرد فيها بانه قذف السائل غير انه لا يندفع الى الخارج بسبب رجوعه الى الوراء Retrograde Ejaculation، فيتقهقر المني الى المثانة بدلاً من العبور الى الأحليل، واسباب هذه الحالة عضوية في معظم الحالات وتشمل هذه جميع الامراض او المداخلات الجراحية التي تخل بسيطرة الاعصاب السمبثاوية على العاصرة الداخلية للمثانة، واكثر ما يقع ذلك في عمليات استئصال البروستات وعمليات المثانة وحوادث الشدة والكسور في الحوض. وهنالك غير هذه الاسباب ما هو معروف عن مقدرة بعض الافراد على السيطرة على قذفهم ومنعه وتجميعه، وبعض ذلك القذف يجد

(*) هنالك بعض الاحصائيات التي تبين بان وقوع حالات انعدام او تأخر القذف هي اكثر من ذلك بكثير، ومن هذه الاحصائيات دراسات كابلان ١٩٧٤ واوكونر Óconnor (١٩٧٦) وجبوا Geboes (١٩٧٥)، والتي تفيد بان حوالى ١٥٪ من الذين يشكون من عطل جنسي يعانون من هذا النوع من العطل.

طريقه الى المثانة، الحالات المسماة (بالجماع الاحتفاظي Coitus Reservatus). ومن المتواتر في هذا الموضوع ان الاحتفاظ بالسائل المنوي كان اسلوباً مستعملاً لمنع الحمل (الأخصاب) لعدة قرون. وهنالك ما يروى عن متصوفي اليوجا الذين يعتقدون أن سائل المني يشحذ العقل، فهم لذلك قد دربوا انفسهم على السيطرة على مجراه وتحويله الى المثانة بدلاً من صرفه وهدره في خارج الجسم وذلك لغرض الابقاء على حيويتهم العقلية ومدها بالطاقة.

عطل الذروة

تكون الذروة المرحلة النهائية من مراحل التدرج في الاستجابة الجنسية وهذه المرحلة تتوافق زمنياً مع مرحلة القذف، وتصاحبه الى درجة يصعب او يتعذر التفريق بينهما. ويمكن النظر الى القذف على انه المرحلة النهائية للاستجابة الفيزيولوجية الجنسية، وان الذروة هي الوجه الشعوري او النفسي لهذه الاستجابة. والذروة تأتي بشعور يصفه الفرد بانه قمة الشعور باللذة او اعلى درجاتها. ومع ان هنالك من لا يفرق بين القذف والذروة بسبب تلازمهما الزمني، الا ان القذف قد يحدث احياناً بدون الوصول الى الذروة، كما ان الذروة يمكن لها ان تحدث بدون اي دليل على حصول القذف. ومما يسوغ ضرورة التفريق بين الذروة والقذف هو ان الجمع بينهما في مرحلة واحدة من مراحل الاستجابة الجنسية لا يحدث الا في الذكور، بينما الذروة في المرأة تكون دوراً متميزاً لا يقترن بأي افرازات خاصة. واذا امكن تمييز العمليتين المتداخلتين، القذف والذروة، الواحدة عن الاخرى، فانا نجد ان محتوى عملية الذروة هو محتوى نفسي، ويتكون من توقع لذة عظيمة، وتصاعد هذا التوقع الى حد الوصول الى الذروة، وعندها يشعر الفرد بانه اتحد مع شريكه في صورة جسم وشعور واحد، ويصاحب هذا الشعور شعور كامل بالتحرر او الوصول. اما الجانب المادي من الذروة فهو ما سبق بيانه في مرحلة القذف بجزأيها، الحتمي والفعلي. وقد يعرض السؤال اي العمليتين هي الأولى، او الاساس، القذف ام الذروة؟ وهو سؤال لا يمكن الاجابة عليه الا بالقول بان المصادر المحركة للعمليتين واحدة، وبانهما يتحققان في فترة زمنية واحدة ومتداخلة. وهكذا فان من الأوفق جعل العمليتين مجرد وجهين مختلفين. نفسي شعوري، وجسمي مادي، لمرحلة واحدة من مراحل الاستجابة الجنسية. واذا اخذنا بهذا الرأي فان لنا ان نتوقع أن العطل في وجه واحد من هذه العملية يمثل عطلاً في الوجه الاخر في الغالبية العظمى من الحالات، غير ان هنالك بعض حالات العطل التي يحدث فيها ان الذروة قد تحدث بدون قذف خارجي او رجوعي الى الداخل، سواء كان السبب مرضياً او احترازياً تجنباً للحمل، او احتفاظياً بالمني كطاقة عقلية. كما ان من الممكن ان يحدث القذف بدون شعور الفرد بالذروة ولا حتى الشعور بتوقعها، وهذا يحدث في بعض الناس الذين ضعفت شهوتهم الجنسية من الاساس او لسبب مرضي، وقد يحدث ايضاً عند بعض المتزمتين في نظرتهم الى الامور الجنسية، وللذين يعتقدون بأن الغاية من العلاقة الجنسية هي غاية طبيعية تتحدد في الاخصاب والانجاب، وهم لذلك يرون في الشعور باللذة في الجماع وفي ذروة هذه اللذة امراً «آثماً». ومن هذا المنطق، فهم يطبعون انفسهم على شعور ينهي عن التحسس باللذة، ومثل ذلك يمكن ان يحدث في بعض العلاقات الجنسية المشروعة وغير المشروعة، والتي يكون فيها هم الرجل اما

الاخصاب او ارضاء الطرف الاخر، او مجرد تفريغ شحنة الضيق والتوتر، وفي مثل هذه الحالات يتم القذف بدون اكتمال الشعور بذروة المتعة، ومثل هذا يحدث احياناً في الذين يمارسون الاستمناء بالحاح كوسيلة للتخلص من حالة التوتر الجنسي الشديد الذي يعانيه المستمني.

تعقيدات العنة (العطل الجنسي)

بالنظر للدور الاساسي الذي تحتله العلاقة الجنسية في الحياة الانسانية، فان من الطبيعي ان يكون النقص او العطل في هذه العلاقة سبباً في اثارة الكثير من المشاكل والتعقيدات، وما قد ينجم عنها من نتائج ليس اقلها المعاناة النفسية لصاحبها او لشريكه الجنسي او كليهما. وقد يكون من الصعب حصر هذه التعقيدات ونتائجها، وهي فوق ذلك تختلف نوعاً ودرجة عند فرد واخر تبعاً لشخصية الفرد والاهمية التي تحتلها النواحي الجنسية في حياته، وتبعاً لمتطلبات وتوقعات الطرف الآخر في العلاقة الجنسية وطبيعة العلاقة التي تربط الفرد بشريكه الجنسي. ونحن اذا اخذنا جميع هذه الامور بعين الاهتمام وجدنا أن للعطل الجنسي من نوع او آخر، او من درجة او اخرى، نتائج عديدة في مجالات مختلفة، منها ما هو طبي مرضي خاصة في مجال الأمراض النفسية، ومنها ما هو سلوكي، ومنها ما هو اجتماعي، ومنها ما يقع في مجال القانون والقضاء. وفيما يلي نتناول هذه النتائج باختصار.

النتائج النفسية

ان حاجة الانسان للحياة الجنسية، بما يصاحب ذلك من لذة او متعة هي حاجة طبيعية، وسواء كانت هذه الحاجة مقدرة لاغراض التكاثر وحفظ الجنس، او انها هبة الخالق لمتعة الانسان في الحياة، او انها وجدت، ولو بقدر منها، لغايات اجتماعية وحضارية، فان النتيجة واحدة من حيث الضرورة والاهمية التي لا يمكن التعويض عنها بشكل تام ودائم. ومع ان هنالك الكثيرين من الناس ممن خبت او انعدمت جذوتهم الجنسية من رغبة اواستجابة،والذين لا يشعرون بأي فقدان لما لا يملكونه من دافع جنسي، الا ان من الخطأ ان نفترض أن انعدام الرغبة الجنسية ومظاهرها في حياتهم هو انعدام في الاصول. فقد يكون هنالك من الطاقة الجنسية ما يتعذر ظهوره،ويبقى لذلك محبوساً خافياً ولكن له ان يظهر ويتحول الى نشاطات اخرى يعبر فيها عن وجوده وقوته سواء كان ذلك بالسلوك او الفكر او الابداع.

ان هنالك الكثيرين من الناس ممن يدركون ان لديهم عجزاً او ضعفاً في مظهر او آخر من مظاهر حياتهم الجنسية، وغير قليل من هؤلاء يعيش حياته الجنسية عن طريق اقامة توازن يوفق بين حاجاته وامكانياته، والكثيرون ينجحون في ذلك بدون معاناة نفسية لما يتحسسون به من ضعف او قصور، غير ان هنالك من لا يستطيع هذا التوفيق، فتظل حاجاتهم اكثر الحاحاً من امكانية ارضائها، ويكون فشلهم بالتالي اكثر وقوعاً. وهؤلاء هم الذين يعانون من الآثار النفسية لعجزهم الجنسي، وهي آثار لا تنجم عن فقدان او قلة الارضاء الجنسي لانفسهم فقط، وانما تنجم ايضاً عن فشلهم في اعطاء هذا الارضاء لشريكهم الجنسي، اضافة الى امكانية

الفشل في احداث الاخصاب والانجاب. والنتائج المألوفة في المجال النفسي بسبب هذه النواحي من الفشل هي حالات القلق والتوتر والانفعال والاكتئاب، وهي حالات تبلغ احياناً حدوداً مرضية حادة وخطيرة. وليس من النادر ان نسمع او ندرك تنويهاً بالرغبة في الانتحار او تفضيل الموت على الحياة اذا ما استدام واقع الفشل. ولمثل هذه الحالات من الانفعال النفسي ان تزيد في العطل الجنسي، مما يزيد في تعقيد الامر جنسياً ونفسياً.

ان حالات الضيق والفشل النفسي التي قد يشعر بها الفرد في حياته الجنسية تتحول في بعض الافراد الى مجالات اخرى انتاجية او خلاقة او ابداعية او اجتماعية، وهذا التحويل يعوض صاحبه ويرضيه ولو الى حين، غير ان مثل هذه الامكانية لا تتوافر لجميع المعانين من الضعف. كما انها لا تتوافر بشكل دائم او تام لجميع اولئك الذين يملكون المقدرة والموهبة على هذا التحويل. والذي يلاحظ في أمرهم، هو عودة مظاهر الحدة النفسية بشكل او آخر عند توقفهم عن عملية التحويل لسبب ما، ومن الممكن في مثل هؤلاء ان تكون النتائج النفسية لعملية التوقف اكثر حدة وتسبيباً للمعاناة.

النتائج السلوكية

الحياة الجنسية للانسان تعتمد على طاقة بايولوجية كغيرها من الطاقات البايولوجية التي تحرك حياة الانسان وتغذي وتوجه نشاطاته. ولنا ان نفترض من طبيعة اية طاقة ومن واقع الملاحظة، أن التصريف الطبيعي لهذه الطاقة ضروري لاقامة التوازن البايولوجي الكامل في حياة الفرد، وان حبس هذه الطاقة او اعتراض تصريفها او اساءة تصريفها من شأنه ان يؤدي الى الاخلال في هذا التوازن البايولوجي. وهو الأخلال الذي لا بد له ان ينعكس في سلوك الفرد بوصفه كائناً متعاملاً ومتفاعلاً مع محيطه. ومع أن الكثيرين من الذين يعانون من ضعف جنسي او فشل جنسي بسبب هذا الضعف يستطيعون امتصاص المحبوس من طاقاتهم الجنسية بنشاطات سلوكية ايجابية وبناءة وخلاقة ومسالمة، الا ان بعضهم لا يستطيع مثل ذلك، مما يحول الطاقة المحبوسة او المعطلة الى مظاهر سلوكية تتسم بالضعف او القسوة على النفس او على الغير او على الاشياء، او ان تتجه نحو ممارسات منحرفة او شاذة في المجال الجنسي. ومما تجدر الاشارة اليه هو التجاور القريب في نواة الهايبوثالموس بين مراكز الدافع الجنسي ومراكز العنف، مما يعطي مسوغاً للأستنتاج بوجود علاقة بايولوجية جذرية بين طاقة الجنس وطاقة العنف. وما لذلك ان يؤدي اليه من امكانية تحويل طاقة الواحد لخدمة واغراض الطاقة الاخرى. وهنالك ما يكفي من الادلة على ان الفشل في تحقيق الطاقة الجنسية في بعض الناس يؤدي الى مظاهر سلوكية عنيفة في مجال العلاقات الشخصية، والاجتماعية والتعامل مع الناس والحياة، كما ان هنالك حالات كثيرة من السلوك العنيف الذي يتجه نحو الايذاء والاجرام، سواء اقترن هذا الاجرام بالممارسات الجنسية او لم يقترن. وتدلل الدراسات الاحصائية على ان نسبة وقوع العطل الجنسي في الذين يرتكبون السلوك الاجرامي هي اعلى من المعتاد، كما ان نسبة العاطلين جنسياً بين الذين يقومون بمخالفات اجرامية جنسية هي نسبة عالية ايضاً، وهذه النسب العالية لا تفيد

بالضرورة بوجود دافع جنسي قوي، بقدر ما تفيد بعجز صاحبه عن تحقيقه بالشكل الطبيعي بنتيجة العطل في مجال اوآخر، وبالتالي تحويل هذا التعبير الى مجال العنف. واخيراً، فان المجال السلوكي الاكثر وضوحاً في حالات العطل الجنسي هو مجال الابتعاد او التنويع او الانحراف او الشذوذ الجنسي. ومع ان جميع هذه الدرجات من السلوك الجنسي لا تدلل بالضرورة على وجود عجز او عطل جنسي، الا ان الكثير من هذه الحالات تنجم عن شعور الفرد بالعطل في ناحية او اخرى من حياته الجنسية مما يدفعه الى الاتجاه نحو سلوك جنسي مغاير كوسيلة للتعويض عن نقصه. وقد تبين في دراسة العديد من الذين يمارسون الجنس على صور غير مألوفة او متوقعة، أن بعضهم يعاني من عطل جنسي، غير انه يقتضي في كل حالة بيان ايهما اسبق في البدء، العطل الجنسي او الأنحراف في تحقيق الرغبة الجنسية. هذا وقد لوحظ علاجياً ان بعض الذين يعانون من عطل جنسي وانحراف، فان عطلهم الجنسي يزول عند شفاء انحرافهم في السلوك الجنسي.

النتائج الاجتماعية

ان النتائج الاجتماعية السلبية التي يمكن ان تحدث بسبب العطل الجنسي عديدة وهي تنبع من امكانية اتجاه سلوك المعانين للعطل نحو مسالك مؤذية او معادية للمجتمع كما اوضحنا في الفقرة السابقة. غير ان هنالك نتائج اخرى وهي تتعلق بصميم الحياة الاجتماعية وخاصة ضمن العلاقات الشخصية والعائلية. فالعطل الجنسي لا بد له ان يخلق عند الكثيرين حالة من عدم التوافق في العلائق الجنسية، ولهذا ان يؤدي الى تعقيد كبير في العلاقات ربما لا يمكن تجنبه او تفاديه. فالعلاقة الجنسية بين شريكين تفترض قيام التوافق بينهما ليس في الرغبة فقط، بل في نتيجة القناعة والرضا والاكتفاء، وفشل الرجل في اعطاء هذا الشعور لشريكه في العلاقة الجنسية من شأنه ان يخلق حالة من المعاناة النفسية لا تقل عن شعوره هو بهذا الاخفاق. ومن شأن ذلك ان يؤدي الى اضرار صحية جسمية ونفسية في الانثى، كما انه يدفع في بعض الحالات الى ما يسيء للعلاقة بينهما او الى التفريق او انهاء الرابطة الزوجية بالطلاق.

النتائج القانونية

ان المواقف القانونية لا بد من الوصول اليها في الكثير من حالات العطل الجنسي، وخاصة في حالات العطل التي تصرف الرجل عن الاتصال الجنسي كلياً، او لا تمكنه من اتمام العلاقة الجنسية بصورة يقبل بها الطرف الاخر. ومعظم النواحي القانونية المتعلقة بالعطل الجنسي تتركز على العلاقة الزوجية. ويمكن تجزئة هذه العلاقة الى مرحلتين زمنيين. المرحلة الاولى بداية الزواج، والثانية ما يلي هذه المرحلة من معاشرة زوجية. فالمرحلة الاولى تتطلب اتمام الزواج بفض البكارة والولوج، اما المرحلة الثانية فتقتضي من الرجل ان يكون قادراً على الولوج بتكرار معقول. ووجهة نظر القانون عادلة اذا كانت تبيح للانثى المتزوجة حق الافتراق عن زوجها اذا ما فشل في اكمال المتطلبات الاساسية للزواج خاصة في المرحلة الاولى، والى درجة تقل من الاباحة في المرحلة التالية. والاعتبارات الهامة في هذا الامر، تقضي بتعريف الفشل

وبيان اسبابه والمدة الزمنية الكافيةللتأكد من وجوده. والبحث في هذه الاعتبارات هو من اصعب وادق الامور التي يعانيها الطب في تعامله مع القانون. ان الذي يحدث عادة هو ان يحال الرجل الى الفحص الطبي لاثبات مقدرته او عنته، واحالة القضاء للرجل دون الانثى يحمل في طياته الاعتقاد عند المشرعين للقانون أن الرجل هو مفتاح الحياة الجنسية وان عليه اثبات المقدرة الجنسية. ومثل هذا الاعتقاد خطأ لغوي وفعلي. فالعنة لا تنطبق على الرجل فقط وانما على المرأة ايضاً، وقد تكون المرأة (عنينة) كما هو الحال في الرجل، ولهذا يقتضي التثبت من حالة الأثنين، فالانثى عند زواجها ربما لا تميل الى المعاشرة الزوجية وقد تخشاها او تعافها الى حد يجعل من المتعذر على الزوج اتمام العلاقة الزوجية. وعلى افتراض تهيوء الزوجة وتقبلها وعدم ممانعتها لمرامي الزوج، فان فشل الزوج في بداية الزواج في اتمام الزواج، ربما لا يكون دليلاً على الضعف الجنسي، سواء بدا هذا الضعف او لم يبدُ عند محاولة التماس. وكما نستطيع استبيانه من الممارسة الطبية، فان نسبة غير قليلة من الرجال يفشلون في اتمام الزواج في اول ايامه، وقد يمتد هذا الفشل اياماً واسابيع طويلة، مع انهم لم يعانوا مسبقاً من ضعف جنسي او عطل في الانتصاب. وقد يكون مرد فشلهم الحالي ناشئاً عما يساورهم من القلق الناشيء عن تحسبهم من انهم ربما لا يستطيعون اثابت رجولتهم منذ البداية، ويساعد في تكوين هذا القلق بعض مراسيم الزواج التقليدية والتي تشمل انتظار البرهان، وهي المراسيم التي من شأنها ان تؤجل من اتمام الزواج الى حين تمكن الزوج من التحكم بقلقه او بالظروف المثيرة له. وقد ينشأ الفشل من ممانعة الزوجة او توافق الحيض مع بداية الزواج او لاسباب اخرى صادرة عن العلاقة بينهما. وللفشل في البداية مهما كان سببه ان يضع اساساً يسهل معاودة الفشل، خاصة اذا ما الح الرجل في محاولاته اتمام الزواج، وهو الألحاح الذي له ان ينهك قواه النفسية واستجاباته الجنسية البايولوجية، وان يؤجل بالتالي من امكانية نجاحه في اتمام المراسيم الزوجية. وقد يستمر هذا التأجيل اياماً واسابيع وشهوراً على الرغم من عدم المعاناة السابقة للزوج من أي عطل جنسي، وعلى الرغم من ان الزوج يبدي انتصاباً كاملاً قبل التماس مع زوجته او يمارس الاستمناء او اي علاقة جنسية اخرى بنجاح.

ان مطالبة الزوج باثبات مقدرته الجنسية من عدمهاكدليل على حقه في الابقاء على علائقه الزوجية يصطدم بواقع تعذر اثبات ذلك بوسيلة علمية طبية. فالعلاقة الزوجية الجنسية ما زالت سراً بين الزوجين، ومع ان بالامكان رصدها، كما جرى ذلك في رصد العلاقات الجنسية لاغراض دراسية. الا ان ذلك لم يمتد بعد الى مجال العلاقة الزوجية لغرض اثبات العطل او نفيه. وحتى لو امكن اثبات توافر الانتصاب القوي في الزوج، فان ذلك لا يؤكد بالضرورة كون الانتصاب كافياً لاتمام العلاقة الزوجية، فقد يحدث العطل عند التماس لسبب او آخر يعود لاي من الشريكين في المعاشرة الزوجية. وهكذا فان القانون بتحميله الرجل مسؤولية الاثبات لرجولته يغفل ما يمكن ان تتحمله (الزوجة) من مسؤولية عن عجز الرجل عن هذا الاثبات، وعلى ذلك فان تبين حقيقة ما يحدث لا يمكن الوصول اليها الا عن طريق الافادة الصريحة الصادقة والكاملة لما يحدث من وجهة نظر الزوجين، والوصول الى ذلك قد يكون صعباً في الكثير

من الحالات والوسيلة الوحيدة التي يمكن فيها للقانون أن يتجاوز هذا التعذر في اثبات ما حدث وتعيين المسؤولية فيه ، هي فقط في الانتظار فترة زمنية كافية تمكن الزوجين من تجاوز التعقيدات النفسية والاجتماعية التي ربما نهت عن اتمام العمل الجنسي . وفي تقرير هذه الفترة توجد اجتهادات عدة ، غير ان اهم ما في الموقف هو مدى الرابطة التي تربط الزوجين ، وقد تكون هذه الرابطة من القوة بحيث تحمل الطرفين على الانتظار حتى لسنوات طويلة لاتمام العلاقة الزوجية ، غير انها رابطة قد تكون من الضعف إلى درجة لا تسمح بالتأجيل لتجاوز التعقيدات الطبية الممكنة في العلاقة بين الرجل والمرأة . وكلما ادركت هذه الحقائق ، وكلما نظر إلى الزواج بوصفه رابطة متكافئة تقوم على أساس الاتفاق والتوافق ، كلما كانت هنالك امكانية أعظم في تجاوز التعقيدات التي تنجم عن الفشل في تكوين هذه الرابطة . وسقع عبء هذا التجاوز على امكانيات الشريكين وارادتها معاً . وسيكون من شأن ذلك ان يقلل إلى حد بعيد من الحاجة إلى القانون لمحاولة اثبات ما لا يمكن اثباته بسهولة .

انتشار العطل الجنسي :

يتعذر إعطاء احصائيات موثوقة عن نسبة وقوع وانتشار حالات العطل الجنسي في أي مجتمع ، بما في ذلك المجتمعات المعاصرة المتقدمة والتي توفر احصائيات في مختلف المواضيع الطبية ، وصعوبة الحصول على بينات صحيحة يعود في بعضه إلى أن الكثيرين من الناس لا يقبلون على الاستشارات الطبية لعطلهم الجنسي ، ثم ان كثيرين آخرين لا يتمتعون بمعرفة كافية في النواحي الجنسية مما يجعلهم غير قادرين على التفريق بين الأداء الجنسي الطبيعي وبين عطل الأداء بدرجاته وأشكاله المختلفة ، وقد اتضح من دراسة قام بها (فرانك ومشاركوه) عام (Frank etal) (١٩٧٨) على ١٠٠ زوج من الذكور والإناث من المتزوجين والمتمتعين بحياة زوجية سعيدة ، وكلهم من المثقفين ـ النتائج التالية :

(١) ٤٠ في المئة من الذكور أفادوا بحدوث عطل عندهم في الانتصاب أو القذف في وقت ما في حياتهم الجنسية .

(٢) ٦٣ في المئة من الإناث أفدن بحدوث عطل في الاستشارة الجنسية ، أو عطل في الذروة في وقت ما في حياتهن.

(٣) ٥٠ في المئة من الذكور و ٧٧ في المئة من الاناث أفادوا إلى ما سبق معاناتهم لمشاكل جنسية بما في ذلك فقدان الرغبة الجنسية أو عدم المقدرة على الاسترخاء .

وفي دراسة ثانية قام بها ناثان (١٩٨٦) (Nathan) والتي راجع وحلل فيها ٢٦ دراسة استبيانية حول انتشار مختلف حالات العطل الجنسي في المجتمع بصورة عامة ، وقد خلص الباحث إلى الاحصائيات التالية حول نسبة وقوع حالات العطل الجنسية المختلفة

عطل الذروة الجنسية للأنثى	٥ ـ ٣٠ في المئة من الإنـاث
عطل الذروة الجنسية للذكر	٥ في المئة من الذكـور
القذف المبكر (عند الذكور)	٣٥ في المئـــة
عطل الانتصاب (عند الذكور)	١٠ ـ ٢٠ في المئة
اضطراب قلة النشاط للرغبة الجنسية :	
عند الذكور	١ ـ ١٥ في المئة
عند الاناث	١ ـ ٣٥ في المئة

وهذه الدراسات تبين بوضوح حجم حالات العطل والاضطراب في الحياة الجنسية ، ومع ان هذه البينات لا تنطبق بالضرورة على جميع المجتمعات ، فإن هناك ملاحظات عديدة تشير إلى وفرة حالات العطل الجنسي بأنواعها المختلفة في كلا الجنسين في مختلف المجتمعات بما فيها مجتمعاتنا.(والتي ما زال من الصعب الحصول على بينات دقيقة حولها) .

وهكذا فسيظل من الصعب التوصل إلى تقدير واقعي لمدى وقوع وانتشار حالات الانحراف الجنسي في أي مجتمع . ويزيد في الصعوبة أن حالات الإنحراف تتفاوت في درجاتها ، كما تتفاوت في نسبة ممارستها بين جيل وجيلٍ ، مما يصعب تحديدها بصورة دقيقة وثابتة . ومع هذه الصعوبة إلاّ ان هناك انطباعاً عاماً بأن وقوع وانتشار حالات الانحراف الجنسي هي في تزايد مستمر عاماً بعد عام ، وفي كافة المجتمعات ، يبدو للباحثين في هذا الموضوع بأن معظم الناس ، إن لم يكن جلهم ، أما يعانون ، أو لا بد أنهم سيعانون من درجة ما من الإنحراف في سلوكهم الجنسي ، وإلى حد يمكن فيه القوم بأن عبور القرد لحياته كلها بدون فعل إنحرافي أو خيال انحرافي في المجال الجنسي إنما يمثل انحرافاً في حد ذاته . وفيما يلي نورد نتائج دراسة احصائية تمثل نسبة وقوع أهم الإنحرافات الجنسية في أولئك الذين يراجعون العيادات الطبية الخارجية للمعالجة من حالات انحرافهم . غير أن هذه الدراسة الاحصائية لا تمثل في أي حال من الأحوال الواقع

الحقيقي ، وذلك أن معظم المنحرفين يظلون متكتمين على إنحرافهم خشية التشهير أو العقاب ، أو بسبب قناعتهم وراحتهم من أنحرافاتهم الجنسية :

الإنحراف الجنسي	النسبة التقريبية للإنحراف في المئة	معدل تكرار الإنحراف في المنحرف
الغلمانية	٤٥	٥
الإستعراضية	٢٥	٢٠
السادية الجنسية	٣	٣
المازوخية الجنسية	٣	٣٦
الإستراقية	١٢	١٧
الفتشة	٢	٣
القشية التلبسية	٣	٢٥
الحيوانية	١	٢
التحرشية	٦	٣٠

ويتضح من هذه الدراسة الإحصائية أن الغلمانية هي اكثر الإنحرافات الجنسية وقوعاً من بين الإنحرافات الجنسية ، ويليها في ذلك الإستعراضية ثم الإستراقية ، أما أكثرها تكراراً فهي المازوخية الجنسية ، وتليها التحرشية ، ثم الفتشة التلبيسة .

التفريق بين العنة العضوية والعنة الوظيفية (النفسية)

العنة العضوية ، كما سبق واوضحنا في فقرات سابقة هي حالة العطل الجنسي (خاصة الانتصاب) والتي تتألق نتيجة لاضطراب عضوي إما مرتبط بآفات مرضية أو بتناول مواد وعقاقير لها ان تحدث عطلاً جنسياً ، أما العنة الوظيفية ، فهي العنة التي لا تظهر مثل هذا الارتباط باضطرابات عضوية ، وانها تتأتى عن عوامل نفسية ظاهرة أو خفية وتحتاج إلى ايضاح . والتفريق بين النوعين من العطل قد يكون صعباً في بعض الحالات ، وفيما يلي بعض العوامل والطرق المفرقة بين النوعين من العطل :

أولاً : ظهور العطل على أثر الاصابة بحالة عضوية سواء كانت الحالة مرضية أو مرتبطة بتعاطي المواد والعقاقير فإنها تدل على ان الحالة الجنسية عضوية في الغالب ، خاصة إذا كانت الحالة الجنسية طبيعية ونشطة قبل التعرض . . أما إذا كان العطل مرتبطاً باضطراب نفسي أو عقلي . . وكان المعاني للعطل في حالة جنسية طبيعية ونشطة قبل ذلك ، فإن

لذلك أن يؤيد تشخيص العطل بأنه وظيفي (نفسي) .

ثانياً : إذا كـان العطل الحـادث مـستديماً وعلى درجة ثابتة تقريباً من العوق ، فإنه في الغالب أن يكون عطلاً عـضـوياً ، أمـا إذا كـان العطل غير مـستديم على درجة ثابتة ويظهر تراوحاً واسـعـاً بين حين وآخر وبين موقف وآخر ، فإنه في الغالب يؤشر إلى أساس نفسي.

ثالثاً : هناك تقنيـات مـعينة لها ان تفرق بين النوعين من العنة ، وأهم هذه التقنيات واوسعها استعمالاً هي تقنية قـيـاس توتر القـضيب اثناء فترات حركة العينيين السريعة (فترات النوم الحـالمـة) أثـناء النوم ، والمعـروف هو أن الذين يعـانون من عطل جنسي عـضـوي لا يحدث عـنـدهم توتر قـضـيـبي أثناء هذه الفترات على خـلاف المصـابين بعطل جنسي نفسي والذين يـظـهـرون تـوتراً خـلال هذه الفترات ، ومع أن بعض المعـانين لاضطربات نفـسـيـة لهم أن يظهروا انخـفـاضـاً في التـوتر أثناء هذه الفترات الحـالمة ، كما ان لبعض المعانين لاضطربات عـضـوية أن يظهـروا بعض التـوتر أثناء هذه الفترات ، إلاّ أن هذه التقنية هي طريقة موثوقة وصـالحة للتفريق في حدود تقع بين ٨٥ و ٩٠ في المئة من الحالات.

رابعاً ومن التقنيات الحديثة المستعملة : .

١ ـ تـقـنـيـة قـيـاس ضـغـط الدم في القـضـيـب وذلك باسـتـعمال مـقـيـاس فـوق الصـوت (التراساوند).

٢ ـ فحص تحمل الكلوكوز في الدم

٣ ـ فحوص هرمونية.

٤ ـ فـحـوص وظائف الكبد والدرقية ، وبرولاكتين.

الفصل الخامس عشر

الانحرافات الجنسية

* التنوع الجنسي :
* أسباب الانحراف الجنسي

ضرورة الارضـاء الجنسي ، التنوع والاكتشاف ، التعلم والتطبع

توقف النمو الجنسي ، ثنائية الجنس ، الانحراف والكراهية

* أنواع الإنحراف الجنسي :

الانحرافات في الهدف ، الانحرافات في الموضوع ، الانحرافات في الدور

* انتشار الانحراف
* انحرافات الهدف :

الاستعراضية ، الفتشية ، التبصصية ، التلبسية ، التحرشية

* الانحرافات الشراكة :

الغلمانية ، الكهولية ، الجثمانية ، الحيوانية

* انحرافات الهوية
* انحرافات الاسلوب
* الاغتصاب
* القرابية المحرمة
* انحرافات جنسية أخرى :
* علاج الانحراف الجنسي
* مصير حالات الانحراف الجنسي

الانحرافات الجنسية

(الشذوذ الجنسي، الانحراف الجنسي، الاقليات الجنسية)

ان البحث في موضوع الانحراف الجنسي يقوم على اساس الافتراض أن هنالك نمطاً معيناً من الحياة الجنسية للفرد من الجنسين، وان هذا النمط يتحدد بالعلاقة الجنسية البايولوجية بينهما، وبالطريقة التي تضمن تحقيق هذه العلاقة. ومع ان النمط الغالب لهذه الحياة يضمن تحقيق هذه العلاقة على ضروراتها البايولوجية، الا ان هنالك من انماط الحياة الجنسية ما يبتعد عن المألوف، او ما يعدّ بالتالي منحرفاً من هذه الحياة. هذا وما من احد يعلم متى وعلى أي صورة في تاريخ الانسان بدأ ابتعاد الانسان عن انماط الممارسة الجنسية البايولوجية، ولا الاسباب التي دفعته الى هذا الابتعاد. ولما كانت بعض مظاهر الانحراف الجنسي قد لوحظت في الحياة الجنسية لبعض الحيوانات، فان لنا ان نفترض أن ما في الانسان منها قد يتقرر باسباب بايولوجية. غير ان تنوع وتعدد هذه الانحرافات في الانسان وانتشارها بصورة اوضح في مجتمعات وفترات تاريخية معينة، يحمل على الأعتقاد ان للانحرافات الجنسية في الانسان اسباباً محيطية وحضارية تؤثر في الواقع البايولوجي للحياة الجنسية وتتفاعل معه.

لقد اعتبر المبتعد في سلوكه الجنسي عما هو مألوف ومتعارف عليه انه شاذ جنسياً. وقد حمّل هذا التعبير بدلالات ومعانٍ ممنوعة او محرمة، وعومل صاحبها بما يستوجبه تجاوز الممنوع او المحرم من عقاب او نبذ. غير ان خروج اعداد كبيرة من الناس عن النمط المألوف في ممارستهم الجنسية عبر عصور التاريخ المتعاقبة، بما في ذلك العصر الحالي، قد أدى الى التقليل من مواقف المجتمع الصارمة على مثل هذا التجاوز، الا ان الحضارات المختلفة لم تفرط كثيراً من مواقفها التقليدية باستهجان هذه الانحرافات، وان اقترن ذلك بتفهم لمثل هذه الظاهرة واسبابها في الفرد الواحد،

وهو تفهم جاء بنتيجة التقدم العلمي والنفسي في المئة سنة الاخيرة من عصرنا الحالي.

* *

لقد كان من نتائج التقدم في فهم الابتعاد عن النمط الجنسي المقبول، ان قل استعمال مصطلح (الشذوذ الجنسي Perversion) وحل بدله مصطلح الانحراف الجنسي Deviation، والفرق بينهما هو الفرق بين الخروج على الشيء، والابتعاد عنه، في زاوية من درجات متفاوتة. والذي حدث بعد ذلك، هو التقليص المستمر لما يقع تحت الأنحراف من سلوك جنسي، وعدّ الكثير من مظاهر هذا السلوك تنوعاً جنسياً لا انحرافاً، ونظر الى هذا التنوع على أنه امر طبيعي في حياة انسان يتميز عن غيره من الحيوانات بقابلية البحث والاكتشاف، وما لهذه الميزة العقلية من تأثير على العاطفة والسلوك. وبفقدان الانحراف لمعظم ما كان يقع تحته من سلوك جنسي، اصبحت حدود الانحراف ضيقة، مما اقتضى تغيير مصطلح الانحراف الى مصطلح الاقليات الجنسية Sexual Minorities، وهو مصطلح ينوه بقلة المنتمين اليه، غير انه في الوقت ذاته لا ينبذ سالكيه، وانما يعدّهم وكأنهم اقلية سياسية او اجتماعية او عرقية لا يجوز اغفالهم. وللمصطلح الجديد ان يترك الباب مفتوحاً لامكانية تقلص هذه الاقلية الى ما هو دون حجمها الحالي، او الى زيادة منتسبيها.

التنوع الجنسي Sexual Variation

التنوع الجنسي كالانحراف الجنسي يمكن ان يكون في موضوع الممارسة او في طريقتها. ومعظم الناس يتفقون في حدود ضيقة فقط في طريقة الممارسة الجنسية، بينما يتفقون الى حد بعيد في الموضوع الجنسي، وهو العلاقة بين الجنسين. ومن ظواهر العصر الحديث كثرة مظاهر التنوع في العلاقات الجنسية، ومع ان هذه المظاهر ليست بالشيء الجديد في المعرفة الجنسية، الا ان ممارستها في العصر الحديث هي اكثر انتشاراً من اي وقت مضى. ومع ان الغالبية العظمى من ممارسي التنوع هم من الذكور، فان نسباً متزايدة من الأناث، خاصة في الحضارات الغربية، اخذت تجاري الذكور في هذا التنوع وتسعى اليه، او تجده ضرورياً للإرضاء والمتعة.

ان من الصعب التوصل الى الاسباب التي دعت في الاصل الى ظهور التنوع في السلوك الجنسي، وربما لا تختلف هذه الاسباب عما يدفع الانسان الى التنويع في اساليب الحياة الاخرى من مسكن وطعام وشراب ولباس ولعب. ولعل ملل الانسان من الوتيرة الواحدة هو الذي يدفعه الى التنويع منعاً لما قد يتأتى من الملل من آثار سلبية. ومهما كانت اسباب التنويع، فأن معظم الباحثين يتفقون على ثلاثة امور في موضوع التنويع الجنسي، اولها عدم العثور على اسباب بايولوجية تفسر ذلك، فليس هنالك من ارتباط بين هذه الظاهرة وبين اي عامل وراثي او هرموني يمكن اثبات وجوده. والأمر الثاني هو ان ظاهرة التنوع تبدأ جذورها عادة في تجارب الطفولة والحداثة، وتتطور بعد ذلك بفعل التعليم والتقليد. والامر الثالث هو ان الغالبية العظمى ممن يمارسون التنويع باشكاله المختلفة هم من الذكور.

* *

ان من اهم الامور التي تعرض الآن في النواحي الطبيعية للسلوك الجنسي، هو امر تقرير ما يصح جعله تنوعاً جنسياً او انحرافاً. ويتعين على الطب ان يوفق بين الذين يرون ان الحياة الجنسية الطبيعية للانسان تحتمل جميع اشكال التنويع، وبهذا فليس هنالك ما يمكن عدّه انحرافاً، وبين الذين يرون أن كل ما يخرج على النمط المألوف والتقليدي في السلوك الجنسي هو انحراف، وان شدة الانحراف تتقرر بدرجة ابتعاد الفرد في ممارسته عن المألوف. ومن الواضح انه يتعذر على الطب التوصل الى مثل هذا التوفيق مع انعدام وجود مقياس ثابت ودائم للسلوك الجنسي يقاس عليه ما يصدر من سلوك الناس. ومن الأمثلة على محنة الطب في هذا الشأن الكيفية التي ينظر فيها الى ممارسة الاستمناء وممارسة الجنسية المثلية. فطالما عدّ الاستمناء نوعاً من الانحراف، وما زال الكثيرون ينظرون الى الممارسة الجنسية المثلية على انه انحراف اشد ان لم يكن شذوذاً جنسياً. غير ان الممارسة الاولى هي ممارسة كونية وشاملة تقريباً، والممارسة الثانية ينظر اليها الكثيرون من غير الممارسين لها على انها سلوك جنسي طبيعي بالنسبة للذين يمارسونها بالفعل. وهكذا فان تدخل الطب في هذين المجالين الهامين والواسعين من السلوك الجنسي ينظر اليه في الكثير من المحافل بانه تدخل للطب فيما لا يعنيه. ولمثل هذه النظرة ان تمتد فتشمل انماطاً كثيرة مما يعدّ الآن انحرافاً جنسياً، ويمكن ان يصل ذلك الأمتداد الى حدود التأييد لوجهة النظر التي يبشر بها البعض، والتي تبدو الآن خارقة، من انه ليس هنالك من انحراف جنسي، وان ما نسميه انحرافاً ما هو الا الطريقة الممكنة للفرد للتوصل الى ارضاء دوافع غريزته الجنسية، وان لا ضرر من ذلك ما دامت طريقة الارضاء تتم بالتراضي، ولا تؤدي الى ايذاء احد من المشاركين فيها، او للمجتمع بشكل عام.

اسباب الانحراف الجنسي

لعل من الصعب ايجاد سبب واحد لتفسير الحالة الواحدة من الانحراف الجنسي، فمعظم حالات الانحراف تقوم بنتيجة تفاعل عوامل عدة تتظافر بدرجات متفاوتة من القوة لتكوين حالة الانحراف. وهذه العوامل تشمل طبيعة شخصية المنحرف وتربيته الحياتية وبيئته الاجتماعية والامكانيات الجنسية المتوافرة له. وبهذه الخلفية من العوامل المتفاعلة، يمكن تعيين الأسباب التالية على انها اسباب فعالة في تكوين الانحراف.

اولاً: ضرورة الارضاء الجنسي

ان تعذر الأرضاء الجنسي لسبب او اخر بالصورة الطبيعية، قد يسبب من عنف العاطفة الجنسية ما قد يدفع الى ضرورة الارضاء باي وسيلة ممكنة. وهذا يفسر الاستمناء والجنسية المثلية والجنسية الحيوانية او الجنسية الاطفالية والجنسية المحرمة وغيرها من حالات الانحراف في بعض الناس. ومعظم هذه الانحرافات تزول عادة من حياة اولئك الذين توجهوا اليها بضرورة الارضاء وعند توافر الارضاء الطبيعي لها.

ثانياً: التنوع والاكتشاف

بالنظر لانه لا توجد حدود فاصلة تماماً بين ما هو ممارسة جنسية طبيعية، او ممارسة جنسية متنوعة، او منحرفة، فان الواحد قد يسير في ممارسته على خط غير واضح المعالم. وقد يجد نفسه فجأة يمارس ما لم يخطر في باله، ويظل الامر في حدود التنوع والاكتشاف اذا امكن للفرد التخلي عنه والعودة الى الممارسة الجنسية الطبيعية، غير ان تخلفه عن العودة، واستبداله للنمط الطبيعي من السلوك بالنمط الذي اكتشفه. فان ذلك قد يكون حالة من الانحراف.

ثالثاً: التعلم والتطبع

يفسر العلماء السلوكيون الانحراف الجنسي بانه نتيجة لعملية تتم في ظروف اتصال غير طبيعية. ومتى تأكد هذا الاتصال الخاطىء في الدينامية النفسية للفرد، فان سلوكه الجنسي يصبح متطبعاً علس نمط معين يصعب معه التخلي عنه. ويتخذ معظم الباحثين في الانحراف نموذج التطبع الذي اكتشفه بافلوف لتفسير الانحراف، ومثال ذلك الكيفية التي يفسر بها ماجوري وغيره (١٩٦٥ Magurie) قيام الانحراف، وتبعاً لهذا التفسير، فان الطفل يصبح على تماس مع عامل او موقف عشوائي يسبب له اثارة جنسية، وهذا يحدث قبل زمن طويل من العبث الجنسي مع الجنس الآخر، او العلاقة الجنسية معه. غير ان هذا التزاوج المفرد بين الموقف والاثارة، لا يكفي لتثبيت المركز المستقبلي لجميع اللذات الجنسية. ويعتقد ماجوري وزملاؤه أن التعلم يحدث بعد هذه التجربة الجنسية الحرجة، فذاكرة التجربة الجنسية تصبح جزءاً من خيال الاستمناء، وتتضمن المحافظة على التزامن الدقيق بين العامل المثير الذي يتذكره، وبين اللحظة السابقة للذروة. وتكرار الاستمناء الذي يكون فيه مثل هذا الخيال قوياً كفيل بأن يعطي قوة عظيمة الى العامل المثير للتنوع الجنسي. واذا ما اصبح مثل هذا الخيال العامل المثير الجنسي الأقوى، فان خيالات اخرى، كالجماع، تصبح اقل اثارة للفرد. ومثل هذا التفسير للانحراف يفسر كثرة الانحرافات في الذكور اذا ما قورنت بندرتها في الاناث. والذي يعزز هذه النظرية تفسيراً لقيام الانحراف، النتائج الايجابية في علاج الانحراف بالطرق السلوكية والتي تهدف الى ازالة التطبع، والمبنية على نظريات بافلوف،وهو ما سنتناوله بشيء من التفصيل في الفصل الخاص بعلاج الاضطرابات الجنسية.

رابعاً: توقف النمو الجنسي

وهي النظرية السببية التحليلية التي جاء بها فرويد. ورأى فرويد في الانحراف (او الشذوذ في تغييره) يتلخص فيما يلي: ان الصنف الانساني يعيش على طاقة جنسية (سماها اللبيدو Libido)، واعتقد ان مقدمات الشذوذ موجودة في ماضي كل فرد. فالطفل في نظر فرويد لديه نوازع جنسية متعددة ومنحرفة Perverse Dispositions، والذي عناه بذلك هو ان الاطفال يحصلون على لذتهم الجنسية من مصادر وممارسات متعددة. ويعتقد فرويد أن الانحراف الجنسي ما هو الا حالة من التضخيم والاستكمال للحياة الجنسية في الطفولة. اما لماذا يحدث الانحراف

في حياة بعض الناس دون غيرهم، فان فرويد يفسر ذلك على اساس ان النمو الجنسي بسياقه الطبيعي من الطفولة وحتى الكبر يتوقف عند نقطة من النمو. كما يمكن لهذا النمو الذي اتخذ سياقاً طبيعياً ان ينكص الى دور سابق من النمو ويستقر عليه، (وهذا ما يفسر السلوك الجنسي المنحرف في بعض مرضى الشيزوفرينيا الذين ينكصون في حياتهم النفسية الجنسية الى دور سابق). ومن النظريات التحليلية للانحراف الجنسي، هي النظرية التي جاء بها فرانك بيتش (١٩٧٧) ومفادها ان الممارسة الجنسية الطبيعية تعتمد على الاثارة المشتركة بين شخصين، واعتماد الواحد منهما على شعور الاخر واستجابته، اما في حالة الانحراف فان المنحرف يحصل على اثارته واستجاباته في غياب من يشاركه الشعور، وهو يقوم باثارة ذاتية منفصلة عن الطرف الاخر، (كما هو الحال في الفتشية والتبصصية والالباسية والاستعراضية، وفي بعض حالات السادية والماسوقية). وهذا يحدث في اعتقاد بيتش، لأن الفرد المنحرف يتجنب المشاركة في الشعور، او التقرب من أي شريك، لانه لا يستطيع تحمل وطأة هذه المشاركة، وهذا التجنب يدفعه بالضرورة الى تجنب الممارسات الجنسية الطبيعية والركون الى ما يضمن له هذا التجنب.

خامساً: ثنائية الجنس

وتفسر هذه النظرية الانحراف بانه ينبع من الطبيعة البايولوجية الثنائية الجنس للانسان، فالانسان تبعاً لهذه النظرية هو ثنائي الجنس في اصوله التكوينية، فبعضه ذكر، وبعضه انثى، وبدرجات متباينة من المشاركة الثنائية بينهما. اما الاتجاه الجنسي النهائي نحو جنس او آخر، فانه يتقرر تبعاً للقوة النسبية بين الاتجاهين في هذا الاستعداد الثنائي. وتعتمد هذه النظرية في تفسير الاتجاهات او الانحرافات الجنسية المثلية عند الذكور (اللواطية) وعند الاناث (اللسبية = السحاقية). ويقارب هذه النظرية، نظرية اخرى تتفرع عنها، وهي ان الطفل عند الولادة هو في واقعه في حالة جنسية نفسية ثنائية من حيث الاستعداد البايولوجي، غير انه محايد في اتجاهه نحو ميل او آخر، وهذا الحياد يسمح بنمو واستمرار انماط جنسية معينة او متنوعة من السلوك، وذلك تبعاً لتجارب الحياة والظروف التي يتعرض لها الفرد في عمليات نموه الجنسي والنفسي خلال طفولته وحداثته.

سادساً: الانحراف والكراهية

وهذه النظرية ترى في الانحراف تعبيراً عن توافر شعور الكراهية والعداء في نفس الفرد الذي يقبل على الانحراف، وبأن ممارسته المنحرفة تخدم اغراضاً حياتية هامة بالنسبة له وللعائلة وللمجتمع بشكل عام. فالانحراف طبقاً لهذه النظرية، يضمن لذة المنحرف، كما انه يبقي على العائلة، وبالتالي على المجتمع. ويبني صاحب هذه النظرية رأيه على الأسس التالية، وهي ان الانحراف يسمح باحتواء الكراهية والعداء القائمة ضمن نطاق العائلة، فهو يهيء للعائلة ضحية تتركز عليها نزعاتهم الى الانحراف والشذوذ، وبهذا فهي، اي العائلة، تعيش انحرافها وشذوذها عن طريقه. وبهذا الاسلوب فان العائلة تستطيع تجنيب نفسها من ان تصبح ضحية اعظم لو هي مارست الكراهية والعداء بين افرادها بصورة مباشرة. ويتوسع صاحب هذه

النظرية في تفسيراته التأملية فيقول ، بأنه ما دامت الدينامية الأساسية للشذوذ والإنحراف تكمن في الكراهية والعداء ، فإنهما (أي الإنحراف والشذوذ) يخدمان غرض تحويل الكراهية والعداء عن مجراها المهلك إلى مجارٍ وروافد أخرى من السلوك ، سواء كان ذلك بممارسة الإنحراف بصورة مباشرة ، أو بمداعبته في الخيال أو بالتعبير عنه بصورة غير مباشرة في الأساليب والصور والاشكال الفنية أو الابداعية المختلفة ، وجميع هذه الصور في التعبير هي في نظر صاحب النظرية افضل من التعبير المباشر عن عاطفة الكراهية والعنف الكامنة في لا وعي الفرد . وخلاصة هذه النظرية الفريدة هي ان الانحراف أو الشذوذ يهيء للفرد امكانية استنفاد القدر الكافي من قوة الغضب والعداء ، وبهذا الاستنفاد فإنه يحمي نفسه والعائلة من فعل الطاقة الكامنة للكراهية والعداء والتي يمكن لها ان تكون مهلكة لهما .

سابعاً : النظريات التحليلية النفسية

هناك عدة نظريات تحليلية نفسية لسلوك الإنحراف ، ومعظم هذه النظريات تعتمد النظرية الفرويدية حول عمليات النمو النفسي الجنسي في الطفولة والحداثة وخاصة في الدور الأوديبي ، وطبقاً لهذه النظرية فإن الطفل في هذا الدور يداعب رغبات تعكس ميولاً جنسية الطابع نحو الوالد أو الوالدة من الجنس الآخر ، وان مثل هذه الرغبات تخلق في الطفل حالة من القلق تفسرها النظرية الفرويدية بأنها نتيجة لتخوف الطفل من معاقبته بالخصي أو من التفريق عن أمه ، والذي يحدث في معظم الحالات هو أن الطفل يستطيع احتواء القلق الحادث والتوصل إلى حل الصراع الاوديبي والاستمرار في عملية النمو النفسي الجنسي بصورة طبيعية نحو تكوين العلائق الجنسية مع فرد من الجنس الآخر ، غير ان بعض الأطفال يفشلون في حل هذا الصراع وفي احتواء القلق الناجم عنه ، وهذا يؤدي إلى تعطيل في عملية نموهم النفسي الجنسي نحو علاقات جنسية طبيعية ، ومن نتائج هذا الفشل فإن للطفل أو الحدث ان ينمو وهو يقيم في نفسه دوافع جنسية غير طبيعية نحو الجنس الآخر من والديه ، كما انه يظل معانياً للقلق المرتبط أصلاً بهذه الدوافع ، وكحصيلة لهذه الدوافع والقلق المرتبط بها فإن الفرد يتجه نحو الإنحراف الجنسي كوسيلة لتصريف طاقاته الجنسية والعدوانية ، وبدون هذه الوسيلة الشاذة من التصريف فإن للفرد ان يعبر عن طاقته الجنسية وصراعاتها بمسالك عدوانية لها ان تؤدي إلى الحاق الضرر به أو بالغير . ومن التنوعات في النظرية التحليلية الأصلية :

١ ـ إن الإنحراف الجنسي هو نتيجة لتشبه الطفل أو الحدث بالشخص المخالف لجنسه بدلاً من التشبه بشخص مماثل لجنسه .

٢ ـ النظرية التحليلية الحديثة والتي تؤكد على أهمية العمليات الدفاعية النفسية وكيفية التعامل مع هذه الدفاعات في تكوين الإنحرافات النفسية .

أنواع الانحراف

هناك أنواع عديدة من الانحراف الجنسي ، وبدرجات متفاوتة من الشدة والابتعاد عن النمط الطبيعي للحياة الجنسية . وبعض هذه الإنحرافات تحدث بشكل مفرد وينحصر في انحراف معين ، غير أن الكثيرين من المنحرفين يمارسون اكثر من إنحراف واحد في اوقات مختلفة أو في آن واحد . ويمكن اعتبار الانحراف الأول الذي يمارسه الفرد انحرافاً أساسياً أو أولياً ، واعتبار ما بني عليه من انحراف أو انحرافات أخرى بالانحراف الثانوي . ويصنف الباحثون في هذا الباب الانحرافات الجنسية على عدة اسس ، واهمها تصنيف الانحراف على اساس التغير الحاصل من حيث الهدف الرئيسي ومن حيث الموضوع الجنسي ومن حيث الهوية الجنسية . وهنالك تصنيف آخر يقوم على اساس التفريق بين ان يقوم الفرد بممارسته المنحرفة بشكل منفرد ، أو ان انحرافه يقتضي المشاركة السلبية أو الفعلية لموضوع آخر من جنسه أو غير جنسه . وكلا التصنيفين لا يفيان تماماً بضرورات التصنيف . وفي ما يلي نبين بعض الحقائق المعروفة عن الانحراف الجنسي معتمدين إلى حد كبير التصنيف الأول بالنظر لكثرة استعماله ولإنتشار مصطلحاته بين الناس .

١ ـ الانحرافات المتمثلة في تغيير الهدف الجنسي

١ ـ الاستعراضية: وهي الدافع لان يعرض الفرد نفسه على الغير.
٢ ـ التبصصية: وهي اللذة الجنسية الناجمة عن ملاحظة الاخرين بالسر.
٣ ـ السادومازوخية: وهي اللذة الجنسية الحاصلة من اذلال الغير او الاذلال منهم.
٤ ـ الفتشية: وهي اللذة الجنسية المرتبطة باقتناء حاجة او مادة تعود لشخص آخر، او برؤية جزء منه.
٥ ـ الافرازية: اللذة الجنسية المرتبطة بالافرازات الجسمية على اختلافها.
٦ ـ جنون السرقة: وفيها يحقق الفرد هدف الارضاء الجنسي عن طريق السرقة.
٧ ـ جنون الحرق: وهو الحافز الى استعمال الحرائق بدافع جنسي.

ب ـ الانحرافات التي تظهر على شكل تغيير في موضوع الممارسة

١ ـ الحيوانية: العلاقة الجنسية مع الحيوانات.
٢ ـ الجثمانية: العلاقة الجنسية مع جثة الميت.
٣ ـ الجنسية المثلية: (اللواطية واللسبية) وهي العلاقة الجنسية بين افراد من نفس الجنس.
٤ ـ الاطفالية: وهي العلاقة الجنسية مع الاطفال ومنها ايضاً الغلمانية.

جـ ـ الانحرافات في (الدور) او الهوية الجنسية

١ ـ التلبسية: وهو الارضاء الجنسي عن طريق التلبس بلباس الجنس الآخر.
٢ ـ الجنسية المعاكسة: وهي الرغبة في تغيير الجنس البايولوجي الى الجنس المعاكس.

هذا ولا بد من اضافة صنف آخر من اصناف الانحراف لكي يشمل الموضوع انحرافات معينة في الاسلوب الذي يتبعه الفرد مع شريكه الجنسي، ويمكن جعل المجموعة الواسعة من العبث الجنسي والطرق المتنوعة في الاثارة ضمن الانحرافات من هذا الصنف، وان كان معظمها يعدّ الأن في نظر الباحثين تنوعاً لا انحرافاً. ومن الانحرافات التي يمكن شمولها ايضاً بهذا التصنيف السادية والمازوخية، والاغتصاب، والعدوان الجنسي، وممارسة الجنسية المحرمة.

* *

انتشار الانحراف

ان من المتعذر على أي باحث ان يتوصل الى تقدير مدى انتشار الانحراف في أي مجتمع، وترد صعوبة ذلك الى عدم الاستقرار على ما يجب جعله انحرافاً من حيث نمط الممارسة او درجتها، وبسبب التحول المستمر في الاتجاه نحو هذه الممارسات، وهو التحول الذي يتأثر بعوامل مختلفة من اجتماعية وحضارية وغيرها، كما ان هنالك صعوبة واضحة في التوصل الى حقائق ودقائق الحياة الجنسية للناس، فالانحرافات الجنسية ما زالت تحمل طابع الادانة المعنوية وحتى القانونية لممارسيها، ومعظمهم لا يتعاونون بصدد الافضاء بالمعلومات التي تعين على تقدير

مدى انتشار ظاهرة الانحراف وانواعها. وحتى اقل الممارسات الانحرافية شأناً، وهي عادة الاستمناء، فاننا نجد ان ما لا يقل عن واحد من كل خمسة من الذين استطلعت آراؤهم بشأن هذه الممارسة، يحجمون عن الاجابة، كما ان نسبة اخرى من الذين يجيبون ربما لا تكون اجاباتهم منطبقة على الواقع.

وقد يكون من الخطأ ان نعدّ الانحراف، اقلية، في الممارسة الجنسية، واصطلاح هذا التعبير قد يكون محاولة منا لحماية انفسنا من الانحراف، والذي يلاحظ في هذا الشأن ان كل ممارسة غير طبيعية يثبت تعاطيها من مجموعة غير قليلة من الناس، تدفع بالباحثين الى اخراجها من نطاق الانحراف ووضعها ضمن نطاق التنوع. وهذا ما هو حادث بالفعل في بعض المجتمعات التي راحت تنظر الى الانحراف الجنسي المثلي، وهو اوسع الانحرافات انتشاراً، بانه تنوع في الممارسة الجنسية. واذا ما استمر هذا النهج في تقرير الانحراف على اساس احصائي، فقد يأتي ذلك الوقت الذي ينعدم فيه مفهوم الانحراف، وتزول الفوارق بين ما هو طبيعي او منحرف من السلوك الجنسي، وقد لا يبقى بعد ذلك الا بعض الحالات النادرة والخارقة في شذوذها والتي تستوجب نعتها بالانحراف.

١ ـ الاستعراضية Exhibitionism

هذا الانحراف الجنسي، هو من الانحرافات الفردية والتي لا يتم فيها التلاقي الجنسي بين الفرد وهدفه، وهو لذلك مثل الانحرافات الفردية الاخرى كالتبصصية والفتشية، والتلبسية. وهذا الانحراف ربما كان اكثر انواع الانحراف الفردي وقوعاً، وهو اكثرها تعرضاً لطائلة القانون، لما يسترعيه الاستعراض من انتباه الآخرين في المجتمع، وما قد يترتب على ذلك من ملاحقة قضائية. وهذا الانحراف كمعظم الانحرافات الجنسية هو اكثر وقوعاً في الذكور منه في الاناث، وان كانت النساء في حضارات مختلفة اكثر من الرجال ممارسة وامعاناً في اساليب التنويه بالمواطن المثيرة جنسياً او بتعريتها. غير ان ظهور الأنثى بهذا الشكل الاستعراضي، لا يمكن جعله انحرافاً جنسياً بالمعنى الصحيح، ذلك ان الانثى لا تجد فيه لذة جنسية، بل انها تسعى عن طريقه الى جلب انتباه واهتمام الناظر اليه والى تأكيد شخصيتها وانوثتها. وقد عرف الكاتب والعالم الجنسي المشهور هافلوك اليس الاستعراضي بانه: «ذلك الذي يعرض عضوه الجنسي لانتباه شخص او اشخاص من الجنس الآخر، وهو لا يطلب شيئاً من الذين يتعرى لهم، وهو قلما يتفوه بكلمة، وقلما يحاول الاقتراب منهم، ومن ثمة يغادر مكانه مرتاحاً». غير ان الملاحظات المتواترة تفيد بان هذا المنحرف يظهر توتراً جنسياً، وبان هذا التوتر ينتهي بالوصول الى الذروة والقذف، سواء جاء ذلك بصورة تلقائية او بنتيجة ممارسة الاستمناء. والشخص الاستعراضي هو عادة شاب صغير السن يتصف بالخجل والهدوء والانعزال، وهو على العموم يخامره التشكك في مقدرته الجنسية، ويخشى المواجهة الجنسية الفعلية مع شريك جنسي، كما انه في معظم الحالات لا رغبة عنده في ايذاء المشاهد له، غير ان بعضهم قد يقوم بالتعدي في حالة نفور او عدم مطاوعة مشاهده لاستعراضه. وفي تفسير هذا الانحراف تقدم عدة نظريات منها ان

الانحراف يعبر عن اضطراب نفسي، او انه يمثل صعوبة في التكيف على حياة جنسية طبيعية، او انه مسببه عن خوف الفرد من ملاقاة الشعور الجنسي الذي يبديه الشريك الجنسي، او انه يأتي استجابة لدافع قسري تسلطي، وهذا الرأي الاخير يفسر استمرار الفرد بممارسة انحرافه حتى ولو عوقب وانفضح امره. ومن النظريات ما يجد في انفضاح الفرد وعقابه الدافع لهذه الممارسة. ومن الحالات المرضية التي يمكن ان تؤدي الى بروز هذه الظاهرة، هي حالات الادمان على الكحول وخرف الشيخوخة والآفات العضوية الدماغية، وخاصة في اولئك الذين يعانون من هؤلاء من العنة الجنسية، وقد يجد هؤلاء لذة تعويضية بالاستعراض عوضاً عن فشلهم الجنسي. ولعل الاقرب لواقع التفسير هو ان الضوابط العقلية للدوافع الجنسية تقل او تزول في الذين يعانون من هذه الامراض. ويرى آخرون ان الاستعراضية هي احدى بقايا الممارسات الجنسية البدائية والتي كان الرجل، او الأنثى احياناً، يمارسون عرض عضوهم الجنسي للتدليل على جنسهم وعلى قوتهم وعلى استعدادهم للاستجابة الجنسية. ونظرية اخرى تجد في الاستعراضية ضرباً من ضروب السلوك السادي، والتي يمارس فيها الذكر القسوة النفسية على الأنثى باضطرارها للانتباه المفاجىء والمرهب لعضوه الجنسي، ولما يحدثه ذلك من ايذاء وخوف واشمئزاز في نفسها، وهي غايات السادي من غريمه.

الفتشية Fetishism

يقع هذا الانحراف عادة في الذكور، وفيه يسعى المنحرف الى تحقيق لذته الجنسية عن طريق مطاوعته لدافع شديد لتلمس او مداعبة جزء واحد من اجزاء جسم الشخص الذي استقر عليه خياله الجنسي، او بتلمس لباس او اداة او حاجة تعود اليه كالملابس الداخلية والعطور والازهار والاحذية وادوات الزينة وغيرها. والفتشي يختار عادة جزءاً من اجزاء الجسم البعيدة عن المناطق الجنسية كالشعر والقدم، وكلما زاد البعد بينهما كانت الفتشية اكثر وضوحاً. وفي اختيار الاشياء العائدة لضالته، فانه يختار فيها اكثر الاشياء اثارة لرغبته الجنسية كالجوارب والملابس الداخلية. والفتشي يستعمل هذه الأدوات او الحاجات لغرض الاستمناءعلى وجودها امامه او بتلمسها، كما انه قد يستحي عليها. ومن الفتشيين من يعيد هذه المواد الى اصحابها بنفس الطريقة التي حصل بها عليها، وذلك بعد الفراغ من استعمالها لغاياته، وقد يعاود الحصول عليها مرة اخرى او مرات عديدة. وربما لا يكون مهمًا للفتشي ان يعرف الشخص الذي تعود اليه هذه الحاجات، فهو قد يجمعها بصرف النظر عن معرفة اصحابها. والفتشي على العموم لا يقوم باعمال مضادة او مؤذية للمجتمع سوى (سرقة) حاجاته. وهنالك نظريات متعددة لتفسير الفتشية، منها بان الفتشي يمارس العادات الجنسية الطفولية والتي ظلت مرتبطة بخياله والتي لا يستطيع التخلي عنها. ونظرية اخرى تفسر الانحراف على انه دليل على حب الفتشي وتعلقه بامه وكراهيته لوالده في طفولته، وهو لذلك يندفع نحو تلمس ما يخص الانثى وان كان يظل بعيداً عن التماس المباشر معها. ويفسر آخرون الفتشية على انها نتيجة لتجربة جنسية مؤثرة في نفس الفتشي وطبعته على الاستجابة جنسياً بطريقة تربط الاستجابة باداة او حاجة معينة

كالفرو او الأحذية او الجوارب التي تعود الى احدى الاناث. ومن النظريات المفسرة للفتشية نظرية تربط بين هذا الانحراف وبين الاستمناء، فبعض الذين يمارسون الاستمناء يقومون بذلك وهم يشاهدون او يتلمسون حاجة تعود الى احدى الاناث، ولهذا ان يصبح عادة في بعض الافراد، خاصة اولئك الذين يخشون لسبب او آخر من القيام بعلاقة جنسية مباشرة مع شريك جنسي، ولهذا التعود ان يكون حالة من التطبع السلوكي الشرطي. ولاثبات هذه النظرية قام احد الباحثين بعرض صورة مثيرة جنسياً على المشاهدين مما احدث فيهم توتراً جنسياً، وفي وقت لاحق عرض الصورة مجدداً غير انه سبق عرضها على الشاشة بعرض صورة حذاء، ويتكرر العرض بهذه الصورة عدة مرات فقد وجد في وقت لاحق بان عرض صورة الحذاء فقط على الشاشة قد اصبح كافياً لاثارة التوتر الجنسي في المشاهدين. وقد تبين من دراسة السجل الحياتي للمصابين بهذا الانحراف انه تبرز في حياتهم عدة خصائص، منها ان حياتهم الجنسية المشتركة (اي علاقاتهم الجنسية) هي حياة غير نامية وغير ناضجة، وانهم في صغرهم كانت تنقصهم امكانية اللعب مع الاطفال من الاناث، وانهم كانوا شديدي التعلق بامهاتهم وهم اطفال، وانهم تنبهوا للقضايا الجنسية في وقت مبكر قبل بلوغهم. اما واقعهم عند الممارسة، فانهم يتصفون بعدم النضج في النواحي الجنسية النفسية، كما انهم يعانون من مخاوف جنسية خاصة تلك التي تتعلق بالجنس المباشر مع شريك جنسي.

التبصصية ـ الاستراقية Voyeurism

يسعى المنحرف في هذه الحالة للحصول على متعته الجنسية عن طريق اختلاس النظر الى شخص عارٍ، او يقوم بعملية التعري، او عن طريق استراقه النظر للعلاقات الجنسية بين آخرين لا يعرفون بمحاولته. ومع ان من الطبيعي عند نسبة كبيرة من الناس التمتع برؤيته مثل هذه الاوضاع المثيرة جنسياً، الا ان الذي يجعلها انحرافاً هو جعل الفرد لهذا النمط من الانحراف بديلاً للحصول على متعته الجنسية. ومع ان الذين يمارسون هذه الطريقة قد يلجأون اليها بسبب الضرورة وعدم توافر الفرص الحقيقية والمباشرة للاثارة الجنسية، الا ان مثل هذه الحالات لا تعدّ انحرافاً بالمعنى الكامل الا اذا لجأ اليها الممارس لتكون اسلوباً مفضلاً للحصول على لذته الجنسية مع توافر الامكانات الاخرى لعلاقة جنسية طبيعية. واصحاب هذا الانحراف هم عادة من الذكور، وغير القليل منهم هم من المتزوجين، وقد يذهب الواحد منهم الى معاناة الكثير من الجهد والمشقة والتعرض للمخالفة في السعي الى انحرافه، ذلك ان منهم من يتجول بين البيوت ويسترق النظر من النوافذ وثقوب الابواب لتحقيق غايته، ومنهم من يستعمل سطوح المنازل لهذا الغرض، ومنهم من يلجأ الى استعمال المناظير المقربة. وعلى خلاف الاستعراضي الذي يبدو وكأنه يعرض نفسه عمداً للاكتشاف والملاحظة وحتى الملاحقة، فان التبصصي يتجنب ويتفادى الاكتشاف، فهو يقوم بتبصصه باختلاس وحذر تحت جنح الظلام. وقد بين كنزي في دراسته الاستبيانية مدى انتشار التلصصية في السلوك الجنسي الانساني ولو بشكل عابر، وقد افادت دراسته بان ٦٥٪ من الذكور قد مارسوا هذه العادة بشكل او آخر وفي وقت او آخر. وقد تكون

النسبة الحقيقية اكثر من ذلك، وان كان عدد الذين يثابرون على العادة قليلاً جداً. والتبصصي يمارس انحرافه لوحده، وهو يقوم بالاستمناء عادة اثناء مشاهدته، كما انه يميل عادة الى التبصص على من لا يعرف من الاناث. ومثل هذا المنحرف لا يقوم بممارسة العنف او التعدي على من يشاهد، الا اذا ما وجد نفسه في مأزق يهدده بالاكتشاف، او اذا كانت شخصيته منحرفة باتجاه عدواني ايضاً، وعندها قد يكون التبصص الخطوة الاولى من مسلسل من اضطرابات في السلوك يتجه نحو التعدي والاجرام. وفي تفسير هذا الانحراف ترد النظريات العامة في اسباب الانحراف، ومنها ان هذا المنحرف لا يجد في نفسه المقدرة على التوافق والمشاركة في العلاقة الجنسية الطبيعية، او انه قد تعود في طفولته على استراق النظر خفية للاوضاع والاشخاص المثيرين جنسياً. ويرى بعض الباحثين ان مشاهدة الصور والافلام المثيرة جنسياً هي نوع متخصص من التبصصية، وكذلك المشاركة في المسابح والنوادي المتسامحة بشأن التعري، ومنها جماعات العراة المنتشرة في الكثير من الاقطار، ومنها ايضاً اقبال البعض على مشاهدة العلاقات الجنسية بين بعض الحيوانات والتمتع بذلك.

التلبسية (اللباس المعاكس Transvestism)

ويتمثل هذا الانحراف في قيام الفرد بلباس ما يرتديه عادة فرد من الجنس الاخر. والمنحرف بهذا النوع يرتدي هذه الملابس في عزلة، كما انه يقوم عادة بالاستمناء وهو في زيه هذا. غير ان بعض هؤلاء المنحرفين يقومون بهذا التلبس مقدمةً للقيام بالعلاقة الجنسية المثلية. ويكون لباسهم الذي يتلبسونه موافقاً لدورهم في هذه العلاقة. والتلبسي يملك اعضاءً جنسية طبيعية، وهم على بينة كاملة من هويتهم الجنسية، ولا رغبة عندهم لاستبدالها بهوية الجنس الأخر الذي يتلبسون لباسه كما هو الحال في المنحرف بالجنسية المعاكسة Transexuality. ويجد المحللون صعوبة في تفسير هذا الانحراف، ومن التفسيرات المعطاة، هي ان التلبسي تعود منذ طفولته ان يجد لذته الجنسية وهو في لباس الجنس الآخر، ومنها التفسير على اساس نظرية ثنائية الجنس، والتي تفيد بان في كل واحد منا، ذكراً او انثى، شيئاً من الجنس الاخر، ولهذا فمن المعقول والمتوقع ان الواحد ذكراً او انثى، سيجد بعض اللذة في وقت او آخر بالميل نحو لباس الجنس الاخر. ومن هذه النظريات ما يعزو التلبسية الى انحراف الفتشية. ولعل الفارق الوحيد بينهما هو ان التلبسي يقوم فعلاً بلباس حاجات الجنس الاخر ولعل في ذلك امعاناً في الالتقاء والدمج الرمزي بينه وبين الجنس الاخر والذي يخشى مواجهته والعلاقة معه في الواقع. ومن اهم القضايا المتفرعة عن التلبسية، هي قضية لباس الجنس الموحد، والذي يلبسه كل من الذكور والاناث في بعض المجتمعات وفي سنين معينة من فترة المراهقة، وربما لا يجد الباحث في هذه الحالات انحرافاً بالمعنى الصحيح، غير ان فيه الدليل على توافر قدر من الجنس الثنائي وبشكل واضح في بعض الناس، وان الظروف الاجتماعية والحضارية تسهل وتجيز التعبير عن ذلك.

التحرشية Frotteurism

وهو انحراف يقع وسطاً بين انحراف الاستعراضية والفتشية، ويمارسه الذكور عادة

بالاحتكاك مع الاناث في اماكن عامة مزدحمة كالقاطرات والحافلات والاماكن المكتظة كالسينما والحفلات والاجتماعات المختلطة. ويتم احتكاك الذكر في هذا الانحراف بقفا الانثى عادة. ومع ان مثل هذا الاحتكام قد يكون الفرصة الوحيدة الممكنة لصاحبه لارضاء اثارته الجنسية، الا ان الممارسة قد تكون منحرفة، ويكون قفا الانثى موضوعاً فتشياً يتركز عليه انجذاب الذكر.

انحرافات الشراكة الجنسية

تختلف هذه الانحرافات عن الانحرافات السابقة والتي تعتبر فردية، لأن الشخص يقوم بها لوحده دون الحاجة لمشاركة شخص آخر. والمنحرف في الشراكة الجنسية يختار شريكه بشكل غير مألوف من بين الانسان او الحيوان، فهو قد يختاره بشكل محدد ممن هو من جنسه (الجنسية المثلية في الذكر او الانثى Homosexuality ، او يختار الصغار Paedophilia او المسنين Gerontophilia، او اجساد الموتى Necrophiliaاو العلاقة الجنسية مع الحيوانات Zoophilia. هذا وقد تناولنا الفئة الاولى والهامة من هذه الانحرافات وهي الجنسية المثلية في الذكر والانثى في فصل خاص من هذا الكتاب، وليس لنا ان نضيف شيئاً جديداً لهذا الموضوع سوى التأكيد بان الانحراف الجنسي المثلي يقتصر فقط على تلك الحالات التي تنحصر فيها ممارسة الفرد بشكل دائم وكامل بالعلاقة الجنسية مع فرد اخر من جنسه ودون غيره، ومع توافر الأمكانية لقيام علاقة طبيعية مع الجنس الآخر.

انحراف الغلمانية (الاطفالية Paedophilia)

في هذا النوع من الأنحراف يميل الفرد بالتفضيل وبدون ضرورة مجبرة، إلى القيام بعلاقة جنسية مع طفل او طفلة من جنسه او من الجنس الاخر. ومع ان اكثر القائمين فعلاً بهذا الانحراف هم من الذكور، الا ان بعض الاناث يقمن بذلك ايضاً، كما ان نسبة غير قليلة من الاناث يمارسن درجات اقل وضوحاً من العبث الجنسي مع الاطفال، وان كان ذلك لا يعد انحرافاً جنسياً بالمعنى الكامل. ومعظم حالات هذا الانحراف يقوم بها الذكور مع من هم من جنسهم من الاطفال والاحداث، ولعل هذا الاختيار قد تقرر بضرورات التخوف من نتائج مثل هذه العلاقة مع فتاة صغيرة. وهنالك عدة تفسيرات لهذا الانحراف، منها ما يفسره على اساس ضرورة التفريج عن الحاجة الجنسية، ومنها ما يفسره على اساس انه امتداد حضاري لبعض المجتمعات، ومنها ما يجده مجرد تلاقي بين خيالات بعض الأحداث وبعض من يكبرهم سناً، وبانه الدليل على توافر الاستعداد نحو الجنسية المثلية في الطفل او الحدث. ويفسر الانحراف من ناحية المشارك الاكبر في العلاقة الجنسية، بأنه الدليل على عدم اكتمال النمو الجنسي في صاحبه مما يتركه مجمداً على دور النمو الجنسي النفسي المثلي، كما ان بعض ممارسي هذا الأنحراف يخشون من مواجهة العلاقة الجنسية الطبيعية والمتكافئة، ويجدون في الاحداث مجالاً للتعبير عن رغباتهم بدون صراعات نفسية. ومعظم الممارسين لهذا الانحراف لا يعانون من مرض نفسي او عقلي معين، وهم يبدون بشكل طبيعي في اعمالهم وفي علاقاتهم الاجتماعية، وقد يتصرف بعضهم بموهبة تزيد على المعدل، غير ان نسبة غير قليلة منهم تعاني من درجة او اخرى من درجات العنة

الجنسية، وهم يجدون في هذه الممارسة اقل اظهاراً لعجزهم، وبالتالي اقل احراجا واذلالا لهم بسبب عنتهم، وهم لذلك يمارسون من العبث الجنسي مع الاطفال اكثر مما يمارسون من العلاقة الجنسية الفعلية.

الكهولية Gerontophilia

في هذا الانحراف تتجه ميول وممارسات الفرد من الجنسين نحو شريك جنسي يكبرهما بسنين عديدة، وهذا الاتجاه لا يعدّ انحرافاً اذا أملته ظروف اجتماعية او اقتصادية، او اذا حدث بضرورة الحاجة الجنسية. ويفسر قيام هذه الظاهرة من الانحراف على اسس مختلفة، منها ما هو تحليلي، فيجد فيها مظهراً من مظاهر تجميد الحياة الجنسية النفسية على الدور الأوديبي، ففي هذا الدور قد يتأكد في نفس الطفل او الطفلة التعلق باحد الوالدين من الجنس الآخر، فالولد يتعلق بامه ويبحث عن من يشابهها صورة ويفرق بينهما عمراً، وهكذا في امر الانثى في تعلقها بمن يكبرها بسنين طويلة.

الجثمانية Gerontophilia

في هذا الانحراف يميل الفرد الى المواقعة الجنسية مع جسم الميت ذكراً كان او انثى. وقد يدفع بهم انحرافهم الى نبش القبور لتحقيق ذلك، او القيام باعمال القتل لتحقيق الاتصال مع جثة المقتول. وهنالك ما يبرر الاعتقاد ان بعض الناس الذين يعيشون بين القبور يتصفون بهذا الانحراف. هذا ومن الصعب تعليل اسباب هذا الانحراف، غير ان احدى النظريات التحليلية ترده الى التعلق الشديد وغير الطبيعي بين المنحرف وبين احد والديه المتوفين، وتكون الممارسة مع جثة الميت بمثابة تحقيق (للتوحد) معه. ويرى آخرون في هذا الانحراف شكلاً من اشكال الفكر التسلطي الذي يطغى على فكر المنحرف ويدفعه قسراً الى تحقيق ما يمليه عليه الفكر.

الحيوانية Zoophilia - Beastiality

يضطر بعض الناس، الذكور خاصة، الى القيام بعلاقة جنسية مع اصناف معينة من الحيوانات، وهذا السلوك غير نادر في بعض المجتمعات خاصة الريفية التي قد يتوافر فيها الكبت الجنسي مع تيسر العلاقة مع الحيوانات، وهذه الحالات لا تعدّ بالضرورة انحرافاً الا اذا كانت الميول الجنسية للفرد متوجهة بالتفضيل الى الحيوانات. ويفسر هذا الانحراف على انه يكوّن مخرجاً مأموناً لما يشعر به الفرد من فقدان الثقة بمقدرته الجنسية وخشيته من الكشف عن ذلك في علاقة انسانية، وهو لذلك يختار حيواناً لا يبوح بسره. ويفسر آخرون هذا الانحراف بانه تعبير عن الكره والاحتقار لكل ما هو انسان وانساني، ولهذا فان صاحبه يفضل الحيوان على الانسان.
ومما تجدر الاشارة اليه ان مثل هذه الممارسة قد ادينت منذ العصور القديمة وحتى وقت ليس ببعيد، ومن الاحكام الواردة بشأنها اعدام مرتكبيها وقتل الحيوان ايضاً. وقد وردت تشريعات خاصة بصددها في قوانين حمورابي، اما في هذا العصر فان بعض البلدان تعاقب الانسان المرتكب لها بجريمة الايذاء للحيوان.

انحراف الهوية الجنسية (الجنسية المعاكسة Transexuality)(*)

ان معظم الناس ذكوراً او اناثاً يتمتعون بحالة من التوافق والقبول بين حقيقة اجسادهم، وبين شعورهم العقلي بأنهم ذكوراً او اناث، ويصرف النظر عن ميولهم الجنسية نحو جنس او آخر. غير ان قلة من الذكور (واحد في المليون من الذكور، وواحد من كل اربعمائة الف من الاناث)(*)(*) لا يشعرون بهذا التوافق، فجسم الواحد منهم يبدو متعارضاً مع شعوره بهويته الفعلية. فهنالك الفتى الذي يبدو كاملاً من الناحية البايولوجية، الا انه يشعر بان هويته الجنسية هي هوية انثى، ومثله الفتاة الكاملة الانوثة بايولوجياً والتي تصر على ان هويتها الفعلية هي هوية ذكر، ويبدو الامر في الحالتين وكأن كل واحد منهما قد احتل جسماً يخالف هويته الشعورية والروحية. وقد تبلغ معاناة اصحاب هذا الانحراف حداً يدفعهم الى السعي لتغيير تقاطيع واجزاء من جسمهم وجنسهم بطرق جراحية لكي يصبح جسدهم متوافقاً مع (روحهم). ان مثل هذه الحالات من التعارض بين الواقع والشعور، ليست بالظاهرة النادرة كما يبدو من الاحصائيات، فهنالك الكثيرون من الجنسين ممن يحملون درجات متفاوتة من الهوية الجنسية للجنس المعاكس، وهو امر متوقع اذا افترضنا صحة النظرية القائلة بالاصل المؤحد للجنسين او ما يسمى بالجنس الثنائي Bisexual. فمثل هذه النظرية تفترض ان هنالك في كل ذكر بعض هوية الأنثى والعكس بالعكس. وتبعاً لهذا الافتراض، فان من الممكن ان يحمل الفرد من هوية الجنس الآخر ما قد يتعارض كلياً مع واقعه الجسدي، كما هو الحال في هذا الانحراف من الجنسية المعاكسة. وكما هو متوقع، فان معظم الذين يعانون من هذا الانحراف يبدأون بالتحسس بالتضارب بين اجسادهم وشعورهم منذ الطفولة، والواحد منهم يميل الى لبس ملابس الجنس الآخر، والظهور بمظهره والسلوك بمثل ميوله، وبعضهم يميل الى ممارسة العلاقات الجنسية المثلية، وتكون العلاقة بالنسبة للذكر الذي يشعر بانه انثى علاقة (السالب)، والانثى التي تشعر بانها ذكر تتخذ موقفاً (فاعلاً) في علاقاتها الجنسية المثلية مع غيرها من الاناث.

ومحاولة علاج مثل هذه الحالات من الأنحراف هي من اصعب ما يلاقيه الاطباء من تحديات علاجية. فالمريض او المريضة، يصران عادة على احداث التغيير المناسب في اجسامهم بما يتناسب مع هويتهم الشعورية بجنسهم، وهم يلحون على الاطباء باجراء هرموني او جراحي لتحقيق هدفهم، ومعظمهم يهددون بمحاولات انتحارية، وبعضهم يحاول ذلك بالفعل، وعلى العموم فان علاج هذه الحالات بمثل هذه الاساليب، خاصة الجراحية منها، غير ناجحة جداً، وهي اقل فشلاً في الذكور منها في الاناث، اما الأجراء الجراحي في الذكور فيقضي اولاً القيام

(*) اول من اصطلح (الجنسية المعاكسة) وهو كولدويل (١٩٤٩) واصبح الاصطلاح متداولاً في الخمسينات وخاصة بعد الاعلان عن ان امريكي باسم جورج جورجنس غير اسمه الى كريستين جورجنس على اثر سلسلة من العلاج الهرموني والجراحي في كوبنهاجن عام ١٩٥١ ـ ١٩٥٢.

(*)(*) الاحصائيات في السويد تفيد بان ١ من كل ٣٧,٠٠٠ رجل و١ من كل ١٠٣,٠٠ امرأة يعانون من هذا الانحراف.

بمعالجة هرمونية لمدة عام متواصل في الاقل، ثم تتم عملية الخصي وبتر القضيب وتكوين فرج وشفرتين من تلافيف الجلد. اما في الانثى فالعملية هي اكثر حسماً وتقضي بقطع الثديين، وباستئصال الرحم والمبيضين. وبسد فتحة الفرج وبتكوين قضيب صناعي. وكما هو الحال في الذكر، فان معالجة هرمونية بالأندروجين لمدة طويلة، قد تساعد في تنمية البظر وزيادة فعاليته. وبالنظر لعدم الوثوق من نتائج هذه الاجراءات الجراحية والهرمونية، وبسبب امكانية التشويه التي قد تحدثها في معالم الجسم الظاهرة والخفية، وامكانية ظهور الآثار الجانبية الضارة، لهذا يقتضي دراسة كل حالة بشكل دقيق، واعطاء المريض صورة واضحة عن جميع الاحتمالات، ثم يترك له او لها تقرير الاجراء الموافق وتحمل المسؤولية عن نتائجه. وعلى الطبيب المعالج ان يسوف في امر اتخاذ القرار الى اطول مدة زمنية ممكنة مما قد يحمل المريض على التخلي عن محاولاته لتغيير واقعه الجنسي نحو جنس آخر.

انحرافات الاسلوب

هنالك من ينظر الى الامور الجنسية نظرة محددة، ويقيد نوعية واسلوب ممارستها ضمن مجال ضيق من العلاقة بين الشريكين، وهذه النظرة اشبه ما تكون بالبديهية الهندسية بان الخط المستقيم هو اقرب مسافة بين نقطتين. وتبعاً لذلك فان العلاقة الجنسية يقتضي ان تكون مباشرة وخالية من التنويع والتفنن قبيل او اثناء او بعد الفعل الجنسي. كما تقضي بان تقتصر العلاقة على الزوجين، وان يتخذ الرجل الوضع الاعلى، والانثى الوضع الأدنى، في هذه العلاقة. وقد اعتبرت حضارات كثيرة في الماضي وحتى في الحاضر ان الخروج عن هذا النمط يكوّن انحرافاً، كما اعتبرت بعض المعتقدات الدينية ان هذا الخروج يعدّ اثماً يقتضي التكفير عنه.

ان واقع الحياة الجنسية كما تدلل على ذلك الدراسات الاستبيانية، وكما هو متناقل من احاديث الناس، هو ان هنالك تنوعاً عظيماً في اساليب الممارسة الجنسية في حياة نسبة غير قليلة من الناس، وان معظم هذا التنوع يحدث خارج نطاق العلاقات الزوجية. والبحث في انماط ودرجات الممارسات الجنسية، يوفر الدليل على ان معظم الناس يبتعدون فعلاً وفي كثير او قليل عن الخط المستقيم في ممارساتهم الجنسية. وهذا الابتعاد ليس بالشيء الجديد في حياة الانسان كما تدلل على ذلك مخلفات الماضي الكتابية والتصويرية، غير ان العصر الحاضر يمثل خروجاً صارخاً على النمط التقليدي في الممارسات الجنسية، والى حد اصبح معه من الصعب على الباحث ان يقرر فيما اذا كان اي اسلوب للممارسة هو اسلوب طبيعي في تنوعه او انه منحرف في طبيعته. وقد يحاول البعض وضع الحدود الفارقة بين التنوع والانحراف على اساس احصائي، كما سبق وبيناه في مقدمة هذا الفصل. وبعضهم يجد الفرق بين الحالتين في مدى توافر الاتفاق بين الطرفين في العلاقة الجنسية وبصرف النظر عن اسلوبها، وبعضهم يحدد ذلك في امكانية الضرر من العلاقة الجنسية. ومن مثل هذه المنطلقات في التفسير فان هنالك من يجعل اثارة الاعضاء الجنسية عن طريق الفم (Fellatio في حالة الذكر، وCunnilingus في حالة الانثى)، والاستمناء المتبادل، والاستمناء الجماعي، والعلاقة الجنسية متعددة الاطراف، وغيرها من اساليب التفنن،

بانها مجرد تنوع لا انحراف. وهنالك من الباحثين من يجعل ممارسة الايلام اثناء او قبيل الفعل الجنسي امراً لا يكون انحرافاً ما دام لا يؤدي الى ايذاء احد الطرفين، وما دام يتم بالاتفاق والرضا بين الطرفين.

وضمن هذه الحدود الواسعة من امكانيات الممارسة الجنسية، فاننا سنختار بعض الممارسات التي ما زالت تعدّ في حدود الانحراف الجنسي وهي الاغتصاب Rape، والممارسة الجنسية المحرمة Incest، والممارسات السادية والمازوخية في العلائق الجنسية. وقد بحثنا بالتفصيل في موضوع (الجنس المحرم) في فصل خاص بهذا الموضوع، وسنكتفي هنا ببحث موضوع الاغتصاب الجنسي، وبيان بعض النواحي التي اغفلت في الفصل الخاص عن الجنس المحرم، اضافة الى بحث موضوع السادية والمازوخية.

الاغتصاب الجنسي

وهي الحالة التي يحقق فيها الفرد، وهو عادة الذكر، علاقته الجنسية بالقوة والاكراه وبدون موافقة شريكه على ذلك. غير ان التعريف القانوني قد يجعل العلاقة اغتصاباً، حتى ولو تمت بالموافقة، اذا تم الاغتصاب لشخص لا يتمتع بالقدر الكافي من البصيرة والفهم بحيث يتمكن من ادراك ما يقوم به، كأن يتم اغتصاب من لم يبلغ سن الرشد، او من كان متخلفاً عقلياً او مضطرباً في عقله. ويصنف الباحثون الاغتصاب أنواعاً، ومن هذه التصنيفات ما يقسمها الى اربعة اصناف، الصنف الاول يشمل الحالات التي يكون فيها الاغتصاب محاولة لارضاء النزوة الجنسية الجامحة، وهذا هو النوع الاكثر وقوعاً من بين حالات الاغتصاب، ويقوم به عادة افراد يندفعون بقوة جنسية جامحة لا تتحمل التأجيل. والصنف الثاني يتمثل في اولئك الذين يتصفون بشخصية شرسة وعنيفة، والذين يندفعون نحو الاغتصاب تعبيراً عن قوة دوافع الايذاء والتعدي في نفوسهم. والنوع الثالث هو اغتصاب السادي الذي لا يستطيع التوصل الى ارضاء جنسي الا عن طريق ممارسة الايذاء بالاغتصاب. والنوع الرابع هو الاغتصاب الذي يمارسه اصحاب الشخصية السايكوباثية ممن يتصفون بخصائص مضادة للمجتمع، كالتعدي والايذاء، وهم يمارسون الاغتصاب كجزء من مظاهر سلوكهم اللااجتماعي. وهنالك نظريات متعددة عن اسباب ظاهرة الاغتصاب، ومن هذه النظريات ما يرى ان كل علاقة جنسية هي عملية اغتصاب، ويعود ذلك في نظر بعض المحللين، الى ان العلاقة الجنسية في اصولها في حياة الانسان،* قامت على اساس التعدي والاغتصاب تماماً كما يحدث في الصيد، ثم استمر ذلك حتى بعد تدجين الحياة الانسانية اجتماعياً فاصبح من المفروض ان تطاوع الانثى ولو بالقسر مشيئة الذكر، وان ترضى بما يشبه الاغتصاب في العلاقة معه. ولعل من الطريف ان نذكر ان العرب في الجاهلية وحتى بعدها، كانوا يحبذون وطأ الزوجة وهي غاضبة، وكانوا يجدون في ذلك ضمانة اكبر لانجاب الذكور من الاطفال ممن هم على شاكلة آبائهم. ومما يجدر ذكره ايضاً هو ان نسبة عالية من الذكور والاناث في بعض المجتمعات الحديثة يحبذون ممارسة شيء من العنف في علاقاتهم الجنسية. ومن النظريات التفسيرية هي ان مظاهر الاغتصاب تعبير عن تقليد حضاري

يؤكد فيه الذكر رجولته وقوته وسلطته على الانثى ويؤكد ضعف الانثى واستسلامها، والشواهد على هذه النظرة الحضارية تظهر من الاسماء المستعملة لاعضاء الذكر الجنسية، ومن الرسوم والتماثيل التي ترمز الى هذه الظاهرة الاغتصابية. ويجد آخرون تفسيراً لذلك من ان الانثى نفسها تميل الى الاغتصاب، وان ممانعتها تحفز على الاغتصاب، وهم يبررون هذا التفسير بأن معظم حالات الاغتصاب يوجد فيها عامل من عوامل الأغراء من الانثى. ولعل من اكثر النظريات قبولاً هي ان المغتصب يعاني من اضطراب نفسي. وان هذا الاضطراب يقع في مجال او آخر من مجالات ثلاثة وهي: العنف، والسايكوباثية، وعدم الاكتمال. ففي الحالة الاولى يقوم المنحرف بالاغتصاب من اجل تحقيق نزعة العنف والتعدي وهو دافعه الاساسي. اما السايكوباثي فانه يحتاج العنف لكي يحقق الفعل الجنسي، اما الشخص غير المكتمل، فهو الشخص الذي يخشى المقاومة، وهو لذلك يستعمل العنف في خدمة الجنس.

ومن المواضيع الهامة المتصلة بالاغتصاب هي اعمال الاغتصاب التي تقترن بجريمة الايذاء للشريك الجنسي، ويفسر بعضهم توافر الأمرين في ممارسة واحدة، بانه ناجم عن ارتباط باثولوجي (مرضي) بين المراكز الجنسية وبين مراكز العنف في الدماغ، وهي مراكز متقاربة الى حد بعيد، ولعل هذا التقارب يفسر ارتباط درجة ما من العنف بالممارسة الجنسية في الكثير من الحالات.

القرابية المحرمة Incest(*)

تعدّ الممارسة الجنسية انحرافاً اذا ما اقدم الواحد، ذكراً او انثى على الممارسة الجنسية مع فرد حرمت التقاليد في مجتمعه ان يقوم بها معه. وهنالك فروق واسعة بين مجتمع واخر في مدى وقوع المحرمات التي يشملها المنع وفي درجة الأدانة لها، ومعظم الحضارات التي تعمل بمبدأ التحريم تؤكد بوجه خاص على اقرب درجات القرابة في الدم، كتحريم العلاقة الجنسية بين الوالدين واولادهم ذكوراً او اناثاً، وبين الأخوة والأخوات. وهذه الانماط من الأنحراف اكثر انواع الانحراف اثارة لغضب المجتمع وسخطه، وهو اتجاه في الادانة عمل به منذ اقدم الازمان. ويعتقد انه نشأ في العصور القديمة التي كان المجتمع فيها امهاتياً، اي تسوده المرأة، وورد تحريمه وعقابه في قوانين حمورابي وما تلاها من تشريعات قانونية او عرفية في الكثير من الاديان والمجتمعات. والتأكيد على ذلك بشكل متواصل عبر عصور التاريخ، فيه الدليل على ان هنالك من الناس من مارسوا الخروج على التحريم بين الحين والآخر، وبان المجتمعات قد نظرت الى هذا الخروج ليس بمجرد تجاوز للحدود الاخلاقية فقط، وانما وجدت فيه خطراً يهدد التكوين الاجتماعي.

لعل من الصعب ان نجد تفسيراً وافياً للدوافع لممارسة الجنسية القرابية، وقد يكون هنالك سبب مختلف في كل حالة من حالات هذه الممارسة المحرمة. واذا سلم الواحد بنظريات

(*) انظر الفصل الخاص بالمحرمات.

فرويد في قيام المركب الادويبي ، فان ميل الواحد ذكراً أو انثى نحو والده من الجنس الآخر ، هو ميل طبيعي واصيل في عملية التمو الجنسي النفسي . وأذا كان هذا هو الواقع ، فان من غير المتوقع ان يختفي هذا الميل كلياً من الفعل بطريقة أو اخرى من الحياة النفسية والجنسية للفرد ، ولهذا الميل في بعض الحالات ان يظل فعلاً ، مما يدفع الى هذه الممارسة بالفعل ، وله ان يظهر بشكلٍ غير الكامل او غيء مباشر كمظاهر الحنان والرقة التي تربط الوالدين باولادهم ، وقد يتحقق ايضاً بما سعى له الذكر والانثى احياناً من ايجاد شريك في الزواج على شاكلة وصفات احد والديه من الجنس الآخر ، الذكر يبحث عن التي هي على صورة امه ، والانثى تبحث عمن هو على صورة والدها . ومن التفسيرات الواقعية ، هو ان هذه الممارسة تحدث في العائلات المتحللة من الضوابط الاخلاقية ، فاذا ما قام واحد من العائلة بممارسة واحدة من هذا النوع ، اقبل على ممارستها بقية افراد العائلة بدون تحفظ . وتحدث بعض هذه الممارسات بسبب الحاجة الجنسية الملحة عند احد طرفي العلاقة الجنسية ومطاوعة الشريك الآخلر بالرضا أو الاضطراب ، ومتى حدث هذا التجاوز للحدود مرة واحدة ، اصبح من السهل متابعته بالاتفاق او الابتزاز . وفي بعض الحالات يبدو ان لنظرية فرويد الاوديبية بعض ما يبررها ، فنجد ان الاب يجد شبهاً بين زوجته وابنته ، ويتلاقى ذلك مع شعور ابنته بالتعلق بوالدها . وفي حالات غير نادرة نجد ان الدافع للعلاقة هو واقع اجتماعي او مادي . هذا ولا يدخل في هذه الاسباب التي ذكرناها ما يمكن ان يدفع للعلاقة الجنسية المحرمة بين القربى من مراض وعلل نفسية وعقلية .

ان بعض الدراسات التي حدثت في هذا الموضوع (سيموند ورامي Symonds and Ra-mey) ، (١٩٧٢) تشير الى ان هذه الممارسات غير النادرة ، وان ممارسيها يجدونها ايجابية وخالية من الاضرار بهم نفسياً واجتماعياً . وقد حفزت هذه النتائج وغيرها الباحثين قسطنطين وقسطنطين (١٩٧٣) الى ابداء الرأي بأن الذي برّر المحرمات عبر التاريخ ضمن حدود العائلة ، لم يعد قائماً ما يبرره في المجتمعات المعاصرة ، وهو الرأي الذي يخالفه معظم الناس وتسنده التشريعات القانونية في معظم المجتمعات . وفيما يلي بعض الامثلة الصارخة من العلائق الجنسية المحرمة والتي تدان على نطاق واسع في معظم المجتمعات او مع ذلك فهي ممارسات غير نادرة ، وهناك ما يفيد باستعمالها في بعض هذه المجتمعات في العصر الحاضر .

العلاقة الجنسية بين الأم وإبنها :

مثل هذه العلاقة هو أمر نادر الوقوع في الممارسات الجنسية قديماً وحديثاً في معظم المجتمعات الحضارية منها أو البدائية ، وقد أدينت هذه الممارسة على نطاق واسع ، ولعل ذلك هو أحد الأسباب الرئيسية التي أدت إلى ندرتها في نطاق الحياة الجنسية ، غير أن هناك

بعض المجتمعات البدائية المعاصرة والتي تجيز هذه الممارسة أو تشجعها في ظروف خاصة فقبيلة (كوبيا Kubea) في جنوبي أمريكا تقضي بضرورة هذه الممارسة لتدشين الولد إلى مرتبة الرجولة ، وفي عشيرة (تورسي Tursi) في شرقي إفريقيا يلجأ الولد الذي تزوج إلى معاشرة أمه إذا فشل في عملية الولوج مع عروسه ، ولعل هناك الكثير من الحالات التي تجري فيها مثل هذه الممارسات سراً ، والتكتم عليها يحمي المشاركين فيها من العقاب القضائي والاجتماعي والعائلي .

العلاقة الجنسية بين الأخ وأخته :

مثل هذه العلاقة ورد ذكرها في النصوص التاريخية القديمة واعتبرت من امتيازات الملوك في بعض العصور القديمة ، ومن هذه زواج بعض ملوك الفرس من اخواتهم ، ومثلها زواج بعض فراعنة مصر ، والمعروف أن كليوبترا ملكة مصر قد تزوجت من أخيها الأصغر ، غير أن هذه الممارسات اعتبرت ممجوجة وحتى محرمة عبر معظم الحضارات التالية ، وفي العصر الحديث فإن هناك ما يدلل على إنتشار مثل هذه الممارسات بصورة سرية ، وحجمها الخفي هو اكبر مما هو معروف عامة ، وهناك بينات تفيد بأن الزواج بين الشاب واخته له ما يبرره فب بعض المجتمعات المعاصرة مثل جزر بالي في جنوبي شرقي آسيا ، وفي بعض قبائل الهنود الحمر في أمريكا الجنوبية ، فمع أن هذه المجتمعات تحرم العلائق الجنسية بين الأخ وأخته إما بالزواج أو خارجه . إلاّ أنها تجيز الزواج بينهما في حالة كونهما توأمان ، وتبريرهما لذلك هو أن التوأمين (ذكراً وأنثى) لا بد لهما أثناء تواجدهما في بطن أمهما من التماس الواحد مع الآخر ، وهذا التماس في رأي هذه المجتمعات هو ضرب من النشاط الجنسي ، ولهما بذلك حق التزوج إذا رغبا في ذلك ، أما في جزر مارشال في المحيط الباسفكي ، فإن الأمر هو على عكس ذلك ، فالعلاقة الجنسية أو الزواج بين التوأمين يعاقب بإعدام الذكر من بينهما .

العلاقة الجنسية بين الأب وابنته :

مثل هذه العلائق قليلة في الظاهر غير أنها أكثر إنتشاراً في الحياة العائلية مما هو متعارف عليه بين الناس ، فالممارسة مدانة على نطاق واسع ، وكانت كذلك في الحضارات القديمة باستثناءات قليلة ، ومعظم الممارسات التي يرد الأخبار عنها في المجال الطبي تشير إلى أن الأب هو المحرك لهذه العلاقة ، بينما الإبنة هي المطاوعة إما لصغرها ، أو لجهلها ، أو لخوفها ، وفي بعض الحالات بسبب حاجاتها الجنسية أو المادية .

إنحرافات جنسية أخـرى

السادية الجنسية Sexual Sadism:

هذه حـالة تتـمـثل في الأفـعال أو الممارسات التي يقوم بها الفرد بإيقاع الأذى أو المعاناة النفـسيـة أو الجسدية على شخص آخر من جنسه أو من الجنس الآخر المخالف كوسيلة لإثارة رغبـتـه الجنسية أو للحصول على اللذة ، ويدخل ضمن مدار هذا الانحراف الجنسي ما للفرد أن يشعـر به من اثارة وارضـاء لرغـبته الجنسية نتيجة تخيله أو مشاهدته لحوادث العنف والاذى النفسي أو الجسدي الذي يوقعه الغير على فرد آخر .

إن هذا الإنحـراف لا يحدث عادة قبل سن الثامنة عشرة ، كما أن غالبية حالاته تقع في الذكـور ، أمـا مـوضـوع الإنحـراف فـهـو يتمركز على فرد أو أفراد من الجنس الآخر (الأنثى عـادة) ، غير أن له ان يتـمـركـز على الأطفـال والأحداث من الجنسين ، وكثيراً ما يتخذ صفة العنف بالإغـتـصـاب إمـا خـلال ممارسة العلاقة الجنسية ، أو بعد الانتهاء منها ، إذ أن بعض ممارسي السـادية الجنسـيـة يقـومون بقتل ضحاياهم والتمثيل بهم ، ولبعضهم أن يمارسوا العلاقة الجنسـيـة مع ضـحيتهم حتى بعد قتلهم والتفنن في التمثيل بهم ، (اقرأ الفصل الخاص المعنون (الألم والجنس) .

المازوخية الجنسية Sexual masochism :

المازوخـيـة الجنسية ، على نقيض السادية الجنسية ، تتمثل في أن الفرد وبصورة متكررة يتـحـسس بدوافع جنسـية شديدة أو بخيالات مثيرة جنسياً ترتبط أما بحوادث فعلية أو متخيلة تقع عليـه من شريكه الجنسي والتي تتـضمن الايذاء المعنوي له (الامتهان والاحتقار) أو الايذاء الجسـدي (التـقـيـيـد ، والضرب وحـتى التـجريح) ، ومع أن بعض المعانين لهذا الانحراف يتطلبـون ايقـاع الأذى عليهم كمقدمة لإثارتهم الجنسية أو خلال هذه الإثارة ، إلاّ أن بعضهم يتطلبـون هذا الايقـاع بعـد حـصـولهم على اللذة الجنسـية كشرط أساسي لبدء اثارتهم الجنسية . ومـعظم حـالات المازوخـيـة تحدث في الذكور ، غير أن البحث في هذا الإنحراف يشير إلى أن الحـالات الصـارخـة من المازوخـيـة تحدث في الذكور بصورة غالبة بينما الاناث فأنهن يعانين من نسبـة أعلى من المازوخـيـة ولكن في حـدود الإعـتـدال ، هذا وللفـرد الذي يعـاني من أي من الحـالتين المازوخـيـة أو السادية أن يعاني من الحالة الأخرى أيضاً وهو ما يقع في ٣٠ في المئة من هذه الحالات من الإنحراف .

أن هناك أفـراداً كـثيرين ممن يجدون متعة أو لذة في مداعية الشعور أو في التعرض للأذى المعنوي أو الجـسـمي أو من كل مـا له أن يسـبب لهم المعاناة ، ومعظم هذه الحالات لا ترتبط بـصـورة مـبـاشرة أو غـير مـبـاشرة بالإثارات الجنسـيـة أو بإرضـائهـا ، ومع أنه يطلق على هذه الحـالات مـصطلح المازوخـيـة إلاّ إنها لا تتـجـاوز هذا المفـهـوم إلى حدود الإنحراف المازوخي الجنسي . (اقرأ الفصل المعنون (الألم والجنس) .

الجنسية الأهليلية :Urophilia

في هذا النمط من الإنحراف تقوم الانثى الأهليل للحصول على إثارتها الجنسية وعلى الذروة ، بينما يقوم الذكر باخال اسلاك أو ما يماثلها من المواد في الأهليل ويمارس الاستمنائية بواسطتها للحصول على ذروته ، (وفي حالة من الحالات التي عرضت للمؤلف والتي مارس شاب فيها هذا الانحراف عبر السلك إلى مثانته والتوى السلم داخل المثانة مما تعذر اخراجه من المثانة واستوجب الإجراء الجراحي لإخراجه) . هذا وقد يتخذ هذا الانحراف شكل قيام الفرد بالتبول على شريكه الجنسي أو بالعكس للوصول على الإثارة الجنسية .

الجنسية التلفونية (التلفونية Telephone Scatologia) :

يتسم هذا الإنحراف الجنسي بقيام الفرد وهو عادة في سن المراهقة وغالباً ما يكون من الذكور ، بالإتصال التلفوني مع أشخاص آخرين من الذكور والإناث ممن يعرفهم ويعرفونه ، أو ممن يعرفهم ولا يعرفونه ، أو بالمحاولة العشوائية مع من تيسر من الجانب الآخر ، ومحاولة جرهم إلى حديث حول قضايا جنسية وعلائق جنسية بما في ذلك النطق بكلمات بذيئة في المجال الجنسي ، وخلال ذلك يقوم بالإستمناء للحصول على ذروته الجنسية ، وتتكرر هذه المحاولات بما يتناسب مع القدر الذي يحمله في حينه من الطاقة والرغبة الجنسية ، هذا ويقتضي التنوية بأن هذا النمط الإنحرافي في السلوك الجنسي آخذ بالإنتشار بصورة عظيمة في الحضارات الغربية والشرقية على حد سواء .

الجنسية الجزئية (Partialism):

في هذا النمط من الإنحراف الجنسي تتوجه العلاقة مع الشريك الجنسي إلى جزء واحد فقط من جسم الشريك دون غيره (باستثناء الجزء الطبيعي للعلاقة الجنسية) ومن ذلك اختيار الفم أو الصدر أو الإبط وغيرها من المواضع الممكنة بهدف الاثارة الجنسية والحصول على الذروة .

الفوهية (Oralism) :

يتخذ هذا الإنحراف صورة التماس والإحتكاك بين الفم والعضو التناسلي للأنثى (الفم مع الفرج) ، أو بين الفم والعضو التناسلي للذكر (الفم مع القضيب) ، سواء تم ذلك بين فردين من جنس واحد ، أو بين فردين مختلفي الجنسي . ويصطلح على التماس بين الفم والفرج بمصطلح لحس الفرج (Cunnilingus) ، كما اصطلح على حالة التماس بين الفم والقضيب بـ (مص الذكر Fellatio) ، هذا وهناك مظاهر أخرى من هذا الانحراف الفوهي والذي يتم فيه التماس بين فم أحد الشريكين مع مقعد الشريك الآخر ، (لحس المقعد) ، ويتضح من البيانات المتوافرة حول السلوك الجنسي ، أن إنحراف (الفوهية) بأشكاله المختلفة قد أصبح في الوقت الحاضر من الممارسات الجنسية الأعظم شيوعاً بين الذكور والإناث وإلى حد أصبح يصعب معه اعتباره انحرافاً .

الجنسية التغوطية (التغوطية *Copoophilia*) :

يشبـه هذا الإنحـراف الجنسي إنحـراف الجنسـية البولية من حيث طبيعته غير أنه يتركز على الغـائط والتـغـوط والشرج ، وفـيـه يجد المنحـرف مـتـعـتـه وذروته الجنسـيـة في واحدة من الممارسات التالية :

(١) الرغـبـة في أن يتـغوط على شريكه الجنسي أو بالعكس ، (٢) الرغبة أو الإقدام على تناول الغـائط المستمد مـن شريكـه الجنسي (أكل البراز Coprophagia) ، (٣) القـيام بفعل قسري من ترداد النطق بكلمات أو تعـابير بذيئة وتدور حـول الامور الجنسية (البذاء Coprolalia) ، (٤) استـعمال بعض المواد وغـرسها في الشرج لغرض الإثارة الجنسية ومن هذه الحقن الشرجية والمواد الصلبـة المشابهة للقضيب . وهو ما اصطلح عليه Klismaphilia).

جنسية نقص الأكسجين (الإختناقية) *Hypoxyphilia* :

ظـهـر هـذا الإنـحـراف الجـنسي وتزايد انـتـشـاره في السنوات الأخيرة ، وهو يتـمـثل في محاولة الفـرد الدخـول إلى حالة متغيرة من الوعي كمقدمة للحصول على الذروة الجنسية ، ويتم ذلك عن طريق التـعرض إلى بعض المواد التي لها أن تحدث فيه حالة من نقص الأكسجين وما ينجم عنهـا من تغيير في الوعي ومن هذه المواد :

Volatile nitrite أو Nitrous Oxide

الفتشية الألباسية *Transvestic Fetishism* :

هذه الحـالة هي تنوع عن كل من الفـتـشية والالباسية في آن واحد ، والمعاني لهذه الحالة يقـوم أمـا بتـخـيل تلبـسه لملابس أنثى معينة أو بارتداء ملابس أنثى ، وذلك بهدف اثارة رغبته الجنسـيـة ، وهو يقـوم بذلك كـتـوطئة لممارسـة الاسـتـمناء أو لممارسة العلاقة الجنسية الفعلية ، ويعـتبر الفـرد مـعـانياً لهذه الحالة إذا ما تكررت ممارسته لها لمدة لا تقل عن ستة أشهر وكان في كل مـرة يتحسس بدوافع جنسية شديدة مقترنة بخيالات تتضمن تلبسه بلباس الأنثى .

الجنسية البولية (التبولية *Urophilia*) :

الجنسـيـة البـوليـة هي نمط من الإنحـراف الجنسي تتركـز فيه الرغبة واللذة الجنسية على الجـهـاز البولي ، ولهذا النمط من الإنحراف أن يتخذ واحداً أو آخر من الأشكال التالية : (١) شعور الفرد بالرغبة بالتبول على شريكه الجنسي (٢) أو تبول شريكه الجنسي عليه (٣) أو لشربه لبـول شريكه الجنسي كمقدمة لحصوله على الذروة الجنسية .

أسباب أخرى للشذوذ والإنحراف الجنسي :

هناك حالات من الشذوذ الجنسي والتي لا تتصف بخصائص الإنحراف الأساسية وهي : وجود خيالات وأفعال مستغربة وغير ارادية ومتكررة في المجال الجنسي ، واستمرارية هذه الخيالات والأفعال أو تكرارها لمدة ستة أشهر على الأقل وبأن المنحرف يقوم بتطبيق الخيال أو الدافع الجنسي بالفعل ، أو أنه يشعر بالمعاناة الشديدة بسبب ورود هذه الخيالات في شعوره ، ولذلك يقتضي تفريق هذه الحالات الأخرى من الشذوذ الجنسي عن حالات الانحراف الجنسي الأصيل ومن هذه الحالات :

تجارب المراهقين :

للمراهقين أن يقوموا بممارسة العديد من المسالك في المجال الجنسي ، ولعل معظم هذه الممارسات هي من قبيل التجارب الشخصية أو التقليد لممارسات أمثالهم ، أو أنها ممارسات شاذة اقتضتها ضرورة افراغ الطاقة الجنسية الملحة في وجه تعذر العلائق الجنسية الطبيعية ، والذي يفرق هذه التجارب المراهقة عن الانحرافات الجنسية الاصيلة هي أن المراهق لا يحمل في شعوره خيالات ودوافع جنسية محددة وموجهة بصورة مفضلة نحو ممارسة جنسية أو هدف جنسي معين دون غيره كما هو الحال في الإنحراف ، كما أن تجارب المراهق الشاذة لا تستديم أو تتكرر بمثل الإلحاح الذي تتصف به حالات الإنحراف ، ويساعد في التفريق بين الإنحراف الجنسي الأصيل وبين شذوذ التجارب الجنسية المراهقة القيام بفحوص نفسية فيزيولوجية لقياس مدى استجابة المراهق الجنسية (بانتصاب القضيب) ، عند تعرضه لإثارات جنسية إنحرافية .

التخلف العقلي :

يمارس المتخلفون عقلياً أنماط عديدة وعشوائية من السلوك الجنسي ، والكثير من هذه الأنماط لا يتخذ نمطاً محدداً ، ومعظم هذه الممارسات تدلل على جهل المتخلف عقلياً بشأن العلاقات الجنسية الطبيعية والتفريق بين ما هو لائق منها أو غير لائق ، أو أنها تفيد عن عجزه على الحصول على إرضاء حاجاته الجنسية بصورة عامة .

الإضطرابات التسلطية القسرية :

لإضطراب التسلط القسري أن يظهر في بعض المعانين له على صورة أفكار ودوافع جنسية الطابع تطرأ على وعي الفرد والذي يحاول جاهداً التخلص منها ، ومع أن هذه الأفكار والخيالات تعرض بصورة متكررة لصاحبها ، غير أنه نادراً ما يقوم بالعمل على ممارستها بالفعل ، وهو على العموم ، ينفي أنه أظهر إنتصاباً للقضيب أثناء معاناته لهذا الاضطراب ، كما أن الفحوص النفسية الفيزيولوجية المختبرية لا تظهر استجابة الانتصاب عند ورود الافكار والدوافع التسلطية إلى وعيه .

الإضطرابات العقلية :

تظهر في بعض المصابين باضطرابات عقلية رئيسية مثل الشيزوفرينيا واضطراب الهوس ـ الكآبة ، بعض المارسات الجنسية الشاذة ، ومعظم هذه المارسات تختلف نوعياً عن المارسات الجنسية التي يرتكبها المنحرفون جنسياً ، وعلى العموم فإن هذه المسالك الشاذة عندهم تحمل سمات الإضطراب العقلي الذي يعانونه ، كما أنها تزول بانحسار الحالة المرضية القائمة .

الحالات المرضية العضوية :

ترتبط الحالات المرضية التي تصيب الدماغ مباشرة أو تؤثر فيه من خارجه ، باضطرابات في المجال الجنسي ، وبعض هذه الاضطرابات تتسم بالشذوذ في الأداء الجنسي وفي موضوعها ، ومع أن بعض هذه المارسات الجنسية الشاذة تتسم ببعض مظاهر الإنحراف الجنسي ، مثل الاستعراضية والطفولية والتحرشية ، إلاّ أنها تختلف عنها في أنها لا تتسبب عن خيالات ودوافع جنسية معينة ، كما أنها لا تتكرر بنفس الإسلوب الذي تتكرر فيه الانحرافات الجنسية الأصيلة ، هذا وللمصاب باضطراب دماغي عضوي أن يواصل شذوذه الجنسي بالرغم من اكتشافه وهو ما لا يحدث عادة في المنحرفين جنسياً والذين يكتشفون ويدانون بانحرافهم الجنسي ، وعلى العموم فإن المسالك الجنسية الشاذة للمصابين بأمراض دماغية عضوية إنما يمثلون نتائج النقص في الادراك والبصيرة والحكم على الأشياء وعدم المقدرة على ممارسة النهي عن رغباتهم الجنسية ، وهم لذلك يقدمون عليها بدون ضوابط أو سيطرة عقلانية ، وهو ما له ان يتسم به المصابون بخرف الشيخوخة ، وخرف ما قبل الشيخوخة ، وفي المصابين بصدمات الشدة على الرأس وغيرها من الحالات الدماغية مثل الصرع والتخلف العقلي ، والعطل في بعض مناطق الدماغ وخاصة المنطقة الصدغية والمنطقة الجبهية للدماغ والنظام الحافي في الدماغ، وهو الجهاز العصبي الوثيق الارتباط بالحياة العاطفية للفرد بما في ذلك الحياة الجنسية.

البينات العضوية في المنحرفين جنسياً :

أفاد الدارسون والباحثون في حالات الانحراف الجنسي بوجود بينات عن وجود اضطرابات عضوية بين المنحرفين ، غير أن وجود هذه البينات بوفرة لا يدل بالضرورة على أن جميع المنحرفين أو غالبيتهم تظهر فيهم مثل هذه البينات خاصة وأن معظم حالات الانحراف الجنسي تظل غير معروفة ولا يجري بالتالي تفحصها ودراستها طبياً ، أما الحالات التي جرى فحصها فقد افادت بالبينات التالية :

٧٤ في المئة منهم ظهرت عندهم مستويات هرمونية غير طبيعية .

٢٧ في المئة منهم أظهروا ما يعرف بعلامات عصبية لينة Soft neurological signs

٢٤ في المئة منهم أظهروا شذوذاً في الكروموسومات .

٤ بالمئة كانوا مصابين بمرض عقلي .

٤ في المئة كانوا مصابين بالتخلف العقلي .

الحياة النفسية والجنسية للمنحرف جنسياً :

لبوادر الشذوذ الجنسي أن تبدأ في مرحلة مبكرة من الحداثة والمراهقة ، غير أن المعالم الثابتة والمستديمة لا تتأكد إلاّ في سن لاحق بعد ذلك فالكثير من الحالات التي تبدو كأنها مظاهر شذوذ جنسي في هذه المراحل المبكرة قد لا تتعدى كونها مجرد محاولات اكتشافية للطاقة الجنسية وطرق تصريفها ، كما أن لها أن تكون مجرد تعبير عن الحاجة إلى افراغ الشحنات الجنسية بأي وسيلة ممكنة ، وفي الحالتين لا يقتضي تشخيص هذه المسالك والقائمين بها بأنها حالات شذوذ بالمعنى المحدد للشذوذ والشواذ في المجال الجنسي.

قد لا يظهر على الشاذين جنسياً أية متغيرات تنوه بشذوذهم ، غير أن البحث الشامل في حياة الشاذين جنسياً له أن يبين بعض الخصائص التي لا تتماثل بالضرورة في جميع أصناف الشذوذ الجنسي ، ومن صفات الشخصية التي يمكن التعرف عليها عند الشاذين بصورة عامة هي صفة عدم النضوج العاطفي ، والنقص في المقدرة على القيام بنشاط جنسي يتّسم بالتبادل العاطفي بين الشريكين في العلاقة الجنسية ، وبعض الشاذين يعانون من مظاهر شخصية انطوائية او انعزالية بينما آخرون منهم يتصفون بشخصية عدوانية أو مضادة للمجتمع ، ومع أن بعض الشاذين يعانون من الضيق والكرب بسبب شذوذهم ، إلاّ أن آخرين منهم لا يعانون من مثل هذا الشعور بببب سلوكهم الجنسي ، وإنما بسبب موقف المجتمع منهم ، أما في مجال النشاط الجنسي ، فإن الشاذ الجنسي قد يكون مقتصراً في نشاطه على الممارسة الشاذة دون غيرها . وقد يكون قادراً على ممارسة العلاقة الجنسية المثلية أو الطبيعية إلى جانب ذلك ، وفي كثير من حالات الشذوذ قد يكون الشاذ معانياً لعطل ما في ادائه الجنسي ، والشاذ جنسياً يمارس عادة أكثر من نمط واحد من الشذوذ الجنسي أما في نفس الفترة الزمنية أو عبر سجله الجنسي الشاذ .

درجات الإنحراف الجنسي :

هناك عدة درجات من شدة الدوافع الجنسية الشاذة ومن مدى مطاوعة الشاذ لها ، وقد حددت هذه الدرجات بثلاثة :

الدرجة الخفيفة : وفيها يشعر الفرد بدرجة كبيرة من الكرب بسبب الدوافع الشاذة المتكررة غير أنه لا يطاوع هذه الدوافع بالقيام بسلوك شاذ .

الدرجة المتوسطة : وهي الدرجة التي ينضوي تحتها اولئك الذين تراودهم الدوافع الشاذة غير أنهم يطاوعونها بالفعل الشاذ في بعض الاحيان فقط .

الدرجة الشديدة : وهي الدرجة التي تصف أولئك الذين تراودهم الدوافع الشاذة بصورة متكررة ويقومون بصورة متكررة أيضاً بالعمل على تحقيق هذه الدوافع بالسلوك الجنسي الشاذ .

علاج الإنحراف الجنسي :

جرت محاولات عديدة عبر السنين بهدف علاج حالات الإنحراف الجنسي وخاصة تلك الحالات الصارخة والمؤثرة تأثيراً بالغاً على الواقع الاجتماعي لممارسي الشذوذ بما في ذلك المتعلقات القضائية التي لها أن تنشأ بسبب ممارسة الشذوذ الجنسي على الغير ، والباحث في هذا الموضوع يلاحظ العديد من الطرق العلاجية وهو الواقع الذي له أن يفيد بعدم وجود وسيلة علاجية واحدة ذات فائدة كبيرة في علاج شواذ السلوك الجنسي ، وفيما يلي نورد بعض أهم الطرق العلاجية التي استعملت وتستعمل في علاج السلوك الجنسي الشاذ من نوع أو آخر.

الطرق البايولوجية :

تقوم هذه الطرق على أساس من الافتراض بأن الشذوذ الجنسي يتسبب عن خلل بايولوجي في عملية الإثارة الجنسية ، وبالنظر لما هر معروف من الرابطة القوية بين هرمونات الأندروجين Androgens وبين قوة وادامة الاثارة الجنسية ، فقد اتجه المعالجون إلى محاولة التقليل من توافر هذه الهرمونات الاندروجية في الجسم ، أو إلى منع تأثيرها على المناطق الحساسة والفاعلة في الاستجابات الجنسية ، ومن الطرق البايولوجية المستعملة لتحقيق هذه الأغراض هي :

١ ـ *الخصي* :

مارس المعالجون هذه التقنية العلاجية خاصة في حالات الشذوذ الجنسي التي تقع تحت طائلة القضاء ، ومع أن هذا الإسلوب قد أفاد في بعض الحالات ، إلاّ إنه لم يفد في معظم حالات الشذوذ ، إضافة إلى أن حوالي ثلث الذين يتم إجراء عملية الخصي عليهم ظلوا قادرين على ممارسة شذوذهم.

٢ ـ *العقاقير* :

استعملت عدة أصناف من العقاقير بهدف التقليل من الدوافع الجنسية الشاذة ومن هذه الأصناف :

١ ـ *مضادات الأندروجينات* ***Antiandrogens*** :

ومن أكثر هذه المضادات إستعمالاً هي مشتقات هرمون (بروجستين Progestin) ومركب (Progesterone acetat) ومركب (Cyroterone acetate) ، المركب الأول يعمل على منع تركيب هرمون تستسترون الذي يرتبط بالإثارة الجنسية ، بينما المركب الثاني يعمل على سد المستلمات العصبية التي تؤثر عليها هرمونات الأندروجين ، ونتيجاً لذلك فإن للمركبين أن يقللا من قوة الاثارة الجنسية غير أنهما لا يؤثران في هدف الدافع الجنسي المنحرف ، ولهذا فإن المركبين لهما فائدة إيجابية في أولئك الذين يتمتعون بشذوذ جنسي مرتبط بإثارة جنسية

عـاليـة ، بينما لا تأثير لها في الشـواذ الجنسـية التي ترتبط بإثارة جنسية منخفضة ، ومما يذكر أن لهذين المركـبين أن يسببا زيادة في الوزن وفي ضغط الدم ، وإلى مرض المرارة ، وإلى اضطراب في استقلاب السكر .

ب ـ العقاقير المضادة الذهانية المعقلة Neuroleptics :

تسـتـعـمل عـدة مـركـبات من هــذه العقاقير ، ومن هــذه مركبات، Chlorpromazine (largactil) و (Thiotidazine (mellaril) ومـودكيت Modecate ومـركب Haloperidol ، ومـع أن هذه المركـبات تسـتعمل في الشاذين جنسياً ممن لا يعانون من اضطراب عقلي أو اضطراب في الشـخـصـيـة ، إلاّ أنها تسـتـعمل بصورة غالبة في الذين يعانون من مرض عقلي واضطراب في الشـخـصـيـة أو تخلف عـقلي من الشـاذين ، وهدف هذه العـقـاقير هو انقاص الإثارة الجنسية الشاذة .

جـ ـ عقاقير أخرى :

من العـقاقير الأخرى التي تستعمل خاصة في علاج الشواذ الجنسية التي تتسم بالسلوك العـدواني هي : مـركب الليـثـيـوم ، ومـركب كـاربا ميزابين Carbamezapine (Tegretol) ومركب(Propranolol (Inderal ومركب Clonazepam (Rivotril)

د ـ جراحة الدماغ :

تجري هذه العملية الجراحية على مناطق معينة من الجهاز الحافي Limbic system وذلك بهدف انقـاص السلوك الإنحـرافي الجنسي والإثارة الجنسـيـة في بعض الشـاذين جنسـياً وخاصة اؤلئك الذين يتـسم شذوذهم الجنسي بالعدوانية السادية الاجرامية .

العلاج النفسي :

جـرت محاولات عـديدة لعـلاج المنحـرفين جنسـيـاً بطرق العـلاج النفـسـيـة الدينامية التـحليلـيـة وغير الديناميـة ، ويمكن القول بأن الطرق التحليلية الدينامية هي عديمة أو قليلة النفع ، أمـا الطرق الأخـرى النفسية فإن لبعضها أن تفضي إلى تقليل قلق المنحرف جنسياً في تلك الحالات التي يرتبط فيها القلق بالعلائق الجنسية الطبيعية .

العلاج السلوكي :

اسـتـعـملت عدة تقنيات علاجية سلوكية للسيطرة على المسالك الجنسية الشاذة ، ومن أهم هذه اسلوب العـلاج التكريهي ، والذي يسـتغل عدة تقنيات منها : الصدمة الكهربائية ، واسـتـعـمال عقار أبومورفين Apomorphine ، والتطبيع المتستر Covert condtioning ، وتعـمل هذه التـقنيـات بالنهي عن السلوك الجنسي الشاذ عن طريق ارتباطها الزمني مع تعريض الشـاذ إلى صـور شـاذة جنسـيـاً في مـوضـوع شذوذه ، أو بالطلب إليه تصور المواضيع الجنسية

الشـاذة التي يمارسها وذلك أثناء تعريضه أيضاً للتقنية المكرهة له .

ومن الطرق السلوكيـة الأخـرى طريقة الالحاح في الاشباع Satiation therapy ويتم طبقاً لهذه التـقنيـة حمل الشـاذ على تخيل المواضـيع الجنسيـة الشـاذة التي يعانيها مباشرة بعد حدوث الذروة الجنسيـة والقـذف ، والامعـان في هذا التـصـور ، وفي رأي أصـحـاب هذه التقنية أن لاشبـاع التـصـور للشـذوذ بعد الذروة أن يعطي الشاذ الشعور بالملل والذي له ان يتواصل فيما بعد عندما يهم أو تراوده نفسه بالقيام بعلاقة جنسية شاذة .

العلاج الفكري (علاج المعرفة Cognitive therapy) :

بالنظر لأن بعض المعـانين من مسـالك السلوك الجنسي الشـاذ يواظبون على ممارستهم في ظل مـا يحملونه من أفكار خـاطئة بأن ضـحـاياهم يوافـقـون ويتقبلون شذوذهم الجنسي ، فقد توجـه البـعض إلى عـلاج بعض حالات الشذوذ (مثل الجنسية الطفولية والجنسية التبصصية) ، باستعمال التقنية العلاجية (العلاج الفكري Cognitive therapy) ، وذلك بهدف احـداث تغيير في منطق الفكر الخاطيء .

طرق علاجية أخرى :

ومن الطرق العـلاجيـة الأخـرى تعـريض الشـاذ جنسياً لمشاهدة أفلام جنسية تتضمن سلوكـاً جنسياً طبيعياً ولا يتسم بشذوذ ، والقيام بمكافأة الشاذ إذا ما قام بادخال بعض مظاهر السلوك الجنسي الطبيـعي في ممارسـاته الجنسية الشاذة ، والاستمرار بذلك إلى أن يتم تخليه عن سلوكـه واكـتـسـابه السلوك الجنسي الطبيـعي . ومن هذه الطرق العـلاجية ما يعرف باسلوب التطبع الاستمنائي masturbatory conditioning ، وفي هذه الطريقـة يقـوم الشاذ باحداث تحـوير مـبـاشر للخـيالات الاستمنائية التي يداعبها بحيث يتم الأقران بين الأثارات غير الشاذة مع مـا يحصل عليـه من لذة من الإثارة الجنسـيـة ، ويقـتضي أن يتم هذا التـغـير في الخيالات الجنسـيـة الى خيـالات غير شـاذة في عين الزمن الذي يشـعـر به الفـرد باللذة الجنسية والذروة الجنسية الاستمنائية.

مصير حالات الإنحراف الجنسي :

يتباين مصير حالات الانحراف الجنسي تبعاً لعدة عوامل فعالة منها شخصية المنحرف ، ونوعية انحرافه الجنسي ، وطول مدة الانحراف ، كما يعتمد المصير على نتائج ممارسته للانحراف ، وفيما يلي مختصر لأهم العوامل المقررة لمصير الإنحراف :

السن الذي بدأ فيه الإنحراف :

كلما كان السن الذي بدأ فيه المنحرف انحرافه مبكراً كلما توطن الإنحراف في سلوكه وكان من الصعب التخلي عنه ، وأكثر الانحرافات المبكرة الحدوث في حياة المنحرف هي : الانحراف الطفولي ، والاستعراضية ، والتبصصية ، وهي انحرافات تميل إلى الاستمرار في حياة المنحرف بالرغم من اكتشافه وإدانته .

مدى تكرار الإنحراف :

كلما كان تاريخ الانحراف أطول وتكراره أكثر ، كلما كان التخلي عن ممارسته اكثر صعوبة ، ويفسر ذلك على أن المنحرف الذي تكررت ممارساته الانحرافية لمدة طويلة ، فإنه يصاب بتشويه عقلاني يسمح له بتبرير سلوكه الانحرافي ، وهو بذلك يعزل نفسه عن إمكانية التأثر بالعوامل أو التجارب التي لها أن تحد من نشاطه الانحرافي .

عمر المنحرف :

المنحرف في سن المراهقة هو أكثر احتمالاً لأن يواصل انحرافه وذلك بسبب عنف وفيض طاقته الجنسية ، غير أن التقدم في عمر المنحرف يقلل من حدة وتكرار الانحراف خاصة الانحرافات التي تشمل الشريك الجنسي ، أما الانحرافات غير المشاركة (الفتشية ، والالباسية) فإنها تستديم لعمر أطول.

القلق والاثم المرتبطان بالإنحراف :

المصير أفضل إذا ما عانى المنحرف من القلق والإثم والشعور بالخزي بعد ارتكابه الإنحراف ، وهو مصير أسوأ إذا كان غير معني بأي رد فعل لإنحرافه وإذا لم يأبه للنتائج المحتملة على شريكه في عملية الانحراف الجنسي .

المستحضرات الكحولية والعقاقير :

تقع الكثير من حوادث الانحراف بينما المنحرف واقع تحت تأثير المستحضرات الكحولية أو العقاقير والتي لها فعل إزالة النواهي العقلية عن ممارسة الانحراف بسبب سيطرتها على القلق والخوف من ممارسته ، وما لم يتم إيقاف تناول هذه المواد فإن للانحراف أن يستمر لمدة أطول وأن يصعب السيطرة عليه .

المشاكل الجنسية السلوكية :

كلما تعددت المشاكل السلوكية في المجال الجنسي ، وكلما قلت إمكانيات الفرص للتوصل إلى حلول لهذه المشاكل كلما كان الاحتمال أقل بالتوصل إلى إنهاء الانحراف الجنسي.

التمييز حول الاهتمامات الجنسية :

كلما كان المنحرف عاجزاً عن تمييز اهتماماته الجنسية ، وكلما كانت انماط انحرافاته الجنسية أكثر عدداً ، كلما كان مصير الإنحراف سيئاً ، وكلما كان ذلك مؤشراً إلى الاستمرار والمعاودة لإرتكابه للانحراف .

عوامل مقررة أخرى للمصير :

يعتمد مصير الإنحراف الجنسي على عوامل أخرى هامة غير ما ذكر من العوامل المقررة السابقة ومن أهم هذه :

١ ـ على النتائج التي يلاقيها المنحرف والمترتبة على سلوكه.

٢ ـ على مدى وعيه للنتائج السلبية التي أوقعها انحرافه على ضحية هذا الإنحراف .

٣ ـ ما يمكن أن يوجه إليه من نقد أو استهجان أو إدانة أو نبذ من مجتمعه ومن أفراد عائلته ، ومن اصدقائه ، ومن المجتمع عامة .

٤ ـ ما يمكن أن يلحق به من إدانة قضائية .

٥ ـ الطرق العلاجية الهادفة إلى التقليل من الإنحراف .

المراقبة المحيطية :

للمراقبة من محيط الفرد أن تقلل من ممالاسة الإنحراف، غير أن الإنحرافات التي تتم بالسر أو الوحدة ولا تتطلب شريكا مثل التبصصية والألباسية والفتشية فإنها لا تقع تحت طائلة المراقبة ولها بذلك أن تستمر لمدة طويلة ، وتأثير المراقبة المحيطة قد يكون قليلاً أو معدوماً في حالات الانحراف الجنسي الذي يقوم به بعض المنحرفين بالاعتداء بالقوة على ضحيتهم كما هو الحال في المنحرف المغتصب .

وجود أو عدم وجود إثارة جنسية متزامنة :

المنحرفون يملكون عادة خاصية الاستثارة الجنسية في دوافعهم الانحرافية فقط ، ولتملكهم أيضاً ميولاً جنسية غير انحرافية أن يشير إلى مصير أفضل ، وذلك أن لمثل هذا التملك أن يشير إلى إمكانية تحولهم إلى العلائق الجنسية غير المنحرفة .

الفصل السادس عشر

الألم والجنس

* السادومازوخية
  السادية
  المازوخية

الألم والجنس (السادية والمازوخية)

السادومازوخية Sadomasochism

السادية هي ايقاع الالم على الغير بما في ذلك الشريك الجنسي كوسيلة للاثارة الجنسية او الحصول على الاكتفاء الجنسي. اما المازوخية فهي على عكس ذلك تقبل ايقاع الالم على النفس كوسيلة للاثارة او الحصول على الاكتفاء الجنسي. ومع ان الواحد قد يتصف باحد الاتجاهين، الا ان من الممكن في بعض الحالات ان يكون الفرد ثنائي الاتجاه او ما يسمى بالسادومازوخي، او كما اصطلح عليه هافلوك اليس بمصطلح (Algolagnic). وقد افادت بعض الدراسات الاستبيانية بشأن الممارسات الجنسية بان معظم الناس يجدون بعض المتعة او اللذة عن طريق ايقاع درجة من الايلام على شريكهم الجنسي اثناء العبث او العلاقة الجنسية، ومعظم هؤلاء من الذكور. كما ان هنالك من الاناث من تجد بعض اللذة فيما اذا مارس شريكها الجنسي بعض ما يؤلمها اثناء العبث او العلاقة الجنسية. وللباحث ان يعتبر مثل هذا الشعور الغالب في معظم الناس من الجنسين، الدليل على ان درجة ما من الألم سواءً ايقاعه او تقبله، هو امر طبيعي في الحياة الجنسية الانسانية، على ان لا يتعدى ذلك الحد الفاصل بين الالم والايذاء، واذا ما حدث هذا التجاوز فان هذه الظاهرة الطبيعية تصبح انحرافاً.

* *

لقد قام الكثيرون بمحاولة تفسير قيام هذه الظاهرة بحدودها الطبيعية والانحرافية. وربما لا تكون الاسباب في الحالتين الطبيعية والمنحرفة مختلفة تماماً، وان لا يتعدى الأمر ان تكون اسباب الانحراف مجرد تضخيم للاسباب المفسرة لقيام الظاهرة باحجامها الطبيعية المألوفة. ولما

كنا سنعرض لهذه النظريات السببية عند البحث في موضوعي السادية والمازوخية كلاً على حدة، فاننا سنقتصر هنا على النظريات السببية للظاهرة بشكل عام وفي حدودها المألوفة. ولعل من اهم هذه النظريات هي ان ممارسة الالم وتقبله في العلاقة الجنسية هي ضرورة بايولوجية تضمن قيام الجاذبية بين الجنسين وتضمن بذلك التكاثر وبقاء الجنس. ويرى آخرون أن الظاهرة تمثل بقايا مظاهر العلاقة الجنسية في عصور الانسان الاولي والقائمة على اساس ممارسة العنف والتعدي لضمان مطاوعة الشريك الجنسي، وان هذا المظهر من العلاقة الجنسية اصبح بمثابة الوراثة البايولوجية الاجتماعية والتي تنتقل من جيل الى جيل. ويجد آخرون ان في الالم رباطاً يربط الناس بشكل اوثق من رباط اللذة، ذلك ان الالم هو الاصل في الشعور، اما اللذة فما هي الا رجوع حالة الالم الى نقطة الابتداء. ومن النظريات ما يربط بين العنف، وبالتالي الالم في حياة الانسان، وبين الحاجة اليه لضمان عملية الاختيار الطبيعي Natural Selection، وهي العملية اللازمة لبقاء الانسان وتطوره، ويشك في ان الانسان بدون ممارسة الالم والتحسس به يستطيع ضمان ذلك. ويستغل اصحاب هذا الرأي الشواهد في بعض الحيوانات وما يبرز في سلوكها الجنسي من قسوة وعنف قد تبلغ حد الموت، ويقيمون الشبه بينها وبين ممارسات الانسان من حيث الاسلوب والاهداف والدوافع التي تخدمها. ومن النظريات ما يفسر الظاهرة على اساس انها امتداد لما يتعرض له الطفل من ايلام من امه، وما يحدثه من ايلام لها يرضيها اثناء الرضاع، واختلاط ذلك بشعور الراحة والمتعة في الاثنين وهو الشعور الذي يجعل من الالم واللذة شعوراً متصلاً يتعذر تفريقه الى عنصرين منفصلين تماماً. ومن النظريات ايضاً ما يرد الظاهرة الى عمليات من التطبع السلوكي الذي تأكد في النفس بنتيجة ارتباط متكرر بين اللذة او الالم وبين موقف جنسي معين. واخيراً فهنالك النظرية العلمية التي تفسر السادومازوخية على اساس بايولوجي. فقد افادت الدراسات الفيزيولوجية على مراكز معينة من الدماغ (الهايبوتلموس) بان مناطق صغيرة أو كبيرة من هذه النواة، والمتصلة ببعضها البعض، اذا ما اثيرت كهربائياً، فانها اما تحدث دوافع جنسية او دوافع من العنف. وهذا يؤكد الارتباط الوثيق بين مركزي الجنس والعنف. وعلى هذا الاساس البايولوجي، يمكن التوقع بأن الاحباط الجنسي يمكن تحويله الى عنف، وعلى عكس ذلك فان خيالات التعدي وسلوك التعدي تحتوي في الكثير من الحالات على عنصر جنسي. ويقول احد الكتاب: «لكي يمكن لعلاقة جنسية ان تكون ناجحة فان من الضروري للشريكين في العلاقة، ان يملكا المقدرة الثنائية على الخضوع، وتسليم نفسيهما، وان يجدا اللذة في ان يكونا مستلمين، ومن الناحية الاخرى ان يطلبا، وينشطا، وان يقوما بالمبادرة. واذا لم يتوافر هذا التوازن الضروري لاسباب مختلفة، فأن النتيجة يمكن وصفها بانها سادومازوخية».

* *

ان هنالك في السلوك الجنسي الانساني الكثير من الممارسات التي تحمل طابعاً سادومازوخياً، ومعظم الناس يجدون متعة في ذلك، وتفيد استبيانات الرأي بأن (العنف) في

العلاقة الجنسية هو ضرورة، غير ان الامر يتغير اذا ما اصبح العنف مؤذياً، واذا ما حدث ذلك كان الامر في الحالتين انحرافاً سادياً او مازوخياً.

السادية Sadism

السادية هي احد قطبي السادومازوخية، وفيها يقوم الفرد بطريقة مباشرة او غير مباشرة بممارسة نوع ما من انواع العنف والايذاء الجسمي او النفسي او كليهما على شريكه او شريكته في العلاقة الجنسية، سواء كان هذا الشريك راغباً ومطاوعاً او رافضاً ومرغمًا. وكما بينا في الفقرة السابقة، فان درجة ما من الممارسة السادية تحدث في حياة معظم الناس، وهم على العموم يقومون بافعال القرص او الخدش او العصر او العض وغيرها من الافعال، ويجدون المتعة في ذلك. غير ان ذلك لا يصل الى مرتبة الانحراف عند معظم الناس. ويرى فورد وبيتش **Ford and Beach** (١٩٥١) ان القليل من الاثارات العنيفة في اثناء العلاقة الجنسية هي القاعدة السلوكية في معظم اصناف المملكة العليا من الحيوان، وان هذه الممارسة لا تعدّ انحرافاً الا اذا بلغت حدود التطرف والايذاء لأي من المشاركين فيها.

ان ظاهرة السادية ليست بالظاهرة المستحدثة في حياة الانسان، فهي ظاهرة قديمة كما تدلل عليها الاثار من عصور غابرة،غير ان فرز الظاهرة واعطاءها التسمية هو امر حديث العهد نسبياً. فاصطلاح السادية ينسب الى المركيز دو سيد Marquis de Sade (١٧٤٠ ـ ١٨١٤)، والذي اشتهر بمؤلفاته ذات المحتوى العنيف في الممارسات الجنسية. واهم هذه المؤلفات روايته المشهورة (جوستين وجولييت) والمعروفة ايضاً باسم «لعنة الفضيلة ونعمة الرذيلة». ومع ان دي سيد لم يمارس الا القليل مما خلقه من خياله الخصب في مؤلفاته، الا انه قد خلق لنا مصطلحاً ارتبط باسمه واصبح من اكثر المصطلحات تداولاً على السنة الكتاب في مواضيع عديدة، كما وجد طريقه الى التعابير المتناقلة بين الناس في وصف اولئك الذين يجدون لذة في ايقاع الالم والاذى في الاخرين. والمؤرخون لا يعرفون الكثير عن طفولة دي سيد، ويعتقد بعض الباحثين أن نزعته السادية التي بدت في مسالكه وتجلت بشكل صارم في كتاباته، مردها كرهه العميق لامه، وما دفعت اليه هذه الكراهية من محاولة الانتقام من الانثى. ومهما تكن خلفية طفولته، فان من الجلي انه كان يتمتع باضطراب وعدم اتزان في حياته النفسية، ولعل هذا الواقع اضافة الى طبيعة كتاباته وبعض شطحاته (السادية) في السلوك، قد دفعت به في النهاية الى دخول مستشفى الامراض العقلية حيث امضى بقية حياته.

ومع ان الانطباع السائد هو ان سيد قد ركز اهتمامه على ممارسة العنف في العلاقات الجنسية، الا انه كان يحمل بعض الآراء التي اصبحت مثاراً للاهتمام العلمي بعد وفاته بقرن ونصف، ذلك ان سيد قد ادرك من تجربته الخاصة مدى العلاقة الوثيقة التي تربط بين اللذة والالم. وهو يقول: «انها ببساطة امر هزّ جميع اعصابنا باقصى االاهتزازات واشدها قوة. والان وبما انه مما لا شك فيه بان الالم يؤثر فينا بقوة اكثر من تأثير اللذة، فان هذا الاحساس اذا ما

حدث في الغير، فان كياننا كله يهتز بقوة اشد من الصدمة الناجمة». وسواء اتفق العلم مع آراء سيد او لم يتفق، فان سيد قد فتح بكتاباته واصطلاح السادية الذي ينسب اليه، باباً واسعاً للتأمل في ظاهرة قديمة وملازمة بدرجة او اخرى للحياة الانسانية. وترتب على العلم ان يفسر الدوافع في الحياة الانسانية التي تجعله يجد لذة في ايذاء الغير، ليس لغايات جنسية فقط، وانما لغايات اخرى لا يبدو فيها توافر اي غرض او هدف جنسي.

* *

ان ما يعنى به الباحثون في موضوع السادية هو التوصل الى اصول هذه الظاهرة في حياة الانسان الجنسية، والناحية الثانية التي تسترعي الاهتمام، هي تقرير مدى الصلة بين سلوك العنف والتعدي والايذاء الذي يمارسه الانسان في حياته، وبين النواحي الجنسية من حياته. ومع اهمية موضوع السادية في العلاقات الجنسية، الا ان الحالات التي تخرج فيها هذه الممارسة عن الحدود المقبولة قليلة العدد نسبياً، وان كانت تسترعي الانتباه الاعلامي في مختلف البلدان. اما الناحية الثانية، فهي اكثر اهمية واكثر صعوبة على الفهم. ذلك ان السادية الفردية في المجتمع لا ترتبط بوضوح مع النواحي الجنسية، واثبات مثل هذا الارتباط من الصعوبة بمكان. فبينما يرى بعض المحللين انه لا يوجد ارتباط بين السادية في التعامل الحياتي وبين النواحي الجنسية، فان البعض يرى عكس ذلك، ويجد في التعدي الذي يمارسه الانسان على غيره سواء قام به بالفعل، او بالخيال او بالاحلام، او ارتاح لقيام غيره به على اي كان، وبأي صورة كانت، هو بمثابة رمز للسادية الجنسية، وبهذا يكون رضا الفرد بمثل هذه الممارسات مساوياً للرضا الجنسي. وان كل الذي حدث، هو ان فشل الفرد لسبب ما في الحصول على الرضا الجنسي بشكل طبيعي او سادي، قد تحول وبصورة خفية وغير واعية عند صاحبه الى عدوان، وبهذا تكون لذة السادي هي لذة جنسية في اصولها وما تنتهي اليه.

ومهما يكن الفصل في هذه الجدلية، فان المرء لا بد ان يجد مبرراً للشعور بان هنالك رابطة اشد واوثق مما يبدو في الظاهر بين عاطفتي الحب والجنس. وبين عاطفتي الالم واللذة في حياتنا الاعتيادية. وسيظل من الصعب على الباحث تفسير ضرورات قيام العنف في العلاقات الجنسية بحدودها المألوفة والمقبولة والممارسة من قبل معظم الناس، او بحدوده الشاذة وغير الطبيعية. فهل الامر كما هو عليه يخدم غرضاً حياتياً هاماً يسهل البقاء ويعين عليه؟ او انه مجرد انحراف مرضي في علاقة الجوار والتفاعل بين مراكز العنف والجنس في الدماغ، او انه انحراف في عملية تطبع الانسان على العلاقات الاجتماعية، او انه يمثل خطأ في النمو النفسي الجنسي للانسان؟ . هذه الافتراضات وغيرها ما زالتَ قائمة في امر السادية الجنسية والسادية بشكل عام.

ومن الامور المتعلقة بالسادية الجنسية ظاهرة اقبال الناس في معظم الحضارات والازمان على ما يتسم بالعنف في السلوك سواءً كانت هذه الفعاليات جسدية كالحرب والعراك المؤذي والرياضة وغيرها من النشاطات الجسمية المتسمة بالعنف، او كانت فعاليات غير جسدية

كالصور والافلام والروايات التي تصور العنف. وفي رأي بعض الباحثين ان هذه الظاهرة الانسانية من الاقبال المباشر او غير المباشر على العنف، انما هي مظهر من مظاهر التعبير عن الطاقة الجنسية التي لا يمكن استنفادها بشكل كاف عن الطرق الجنسية المباشرة، ولا بد لها لذلك من ان تظهر على صورة عنف او ميل نحو العنف. ومع انه من الصعب اثبات هذه العلاقة، الا اننا لا نستطيع ان نغفل الملاحظة العلمية وهي ان الاستجابات الجسمية الفيزيولوجية للتعدي والعنف مهما كان الداعي اليها، هي استجابات مشابهة في معظمها للاستجابات الفيزيولوجية للعلاقة الجنسية، كما ان قدرة الفرد على ممارسة العنف لأي داع كان، تضعف الى حد بعيد حال وصول الفرد الى دور الانحلال (الذبول) من الاستجابات الجنسية، او بسبب انغماس الفرد المتواصل في الفعاليات الجنسية. وهذه الملاحظات وغيرها تبين مدى العلاقة بين العنف والجنس في حياة الانسان وفي المجالات المختلفة من نشاطاته.

المازوخية Masochism

المازوخية هي القطب المعاكس للسادية في محور السادومازوخية، وتتمثل الحالة المازوخية في اقبال الفرد وتقبله لما يمكن ان يقع عليه من الم او ايذاء جسمي او نفسي من شخص آخر اثناء التمهيد للعلاقة الجنسية بينهما او اثناء العلاقة الفعلية. وكما هو الحال في ظاهرة السادية، فان درجة ما من تقبل الالم وحتى توقعه والسعي اليه قد يكون امراً طبيعياً في العلاقة الجنسية الطبيعية عند معظم الناس، غير ان جعل الحالة انحرافاً مازوخياً يقتضي توافر التجاوز لهذه الحدود الطبيعية، مما يوقع الايذاء على احد الشريكين في العلاقة الجنسية، كما ان الحالة تعدّ انحرافاً فيما اذا اعتمدت العلاقة الجنسية اعتمادا اساسياً على تقبل الالم، او ان تقبل الالم في حد ذاته اصبح الغاية او البديل للعلاقة الجنسية.

كان العالم الجنسي (كرافت ابنج Kraft - Ebing) اول من استعمل مصطلح (المازوخية) وذلك نسبة للكاتب الروائي النمساوي الذي ارتبط اسمه بهذه الظاهرة وهو (ليبولد زاخر مازوخ Leopold Zacher Masoch) الذي عاش بين (١٨٣٦ و١٨٩٥) والذي الف الرواية المشهورة (فينوس في الفراء Venus in Furs). والمعروف ان الرواية تمثل في بعض اجزائها فترات وتجارب من حياة المؤلف نفسه وخاصة في طفولته(*). وتتلخص اهم الحوادث في تجربته، وهي الحادثة التي استرعت اهتمام المحللين النفسيين، بان مازوخ في طفولته كان يعيش مع عمته والتي كانت تعاشر عشيقاً لها بين الحين والاخر. وقد دفعه حب الاستطلاع ذات مرة للاختباء في دولاب للثياب ليشاهد ما يحدث بالفعل، فرأى عمته وهي تبدل ملابسها وتلبس ثوباً من الفرو الناعم، ثم يقبل عشيقها وتطارحه الغرام. وبينما كان مازوخ يرصد كل ذلك بحماس واهتمام، بدرت منه حركة جلبت الانتباه اليه واكتشف امره وعاقبته عمته بضرب مؤلم. وهكذا يفسر المحللون

(*) لعل من اهم الوثائق في الطب النفسي هي الوثيقة التي تتضمن بنود التعاقد الذي ابرمه مازوخ مع زوجته والذي يبين مدى حاجة المازوخي للاذلال والايذاء الجسمي او النفسي او كليهما للحصول على الاستثارة والارضاء الجنسي.

قيام ارتباط بين الالم الذي وقع عليه وبين لذة الاثارة الجنسية التي كان مازوخ يتمتع بها، وبأن هذا الارتباط قد تأصل في نفسه والى حد جعل من الممكن قيام اعتماد متبادل بين شعوري الالم واللذة. ومع ان هذه التجربة كانت شديدة وصارمة في مخيلة وشعور مازوخ، الا انه يشك بان تجربة واحدة من هذا النوع تكفي لقيام ارتباط دائم بين الالم واللذة، والى الحد الذي يمكن جعله انحرافاً، ولا بد لنا لذلك من ان نفترض تكرر مثل هذا الارتباط في التجربة، او ان المازوخي مهيأ بطبيعته النفسية الى مثل هذا الانحراف وان كل ما يحتاجه هو التجربة التي تبدأ نمط الانحراف الجنسي.

ان من غير الواضح تماماً فيما اذا كان الخضوع او القبول للالم هو الذي يكون اللذة الجنسية او يكون بديلاً عنها. كما انه لا يوجد رأي قاطع من ان الشخص الذي يقع عليه الالم يشعر به كألم، او ان الالم يتحول في احساسه الى شعور باللذة حتى قبل ان يتحسسه كألم. ومع ان بعض العلماء يعتقدون ان احساس الالم في نفس المازوخي يتحول بطريقة ما الى لذة، الا انهم لم يستطيعوا حتى الآن بيان هذه الطريقة. وهنالك آخرون لا يتفقون مع هذا الرأي، من ان الالم يتحول الى لذة، ويرون ان تقبل الفرد للالم هو الثمن الذي يترتب على الفرد ان يدفعه مقدماً من اجل الحصول على لذته الجنسية. فالانثى مثلاً، وهي التي يقع عليها اكبر قدر من الايلام، والاكثر تقبلاً له في علاقاتها الجنسية، فانها في نظر هؤلاء لا تقبل بالالم كضرورة للوصول الى متعتها الجنسية فقط، وانما بسبب اضطرارها للمطاوعة الجنسية. وبذلك يكون قبولها للالم هو الثمن للحصول على لذة اعظم. ومع ان النظرية التحليلية التي تفسر المازوخية على اساس من تجارب الطفولة التي تربط بين الالم والمتعة الجنسية، تبدو مقنعة، الا ان الامر ليس من السهولة كما يبدو نظرياً. هذا ويتجه البحث في السنوات الاخيرة نحو دراسة العلاقة التي تربط بين اللذة والالم في الشعور، وبعض الابحاث حتى الآن تؤيد الصلة الوثيقة بين الاحساسين - وعلى سبيل المثال فان احاسيس الحرارة والدغدغة والقرص قد تكون مثيرة لشعور اللذة الى حد ما، غير انها تصبح ألماً اذا ما تجاوزت هذا الحد. ومن الملاحظات ايضاً ان الاحساس بالالم اذا ما استمر وتواصل، فقد يصبح احساساً مرغوباً فيه. وهكذا فان ما يبدو في الاصل مجرد مطاوعة او خضوع بالضرورة للعلاقة الجنسية المؤلمة، فانه قد ينتهي اخيراً بتوفير اللذة لصاحبه، ومن شأن ذلك ان يدفع بالفرد للسعي الى لذته حتى ولو كانت عن طريق الالم وتقبله. وقد يسند مثل هذا الرأي ان الالم كلما زاد، كلما كانت اللذة التالية له اكثر متعة لصاحبها، وهي ملاحظة معروفة منذ القدم ولها ما يؤيدها في مفهوم العلم المعاصر. والملاحظات التي اوردناها، بما فيها تجربة مازوخ في حداثته، تضع تفسير المازوخية ضمن عمليات التطبع الشرطي في قيام السلوك الانساني. ولهذا التفسير ان يسمح بالجمع بين الاحاسيس المتضادة في طبيعتها، وان يمكن من استبدال الواحد منها بالآخر، او اعتماد الواحد منها على الاخر.

ومن النظريات التي لا بد من الاشارة اليها هي التي تفسر قيام المازوخية على انها مظهر من مظاهر الانسان الطبيعية. فالطبيعة الانسانية تبعاً لذلك، تقوم على اساس (المتسلط) (والخاضع)

في التعامل الحياتي. وان هذا الاساس من التعامل هو ضرورة لاقامة التوافق بين (المتسلطة) (والمتسلط عليه) في العلاقة الجنسية. ويرى الباحثون ان الرجل يتجه في حياته نحو السادية، وان الانثى، وهي المتسلط عليها والخاضعة في العلاقة الجنسية، هي المازوخية، غير ان غيرهم يرى عكس ذلك، ويجد ان الانثى اعظم سادية من الذكر. وانها في طبيعتها اكثر عنفاً، وان كانت تمارس عنفها وساديتها على الرجل بطريقة غير جسدية وغير مباشرة. وتحقق لذتها بما تفرضه عليه من المعاناة في التواق اليها وملاحقتها، وفي (انهاكه) في العلاقة الجنسية، وهي العلاقة التي لا تنهكها. ويفسر آخرون المازوخية على اساس توافر الانطباع الذهني المكتسب بالتلقين والتعليم لدى الانثى، من ان الالم ضروري لعملية الانجاب وفض البكارة، وهي عمليات مؤلمة، ومثل هذا الانطباع ينمو في ذهن الانثى الى حالة اعداد نفسي، يحفزها على تقبل الالم من اجل انجاز هذه المهام. ومن شأن هذا الاعداد النفسي ان يسترسل وينفذ الى الممارسات الجنسية التي تخرج عن هاتين الحاجتين. وربما لا يكون هذا الاعداد مقتصراً على النواحي النفسية. فهو قد يتعدى ذلك الى المجال البايولوجي. ويؤيد هذا التصور الملاحظة بان التغيرات الفيزيولوجية التي تصاحب الذروة عند الانثى تتشابه تماماً مع التغيرات الفيزيولوجية التي تحدث اثناء الدور الثاني من ادوار عملية الوضع. وبان الشعور في الحالتين متشابه. وهذه الملاحظة تعطي الدليل ليس على مدى الترابط بين الالم والذروة في الشعور، وانما ايضاً تؤكد ضرورة الاحساس بالالم بوصفه تجربة حياتية تخدم اهداف الحياة وتعطي الرضا والمتعة في (البقاء).

* *

كما سبق واشرنا في موضوع السادومازوخية بشكل عام، فان من غير الضروري ان يستقطب السلوك اما بالسادية او المازوخية، فقد يتصف البعض بالسلوكين معاً في آن واحد او بالتتابع، او ان يكون الواحد سادياً في مناسبة ومازوخياً في مناسبة اخرى. ومثل هذه الثنائية من الأنحراف، ان وجدت، تعدّ تضخيماً لواقع تواجد درجة ما من الاتجاه الثنائي في كل انسان بالرغبة في احداث بعض الالم الجسمي او النفسي على غيره، وفي تقبل بعض الالم الذي يقع عليه من الغير. غير ان اهم ما يعنينا بشأن المازوخية، كما هو الحال بشأن السادية، هو مدى الحاجة الى ممارستها للارضاء الجنسي، وما قد يترتب على ذلك من نتائج مؤذية لاحد الطرفين، وما لهذه النتائج من ملابسات اجرامية.

الفصل السابع عشر

الجنسية المثلية

* مصطلح الجنسية المثلية
* تاريخ الجنسية المثلية
* الجنسية المثلية في المجتمعات البدائية
* الجنسية المثلية عند الحيوانات
* الجنسية المثلية في الحضارات المعاصرة
* الطبيعي والمنحرف في الجنسية المثلية
* الجنسية المثلية المنحرفة
* اسباب الجنسية المثلية
  النظريات البايولوجية، النظريات المحيطية
* الجنسية المثلية والقانون
* الجنسية المثلية الكامنة
* الجنسية المثلية والابداع
* الجنسية المثلية والمرض
* الفاعل والمستلم في الجنسية المثلية
* الجنسية المثلية والاجرام
* علاج الجنسية المثلية
* الخلاصة

الجنسية المثلية

موضوع الجنسية المثلية او العلاقة الجنسية بين فردين، ذكراً او انثى، من نفس الجنس، هو موضوع في غاية الدقة والتعقيد، ومرد ذلك اننا لم نفهم بعد وبشكل كامل النواحي البايولوجية والنفسية والمحيطية التي يمكن لها ان تلعب دوراً في تكوين الحالة، اضافة الى ما ارتبط بهذه العلاقة من نظرات اجتماعية وحضارية متعاقبة ومتغيرة ومتباينة مما يصعب تفسيره ورده الى قاعدة واحدة من الحكم على هذه الممارسة. ومع انه من المنطقي لنا ان نفترض ان هذا النمط من الممارسة الجنسية قد يكون من اقدم انماط الممارسة الجنسية في تاريخ الانسان ان لم يكن اقدمها جنباً الى جنب مع الممارسة الجنسية (الطبيعية) بين الذكر والانثى، الا اننا ما زلنا حتى الآن نجهل الكثير من الدوافع لهذا النمط السلوكي، وخاصة في اولئك الذين تتحدد وتتركز ميولهم وممارساتهم الجنسية بهذه الطريقة من الممارسة دون غيرها. هذا وقد اولى العلماء والباحثون في المجالات المختلفة من بايولوجية وطبية ونفسية واجتماعية وانثربويولوجية ودينية واخلاقية وقانونية، اهتماماً خاصاً لموضوع الجنسية المثلية، وخاصة في القرن الحالي، وقد تمخض عن ذلك الكثير من البينات التي تلقى الضوء على هذه الظاهرة الانسانية القديمة قدم الانسان. والمتتبع لهذا الموضوع يجد تحولاً واضحاً في النظرة الى هذه الممارسة في الكثير من المجتمعات، والتي تحولت الى تفهم اكثر لهذه النزعة ودوافعها وبالتالي الى ادانة اقل صرامة وتشدداً للممارسين لها. غير ان الكثير من التحيز والتشدد ما زالا يرتبطان بهذا السلوك في مجتمعات وحضارات اخرى. وفي مثل هذا الجو المشحون بالتباين في وجهات النظر بين مجتمع وآخر وحضارة واخرى، فان كل ما نستطيعه الآن هو بيان الحقائق المعروفة، قديمها وحديثها، بشأن هذا الموضوع الهام،

ويترك للقارىء تكوين اتجاهه الخاص نحوه.

مصطلح الجنسية المثلية

مصطلح (الجنسية المثلية او المماثلة) للتعبير عن العلاقة بين فردين من جنس مماثل، الذكر مع الذكر، والانثى مع الانثى، هو اصطلاح حديث العهد في اللغة العربية، وهو مصطلح لترجمة حرفية لمصطلح حديث العهد نسبياً في اللغات الغربية وهو مصطلح Homosexuality. الذي وضعه العالم السويسري الدكتور بنكرت Benkert ـ عام ١٨٦٩، هذا ولم يدخل هذا المصطلح الى اللغة الانجليزية الا في اوائل التسعينات من القرن الماضي عندما استعمله العالم الجنسي المشهور هافلوك اليس H. Ellis الى هذه اللغة في كتاباته. وقد اخذ هذا المصطلح بشكل تدريجي مكانته الحالية في المصطلحات الطبية والنفسية والاجتماعية والقانونية، وحل الى حدود بعيدة محل المصطلحات والنعوت الشائعة لهذه الممارسة ومعظمها من التعابير والكلمات التي تعطي دلالة وحكماً اخلاقياً يدين ويشين الممارسة وصاحبها. وقد وجد المصطلح الجديد طريقه الى اللغة العربية، وان كان ذلك ما زال مقتصراً على المجال الطبي والنفسي، وما عدا ذلك فما زالت الالفاظ التقليدية شائعة الاستعمال ومنها اللواطية، والمستعمل، والمأبون. واكثرها استعمالاً هو التعبير «اللواطية». وكما هو واضح فان اللفظة مشتقة من كلمة (لوط)، ومما تعنيه في اللغة العربية الالتصاق، وتعني ايضاً «الاستلحاق ـ التاط ولداً = استلحقه، كما تعني الحب اللازق في القلب. ومع ان للمصطلح كما هو قائم بعض هذه الدلالت من (الالتصاق) (والحب) (والاستلحاق)، الا ان اللفظة ترتبط بشكل اوثق من ناحية الممارسة وادانتها باسم النبي (لوط) واهله. وقصة اهل لوط وممارساتهم وما عوقبوا به، اصبحت بالتالي مرادفة لكلمة لواط، اي ان يأتي الانسان فعلا كفعل قوم لوط. ومثل هذا الاشتقاق موجود في لغات اخرى تستعمل لفظة (سودومي Sodomy) وهي مشتقة من بلدة سودوم Sodom، التي اصابها الدمار بمشيئة الله، كما ورد في التوراة والقرآن اقتصاصاً من اهلها لممارساتهم اللواطية الواسعة. ويعتقد ان موقع هذه البلدة تاريخياً هو في الجزء الجنوبي الغربي من البحر الميت.

* *

ان المصطلح الحالي، (الجنسية المثلية)، هو مصطلح وصفي عام للعلاقة الجنسية، ولا يفيد اكثر من قيام العلاقة الجنسية بين فردين من جنس واحد (ذكراً او انثى). وهو لا يكفي لوحده لبيان كل حالة من مجموعة واسعة من الحالات التي يمكن ان تصف او تميز العلاقة بين اثنين من جنس واحد. ولا بد لذلك من ان يردف الاصطلاح بما يصف هذه العلاقة. ومن الحالات التي تتطلب مثل هذا الوصف والتعيين هي فيما اذا كانت الجنسية المثلية بين ذكرين او انثيين، فالحالة الاولى تسمى بالجنسية المثلية الذكرية Male Homosexuality والثانية الجنسية المثلية للانثى Female Homosexuality والتي تنعت احياناً (بالسحاقية والصافية واللسبية). وهنالك حالة العلاقة الجنسية المثلية بين الاطفال بعضهم مع بعض (الجنسية المثلية الطفولية Infantile Homosexuality) وهنالك العلاقة الجنسية المثلية بين الرجل والطفل او المرأة والطفلة

(والتي تنعت بالغلامية او الجنسية المثلية مع الاطفال Homosexual Pedophilia. وهنالك ضرورة التفريق بين الممارسة الجنسية المثلية الاختيارية Facultative Homosexuality، وهي الممارسة الجنسية المثلية التي يختارها الفرد بارادته، وتلك الممارسة المثلية التي يجبر عليها لسبب او آخر: الجنسية المثلية الاجبارية Obligative Homosexuality، ثم هنالك المصطلحات التي تفرق بين ان يكون الفرد ممارساً بالحصر للجنسية المثلية دون غيرها، وبين ان يكون اما ممارساً للجنسية الطبيعية المخالفة معها Hetrosexual Homosexuality، او ان يكون ثنائي الجنسية يتجه نحو اتخاذ موقف (سالب) وموجب في ممارساته الجنسية. واخيراً فان هنالك الحالات الجنسية المثلية التي لا تصل الى حدود الممارسة الجنسية الفعلية، وتبقى دونها، اما على شكل الشعور والعاطفة والميل(*) أو تتعدى ذلك الى بعض المظاهر السلوكية من عبث ومداعبة بما في ذلك الاستمناء. واخيراً فانه بالاضافة الى هذه المصطلحات التي لها ان تعين نوعية الممارسة الجنسسية المثلية، فان هنالك مصطلحات اخرى تربط بين هذه الممارسة وانحرافات جنسية معينة كالسادية والمازوخية والفتشية والالباسية والجنسية المعاكسة وغيرها من ضروب الانحراف الجنسي. ان هـذه المصطلحات وغيرها، ومعظمها حديث الاصطلاح، تدلل على مدى تشعب وتعقيد موضوع الممارسة الجنسية المثلية، وعلى مدى الافتراضات التي يجب ان يحاط بها عند البحث في هذا الموضوع. (**).

تاريخ الجنسية المثلية

ان من المتعذر توصلنا الى تحديد الزمن التاريخي الذي ابتدأ فيه الانسان ممارسة الجنسية المثلية، وربما لا يكون هنالك خطأ عظيم في الافتراض بان الجنسية المثلية، في الاقل في مرحلة الطفولة والحداثة، هي اول ممارسة جنسية في حياة الانسان الاول، وربما لا يكون بعيداً عن الحقيقة ان الانسان النامي في اوائل وجوده قد مارس الجنسية المثلية احياناً الى جانب العلاقة الجنسية الاعتيادية (المخالفة) اما بالضرورة او الاختيار. ولعل ما ورد من روايات عن هذه الممارسات منذ العهود القديمة، وما هو معروف عن انتشارها العالمي والواسع في شتى المجتمعات والحضارات المختلفة والمتقدمة، ما يدلل على ان الجنسية المثلية ليست حدثاً طارئاً وجديداً في حياة الانسان، وان ممارسته لها قد سبقت التاريخ الذي دون هذه الممارسة وأباحها او ادانها. ومن اقدم البينات على ممارسة الجنسية المثلية ما يفيد بان المصريين القدماء قد مارسوا الجنسية المثلية، واشاروا الى وقوعها بين الالهة واشباه الالهة وعامة الناس كما تدلل على ذلك مخلفات مكتوبة على

(*) والعلاقات الحميمة بين اثنين من الجنس الواحد مما قد يضمن فيها الحب والمصاحبة وهي ظاهرة شائعة بين الممارسين للجنسية المثلية والممارسين للجنسية الطبيعية على حد سواء.

(*)(*) وبسبب هذه الحدود الواسعة من الظواهر الجنسية المثلية والتي تمتد من مظاهر السلوك غير الواعي نحو التأنث والى الافكار والخيالات والعواطف والميول والاحلام الجنسية المثلية وحتى الممارسة الفعلية بشكل عرض او موقف دائم وحتى قيام الممارسة الغالبة او الصرفة، فان مصطلح الجنسية المثلية اصبح غير واف ودقيق للاحاطة بهذا الشمول واصطلح بدلاً منه مصطلح التوجه الجنسي المثلي.

ورق البردي تبين وقوع الجنسية المثلية بين الذكور وتعود الى سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد، كما أن هنالك بينات مماثلة في تاريخ الحضارات البابلية والكلدانية والكنعانية.

ومن اقدم الاشارات الى الجنسية المثلية ما ورد من نصوص وآثار للحضارة الاغريقية القديمة. فالاساطير الاغريقية اوردت الكثير من الاشارات عن وجود علاقة جنسية مثلية بين آلهتهم. وبين آخرين من الذكور من انصاف الآلهة او العامة. وممن ورد ذكرهم علاقة الحب بين الاله زيوس Zeus والشاب جانيميد Ganymede وبين الاله بوسيديون Posedion وبلوبس Pelops، والأله ابولو Apollo وهايسنثوس Hyacinthus. والأله هرميس Hermes وكادموس Cadmus، وبين هيرقليس Heracles وبين نصف الأله والاخ النصف لولوس Lolous. اما في الاشارة الى العلاقة الانسانية المثلية، فلعل اول ما ورد ذلك في الحضارة الاغريقية قد جاء في الالياذة Iliad للشاعر الاغريقي هومر، الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد، والذي أرّخ في ملحمته زمنه وزمن المدينة المسينية Mycenaen، والتي تقع ما بين ١٤٠٠ وحتى ١١٥٠قبل الميلاد، بما في ذلك تاريخ الحرب الطروادية بين سنتي ١١٩٤ وحتى ١١٨٤ قبل الميلاد. ومع ان هومر، او هوميروس، كما يعرف في اللغة العربية، كان شاعراً زاهداً شديد التزمت في الياذاته، ومجد العلاقة بين الزوج والزوجة وعدّها علاقة رقيقة وسعيدة وهانئة، وخاصة في ملحمة الاديسي Odyssey، الا انه اشاد في مواطن عدة في ملحمته وخاصة الاخيرة، الى مختلف انواع الخروج عما هو مألوف من العلائق الجنسية، ومن جملة ذلك العلاقة الجنسية بين الذكور. غير ان هومر لم يشر الى الجنسية المثلية بصورة مباشرة، وانما نوّه بها بشكل حذر وشاعري ومتطهر، غير ان هذا التنويه قد خلد العلاقة التي يمكن ان تقوم بين رجلين، وهي العلاقة التي يفسرها البعض بانها (حب هومري) لا علاقة له بالجنس، ويفسرها غيرهم، وهو التفسير الاكثر قبولاً، بانها علاقة حب جنسي مثلي. وقد ورد ذلك فيما اشار اليه هومر عن العلاقة الوثيقة التي ربطت بين اخليس Achilles، بطل حرب طروادة وبين الشاب (بتروكولوس Patroclus)، والذي ترعرع مع اخليس في مدينة فيثيا Phthia، وصاحبه فيها بعد الى حرب طروادة حيث قتل فيها. وما تبع ذلك من الثأر العظيم الذي ثأر به اخليس لصديقه. وقد احجم هومر عن ذكر اي علاقة جنسية بينهما، مما دعى الى الاعتقاد ان العلاقة بينهما كانت علاقة صداقة وحب روحي وليست علاقة ايروس الشهوانية، ويفند هذا الرأي مما يبدو من اللغة العاطفية الشغوف التي قص بها هومر العلاقة بينهما، اضافة الى الاستنتاجات الممكنة من ان اجاميمنون Agamemnon قد قدم العديد من الشباب النبلاء لتعويض اخليس عن خسارته لصديقه، ومن ان الشاب (انتيلوخوس Antilochus) قد اخذ مكان بتروكلوس بعد موته، وعن سبب دفن الثلاثة في قبر واحد، واختلاط عظام اخليس بعظام صديقه بتروكولوس. ولعل اروع ما وصفت به العلاقة بين الصديقين المتحابين هو وصف الحلم الذي حلم به اخليس، والذي عبر عنه هومر في الالياذة بقوله:

.. «لن يصيبني حزن آخر في قلبي ما بقيت حياً». ـ ثم جاءه شبح بتركوليس

المنكود... ووقف فوق رأسه وكلمه قائلاً: «انك تنام، وقد نسيتني يا اخليس... وعندما كنت حياً لم تكن مُهملاً لي، ولكن بعد موتي ادفني بكل سرعة، لكي اعبر ابواب جهنم، وبعيداً تبقيني الاشباح. اطياف الرجال.. فهي لا تمكني من الانضمام اليها وراء النهر، وانما اهيم عبثاً في بيت جهنم واسع الباب. اني اتضرع لك شفقة علي، ان تعطيني يدك لأني لن اخرج ابداً من جهنم بعد ان اعطيتني ما يحق لي من النار. ولن نتمكن ابداً في الحياة من ان نجلس في خلوة عن رفاقنا ونتشاور مع بعضنا، فالقدر المشؤوم قد التهمني، القدر الذي اعطي لي حتى عند ولادتي. وحتى انت يا اخليس، وانت كالآلهة، فانت قد قدر لك ان تموت تحت جدار الطروادين الاثرياء. وهنالك شيء آخر اقوله لك، واعهد به، اذا ما اصغيت: لا تترك عظامي بعيدة عن عظامك يا اخليس... وانما مع بعضها... واجعل صندوقاً واحداً يحتضن عظامنا، صندوقاً ذهبياً بمقبضين، وهو الذي اعطتك اياه امك الملكية». وجواباً عليه فان اخليس سريع العدو اجابه: «لأي سبب ايها الرأس الحبيب اتيت الى هنا، وتعطيني التكليف بكل هذه الاشياء؟ نعم، نعم، اني سافعل كل شيء لك واصغي وانت تأمرني. ولكن قف قريباً، وان كان لفترة قصيرة، ودعنا نعانق ذراعينا معاً، الواحد مع الآخر، وان نملأ انفسنا من حسرتنا الفاجعة». وبقوله هذا، مد يديه المحبتين، غير انه لم يعانقه، ذلك ان الشبح كالدخان، قد غاب تحت الارض يهذرم بصوت خافت. - (الالياذة)-

واضافة الى الاختلاف بين الباحثين في طبيعة العلاقة بين الصديقين، وفيما اذا كانت علاقة صداقة وحب وجدانية روحية، او هي علاقة حب شهوانية جنسية مثلية، فان هنالك اختلافاً آخر حول المحب والمحبوب، الفاعل، والمستلم في العلاقة الجنسية بينهما. وهنالك من يعتقد ان اخليس، وليس بتروكولوس، هو المستلم للعلاقة ذلك انه كان اصغر سناً واجمل صورة من صديقه بتروكولوس.

ولم تقتصر العلاقة الجنسية المثلية على الاساطير اليونانية ولا على ملاحم هوميروس بل انها كانت منتشرة في اثينا وسبارطة وغيرها من المدن الاغريقية، وقد مجدت هذه الممارسة وتغنى بها الشعراء وتناولها بعض فلاسفتهم بالتقدير، كما عبر عنها بالتماثيل وفي الاعمال السيراميكية. وكان الفيلسوف افلاطون اكثر توضيحاً واطناباً لهذه الممارسة كما ورد في الحوار (سمبوزيوم Symposium):

«ولو كانت هنالك وسيلة ما لتكون الدولة متكونة من محبين ومحبوبين، فانهم سيكونون اعظم ما يمكن ان يكونوا من الحاكمين لمدينتهم، ممتنعين عن كل ما يخل بالشرف، مقلدين بعضهم البعض في الشرف، وعندما يحاربون جنباً الى جنب، وحتى ولو كانوا بعدد اصابع اليد، فانهم سيغلبون العالم، ذلك ان المحب لا يختار شيئاً اعظم من ان يرى محبوبه... وهو يفضل ان يموت الف مرة من ان يتحمل التخلي عن موقعه او التخلي عن سلاحه، ومن منهم يجرؤ على ان يهجر او ينثني عن حبيبه في ساعة الخطر؟ فأدنى الجبناء

يصبح ملهمًا ومتساوياً مع اكثر الشجعان، ذلك ان الحب في تلك اللحظة يلهمه». - السمبوزيوم -

ومن الدلائل على ما حظيت به العلاقة الجنسية المثلية من تمجيد في الحضارة الإغريقية القديمة ما روي عن معركة شارونيا عام ٣٣٨ ق.م، والتي قامت بين جيش فيليب المكدوني وبين الاثينيين، والذي يروى هو ان الذين قاموا بالتصدي لجيش فيليب كانوا افراد كتيبة خاصة عرفت باسم (العصبة المقدسة)، والتي تألفت من ثلاثمائة شاب ارتبط كل اثنين منهما برابطة قوية من الوفاء والحب. وقد حافظت الكتيبة على مواقعها حتى افني كل واحد من افرادها. ومما يجدر ذكره انه اكتشف في مطلع هذا القرن تمثال لاسد رخامي كبير على مشارف القبر الجماعي الذي يعتقد انهم دفنوا فيه جميعاً. ومن هذه الروايات والنصوص والاساطير وغيرها من مخلفات الفن، يتضح لنا ان الاغريقيين عدوا الجنسية المثلية نمطاً مقبولاً ومرغوباً فيه، وشجعوه علناً وتغنوا بمحاسنه، وجعل بعضهم علاقة الحب التي تربط بين الرجل والصبي تجربة تربوية مثالية، وهو الرأي الذي تسرب الى حضارات اخرى اباحت مثل هذه العلاقة في حين او آخر. ومن الذين امتدحوا هذه العلاقة واشادوا بمزاياها الفيلسوف افلاطون في قوله: «عن طريق الحب الليلي للغلمان، فان الرجل عندما يستفيق، فانه يبدأ في رؤية الطبيعة الحقيقية للجمال». ومثل ما ورد في تمجيد الممارسة الجنسية المثلية في الذكور، ورد ما يماثله من تمجيد الجنسية المثلية بين الاناث. كما سنوضح ذلك في الحديث عن السحاقية - (الصافية او اللسبية)، غير ان هذا التمجيد لم يكن دائمياً في الحضارة الاغريقية، فهوميروس قد ادان في ملاحمه الجنسية المثلية بين الاناث، وعدَّها محرمة وممنوعة بشكل تام وقاطع.

وفي تاريخ العبريين انتشرت الجنسية المثلية بصورة واسعة، والمعروف انهم قبل السبي البابلي قد تبذلوا في هذا الاتجاه، كما انهم شجعوا على اقامة علاقة جنسية مثلية تربط عامة الناس بالكهنة، وانتشرت الممارسة الجنسية المثلية بينهم وبين غيرهم من سكان بلدان البحر المتوسط وحتى ظهور المسيح. ولكنهم بعد السبي البابلي قد ادانوا هذه الممارسات، ويفسر ذلك على انها كانت محاولة للمحافظة على هويتهم من الاندثار. وقد حرمت التوراة الممارسة تحريماً تاماً، وتواصل هذا التحريم في الانجيل والديانة المسيحية. وحجة التحريم في كل منهما هو ان العلاقة الجنسية قد وجدت من اجل الخلق والانجاب، ومن انها يجب ان لا توظف الا في هذا الفرض. وشرع اللاهوتيون ان العلاقة الجنسية المثلية لا تؤدي الى ذلك، وهذه العلاقة لذلك في نظرهم هي انحراف يعطل فعل الطبيعة، وانها علاقة مشينة وآثمة، وفي ادنى درجة من درجات الاثم(*) واستمرت هذه النظرة، وبشكل اشد تعنتاً وادانة حتى القرون الوسطى، وحتى الى يومنا هذا وفي بعض المجتمعات حتى المتقدمة والمتحضرة منها.

(*) فالكنيسة في القرون الوسطى ادانت اللواطية لانها اضافة الى كونها ممارسة غير طبيعية. فانها وسيلة من وسائل السحر واتهم اصحابها بانهم على صلة بالشيطان الذي يملك قضيباً مفروقاً يمكنه من ممارسة الزنا واللواط مع الانثى في وقت واحد.

الجنسية المثلية في المجتمعات البدائية

تفيد الدراسات التي قام بها العلماء الانثربوبولوجيون لبيان اشكال الممارسة الجنسية في المجتمعات البدائية والتي يفترض ان عاداتها وممارساتها لم تتغير بصورة جذرية عبر العصور، فان ٤٩ من ٧٦ مجتمعاً بدائياً تمت دراسته (٦٤٪)(*) تنظر الى الممارسة الجنسية بوصفه امراً طبيعي ومقبولاً اجتماعياً (**) وبعض هذه المجتمعات تبيح العلاقة، وبعضها يبيح فقط الاتصال اليدوي والفمي، وفي بعض هذه المجتمعات نظمت هذه العلاقة بشكل اجتماعي رتيب. فعند احدى قبائل الهنود الحمر المسماة (موهافي Mohave)، وهي قبيلة شديدة المراس في الصيد والحرب، نجد ان القبيلة قد افرزت اولئك الشباب والرجال الذين لا يستطيعون البلاء في هذه الضروب، واوجدوا لهم لذلك مرتبة خاصة، فالبسوا افرادها كالاناث، واتخذ كل فرد له (زوجا) من الذكور، وقام باعمال بيتية نافعة له كالتي تقوم بها الزوجات عادة. هذا وقد اطلق على هذا الفرد المتأنث اسم (برداخي Berdache).

وفي بعض قبائل الصين السيبيرية، نجد ان قبيلة الأبورجين المسماة «شكشي Chukchee»، تقوم بمراسيم زواج جنسية مثلية. والذكر الذي يعد اعداداً خاصاً لان يكون (زوجة) ويدعى بعد الزواج (الشمان Shaman)، او الطبيب الساحر. ودوره في عملية الزواج هو دور المستلم السالب. غير ان لزوجه ان يأخذ زوجة من الاناث لانجاب الاطفال. وللشمان ايضاً ان يتخذ خليلة من النساء ايضاً. ومن الواضح ان هذا النوع من الترتيب يتعدى حدود الجنسية المثلية الصرفة، ذلك ان فيه دلالات على الجنسية الثنائية Bisexuality. ولعل مما يجدر الاشارة اليه ان هذا الرجل (الزوجة) والذي يصبح شماناً او طبيباً ساحراً يحتل مركزاً مرموقاً ومحترماً في مجتمعه، وبأنه ما زال يتعذر علينا حتى الآن فهم مغزى هذه المنزلة الرفيعة ومدى علاقتها بالجنسية المثلية، ولعل من غرائب الواقع، ان نجد نمطاً مماثلاً للعلاقة المثلية، من حيث اقامة التزاوج بين ذكرين، فيما افاده احد الرحالين العرب في بلد عربي بدائي التقاليد، وقد ذكر الرحالة انه علم بان بعض الرجال في ذلك المجتمع يتخذ له زوجة من احد الذكور، وبان (الزوجة) تلبس زي النساء وتتحجب وتسكن بيت الزوجية. ويقول الرحالة ان باب البيت اذا ما طرق، فتح الباب بما يكفي لرؤية الزوجة بطرف عينها للطارق، (وتجيب) عادة بان الزوج غير موجود. ويعلل الرحالة هذه الاجابة الغالبة بانها دليل التملك والاستحواذ والغيرة على (الزوج).

وفي قبيلة (سيوان Siwan) في جنوبي افريقيا، فان القبيلة تعدّ الذين لا ينغمسون في ممارسة الجنسية المثلية اناساً غريبي الاطوار، ذلك ان المتزوجين حالهم حال العزب من الذكور، يتوقع منهم ان يمارسوا الجنسية المثلية والجنسية المخالفة على حد سواء، والى درجة انهم يقومون باعارة

(*) دراسة فورد وبيش Ford and Beach (١٩٥٢).

(**) والمجتمعات البالغة (٣٦٪) لم تجز الممارسة وان كانت هنالك دلالات على ممارستها بالسّر.

اولادهم بعضهم لبعض لمزاولة ذلـك، وفي قبائـل (الاراندا Aranda) في استـراليا، فـان من المألوف ان يتخذ الرجل حبيباً له من الذكور ويعيش معه ويتخذه زوجةً والى ان يتم زواج الرجل بانثى. وقد سبق ان اشرنا الى احـدى المجتمعات في جـزر الملايـو والمعروفـة بالاسم المستعـار (بالخليج الشرقي East Bay). وقد افاد احد الباحثين عن عادات هذا المجتمع بان كل فتى من الذكور يتوقع منه ان يكون قد مارس الجنسية المثلية بشكل واسع قبل وصوله سن المراهقة، ويتم ذلك عادة مع رجل اكبر منه سناً، وذلك قبل ان ينتهي الامر بممارسة العلاقة الجنسية الطبيعية مع الانثى وبذلك ينتهي عهد الجنسية المثلية تماماً بدون عودة اليهـا. ويشير البـاحث ان هذا المجتمع يعد العلاقة الجنسية في الكبر بـين الذكـر والانثى على انها عـلاقة اعـظم واسمى من العلاقة الجنسيـة المثلية التي قلما تمـارس بعد الـزواج. وهذه المـلاحظات لهـا ان تدلـل على ان اكتساب الهوية الجنسية النهائية بما في ذلك الهوية الجنسية المثلية (المنحرفة)، لا تعتمد بالضرورة على زمن ومدى ممارسة الجنسية في دور او آخر من ادوار النمو للفرد.

الجنسية المثلية عند الحيوانات

لاحظ العلماء والباحثون وغيرهم وجود ممارسات جنسية مثلية في السلوك الجنسي لبعض فصائل الحيوانات، فقد لوحظ ذلك في السلحفاة (الذكر منها)، وفي القطط والكلاب والخيول وغيرها. غير ان هذه الممارسات اكثر وروداً في السلوك الجنسي لبعض فصائل القردة كما افاد بذلك زوكرمان (١٩٣٢)، بما لاحظه ان قرد البابون Baboon او السعدان، يمـارس العلاقـة الجنسية مع اصنافه من الذكور في الفترة ما دون البلوغ، وهو الدور الذي يتوافق مع دور النمو الجنسي المثلي في الاطفال والاحداث من الانسان، غير ان هذا القرد لا يتحدد بهذه الممارسة مع من هم من جنسه من الذكور، وانما يمارس ذلك مع الجنس الآخر. كما لوحظ ان القرد النامي قد يقوم بامتطاء ذكر مثله حال الانتهاء من امتطاء الانثى. ولاحظ (كمبف Kempf) (١٩٥٢)، ان القرد الذي يتخذ الوضع السلبي (المستلم) قد يقـوم بممارسـة الاستمناء اثنـاء تقبله للدور السالب في العملية الجنسية المثلية، كما لاحظ ظهور حركات تعبيرية اثناء القيام بالعملية الجنسية المثلية او اثناء الاعداد التمهيدي لها.

ان الباحثين في السلوك الجنسي عند بعض الحيوانات، خاصة السلوك الجنسي المثلي عند بعض الفصائل العليا من المملكة الحيوانية كالقردة، يستنتجون احياناً ان هنالك اساساً بايولوجياً لهذه الممارسة، ويصلون بين هذا الاساس في المملكة الحيوانية وبين اساسه في الحياة الانسانية. ونحن نجد اثراً لمثل هذا التصور، وان كان الاساس المتصور اخلاقياً لا بايولوجياً وذلك بتسمية الجنسيـة المثلية في سلوك بعض النـاس بنزوة حيـوانية، واعـطوها التعبـير (بجري = الحيـوانية Buggary)، وهو تعبير يفيد اللواطية الحيولنية، كما يطلق كتعبير ينوه بهذا المعنى الاخلاقي على من يمارس الجنسية المثلية من الناس. ويفسر آخرون من علماء السلوك الحيواني بان الجنسية المثلية في الحيوانات قد يكون لها فائـدة الاعداد للممـارسة الجنسيـة الطبيعيـة في الكبر. وهـو اعداد

بايولوجي سلوكي اجتماعي، كما ان الممارسة قد تكون الوسيلة لتكوين قواعد السيطرة والخنوع بين الحيوانات اكثر من كونها تعبيراً جنسياً بايولوجياً محضاً.

الجنسية المثلية في الحضارات المعاصرة

لعل من الصعب على الباحث ان يحدد بدقة الحضارات التي يمكن تصنيفها بهذه الصفة في هذا العصر، ويماثل ذلك، صعوبة امكانية الحصول على معلومات يوثق بها عن مدى انتشار ووقوع الممارسات الجنسية بما في ذلك الجنسية المثلية في هذه الحضارات، وهذه صعوبة عامة تتعلق بجمع المعلومات الاحصائية بشكل عام. وهنالك صعوبة خاصة تتأتى من طبيعة هذه المعلومات وما يحيط بها من احتراز وتحيز الى غير ذلك من التنويهات الاجتماعية والاخلاقية والقانونية. ومن الواضح ان صعوبات التوصل الى حقائق صادقة يعول عليها، تتفاوت درجة بين باحث وآخر وبين مجتمع واخر، كما انها تتباين بين فترة زمنية وفترة اخرى. ثم ان هنالك تبايناً في المعلومات التي يمكن الحصول عليها حتى في المجتمع الواحد بسبب التنوع في العينات الاحصائية المستبينة، بما لها ان تختلف فيه من حيث العمر، والحالة الاقتصادية والمعيشية والثقافية والاجتماعية.

ان من الدراسات الاحصائية التي تعطي دلالة ربما لا تبتعد كثيراً عن الواقع هي دراسة كنزي Kinsey (١٩٤٨) عن الحياة الجنسية عند الذكور، ثم عند الاناث. وقد افاد كنزي في دراسته بأن واحداً من كل ثلاثة من الذكور في الاقل قد اقروا في الاستبيان المكتوم بانهم مارسوا نوعاً ودرجة ما من التجربة الجنسية المثلية في وقت ما بعد تعديهم سن البلوغ. كما افادت دراسته بأن ٥٠٪ من الذين استبانهم من الذكور النامين افادوا بان حياتهم الجنسية في هذا الدور هي حياة جنسية مخالفة، اي انها تتم بين الذكر والانثى بشكل محصور. وافاد ٤٦٪ بان سلوكهم الجنسي قد شمل الممارستين الجنسيتين المثلية والمخالفة وبدرجات متفاوتة من الجمع، كما ان ٤٪ من المجموع افادوا بان ممارستهم الجنسية كانت محصورة كلياً في العلاقة الجنسية المثلية. هذا ولا تبين الدراسة نسبة اولئك الذين قاموا بالعلاقة الجنسية المثلية كلياً او جزئياً، لاسباب اختيارية او لاسباب اضطرارية. وفي دراسة لاحقة (١٩٥٣) افاد كنزي ومشاركون بان حوالى ٣٧٪ من الذكور و١٣٪ من الاناث قد قاموا بتجربة جنسية مثلية الى حد الذروة في وقت ما. كما ان في العازبين بين سن (٣٦) الى (٤٠) من العمر، تبين بأن ٤٠٪ من الذكور و١٠٪ من الاناث قد مارسوا الجنسية المثلية، وانهم ما زالوا يمارسونها حالياً. وقد وجد بان الاكثرية الذين يمارسون الجنسية المثلية حصراً يقعون ضمن هذه الفئة. ومع اهمية دراسات كنزي في تاريخ الابحاث في هذا المجال الحساس والمقفل، الا ان الكثير من النقد قد وجه الى كنزي. وبعض النقد صدر بدوافع من التحيز او التزمت او التعامي وانكار هذه الجوانب من حياتنا، وبعض الطعن لنتائج كنزي استند على اسس تطبيقية في البحث الاستبياني، واعتبرت نتائج كنزي غير ممثلة للمجتمع الامريكي بشكل عام، وهو مجتمع له خصوصيات عرقية حضارية تجعل من الصعب تعميم

النتائج الاستبيانية من اي عينة معينة بأنها منطبقة عليه بشكل عام(*). ومن الدراسات القيمة التي اجريت، هي دراسة العالم النفسي ايزانك Eysenek، في كتابه (الجنس والشخصية ١٩٧٦). ولم يهدف ايزانك في دراسته الى الحصول على معايير سكانية، وانما هدف الى محاولة الربط بين عامل الاتجاه الجنسي وبين الشخصية. ومن جملة الاسئلة التي وردت في استبيانه الذي يتألف من (١٥٨) سؤال والذي اجري على (٤٢٧) ذكر و(٤٣٦) انثى فيما بين الثامنة عشرة والستين ومن مجموعة تمثل المستويات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية القائمة في المجتمع الانجليزي. ورد السؤال (ان الجنسية المثلية هي شيء طبيعي بالنسبة لبعض الناس ـ فما هو رأيكم؟. ـ وكانت الاجابة بالايجاب ٨٧٪ من كل من فئتي الذكور والاناث. . وفي سؤال اخر: «قام عندي صراع حول ميولي الجنسية نحو شخص من نفس الجنس» فاجاب ٢٠٪ من الذكور و١٤٪ من الاناث بالايجاب. وفي سؤال ثالث (الاشخاص من مثل جنسي . يجتذبونني بكثرة) اجاب ٥٪ من الذكور و١٠٪ من الاناث بالايجاب. وهذه الاجابات لا تخلو من الدلالة على الاتجاهات الجنسية القائمة في ذلك المجتمع نحو الجنسية المثلية. وقد افادت دراسات احصائية استبيانية في بلدان اخرى من العالم الغربي عن اتجاهات مماثلة نحو الجنسية المثلية وتوافقت نتائجها مع نتائج كنزي من ان حوالى ٤٪ من الذكور يمارسون الجنسية المثلية حصراً وتفضيلاً مع توافر الامكانيات نحو علاقة جنسية طبيعية. هذا ولا تتوافر دراسات استبيانية يعتمد عليها في الحضارات الشرقية وذلك بسبب الحساسية القصوى للموضوع بشكل خاص والامور الجنسية بصورة عامة. وربما لا يكون هنالك بد من الدخول العلمي الرصين الى هذا المجال، خاصة وان المسلم به هو ان هذه الممارسات قائمة بالفعل، ولعلها اكثر انتشاراً مما نحاول التعامي عنه ونستطيع الأقرار به.

الطبيعي والمنحرف في الجنسية المثلية

يتضح مما اوردناه حتى الآن ان هنالك احكاماً ونظرات متباينة ومتطرفة في تباعدها بصدد طبيعية او شذوذ (عدم طبيعية) الممارسة الجنسية المثلية، وربما لا يكون هنالك حد او نهاية للجدل في هذا الموضوع، وهو جدل تختلط فيه قواعد متعددة في الفهم والحكم، وله ان يضيع في حمأته جوهر الموضوع من النواحي العلمية. واذا كان لا بد من بيان ما توصل اليه الفهم العلمي لهذه الظاهرة حتى الآن، فأن خلاصة هذا الفهم هي كما يلي: (١) هنالك شواهد على وجود مظاهر الممارسة الجنسية المثلية في بعض الحيوانات وفي الانسان، مما يحمل على الاعتقاد بتوافر بعض الاساس البايولوجي للظاهرة، وبانها تخدم في كل من الحيوان والانسان غرضاً بايولوجياً او بايولوجياً اجتماعياً معيناً. (٢) الممارسات الجنسية المثلية واسعة الانتشار في الطفولة والحداثة. وعمومية التجربة تقريباً وبدرجة او اخرى قد يكون لها مثل الاساس البايولوجي الذي سبق افتراضه. وبان التجربة قد تخدم اغراضاً بايولوجية واجتماعية وربما حضارية في حياة الانسان. (٣) ان انتشار التجربة منذ سن البلوغ وحتى نهاية العمر، تدلل على نزعة انسانية لثنائية

(*) ومما اثار النقد بوجه خاص قوله بان الجنسية المثلية: «كونت جزءاً هاماً من السلوك الجنسي الانساني منذ بزوغ التاريخ، وذلك بسبب انها تعبير عن المقدرات التي هي اساسية في الحيوان الانساني».

الجنس. وقد يكون لهذه النزعة ما يفسرها بايولوجياً، وهنالك من الملاحظات والابحاث العلمية ما يدلل على ذلك. (٤) حصر التجربة الجنسية بالممارسة المثلية دون غيرها وبدون توافر ما يحول دون العلاقة الجنسية الاعتيادية، هو امر ما زال يتعذر على التفسير العلمي حتى الآن، والنظريات الواردة في تفسير الظاهرة عديدة. ومن الطبيعي ان يتجه البحث العلمي نحو اثبات الاسس البايولوجية لها، غير ان من الخطأ التقليل من فعل العوامل الاخرى التي يمكن لها ان تؤدي الى تكوين هذه التجربة. وهكذا فأن التحدث عن طبيعية وعدم طبيعة هذه الممارسة الجنسية يجب ان لا يتجه الى وجهات من الجدل لها ان تسرب الى نطاق العلم ما لا يتلاءم معه، وان كنا ندرك اننا ما زلنا بعيدين عن امكانية الدخول الى هذه المواضيع بدون احتراز من دلالاتها الاجتماعية والاخلاقية القائمة، وهي الدلالات التي ما زالت تخدم اغراضها الايجابية في الكثير من المجتمعات.

الجنسية المثلية المنحرفة

يختلف الباحثون في امر الجنسية المثلية وفيما يعتبر انحرافاً من هذه الممارسة، وهنالك اتجاه البعض الى جعل جميع انواع ودرجات الجنسية المثلية امراً مخالفاً للطبيعة وانها بالتالي تكون انحرافاً او شذوذاً او (عكساً Inversion) للممارسة الجنسية الطبيعية، وهي الممارسة التي تقوم بين الرجل والمرأة، غير ان بعض الباحثين يتجهون اتجاهاً مناقضاً تماماً، ويعتقدون ان هذه الممارسة هي امر طبيعي، وانها لا تكون انحرافاً ما دامت تفي بحاجات الفرد للتعبير او الافضاء عن طاقته وحاجته الجنسية بالشكل الممكن له او الذي يستطيعه ويتوافق مع شخصيته. ولعل الرأي الاصح يقع وسطاً بين هذين الحدين المتباعدين من التطرف، وهو الرأي الذي يقرر كل حالة من الممارسة طبقاً لحيثياتها الخاصة بها. والذي يعين في هذا التقرير هو ان تقسم الممارسة الجنسية الى اصناف حسب درجاتها وصورها وتبعاً لاسبابها الدافعة الى ممارستها. ومن هذه التقسيمات التي تعين على التصنيف وتساعد على تقرير الانحراف او عدمه هو تصنيف كنزي للممارسة الجنسية المثلية تبعاً لمقياس من سبع درجات: «الدرجة الاولى منه هي الممارسة الجنسية المخالفة الموافقة او الطبيعية ـ مع فرد من الجنس الآخر. ويتبع ذلك الدرجة الثانية وهي عندما يكون الفرد ممارساً في الغالب للجنسية الطبيعية (المخالفة) وللجنسية المثلية احياناً. والثالثة عندما يكون ممارساً في الغالب للجنسية الطبيعية ويزيد على (احياناً) في الممارسة الجنسية المثلية، وفي الدرجة الرابعة تتساوى الممارستان: الجنسية الطبيعية والجنسية المثلية، وتنتهي الدرجات بان يكون الفرد في الدرجة الاخيرة ممارساً للجنسية المثلية بشكل كامل وحصري دون غيرها من الممارسات. وتفيد دراسة كنزي بان الذين يمارسون العمل الجنسي المثلي بشكل كامل دون غيره من الممارسات هم حوالى ٤٪ من الذكور البالغين. ويتوجه الاهتمام الى هذه الفئة، والكثيرون من الباحثين يميلون الى عدّهم (منحرفين) في ممارساتهم الجنسية. غير ان هذا لا يعني ان جميع اولئك الذين يمارسون الجنسية المثلية بدرجات اقل وبالمشاركة مع الممارسات الجنسية الطبيعية هم بالضرورة غير منحرفين. وتقرير ذلك يظل خاضعاً الى بيان عوامل اخرى في العلاقة الجنسية، واهم هذه قوة التوجه نحو الرغبة الجنسية المثلية او ممارستها بشكل ما. وهنالك بطبيعة

الحال الممارسات الجنسية المثلية الكاملة او الجزئية والتي ترتبط بممارسات جنسية منحرفة اخرى، وتقرير الانحراف فيها يعتمد الى حد بعيد على طبيعة الانحراف الذي ارتبطت معه.

اسباب الجنسية المثلية

يعطي الباحثون، كل حسب اختصاصه تسبيباً معيناً للجنسية المثلية، وهذه الاسباب في مجموعها تقدم عادة في تفسير الانحرافات الجنسية وابتعادها عن المألوف. ومعظم النظريات السببية، هذه تشمل موضوع الجنسية المثلية وهو الموضوع الاقدم من الاضطراب الجنسي، واكثر هذه الاضطرابات اثارة للاهتمام في المجال الاجتماعي والطبي والعلمي. والنظريات السببية الواردة في تفسير الاتجاه الجنسي المثلي تقع في مجالين اساسيين، اولهما، المجال البايولوجي، وثانيهما المجال المحيطي. ويقع ضمن كل من المجالين مجموعة من النظريات نختصرها فيما يلي.

النظريات البايولوجية

افاد الباحثون في فترة ما بوجود جينات معينة، او اختلال في الكروموسومات كخلفية بايولوجية للجنسية المثلية، غير انه لا يتوافر حتى الآن اي دليل قاطع على ذلك. ويرى آخرون ان جذور الجنسية المثلية تكمن في الجهاز الهرموني (النقص في الاندروجين في الذكر، والزيادة منه في الانثى). وهذا التفسير ايضاً ليس له ما يسنده، ذلك ان المحاولات العلاجية لتعديل عدم التوازن الهرموني لم تؤد الى تحويل الحياة الجنسية الى المجرى الطبيعي. كما انه لا يوجد فارق هرموني في الذكور والاناث بين ممارسي العلاقة الجنسية الطبيعية وبين ممارس الجنسية المثلية. ويرى البعض ان فعل الهرمونات يحدث في معظمه في الفترة الجنينية من النمو، ويستمر فترة قصيرة بعد الولادة، وان ذلك يكون الخلفية البايولوجية التي تمهد لنشوء الجنسية المثلية فيما بعد. وهنالك بعض الابحاث التي تؤيد ذلك. وقام آخرون بابحاث وراثية على مجموعات كبيرة من التوائم الذكور والاناث، وقد دلت هذه الابحاث على وجود ارتباط ملحوظ بين الاتجاه الجنسي وبين معالم الشخصية بحدود ٠.٥ و٠,٦ .مما يفيد بوجود عنصر وراثي مقرر للاتجاه، ويعدّ الباحثون في هذا الموضوع ان الوراثة تزود نصف الاتجاه نحو الجنسية المثلية والمحيط يزود النصف الآخر. ومن النظريات البايولوجية، النظرية التي تستند على ابحاث العالم الالماني شليجل Schlegel (١٩٧٥)، والذي اظهرت ابحاثه وجود ارتباط بين شكل الحوض وبين الميول الجنسية لكلا الجنسين وبحدود)5..). وافاد شليجل بان هنالك تباينات هامة في شكل الحوض في كل من الذكر والانثى، وبان هنالك تداخلاً بين الجنسين في درجات هذه الاشكال. فالذكر على العموم له حوض قمعي الشكل، والانثى لها حوض انبوبي. وبان الشكل النهائي للحوض يكون مقرراً عند الولادة، وبانه يتقرر بالمؤثرات الهرمونية قبل الولادة بعدة شهور. وقد وجد الباحث ان الذكور الذين لهم حوض انبوبي الشكل، كالذي يوجد في الانثى عادة، يتصرفون بشكل اناثي (قليل العنف والسيطرة)، بينما الاناث اللواتي لهن حوض قمعي فانهن يتصرفن

كالذكور. وعلى العموم فانه لا يوجد برهان قاطع على الاساس البايولوجي للجنسية المثلية، وان كانت الملاحظات المتوافرة حتى الآن تفيد بالاحتمال العظيم لهذا الاساس.

النظريات المحيطية

ان معظم الباحثين في الجنسية المثلية يميلون او يتجهون للأخذ بالرأي ان الجنسية المثلية تجد اصولها في تجارب الطفولة، وان التجارب الجنسية المبكرة للطفل ترسم مسار اتجاهه نحو الممارسة الجنسية في المستقبل. غير ان هذا الرأي يدحضه اولاً ان الجنسية المثلية واسعة الانتشار بين الاطفال، وهي اول تجاربهم الجنسية الفعلية، ومع ذلك فان القليلين منهم، اوعلى الاقل، النسبة الاقل منهم، تتجه نحو الجنسية المثلية الجزئية او الكلية في الكبر. والتفنيد الثاني هو ما ورد في دراسة الحياة الجنسية في (الخليج الشرقي) والتي اشرنا اليها سابقاً، والتي تفيد بان معظم، ان لم يكن جميع الاولاد قبل البلوغ وسن المراهقة، يزاولون الممارسة الجنسية المثلية، غير انهم بالنادر يزاولونها بعد الزواج. وما ينطبق على الممارسة الجنسية الكاملة ينطبق ايضاً على العبث الجنسي، فكل انواع هذا العبث في الطفولة والحداثة لا تأثير لها على قيام الجنسة المثلية او عدم قيامها في المستقبل.

ولعل من اهم النظريات المحيطية هي تلك التي تجد اصول السلوك الجنسي المثلي في طبيعة العلاقة بين الطفل او الحدث وبين والديه وخاصة الام. وهذا الاتجاه في التفكير يتوافق مع النظرية التحليلية النفسية التي جاء بها فرويد في هذا الموضوع، وهي نظرية تعزو الجنسية المثلية الى قيام علاقة معقدة بين العمليات البايولوجية للنمو وبين تجارب الحياة. ورأى فرويد في هذا الامر هو ان الطفل المولود له اتجاه جنسي ثنائي، وانه يستجيب بلذة كاملة لاي نوع من الاثارة ومن اي مصدر كان. وهو يرى أن الجنسية المثلية هي بمثابة تثبيت للنمو الجنسي المثلي على دور من النمو، وهو الدور الشرجي. ويفسر الدافع الى الثبات على هذا الدور لفعل الام المسيطرة، والتي تنمي علائق قوية مع ابنها مما يوجهه نحو رفض ابنه ورفضه دوره رجلاً في الحياة. ويبدو ان فرويد لم يكن مقتنعاً كلياً بهذا التفسير التحليلي، ونوه باحتمال وجود عوامل اخرى بما في ذلك العامل البايولوجي.

ومن النظريات المحيطية التي يؤخذ بها ايضاً هي ان الهوية الجنسية التي يتخذها الفرد اساساً لتعامله الجنسي، تتكون وتتأثر في تكوينها بالنظرة الاجتماعية للطفل او الحدث النامي. وما يناله سلوكه الجنسي من تقبل وتشجيع او رفض وانتقاد من العائلة بوجه خاص. وقد افادت بعض الدراسات العائلية على ان ما يقل عن ثلث اولئك الذين يمارسون الجنسية الطبيعية (٣٠٪)، وما يزيد على ثلثي (٧٠٪) من ممارسي الجنسية المثلية لهم امهات مسيطرات ومتقربات الى اولادهن، وآباء يتسمون بالتعدي والرفض والابتعاد عن اولادهم. ولمثل هذه الدراسة ان تعطي اهمية، ولو جزئية، للخلفية العائلية في تكوين الجنسية المثلية غير ان مثل هذه الخلفية المضطربة في الجو العائلي ربما لا تكون ضرورية او كافية لقيام الجنسية المثلية في مستقبل الطفل او الحدث.

ومن النظريات المحيطية ما يتوجه نحو الرأي بان الجنسية المثلية تحدث بسبب التجارب الحياتية التي يتطبع عليها الطفل او الحدث، ومن هذه التجارب اتجاه الاطفال الى ممارسة سلوك الانـاث في اسلوب اللباس والتـزين واللعب ومصاحبـة الانـاث بـدلاً من الاولاد، مـع قيـام الوالدين، خاصة الام، بتشجيع مثل هذا السلوك. وقد تبين من احدى الدراسات التي تـوبع فيها نحو ٢٧ طفلاً (متخنث) السلوك، بان ما بين ٤٠ ـ ٥٠٪ منهم قد اصبحوا في الكبر ممارسين للجنسيـة المثليـة، او منحـرفـين البـاسـين Transvestism او ذوي هـويـة جنسيـة معـاكسـة Transexuality (موني وجرين) (١٩٧٤). وتدلل الدراسات على ان من اهم مصادر التطبع نحو اكتساب السلوك الجنسي المثلي هـو الاستمناء، ذلـك ان خيالات الـطفل الممهـدة والمصاحبـة للاستمناء هي عادة خيالات جنسية مثلية. وهي بطبيعة الحال تسند بشعور الاثارة والرضا عند الانفراج. وهذا الشعور بالتكرار يخلق حالة من التطبع الكلاسيكي. وقد وجد كنزي (١٩٤٨) ان الاستمنـاء هو اول مصـدر للذروة (٧٠٪) عنـد اصحـاب الجنسيـة المثليـة، مقـابـل ٥٠٪ لاصحاب الجنسية الطبيعية. ويضاف الى عامل الخيال في الاستمناء لاحداث التطبع، ما يتكيف عليه الطفل او الحدث من القبول او الرفض من قبل اترابه بسبب توافقـه او عدم تـوافقه مـع ممارستهم الاستمنائية المشتركـة. ولهذا ان يقـرر قيام عمليـة الاسناد او النهي عن الممـارسة في المستقبل. هذا وقد وجدت النظريات التطبعية في نشوء الجنسية المثلية قبولاً في الكثير من المحافل العلمية، خاصة وان علاج هذا الاتجاه او الانحراف الجنسي وغيره من الانحرافات، هو اكثر فائدة وجدوى بالطرق العلاجية السلوكية المبنية على نـظريات التـطبع. وقـد اوجز هـامبسون Hampson (١٩٦٣) النظريات الاجتماعية في تكوين الجنسية المثلية بقوله: «بدلاً من النـظرية التي قدمها فرويد عن وجود استعداد ولادي بنيوي نفسي نحو الجنسية الثنائية، فانا نستبدل ذلك بفكرة الحياد الجنسي النفسي في الانسان عند الـولادة. وهذا الحيـاد يسمح بنمـو واستمراريـة التوجه نحو انماط متفرقة من التوجه والاداء الجنسي النفسي تبعاً لتجارب الحياة التي يواجهها او يتعامل معها الفرد الواحد».

وخلاصة البحث في اسباب الجنسية المثلية تزيد الى حد كبير اهمية العوامل المحيطية المؤثرة في تجاوب الاطفال والاحداث في تكوين الجنسية المثلية وخاصة في نطاق العائلة، من علاقة الفرد بوالديه، ومدى تشجيعه على اكتساب هوية جنسية او اخـرى، ومقدار التسـامح في ممـارساتـه الجنسية، وفي طبيعة خيالات الطفل المصاحبة للاستمناء. غير ان هـذه العوامـل المحيطيـة قد تحتاج كلياً او جزئياً الى مساهمة عوامل بايولوجية سواءً كانت وراثية او هرمونية والتي تحدث اثرها منذ تكوين الجنين او في فترة مبكرة من نموه، وتضع الاساس لفعل عوامل محيطية مكتسبة اثناء الحياة. وقد اوجز كوبر Cooper النظريات السببية بقوله: «ان الوراثة، وربما المؤثرات الهرمونية، يمكن لهـا ان تحسس الفرد للمحيط (محيط الجنسيـة المثلية)، وقـد وجد بشكـل خاص ان الام المسيطرة وزائدة الاحتياط او المغرية، والاب الغائب الضعيف، هي مظاهر واضحة في الكثير من الحالات.

الجنسية المثلية والقانون

سيكون من المتعذر حتى اختصار النظرات القانونية المختلفة بشأن الجنسية المثلية وذلك بسبب الكثرة الهائلة للمجتمعات والحضارات والديانات القديمة والحديثة بما فيها من نظرات وآراء واحكام حول ممارسته الجنسية المثلية. واضافة الى هذه الكثرة، فان هنالك الكثير من التطور في مثل هذه النظرات الاجتماعية والدينية والقانونية عبر التاريخ، وخاصة في العصر الحديث، كما ان هنالك تفاوتاً في الحكم على الممارسة في كل من الذكر والانثى، وفي الطفل والحدث والمراهق والرجل او الانثى النامية، كما ان هنالك احكاماً اخرى تتباين تبعاً لما يمكن ان يرتبط به السلوك الجنسي المثلي من اضطرابات وانحرافات اخرى في الشخصية والسلوك. واستعراض مسيرة الاحكام المتعددة في المجالات المختلفة الاجتماعية والدينية والقانونية يدلل على ان الاتجاه خلال هذا القرن قد سار نحو تفهم الجنسية المثلية والنظر اليها بوصفها انحرافاً مرضياً من الاولى معالجة صاحبه بدل الحكم عليه، او على جعل الممارسة حقاً طبيعياً لصاحبه ما دام لا يؤذي احداً او يسيء الى الحس الاجتماعي، ويتم بالتراضي. ومع هذا التحول في النظرة، الا ان هنالك الكثير من البلدان التي ما زالت تعمل بقوانين تدين القائمين بالممارسة وتضعهم تحت طائلة العقاب. وفيما يلي بعض القواعد التشريعية حول هذه الممارسات:

اولاً ـ الديانات السماوية الثلاثة كلها ادانت وحرمت الممارسة الجنسية المثلية وعدتها خروجاً على سنة الخليقة والنمط الطبيعي للحياة الجنسية الانسانية، والتي تقوم على اساس العلاقة المشروعة والطبيعية بين الرجل والانثى. وما زالت تعاليم هذه الديانات ذات اثر فعال في توجيه الحكم الاجتماعي والاحكام القانونية في الكثير من البلدان والحضارات المعاصرة، غير ان هذا الاثر، ومدى تطبيقه عملياً يعتمد على مدى نفاذ هذه الديانات في حياة المجتمع. وعلى سبيل المثال فان (اللواطية) قد حرمت الى حد الحكم بالموت في الحضارة المسيحية في القرون الوسطى، واقتدى القانون الانجليزي الذي سنهُ هنري الثامن بهذا المبدأ (١٥٣٣)، حيث عدّ اللواط بانواعه بين رجل وآخر، ورجل وامرأة، ورجل وحيوان رذيلة نكراء تعاقب بالاعدام. واستمر مثل هذا التشدد في النظرة القانونية طوال القرن التاسع عشر، ففي عام ١٨١١ عبر المشرع وليم بلاكستون عن موقفه بالقول ان مجرد ذكر هذا الفعل هو تدنيس للطبيعة الانسانية. وفي نهاية القرن ذاته عبر القاضي السرجون بزيجز (١٨٩٥)، في محاكمته للكاتب الشهير اوسكار وايلد، عن رأي مماثل بقوله: «ليس هنالك من جريمة اكثر سوءاً من تلك التي اتهم بها المتهم». ثم اصدر حكماً بسجن الكاتب الذي ادين بعلاقته الجنسية المثلية باللورد الفرد دوجلاس، وذلك على الرغم مما كان يتمتع به الكاتب المذكور من شهرة فائقة في عالم الادب في زمانه.

ثانياً ـ ظل القانون، حاله حال المجتمع بشكل عام، ينظر الى المملرسة الجنسية المثلية نظرة ادانة خلقية تجب معاقبتها. غير ان محاكمة اوسكار وايلد وغيرها من المحاكمات المماثلة قد اثارت تحركاً نحو الاصلاح في النظرة الاجتماعية والقانونية لهذه الممارسة، وقد جاء التحرك الاول في المجال الطبي، وقد بني هذا التحرك على اساس النظر الى الجنسية المثلية بانها حالة

مـرضية وليست اخـلاقية وبـان الأولى معالجتهـا. وترجـع جذور هـذه الحـركـة الى الابحـاث والنظريات البايولوجية والنفسية التي تتابعت في اوروبا منذ القرن التاسع عشر، والتي في معظمها تدفع الى الاعتقاد ان صاحب الممارسة الجنسية هو رجل مجبر لا مخير، وان انحرافه قد تقرر فوق ارادته، وانه بالتالي غير مسؤول عما تكون في نفسه من ميول. اما التحرك الثاني فكان في المجال الاجتماعي، حيث اسست جمعية لاصلاح قانون الممارسة المثلية (جمعية اصلاح قانون الجنسية المثلية) سنة ١٩٥٨. وادعت الجمعية بان القانون القائم لا يتوافق مع الرأي الحر او المسيحي، ودعت الى اصلاحه لضرورات: العدالة، والأمن، والصحة العامة. وقد ادت جهود الحركتين، خاصة جهود الجمعية، الى تشريع قانون لا يحرم العلاقة الجنسية المثلية المستورة لمن هو فوق سن الواحدة والعشـرين (١٩٦٧)، غير ان القـانون شـدد على العـلاقة مـع غير الـراشدين وعـلى الممارسين علناً. وقضي القانون على ان العلاقة الجنسية المثلية لا تكون جرماً اذا ما كانت بالخفاء وبين اثنين متراضين لا يقل عمرهما عن ٢١ عاماً، غير ان القانون ظل يدين ما يتجاوز ذلك او ما يمكن ان يحدث علناً من هذه الممارسات، كاتخاذ اوضاع جسمية منوهة بهذه العلاقة او التعرض والملاحقة في مكان عام ولاعراض غير اخلاقية. ومثل هذه التحـولات التي حدثت في انكلتـرا حـدثت في بلدان اوربية اخـرى وخـاصـة في الستينـات، حيث طغت مـوجـة من التسـاهـل الاصلاحي لقوانين متعددة كالحكم بالاعدام، والاجهاض والطلاق والجنسية المثلية، والاستثناء الوحيد لهذه الموجة الاصلاحية ظل في فرنسا الملتزمة بالحكم الديغولي، والتي شددت العمل بهذه القوانين بدلاً من التسامح فيها. وفي امريكا ظل التشدد والتـزمت قائـماً حتى الآن، مع وجـود فوارق واسعة بين تشريعات ولاية وولاية اخرى. ففي ولاية نيويورك مثلاً نجد ان القانون قد انزل جعل الممارسة من جنحة الى (سوء سلوك) بينما قامت ولاية كاليفورنيا بزيادة عقوبة الادانة من عشر سنوات الى عشرين سنة.

الجنسية المثلية الكامنة

ان تعريف الجنسية المثليـة في المجال الـطبي النفسي يشمل من الحـالات ما يـزيد عـلى الممارسة الفعلية للجنسية المثلية. وبسبب هذه النظرة الطبيـة فان الجنسيـة المثلية تعدّ مرادفـة للمصطلح (اضطراب الاتجاه الجنسي)، وهو الاضطراب الذي يمكن ان يحـدث ليس فقط في السلوك الجنسي الفعلي وانما ايضـاً في الدوافـع الجنسية. ومع ان الدوافـع الجنسية المثليـة من خيالات وافكار ورغبات قد تقترن بالممارسة الجنسية المثلية، الا ان هذا الاقتران ربما لا يحدث او لا يبدو واضحاً، فمن الممكن للفرد ان يتخيل او ان يحلم او ان يفكر او ان يرغب في العلاقة الجنسية المثلية بدون الاقدام على ممارستها، حتى ولو توافرت امكانية هذه الممارسة. ومن شأن هذه النظرة ان تفسـح المجال لقيـام حالـة **كامنة**، او غير فعليـة من الجنسية المثليـة، تشير الى استعداد وتوجه نحو التفكير او الرغبة وتقف عند هذا الحد. غير ان هنالك من يرى ان لا تقتصر هذه الجنسية الكامنة على ما يتخيله او يفكر به او يرغب فيه الفرد بشكل واع، وانما لتشمل ايضاً حالات التعبير عن مثل هذا الاستعداد والتي لا يفطن اليها الفرد في نفسه، ذلك ان التعبير عنها يكون تعبيراً غير مباشر، تتحول فيه النزعة الى مظاهر سلوكية (اناثية) في السلوك والعمل الفني

وغيرها من المجالات الابداعية.

الجنسية المثلية والابداع

هنالك ما يسترعي الأنتباه والملاحظة في ان ممارسة الجنسية المثلية بدرجة او اخرى تكثر في المجال الفني والابداعي. ولا يعرف تماماً فيما اذا كان تفسير ذلك يعود الى اسس بايولوجية تكمن وراء الاتجاهين الجنسي والابداعي، او ان طبيعة الظروف الحياتية لبعض المبدعين هي التي تساعد على نشوء ذلك، ومع ان من المستحيل على احد ان يعطي نسبة وقوع الجنسية المثلية في حياة المبدعين، الا ان هنالك الكثيرين من المبدعين في مجال او آخر ممن عرفوا بنزعتهم الجنسية المثلية ومن هؤلاء الرسام والنحات مايكل انجلو، وليوناردو دفينشي، والموسيقار شايكوفسكي، وواجنر، والكتاب فلوبير، واوسكار وايلد وسمرست موهام ومارسل بروست واندريه جيد وجين كوكتو والشاعر فيرلان وغيرهم كثيرون ممن مارسوا الجنسية المثلية بصورة حصرية او غالبة. ونحن لا نستطيع بيان الاثر لهذه الممارسة على اعمالهم الابداعية، وان كان هنالك ما يسوغ النظرية التي تفسر مقدرة بعض المبدعين على وصف دقائق الحياة الشعورية للانثى، كما هو الحال في وصف فلوبير لمدام بوفاري، على اساس تمتعهم بميول جنسية ثنائية. وقد يجد الباحث ما يستند هذه النظرية في دراسته للاعمال الابداعية عند بعض المبدعين(*).

الجنسية المثلية والمرض

اتجه العلم وخاصة في المجال الطبي، الى اعتبار ممارس الجنسية المثلية (منحرفاً) وان انحرافه يكوّن حالة مرضية. وقد بدأ هذا الاعتقاد في اواسط القرن الماضي، واستمر بنتيجة نشوء نظريات التحليل النفسي والتي ردت الامراض النفسية الى التجارب الجنسية الطفولية بما في ذلك الجنسية المثلية، وحتى الامراض العقلية كالشيزوفرينيا والبارانويا اعتبرت في وقت ما نتيجة لكبت دوافع او ذاكرة الممارسات الجنسية المثلية. وقد كان لهذا الاتجاه في التفكير الطبي اثره في حركة التغيير نحو فهم افضل واكثر انسانية لممارسي الجنسية المثلية، غير انه في الوقت نفسه قد افلح في نقلهم من مجال التبذل الاخلاقي المشين الى مجال الطعن بقواهم النفسية والعقلية، وبهذا يكون الطب قد حررهم من صفة مهينة اخلاقياً، الى صفة اخرى فيها التنويه بالاهانة المرضية. ومع ان الطب في الوقت الحاضر ما زال يفسر السلوك الجنسي المثلي على اسس من الاضطراب في نمو الحياة النفسية والجنسية، الا ان هنالك تحركاً في اكثر من ناحية الى النظر الى الممارسات الجنسية، بما في ذلك الجنسية المثلية، بصورة اكثر شمولاً من الماضي، وهي نظرة تتسع لقبول انماط متعددة من العلائق الجنسية في الحياة الانسانية وبدون جعلها مرضاً او انحرافاً. ومع هذه النظرة المتفهمة، الا انه ما زال يترتب على المجال الطبي ان يدرك الدوافع التي تحمل اي فرد،

(*) وقد لوحظ ان بعض ممارسي الجنسية المثلية في بعض المجتمعات يتباهون بممارستهم ويتفاخرون علناً بها وبانهم ينتمون الى فئة مختارة تتميز ليس بانحرافهم في الحب وانما بشخصيتهم المرهفة الاحساس والابداعية في الفنون. كما لوحظ ان الكثيرين من الذين يعرفون بجنسيتهم المثلية في هذه المجتمعات يمارسون اعمالاً فنية او مسرحية.

وبدون ضرورة مجبرة، لأن يتجه كلياً او بالغالب نحو علاقة جنسية مع شخص من مثل جنسه.
ان هذه الحالات، وهي ليست الاكثرية في حالات الممارسة الجنسية المثلية، هي الحالات التي تتطلب العناية الطبية، وخاصة تلك التي يعاني اصحابها بشدة من اتجاهاتهم الجنسية المنحرفة، والذين يرغبون في التخلص من ممارساتهم. ومع ان الجنسية المثلية لا تكون مرضاً عقلياً في حد ذاتها، **الا ان هنالك ما يبرر اعتبار الممارسين لها كاسلوب مفضل او حصري بانهم منحرفون عن** النمط الطبيعي. وللذي يمارس الجنسية المثلية ان يعاني من اضطرابات نفسية اخرى سواء كانت هذه الاضطرابات ناجمة عن الممارسة كالقلق والكآبة والافكار التسلطية، او انها ترتبط في جذورها مع تكوين الاتجاه نحو الجنسية المثلية وغيرها من انواع الانحراف الجنسي. وللجنسية المثلية ان ترتبط ايضاً باضطرابات في الشخصية، خاصة الشخصية السايكوباثية والهستيرية ـ كما ان بعض الامراض العقلية كالشيزوفرينيا، يمكن للمريض بها ان ينكص الى الدور الجنسي المثلي اثناء مرضه. ومن المشاركات المرضية الممكنة في الجنسية المثلية امكانية تعاطي الممارس الجنسي المثلي للكحول والعقاقير والمخدرات، ومع ان هذا التعاطي ربما لا يأتي بسبب اصابة الفرد بالكآبة والقلق الناجمين عن انحرافه، الا انها قد تكون بسبب انضوائه الى جماعات وحلقات تسهل تعاطيها وتدمنه عليها.

ان هنالك بعض الاعتقاد ان الجنسية المثلية تدلل على الانحطاط العقلي في ممارسيها. وهذا الاعتقاد يقع ضمن المفهوم الاخلاقي ولا مكان له في المفهوم الطبي. فالكثيرون من ممارسي الجنسية المثلية، ان لم يكن معظمهم، يتصرفون في حياتهم الاجتماعية والعملية بشكل طبيعي، وليس هنالك ما يميزهم عن غيرهم في معظم الحالات. ثم ان كثرة المبدعين منهم في مجال او آخر تدحض الاعتقاد بانحطاط طاقاتهم العقلية.

الفاعل والمستلم في الجنسية المثلية

هنالك بعض الممارسين للجنسية المثلية ممن يكون دوره فاعلاً في جميع العلاقات الجنسية، كما ان هنالك من يكون دوره دور المستلم. وتقرير هذه الادوار يعتمد على ظروف حياتية معينة تسهل دور كل واحد منهما، او تشجعه او تحتمه، وهذه الحالة الاخيرة هي ما يحدث في العلاقات التي تقوم بين الاحداث وبين من هم اكبر منهم سناً، غير ان معظم المتجهين للممارسة الجنسية المثلية من الكبار والذين يزاولون الممارسة بصورة حاصرة او غالبة، فان لهم ان يتخذوا اياً من الهويتين، الفاعلة والمستلمة، من حين لآخر وبين علاقة واخرى او بالتبادل، هذا ولا توجد صفات معينة ثابتة تعين هوية الممارسين،وان كانت هنالك بعض الصفات الجسمية التي تنوه بالاتجاه. وعلى العموم فان صفات (الرجولة) تنوه بالدور الفعال، والصفات الانوثية بالدور السلبي المستلم، غير ان ذلك لا يكون قاعدة عامة كما يدلل على ذلك دور الجنرال كريتشنر (السلبي) على الرغم من مظاهر الرجولة الصارخة عليه.

الجنسية المثلية والاجرام

بالنظر لورود الممارسات الجنسية المثلية في حياة المصابين بالشخصية السايكوباثية، وما

يقوم به اصحاب هذه الشخصية من سلوك مضاد للمجتمع من حيث التعدي والايذاء والخروج على المألوف، فقد قام الاعتقاد ان الجنسية المثلية هي بالضرورة ممارسة اجرامية. ومع الاتفاق على ان ارتباطاً ما يقوم بين الجنسية المثلية والشخصية السايكوبائية، الا انه ارتباط احصائي وغير اساسي، غير ان بعض الافراد يعانون من اتجاهات جنسية مثلية قسرية وتسلطية تدفعهم بشكل اندفاعي نحو ايجاد الشريك لارضاء رغبتهم، بما في ذلك امكانية التعدي والايذاء وتحدي العرف والقانون، ويعد هؤلاء (سايكوبائيون جنسيون مثليون) ويقتضي معالجتهم في المقام الاول لكونهم سايكوبائيين. ومن النواحي التي يجب ان تؤخذ بعين الاهتمام هو ما يمكن ان يقوم به ممارس الجنسية المثلية من اعمال اجرامية ومخلة بالقانون وذلك بسبب اضطراره للاستجابة الى ضغوط الابتزاز من مصدر او آخر خشية التشهير والانفضاح، وهنالك امثلة عديدة في التاريخ السياسي الحديث تبين ذلك.

علاج الجنسية المثلية

اول ما يبرز في موضوع علاج الجنسية المثلية هو الحالات التي تتطلب العلاج من هذه الممارسات، وفيما اذا كان ينبغي علاج كل حالة من الممارسة بصرف النظر عن سن الممارسة ودرجتها. ومع ان البعض يأخذ بوجهة النظر بان كل حالة من الممارسة هي حالة من الانحراف ويقتضي لذلك ايقافها اما بالعقاب او العلاج. الا ان البعض يحددون مجال العلاج في الحالات التي يرغب اصحابها في التخلي عن ممارستهم لسبب او آخر. وهنالك الرأي بأن انتشار الممارسة الجنسية في مرحلة او اخرى من مراحل العمر بما في ذلك مرحلة الطفولة والحداثة والمراهقة هو امر يضر بالمقومات النفسية للممارسين، كما انه يؤدي الى تحلل اجتماعي وانفراط عائلي، وانه لا بد لذلك من التقليل من هذه الظاهرة وخاصة عند نشوئها في السن السابقه للبلوغ. وللوصل الى هذا الهدف فلا بد من تظافر الجهود التربوية في نطاق العائلة والمدرسة وبالشكل الذي يمكن للطفل او الحدث ان يحول الطاقة الجنسية ويصرفها في مجالات اخرى كالرياضة والابداع. ومن المفيد في هذا الامر ان يتفق الوالدان، وخاصة الام، على ان لا تطبع اولادها على المظاهر الانثوية، وان لا تحاول اجتذاب الاولاد تحت سيطرتها، لما لهذا الاتجاه في العلائق العائلية من ان يوجه الطفل نحو العلاقة الجنسية المثلية في الكبر. وبالنظر لما هو معروف عن الرابطة بين الامعان في الاستمناء وبين تكوين عادة الجنسية المثلية، فان جهداً آخر يجب ان يبذل من اجل التقليل من عادة الاستمناء في الأحداث والمراهقين.

لما كانت معظم حالات الجنسية المثلية هي حالات عابرة في التجارب الحياتية الجنسية عند معظم الذين مارسوا هذا السلوك، فان من غير الضروري المبادرة الى علاجها، من الناحية الطبية في الاقل. والافضل في تصريف هذه الحالات هو ان تظل ضمن نطاق القواعد التربوية والاجتماعية، على انه يقتضي تجنب كل ما من شأنه ان يؤدي الى نبذ ممارسي الجنسية المثلية، وهو الامر الذي من شأنه ان يؤكد هوية الجنسية المثلية، وان يعقد من حياته النفسية، والى الحدود التي لا يمكن معها افادته بالعلاج.

ان معظم الوسائل العلاجية في الوقت الحاضر تتركز على اولئك الذين يمارسون العلاقة الجنسية المثلية بشكل غالب اوكلي، والذين يرغبون بالتخلي عن سلوكهم. ومع ان العدد الفعلي لهؤلاء لا يقل كثيراً عن ٤٪ من بين الذكور النامين (كنزي) وربما زاد على ذلك، الا ان الراغبين في العلاج هم اقل من ذلك بكثير، كما ان المقبلين عليه والقابلين به هم اكثر قلة. وما زالت هنالك طريق طويلة قبل ان يصبح من الممكن اقبال الاكثرية من الممارسين على العلاج، وهو امر يتطلب شعور الممارس بالاطمئنان والحصانة الاجتماعية، وبالوثوق في جدوى العلاج.

ان الوسائل العلاجية التي عمل بها حتى الآن ما زالت قاصرة عن بلوغ اهدافها، وان كانت النتائج العلاجية في السنوات الأخيرة اكثر ايجابية، خاصة في اولئك الذين يرغبون حقاً في تغيير اتجاههم الجنسي. وقد وجد بالتجربة ان افضل النتائج تحدث لاولئك الذين يرغبون في التغيير، ويقبلون طوعاً على العلاج، والذين يسعون اليه في الادوار الاولى من (انحرافهم) وقبل ان يتوطن فيهم الانحراف واكتسابهم للهوية الجنسية المثلية، وخاصة في اولئك الذين تظهر عندهم بوادر اتجاه جنسي طبيعي، اما في الفكر او العاطفة او الممارسة، وفي الذين لا تبدو عليهم سمات التخنث، هذا وهنالك عدة اساليب علاجية منها الدوائية والتحليلية النفسية، والعلاج الجماعي والعلاج السلوكي.

اما العلاج الدوائي فهو عديم الجدوى لحالات الانحراف في حد ذاتها. وقد سبق استعمال المهدئات للتخفيف من الرغبة الجنسية، غير ان المهدئات لم تجد في ابدال الهوية الجنسية. ومثل ذلك يقال ايضاً في الهرمونات، فهي ايضاً لا فائدة منها في ابدال هذه الهوية، وعلى العكس فانها تؤدي الى زيادة الدافع الجنسي، مما قد يزيد في التوجه نحو الممارسة المنحرفة بدل ابطالها. اما العلاج التحليلي النفسي فهنالك ادعاءات متضاربة حول جدواه. فانصاره يدعون بفائدته في ٣٠٪ من الحالات، ومنتقدوه يفندون هذا الادعاء ويجدون فيه مضيعة للوقت والجهد والمال. ومن الوسائل النفسية في العلاج اسلوب العلاج الجماعي الذي يشارك فيه المنحرف في جلسات علاجية جماعية تضم الجنسين، او تضم الشخصين المعنيين في العلاقة الجنسية المثلية، غير ان نتائج هذا الاسلوب العلاجي ما زالت غير واضحة. ومما لا شك فيه ان المعالجة النفسية بشكل ما تساعد المنحرف في التغلب على بعض المعاناة الناجمة عن المضاعفات النفسية لانحرافه، ولهذا ان يساعد احياناً في اعطائه الاطمئنان الكافي وبالتالي توجيه رغبته نحو الطرق الطبيعية في العلائق الجنسية.

ان اهم الطرق العلاجية المتوافرة في المجال العلاجي الطبي هي الطرق السلوكية المبنية على نظريات التكيف والتطبع. فالنظريات السلوكية تفترض ان الاتجاه الانحرافي نحو الجنسية المثلية هو نتيجة عملية خاطئة من التطبع في النمو الجنسي للفرد، وان الطريقة المنطقية للتغلب على هذا السلوك لا بد ان تأتي عن طريق ازالة التطبع السابق الذي كون الانحراف، وتكوين ارتباط جديد يوجه الفرد نحو العلائق الجنسية الطبيعية. وهنالك عدة طرق علاجية سلوكية تستعمل لغرض ازالة التطبع واقامة تطبع جديد. ومن هذه الطرق/العلاج التكريهي، وازالة

الحساسية (التبليد Desensitisation). واعطاء النموذج Role Modlling. وتقيم هذه الوسائل السلوكية من القائمين بها يفيد بحصول الشفاء في حوالى ٤٠٪ من الحالات. غير ان التغيير الذي حدث في هؤلاء لم يكن في معظمه نحو الجنسية الطبيعية بالكامل، وانما كان اتجاهاً جزئياً فقط.

الخلاصة

المارسات الجنسية المثلية هي ممارسات شاعت في الحياة الانسانية منذ القدم وحتى الآن، وقد حظيت هذه الممارسة بنظرات متعارضة ومتطرفة من حيث الرضا والقبول من ناحية، والادانة والتحريم من طرف آخر، وما بين الحدين درجات متفاوتة من الأخذ ببعض ما في هذا الطرف او ذاك. وعلى العموم فان اكثر الممارسات الجنسية المثلية تقع في دور الحداثة والبلوغ والمراهقة، ومعظم هذه الحالات تنتهي باقامة علائق جنسية طبيعية بين الفرد وفرد آخر من الجنس المخالف، غير ان البعض يواصلون الممارسة اما جزئياً او كلياً في سن الكبر، وهم يفضلون هذه العلاقة على اي علاقة اخرى طبيعية مع الجنس الآخر، وهذه الفئة هي التي تكون محور الاهتمام في البحث والعلاج، وهي الحالات التي يعبر عنها بانها حالات انحراف جنسي مثلي، وعلى ذلك فانه يتوجب التفريق بين ما هو ممارسة تمثل دوراً من ادوار النمو النفسي الجنسي، والممارسة التي تحدث بضرورة تصريف الطاقة الجنسية والتي لا يمكن تصريفها بشكل آخر طبيعي ـ وتفريق هذه الحالات العابرة عن تلك الحالات التي يظل فيها الفرد ممارساً بشكل جزئي او مشترك او كلي للجنسية المثلية وبدون الاضطرار الى ذلك.

ان اسباب الاتجاه الجنسي المثلي ما زالت خفية حتى الآن. وهنالك من يرى انها ترمز الى توافر اتجاه جنسي ثنائي في الطبيعة الانسانية، وان هذا الاتجاه يتوافر بدرجات متفاوتة من القوة في كل انسان. ويفترض ان مثل هذا الاتجاه يتقرر بعوامل بايولوجية هي من طبيعة الانسان، كما ان له ان يحدث بفعل عوامل هرمونية في حياة الجنين لها ان تضع الاساس للهوية الجنسية فيما بعد. وما زالت الابحاث في هذا الموضوع غير وافية. ومن النظريات التي تلاقي قبولاً، هي ان الهوية الجنسية للفرد وممارساته الجنسية وتوجهه الجنسي تتأثر كلها بعوامل البيئة، وهذه تشمل البيئة البيتية، وعلاقة الطفل بوالديه، والبيئة الاجتماعية بشكل عام. اضافة الى عمليات التطبع التي يتعرض لها الفرد في نموه بما في ذلك الاسناد الاجتماعي لممارساته الجنسية وممارساته للاستمناء مع ما يصاحب ذلك من خيالات تربط الممارس بصورة فرد من جنسه.

ان ما نلاحظه من عدم وضوح اسباب هذه الظاهرة الانسانية القديمة والمستديمة نلاحظه ايضاً في عدم التوصل الى علاج حاسم لها، وان كانت هنالك بوادر ايجابية مشجعة في مجال العلاج السلوكي.

لعل من اهم ما في موضوع الجنسية المثلية من نواحي تستدعي الاهتمام هو الموقف الاجتماعي والقانوني من هذه الممارسة. ويلاحظ تحول عظيم في وجهات النظر نحو هذا

الموضوع ومع ان هنالك ضرورة في الابقاء على القيود المعقولة والصحية والعادلة لهذه الممارسة، الا انه بات من الضروري استيعاب حالات الممارس المثلية خاصة المنحرفة منها في اطار المجال الطبي والتربوي والنفسي، وهو استيعاب من شأنه ان يساعد على كشف هذه الحالات قبل ان تتأكد اصولها في الهوية الجنسية للفرد وقبل ان تشكل معاناة شخصية او اجتماعية، او ان تتعقد بانفعالات مرضية خطيرة قد يتعذر تلافيها او علاجها.

الفصل الثامن عشر

السحاقية

- السحاقية
- المصطلح
- انتشار السحاقية
- الممارسة في المجتمعات البدائية
- درجات الممارسة للسحاقية
- اسباب اللسبية (السحاقية)
- الميول الجنسية المثلية
- علاج اللسبية
- اللسبية والقانون

السحاقية

اللسبية Lesbianism الصافية Sapphism

المصطلح

السحاق والمساحقة هي المصطلحات المستعملة في اللغة العربية للدلالة على ممارسة الاناث للعلائق الجنسية مع مثلهن أي: (الجنسية المثلية الاناثية Female Homosexuality). والمساحقة بين النساء هي لفظة مولدة في اللغة العربية، وقد يدلل ذلك على ان الممارسة لهذه الحالة لم تكن راسخة في الحضارات العربية القديمة. ويصطلح على السحاق في اللغات الغربية باللسبية، وذلك نسبة الى جزيرة لسبوس Lesbos ، وهي من جزر الارخبيل اليوناني، كما يصطلح على الممارسة بالصافية، نسبة الى صافو Sappho ، الشاعرة اليونانية التي عاشت في القرن السابع قبل الميلاد، والتي اسست اول مستوطنة من الاناث على جزيرة لسبوس. ومع انه ليس من الاكيد ان نساء المستوطنة كن يمارسن علاقة الحب الجنسي بعضهن مع بعض، الا ان من الاكيد انهن كوّنّ رابطة مشتركة الهوية نحو الشهوة الجنسية الانثوية. وقد ادى ذلك مع مرور الزمن الى نشوء ما يصطلح عليه بالحب الصافي، اشارة للعلاقة بين انثيين في رابطة من الحب الجنسي الشهواني، سواء اقتصر ذلك على العلائق العاطفية، او اتخذ اشكالاً تطبيقية من رمزية او جسمية او جنسية فعلية، هذا ويطلق احياناً على هذه العلاقة الجنسية مصطلح ترابيدزم Tribadism، وذلك عندما يعتمد حصول الذروة على الاحتكاك بين بظر كل من الاثنتين، وترجمة المصطلح في العربية هي (الحك)، ولعل ذلك يصلها بلفظة (سحق) ومنها (الساحق) (والمساحقة).

ان السحاقية لم تكن ممارسة ابتدعتها (صافو) لاول مرة في تاريخ الممارسات الجنسية، وان كانت اول من كرس هذه الممارسة واعطاها المصطلح الذي عرفت به حتى الآن. وقد يكون من

الخطأ ان نفترض ان الرابطة الانثوية التي اقامتها وترأستها الشاعرة صافو في لسبوس كانت رابطة خلاعة وتهتك جنسي، فالذي بقي من اشعار صافو يدلل على شدة الحساسية، وارهاف العاطفة التي تميزت بها اشعارها، والتي تجد مكانها بين اجمل ما قيل في الغزل، وخاصة ما قالته في التعبير عن لوعة حبها لأتيس Attis، ومما جاء في ذلك قولها:

«واذا ما نظرت اليك، فما من كلمة
تسمع من شفتي الخرسى،
لساني معقود، ولهب خفي يثب
في لحظة على جسمي.
اني لا ابصر بعيني، واذني تستطيع
فقط سماع الهمهمة.
العرق يندّي جبيني، والرعش السريع يمر في
كل اطرافي. وأصفرّ اكثر شحوباً من الحشيش
وبهوج قريب من الموت اشهق بعيداً انفاسي».

ومن المعروف تاريخياً، ان صافو التي كانت مركزاً لهذه الرابطة الانثوية قد جعلت من مستوطنتها بمثابة مدرسة تمارس الاناث فيها الفنون من رقص وغناء الى جانب التماس العاطفي والجنسي. وقد عدّت الاناث المنضويات في هذه الرابطة بان العاطفة التي تربط انثيين بالحب هي ارفع واجمل واسمى ما يمكن ان يقوم من عاطفة.

ولعل ممن سبق صافو الى الجنسية المثلية الانثوية هي الملكة هتشبسوت الفرعونية، والتي كانت تصور دائماً بلباس رجل وبلحية كاذبة، وكان لها اتباعها في هذه الممارسة. وهنالك اعتقاد عند بعض العلماء الانثروبولوجيين ان الانثى مارست الجنسية المثلية بشكل واسع عندما كانت المجتمعات تحكم بسلطة الام الانثى بدلاً من السلطة الابوية للرجل، وان كان البعض يرى ان الممارسة جاءت في اعقاب تنحية المرأة عن هذا المقام واخضاعها لسلطة الرجل واعطائها بالضرورة دوراً مستلماً وسلبياً من العلاقة الجنسية، مما دفعها الى ايجاد منفذ لهويتها في العلاقة التي تهمل الرجل كلياً. وقد حظرت اقدم الديانات الممارسة الجنسية بين الاناث كما يتضح ذلك من «التلمود»، وعدّت التوراة الممارسة عملاً رذيلاً يعاقب بالتطليق للمرأة المتزوجة. وفي التاريخ الروماني القديم عرف بان النساء الرومانيات كن يمارسن الجنسية المثلية في عيد ساتورناليا Saturnalia احتفالاً باليوم الجميل: (بونا ديا Bona Dea). وفي تاريخ الديانة المسيحية ادينت العلاقة بين الاناث وعدّت اثماً وان كان اثماً قليلاً من درجات الاثم اذا ما قيس بالعلاقة المثلية بين الذكور، ولعل مرد هذا التخفيف في الاثم والعقاب، هو الاعتقاد ان المرأة لا تملك قوة الاخصاب، وهي بذلك لا تعطل عملية الخلق الطبيعية. وقد استغل بعض المجتهدين من اللاهوتيين القول الوارد في التوراة والذي ينص: «ليس لك ان تضطجع مع رجل كما تفعل مع المرأة»، وتوقف النص عن شمول المرأة بالنهي اتخذ ذريعة للتغاضي عن العلاقة الجنسية بين

انثيين، غير انه ورد في التوراة ايضاً مما قد يشمل هذه العلاقة وذلك في القول: «ولهذا السبب فان الله اعطاهم لأخس العواطف، لانه، حتى نساؤهم قد غيرن الاستعمال الطبيعي لما هو مخالف للطبيعة». وعلى العموم فان الديانة المسيحية قد ادانت السحاقية وجعلتها رذيلة وثنية، وان كانت الكنيسة قد عاملت ممارساتها باللين، ولعل ذلك قد سهل انتشارها في اديرة الراهبات وخاصة في القرون الوسطى على الرغم من منع نوم الراهبات في سرير واحد. هذا ولم ترد اشارة مباشرة لهذه العلاقة في القرآن الكريم. وقد يكون في شمول زوجة النبي لوط في العقاب الذي حل بقوم لوط على ممارستهم الجنسية المثلية، ما يفسر على انها كانت تمارس حالة مماثلة مع جنسها. وان ذلك ادانة للممارسة لها.

انتشار السحاقية

كما هو الحال في الجنسية المثلية بين الذكور، فان من المتعذر الوصول الى بينات يوثق بها عن نسبة هذا النمط من العلائق الجنسية، فهنالك اولاً الفروق الاجتماعية والحضارية التي لها اثرها في تقرير الممارسة، وهنالك الموانع الفردية التي تعترض الافضاء الصريح والصادق عن الممارسة، وهنالك بالتالي الدرجات المتفاوتة للممارسة اللسبية والتي تتراوح بين مجرد التحسس بالميل من انثى الى اخرى، والى الممارسة الجنسية الفعلية، وفي الدرجات القصوى، الى حصر العلاقة الجنسية للانثى بهذه الممارسة دون غيرها. وعلى العموم فان الممارسات الجنسية بين الاناث هي اقل وقوعاً منها بين الذكور، غير ان ذلك ينطبق على الممارسات الجنسية الجسمية والفعلية اكثر من انطباقه على العلائق العاطفية والفكرية بين اثنيين، فهذه العلائق قد تكون اكثر وروداً في حياة الانثى منها في حياة الذكر. وقد افادت دراسات كنزي عن الحياة الجنسية في الاناث بأن ٢٥٪ من الاناث اللواتي استبينت اراؤهن افدن بانهن تحسسن بعواطف الميل نحو جنسهن في وقت او آخر قبل بلوغهن سن الثلاثين، وبوصولهن لسن الاربعين فان ١٩٪ منهن قد مارسن علاقة جسمية عدّتها احدى الشريكتين في العلاقة او كليهما ذات غايات جنسية. كما افاد كنزي من دراسته الواسعة بان ٤٪ من العوانس ظللن يمارسن الجنسية المثلية بشكل حصري بين سن (٢٠) وحتى (٣٥) من العمر. وافادت دراسته بان ١٧٪ من العانسات لهن جنسية ثنائية (اتجاه جنسي نحو الجنسين). وافاد الباحث كنيون Kenyon، بان انثى واحدة من كل ٤٥ انثى بالغة في بريطانيا هي (لسبية) الممارسة، وان كان لم يعطِ نسباً معينة للدرجات المختلفة للممارسة. وفي دراسة حديثة لايزانك (١٩٧٦)، افاد بان ١٠٪ من الاناث يشعرن براحة اعظم بالتواجد مع الاناث، وبان مثل هذه النسبة من الاناث افدن بان الاناث من جنسهن كثيراً ما يجتذبهن، كما افادت ٨٧٪ من الاناث بان الجنسية المثلية هي شيء طبيعي بالنسبة لبعض الناس. وفي بحث استبياني آخر، قامت به كترين ديفيس على ١٢٠٠ من النساء غير المتزوجات، افاد نصفهن بانهن تحسسن بعلاقة عاطفية شديدة مع غيرهن من الاناث، واقرت خُمس الاناث بممارسة الاستمناء المشترك والملاصقة الجنسية.

الممارسة في المجتمعات البدائية

ان الممارسات الجنسية بين الاناث اقل وقوعاً في المجتمعات البدائية من الممارسة بين الذكور، غير ان هذا الانطباع قد يكون في الظاهر فقط، وهنالك ما يبرر الاعتقاد ان هذه الممارسة اكثر بكثير مما تظهر عليه، وخاصة في المجتمعات التي تفرض قيودا على العلاقة الجنسية بين الجنسين حتى الزواج. وقد افادت دراسة فورد وبيش Ford and Beach الانثروبولوجية بان سبعة عشر مجتمعاً بدائياً يمارسون اللسبية من بين (٧٦) مجتمع بدائي تمت دراستها. وافادت دراستهم بان قبائل اراندا Aranda الابوروجينية في استراليا تمارس الاستمناء المشترك بدغدغة البظر ثم المضاجعة الواحدة فوق الاخرى، وفي قبائل شكشي Chukchee في سيبيريا تستعمل الاناث قضيباً صنع من عضلات ساق الغزال البري في علاقة اللسبية، وفي قبائل الاراندا، تستعمل الاناث قضيباً من الخشب، كما يستعملن احياناً ثمرة الموز والبطاطس الحلوة. وهذه الممارسات البدائية وغيرها ليست ممارسات غير مألوفة في المجتمعات المتحضرة المعاصرة والتي من الواضح انها تهدف الى الاثارة الجنسية والوصول الى الذروة في حياة بعض الاناث.

درجات الممارسة اللسبية (السحاقية)

ان التصور السائد في اذهان الناس عن طرفي العلاقة الجنسية المثلية عند الاناث هو انثى ذات خصائص رجولية تتخذ الدور الايجابي المسيطر والفاعل، والشريك الثاني في العلاقة هي الانثى المتأنثة ذات الدور السلبي المستلم والقابل بالسيطرة. ومع ان هذا قد يكون صحيحاً في بعض الحالات، الا انه لا يمثل نموذج العلاقة الجنسية اللسبية، فهنالك علاقات كثيرة لسبية تقوم بين اناث يقعن ضمن هذه الحدود المتباعدة من صفات الانثى - المسترجلة، والمستأنثة - ان جاز الاصطلاح. وقد اقترح الدكتور كابريو Caprio تصنيفاً للممارسة اللسبية يتألف من ست درجات يتراوح بين درجة تلك الانثى التي تبدي سلوكاً عنيفاً في سلوكها الجنسي مع الاناث مع الكراهية للرجل، والى تلك الانثى التي لديها الاستعداد لاقامة علاقة جنسية مع الذكور غير انها تتوق احياناً للعلاقة الجنسية مع مثلها من الاناث.

ان ما يتوجب ادراكه عن الجنسية اللسبية، وهو الامر المدرك ايضاً في العلاقة بين الذكور، هو ان اللسبية لا تعني بالضرورة القيام بالعملية الجنسية او بالحصول على الذروة ولا حتى بضرورات التماس الجسمي. فكما هو الحال في الذكور، فان الرغبة قد تكون غير واعية في صاحبتها، وقد يدلل عليها حلم او بادرة سلوكية، وقد تداعبها الانثى في خيالها، وقد تعانيها في عاطفتها، وقد تبرز في مظهر وآخر من مظاهر سلوكها بدون ان تكون هذه المظاهر فاضحة للرغبة الجنسية. وعلى ذلك فان من الاصح في بحث الجنسية اللسبية ان يشار اليها بمصطلح «التوجه الجنسي المثلي». وهو المصطلح الذي يمكن احتواء مختلف درجات هذا الاتجاه الجنسي والبحث في اسبابها وعلاجها.

اسباب اللسبية

لم تسترع الممارسة الجنسية المثلية بين الاناث ما استرعته وتسترعيه الممارسة المثلية بين الذكور من انتباه الباحثين واهتمامهم، وبعض ذلك مسبب عن الاهمال التقليدي لحياة المرأة الجنسية، وبعضه جاء بسبب الموانع والصعوبات المألوفة التي تواجه الباحث في امور الانثى وخاصة في المجال الجنسي، وهنالك سبب آخر لتخلف البحث في هذه الناحية، وهو ناجم عن جعل هذه الممارسة او درجة من درجاتها امراً طبيعياً في معظم الحالات، مما لا يستدعي الاهتمام والتفسير. ومع هذا الاهمال النسبي في الاهتمام والبحث، الا ان اللسبية استرعت بعض الانباه، وقام الكثيرون في بحث الظاهرة واسبابها. وعلى العموم فان النظريات السببية الواردة في تعليل الممارسة بين الاناث هي النظريات عينها التي وردت في تعليل الممارسة بين الذكور، وهي تجمل في ناحيتين، الاولى الناحية البايولوجية، والثانية ناحية البيئة والمحيط. والعوامل الفعالة في كل من الناحيتين تتفاعل وتتظافر، وبدرجات متفاوتة من التواجد والقوة لتكوين الميل والممارسة المثلية بين انثى واخرى.

ان بعض الباحثين ينفون ان يكون الاتجاه الجنسي المثلي عند الانثى مقرراً عند الولادة سواء كان ذلك بعوامل وراثية او هرمونية مؤثرة في حياة الجنين، غير انه وان كان من الصعب اثبات وجود عامل كهذا عند الولادة، فان من الصعب ايضاً نفيه، وعلى العكس فان المظاهر الجسمية وسمات الشخصية التي تتمتع بها الانثى التي تقوم بالدور الفعال في العلاقة اللسبية، والمظاهر الاناثية الشديدة التي تتمتع بها الانثى السالبة في العلاقة، تشير الى وجود اساس بايولوجي وقائم عند الولادة في بعض الحالات اللسبية، وخاصة الحالات المتطرفة منها والتي تمارس فيها الانثى العلاقة اللسبية بشكل مفضل او محصور. واذا افترضنا وجود هذا العامل البايولوجي المقرر، فانه ما زال من المتعذر اثبات كيفية وزمن حدوثه في تكوين الجنين. وما يشابه الافتراض بوجود عامل بايولوجي مقرر للاتجاه الجنسي هو الافتراض بتوافر اتجاه جنسي ثنائي في طبيعة كل انسان، ذكراً او انثى، وان هذا الاتجاه الثنائي يتقرر بفعل طبيعة بايولوجية ما زلنا نجهلها الى حد كبير، وبناء على هذا الافتراض فان الانثى، حالها حال الذكر، يمكن لها ان تحمل ميولاً جنسية ثنائية، منها ما هو ذكري، ومنها ما هو انثوي، وتتقرر الميول بالاصل بقدر ما تحقق لها من كل طرف في الثنائية، وللانثى الواحدة ان يكون لها الغلبة من طرف او آخر من هذه الثنائية، او بدرجات متقاربة او بدرجات متفاوتة. وهذه النسب لها ان تقرر الميول والاتجاهات الجنسية الاساسية في الانثى، وهو الامر الذي يفترض وجوده في الذكر ايضاً، كما انها تفسر وجود الاتجاهات الجنسية الثنائية في ممارسة الانثى او الذكر.

لعل اهتماماً اعظم يوجه الى الاسباب المحيطية في حياة الانثى من الاهتمام بالاسباب البايولوجية. ورأى اصحاب النظريات المحيطية هو ان الانثى في وقت ما في بداية وعيها للاحاسيس والجواذب الجنسية تتجه لتجربة الواقع بشكل مغاير وبشكل يقنعها بان حاجتها ورضاها الجنسي لا يتحققان الا بعلاقة مثلية مع انثى. اما لماذا تتجه الانثى الى هذا الاتجاه،

فيفسره اصحاب هذه النظرية على اساس من فعل تجارب حياتية مختلفة تتعرض لها الانثى في حياتها. ومن هذه التجارب علاقة الانثى في طفولتها وحداثتها بـامها، فـالام عادة ذات طبـع تنافسي وتتصف بالعنف وقلة الانوثة، وتميل الى محاباة الولد، وزوجها على العموم خانع بعيـد الصلة بها. ففي مثل هذه البيئة تنمي الانثى في نفسها شعور الفشل في علاقـاتها مـع والدتهـا وشعور الكراهية للعلاقة مع الذكر. ومن الطبيعي لذلك ان تتخذ لها في سن لاحق نموذجاً من الاناث يقوم مقام الام في نظرها، ويسمح لها بممارسة عنفها المكبوت مقابل الحب والقبول. وقد يفسر هذا الواقع في التجربة الحياتية بعض العلاقات الجنسية المثلية، غير ان معظم هذه الحالات تتسبب اما عن عطش جنسي لا يتيسر ارضاؤه بوسيلة واخرى، او بسبب الخـوف من العلائق الجنسية الطبيعية، اما في حد ذاتها او بسبب نتائجها، بما في ذلك الخوف من الحمل والانجاب ومسؤولية الاولاد والحياة العائلية والزوجية. كما ان الحالـة يمكن ان تنجم ولو الى حـين بسبب المحاكاة والتقليد والانحراف الـلاواعي الى علاقـات جنسية مثليـة. وفي بعض الحالات تمثـل الجنسية المثلية في بعض النساء توقهن للافلات من سيطرة الرجـل وتأكيـد شخصيتهن المستقلة بالخروج على ما هو مألوف في الحياة الاجتماعية. وهنالك غير هذه الاسباب اسباب اخرى تقع في مجال الحياة النفسية والعقلية.

الميول الجنسية المثلية

هنالك فرق واضح بين الميول الجنسية المثلية وبين الممارسة الفعلية لها،سواء كان ذلك في حياة الانثى او الرجل. وقد لا تتخذ هذه الميول في اي منها صفة الوعي بوجودها. وقد ينحصر التعبير عنها في المجالات غير الجنسية في الظاهر كالاعجاب والتعلق العاطفي والحب والرغبة في التواجد والتماس وتقليد مظاهر الشخصية واسلوب الحياة الى غير ذلك من الاتجاهات السلوكية والعاطفية والفكرية. وقد لخص الدكتـور انثوني ستـور Storr (١٩٦٤)، هذا الـواقع في حيـاة الانثى في قوله في كتـابه عن الانحـراف الجنسي: «ان فكرة التمـاس الجنسي، وحتى العلاقـة العاطفية القوية بواحدة من جنسهن، هي امر مكروه بالنسبة للكثير من النساء، غـير انهن مع ذلك اذا نظرن الى الوراء في طفولتهن وبداية مراهقتهن، فانهن على اكثر احتمـال سيتذكـرن عدداً من البنات او النساء اللواتي كن ذوات اهمية بالنسبة لهن بصورة لا عقلانية وعاطفية، والتي لا تقارن الا بالـوقوع بـالحب، ذلك انها في الـواقع نمط من انمـاط هذه التجـربة، ومثـل هذه الصلات هي جزء هـام من عملية النمـو، ذلك انها تمكن البنت النـامية من ان تصبـح واعية لنواحي جديدة من شخصيتها الانثوية. وجميعنا، ذكوراً واناثاً، نميل الى ان نبهر وان نقع في حب اناس يمثلون لنا نواحي من انفسنا لا نجد تعبيراً «عنها في الحياة الواقعية. .» وهكذا ليس لدينا ان نحكم على مثل هذه الاتجاهات بانها تمثل بالضرورة انحرافاً يقتضي الحد منـه او علاجـه، ولعل هنالـك ما يبرر الابقاء عليـه بوصفهـا ضرورة من ضـرورات النمو النفسي والتـوازن العقلي. غير ان الامر يختلف في حالات الممارسة التي تحدث بدون ما يبررها وبشكل غالب او حصري، فهذه الحالات، حالها حال الانماط المماثلة في السلوك الجنسي المثلي عند الذكور تمثل انحرافاً او ابتعاداً عما هو طبيعي ويقتضي لذلك علاجها بشكل او آخر على هذا الاساس.

علاج اللسبية

يعتقد الخبراء ان هنالك حظاً اعظم في العودة الى الحياة الجنسية الطبيعية في الانثى اللسبية مما هو الحال في الذكور المعانين لهذه الحالة. وهذا الاعتقاد يستند الى ما يتضح من ان ممارسة الجنسية المثلية عند الاناث تقل بصورة عظيمة بعد الزواج. ويتوجه الاهتمام العلاجي عادة الى تلك الحالات التي تتجه فيها ممارسة المرأة بشكل غالب او كلي للجنسية المثلية مما يؤثر تأثيراً جذرياً في العلائق الزوجية، او يحول دون اقبال الانثى على الزواج. ويضاف الى هذه الحالات التي تستدعي العلاج حالات الجنسية المثلية التي ترتبط بانحرافات جنسية اخرى واضطرابات سلوكية او نفسية او عقلية.

ان استعمال الوسائل المادية في العلاج كالهرمونات هو عديم الاثر في تحويل الاتجاه الجنسي من ناحية الى اخرى، سواءً جاء على شكل هرمونات تقلل من رجولية الانثى الفاعلة (الايجابية) او تزيد من الهرمونات الذكرية في الانثى المستلمة (السالبة) في العلاقة المثلية، وقد فشلت جميع المحاولات الاصلاحية في هذا الاتجاه. وبفشل الوسائل المادية في العلاج فان معظم الاهتمام توجه الى الوسائل العلاجية التي تبحث عن الظروف الحياتية التي تسهل قيام الحالة واستمرارها. ومع ان من المتعذر في الكثير من الحالات الوقوف على الاسباب التي مكنت الانثى من التوقف عند دور جنسي معين من نموها، وهو الدور المثلي، فان الوقوف على هذه الاسباب ربما لا يعين في التغلب عليها، غير ان هذا الواقع يجب ان لا يقلل من اهمية ملاحظة الوالدين للاتجاهات الجنسية والنفسية في البنات اثناء فترات الطفولة والحداثة والمراهقة، مع محاولة التقليل من دواعي الاتجاه او الامعان في الجنسية المثلية بشكل او آخر.

ان الحياة الجنسية المثلية بالنسبة للكثيرات من ممارساتها تكون لهن مخرجاً وحيداً لاطفاء العطش الجنسي، وخاصة في فترات قبل الزواج او العنوسة الطويلة او المستديمة، ومع ان بالامكان التقليل من هذه الممارسات، الا ان الحد منها كلياً قد يأتي على حساب الصحة النفسية للمرأة. وهنالك لذلك ما يبرر اللجوء الى: «اهون الشرين».

قد تكون الميول العاطفية والجنسية للانثى نحو انثى اخرى امراً طبيعياً في بعض درجاتها مما يمكن الانثى من النمو واكتساب هويتها بوصفها انثى، غير ان استمرار هذه الميول، او اتخاذها مجرى متطرفاً وغالباً في العلاقة الجنسية الفعلية هو امر غير طبيعي، وهو يكشف بالتالي عن تخلخل في الحياة النفسية للانثى الممارسة للعلاقة. وقد وجد بالفعل ان معظم الاناث في هذه الحدود من الممارسة يعانين من الشعور بالقلق وعدم الاطمئنان والحاجة الى التعلق بمن يقوم مقام الام، والتواكل على من يرضي هذه الحاجة. ولتخليص الانثى الممارسة، وهي عادة الانثى المستلمة (او السالبة) في العلاقة، فانه يقتضي رد الطمأنينة الى حياتها، وتمكينها من التعويض عن الحرمان من الام بوسيلة اخرى غير العلاقة الجنسية. اما الانثى الفاعلة (الايجابية)، فهي لا تعاني من هذه الصفات بقدر ما تعاني من الكراهية لدور الرجل في الحياة. وحسدها له، وهي الحالة التي سماها ادلر (الاحتجاج الذكري) وسماها فرويد (الحسد القضيبي)، وهي الحالة

النفسية التي تجمع بين الكراهية للرجل وتسلطه مع ابراز نواحي الرجولة في الانثى ذاتها، وهي حالة نفسية متضاربة تجمع بين الاحتقار للرجل مع تمثيل دوره في العلاقة الجنسية.

ان من الوسائل المستعملة في علاج الحالات اللسبية هي وسائل العلاج السلوكي وهي الوسائل المبنية على النظريات التطبعية من السلوك، وهدف هذه الوسائل هو: اولاً، التقليل من القلق الناجم عن العلاقة الجنسية الطبيعية، وثانياً، زيادة الاستجابات للعلاقات الجنسية الطبيعية، وثالثاً، تكوين سلوك جنسي طبيعي، ورابعاً، التقليل من الاهتمامات الانحرافية الجنسية. وسنأتي على ذكر الوسائل العلاجية السلوكية في الجزء الخاص بعلاج القضايا الجنسية من عطل او انحراف.

اللسبية والقانون

لم تنل اللسبية ما نالته الجنسية المثلية عند الذكور من التحريم والتقييد عبر العصور، ومع ان تحريم الجنسية اللسبية قد فاق تحريم الجنسية المثلية في بعض الازمان التاريخية كعصر هوميروس، الا ان معظم العصور التاريخية والحضارية قد نظرت الى الجنسية اللسبية بصورة اقل ادانة وتأثيماً وتجريماً من الممارسة المماثلة بين الذكور. ولعل سبب هذا التفاوت في الحكم يعود الى ان الجنسية اللسبية لا تكون خطورة على التكوين العائلي والاجتماعي كما هو الحال في الجنسية المثلية، ثم انها، كما ورد في بعض الاديان لا تسبب تعطيلاً للنهج الطبيعي للحياة الجنسية، وهو النهج الذي يجب ان يتجه نحو الاخصاب والتكاثر. وقد عدّت المرأة طرفاً مستلماً وغير فعال وغير مخصب في العلاقة بين الذكر والانثى، ومع ذلك فان معظم الاديان ادانت اللسبية وجعلتها اثماً ورذيلة، غير ان الممارسة لها قلما عوقبت كما عوقب الذكور لمثلها، كما ان الممارسة لم تقم في ضمير الناس درجات التحيز والادانة التي حظيت بها الجنسية المثلية عند الذكور. ومع ان بعض المجتمعات قد ادانت الممارسة وشرعت القوانين التي تحرمها، كما هو الحال في القانون الانجليزي عام ١٨٨٥، والذي ساوى بين الانثى والذكر في العقاب، الا ان ملاحقة الانثى لم تكن بمثل الحماس الذي حظي به الذكور. وفي محاولة الوصول الى هذا التشريع قال (ماكستون Macquisten): «ان هبوط الاخلاق الانثوية، كان الى حد كبير السبب في زوال المدنية اليونانية، والى درجة اعظم في سقوط الامبراطورية الرومانية». ومع ان بعض البلدان الاوروبية ما زالت تحرم الممارسة في قوانينها القائمة، الا ان العمل قليل بهذه القوانين الا في الحالات التي تثبت فيها الملاحقة والاكراه والعلنية، وقد ذهبت بعض البلدان الى حد التسامح في تأسيس النوادي والجمعيات بما في ذلك اصدار المجلات التي تبحث في المجتمعات اللسبية وشؤون المنضويات فيها.

الفصل التاسع عشر

المحرمات الجنسية

* التابو والجنس المحرم

المحرمات الجنسية

التابو Taboo
الجنس المحرم Incest

هنالك بعض العلائق والممارسات الجنسية التي تعدّ في مجتمع او آخر امراً محرماً لا يجوز تحديه الا تحت طائلة العقاب الذي يقضي به عرف او قانون ذلك المجتمع. وهنالك تباين بين بعض هذه المجتمعات في النواحي الجنسية التي يشملها التحريم وفي العقاب المعين لارتكابها. **وهذا التباين في اعتقاد بعض الباحثين في هذا الموضوع يدلل على ان (التابو) او الجنسية المحرمة، لم** تتسبب عن اسباب بايولوجية او نفسية، وانما ظهرت في تقاليد المجتمعات المختلفة وحضاراتها بسبب ضرورات اجتماعية معينة. وينكر مثل هذا الرأي فرويد بشكل خاص، وهو يرى، كما سنبين لاحقاً، ان التابو الجنسي يستند في الاساس الى عوامل بايولوجية ونفسية متوارثة.

يعتقد ان مصطلح (تابو Taboo)، ومعناه المحرم والممنوع، في المفهوم النفسي والاجتماعي، يأتي في اصله من كلمة بولينيزية هي تابو Tapu، وفي لغة ذلك المجتمع فانها **تعني ذلك الشيء الذي بلغ حداً من القوة بحيث تجعله خطراً. وفي معتقد هذا المجتمع الحضاري القديم**،ان اي تماس مع ذلك الشيء فانه يؤدي الى الدمار الذاتي، ليس عقاباً، وانما نتيجة حتمية للفعل ذاته. وهذا الاصل القديم للكلمة يجب ان لا يؤخذ دليلاً على ان التابو او العلائق الجنسية المحرمة قد بدأت في المجتمع البولنيزي، او ان التابو قد تحدد في الامور الجنسية. هذا وقد يجد الباحث اللغوي بعض ما يسترعي الانتباه في العلاقة اللفظية من حيث التركيب والمعنى بين لفظة (تابو) هذه، وبين كلمة (تاب) في اللغة العربية وما تنوه به هذه الكلمة من الخرق والعقاب والامتناع.

* *

هنالك نظريات عديدة عن كيفية ودواعي نشوء التابو فيما يتعلق بالعلائق الجنسية، فداروين، في كتابه «انحدار الانسان» The Descent of Man، يفترض ان الاسلاف الأول للانسان كانوا يعيشون على شكل جماعات صغيرة، كل جماعة منها تلتف حول رجل كبير له وحده الحق والسيطرة على الاناث، وبانه كان يمنع على غيره من الذكور الاصغر او المنافسين له ممن هم دونه مرتبة من معاشرتهن. وفي تصور داروين عن هذا المجتمع الاولي ان الصغير من الذكور كان يطرد من الجماعة حال وصوله الى مرحلة النضج الجنسي. ومما تجدر الاشارة اليه هو ان مثل هذه الظاهرة تشاهد بوضوح في التركيب الاجتماعي لبعض الحيوانات، ومن هذه الخيول البرية، حيث يمارس الحصان الاقوى حقاً مماثلاً له في السيطرة على الاناث وطرد الطامعين من مشاركته من بين صغار الخيل الناضجة.

ويرى فريزر (١٩١٠) ان بعض القبائل البدائية كانت وما زالت تحرم التزاوج ضمن العشيرة نفسها. ويفسر فريزر هذه الظاهرة بانها تعبر عن رغبة العشيرة في حماية نفسها من اي اغراء بممارسة المحرمات في العلائق الجنسية. وقد تأثر فرويد بهذه الملاحظة ورأى ان هذا التحريم ما هو في الواقع الا محاولة لمنع تطور علاقة الحب الطبيعية بين الام وابنها الى علاقة جنسية محرمة. وفي رأي فرويد ان هذه العلاقة ومحاذيرها هي اول الدلائل على نشوء المركب الاوديبي (فرويد ١٩١٢ - ١٩١٣). وفي تصور فرويد ان المجتمع البدائي الذي يرأسه ويتسلط على اناثه رجل واحد هو الاب، فأن الذكور الباقين والمحرومين من الاناث، يندفعون بسبب مركبهم الاوديبي الناجم عن رغبتهم في مشاركة ابيهم، الى محاولة التخلص من ابيهم بقتله، وهو الامر الذي لم ينووه في الاصل، وهم لذلك يشعرون بالاثم عن فعلهم، مما يدفعهم الى التكفيرعن اثمهم برفع مقام والدهم الى مقام (الطوطم) Totem للعشيرة، وهو الرمز للاب في ضميرهم، والذي حرم قتله مهما كانت طبيعة هذا الرمز، وهو عادة من الحيوانات. وقد ادى هذا الموقف في نظر فرويد الى تحريم العلاقة الجنسية بين افراد المجتمع الصغير الواحد، وادى بالتالي الى اقامة علائق الزواج خارج القبيلة. وبهذا التفسير عن نشوء التابو والطوطم فان فرويد يجد اصول المركب الاوديبي في سايكولوجيته، وبان هذا المركب يتضمن عنصرين اساسيين هما منع المحرمات الجنسية، ومنع قتل الاب. ويرى فرويد ان بدايات الدين والاخلاق والمجتمع والفن تلتقي كلها في المركب الاوديبي.

ويدلل البحث في نظريات فرويد هذه بانه لم يكن سباقاً لها، فقد اورد اتكنسون (١٩٠٣) في كتابه (القانون الاولي)، بان هذا القانون قد ظهر عندما تغلب حب الام على غيرة الاب وسمح بذلك لاصغر الاولاد من البقاء في المجتمع البيتي، ومنع في آن واحد القيام بالجنسية المحرمة كوسيلة للتوفيق، وبالتالي فقدَ سمح بشكل تدريجي ببقاء من هم اكبر من الصغير سناً، وهو مما جعل قوانين القرابة اكثر تعقيداً. وفي رأي فرويد ان العلائق الجنسية المحرمة ليست ناموساً اجتماعياً طارئاً بالنسبة للفرد، يتعلمه في الحياة، وانما هو من جملة الاستعدادات البايولوجية العضوية. ويقول في ذلك: «ان الحائل دون العلاقة الجنسية المحرمة ربما يكمن في الملكات الانسانية السالفة، وكغيره من المحرمات فانه قد اصبح ثابتاً في نفوس الكثيرين بعملية

الوراثة العضوية» - (فرويد ١٩١٥). وبعد هذا القول اضاف فرويد الى ذلك بقوله: «ان الاطفال مجبرون على ان يكرروا بايجاز تاريخ الانسانية وذلك بكبتهم لاي ميل او اختيار للمواضيع الجنسية المحرمة».

**

ان من الصعب التوصل الى معرفة الزمن التاريخي الذي بدأت فيه العلائق الجنسية التي شملها التحريم فيما بعد، ولا الى معرفة الزمن الذي بدأ فيه تحريم نمط او آخر من هذه العلائق او اسباب هذا التحريم. وقد يكون من المعقول والمنطقي لنا ان نفترض ان ممارسة مطلقة للعلائق الجنسية قد قامت في العصور الانسانية الاولى. وان هذه الممارسة قد حددت فيما بعد بنتيجة الاستئثار والسيطرة والقوة، اضافة الى فعل عوامل اجتماعية تتعلق بالتكاثر والبقاء وبالتالي بضرورات المحافظة على الهوية. وقد تمخض عن كل ذلك نشوء القوانين والنواميس الدينية والاجتماعية التي تنظم العلائق الجنسية وتضع حدوداً لما هو مسموح ومحرم منها. هذا ولا تتوافر لدينا اليوم بينات عن اصناف المحرمات الجنسية التي مارستها الاقوام البدائية القديمة او حرمتها غير ما يمكن لنا ان نفترضه من ممارسات الاقوام البدائية المعاصرة. غير ان تاريخ الحضارات الانسانية القديمة فيها من البينات ما يلقي الضوء على هذه المحرمات. ومن اقدم هذه الحضارات الحضارة البابلية والتي وضعت قوانين محددة للتحريم كما يتضح ذلك من قانون حورابي (١٧٢٨ - ١٦٨٦ ق.م). وهو من اقدم ما يعرف من القوانين الانسانية المدونة، وقد وردت المواد التالية من ذلك القانون: المادة ١٥٤ (اذا جامع اب ابنته، فان على (الاب) ان يترك المدينة). المادة ١٥٥ (اذا اختار اب زوجة لابنه وجامعها الابن، ثم نام الاب على صدرها واكتشف على هذا الحال، فانه يربط ويرمى في الماء). المادة ١٥٦: (اذا اختار اب زوجة لابنه، ولم يضاجعها الابن، ولكنه (الاب) نام على صدرها، فأن عليه ان يدفع لها نصف (مينا) من الفضة.. الخ). المادة ١٥٧: (اذا نام رجل على صدر امه بعد وفاة والده، فان عقاب ذلك حرق كليهما). المادة ١٥٨: (اذا قام رجل بعد (وفاة) والده بالنوم على صدر امه من ابيه (امرأة ابيه) والتي حملت اطفالاً، فان ذلك الرجل يقطع عن بيت ابيه).

ومن الواضح من نصوص هذه المواد ان اشد التحريم والعقاب انصب على العلاقة الجنسية بين الرجل وامه، وما زال هذا التحريم امنع المحرمات واشدها عقاباً في معظم المجتمعات. وفي فترة لاحقة، جاء الاشوريون بقوانين تحريمية اخرى وذلك من مجموعة القوانين المعروفة (بالقوانين الاشورية الوسطى) والتي تعود الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد. ومن مواد هذه القوانين مادة تعاقب الرجل الذي يتهم جاره بانه فعل به مراراً من قبل الناس، سواءً افاد ذلك بالسر او علانية على اثر عراك، وعقاب المتهم ان يجلد خمسين جلدة، وان يعمل في الاشغال الملكية لمدة شهر، وبانه سيخصى ويدفع جزاءً، وفي مادة تالية من ذلك القانون (المادة ٢٠): «اذا اضطجع رجل مع جاره فعند محاكمته وادانته فان حكمه ان ينام غيره معه ويحولوه الى (خصي Eunuch)». ومن هذه المواد يتضح شمول العلاقة الجنسية مع الجيران بالتحريم، وان

كان من غير الواضح لماذا حدد ذلك بالجنسية المثلية بين الذكور فقط.

ومن القوانين التي سنها الحثيون جاءت المواد القانونية المحرمة التالية: «اذا قام رجل بمجامعة الغنم، فان هذه جريمة الاعدام، ويقتضي قتل القائم بها. . ويجلب المرتكب امام الملك الذي له ان يأمر بقتله او ان يعفو عنه، وليس له ان يسترحم الملك» و: «اذا فجر الواحد بامه فان ذلك جريمة عقابها الاعدام، واذا فجر بابنته فعقاب ذلك الاعدام، واذا فجر بابنه فجريمة ذلك الاعدام»، او: «اذا فجر الواحد بامرأة ابيه وهو ميت، فلا عقاب على ذلك، اما اذا كان ابوه حياً، فانها جريمة عقابها الموت». و: «اذا ما ضاجع رجل عدة نساء محصنات (من غير العبيد) اخوات وامهن، مع هذه في بلد، ومع الاخرى في بلد آخر، فليس هنالك من عقاب، ولكن اذا حدث ذلك في نفس المكان وهو على علم بقرابتهن، فانها جريمة عقابها الموت)، و: «اذا ضاجع رجل زوجة اخيه وفي حياة اخيه، فانها جريمة عقابها الموت، واذا ما تزوج رجل امرأة محصنة وضاجع ابنتها (من رجل آخر)، فانها جريمة تعاقب بالموت. واذا ما تزوج رجل من ابنة امرأة، ثم ضاجع امها او اختها، فانها جريمة عقابها الموت». وقد امتدت مواد هذا القانون الى تحريم وعقاب العلاقة الجنسية بين الانسان والحيوان وحتى بين الحيوان وغيره من الحيوان. ومن هذه المواد (ان اي انسان يقوم بفعل شرير مع خنزير او كلب فان حكمه الموت). ويؤتى بالمحكوم امام بوابة القصر، وللملك ان يأمر بقتله او بالابقاء على حياته، ولكن ليس له ان يستأنف الحكم للملك. واذا ما وثب ثور على رجل، فحكم الثور ان يقتل ولا يموت الرجل. ويمكن تقديم خروف يضاف لقطيع الرجل، اما اذا وثب خنزير على الرجل فليس هنالك من عقاب. و: «اذا ما عمل رجل سوءاً بحصان او ببغل، فليس هنالك من عقاب، وليس على الرجل ان يستأنف ذلك للملك او الكاهن، واذا نام رجل مع امرأة غريبة ثم مع امها او اختها، فليس هنالك من عقاب».

من هذه المواد القانونية وغيرها يتضح ان المجتمعات الحضارية القديمة قد ثبتت قواعد للعلائق الجنسية وانها نظرت الى بعض العلائق الجنسية على انها محرمة وفي درجات متفاوتة من التحريم، وسنت القوانين التي تعاقب على هذه الممارسات، وهي قوانين اشد صرامة مما عمل ويعمل به في الكثير من الحضارات القديمة والحديثة، والذي يتابع المسيرة الحضارية وظهور الديانات يجد تواصلاً بين القواعد والقوانين القديمة وما تلاها من القوانين والتشريعات، والاعراف الاجتماعية، فالتوراة حرمت بعض العلاقات الجنسية: «انك سوف لا تضاجع الرجل كالمرأة، فهذا شنيع، وسوف لا تمارس علاقة جنسية مع حيوان فانك بهذا تدنس نفسك، وسوف لا يسمح لانثى ان تعاشر حيواناً، فهذا خرق للطبيعة. . .». وقد تجاوزت التوراة حدود التحريم للعلاقات الجنسية بين حيوان وآخر فجاء القول: «. . . . وان لا تبيحوا لحيوانين من جنس واحد ان يتعاشرا معاً، وان لا تزرعوا حقولكم بنوعين مختلفين من البذور. وان لاتنسجوا لباساً غزل من نوعين من الخيوط». وتعليمات التوراة هذه تشبه الى حد كبير القوانين التي سنها البابليون والاشوريون والحثيون قبل التوراة في هذا الصدد. وتواصل التحريم من التوراة الى الانجيل، وانصب معظم التحريم على الممارسات التي يقوم بها الذكر، وعلى جميع الممارسات

الجنسية بما في ذلك الجنسية المثلية والتي لا تؤدي الى الانجاب والتكاثر، غير ان الكنيسة عدّت اللواطية بين ذكرين، او بين رجل وامرأة من حجرها، (سودومي Sodomy)، بأنها اشنع الافعال الجنسية المحرمة. ولا بد ان لتدمير (سودم) وغيرها من البلدان الخمسة بسبب ممارساتهم المماثلة، اثر اساسي في عدّ هذه الممارسات الجنسية اشنع المحرمات واشد الآثام. اما في الحضارة المصرية القديمة فقد مورست المحرمات بصورة واسعة على المستويات كافة وبدون ضوابط عقابية، ولعل المصريين في ذلك قد اقتدوا بما عرفوه من اساطيرهم عن ممارسة الهتهم لهذه المحرمات. وعند اليونانيين، وعلى الرغم من اباحتهم للجنسية المثلية وتغنيهم بها في فترات طويلة من حضارتهم، الا انهم منعوا المحرمات في عصر هوميروس وفي عصور اخرى لاحقة، ومع ان اساطيرهم اجازت ذلك لآلهتهم، فزيزس تزوج (هيرا) اخته، الا انه حرم ذلك على البشر، وحتى حرم على الرجل ان يضاجع (خليلة) والده والتي عدّت محرمة يمنع الاتصال بها. وهوميروس في ملحمته قد حرم قطعاً الجنسية المثلية بين الاناث. غير ان ذلك التحويم تغير في القرون التالية له. هذا وقد حرم حتى على الملوك اتخاذ زوجتين في آن واحد، غير ان (الحظايا) لم يدخلن ضمن حدود التحريم.

وفي الديانة الاسلامية عين القرآن الكريم المحرمات الجنسية بوضوح، واذا كانت هنالك بعض المحرمات التي لم يرد ذكرها في القرآن. فلعل تفسير ذلك اما انها كانت نادرة الوقوع في المجتمع العربي القائم عند نزول القرآن، او لان القواعد الاجتماعية قد حرمتها وبالشكل الذي لا يخرج عن روح الاسلام. وقد نصت الآية الكريمة من سورة النساء على المحرمات الجنسية بوضوح وتحديد وشمول.

الفصل العشرون

العقاقير والجنس

أ ـ العقاقير المضعفة للجنس

ب ـ العقاقير المنشطة للجنس

العقاقير والجنس

تأثير العقاقير على القوة الجنسية

(العقاقير المثبطة، العقاقير المنشطة، الحبوب المانعة للحمل)

استعملت العقاقير منذ القدم ومن مصادر مختلفة نباتية وحيوانية وكيمياوية، بهدف احداث تغيير في القوة الجنسية. وقد اتجه معظم الاهتمام في الماضي كما لا يزال متوجهاً في الحاضر، الى اكتشاف العقاقير التي تنشط القوة الجنسية. الا ان اهتماماً مماثلاً قد توجه في السنين الاخيرة الى دراسة الاثر السلبي للعقاقير والادوية والمستحضرات على الحياة الجنسية للافراد الذين يستعملونها تلقائياً او لاغراض طبية علاجية. وبالنظر للعدد الهائل للعقاقير التي تستعمل حالياً فقد اصبح من الصعب متابعة آثارها على الحياة الجنسية او التأكد بصورة قاطعة من ان ما يتزامن مع استعمال هذه الادوية من اضعاف الطاقة الجنسية قد حدث بسبب الآثار الجانبية لهذه العقاقير، او جاء بسبب الحالات المرضية التي تعالج بهذه العقاقير. غير ان هنالك الكثير من البينات التي تساعد على التثبت من فعل بعض العقاقير على الحياة الجنسية وهو فعل تثبيطي في معظم الحالات. غير ان فعل اي دواء او مستحضر لا يقتصر على الفعل الفارماكولوجي المحدد للدواء، فهذا الفعل من الناحية الجنسية بشكل خاص، هو عملية معقدة تشمل عدة عوامل منها العامل النفسي وعامل الشخصية وتوقعات متناول الدواء او المستحضر من استعماله، وعامل العلاقة الخاصة التي تربط الفرد مع شريكه الجنسي. ولهذا السبب فان فعل الدواء، اياً كان، هو فقط فعل احد العوامل المؤثرة، وللدواء ان يكون له فعل مختلف من حيث النتيجة بسبب حصيلة فعالية العوامل الاخرى غير الدوائية. ومثال ذلك ان العقاقير المهدئة تؤدي الى التقليل من الدافع الجنسي والقوة الجنسية اذا ما اعطيت للحيوانات او المتطوعين الطبيعيين من البشر،

بينما هي تزيد في القوة الجنسية اذا ما اعطيت للمرضى الـذين يعانـون من قلق نفسي، وذلك بسبب تقليلها من القلق الذي شغل مـن يعانيه عن الاهتمام والتوجه نحو الرغبة الجنسية.

ولمتابعة فعل الادوية على الحياة الجنسية نختصر هنا ما اشرنا اليه في فصول اخرى من هذا الكتاب، وهو ان الحياة الجنسية للفرد بحدودها الفعلية تتألف من عنصرين او مرحلتين، العنصر الاول: هو عنصر (الـدافع الجنسي Drive) او مـا يسمى عادة بـالليبدو Libido، امـا العنصر الثاني، ويكون الشق الثاني من الحياة الجنسية، فهو عنصر الاداء الجنسي الفعلي والذي يتكون من الاستجابات الجنسية الفعلية في كل من الذكر (الانتصاب والقذف) والانثى (الذروة).

اما **العنصر الأول**، وهـو عنصر الـدافع الجنسي، فهـو خاضـع لسيطرة الجهـاز العصبي المركزي والجهاز الهرموني، بينما العنصر الثاني فهو خاضـع بالـدرجة الاولى لسيـطرة الاعصاب الذاتية: **البرسمبثاوية**: (التي تسيطر على فعالية الانتصاب في الـذكور، والـذروة في الاناث)، والاعصاب السمبثاوية (التي تسيطر على القذف في الذكور والذروة في الاناث). هذا وللجهاز العصبي المركزي فعله ايضاً في عملية الاداء الجنسي. ومع ان الاساس العصبي والهرموني هو اساس هام جداً في الحياة الجنسية. الا ان جميع الملاحظات والدراسات تشير الى ان هنالك اهمية غير قليلة للعوامل النفسية والاجتماعية والحضارية في تكوين الصورة الاجمالية لكل من الدافع الجنسي والاداء الجنسي. وبادراكنا لهذه العوامل كلها، فقد بات من الطبيعي لنا ان نتوقع ان كل عقار او دواء او مستحضر يؤدي الى تثبيط المراكز العصبية او الهرمونية فلا بد له ان يسبب تثبيطاً او اضعافاً للقوة الجنسية كما تتمثل في الدافع والاداء. وعكس ذلك يحدث فيما اذا جـاء فعل هذه المواد منشطاً ولو لفترة قليلة او بمقادير قليلة. ذلك ان فعل بعض الادويـة قد يكـون منشطاً للجهاز العصبي وبالتالي للقوة الجنسية فيما اذا اخذ بمقادير قليلة كالمشروبات الكحولية، بينما يكون فعله مثبطاً ومضعفاً لهذه القوة اذا ما اخذ بمقادير زائدة ولمدة طويلة. وفيما يلي مختصر لمجاميع العقاقير التي تتوافر ادلة كافية على انها تثبط او تضعف القـوة الجنسية ولـو الى حين في بعض الذين يتناولونها، وخاصة اولئك الذين يتناولونها بمقادير كافية ولمدة طويلة من الزمن.

أ ـ العقاقير المضعفة للجنس

١ ـ **الادوية المضادة لارتفاع ضغط الدم**: ان معظم العقاقير المستعملة في علاج ارتفـاع الضغط تؤثر في العمل الجنسي، ومن هذه العقاقـير التاليـة (اسمالـين Ismelin ومستحضرات راولفيـا Rauwolfia مثل هـابيرتـان Hypertan، وسيريـاسيـل Serpasil والـدوميت Aldomet وانفرسينInversin)، غير ان ذلك لا يحدث في جميع الناس.

٢ ـ **الادوية المضادة للكآبة** Antidepressants، واكثر هذه الادوية تثبيطاً للقابلية الجنسية هي مجموعة العقاقير المعروفة بـ (ذات الثلاث حلقات) Tricyclic والمركبات المتداولة من هذه المجموعة تشمل تربتزول، وانافرنيل، وتـوفرانيـل وغيرهـا. وبدرجـة اقل الادويـة المعروفـة (**بناهيات المونا مين اوكسديز** MAOI) مثل مركب نارديل ومارزليد Mardil and Mersalid.

٣ ـ المنومات ـ المسكنات: وهي تثبط الجهاز العصبي المركزي، كما انها تؤثر في المواد العصبية المرسلة Neurotransmitters، واهم هذه المركبات هي مستحضرات الباربتيوريت مثل لومنال.

٤ ـ العقاقير المضادة للتشنجات الاحشائية: Antispasmodics. بعض هذه العقاقير والتي تستعمل في امراض الامعاء والقرحة مثل مركب بروبانثين Probanthine قد تؤدي الى اضعاف القوة الجنسية.

٥ ـ المركبات المضادة للتقيوء Antiemetic ، وخاصة مركب فينرجان Phenergan، والمركبات الاخرى التي تستعمل لمقاومة دوار السفر.

٦ ـ الادوية المضادة لمرض الباركنسون او اعراضه: Antiparkensonian، ومن هذه المركبات دواء Disipal: ديسبال وامثاله، ومركبات ل. دوبا L.Dopa. ولهذه ان تؤثر في كل من الانتصاب والذروة. وفي حالات قليلة جداً لها ان تزيد في القوة الجنسية.

٧ ـ الادوية المضادة للصرع: Antiepileptic، ومن هذه مركب الفينوباربتون (لومينال، وجاردينال) ومستحضر ايبانيوتن Epanutin.

٨ ـ الادوية المعقلة: Neuroleptics، واهم هذه العقاقير مركبات الفينوثيازين Phenothiazine، ومنها ميللريلMelleril . ولارجكتيل Largactil. وقد يستمر الفعل التثبيطي لهذه المواد زمناً طويلاً بعد ايقاف استعمالها، ولهذه العقاقير ان تؤخر في عملية القذف. واحياناً الى حد ايقافه تماماً.

ب ـ العقاقير المنشطة للجنس

مع كثرة العقاقير التي تؤدي الى تثبيط الدافع الجنسي او الاداء الجنسي، الا ان هنالك القليل من العقاقير التي تستطيع تنشيط الحياة الجنسية والرفع من مستوى الاداء لها. وقد استحضرت عبر عصور التاريخ مستحضرات كثيرة لهذا الغرض، وادعي لها او لغيرها الفعالية، وما زالت مثل هذه الادعاءات ترتبط بمستحضر او آخر او بمعادلة تشمل مجموعة من المواد في (كوكتيل تنشيطي) يرد الشيخ الى صباه، ويحتفظ بقواه الجنسية الى ما لا نهاية. هذا ولم يثبت حتى الآن الدليل على صحة مثل هذه الادعاءات، غير ما يمكن للتوقعات من استعمالها ان تشحذ القوى النفسية وتوجهها، مما لا بد ان يكون له اثر وقتي على تنشيط المراكز العصبية الفعالة في العملية الجنسية. ومثل هذا الفعل يقع ضمن فعل الادوية غير الفعالة في ذاتها والتي تفعل عن طريق نفسي (البلاسيبو Placebo).

ان العقاقير التي لوحظ ان لها بعض التأثير التنشيطي للفعالية الجنسية هي المركبات التالية والتي نوردها مع الاحتراز، اذ ان فعلها قد يكون لفترة وجيزة، واذا ما استعملت بمقادير قليلة، كما ان فعلها التنشيطي ربما لا يأتي بسبب فعل مباشر، وانما بسبب فائدتها في حسر الحالة المرضية التي هي السبب الاساسي في الضعف الجنسي:

أ ـ الأدوية والمستحضرات التي تؤثر مركزياً:

١ ـ **المضادات للقلق والمنومات والمسكنات**: ومن هذه الفاليوم، واللبريوم وموجادون. ومع ان هذه المركبات يمكن لها ان تسبب الضعف الجنسي الا انها بكميات قليلة قد تشحذ النشاط الجنسي وذلك عن طريق ازالتها للقلق الذي ينهى عن الدافع والاداء الجنسي. وهنالك بعض ما يسند الاعتقاد ان مقادير قليلة منها تنشط فعلاً الجهاز العصبي، كما هو الحال بفعل كميات قليلة من الكحول.

٢ ـ **المخدرات**: واهم المواد في هذه المجموعة هي مستحضرات الافيون Opiates، وهنالك البعض ممن يعتقد ان هذه المواد تنشط الحياة الجنسية، غير ان الثابت ان استعمالها لمدة طويلة يؤدي الى العنة.

٣ ـ **المركبات المهلوسة**: Hallucinogens، واهم هذه المركبات مادة ل. س. د LSD، وليس هنالك ما يثبت فعلها التنشيطي، وقد ينحصر فعلها في تنويع الاحاسيس المصاحبة للعلاقة الجنسية مما يجعلها تبدو اكثر جاذبية وارضاء.

٤ ـ **القنابيات**: Cannabis، وهي تستعمل بكثرة في الهند ومصر وغيرها من البلدان وتسوَّق بمستحضرات واسماء متعددة. وهنالك اعتقاد متواصل ومنتشر في الماضي وحتى الحاضر بفعل هذه المستحضرات التنشيطي على النواحي الجنسية، غير ان ما يبدو تنشيطاً ما هو في الواقع الا ما ينجم عن ازالة النواهي عن الرغبات الجنسية وبالتالي جعل الرغبة الجنسية والعمل الجنسي اكثر امكانية. على ان من الثابت ان الاستعمال الطويل او المفرط لهذه المستحضرات يؤدي في النهاية الى اضعاف الطاقة الجنسية والى حد العنة في الكثير من الحالات.

٥ ـ **المنشطات النفسية**: **Psychostimulents**، ومن اهم هذه المركبات مركب الامفيتامين Amphetamines مثل البنزدرين او الديكسدرين ومستحضر **الكوكايين** والستركنين. ويبدو ان هذه المستحضرات هي المستحضرات التي لها فعل تنشيطي حقيقي. فاستعمال الامفيتامين بحقنة دموية يؤدي الى حالة من الانتصاب الآني. ولعل هذه الحقيقة هي التي دفعت بالكثير من المراهقين في المجتمعات الغربية الى الادمان على استعمال هذا المستحضر عن هذا الطريق، غير انه على الرغم من هذا الفعل التنشيطي، فان الاستعمال**الطويل** المدى لهذه المستحضرات يؤدي الى اضعاف الاهتمام والرغبة بالامور الجنسية. ومن العقاقير التي استعملت لفترة طويلة **كمنشط للاداء الجنسي هي مادة الستركنين، وبنتيجة استعمالها فان انتصاباً آنياً قوياً يحدث، غير انه انتصاب** مؤلم. واكثر ما استعملت له هذه المادة هو في اولئك الذين يحتاجون الى اثبات قابلياتهم الجنسية في ظروف خاصة كبداية الزواج.

٦ ـ **المستحضرات الهرمونية**: المستحضرات الهرمونية الذكرية (الاندروجين Androgens) يمكن ان تكون منشطة للانثى، وايضاً للذكر الذي يعاني من نقص غير اعتيادي في هذه الهرمونات. غير ان اعطاء أي مقادير منها مع توافر المستوى الطبيعي منها عند الذكور فلا فائدة منه

في تنشيط النواحي الجنسية. هـذا ومن غير المفهـوم الكيفية التي يؤدي بهـا الهرمـون الذكـري (الاندروجين) إلى تنشيط الحياة الجنسية عند المرأة. وعلى كل حال فان هذا التنشيط قد يأتي على حساب تشويه جمالها لما يسببه الاندروجـين من زيادة الشعـر في جسمها وظهـور الطفـح (حب الشباب) في وجهها والتغير في صوتها.

٧ ـ المواد الكحولية: للمستحضرات الكحولية فعل تنشيطي جنسي، وبعض ذلك يأتي من فعلها التنشيطي على الجهاز العصبي المركزي، وبعضه يأتي عن طـريق التقليل من عـوامل النهي التي تقيد العمل الجنسي، كما يحدث كثيراً في حالات القلق والخوف، وفي الحالتـين فان الأثر التنشيطي يحدث فقط بتناول مقادير قليلة تتناسب أحياناً مع تحمل الفرد وتعوده على الكحول، غير ان تناول كميات كبيرة له فعل مثبط على الدافع والأداء الجنسي، ومثل ذلك يحدث في حالات الادمان وتعود تناول الكحول.

٨ ـ المركبات العصبية الناقلة: Neurotransmitters، واهم هذه المركبات هي دوبامـين Dopamine و5 - HT. وعلى العموم فان العقاقير التي تزيد من تركيز الـ HT - 5 في الدماغ تؤدي الى انقاص الدافع الجنسي، بينما تلك التي تـزيد في مستـوى الـ (دوبامـين) ترفـع من الدافـع الجنسي. (*)

ب ـ العقاقير المؤثرة محيطياً

وتشمل هذه الغقاقير مركب الكانثاريديس Cantharides او المسمى (بالذبابة الاسبـانية Spanish Fly)، ومـركـب اميل نـايترايت Amyl Nitrite . والمـركبان يعـدّان منشطين جنسيـين (افروديزيه Aphrodisiacs)، غير ان الاخطار الجسمية التي يمكن ان تحدث من استعمالها تحدد كثيراً من هذا الاستعمال لاغراض تنشيطية.

ملاحظات أخرى

انتبه الباحثون في السنوات الاخـرى الى الفعل الايجـابي والسلبي على النـواحي الجنسية نتيجة استعمال بعض العقاقير القديمة او الحديثة. وفيما يلي بعض المـلاحظات الـواردة في هذا الموضوع.

١ ـ استعمال المسكنات ومضادات الالم بما في ذلك الاسبرين وغيرها من المـركبات التي تسعمل في الرشوحات. لها ان تقلل من الميول والكفاءة الجنسية.

٢ ـ تفيد احدث التجارب ان الاكثار من شرب القهوة والى حـد الادمان قـد يؤدي الى

(*) من المستحضرات التي تجتذب الاهتمام والبحث هو مستحضر بروم كريتيين Bromcryptin. والمعروف بانه ينشط الحياة الجنسية، ويفسر هذا التأثير بانه نتيجة فعل المستحضر على مستوى البرولاكتين. فاذا كان هذا المستوى عالياً في المريض الذي يشكو من الضعف الجنسي، فان المستحضر يخفض المستوى، وينشط الحالة الجنسية. ويعتقد ان المستحضر يحدث اثره الايجابي عن طريق تنظيم وظائف الغدة النخامية وتأثيره على نقل الحوافز العصبية.

الاكتئاب والى تقليل القوة الجنسية.

٣ ـ المواد الكحولية، حالها حال المهدئات قد تؤدي في البداية وبمقادير قليلة الى تنشيط الدافع والاستجابة الجنسية وذلك بسبب ما تحدثه من استرخاء نفسي، اما الاكثار منها فهو يؤدي الى عكس النتيجة تماماً.

٤ ـ التدخين المفرط يؤدي الى التقليل من الرغبة والكفاءة الجنسية. ذلك انه يؤدي الى تجمع مقادير كبيرة من اول اوكسيد الكربون في الدم، مما يمنع وصول الكميات الكافية من الاوكسجين الى الخلايا، وهذا بالتالي يؤدي الى انقاص في فعالية الخلايا العصبية والجسمية ومن مقدرتها على الاستجابة اللازمة للاثارة الجنسية.

٥ ـ من الممارسات المنتشرة في بعض البلدان (امريكا) استنشاق الرجال مواد نايتروجينية متبخرة Volatile Nitrates، لغرض اذكاء الرغبة الجنسية، وقد افادت ملاحظات البعض ممن استعملوا هذه المواد بانها تؤدي الى اطالة فترة الذروة والى زيادة حجم القضيب.

٦ ـ لوحظ ان احد المركبات الدوائية الحديثة (PCPA) في علاج الصداع النصفي، يؤدي الى زيادة الرغبة والكفاءة الجنسية. غير ان ذلك لا يحدث إلا في المصابين فعلاً بالصداع النصفي (الشفيقة) والذين يعانون عادة من هبوط في رغباتهم الجنسية.

٧ ـ من المستحضرات الجديدة التي تسترعي الاهتمام هي المستحضرات التي تحوي مادة الزنك. ولما كان سمك المحار يحتوي مئة ضعف من الزنك على ما تحتويه الاطعمة الاخرى، فهو يستعمل غذاء لبعض الذين يشكون من ضعف او رغبة جنسية.

٨ ـ المركبات الجديدة المسماة فيرومونز Pheromones والتي تفرزها بعض الحيوانات والحشرات، والتي تثير فيها الجاذبية نحو الجنس، فان هنالك من يعتقد انه قد يكون لها مثل هذا التأثير في الانسان. وقد استخلص احد هذه المركبات من عرق الذكور، ويسمى (الفا اندروستينول Alpha Androstenol). وقد دلت بعض التجارب على ان هذا المستحضر فيه ما يجذب الاناث نحو الذكور الذين يستعملون المستحضر تعطيراً أو تطيباً للوجه بعد الحلاقة.

العقاقير المانعة للحمل

موضوع اثر الحبوب المانعة للحمل واثرها على الحياة الجنسية للمرأة هو من المواضيع الجدلية التي يكثر فيها الادعاء والتفنيد. ولعل من الاسباب التي تساعد على الجدل هو ان المادة المانعة للحمل هي فقط احدى العوامل المؤثرة في النتيجة النهائية لاستعمالها، فشخصية المرأة وتوقعاتها وحالتها النفسية وطبيعة علاقاتها الجنسية كلها ذات اثر قد يغطي على الفعل الدوائي لمانع الحمل. ويضاف الى هذه العوامل ما يمكن ان يكون هنالك من آثار جانبية لاستعمال المانع والتي قد تصرف المرأة عن الرغبة في الامور الجنسية. ومن الآثار الجانبية الاخرى امكانية حدوث شحة في المرطبات للفرج، مما يجعل المعاشرة مضايقة ومؤلمة للمرأة. وهنالك ايضاً امكانية شعور

المرأة بالاثم والذنب لانها تتناول مادة تمنع مسيرة الخلق الطبيعية ومشيئة الخالق، ومن شأن هذا الشعور ان ينهي الى حد ما عن الدافع الجنسي والسعي الى تحقيقه بالممارسة الفعلية. ومن الناحية الايجابية فان الاطمئنان الذي تشعر به الانثى بان ممارستها الجنسية سوف لا تنتهي بالحمل،من شأنه ان يطلق رغبتها الجنسية وان يساعد على اذكائها وارضائها. وفي الحالات التي يتوافق فيها هبوط الرغبة الجنسية مع استعمال الحبوب المانعة للحمل، فقد يفيد في معالجة ذلك تغيير الحبوب المستعملة الى نوع آخر يحتوي مقادير اقل من هرمون البروجستجين Progestogen، كما قد يفيد في ذلك اعطاء الانثى مقادير قليلة من الهرمون الذكري (تستسترون Testesterone) والذي يذكي الرغبة الجنسية في الانثى، ولكنه يجب محاذرة امكانية حدوث آثار جانبية لاستعمال هذا الهرمون كنمو الشعر، والتغير في الصوت الى نبرات الذكورة.

الفصل الحادي والعشرون

علاج الاضطرابات الجنسية

* مقدمة
* طرق العلاج الجنسي
  العلاج بتقليل القلق
  العلاج النفسي
  العلاج المادي
  الهرمونات
  العقاقير
  التمارين والوسائط الميكانيكية
  الطرق السلوكية :
  تقليل القلق
  تمارين الاسترخاء
  ازالة الحساسية
  الغمر
  الطرق السلوكية لتحسين الاستجابات الجنسية
  التطبع الكلاسيكي
  الاخبار البايولوجي
  التدريب في الخيال
  التنويم
* العلاج الجنسي التنشيطي
  طريقة ماسترس وجونسون
  طريقة لوبتز ولوبيكلوا
  طريقة بترشيا وجيلان
* العلاج بالاستمناء
* علاج الانحرافات الجنسية
* علاج العنة الجنسية
* علاج حالات العطل الجنسي :
  علاج العطل الجنسي عند الذكر
  علاج العنة
  علاج القذف السريع
  علاج القذف البطيء (المتاخر)
  علاج العطل الجنسي عند الانثى
  تشنج الفرج
  العطل الجنسي العام
  عطل الذروة
* الطرق العلاجية الجنسية الحديثة
  طريقة موطن التحسس
  طريقة سيماتز (توقف وابدا)
  طريقة ماسترز وجونسون (العصر)
* علاج عطل الرغبة الجنسية

علاج الاضطرابات الجنسية

ربما كانت الاضطرابات الجنسية من اهم ما يعنى به معظم المصابين بها في حياتهم، ولعل لها من الاولوية في اهتماماتهم ما ليس لاي موضوع او حدث آخر في حياتهم، وليس من العسير تفهم ذلك، ليس فقط بالنظر لما للناحية الجنسية من مكانة في حياة كل انسان، وانما ايضاً لارتباط هذه الناحية بطبيعة العلاقات التي تربط الفرد بشريكه الجنسي، وما يترتب على هذه العلاقات من توافق او عدمه، ومن كفاءة او عدمها، ولكل ذلك ان يؤثر الى حدود بعيدة في الوضع العائلي والاجتماعي للفرد المعني او شريكه. والاهتمام بالاضطرابات الجنسية وعلاجها ليس بالشيء الجديد، فطالما سعى الانسان قديماً وحديثاً لضمان المستوى الملائم لقابلياته الجنسية، او لضمان الحد الادنى والمقبول من هذه القابليات. وقد جاء معظم الاهتمام من جانب الذكر الذي عدّ نفسه المعطي والفاعل في العلاقة الجنسية، وعدّ نجاحه او فشله المقرر الوحيد لهذه العلاقة بصرف النظر عن شعور شريكه الجنسية بنجاح او فشل هذه العلاقة، ولا عجب لذلك ان يتركز الاهتمام على علاج ما يعانيه الذكر من اضطراب او عطل في حياته الجنسية. وقد نجم عن هذا التركيز والاهتمام ظهور طرق علاجية عديدة من نفسية أو عقاقيرية، ولعل الانسان القديم والحديث لم يترك باباً الا طرقه، او وسيلة الا اتبعها لتجاوز عطله الجنسي. وتراوحت وسائل علاجه من طقوس السحر والايحاء الى العقاقير والخلاصات الهرمونية، الى وسائل الاثارة الجنسية بانواعها. ومعظم الذين سعوا للعلاج في الماضي لجأوا الى خارج المجال الطبي لمساعدتهم على التغلب على مشاكلهم الجنسية. وكأنهم بذلك كانوا يفسرون العطل الجنسي على اسس غير طبية. غير ان الذي حدث في هذا القرن قد اقحم الحياة الجنسية في

صميم المجال الطبي، وذلك عن طريق تطور النظرة الى الامور النفسية في المجال الطبي، والاقرار بان الحياة الجنسية تمثل نقطة الارتكاز في نمو الحياة النفسية للفرد. وبنتيجة ذلك وضعت حياتنا الجنسية في مركز الاهتمام من زوايا متعددة منها ما هو بايولوجي ومنها ما هو نفسي ومنها ما هو اجتماعي، وقد تمخض عن ذلك الكثير من التقدم في فهم الحياة الجنسية للفرد من جوانبها المختلفة، وكان لهذا الفهم اثره في توجيه البحث والاختيار عن افضل الوسائل لعلاج الحالات المرضية المختلفة التي يعانيها المرضى في حياتهم الجنسية. وقد يتبادر للذهن ان التقدم في هذه النواحي قد جعل من الميسور علاج هذه الحالات المرضية، غير ان الواقع ما زال بعيداً عن تأكيد هذا الانطباع. اذ ما زالت معظم الحالات المرضية تمثل تحدياً بالنسبة للطب. ولعل ذلك يعود الى ان الوسائل العلاجية الحديثة تتطلب من الوقت والتقنية والتفرغ من الاطباء مما لا يسهل الحصول عليه. وبهذا يدفع المرضى بوسائل علاجية سريعة ودوائية قليلة الجدوى والنفع، وهو **الأمر الذي يدركه تماماً العديد من المرضى الذين يتنقلون من وصفة دوائية إلى أخرى بدون تغيير** ملموس او دائم في اوضاعهم الجنسية.

ومع التقدم الحديث في الاساليب والتقنيات العلاجية. الا ان فائدة هذه الطرق تختلف بين فئة او اخرى من فئات العطل الجنسي. وعلى العموم فان الفئات المرضية الاكثر سهولة للعلاج واستجابة له، هي حالات تشنج الفرج وحالات القذف المبكر، اما الحالات الاقل سهولة، فهي حالات انعدام الذروة الاساسي في الانثى (الانثى التي لم تحصل على الذروة مطلقاً وفي اي موقف من مواقف الاثارة الجنسية)، وحالات تأخر القذف، وحالات العنة الثانوية (العنة التي تحدث احياناً). اما الحالات التي يصعب علاجها، فهي حالات العنة الاساسية (العنة القائمة منذ البداية)، وحالات تعذر الذروة الثانوية (الانثى تحصل على الذروة باثارة البظر يدوياً، بينما لا تستطيع الحصول عليها بنتيجة الجماع مع شريك جنسي). واضافة إلى هذه الحالات فان حالات الانحراف الجنسي يصعب علاجها على العموم.

طرق العلاج الجنسي

الطرق العلاجية المستعملة عديدة، ويمكن الجمع بين اكثر من طريقة في علاج المريض الواحد، كما يمكن للطريقة الواحدة ان تفيد في اكثر من نوع من انوع الاضطراب او العطل الجنسي، واختيار الطريقة الملائمة يعتمد على المريض كما يعتمد على نوعية الاضطراب الجنسي والظروف التي يقوم فيها هذا الاضطراب وعلى طبيعة العلاقة التي تربطه بشريكه من جميع نواحيها.

١ ـ العلاج بتقليل القلق

ان للقلق **أثراً عظيماً في قيام** العطل الجنسي سواء كان القلق مرتبطاً بالحياة الجنسية بشكل قديم ومزمن ويعود الى تجارب الطفولة او الحداثة، او كان قلقاً طارئاً وناشئاً عن ظروف آنية في حياة الفرد. ولعل نسبة غير قليلة من العطل الجنسي تحدث بسبب القلق الطارىء، كخوف الفرد مثلاً من فشله الجنسي، وهذا ما يحدث كثيراً في المجتمعات التقليدية التي تتطلب اثباتاً

لكفاءة الرجل الجنسية بعد الزواج مباشرة، وهو الامر الذي له ان يسبب قلقاً للزوج يبدأ بمساورته قبل الزواج بزمن غير قصير. ويحدث أحياناً ان يكون القلق من اي مصدر كان سبباً في تعطيل الكفاءة الجنسية، كما ان الكثيرين من الناس يبدأ قلقهم عند تعرضهم لتجربة جنسية فاشلة في نظرهم، وهو الامر الذي يمكن له ان يكون فاتحة حالة مزمنة من القلق لها ان تؤثر في قابليتهم الجنسية. وجميع هذه الحالات يمكن ان تستجيب للوسائل العلاجية التي تهدف الى التقليل من القلق سواء كان ذلك باعطاء المهدئات المناسبة، او بالتطمين، او باعطاء الفرد مجال الاستراحة من العلاقة الجنسية والى ان ينحسر قلقه، وتبتعد التجربة الفاشلة عن ذهنه، وقد يقتضي اللجوء الى هذه الاساليب كلها في الحالة الواحدة كما تفيد بذلك الخبرة في معالجة حالات العطل الجنسي في اول ايام العلاقة الزوجية.

٢ ـ العلاج النفسي

يفترض العلاج النفسي للقضايا الجنسية ان هذه المشاكل تنجم عن عوامل نفسية تؤثر في عمليات النمو النفسي الجنسي للفرد وتؤدي الى تعقيد هذا النمو، وبالتالي الى قيام نوع او آخر من انواع العطل او الانحراف الجنسي، كما يفترض هذا العلاج ان الحياة الجنسية لبعض الافراد قد تتأثر بعوامل نفسية طارئة تؤدي الى اضطراب مماثل فيمن يتمتعون اصلاً بحياة جنسية طبيعية. وعلى اساس من هذا الافتراض فان المعالجين النفسيين يعتقدون بأن العلاج الصحيح والفعال للقضايا الجنسية هو العلاج النفسي. ومع ان هذه الافتراضات تبدو مقنعة والى الحد الذي يبشر بفائدة العلاج النفسي، الا ان الخبرة العلمية في القضايا الجنسية لا تؤيد مثل هذه الآمال، وخاصة في علاج الحالات الاساسية من الاضطراب الجنسي، والتي ينمو ويشب الفرد عليها، مثل حالات العنة الاساسية والتي عاناها صاحبها منذ بداية حياته الجنسية. غير ان الامر لا يبدو يائساً في الحالات الطارئة من الاضطراب الجنسي، والتي تقترن بتجربة نفسية معينة وواضحة، فمثل هذه الحالات تستجيب بشكل مرضٍ لطرق العلاج النفسي، وخاصة الطرق العلاجية القصيرة التي تستهدف اعطاء الاطمئنان والثقة للمريض. وهذه الطرق، والتي تعدّ طرقاً اسنادية من العلاج النفسي، تقلل من قلق المريض بسبب عطله الجنسي، وتحرر دوافعه واستجاباته الجنسية من فعل ما يقيدها او ينهي عنها، وربما لا يقتضي الامر ضرورة قيام الطبيب بصرف هذا العلاج الاسنادي حتى النهاية، ذلك ان الشريك الجنسي، اذا ما تمتع بالصبر والحرص والمحبة فانه يكون افضل من يقوم بهذا الاسناد النفسي.

ومن الوسائل العلاجية النفسية المستعملة في حالات العطل الجنسي اسلوب الارشاد الجنسي، ويمكن القيام به بشكل فردي، أو على الزوجين او الشريكين في العلاقة الجنسية، أو على شكل طريقة علاجية جماعية تشمل عدة افراد او ازواج ممن يعانون من حالة مماثلة. والهدف من العلاج الارشادي، وخاصة العلاج الذي يجمع بين الشريكين، هو محاولة ازالة العقبات التي تكمن في العلاقة بينهما كالشعور بالعداء او عدم التوافق، او الخوف من جانب او آخر، والسعي بدلاً من ذلك الى احلال حالة من التوازن والقبول بينهما بوصفهما شريكين متساويين في العملية

الجنسية ويعملان معاً من اجل انجاحها. وربما لا يكفي هذا الاسلوب العلاجي، والذي يقتصر على التحليل والارشاد النفسي السطحي لمشاكل العطل الجنسي، الى حل القضية الاساسية من العطل الجنسي، ولهذا يقتضي في مثل هذه الحالات اللجوء الى خطوات ابعد من العلاج كالتي سنفصلها فيما بعد.

ان ارتباط الامور الجنسية بالامور النفسية خاصة منذ ميلاد علم النفس الحديث قبل مئة عام تقريباً، قد شجع الاعتقاد ان العلاج النفسي التحليلي هو العلاج الامثل لحالات العطل الجنسي. وهنالك في الواقع تشبث عظيم من الذين يعانون من العلل الاساسية في العطل الجنسي كالعنة والانحراف للسعي وراء هذا العلاج كأمل اخير في علاجهم، خاصة وان هذه الحالات تميل الى الازمان، ولا تستجيب للطرق العلاجية الدوائية. ومع ان بعض المحللين النفسيين قد بينوا بعض الوقائع المرضية التي استجابت للعلاج التحليلي النفسي، الا انه لا تتوافر اية احصائيات في هذا الشأن يمكن الاعتماد عليها، واذا اضفنا لذلك الزمن الطويل الذي يتطلبه العلاج التحليلي، وتكاليفه المرهقة للمريض، فانه يكاد يكون من العبث محاولة هذا العلاج، وان كان الأمل والتشبث سيظلات يدفعان بالمريض نحو هذا الاسلوب العلاجي.

٣ ـ العلاج المادي

هنالك عدة وسائل مادية يمكن استعمالها علاجاً لبعض الحالات الجنسية، اما كعلاج في حد ذاته، واما كعامل اضافي مساعد لوسائل علاجية اخرى من نفسية او سلوكية. والوسائل المادية في العلاج تشمل الهرمونات والعقاقير او ممارسة بعض التمارين او استعمال بعض الوسائط الميكانيكية التي تقلل من بعض مظاهر العطل الجنسي.

أ ـ الهرمونات

معظم الملاحظات العلاجية الحديثة تتفق في ان استعمال الاندروجينات الهرمونية هو قليل القيمة في علاج حالات العنة في الذكور، غير ان هنالك بعض الملاحظات الايجابية عن فائدتها في الكبار في السن. وقد تكون هذه الفائدة بسبب الفعل التمويهي للعلاج، وقد يكون في التحسن العابر في الاستجابة الجنسية ما يؤثر في ثقة الفرد بنفسه، وبالتالي الى شحذ قواه النفسية وادائه الجنسي.

ومع ان بعض الباحثين يرون فائدة من استعمال الهرمونات في الحالات التي يتضح فيها وجود نقص في مستوى هذه الهرمونات عند المريض، الا ان هنالك من لا يجد فائدة منها حتى في هذه الحالات. والتجارب العلاجية المماثلة في استعمال هرمونات الاستروجين Estrogen في الاناث، لم تسفر عن نتائج ايجابية الا في علاج حالة ضمور الفرج المؤدي الى الم المواقعة، غير ان استعمال هرمونات الاندروجين تزيد في الاثارة الجنسية للانثى لانها تزيد من حساسية المناطق الجنسية وخاصة البظر. كما انها قد تزيد من حوافزها الجنسية.

ب ـ العقاقير

استعملت عبر العصور عقاقير ومستحضرات عديدة للاستعمال العام او الموضعي لغرض الاثـارة الجنسية بمـا في ذلك الـدافع والاداء. والمصـطلح الـذي يـطلق عـلى هـذه المـواد هـو (الافروديزيات Aphrodisiacs) نسبة الى افروديت ربة الحسن والانوثة. غير ان ما من عقار او مستحضر واحد يمكن التأكد من فعله الاثاري المذكي للقـابلية الجنسيـة. وهنالـك اليوم عـدة عقاقير مفردة او مركبة او مخلوطة ببعض المستحضرات الهرمـونية. وهي تتـوافر بـاسماء تجـارية متعددة. ومن هذه العقاقير والمستحضرات افروديكس Afrodex والذي يتكون من هرمون ميثل تستسترون، ونوكس فوميكا، ويوهمبين. ومستحضر بوتنسان Potensan المركز، والذي يتكون من هرمون التستسترون واليوهمبين وبيمولين والاستركنين، وغيرها من المركبات المماثلة التي لم تثبت حتى الآن نفعها الا ما يمكن ان يكون لها من اثر نفسي تمويهي. ومن العقاقير التي استرعت الانتباه والاهتمام في السنوات القليلة الماضية العقار المعروف بـ بروموكربتين Bromocryptin ، والذي يعرف بانه ينظم وظيفة الغدة النخامية ويساعد في نقل بعض الاثارات العصبية. وبالنظر لما يعتقد من تأثير هذه المادة على مراكز استلام الدوبامين في الدماغ، ولما يعتقد من ان الفعل الجنسي للذكور له علاقة بهذه المراكز، فقد ادى ذلك الى افتراض فـائدة هـذه المادة في عـلاج حالات العطل الجنسي عند الذكور وخاصة العنـة. هذا ولا تتـوافر ادلـة كافيـة عن فـائدة هـذه المادة علاجياً.

جـ ـ التمارين والوسائط الميكانيكية

ان معـظم التمارين التي تـوصف، تهدف الى عـلاج بعض حالات ضعف الاستجـابـة الجنسية للانثى، فبعض الانـاث تنقصهن الاستجابـة بسبب ضعف العضلات المـوضعية التي تساعد على تحسسهن بالاثارة الجنسية. وقد وضعت بعض التمارين التي تؤدي الى تقوية هـذه العضلات، وبالتالي لتمكين الانثى من الحصول على الاثارة اللازمة المؤدية للاستجابة والذروة. واهم هذه التمارين هي تلك التي اقترحها (كيجل ١٩٥٢). وطورها آنون Annon (١٩٧٤). وتفيد بعض الدراسـات بفائـدة هذه التمـارين في تحقيق الاغراض التي اشـرنا اليهـا في الحياة الجنسية للانثى.

اما الطرق الميكـانيكية فمعـظمها تهـدف الى مساعـدة الذكـر في عطله الجنسي، وهـذه الوسائل تصحح من حالة الذبول للقضيب وتساعد عـلى الانتصاب ميكـانيكياً. وبعض هـذه الوسائط تشمل استعمال مثير كهربائي يكون منشطاً موضعياً للاستجـابة الجنسيـة ويسمى هذا الجهاز (منشط بلاكو Blakoe) غير ان ابحـاث (كوبـر Cooper) (١٩٧٤) اثبتت ان لا فائـدة اضافية تتأتى من استعمال المثير الكهربائي. وهنالك غير هذه الوسائط وسائط جديدة منها زرع قصبـة من السلكون في القضيب، او زرع جهـاز قابـل للانتفـاخ. ومن الوسـائل الميكـانيكيـة المستعملة الباس القضيب الذابل بقضيب صناعي من البلاستيك، هذا ولا تتوافر دراسات عن جدوى مثل هذه الوسيلة بالنسبة لقناعة الفرد او شريكه الجنسي. ومع انه لا تتوافـر حتى الآن

معلومات يعتمد عليها في تقرير جدوى هذه الوسائل الميكانيكية وغيرها، الا انه ليس هنالك ما يمنع استعمالها في حد ذاتها اوكجزء من منهاج علاجي متكامل، على ان يتوافر القبول لها من الشريكين في العلاقة الجنسية.

٤ - الطرق السلوكية

الطرق العلاجية السلوكية هي طرق حديثة نسبياً في علاج الاضطرابات الجنسية، ومعظم هذه الطرق مبنية على اساس نظريات التطبع. وبقدر تعلق هذه النظريات بالامور الجنسية، فانها تقوم على اساس الافتراض بان بعض استجابات العطل الجنسي قد تكون مرتبطة باثارات جنسية معينة، أونتيجة ارتباط سابق بتجربة جنسية مجدية او مؤلمة. ولمثل هذا الارتباط اذا كان مجدياً ان يتسجع على قيام تطبع على ممارسة جنسية معينة، واذا كان مؤلماً بان يعطي تطبعاً ناهياً عنها، وهكذا يقوم الانحراف الجنسي في الحالة الاولى، والعطل الجنسي من نوع او اخر في الحالة الثانية. وتبعاً لهذا التصور لقيام حالات الانحراف والعطل الجنسي، فان الطريقة المثلى لعلاجها تكمن في محاولة فك الارتباط القائم، وذلك باتباع الاساليب المستعملة في العلاج السلوكي، سواءً تلك التي تهدف الى ازالة التطبع، او تلك التي تهدف الى اقامة تطبع جديد، وفي الحالتين فان الغرض من العلاج هو ازالة الموانع التي تعترض الاداء الطبيعي للعلاقة الجنسية، وتشجيع الاثارات والاستجابات الجنسية الملائمة. ولما كانت معظم الموانع التي تعترض الاداء الطبيعي هي موانع تنجم عن القلق، فان الهدف الاول للعلاج السلوكي هو التقليل من هذا القلق او ازالته، وهذا يمهد الطريق لمتابعة الهدف الثاني من العلاج السلوكي وهو اقامة استجابات جنسية طبيعية ضمن العلاقات الجنسية.

ان الطرق العلاجية السلوكية وتقنياتها متعددة. ومعظم هذه الطرق تصلح للاستعمال في علاج القضايا الجنسية. وتصنف هذه الطرق في مجال العلاج الجنسي الى مجموعتين من الطرق، الاولى تستعمل بشكل خاص لهدف التقليل من القلق والارهاق النفسي الذي يرتبط بالممارسة الجنسية، والمجموعة الثانية تهدف الى تحسين الاستجابات الجنسية والمحافظة عليها وادامتها.

الطرق العلاجية السلوكية لتقليل القلق

تشمل هذه المجموعة عدة اساليب من التقنيات السلوكية اهمها (١) تدريب الاسترخاء (٢) ازالة الحساسية (التبليد Desensitization)، (٣) الغمر Flooding. (٤) وتوسيع الفرج Vaginal Dilatation.

١ - تمارين الاسترخاء

العلاج بالاسترخاء يقوم على اساس ان الاضطراب الجنسي يحدث او يتعقد بسبب قيام حالة اساسية من القلق والتوتر، وبأن بالامكان مساعدة المريض على التقليل من ذلك عن طريق تمارين للاستوخاء العضلي. ومعظم التمارين المستعملة لهذا الغرض تعتمد على اسلوب

الاسترخاء الذي وضعه (جاكبسون Jacobson) (١٩٣٨)، واختصره (ولب Wolpe) (١٩٥٨). والاسلوب المتبع حالياً كما وصفه بيرنشتاين وبوركوفيك (١٩٧٣)، يتألف من عملية استرخاء متتالية تشمل تسعة عشرة مجموعة من العضلات الجسمية تبدأ بعضلات اليد والذراع في الجانب المتسلط من الجسم وتنتهي بعضلات القدم من الجانب غير المتسلط. وتشمل التمارين عملية التقلص العضلي ويليها عملية الاسترخاء. وتتكرر تمارين التوتر والاسترخاء الى ان يصل المريض الى الحد الذي يمكنه من ان يسترخي عميقاً ومتزامناً مع سرعة تنفسه. ومتى استطاع المريض ذلك فانه في رأي الخبراء، يصبح قادراً على استعمال هذه التمارين للتقليل من التوتر والقلق النفسي الذي يعانيه في المواقف الجنسية.

٢ ـ ازالة الحساسية (التبليد)

هذه الطريقة العلاجية مبنية على اسلوب العلاج السلوكي الذي اكتشفه ولب Wolpe والقائم على نظرية (النهي المتبادل Reciprocal Inhibition). وقد توصل ولب الى هذه النظرية من ملاحظته بان اعطاء القطة رجة كهربائية وهي في القفص، يؤدي الى قيام حالة شديدة من القلق والى درجة تصدها عن الطعام في المختبر الذي اجريت فيه الرجة الكهربائية. ولازالة هذه الحساسية، لجأ ولب الى اطعام القطة في غرف مختلفة تبتعد كلياً عن الشبه بالمختبر، وكرر ذلك باستعمال غرف واماكن تقترب تدريجياً من اوصاف المختبر الى ان تمكن اخيراً من اطعامها في المختبر وفي القفص الذي اجريت فيه الرجة الكهربائية في السابق وبدون اي انفعال من القلق. وقد طور ولب اسلوبه العلاجي ليتضمن اموراً غير الربط بين الطعام والقلق، ومن هذه ازالة القلق المرتبط بالاستثارات الجنسية. وذلك عن طريق تمكين الفرد من الاسترخاء الكافي في حضور العوامل المثيرة للقلق او بتصورها في الذهن، على ان تتم هذه العملية تدريجياً وعبر جلسات عديدة يتعرض خلالها المريض للموقف المقلق بشكل تدريجي ومتصاعد، يبدأ من اقل المواقف اثارة للقلق، وينتهي باكثرها اثارة له. وقد استغل كثيرون هذه الطريقة في علاج حالات العنة في الذكور والبرودة الجنسية في الاناث، وعلى سنبيل المثال فان التدرج يبدأ من ممارسة الرقص والعناق والزوجان في لباسهما الكامل، وينتهي في الدرجة الواحدة والعشرين بالجماع في حالة العري التام للزوجين. هذا وهنالك عدة اساليب من ازالة الحساسية منها ما يعتمد التراخي العضلي ليحل محل القلق، ومنها ما يقضي بالتعرض المباشر لمصدر القلق In Vivo Desensitization، (ازالة الحساسية بالمواجهة الحية). وازالة الحساسية عن طريق ضبط النفس (Self - Control).

٣ ـ الغمر Flooding

طريقة المعالجة بالغمر تستند الى نفس الاساس النظري للطريقة السابقة، ازالة الحساسية (بالتبليد)، غير انها تختلف عنها في سرعة التعرض للعامل المثير للقلق، ففي هذه الطريقة يكون التعرض اكثر سرعة ويستمر مدة اطول وكأن الفرد يغمر به. وتطبيق هذه الطريقة في علاج الاضطرابات الجنسية قائم على اساس ان بعض الناس يتعلمون كيفية تجنب المواقف الجنسية او

الفرار منها، لكي يتجنبوا القلق الذي تثيره هذه المواقف او نتائجها، ولهذا فهم يتفادون دائماً تعريض انفسهم من بعيد او قريب لهذه المواقف. والهدف من طريقة الغمر، هو تصحيح هذا الواقع عن طريق التعرض السريع والطاغي للمريض لموقف جنسي ولمدة كافية مع الحيلولة بينه وبين الفرار منه. وقد وجد بالتجربة العملية ان مثل هذا الاجراء يمنع اسناد استجابات القلق ويمنع التهرب منه، وبالتالي فانه يؤدي الى اطفاء القلق في هذه المواقف. هذا ويمكن تطبيق مثل هذا الاسلوب بالتعرض المباشر لمثل هذه المواقف، او بالتعرض بالصورة او بالرسم، او بتخيل هذه المواقف في الذهن.

الطرق العلاجية السلوكية لتحسين الاستجابات والأداء الجنسي

تتوافر عدة طرق علاجية سلوكية لهدف تقوية وتحسين الاستجابات الجنسية والاداء الفعلي الجنسي. واهم هذه الطرق، والتي تستعمل ايضاً لاغراض علاجية اخرى هي: التطبع الكلاسيكي، والاخبار البايولوجي Biofeedback، والتدريب الخيالي وبعض تقنيات التنويم.

١ ـ التطبيع الكلاسيكي

يقوم هذا الاسلوب على اساس تجارب بافلوف التطبعية وهو يتألف من ان يعرض الفرد الى عامل اثارة غير مشروط Unconditioned Stimulus. ثم يلي ذلك تعريضه الى عامل شرطي Conditioned، ولمدة ٣٠ الى ٥٠ ثانية، ويكرر ذلك ١٠ مرات كل جلسة، ثلاث مرات في الاسبوع ولمدة ثلاثة اسابيع او ما مجموعه ٩٠ محاولة. وعلى سبيل المثال فقد استعمل المعالجون الذبذبة الكهربائية كعامل اثارة غير مشروط، ويلي ذلك تسجيل رومانسي ملذ مع خيالات جنسية مع الشريك الجنسي كعامل مشروط. هذا ولا تتوافر تقارير كافية تدلل على فائدة هذا الاسلوب العلاجي في حالات العطل الجنسي كالعنة في الذكر وعطل الذروة في الانثى، غير ان هنالك نتائج ايجابية بسبب استعمالها لهدف تشجيع الاستجابات الجنسية لعوامل اثارة جنسية معتادة في المرضى الذين يعانون من مختلف انواع السلوك المنحرف جنسياً، مثل الجنبسية الطفولية والجنسية المثلية.

٢ ـ الأخبار البايولوجي

تتألف هذه الطريقة من احاطة الفرد علماً بالتغيرات البايولوجية التي تحدث في جسمه. ومن ثمة تدريبه على محاولة السيطرة عليها بارادته. وقد استعملت هذه الطريقة لزيادة استجابة الانتصاب في المرضى الذين يشكون من العنة. وتتلخص الطريقة في ان يحاط المريض بالعنة علماً بدرجة انتصابه كما يقاس بجهاز تخطيطي Polygraph، او بواسطة اشارات صوتية تبين درجة الانتصاب، وهذا الاعلام يتم اثناء تعرض المريض لاربع حالات، ويتم هذا التعرض بالتتابع، ويجري مرتين في اليوم ولمدة ثمانية ايام. اما الحالات الاربع التي يتعرض اليها المريض فهي على التوالي: الطلب الى المريض ان يتخيل موقفاً جنسياً مثيراً اثناء استرخائه (التخيل بدون اعلام)، والحالة الثانية هي كالحالة الاولى غير ان المريض يحاول الحصول على الانتصاب مع احاطته علماً

بدرجة ذلك بواسطة الاخبار البصري او الصوتي، والحالة الثالثة يعلم فيها المريض الاسترخاء وهو يشاهد عرض صور مثيرة جنسياً، اما الحالة الرابعة والاخيرة فتتألف من جعل المريض يحاول الانتصاب بينما هو يشاهد عرض الصور المثيرة، مع الاستفادة من الاعلام البصري والصوتي. هذا وما زال هذا الاسلوب العلاجي قيد التقييم والاختبار.

٣ ـ التدريب في الخيال

هنالك الكثيرون من الناس ممن يعتمدون في حياتهم الجنسية على الاثارة الخيالية، وتكوّن هذه الاثارة معظم ما يثير الاستجابات الجنسية في حالات الاستمناء عند كل من الذكر والانثى. كما ان للخيال اثره في اذكاء الاستجابات الجنسية قبيل او اثناء العلاقة الجنسية الفعلية. غير ان من الواضح ان جميع الناس لا يتساوون في مقدرتهم على التخيل او ممارستهم له، وعلى ذلك فان بعض الناس ينقصهم هذا المدد لدوافعهم الجنسية، وما يمكن ان يؤدي اليه من استجابات، ولهذا فان التدريب على الخيال له ان يؤدي الى تحسن عام في الميول الجنسية والاداء الجنسي لبعض الناس. وقد وضع بعض الخبراء سلسلة من التمارين التي اعدت خصيصاً لتشجيع التخيل الجنسي.

٤ ـ التنويم

يستعمل التنويم باسلوب او اخر في عدة حالات من الاضطرابات الجنسية. واهداف التنويم تشمل عدة امور، اولها، التوصل الى معرفة وتذكر الصدمات التي سبق وان حدثت في تجربة الفرد وادت الى عطله الجنسي، والامر الثاني لمساعدة المريض على الاسترخاء، وبالتالي لتسهيل فعل الاساليب العلاجية الاخرى وخاصة السلوكية منها. ويستغل التنويم ايضاً للايحاء للمريض بأن بامكانه القيام بما عجز عن القيام به في الماضي، كالانتصاب في الذكر والذروة في الانثى. كما ان بالامكان اعطاء المريض ايحاءً يلي التنويم Posthypnotic، لتشجيعه على استجابة ومتعة افضل في سلوكه الجنسي. وقد وصفت تقنيات التنويم في علاج الحالات الجنسية في عدة مراجع اهمها كتاب كراسلنك وهول Crasilneck and Hall (١٩٧٥).

العلاج الجنسي التنشيطي Sexual Stimulation Therapy

هذا الاسلوب العلاجي حديث العهد في علاج العنة في الذكور والعطل الجنسي في الاناث. والهدف من الاسلوب هو زيادة الدافع الجنسي عندما يكون هذا الدافع ضعيفاً او مفقوداً. وقد لا يكون في ضعف الدافع عند فرد مشكلة اذا ما كان الشريك الجنسي بنفس القدر من الضعف الجنسي، غير ان تمتع احد الشريكين بدافع طبيعي او قوي، مع تمتع الآخر بدافع ضعيف فان من شأنه ان يخلق المعاناة والمشاكل لكلا الطرفين. وقد نشأت في السنوات الاخيرة عدة طرق علاجية لتقوية الدافع الجنسي نختصرها فيما يلي:

١ ـ طريقة ماسترس وجونسون

يعتبر بعض الباحثين بان طريقة ماسترس وجونسون هي من الطرق العلاجية السلوكية،

وعلى العكس فان اصحابها ينفون ذلك، ويجدونها طريقة نفسية، بينما آخرون يجدونها وسطاً بين الطرق العلاجية السلوكية والنفسية. والواقع ان ماسترز وجونسون قد قدما عدة تقنيات لاعادة تدريب الذين يعانون من عطل جنسي، واهم هذه التقنيات هي التقنية المعروفة بـ مركز التحسس Sensate Focus. وقد ابتدعا هذا الاسلوب بناءً على الملاحظة بان الذين يعانون من العطل الجنسي قد فقدوا المقدرة على الشعور والتفكير بطريقة شهوانية وذلك بسبب مختلف الضغوط والارهاقات التي يربطونها بعملية المعاشرة الجنسية. ولهذا فان عليهم الدخول في عملية تدريبية تسمح لهم بالتماس الجسمي، وعلى صورة التماس الذي لا نواهي فيه كما كان في سن الطفولة. ويتعلم الفرد في هذه التقنية الشعور بأن تلمس جسمه وتلمس جسم شريكه الجنسي هو امر ملذ في حد ذاته. وتحقيق مثل هذا الشعور يسمى (التلذذ Pleasuring) في تقنية ماسترز وجونسون. ويتم التدريب على هذه التقنية بشكل تدريجي ومتكرر وفي ظروف تختلف تماماً عن الظروف المثيرة للقلق، كما انه يمنع على المشاركين فيها منعاً باتاً القيام بأي علاقة جنسية فعلية في الادوار الاولى من العلاج. واضافة الى نتيجة تحسس الفرد بوجوده الجسمي وبوجود شريكه المماثل، فان هذه الطريقة تعطي فرصة لادراك الفرد بان العلاقة بين الجنسين هي علاقة متبادلة يقوم كل واحد من طرفيها بالاخذ والعطاء في آن واحد. والهدف الآخر الذي تحققه هذه الطريقة هي اطفاء النواهي التي اعترضت في الماضي استعداد الفرد للاندماج مع الآخر في وحدة حسية. واخيراً فان هذا الاسلوب بسبب منعه للشريكين من القيام بالعلاقة الجنسية اثناء التمرين، فانه يخلق حالة من الفشل التي تذكي الرغبة، وهذا يدفع بميل الواحد نحو الاخر. ويدعي صاحبا هذا الاسلوب بان طريقتهما نجحت في علاج الذين يشكون من عنة ثانوية بمعدل ٧٣,٨ في المئة من الحالات وفي ٨٠,٧ في المئة في حالات عطل الذروة الاولية والثانوية في الانثى.

٢ - طريقة لوبتز ولوبيكلو Lobitz and Lopiccolo

طريقة هذين الباحثين تشمل عدة تقنيات للتنشيط الجنسي، يستعمل فيها الاستمناء، والخيالات، والكتب والصور الشهوانية، والذبذبات الكهربائية، كما ان الاناث، فاقدات الذروة، يدربن على تلمس اعضائهن الجنسية والتلذذ في ذلك. ومن اساليب هذين الباحثين هو الاسلوب المعروف (بالتطبع الذروي او الايجابي Orgasmic or Positive - Conditioning) والذي يمكن تطبيقه في الذكور او الاناث. فعلى سبيل المثال، فان الانثى يطلب اليها قبل الذروة مباشرة ان تتخيل بوضوح شريكها الجنسي، وان تفكر فيه خلال الحصول على ذروتها، وفي مناسبات لاحقة، يطلب اليها ان تحول خيالها او انتباهها الى تخيل شريكها بشكل تدريجي والى ادوار اولى، الى ان ينتهي الامر بانها لا تحتاج الى مزيد من التخيل غير وجود شريكها الجنسي.

٣ - طريقة بتريشيا وجيلان

وتهدف هذه الطريقة الى تدريب الذين يعانون من قلة وضعف دوافعهم الجنسية في كيفية زيادة هذه الدوافع. وتتضمن هذه الطريقة ادواراً تدريبية اربعة، الدور الاول منها يشجع الفرد فيه على ان يبدي اهتماماً بشؤون الحياة اليومية وما يجري حولها، ذلك ان الباحثين وجدا بأن

الدافع الجنسي الضعيف يرتبط بحياة عامة ضعيفة الاتصال والاهتمام، وان رفع الواحد منهما لا يمكن بدون رفع الآخر. اما الدور الثاني فيهدف الى تدريب الواحد على الاتصال الشخصي، فالدافع الجنسي الضعيف يصاحبه عادة اتصال ضعيف بين طرفي العلاقة الجنسية. ولهذا يشجع الطرفان على محاولة الاتصال الفكري والعاطفي والحسي مع الغير وخاصة الشريك الجنسي، وفي لبس الملابس او الظهور بهيئات تشجع توجيه الاهتمام اليه. اما الدور الثالث فهو يركز على تشجيع واسناد الاستثارة الجنسية، وذلك باستعمال الصور لاناس ذوي جاذبية من الجنسين في احوال اعتيادية وبشكل عادي وبعرض صور ومواقف تثير الرغبة والاستجابة الجنسية. واطلق الباحثان على هذا الدور دور (التحسيس Senstization). اما في الدور الرابع والاخير، فان الشريكين في العلاج يشجعان في هذه المرحلة على تقوية تبادل الشعور بينهما ضمن العملية الجنسية، وان يتجاوزا النواهي اثناء هذه العلاقة. ويدعي الباحثان بأن الاستفادة لدى الذكور من حيث قوة الانتصاب والولوج والقذف تقع في حدود ٩٠٪ ، اما الاناث فان استفادتهن اقل من الذكور، فالانثى التي لم تحصل في السابق على الذروة لا تحصل عليها بهذه الطريقة، غير انها تصبح اكثر تمتعاً بالعلاقة الجنسية، كما ان الاناث اللواتي يعانين من ضعف في الدافع الجنسي يصيبهن التحسن في تقوية هذا الدافع في ٥٧٪ من الحالات.

٤ ـ العلاج بالاستمناء

فكرة الفائدة العلاجية للاستمناء تنبع من الملاحظة بان الاستمناء* في الذكور يؤدي في جميع الحالات تقريباً الى الوصول الى الذروة، وبانه اكثر ضمانة للوصول الى الذروة في الانثى من العلاقة الجنسية الطبيعية، كما تنبع ايضاً من الملاحظة بان الذروة الحاصلة منه في الانثى هي اكثر قوة واطول زمناً من الذروة الناتجة عن اي اثارة جنسية اخرى. وهذه الملاحظات دفعت جيلان، كما دفعت لوبتز ولوبكلوا، على القيام بتدريب الذكور والاناث ممن يعانون من مشاكل متعلقة بالذروة، على الاستمناء باستعمال مواد ومواضيع مثيرة للشهوة. والهدف من هذه التمارين ليس مجرد الحصول على الذروة بأي وسيلة، وانما لربط تصور الشريك الجنسي بزمن الذروة، وما لهذا الربط من فائدة تشمل تثقيف الفرد، وخاصة الأنثى، في أمر تكوينها الجسمي، وخاصة الاعضاء الجنسية، مما يمكنها من اكتشاف نفسها ومساعدة شريكها في التعرف على هذا الاكتشاف، وبعد ذلك يدرب الفرد على عملية تدريجية وتصاعدية من الاستمناء من حيث قوته وتكراره، ومن حيث ادخال عناصر منشطة للرغبة الجنسية كالصور وغيرها من المواضيع البصرية او الصوتية او الذبذبات الكهربائية Vibrators . واذا فشلت جميع هذه المحاولات في اعطاء الذروة، فان اهتمام المعالج يجب ان يتوجه الى امكانية وجود مخاوف ناهية عن الذروة، وعليه لذلك ان يشجع الانثى على التغلب على هذه المخاوف بمحاولة القيام بتمثيلها فعلياً بشكل انفرادي. ويدعي اصحاب هذه الطريقة بانها تؤدي الى نتيجة ايجابية في حدود ٨٠ الى ١٠٠٪ من الحالات، ليس في الوصول الى الذروة فحسب اثناء الاستمناء، وانما في الوصول اليها بعد بضع اسابيع من نهاية التمارين، في العلاقة الجنسية الفعلية ذاتها.

* *

تتوافر غير الاساليب والتقنيات التي ذكرناها اساليب وتقنيات عديدة من تمارين او اساليب تنشيط او تحسيس او اثارة بهدف رفع مستوى الدوافع الجنسية والاداء الجنسي في الاناث والذكور، ومعظم هذه الطرق تتبنى نفس القواعد التي اشرنا اليها في هذا الفصل. غير انه لا يتوافر لهذه الطرق من النتائج ما يبرر ادراجها الآن، وهذا بطبيعة الحال لا ينفي ان تكون ذات فائدة، وبانها قد تجد مكانها في اساليب العلاج اللازمة والضرورية لعلة انسانية هي من اهم العلل التي يعانيها واكثرها قسوة على النفس في حياة بعض الناس، وهم غير قلة.

علاج الانحرافات الجنسية

علاج الانحرافات الجنسية هو من المهام الصعبة في مجال الطب، ويمثل تحدياً عظيماً لا يمكن الادعاء بان الطب استطاع التوصل الى نتائج ايجابية حاسمة بشأنه. وبعض الصعوبة في التوصل الى ذلك يعود الى اننا ما زلنا نجهل الاسباب الفعلية التي تكمن وراء تكوين حالة الانحراف، وبعض الصعوبة تأتي ايضاً من ان حالات الانحراف راسخة الجذور في نفوس اصحابها ولمدة طويلة مما يجعل من الصعب اجتذارها. ثم ان التجيزات الاجتماعية من ناحية، والقيود القانونية التي تعاقب ممارستها من ناحية اخرى، تجعل من الصعب على المنحرف في معظم الحالات ان يأتي متطوعاً للعلاج بنفسه، ويضاف الى هذه العقبات صعوبة اخرى تعترض العلاج المجدي، وهي ان معظم المنحرفين يجدون في انحرافهم المعادلة التي تمكنهم من الحصول على متعتهم الجنسية، وهم لذلك غير تواقين، ان لم يكونوا معارضين، لاي وضع جديد يسلبهم هذه المتعة على علاتها الانحرافية. ومع جميع هذه العقبات والصعوبات فقد قامت عدة محاولات علاجية، وبدرجات متفاوتة من النجاح، لعلاج بعض حالات الانحراف وخاصة تلك الحالات التي يرغب اصحابها بالتخلي الفعلي عن انحرافهم والتمثل بالاساليب الطبيعية للارضاء الجنسي. ومع ان معظم الحالات التي عولجت حتى الآن كانت بموافقة ورغبة اصحابها، الا ان بعض الحالات قد وضعت تحت المعالجة تنفيذاً لاحكام قانونية حكم فيها على اصحابها بارتكاب جريمة الانحراف، وحولوا الى المجال الطبي لاصلاح انحرافهم.

ان المبدأ الهام في العلاج لحالات الانحراف، كما هو الحال لعلاج الاضطرابات الجنسية بشكل عام، هو ان يقوم المعالج باستقصاء جميع العوامل والظروف المتعلقة بحياة المريض بما في ذلك النواحي البايولوجية، ونموه النفسي والجنسي وطبيعة علاقته مع الآخرين من جنسه او الجنس الاخر، بالاضافة الى الاحاطة الكاملة بطريقة ممارسته للانحراف وجميع الارتباطات المتعلقة بهذه الممارسة. ومثل هذا البحث يمكن له ان يجعل من الاسهل الوقوع على اسباب الانحراف ومحله في حياة المنحرف وامكانية تحويله من مجراه الانحرافي الى ممارسة جنسية طبيعية. والوسائل العلاجية المستعملة في علاج حالات الانحراف هي من حيث المبدأ نفس الطرق التي عددناها في هذا الفصل وتشمل العلاج النفسي والعلاج المادي والسلوكي، والفرق الاساسي الهام بين علاج الاضطرابات الجنسية بشكل عام، والانحرافات الجنسية بشكل خاص، يقع في مجال العلاج السلوكي، فبينما يتجه العلاج السلوكي في حالات العطل الجنسي الى تنشيط

الدوافع والاداء الجنسي وازالة المواضع التي تنهي عن ذلك، فان العلاج السلوكي للانحراف الجنسي يستخدم تقنيات تطبع المنحرف على تكوين كراهية وصدود لممارسة انحرافه، كما انها في الوقت ذاته تشجعه على تقبل العلاقة الجنسية الطبيعية.

العلاج النفسي

يهدف العلاج النفسي الى محاولة الكشف عن عوامل الكبت وهي العوامل التي يعتقد اصحاب المدرسة التحليلية بانها تكمن وراء معظم حالات الانحراف. وفي اعتقادهم ان التوصل الى هذه العوامل من شأنه ان يحول مجرى الحياة الجنسية المنحرفة الى مجرى جديد طبيعي، غير ان مثل هذا التصور وتطبيقه عملياً لم يثمر، وليس هنالك ما يثبت جدواه العلاجية، اضافة الى الزمن الطويل الذي يستغرقه والتكاليف الباهظة المترتبة عليه. والمعتقد هو ان اي فائدة ايجابية لعمليات التحليل النفسي، ما هي بالفعل الا نتيجة تلقائية صدف تزامنها مع العلاج. ومع ان العلاج النفسي التحليلي لا يبدو مفيداً، الا ان العلاج النفسي القصير والمختصر لا يمكن الاستغناء عنه في اية محاولة علاجية. ذلك انه يعطي المنحرف شعور الثقة والاطمئنان والتفهم لمعاناته والتقدير لذاته. وهي عناصر هامة في اي عملية علاجية، فهي تساهم في اقناع المريض بالعلاج، وتقلل من القلق النفسي وشعور الاكتئاب والتشاؤم والنبذ في نفسه، وكل ذلك من شأنه ان يسهل أي اسلوب علاجي آخر خاصة العلاج السلوكي. ومع ان معظم المرضى يفضلون علاج انحرافاتهم بشكل فردي، الا ان الاسلوب الجماعي في العلاج سواء تألف من الشريكين في العلاقة الجنسية، او من مجموعة اوسع من المنحرفين، فانه الاسلوب الاكثر فائدة والاكثر عملية واقتصاداً في الزمن والتكاليف.

العلاجات المادية (الدواء، الجراحة)

اصبح من الثابت تقريباً بان العلاجات الهرمونية على اختلاف انواعها هي عديمة الفائدة في علاج الانحرافات الجنسية على اختلاف أنواعها في الذكور أو الأناث. غير ان هنالك بعض العقاقير الطبية التي تعتبر مضادة للهرمونات الاندروجينية، ومن هذه العقاقير الجديدة مركب باسم سايبروتيرون استيت Cyproterone Acetate ويعتقد بان هذا المركب له خصائص (تأنيثية Feminisation)، غير انه لم يثبت ذلك حتى الآن من الناحية العملية، الا انه يقلل من الدافع الجنسي عند الذكور، وهو لذلك فيه امكانية علاجية لحالات الانحراف الجنسي المثلي والطبيعي (المخالف). والتي تحدث عادة في المصابين بمرض عقلي او بشخصية سايكوبائية عدوانية. ومن العقاقير الحديثة المستعملة في علاج الانحراف، دواء باسم بنبيرودول Benperidol، وهو علاج مهدىء يقلل من الاتجاه نحو الانحراف بدون التقليل من الدافع الجنسي. غير ان معظم العقاقير المعقلة (المهدئات الكبرى) مثل لارجكتيل Largactil وستيلازين ومللريا وغيرها، فهي تقلل من الدافع الجنسي، ويمكن استعمالها في حالات الانحراف الجنسي الذي يتصف بالايذاء والتعدي، وفعل هذه العقاقير قد يستمر اشهراً طويلة بعد التوقف عن استعمالها من المنحرف او المريض.

ومن الاجراءات العلاجية المادية العمليات الجراحية، فعملية الخصي قد تقلل من الاثارة والقوة الجنسية في اللذين تستأصل خصيهم، وهو اجراء صارم لا رجعة عنه ولا يتم عادة برضى المنحرف، وانما بامر قضائي للقضاء على مخاطر الانحراف. ومن العمليات الجراحية للانحراف عمليات جراحية عصبية على مناطق معينة من الدماغ، وهي تجري عادة على المنحرفين جنسياً ممن يقومون بالتعدي الجنسي والايذاء الجسمي معاً نتيجة لدوافع قسرية. ومعظم هذه العمليات تجري تطبيقاً لقرارات قانونية تجريمية حرصاً على صالح المجتمع من تكرار الانحراف.

العلاج السلوكي

وهذا الاسلوب هو اكثر الاساليب العلاجية ضماناً حتى الآن للحصول على نتائج معقولة لعلاج الانحراف الجنسي. والهدف من هذا العلاج هو ازالة الانحراف الجنسي او تحويره، وبدون التصدي لاسبابه الاساسية مهما كانت. وهنالك عدة اساليب من العلاج السلوكي. ولعل اهمها واكثرها فائدة هو اسلوب التطبع بالتكريه Aversion Conditioning، ويعتمد هذا الاسلوب نظريات بافلوف في التطبع، ويفسر فعله في الانحراف بان اعطاء عامل اثارة مكروه بطبيعته، له ان يعاقب السلوك الجنسي المنحرف. واذا ما اقترن هذا العامل المكروه بالسلوك الجنسي، فان الغاية الجنسية تفقد قوة جاذبيتها للمنحرف. وقد استعملت وسائل تكريهية عديدة منها استعمال العقاقير المسببة للتقيؤ او الغثيان او استعمال الاثارة الكهربائية المؤلمة، وغيرها. وتقدم هذه العناصر المكروهة للشخص مقترنة من الناحية الزمنية بتقديم صور او مواقف او تصورات لحالات الانحراف. ويتكرر هذا التقديم عدداً كافياً من المرات، والى ان يصل المنحرف الى الحد الذي يكون فيه مجرد تصوير الانحراف كافياً لتوقفه عن الاقدام عليه. ومتى حدث ذلك فان من السهل نقل النتيجة الى موقف فعلي من الانحراف الجنسي. وهذا الاسلوب العلاجي لا يفي بغرض علاج الانحراف كله، فهو يوفر فقط امكانية اخضاع الدافع للانحراف الجنسي، اما عودة الفرد الى الممارسة الجنسية الطبيعية، فان هذه العودة تتطلب اجراءً علاجياً آخر كما يتضح ذلك من الطريقة التالية المستعملة في علاج الانحراف الجنسي المثلي (اللواطية). وهي اكثر انواع الانحراف استجابة لهذا العلاج التكريهي. والطريقة التي نصفها هي الطريقة التي استعملها فيلدمان وماكولوك Feldman and MacCulloch (١٩٧١) والتي ادعيا بانها ذات فائدة في ٦٠٪ من مجموعة غير مختارة من حالات الانحراف المثلي في الذكور. وفي هذه الطريقة تعرض على الشاشة صور للذكور العارين لمدة ٨ ثوان. ويترك للمنحرف الناظر اليها ان يبقي الصورة لهذه المدة، او ان يضغط على زر يزيل الصورة عن الشاشة قبل نهاية هذه المدة، غير انه اذا فشل في ازالة الصورة فانه يرج برجة كهربائية حال انتهاء الثواني الثماني عندما تختفي الصورة اوتوماتيكياً. اما اذا ضغط المنحرف على الزر قبل ذلك فان الصورة تختفي، ولا تعطى له الرجة الكهربائية. هذا وبالامكان اعطاء الرجة الكهربائية للمريض المنحرف بدون ضرورة عرض الصور، وانما حالما يعطي الاشارة بانه بدأ يتخيل موقفاً خيالياً من ممارسة الانحراف، او عندما يتبين من جهاز التخطيط Polygraph بان قضيبه قد بدأ في الانتصاب.

ومن اساليب العلاج السلوكي للانحراف، التقنية المعروفة بالتحسس الخفي Covert Sensitization، والتي تتألف من عدة خطوات: (١) يطلب الى الفرد ان يفكر في موضوع انحرافه المفضل. (٢) ثم يطلب اليه ان يتصور بانه بدأ يقترب منه. (٣) يطلب اليه ان يتصور حادثاً فظيعاً يحدث. (بانه قد تلوث بالقيء او بالروث الخ..). (٤) يطلب اليه ان يتخلى عن تصوره للموضوع، ويوحي اليه في نفس الوقت بان الحادث الفظيع بدأ بالزوال. هذا ولا تتوافر دراسات كافية عن هذا الاسلوب غير النتائج المسجلة التي نشرها مستحدثو الاسلوب كوتيلا وسوكي Cautela and Wisoclki (١٩٧١).

ان هذه الاساليب السلوكية وغيرها ذات فائدة لا يستهان بها في علاج الانحرافات الجنسية المختلفة وخاصة الجنسية المثلية، ولها بعض الفائدة في علاج انحرافات اخرى كالفتشية والاستعراضية والتلسية والتبصصية وغيرها، وان كانت هذه الفائدة اقل مما يلاحظ في علاج الجنسية المثلية.

قد لا تكون هنالك صعوبة كبرى في تخلي الفرد عن انحرافه بواسطة طريقة او اخرى من طرق العلاج السلوكي وخاصة التكريهية منها. غير ان الامر يتطلب عودة الفرد الى ممارسة جنسية طبيعية. ومع ان التكريه بالانحراف قد يؤدي تلقائياً الى مثل هذه العودة في بعض المرضى، الا ان هذا لا يحدث في الكثيرين، ولا بد لذلك من متابعة العلاج بوسائل علاجية سلوكية ترغيبية. واهم هذه الوسائل تعتمد ممارسة الاستمناء اثناء تصور المواضيع المثيرة والتي لا تتعلق بقضايا الانحراف.

علاج حالات معينة

ان الطرق العلاجية التي سبق بيانها هي مجموعة الطرق المتوافرة لعلاج الاضطرابات الجنسية المختلفة بصورة عامة، وقد تستغل واحدة او اكثر من هذه الطرق في آن واحد او بالتتابع، في علاج الحالة المرضية الواحدة، ولطريقة او اخرى ان تكون اكثر ملاءمة في حالة مرضية مختلفة، او في مريض آخر يعاني من نفس الحالة المرضية. والتوصل الى الاسلوب العلاجي الملائم يعتمد بالدرجة الاولى على الاحاطة الدقيقة بشخصية المريض ونموه النفسي وظروف حياته ومدى تفرغه وتكريسه للعملية العلاجية، وكفاءته في تنفيذ التقنية العلاجية وبالشكل الذي يتلاءم مع حاجاته وخصائصه الفردية. ومهما كانت التقنية المستعملة من مادية او سلوكية. فان كل محاولة علاجية في المجال الجنسي يجب ان تعطي اهمية للنواحي النفسية للمريض، لا لأن العامل النفسي قد يكون عاملا اساسياً وفعالاً في قيام الاضطراب او الانحراف الجنسي، وانما لان اي عطل او انحراف جنسي يمكن له ان يسبب القلق والمعاناة النفسية لصاحبه، ولهذا فان للحالة المرضية ان تتعقد وتتفاقم بفعل ذلك. ولهذا يتوجب التقليل من هذا القلق بالوسائل العلاجية الملائمة وقبل البدء بأية محاولة علاجية اخرى متخصصة. وقد يجد المعالج بان حسر حالة القلق هي كل ما يحتاجه المريض من علاج. وفيما يلي نبين باختصار الوسائل العلاجية الاكثر ايجابية في علاج بعض الحالات الجنسية الاكثر وقوعاً في حياة الناس

الجنسية كالجنسية المثلية، والضعف الجنسي في الذكر (العنة) والبرودة الجنسية في الانثى وغيرها.

علاج الجنسية المثلية

العلاج الهرموني والعقاقيري عديم الفائدة، وليس هنالك من فائدة ثابتة من العلاج التحليلي الطويل، والطرق الاكثر استعمالاً هي العلاج النفسي والتنويم والعلاج السلوكي. وهذه الطرق في مجموعها تفيد في حوالى ٤٠٪ من الحالات المختارة للعلاج. وافضل النتائج تأتي من علاج اولئك الراغبين في العلاج، واولئك الذين مرت بهم تجارب جنسية طبيعية ناجحة. وعلى العموم فان الاستجابة الافضل من استعمال اي اسلوب علاجي تحدث في اولئك الذين لم يتجاوزوا سن الخامسة والثلاثين. وقد وجد الباحثون بان ازالة الحساسية والتبليد Desensitisation هي الطريقة الاكثر فعالية من العلاج (بالتكرية Aversion)، في اولئك المرضى الذين يعانون من قلق يرتبط بالعلاقة الجنسية مع الجنس الاخر، اما طريقة التكريه فانها تعطي نتائج افضل في اولئك الذين هم اقل قلقاً بشأن ممارستهم الجنسية المثلية. ويمكن للعلاج ان يتضمن الطريقتين معاً، فيبدأ بتطبيق التكريه، ومن ثمة تبدأ عملية ازالة الحساسية للعلاقة الجنسية الطبيعية. وقد سبق لنا وان اوضحنا تقنية الطريقتين في مكان سابق من هذا الفصل، وخلاصة التقنية التكريهية، هي ان يقدم موضوع الانحراف (صورة الذكر) على الشاشة، ثم يعطي للمشاهد عاملاً حسياً مكروهاً، اذا ما اطال المريض نظره الى الصورة. والعامل الحسي هو عادة رجة كهربائية، وقد يكون تشويهاً بشعاً ومقززاً للنفس وعلى شكل صورة اوصف للصورة المعروضة، ويتكرر هذا الاسلوب عدة مرات في الجلسة الواحدة وفي جلسات تالية. ومتى حصل التكريه في نفس المنحرف، فان اسلوب العلاج يطور بحيث يتجنب المعالج اعطاء العامل المكره في بعض المواقف وفي اللحظة المناسبة، مثل عرض صورة انثى على الشاشة، وهذا الاجراء يترجم في ذهن المريض بانه فترة استراحة وتخلص من الايذاء بالتكريه، ولذلك فهو يميل الى متابعته، وقد يكون ذلك بداية لتحويل مجرى جنسه الى الميل نحو الجنس الآخر. اما تقنية ازالة الحساسية، فانها تتألف عادة من سلم تصاعدي في تعريض المنحرف الجنسي المثالي الى مواقف جنسية مع الجنس الاخر. ونبدأ باقل هذه المواقف اثارة لقلقه وتجنبه، ويقرن ذلك بتمارين الاسترخاء او بالمكافأة، ومتى وصل القبول الى درجة ما، انتقل المعالج الى درجة اعلى من السلم المتصاعد، وهكذا، حتى يجد المريض نفسه قادراً على مواجهة العلاقة الجنسية الطبيعية بدون قلق ووجل وامتناع. اما علاج الجنسية المثلية (السحاقية ـ اللبسية) في الانثى، فهو اكثر صعوبة من علاج الحالة في الذكور، وتطبق في العلاج نفس المبادىء العلاجية التي تطبق في الذكور بما في ذلك الارشاد والعلاج النفسي والتوجه الاجتماعي، غير ان العلاج السلوكي هو اقل تأثيراً في الانثى منه في الذكر، ولعل ذلك يعود الى ان الحياة الجنسية للانثى اقل تأثراً بعمليات التطبع من الذكر. وعلى العموم فان النتائج الاجمالية لعلاج اللبسية في الاناث هي اقل نجاحاً منها في الذكور، والى الحد الذي دفع بالبعض الى التخلي عن علاجها واعتبارها خارجة عن مجال الطب الجنسي.

علاج الانحرافات الأخرى

افضل النتائج العلاجية لحالات الانحراف الجنسي مثل الفتشية والاستعراضية والطفولية والحيوانية والتلبسية والتبصصية تأتي بفعل العلاج السلوكي، ولما كانت هذه الانحرافات تتكون من شقين هما الانحراف في حد ذاته، والاعراض عن العلاقة الجنسية الطبيعية، فان منطق العلاج يجب ان يتوجه الى تكريه المنحرف بممارسة انحرافه، ومن ثمة ترغيبه بالممارسات الجنسية الطبيعية. وعلى هذا الاساس، فان طرق العلاج السلوكي التكريهية تستعمل في معظم هذه الانحرافات. مثال ذلك ان الذي يمارس الجنس مع الاطفال (الطفولية)، تعرض امامه صور الاطفال، ويلي ذلك عرض صورة مشوهة ومقززة لجسم الطفل نفسه. وهنالك اسلوب آخر يتم فيه تحسيس الفرد لموضوع الانحراف بشكل متستر Covert Sensitisation ، فيطلب اليه ان يتصور موقفاً انحرافياً في خياله، وعندما يعطي الاشارة للمعالج، فان المعالج يعطيه اثارة مكرهة له، سواء كانت هذه الاثارة فعلية، كالرجة الكهربائية، او خيالية كتصور كارثة او مصيبة تلم به بسبب تخيله للانحراف. وتطبيق هذا الاسلوب في حالة انحراف فتشي فعلي في مريض يسعى دائماً للاستحواذ على حذاء انثى هو كما يلي: الخطوة الاولى من العلاج، (وهو يصرف مرتين في اليوم لمدة اسبوعين) يطلب فيها الى المنحرف ان يتصور في ذهنه الحذاء، ومن ثمة الاشارة الى المعالج بانه فعل ذلك، ويلي ذلك ان يعطي المعالج له رجة كهربائية، وهذا يؤدي الى اختفاء الصورة الخيالية من ذهنه حالاً، وبعد دقيقتين من الراحة يكرر الاجراء. وقد لوحظ بانه مع تكرار هذا الاجراء فان المنحرف يصبح بشكل متزايد اقل قدرة على تخيل الحذاء وبانه يحتاج الى زمن اطول لكي يستطيع هذا التخيل من جديد. اما الخطوة الثانية، فانها تبدأ بعد يومين، وتتألف هذه الخطوة من محاولة المنحرف وضع قدميه في الحذاء (البوت)، واعطائه صدمة كهربائية عندئذ، وتستمر الصدمة حتى ينزع الحذاء، وللمنحرف ان يسعى الى ايقاف الصدمة الكهربائية اذا ما قام بعمل اخر.

وقد افادت مثل هذه الطرق العلاجية السلوكية في علاج الانحراف التلبسي والاستعراضي، والتبصصي، والانحرافات السادرمازوخية، غير انها عديمة الفائدة في انحراف الجنسية المعاكسة Transexuality .

علاج العنة

علاجات العنة في الذكور عديدة، ومحاولاتها قديمة ومتواصلة، وتتراوح بين اللجوء الى اساليب الايحاء السحرية لما يعتقده البعض بان العنين (مربوط) بفعل سجري، او بالحسد، والى استعمال مختلف المواد والمستحضرات النباتية والحيوانية مثل (ماندراجورا Mandragora ، وكانثاريدس Cantharides وقرن حيوان الراينالسوراس، ومنها مستحضر يوهامبين Yohimbine ، والعقاقير المنشطة للجهاز العصبي والدموي مثل امفينامين، وابومورفين، ومركبات الكورتكوستيرويدز Corticosteroids، هذا وليس هنالك ما يؤيد فائدة هذه العلاجات

كلها. وقد لا تتعدى هذه الفائدة ان حدثت كونها ناجمة عن الفعل الايحائي والتمويهي. ومثل ذلك يقال في العلاجات الهرمونية والتي قل ان تكون ذات فائدة مباشرة في العنة، الا في بعض الحالات التي يثبت فيها النقص الهرموني كحالات ضمور الخصيتين واستئصالهما جراحياً، وفي حالة الكبار في السن، وفي مرضى السكر الذين يثبت فيهم وجود هذا النقص الهرموني. وقد يكون هنالك من فائدة لهذه الهرمونات (الاندروجينز) في الفترات الزمنية التي تتوافق فيها العنةولو بدرجة ما، مع انخفاض مستوى الهرمون. هذا وما زالت الابحاث متواصلة لرصد مثل هذه العلاقة.

اما العلاج النفسي، فان فائدته لا تتجاوز الفائدة التي تحدث بشكل تلقائي في الامراض النفسية، وهذا يدلل على ان العنة بالرغم من اسسها النفسية في الكثير من الحالات الا انها قد لا تستجيب للعلاج النفسي ذلك لانه قد يكون لهااسباب بنيوية اخرى تعيق هذه الاستفادة.

وهنالك اساليب علاجية متعددة لعلاج العنة نختصرها في ما يلي:

● طريقة ليون هارد Leonhard (١٩٦٣)، والتي يوصي فيها العنين بان يمتنع كلياً عن العلاقة الجنسية، وخلال مدة امتناعه يعرض الى مختلف المثيرات الجنسية. ويستمر ذلك الى حين استرداده للثقة في كفاءته الجنسية.

● طريقة ازالة الحساسية، والغاية منها التقليل من القلق الذي يتوقعه العنين من العلاقة الجنسية. وذلك عن طريق تعريضه تدريجياً وهو في حالة من التنويم او الاسترخاء الى مواقف جنسية يتخيلها في ذهنه وترتبط بقلق متزايد.

● طريقة ماسترس وجونسون. وتتألف الطريقة من تمارين يكتشف فيها كل من الشريكين مواطن الاستثارة الجنسية في جسد الواحد نفسه وفي جسد الشخص الاخر، وتلمس ومداعبة هذه المواطن، مع تجنب الوصول الى الذروة او الدخول في علاقة جنسية فعلية. والتأكيد في طريقة ماسترس وجونسون هو على الاهتمام المتبادل بين الشريكين. وعلى المتعة والاسترخاء والاتصال بينهما، ومعرفة ما هو حادث اثناء ذلك بالاخبار البايولوجي Buofeedback.

● طريقة لوبتيز ولوباكولو Lobitz and Lopiccolo، وتتألف من اسلوب للاستمناء في تسع درجات.

وقد افادت البحوث المختلفة بان طريقة ماسترس وجونسون كانت ذات فائدة في علاج عنة الذكور كما يلي من النتائج: العنة الاساسية في ٥٩٪ من الحالات، العنة الثانوية في ٧٤٪، العنة الكاملة ٦٧٪، القذف المبكر ٩٨٪، القذف المتأخر ٨٣٪. اما طريقة لبوبيتز ولوبكوملوا فكانت ذات فائدة في ٦٦٪ من حالات العنة الكاملة و١٠٠٪ في حالات القذف المبكر. اما في عنة الانثى (برودة الانثى الجنسية) فقد كانت نتائج العلاج في الطريقتين كما يلي: (ماسترس وجونسون)، انعدام الذروة الاساسي ٨٣٪ من الحالات استجابت للعلاج، و٧٧٪ من حالات

انعدام الذروة الثانوي، و٨٪ من الانعدام الكلي للذروة. بينما كانت نتائج اسلوب لوبيتز وشريكه هي١٠٠٪ في حالات انعدام الذروة الاساسي، و٣٣٪ من انعدامها الثانوي و٦٦٪ من انعدام الذروة التام.

● وقد بينا طرقاً اخرى تساعد على الاستثارة الجنسية في بحثنا عن الطرق العلاجية بشكل عام، وهذه الطرق لها ان تذكي وتزيد في الرغبة والدافع الجنسي، ولها ان تقلل من العنة، ومعظم هذه الطرق تشمل الشريكين معاً في العلاقة الجنسية. وتستعمل في هذه الطرق وسائل مختلفة من بصرية او صوتية من شأنها ان تحفز النشاط الجنسي.

● اجريت تعديلات على طريقة ماسترس وجونسون. منها دمج اسلوبهم مع طريقة الاثارة او التحفيز Stimulation، او باعطاء ذبذبة كهربائية. وقد اعطى التعديل الاول نتائج افضل من اسلوب ماسترس وجونسون وحده، كما اعطى التعديل الثاني ١٠٠٪ من الفائدة في علاج العنة الاساسية. ونتائج هذه التعديلات لم تزد في نسبة النتائج الايجابية لعلاج حالات العنة الثانوية والتي تقع في نطاق ٧٤٪ لهذه الطرق جميعاً.

خلاصة علاج الاضطرابات الجنسية

يمكن تقسيم الاضطرابات الجنسية الى فئتين رئيسيتين، اولهما اضطرابات العطل الجنسي في كل من الذكر والانثى والفئة الثانية هي فئة الانحرافات الجنسية. اما من الناحية العلاجية فان هنالك عدة وسائل علاجية مستعملة لنوع او آخر من الاضطرابات الجنسية من عطل او انحراف وهي العلاج النفسي والعلاج الدوائي بما في ذلك الهرمونات والعلاج السلوكي بالطرق التقنية الحديثة. وفيما يلي مختصر لنتائج علاج هذه الاضطرابات كما هي معروفة الآن.

علاج حالات العطل الجنسي

هنالك عدة حالات هامة من العطل الجنسي ترد اكثر من غيرها في شكوى كل من الذكر او الانثى. واهم هذه واكثرها وروداً في الذكور هي (١) حالات العنة (٢) حالات القذف السريع (٣) حالات القذف المتأخر او البطيء. اما في الانثى فاهم هذه الحالات هي (١) العطل الجنسي العام (٢) عطل الذروة و(٣) تشنج الفرج.

علاج عطل الذكر

١ ـ العنة

تستجيب العنة، خاصة العنة الثانوية (المستحدثة) لعدد من الوسائل العلاجية. وان كانت الاستجابة متفاوتة تبعاً للطريقة العلاجية وللقائمين بها. فهنالك ادعاء بان العلاج النفسي التحليلي المطول (لمدة عامين) يشفي العنة في ٧٧٪ من الحالات. اما العلاج النفسي التبصيري والاقل عمقاً فانه يشفي بعد عامين من العلاج بمعدل ٤٦٪ من الحالات. اما الطرق العلاجية التي تركز على العارض في حد ذاته، كالعلاج السلوكي، فقد وجد بانه يشفي في ٤٣٪ من

الحالات. اما العلاج بطريقة ماسترز وجونسون فهو يؤدي الى شفاء في ٧٤٪ من حالات العنة الثانوية (مع وجود انتكاسة في ١١٪ من هذه الحالات)، وبشفاء ٦٠٪ من حالات العنة الاولية. وعلى العموم فان النتائج العلاجية والمصير المستقبلي لحالات العنة الاولية، وهي العنة التي لم يستطيع فيها الفرد ابداً العلاقة الجنسية الكاملة، هي اقل حظاً من الشفاء من العنة الثانوية، (وهي العنة الطارئة على خلفية من العلاقة الجنسية الكاملة في الماضي). والمبدأ الذي يفرض نفسه في معظم حالات العنة هو ان حظها بالشفاء يعتمد الى حد ما على المقدرة على السيطرة على الظروف الحياتية للشخص العنين، وخاصة في علاقاته مع شريكه الجنسي. ومن العوامل الاخرى الفعالة هي مدى الاستعداد العضوي للفرد نحو العنة، واستعداده النفسي للاثارات العاطفية، فكلما زاد الاستعداد لهذين العاملين، كلما كان فعل علاج العنة، مهما كانت طريقته، اما فعلاً قليل الفائدة او غير ملائم.

٢ ـ القذف السريع (المبكر)

النتائج الايجابية لهذا النوع من العطل الجنسي هي افضل من نتائج علاج اي عطل آخر، وافضل الوسائل العلاجية هي طريقة ماسترز وجونسون، والتي يدعي بانها تزيل هذا العطل بمعدل ٩٨٪ من الحالات، وفي فترة علاجية لا تتجاوز الاسبوعين من العلاج المركز باستعمال اما طريقة (العصر) او طريقة (توقف وابدأ). وهذه النتائج هي افضل بكثير من نتائج العلاج بالطرق التحليلية او العلاج الزوجي او العلاج السلوكي. والذي يلاحظ في علاج هذا العطل هو ان نتائجه مستقلة نسبياً عن طبيعة العلاقة بين الشريكين وعن المحتوى النفسي الداخلي للرجل الذي يعاني من العطل.

٣ ـ القذف البطيء (المتأخر)

في رأي بعض المعالجين النفسيين ان التحليل النفسي هو افضل وسيلة علاجية لهذا العطل الذي يفترضون بان اسبابه غير واعية وذات صلة (بعقدة اوديبوس)، غير ان نتائجهم العلاجية بهذه الطريقة مشكوك فيها على احسن تقدير. ويعطي بعضهم نسبة من الشفاء بالعلاج التحليلي المطول تقع في حدود نصف الحالات. غير ان العلاج بطريقة ماسترز وجونسون تعطي نتائج ايجابية بحوالى ٦٠٪ من الحالات وفي زمن علاجي لا يتجاوز الاسبوعين. وتفيد تقارير المعالجين لهذه الحالة بان علاج اولئك الذين يعانون من قذف بطيء مطلق (الذين لم يبلغوا الذروة ابداً) هو امر في غاية الصعوبة، بينما حالات القذف البطيء الثانوية (التي يتوصل فيها الفرد الى الذروة احياناً)، فان علاجها اكثر حظاً بالنجاح. ولعل افضل النتائج تأتي عن طريق استعمال طريقة ماسترز وجونسون بالاضافة الى العلاج النفسي القصير.

علاج عطل الانثى

اشكال العطل الجنسي الهامة عند الانثى هي ثلاثة تشنج الفرج والنهي الجنسي العام، وامتناع الذروة، وهنالك من يجمع النوعين الاخيرين بحالة واحدة يطلق عليها اسم البرودة او (عطل الذروة).

١ ـ تشنج الفرج

افضل النتائج في هذه الحالة امكن الوصول اليه بطريقة ماسترز وجونسون، وذلك باتباع الاسلوب المعروف (بالتوسيع المتزايد للفرج المتشنج)، وذلك خلال اسبوعين من العلاج المركز. وتفيد التقارير عن هذه الطريقة بانها اعطت نجاحاً في مئة من المئة من الحالات. هذا وهنالك من يعتقد بان استعمال هذه الطريقة مع (تعليم الانثى)، يعطي نتائج اكثر استدامة. ومن الطرق المستعملة، طرق العلاج النفسي والعلاج الزوجي، غير ان نتائجها غير مشجعة. وهنالك من يعالج هذه الحالات جراحياً لتوسيع الفرج، غير ان لهذه الطريقة ان تسبب معاناة نفسية، كما ان نتائجها تعتمد على مدى تمكن المعالج من اطفاء حالة الخوف والفزع الذي تعانيه الانثى من مجرد التفكير او توقع عملية الولوج. وهو الخوف الذي يكمن وراء الانعكاس العصبي الذي يؤدي الى التشنج.

٢ ـ العطل الجنسي العام

يقع ضمن هذا المصطلح الحالات التي تكون فيها الانثى غير راغبة في العلاقة الجنسية، او انها غير قادرة على الاستجابات الجنسية الفيزيولوجية المعتادة، مثل الترطيب وتضخم اعضائها الجنسية، والهدف العلاجي في هذه الحالة هو تنشيط استجابة الانثى للاثارات الجنسية. وعلى العموم فقد وجد ان طريقة ماسترز وجونسون بدرجاتها التصاعدية، هي افضل الطرق العلاجية، غير ان نجاح هذه الطريقة او اية طريقة اخرى لا بد ان يعتمد في النهاية على مدى قبول او رفض الانثى لشريكها حياتياً وجنسياً ونفسياً.

٣ ـ عطل الذروة

هدف العلاج في هذه الحالة هو اطفاء عامل النهي عن الذروة. وطريقة الاطفاء تتطلب توفير الاثارة الجنسية الكافية من حيث القوة والمدة الزمنية، وتوفير الظروف الملائمة للعلاقة الجنسية من وجهة نظر الانثى. واذا توافر كل ذلك، فان العلاج يعطي نتائج تكاد تكون كاملة في هذا النوع من العطل الجنسي. وهنالك مسألة العلاقة بين تحقيق الذروة وبين مواطن الاثارة، فقد وجد بعض الباحثين بان ثلثي الاناث في عيناتهم الدراسية يصلن الذروة عن طريق اثارة البظر، واذا صح ذلك، فان هذه الاثارة قد تصبح هدفاً علاجياً بالنسبة لبعض الاناث ممن يعانين من هذا العطل بسبب ممارستهن للاثارة الفرجية فقط اثناء العلاقة الجنسية.

الطرق العلاجية الجنسية الحديثة

الطرق العلاجية الحديثة لعلاج العطل الجنسي تشمل عدة تقنيات واساليب علاجية ظهرت كلها بعد سنة ١٩٧٠، وهي السنة التي نشر فيها ماسترز وجونسون كتابهما المشهور (العجز الجنسي في الانسان)، والذي اصبح معلماً ونقطة تحول في موضوع علاج العطل الجنسي. وقد تضمن الكتاب المبادىء الاساسية لتقنية علاجية جديدة يمكن اعتبارها ضمن نطاق علم النفس التطبيقي. فهي تستخدم اسلوب التعليم والتمارين السلوكية والعلاج النفسي

القصير. واهم ما في هذه التقنية العلاجية هي سهولة تطبيقها في الظروف الملائمة، وقصر المدة اللازمة لها والتي لا تتجاوز الاسبوعين من العلاج المركز، والنتائج الايجابية لاستعمالها، وكل هذه الميزات تجعل من هذا الاسلوب العلاجي فتحاً جديداً في علاج العطل الجنسي لا يضاهيه ايجابية اي اسلوب علاجي آخر مهما كان نوعه من تحليلي نفسي، او سلوكي او دوائي او هذه الاساليب في مجموعها.

ان الطرق العلاجية الجديدة عديدة، ومعظمها يرتكز على التقنية الاساسية لطريقة ماسترز وجونسون. وفيما يلي شرح مختصر لطريقة ماسترز وجونسون والطرق الاخرى المتفرعة منها، والمعروفة جميعها بالطرق الحديثة في العلاج الجنسي.

١ ـ طريقة (مواطن التحسس) Sensate Focus

هذه الطريقة هي الاسلوب العلاجي الذي ابتكره ماسترز وجونسون، والغاية المنشودة منه هي في ان يتوصل الشريكان في العلاقة الجنسية الى معرفة ما يثيرهما جنسياً، وكيفية اثارته بصورة تؤدي الى الاستجابات الجنسية الكاملة، ويقوم طرفا العلاقة بتبادل الأدوار بالقيام بلمس او العبث في المواطن الجسمية التي تثير شعور اللذة في شريكه. ويقضي اسلوب العلاج مشاركة الزوجين في العملية العلاجية، كما يقضي بامتناع الشريكين عن اية علاقة جنسية فعلية اثناء فترة العلاج المقررة. وهنالك ثلاث خطوات في العملية العلاجية. ففي الدور الاول من العلاج يشجع الاتصال بين الطرفين بما في ذلك التحسس بالاثارات التي يحدثها عبث شريكه في جسمه ما عدا الاعضاء الجنسية، ويحث الشريكان على تبادل المعلومات حول هذا التحسس. وفي الدور الثاني يضاف الثديان والاعضاء الجنسية الاساسية الى مواطن الاثارة، على ان يتوقف ذلك عند حدود الذروة. وفي الدور الثالث تجري محاولة الولوج، وخلال فترة العلاج يعطى المشاركان الاسناد النفسي الضروري للتقليل من شعورهما بالقلق وتسلط الشعور بعجزهما عن اتمام العلاقة الجنسية.

وقد افاد مبتكرا هذه الطريقة بانها ادت الى شفاء حوالى ٨٠٪ من المصابين بعطل جنسي، وهي نسبة اعلى بكثير من نسبة النجاح في اي طريقة علاجية اخرى من نفسية او سلوكية او دوائية، وخاصة في علاج حالات العنة، فنسبة الشفاء في حالات العنة الثانوية بلغت ٧٤٪ من الحالات، وبلغت ٦٠٪ في حالات العنة الاساسية، وهي العنة التي كانت في السابق مستعصية الشفاء في معظم الطرق العلاجية. ومن حالات العطل الجنسي التي تستجيب بصورة مشجعة جداً لطريقة ماسترز وجونسون، هي حالات عطل الذروة في الانثى، فاستعمال هذه الطريقة العلاجية قد ادى الى حدوث الذروة بنسبة ٨٣٪ من حالات العطل الاساسي للذروة في الانثى، والى حدوثها بنسبة ٧٧٪ من حالات العطل الثانوي للذروة. ومع الفائدة التي تكمن في طريقة ماسترز وجونسون في حد ذاتها، الا ان نتائجها تعتمد الى حد غير قليل على رغبة الزوجين في التغلب على صعوبات علاقتهما الجنسية وعلى مقدرتهما على التخلي عن مواقفهما العدائية او المناهضة الواحد تجاه الاخر اثناء فترة العلاج، وعلى استعدادهما لقبول الواحد منهما للاخر

كشريك جنسي وعلى استعدادهما للعمل معاً في سبيل تحقيق علاقة جنسية أفضل . وإذ توافرت مثل هذه المتطلبات ، فإن من الصعب تعيين نسبة النجاح العلاجي لكل من الطريقة في حد ذاتها أو لفعل هذه العوامل .

طريقة سيمانز - Semans توقف وابدأ

بنيت هذه الطريقة على أساس الملاحظة بأن القذف عند الذكر يحدث قبل اوانه إذا كان لا يشعر بالاحساس بأن القذف اصبح وشيكاً ، وهكذا ، فان من رأي سمانز ان العلاج الصحيح يجب ان يتوخى تمكين الفرد من هذا الاحساس، وذلك بحمل الرجل على تركيز انتباهه على حالة الاثارة وبدون ان يقذف حالاً . وسمى سيمانز اسلوبه العلاجي بتقنية « توقف - وابدأ - Stop Start Tech . وفيه يحمل الرجل على التوتر الكامل بمساعدة شريكته ، وعندما يهم بالقذف تتوقف شريكته عن اثارته فيرتخي ، ثم يعود ثانية ، وقد افاد سيمانز بانه اصاب نجاحاً كاملاً بهذا الاسلوب في علاج حالات القذف المبكر ، في خلال شهر .

طريقة ماسترز وجونسون - العصر - Squeeze Technique

هذه الطريقة هي تعديل أو تنويع لطريقة سيمانز - توقف وابدأ . وفي هذه الطريقة كما في الطريقتين السابقتين ، فان تطبيقهما يتطلب المشاركة بين الذكر والانثى . وفي هذا الاسلوب العلاجي تقوم الانثى باثارة الذكر بأي طريقة كانت يختارها الشريكان ، وعند الانتصاب ، وحالما يهم الذكر بالقذف ، تقوم شريكته بعصر القضيب تحت حافة حشفة القضيب لمدة ثواني معدودة ، وهذا العصر يؤدي إلى ايقاف القذف . ويتكرر الأمر عدة مرات ، وفي نهايتها يسمح بالقذف . وقد ادت هذه الطريقة إلى تأخير القذف بإطالة دور الهضبة . وهو الدور الثاني من أدوار الاستجابة الجنسية . والذي يمكن اطالته الى حدود ١٥ - ٢٠ دقيقة في الذكر .

علاج عطل الرغبة الجنسية :

علاج عطل الرغبة الجنسية هو من أصعب القضايا العلاجية وخاصة في أولئك الذين عرفوا من باكورة حياتهم الجنسية بأنهم يعانون من نقص في الرغبة والخيالات والاهتمامات الجنسية ، والذين تصعب اثارتهم في مختلف المواقف الجنسية والدافعة للنشاط الجنسي في معظم الناس ، وحالات عطل الرغبة الجنسية التي تعرض للفرد من الجنسين بين حين واخر ، او التي يرتبط ظهورها بحالات صحية جسمية أو نفسية عابرة ، أو تلك التي تحدث في مواقف وعلاقات جنسية معينة .

العلاجات العقاقيرية :

أكثر المستحضرات العقاقيرية استعمالاً في علاج عطل الرغبة هو هرمون تسترون Teslesterone ، وقد تم استعماله في كلا الجنسين ، ولم تكن النتائج مشجعة بصورة مقنعة أو طويلة الأمد ، إضافة إلى ما لهذا المستحضر ان يسببه من أعراض المظاهر الذكرية في الاناث .

العلاج الفكري:

هذا العلاج هو الأكثر فائدة على المدى الطويل ، ويهدف العلاج إلى احداث تغيير في المعتقدات غير التكيفية التي يحملها الفرد حول القضايا الجنسية .

العلاج النفسي الدينامي :

يهدف هذ العلاج إلى اكتشاف الصراعات النفسية وفي النطاق المحدد بالعطل الجنسي القائم .

العلاج النفسي السلوكي :

ويشمل ذلك عدة تقنيات علاجية منها : القيام بتمارين تهدف إلى زيادة روابط الاتصال مع الشريك الجنسي وإلى زيادة شعور اللذة الجنسية .

العلاج الزوجي :

وهو علاج يشمل الزوجين ويهدف إلى أحكام الرابطة بينهما ، واستعمال الجنس كوسيلة للسيطرة على هذه الرابطة .

الفصل الثاني والعشرون

الجنس والحياة النفسية والعقلية

* مقدمة
* اثر الاضطرابات النفسية والعصبية والعقلية على الجنس
* اثر الاضطرابات الجنسية على الحياة النفسية والعقلية

الجنس والحياة النفسية والعقلية

هنالك آراء وافتراضات عديدة حول موضوع العلاقة بين حياتنا الجنسية وحياتنا النفسية والعقلية واثر الواحد منهما على الاخر. ويتضح للمتتبع لهذا الموضوع وجود تطرف وتباين في هذه الآراء والى حد التعارض. فهنالك مثلاً من ينظر الى حياتنا الجنسية بانها غريزة حيوانية ولا اهمية لها في حياتنا الانسانية، وهنالك على عكس ذلك من يعطي الحياة الجنسية اهمية قصوى في الحياة الانسانية والى الحد الذي ينفي فيه امكانية الوصول الى نمو نفسي صحيح بدون مشاركة نمو مماثل لحياتنا الجنسية. وبين هذين الاتجاهين المتباعدين فان هنالك آراءً اخرى تقوم على اساس الملاحظة والتجربة والوقائع الفعلية، وكلها تؤيد الاستنتاج بان الرابطة وثيقة بين حياتنا الجنسية وبين حياتنا النفسية والعقلية في حالات الصحة وحالات المرض على حد سواء، وبان هنالك تأثيراً متبادلاً للواحدة منهما على الاخرى، وان كان هنالك بعض الاختلاف حول تفسير طبيعة هذه العلاقة وكيفية فعلها وحجم هذا الفعل. ولعل من المفيد ان نستعرض بعض الآراء الواردة في الموضوع والتي تمتد منذ الحضارات القديمة وحتى الآن، مما يبين اهتمام الانسان المتواصل بأمر هذه العلاقة ويؤكد اهميتها في حياة الانسان.

* *

لعل جالينوس، الطبيب الروماني الشهير في القرن الثاني بعد الميلاد، كان اول طبيب تناول العلاقة بين النفس وبين الجنس، فقد جاء بالملاحظة بان احتباس مني الرجل، وتأخر الانثى في حيضها كلاهما يساهمان في خلق حالة من عدم الاتزان في الحياة النفسية للذكر او الانثى والى ظهور القلق في كل منهما، كما لاحظ وجود علاقة بين ظهور اعراض المرض الهستيري

وبين تعذر العلاقة الجنسية، وهي الملاحظة التي كانت سائدة في زمن ابقراط من ان جفاف الرحم بسبب امتناع العلاقة الجنسية يدفع بالرحم الى التنقل من مكانه الى اعضاء الجسم واطرافه بحثاً عن الرطوبة. وبذلك تحدث الاعراض الهستيرية المتنقلة والتي تعانيها الانثى فقط. واخيراً فأن جالينوس ادرك الفائدة العلاجية التي تصيب المريض سواء بممارسة العلائق الجنسية او بالاستمناء وهي الممارسة التي تؤدي الى ازالة التوتر في نظره. وفي حضارات اخرى قديمة بما فيها الحضارة الهندية والصينية. اعتبر مني الذكر مادة حيوية وثمينة وذات علاقة ليس فقط بالقوة والنشاط الجسمي بل بالقوة والنشاط العقلي، ولهذا اقتضي عدم هدر وتبذير.هذه المادة والاسراف في صرفها، وبسبب ذلك فان حضارات عديدة قد ادانت ممارسة العادة السرية. ومن الذين ابدوا رأياً حازماً بادانة الاسراف الجنسي واثره على الحيوية والحياة النفسية والعقلية هو الطبيب العربي الرازي. فقد جاء في كتابه المسمى بالطب الروماني بأن ايثار اللذة في الجماع له ان: «.. يضعف البصر ويهد البدن ويخلقه ويسرع بالشيخوخة والهرم والذبول ويضر بالدماغ والعصب، ويسقط القوة ويوقعها.. ولذلك ينبغي للعاقل ان يزم نفسه عنه ويمنعها منه ويجاهدها على ذلك لئلا تغرى به وتضرى عليه»، وقوله ايضاً في هذه اللذة بانها «.. من اولى اللذات واحقها بالاطراح، وذلك لانها ليست اضطرارية في بقاء العيش كالطعام والشراب، وليس في تركها الم ظاهر محسوس كالم الجوع والعطش». وفي رأي الرازي انه اذا لم يكن هنالك بد من الجنس، فليكن على اقل درجة ممكنة: «.. فان كان لا بد منه، فيكون الذي نأتي منه اقل ما يمكن مع الاستحياء واللوم لانفسنا عليه». وفي كتاب اللذة، يقول الرازي «.. فاما البدن، فانه كلما ازداد استهتاراً باللذات المحسوسة وانهماكاً فيها، ادت لذاته بالقوة البهيمية التي في الانسان، وبعدته من تمام طبعه وشرائط انسانيته». وهكذا فان الرازي يجد في الجنس ولذاته ما يمثل غلبة الغريزية الحيوانية على النواحي الانسانية في حياة الانسان. وفي عصرنا هذا فان هنالك الكثير من الآراء التي تؤكد على اهمية النواحي الجنسية وتأثيرها على الشخصية والسلوك الطبيعي منه وغير الطبيعي، وعلى الحياة النفسية والصحة العقلية. وهنالك الكثير من البينات التي تفيد بان الحياة الجنسية تضطرب بنتيجة اضطراب الحياة النفسية والعقلية، وبان النشاط الجنسي يمكن له ان يقدم او ان يعيق من حظ هذه الامراض في الشفاء. وهنالك بينات اخرى بان اضطراب الحياة الجنسية والعطل الجنسي من نوع او آخر لها ان تؤدي في بعض الناس الى اضطرابات نفسية عاطفية او سلوكية.

ان هنالك القليلين في هذا العصر ممن يذهبون الى الحد الذي ذهب اليه فرويد في اعطاء الاهمية المطلقة للجنس في تكوين البناء النفسي للانسان، وقل هنالك اليوم من يأخذ بعقيدة المدرسة التحليلية الفرويدية على علاتها من ان الصراعات النفسية الناجمة عن الرغبات الجنسية والتي لم تحل في حينها، فانها تؤثر في النمو النفسي الجنسي لصاحبها، وبان لذلك التأثير ان يؤدي الى النهي الجنسي (العطل) او الانحراف الجنسي والى امكانية قيام المرض النفسي. ومن الآراء الواردة في هذا العصر الرأي بانه يحتم على الفرد ان يسيطر على دوافعه الجنسية في فترة المراهقة، والا فان لفقدان هذه السيطرة ان تؤثر على صحته العقلية. ومن الآراء التي تتناقض مع الرأي

بـاهمية الجنس في حيـاتنا النفسيـة، رأي مـاسـرمـان Masserman (١٩٦٦) ورأي هنت Hunt (١٩٦٥). فالأول، بينما يقر بأن السلوك الجنسي يحفز بالحاجات الفيزيولوجية، إلا انه لا يجد أهمية في الرغبة الجنسية في حد ذاتها، ذلك لان هذه الرغبة طارئة ودورية وعابرة وبـالامكان الاستغنـاء عنها. اما الثاني، فانه يرى بأن السلوك لا يحفز بالحاجات الفيزيولوجية الجنسية، وبانه لا توجد علاقة بين العاطفة وبين حياتنا الجنسية. وبتضارب هـذه الاراء عن العلاقـة بين الجنس وبـين النفس، فان هنالك بينات تعطى لاسناد وجهة نظر او اخرى مضاربة له. فهنالك بينات من ان الكثيرين من الناس يتمتعون بحياة جنسية طبيعية، بينما هـم يعانون من امراض نفسية او عقلية، وهنالك بينات معاكسة تظهر بان نسبة المصابين بمرض نفسي او اضطراب عاطفي او عقلي هي اكثر بكثير من المعتاد في اولئك الذين يعانون من انحرافات جنسية.

ومن الأراء التي تؤكد العلاقة بين الجنس وبين النواحي النفسية والعصبية والعقلية في حياة الفرد، خاصة في حالات الاسراف في هدر الطاقة الجنسية، ما رآه هرمان بويرهافي Boerhaave (١٦٦٨ ـ ١٧٣٨) بأن الاسراف الاهوج في المني يؤدي الى النحول والوهن وضعف الحركـة، والى حـدوث النوبـات العصبيـة والضمـور الجسمي والى اضعـاف الاحـاسيس والم الاغشيـة الدماغية. اما فردريك هوفمان (١٦٦٠ ـ ١٧٤٢) فقـد رأى بان الاستسـلام لعادة الاستمنـاء يؤدي الى ضعف الذاكرة بسبب اجهاد الجهاز، العصبي. ورأى جون براون (١٧٥٣ ـ ١٧٨٨) بان التماس المتبادل بين الجنسين كالذي يحدث في التقبيل او في وجود الجنسين معاً: «فانه يعطي قوة دافعة للاعصاب، اما الجماع في حد ذاته فمع انه يعطي راحة مؤقتة، الا انه يمكن لـه ان يطلق طاقة عاتية اذا ما اسرف فيها فان لها ان تسبب المتاعب. ومن آراء تيسوت Tissot (١٧٢٢ ـ ١٧٧٦) ان الاسراف الجنسي يؤدي الى ضباب الفكر وحتى الى حالة الجنون في بعض الناس، كما يؤدي الى انحلال القوى الجسمية والى إضعاف المقدرة على التخصيب، والى العنة والقذف المبكر وغيرهما من انواع العطل الجنسي.

وفي القرن التاسع عشر بصفة خاصـة اتجه الاهتمـام الى بحث الحياة الجنسيـة بجانبيهـا البايولوجي والنفسي، وكان مـول Moll وفليس Fliess وكرافت ابنـج Kraft - Ebing وهافلوك أليس، وأخيراً فرويد، اهم المعنيين بدراسة هذه الحياة. . وقد استطاع فرويد ان يوحد بين مختلف الاتجاهات والآراء لمعاصريه، وان يربط بين الحياة الجنسية وبين الحياة النفسية، وجاء هذا الربط عن طريقين، اولهما الربط بين الجنس وبين النفس في نمو الشخصية من الطفولة حتى الرشـد، واصـطلح لذلـك الربط مصـطلح النمو الجنسي النفسي Psychosexual Development، امـا الاتجاه الثاني فهو يتضح من محاولات فرويد استغلال باثولوجية (مرض) الجنس لتفسير باثولوجية النفس (السايكوباثولوجي). وقد جاءت مع هذا الربط نظريات فرويد المختلفة الجنسية الطفولية، وادوار النمو النفسي الجنسي، ومركب اوديبوس، والصراع النفسي، والكبت وما يترتب عـلى ذلك من حالات نفسية.

* *

بالنظر لتعدد العوامل المؤثرة في تكوين كل من الحياة النفسية والحياة الجنسية للفرد، فان من الصعب تقرير اسس العلاقة التي تربط بينهما، وكل ما يمكن بيانه عن هذه العلاقة هو ملاحظة نتائج فعل الواحد منها على الآخر. وفي ملاحظة هذه النتائج يجب الانتباه الى ان ما نلاحظه من هذه النتائج ما هو الا من فعل عوامل اساسية تقرر الاضطراب في كل من المجال النفسي والجنسي، وليس بنتيجة فعل واحد منهما على الاخر.

اثر الاضطرابات النفسية والعصبية والعقلية على الجنس

يمكن القول بصورة عامة ان الاضطرابات الجنسية من عطل او انحراف هي اكثر وقوعاً في الذين يعانون من الاضطرابات النفسية والعصبية والعقلية منها في الناس من غير المرضى، غير ان هذا لا يعني بالضرورة توقع الاضطراب الجنسي في كل حالة مرضية، او في كل مريض يصاب في هذه الحالة، مما يدلل على ان هذه الاضطرابات والامراض النفسية والعقلية ليست وحدها التي تقرر حصيلة الفعالية الجنسية. ومن الملاحظات السريرية في هذا الموضوع ما يلي: (١) ان الامراض العقلية العضوية كخرف الشيخوخة، وتصلب الشرايين والكآبة العضوية، فانها ترتبط بصورة اكبر بالضعف الجنسي وضعف الحافز من ارتباطها بالانحرافات الجنسية. (٢) لوحظت العنة او الضعف الجنسي في حالات الصرع النفسي الحركي السايكوموتور، كما لوحظت الانحرافات الجنسية بصورة اكثر وقوعاً في الآفات العضوية التي تصيب المنطقة الصدغية من الدماغ. (٣) ان للشدة على الرأس ان تؤثر على الحالة الجنسية، واكثر ما يحدث ذلك اذا ما كانت الشدة على الجبهة الامامية للرأس، فاصابة الدماغ في مقدمته تؤدي الى زيادة في الدافع الجنسي، كما تكثر حالات العنف اثناء العلاقة الجنسية. هذا وقد يصاب المريض بحـ لة من العطل الجنسي كجزء من النتائج النفسية والجنسية للشدة على الرأس، وما يلاحظ في الشدة على الرأس يلاحظ ايضاً في العمليات الجراحية على مقدمة الدماغ، اذ ينجم عن ذلك عنف وآنية الدافع الجنسي وفقدان السيطرة وخلو المريض من الشعور بالأثم او الندامة او الاستحياء او الارتباك من تبذله الجنسي ومن ممارسته للعنف في اثناء ذلك. (٤) في الاضطرابات العاطفية (المزاجية) يحدث التأثير تبعاً لطبيعة المزاج، ففي الكآبة الذاتية يحدث نقص او حتى زوال الرغبة الجنسية، وقد يكون رجوع هذه الرغبة اول الدلائل على بدائل الشفاء وزوال الكآبة، وفي المانيا الكآبية فيكثر حدوث العنة والوهن الجنسي، وبعض ذلك ناجم عن التعب الجسمي العام الناجم عن الحركة الدائبة في الدور الهياجي للمرض، اما في المانيا الخفيفة (الهايبومانيا) فان المريض يبدي اهتماماً والحاحاً زائداً في النواحي الجنسية، غير ان ذلك لا يقترن بالضرورة بفعالية انشط. اما في الكآبة العقلية فان التكيف الجنسي للمريض فهو اقل من الطبيعي ٥٠) في مرض الشيزوفرينيا، تظهر عدة احتمالات من الاضطراب الجنسي، وعلى العموم فان العلاقة الجنسية لمريض الشيزوفرينيا هي علاقة تبدو منفصلة عن اعتبارات المشاركة والشريك الجنسي، غير ان المريض قد يمارس العنف السادي او الانحراف الجنسي. وافادت بعض الدراسات بوجود زيادة في النشاط الجنسي في الادوار الاولى من المرض ويفسر ذلك بانه نتيجة لغياب عوامل النهي عند المريض. كما لوحظ ايضاً كثرة مظاهر الفعالية الجنسية الذاتية، كالاستمناء،

في مرض الشيزوفرينيا، ويفسر ذلك بانه مظهر من مظاهر نكوص المريض الى دور سابق من ادوار نموه النفسي الجنسي. وتفيد الدراسات بأن الضعف الجنسي هو اكثر الاعراض الجنسية حدوثاً في حالات الشيزوفرينيا. (٦) حالات التخلف العقلي كثيراً ما تظهر تناسباً عكسياً بين النمو الجسمي والجنسي وبين درجة التخلف. وعلى العموم فان حالات التخلف الشديدة او المفرطة لا تقوم بعلاقة جنسية مع الجنس الاخر، والسلوك الجنسي الغالب في امثال هؤلاء هو الاستمناء الذاتي او المتبادل. وفي الحالات الاقل شدة من التخلف فان المتخلف يقوم بعلاقة جنسية طبيعية، غير ان سلوكه الجنسي على العموم يتصف بالمظاهر السلوكية الجنسية للاطفال كالجنسية المثلية. وهناك ايضاً ميل الى ممارسة الجنسية الحيوانية مع الحيوانات الاليفة وخاصة في المناطق الريفية. كما تكثر حالات الاستعراضية. (٧) هنالك بعض الارتباط بين انماط معينة من الشخصية وبين السلوك الجنسي. ومن الانماط التي يظهر فيها مثل هذا الارتباط الشخصية الهستيرية، والشخصية السايكوبائية والشخصية غير المتزنة عاطفياً. فذو الشخصية الهستيرية يظهرون صراعاً بين دوافعهم الجنسية وبين سلوكهم، وهذا الصراع ينعكس ليس فقط في عدم نضوجهم الجنسي بما يتناسب مع عمرهم، وانما ينعكس ايضاً في نوعية ودرجة استجاباتهم الفيزيولوجية للاثارات الجنسية وغير الجنسية. اما اصحاب الشخصية السايكوباتية فانهم يبدون زيادة في النشاط الجنسي وفي الاهتمام بالامور الجنسية، وهذا يظهر في الاناث اكثر مما يظهر في الذكور. كما انه اكثر وضوحاً منه في اصحاب الشخصية السايكوباتية اللااجتماعية ـ او المضادة للمجتمع، كما ان هنالك نسبة عالية من الافراد الذين هم من اصحاب الشخصية السايكوباتية والذين قاموا بارتكاب جرائم جنسية او بالاتجاه نحو انحرافات جنسية ترتبط عادة مع انحرافات سلوكية اخرى. اما ذوو الشخصية غير المتوازنة عاطفياً، وخاصة في الاناث، فانهن يعانين من مشاكل الحياة الجنسية اضافة الى الالحاح الجنسي المبكر. (٨) وفي حالات القلق النفسي، وجد الباحثون بان حالة القلق كثيراً ما ترتبط بقدر من العنة، وبنقص في الحرارة في العلاقات الجنسية، كما وجدوا بان القلق والخوف والعداء كلها تؤدي الى اضطراب جنسي في الكثير من الحالات.

ان هذه الملاحظات عن وجود ارتباط بين اضطرابات الشخصية والاضطرابات النفسية والعقلية، وبين الحياة الجنسية، يقابلها من جانب آخر دراسات سريرية ومقارنة تبين عدم وجود فروق هامة في الحياة الجنسية بين الفرد الصحيح والفرد المضطرب في شخصيته ونفسيته وعقله. وقد يكون من الصعب التوفيق بين هذين الموقفين، غير ان معظم الفحوص النفسية التي طبقت في دراسة الذين يعانون من سلوك جنسي مضطرب قد افادت بان هنالك مظاهر من الاضطراب النفسي او في الاقل ورود عوامل من المصاعب العاطفية في اولئك الذين يعانون من مشاكل جنسية.

أثر الاضطرابات الجنسية على الحياة النفسية والعقلية

قد يكون من الصعب التقرير في ايهما البادىء في الاضطراب: الجنس أو النفس، فما يبدو

انه السبب قد يكون النتيجة والعكس بالعكس. كما يقتضي ان نأخذ بعين المرعاة ان ظهور الاضطراب في المجالين الجنسي او النفسي، لا يعني بالضرورة ان الواحد منهما هو السبب في الآخر، فقد يكون الاثنان معاً نتيجة لعامل واحد مقرر لاضطرابهما معاً. ولهذه الاسباب فان من المتعذر في الكثير من الاحيان تحديد اثر حياتنا الجنسية على حياتنا العقلية. ان اهم الآثار النفسية التي تتأتى من كبت الطاقة الجنسية هي ما افترضه فرويد من ان هذا الكبت يؤدي الى نشوء حالة القلق وما تفرع عنها من اضطراب في الحياة النفسية والجسمية للفرد. ومن متعلقات هذا الافتراض ان احتباس الطاقة الجنسية بسبب النهي او الصراعات او صعوبة الاستثارة او احباط الاثارة الجنسية، او الجماع المتقطع، او الامتناع وغيرها من الحالات التي تعوق اطلاق الطاقة الجنسية او التفريغ الجنسي، فان ذلك قد يؤدي الى قيام اضطراب في مجال الحياة النفسية وظهور اضطرابات فيزيولوجية جسمية. ومن هذه الاضطرابات النفسية الانفعال والقلق والارق، والانفعالات الهستيرية والنحول العصبي، والاتجاهات السايكوباثية المضادة للمجتمع. واذا كان لاحتباس الطاقة الجنسية لسبب او آخر مردودات على الحياة النفسية، فان للافراط في صرف هذه الطاقة سواء بصورة طبيعية او بصورة منحرفة وغير طبيعية مردودات اخرى. فالافراط الطبيعي قد يؤدي الى اجهاد جسمي وعصبي مما يقلل من كفاءة الفرد في هاتين الناحيتين، اما الانحراف الجنسي، فقد يزيد او ان يعقد من الاضطرابات النفسية ان وجدت من الاساس، ذلك ان الانحراف قد يؤدي الى عزلة الفرد عن المجتمع والى زيادة القلق تحسباً لانكشاف الانحراف، وقد يؤدي ذلك الى قيام حالات الكآبة والادمان.

* *

في هذا العرض المختصر للعلاقة المتبادلة بين الجنس والنفس يتضح لنا ان الحياة الجنسية للفرد متداخلة ومتفاعلة مع حياته النفسية والى الحد الذي لا نستطيع فيه اغفال العلاقة بينهما وامكانية تأثير الواحد منهما على الاخر. وحتى في الحالات التي يبدو فيها عدم ظهور هذه العلاقة، فان ذلك يجب ان يدرك على خلفية من ان طرق التعبير عن حياتنا الجنسية عديدة ومختلفة، منها ما هو مباشر وواقعي، ومنها ما هو غير مباشر في الخيال او الرمز او السلوك، ومثل ذلك في حياتنا النفسية التي نعبر عنها بطرق مماثلة سواء كانت مباشرة او غير مباشرة واعية او غير واعية. ولهذا فان الامعان في محاولة ايجاد اقصى قدر ممكن من الصلة بين الحياة الجنسية والحياة النفسية هو امر لازم في كل حالة من الاضطراب في المجالين، ولعلنا حتى مع اعمق وابعد هذه المحاولات، ربما لا نصل الى الاحاطة الكاملة بهذه الصلة، وسنظل بذلك جاهلين للكثير من اوجهها وابعادها وآثارها على كل من الجنس والنفس.

الفصل الثالث والعشرون

المواقف الحضارية نحو الامور الجنسية

* مقدمة
* المجتمعات الحضارية القديمة
  - حضارات ما بين الرافدين
  - الحضارة التوراتية (العبرية)
  - الحضارة المصرية (الفرعونية)
  - الحضارة الاغريقية
  - الحضارة الرومانية
  - الحضارة الهندية
  - الحضارة الصينية
  - الحضارة المسيحية
  - الحضارة العربية والاسلامية
    - عرب الجاهلية والجنس
    - الاسلام والجنس
  - الحضارة المسيحية والجنس
  - العصور الحديثة والجنس
  - القرن العشرون والجنس
  - الحضارات البدائية المعاصرة والجنس
    - حضارة من الكبت الجنسي
    - حضارة معتدلة من التحرر الجنسي
    - حضارة اباحية الجنس
    - حضارة عدم الاكتراث للجنس
    - مجتمعات حضارية بدائية اخرى

المواقف الحضارية نحو الامور الجنسية

لا يمكن لاحد في أي زمن او حضارة الادعاء بأن لا موقف له فيما يختص بالامور الجنسية ذاتها، او فيما يتعلق بها من فعاليات. ولا يقتضي ان يكون الموقف معلناً، فلكل فرد طريقته في التعبير عن موقفه، ولكل وعيه الخاص في المكانة التي تحتلها القضايا الجنسية في حياته. وهنالك بطبيعة الحال، عدد من المواقف بقدر ما هنالك من الناس، وان كانت بعض المواقف تقترب او تبتعد عن بعضها في قليل او كثير. ومن شأن هذه المواقف ان تتغير في حياة الناس والمجموعات والحضارات بفعل عوامل مختلفة. وعلى ذلك فليس لنا ان نحدد او نتبنى موقفاً موحداً من القضايا الجنسية تقاس او توزن به جميع المواقف الاخرى. وكل ما يستطيعه الباحثون في هذا الامر هو محاولة فهم الكيفية التي تنشأ فيها المواقف المختلفة نحو الامور الجنسية، والكيفية التي تتطور او تتغير فيها هذه المواقف. ومع اننا لا نستطيع ان ننكر القوانين الاخلاقية التي تنظم الامور الجنسية وتحدد المواقف منها، الا ان هذه القوانين هي جزء من عملية تغيير وتطور المواقف، وهي العملية التي قد تعزز او تضعف الالتزام بهذه القوانين.

* *

لعل من المتعذر على الباحثين تعيين موقف الانسان البدائي في اول مراحل التاريخ الانساني من القضايا الجنسية، وتقرير فيما اذا كان سلوكه الجنسي مجرد الاستجابة التلقائية لدافع الغريزة الجنسية بمعناها البايولوجي الصرف. كما ان من المتعذر لنا ان نؤكد ان دافعه الواعي للعلاقة الجنسية قد جاء بسبب حاجته للتكاثر. ومع انه لا يفكر ان غرض التكاثر وراء

الطاقة الجنسية والسلوك الجنسي بوصفه هدفاً بايولوجياً للابقاء على وجود الانسان، الا انه يشك فيما اذا كان الانسان القديم، حاله حال الانسان المعاصر، قد اندفع بهذا الهدف في رغبته الواعية. والواضح من ملاحظة السلوك الانساني في النواحي الجنسية، ان معظم هذا السلوك لا يستهدف التكاثر، وانه في هذا العصر وفي بعض المجتمعات في الاقل، يحاول تجنب هذا التكاثر، ولهذا فلا بد لنا من ان نأخذ بالرأي القائل ان الانسان منذ البداية قد اقبل على الجنس لانه يحقق له حاجة فيزيولوجية اساسية، تعطيه اللذة، او في الاقل، الانفراج من ضيق الحاجة اليها، وحالها في ذلك لا يختلف عن الحاجات الاساسية الاخرى في حياة الانسان كالجوع والعطش. وهذا الرأي لا ينفي ان تكون الحاجة الجنسية وارضاؤها باللذة او المتعة هي في مجملها عملية بايولوجية تخدم اغراض التكاثر والابقاء على الجنس البشري. غير ان هذا الرأي يشمل ايضاً وجود مظاهر من السلوك والعاطفة في العلاقات الجنسية، مما لا يهدف او يخدم ارضاء الغريزة الجنسية في حد ذاتها او يخدم اغراض التكاثر والبقاء. واهم هذه المظاهر تقع في المجال العاطفي والفكري الذي يميز الحياة الجنسية الانسانية، الا ان هنالك من المظاهر السلوكية الجنسية في مراتب حيوانية اخرى، ما يؤكد وجود مثل هذه العوامل في حياتها الى حد ما وبصورة ما، ووجود هذه المظاهر فيها لا يعني بالضرورة انفصال هذه المظاهر عن الاهداف البايولوجية الاساسية للجنس، وربما لا يكون في ذلك الا اضافة بعد جديد لهذه الاهداف له ان يسهل تحقيقها.

* *

في محاولة تتبع المواقف المختلفة والمتغيرة للنواحي الجنسية في الحياة، فلا بد من النظر الى الموضوع على اساسين، الاساس الاول هو ان الناحية الجنسية في الانسان تعتمد في الاساس على القاعدة البايولوجية، وهذه الحقيقة تجعل التطور البايولوجي للجنس عملية عمياء من الاختيار الطبيعي Natural Selection. أما الاساس الثاني، فهو العامل الحضاري، والذي عن طريقه تمكن الانسان من السيطرة على عملية التكاثر وعلى تطور الجنس البشري. ويتخذ هذا العامل الحضاري صوراً مختلفة جمالية وقيمية ومنطقية، وقد يكون هذا العامل متعمداً، وقد يأتي بشكل عفوي، وهو في جميع الحالات يحدث تطوراً حضارياً في الحياة الجنسية للانسان. وتطور العمليتين معاً، البايولوجية والحضارية، يفسر المظاهر المختلفة لحياتنا الجنسية ويفسر مواقفنا من هذه الحياة. والانسان فريد في كونه الكائن الوحيد الذي طور في حياته الجنسية البايولوجية بالفعل الحضاري، وان كانت الحياة الجنسية لبعض الكائنات الحية لا تخلو من تفنن وسفسطائية ورمزية، توحي ببعض مظاهر الفعل الحضاري على تطور السلوك الجنسي عندها.

وفي محاولة تتبع التطور في السلوك الجنسي الانساني وفي مواقف الانسان من هذه الناحية في حياته، فان نلاقي ظاهرتين بارزتين، اولهما التنوع والاختلاف في هذا التطور، وثانيهما التغيير. فالدراسات الانثروبيولوجية على مجتمعات مختلفة بدائية ومتقدمة، والسجلات التاريخية كلها توضح بجلاء وجود التطور في الاتجاهين: التنوع، والتغيير. ومع ان الانسان في حياته

البايولوجية البدائية لا بد انه ابتدأ من نمط واحد من السلوك الجنسي، ومن موقف واحد في النظر الى حاجته الجنسية، الا ان تطوره بعد ذلك لم يتخذ خطاً مستقيماً واحداً من التنوع والتغيير في عملية التطور الجنسي، وهذا يتضح من الدراسات الوافية عن الحياة الجنسية لمجتمعات مختلفة بدائية ومتحضرة. فالمجتمعات البدائية في عصرنا هذا، وهي التي تحمل اكثر من غيرها سمات الماضي البعيد، تظهر انماطاً متعددة ومتباينة من السلوك الجنسي وفي مواقفها من الحياة الجنسية، وهذا الواقع يبين بجلاء ان تطور وتنوع السلوك الجنسي والمواقف منه، انما يخضع لعمليات حضارية واجتماعية محددة اكثر من خضوعه لفعل الزمن والتقدم الحضاري بشكل عام، وهذا يفسر ما نراه من اختلاف وتنوع في السلوك الجنسي والمواقف منه في المجتمعات المتعاصرة والمتماثلة في تطورها الاجتماعي والحضاري.

واذا كان لا بد من تفسير هذه الظاهرة من عدم التوازن والتوافق بين منطق التقدم الحضاري من ناحية وتطور المفهوم الجنسي من ناحية اخرى، فلعلنا نجد هذا التفسير في رد الجنس الى اصوله البايولوجية الاولى، وما يحدث لهذه الاصول بفعل عمليتين هامتين، الاولى هي عملية الاستئثار بالشريك الجنسي، والعملية الثانية هي عملية الترميز للعملية الجنسية البايولوجية الفعلية. ومع ان العملية الاولى، وهي عملية الاستئثار، لا ينفرد بها الانسان وحده وانما توجد في مراتب اخرى من الحيوانات، الا ان عملية الترميز لما هو بايولوجي جنسي، هي خاصة انفرد بها الانسان، وهي عملية فكرية، كما انها تنشأ في الانسان بسبب الحرمان الذي يمكن ان يعانيه الفرد بنتيجة استئثار غيره بالفرص لقضاء الرغبة الجنسية. اما لماذا حدث الاستئثار بالاصل، ولماذا خضع العمل به لسيطرة الذكر دون الانثى، فان من السهل فهمه على ما يشابه نشوء الاستئثار والتملك لحاجات اساسية اخرى في حياة الانسان كالغذاء والماء، ولمقدرة الذكر دون الانثى على ممارسة القوة لضمان ذلك. ولم يكن هنالك بد من ان يحافظ الرجل على استئثاره بتطوير نمط حياته الاجتماعية على الصورة التي تضمن ما يعتقد انه حق له في الاستئثار والتملك. ومع ان هذا الحق قد اتخذ اهدافاً وغايات اجتماعية وحضارية وحتى بايولوجية تتعلق ببقاء الجنس، الا ان اصوله لا تكمن في هذه الغايات والأهداف، وقد كان وما يزال من الطبيعي ان تنشأ القواعد والقوانين التي تحدد مجال الاستئثار والتملك وان تكتسب هذه القواعد والقوانين قوة (التحريم) لما يخرج عن نطاقها. واذا كنا نرى ان ما يقع تحت المحرمات من ممارسات جنسية هو اوسع بكثير من تحريم التجاوز على حق الاستئثار والتملك، الا ان من الممكن ان ينظر الى الكثير من هذا التوسع على انه مد لمجال الحرام، وان في هذا المد وقاية وحماية للغرض الاساسي منه وهو الاستئثار. وهكذا فان الاستئثار، وهو العامل المحرك الاول لتكوين المجتمع وتطوره الحضاري، قد سخر التكوين الاجتماعي والتطور الحضاري لخدمة اغراضه والى الحد الذي اصبح فيه من الصعب التمييز والتفريق بين هوية الاثنين. والناظر في الحياة الجنسية لشتى المجتمعات القديمة او المعاصرة، البدائية اوالمتحضرة، يجدانها تحتفظ بمبدأ الاستئثار وبالقواعد المنظمة له، وان كانت هذه القواعد لا تظهر علناً حمايتها لمبدأ الاستئثار والتملك الجنسي، غير ان التضمين واضح عند تحليل هذه القواعد ومتابعة اصولها.

لم يكن هنالك بد من ان تصطدم الرغبة الجنسية في الانسان والحاجة عند ارضائها، والاستئثار بالشريك الجنسي لتكون ضمانة لدوام هذا الارضاء، من الفشل في تحقيق الرغبة، وخاصة الفشل الذي ينجم عن ضياع الشريك او عدم توافره او استئثار الآخرين به. وهذا الحبس للطاقة الجنسية لا بد له ان يظهر بطرق ووسائل اخرى تعبر كلها عن الرغبة الجنسية، كما انها تعبر عن سعي الانسان لارضائها، وعلى صورة غير الصورة البايولوجية المباشرة التي يتمتع بها المستأثر بالشريك الجنسي. وهذه الحاجة إلى تبديد الطاقة الجنسية دفعت بهذه الطاقة إلى التماس والتفاعل مع الخيال والفكر والعاطفة الانسانية، ونشأ من هذا التفاعل ما هو معروف مما لا حد له من التنوع في الممارسات الجنسية، والمظاهر المختلفة التي تعبر عن الحياة الجنسية، وكل هذا التنوع والاختلاف، لا مثيل له في حياة الحيوانات الاخرى، وهو ينوه بمقدرة الانسان الفريدة على تكوين الرمز في حياته الفكرية، واستعمال هذا الرمز بديلاً للشيء والتعامل معه على هذا الاساس. وعلى ذلك يمكن عدّ الرموز ذات الدلالة الجنسية انها المحاولة العقلية للاحتفاظ بالهدف الجنسي والاستئثار به بعد تعذر الحصول عليه لسبب او آخر. ولهذا الواقع ان يفسر ايضاً كثرة وتنوع الرموز ذات الطابع الجنسي، والتي تزيد على مجموع الرموز العقلية التي كونها الانسان لجميع اوجه حياته الاخرى. اما النفع الذي يحقق للانسان من رموزه الجنسية فهو متعدد النواحي، وقد يكون اهمه التخفيف من اثر الفشل والحرمان من العلاقة الجنسية المباشرة، وذلك بربط بعض الطاقة الجنسية باهداف رمزية وافراغ هذه الطاقة عليها، اما الهدف الثاني، وهو هدف لا يعيه الانسان مباشرة، فهو توسيع مجال الحياة الجنسية بحيث يتجاوز الحدود الحيوانية الضيقة من الرغبة والارضاء، ومثل هذا التوسيع والتجاوز ضروريان للتوافق مع واقع التطور العقلي المتميز للانسان. وقد يكون من المشكوك فيه ان الانسان يستطيع اصابة ما اصابه من التطور الاجتماعي والحضاري، لو ان حياته الجنسية استقرت في النطاق البايولوجي المحدود من الرغبة والارضاء للعلاقة الجنسية. وهكذا فان ظاهرتي الاستئثار والرمز هما عمليتان ضروريتان لتطوير الغريزة الجنسية من مجالها البايولوجي إلى المجال الانساني الاوسع في حدوده الاجتماعية والنفسية والحضارية. وفيما يلي نقدم بعض النماذج من مظاهر الحياة الجنسية في حياة بعض المجتمعات. وهذه المجتمعات على اختلاف تطورها الحضاري والاجتماعي، تظهر في حياتها الجنسية فعل عاملي الاستئثار والرمز الجنسي. واذا كانت هنالك اوجه اختلاف في السلوك الجنسي ومواقف هذه المجتمعات منه، فان مثل هذا الاختلاف منتظر ومسوغ بسبب التفاوت الممكن في عملية تطوير كل من العاملين الاساسيين، الاستئثار والرمز، في حياة وتاريخ هذه المجتمعات، ذلك ان تطوير هذين العاملين لا يمكن النظر اليه على انه عملية متواصلة ومفردة، بل انه تطور يخضع لمؤثرات حياتية اخرى ربما لا تتشابه او تتزامن في حياة شعوب ومجتمعات اخرى.

المجتمعات الحضارية القديمة

ان من المتعذر على الباحثين متابعة المواقف الجنسية والسلوك الجنسي في الحضارات البدائية الى اصولها او التوصل الى معرفة الادوار التي مرت بها في تطورها حتى انماطها القائمة الآن. كما

لا يمكن تعيين العوامل المؤثرة في عمليات التطور والتي ادت الى هذا الاختلاف الواضح في معالمها بين حضارة بدائية واخرى. غير ان الامر يختلف في الحضارات المتقدمة والعريقة سواء الشرقية منها او الغربية، فهنالك الكثير من البينات من مختلف المصادر من اسطورة ورواية وتاريخ وديانة وآثار فنية، وكلها تبين عمليات التطور في مواقف الانسان نحو الجنس، كما انها تبين العوامل الفعالة في هذا التطور. والذي يلاحظ في مسيرة هذا التطور، هو التنوع والتذبذب في المواقف الحضارية بين حضارة واخرى، وفي الحضارة ذاتها بين زمن وآخر، كما يتضح وجود اكثر من مقياس واحد تقاس به الممارسات الجنسية، وهو الامر الذي يتشابه به الموقف الحضاري مع مواقف ثنائية المقاييس التي سبق ذكرها في المجتمعات الحضارية البدائية. وهذا التشابه لا يعني بالضرورة ان ثنائية المقاييس تخدم غرضاً متماثلاً في الحضارات البدائية والمتقدمة، فامعان النظر في السلوك الجنسي في بعض الحضارات البدائية ينوه بان وجود المقياسين من شأنه ان يعزز ويسند الجاذبية الجنسية بين الجنسين. فتطبيق القواعد العلنية التي تحظر انماطاً معينة من التعامل الفعلي او الرمزي للجنس، قد يكون الوسيلة الملائمة لحفظ الطاقة الجنسية ووقايتها من الابتذال والصيرورة الى فعالية بايولوجية صرفة، ومن ثمة اذكاؤها بالمنع او التأجيل او التسرر. ولا يمكن ان يقال مثل ذلك في نشوء المقاييس الثنائية في الحضارات المتقدمة والتي يستشف منها فعل عمليات عقلية اخرى من الرياء والخداع والتمويه، وهي العمليات التي قامت بالاصل لتجنب المسؤولية، وليس لضرورات تطوير الحياة الجنسية وربطها بالحياة النفسية للفرد. ومع ان بعض الحضارات المتميزة، او في فترات زمنية منها، قد تبنت مقياساً غالباً يحدد به السلوك الجنسي، الا ان مثل هذا المقياس تفاوت قوة او ضعفاً تبعاً للظروف التاريخية التي مرت بها هذه الحضارة او تلك، وقد جاء التوافق متلائماً مع قدر القوى الفعالة في حياة المجتمع الحضاري، فكلما اشتدت هذه القوى، ساد التزمت، وكلما ضعفت كثر التساهل، وزاد معه الفارق بين الموقف المعلن والموقف غير المعلن من السلوك الجنسي. وعلى العموم فان الحضارات العريقة الشرقية منها والغربية، قد اتخذت مواقف معلنة ومتقاربة من الامور الجنسية. سواء منها الحضارات القديمة الوثنية كالبابلية والآشورية واليونانية والرومانية، او الحضارات المبنية على اسس دينية، ومعظم هذه الحضارات التزمت بمقياس واحد معلن في الحياة الجنسية والذي يتضمن تجنب العلاقة الجنسية لكل من الرجل او المرأة الا ضمن العلاقة الزوجية، وقد ميزت هذه العلاقة المجتمعات الحضارية الدينية الاسلامية والمسيحية والتوراتية. وقل ان توافر العمل في هذه الحضارات، وخاصة الدينية منها، بأي مقياس اخر يبيح العلاقة الجنسية بشكل مطلق للذكور والاناث، غير ان بعض الحضارات، وفي فترات معينة في مسيرتها، قد تبنت اكثر من مقياس للسلوك الجنسي، فهي وان عملت علناً بالمقياس الاول من تجنب ما يخرج عن الزواج، الا انها تسامحت، وقبلت بمبدأ الحرية الجنسية للرجل خارج نطاق الزواج، ولم تسمح به للمرأة، أوأنها اعطت مثل هذه الحرية للرجل، غير انها حددته للمرأة فقط في ظروف تهيء للزواج. وهذا التنوع في المقاييس يوضح اثر القيم السائدة على المواقف التي يتخذها المجتمع بشأن السلوك الجنسي. وفيما يلي مختصر لبعض المواقف الحضارية الهامة قديماً وحديثاً:

حضارات ما بين الرافدين

تمثل حضارة ما بين الرافدين من بين حضارات التاريخ كلها ظاهرتين فريدتين. فهي اولاً اقدم الحضارات الانسانية المعروفة، اذ تعود في اقل تقدير الى بداية الالف الثالث قبل الميلاد ان لم يكن قبلها بكثير، كما انها الحضارة الوحيدة التي تـواصلت بدون انقـطاع ثلاثـة الاف سنة، وحتى عندئذ لم يدم الانقطاع طويلاً، فتواصلت مع الحضارة العربية الاسلامية الف سنة اخرى. ولما كانت هذه الحضارة، او بالاحرى الحضارات، قد اثرت وتأثرت بحضارات اخرى، فان من المتعذر حصر مواقفها من الامور الجنسية في قواعد ثابتة ومعينة، غير انها مع ذلك قد اشتركت في تبني قوانين معينة تنظم السلوك الانساني في الحياة المدنية بما في ذلك الامور والعلائق الجنسية. ويتضح من مقارنة المواد القانونية الواردة بشأن الامور الجنسية في الحضارات الاساسية الثلاثة السومرية والبابلية والاشورية، انها تتفق في نظرتهـا الى المرأة عـلى انها ملك للرجل، وفي هـذه النظرة كأساس، فقد عدّ الزنـا او الاغتصاب تعـدياً عـلى حقوق التملك وليس خـروجاً عـلى الاخلاق او اثماً. وفرق القانون بين حق الزوج والزوجة في الممارسة الجنسية، كما فرق بين المرأة المتزوجة وغير المتزوجة وبين المرأة الحرة والعبدة، ومن هذه الفروق انه يحق للزوج ان يفرق مع المرأة، غير ان الزوجة يمكن ان تحكم بـالموت عقـاباً لـذلك. ونص القـانون عـلى حمايـة المرأة المتزوجة، والعقوبات التي فرضت على المخالفات الجنسية معها، عليها وعلى مرتكبيها، اختلفت عن العقوبات للمخالفات الجنسية بين الـرجل وامـرأة غير متـزوجة. ويـدرك من قوانـين هذه الحضارات ان الزواج كان من اجل الانجاب وليس من اجل المصـاحبة، وعـرف واجب المرأة الاساسي بانه العناية بالاطفال وتربيتهم، ولذلك حظيت الزوجة الام، وخاصة الام للذكور، بالاعتبار وبحماية قانونية متميزة. وقد عرفت الدعارة ومورست بشكل واسع، ويتضح من هـذه القوانين انها كانت ممارسة مقبولة، وفي الاقل غير ممنوعة. ومثل ذلك يقال بالجنسية المثلية والتي مارسها الكهنة، فقد عرف ان بعض الذكور قد مارسوا الـدعارة في معبـد عشتار ممـارسة ذات معان دينية، ذلك انه نـظر اليهم بوصفهم رجـالاً حولتهم عشتـار الى اناث. وتفيـد النصوص الاشورية بـانه كـان هنالـك تحول في اشـور في الموقف من الجنسيـة المثلية، ذلـك ان القانـون الاشوري عدّ اتهام احد ما بالجنسية المثلية اتهاماً يعاقب عليه المدعي اذا لم يستطع اثبات دعواه بالجلد وبخدمة الملك لمدة شهر وبالجزاء المادي والخصي.

ومن اهم ما عنيت به قوانين حضارات ما بين الرافدين القضايا الجنسية المحرمة، وقضايا الانحراف الجنسي وخاصة الحيوانية. فقد نصت المادة ١٨٩ من قانون حمورابي: «اذا نكح رجل امه عوقب بالموت، واذا نكح ابنته عوقب بالموت، واذا نكح ابنه عوقب بالموت». ونصت المادة التالية ١٩٠: «. . اذا نكح رجل امرأة ابيه فليس هنالك من عقاب غير ان عقابه الموت اذا كان والده حياً. .». وفيما يتعلق بالعلاقة الجنسية مع الحيوانات فقد ادانت القوانين الممارسـة بشدة والى حد الاعدام (المادة ١٨٧ من قانون حمورابي) غير ان للملك حق التصرف بالحكم.

وفي سومر، وهي اقدم الحضارات القديمة المعروفة والمؤثـرة في حضارات تـالية لها، فقد

عدّت العلاقة الجنسية وحتى الدعارة من الفضائل العظمى في الكون. ففي كل مدينة في البلاد كان هنالك اله دعي (البعل)، ونظر اليه مصدراً للخصب في المدينة وما يحيط بها، غير ان الملك في المدينة قد عُدّ منحدراً من سلالة البعل وممثلاً له. وفي موسم الحصاد، وهو موسم يرمز الى خصب الارض ايضاً، كانت تجري احتفالات يمثل فيها الملك دور الاله البعل الذي انحدر منه والدخول في زواج مقدس مع ممثلة الربة عشتار والتي عدّت ربة الخصب والحب. وقد توالت تقاليد الزواج المقدس في الحضارات القديمة التي تلت الحضارة السومرية.

وعلى العموم فان النشاط الجنسي في حضارات ما بين الرافدين نظر اليه جزءاً من خصب الطبيعة، وهذه نظرة اباحت الممارسة لمعظم اشكال العلاقة الجنسية بدون تقييد ما عدا منع العلاقة الجنسية مع الحيوانات والمحرمات. ويبدو ان المهم في جميع الممارسات الجنسية لم يكن الفعل ذاته وانما ضرورة الالتزام بالنظافة والاحتراز من التعدي على الحقوق الزوجية والتي نظر إليها من جانب الزوج لا من جانب الزوجة. وهكذا يمكن اعتبار حضارات ما بين الرافدين القديمة حضارات ذات مواقف ايجابية من النواحي الجنسية وقد كان لهذه المواقف اثرها الايجابي او السلبي في المجتمعات التي عاصرتها او تلتها تبعاً لحاجات هذه المجتمعات وطبيعة حياتها. ولعل اهم الأثار لهذه المواقف هي ان معظم الحضارات التالية لحضارة وادي الرافدين قد تأثرت الى حد كبير بمواقف هذه الحضارة من الجنس واهمها: التركيز على الحقوق الزوجية للرجل. وجعل العلاقة الجنسية علاقة تخصيبية اكثر منها للاستئناس بالمرأة، وادانة العلائق الجنسية باقارب الدم (المحرمات)، ومع الحيوانات.

ان ما وصلنا من وصف حياة الانثى في هذه العصور قليل، والاقل من ذلك ما يتعلق بسلوكها من النواحي الجنسية. ومعظم ما لدينا من معلومات في هذه الامور مستمد من التشريعات القانونية التي اولت اهتماماً خاصاً باحوال المرأة من حيث الزواج والطلاق والحقوق المدنية المترتبة على ذلك، كما ان هذه القوانين قد عكست دور الانثى في علاقتها مع الرجل وتبنت لذلك درجات من هذه العلاقة وهي الزوجة وتحتل المرتبة العليا، وتليها السرية(السبية)، ثم الامة، ثم البغي. وقد انصب معظم التأكيد على الزوجة وعلاقتها مع زوجها والحقوق المترتبة لها من هذه العلاقة. وعدّت الزوجة الانثى امرأة حرة. لا يتم زواجها الا بموافقة والديها، كما كان لها حق رفض الخاطب لها، واعطيت الحق بالطلاق من زوجها اذا ما استطاعت اثبات ان زوجها قد اساء الى سمعتها او اهانها. وكان للزوجة في عقد زواجها ان تشترط عليه بان لا يتخذ لنفسه زوجة اخرى وهو في بلده، وان تشترط عليه ايضاً ان لا يبيعها او يضعها تحت العبودية اذا ما اضطر لذلك، غير انه توجب عليها صيانة نفسها والاخلاص لحياتها الزوجية وفرض عليها اشد العقاب عند تجاوزها لهذه القاعدة، كما فرض على الزوج عقاب مماثل في حالة الزنا مع زوجة آخرى. هذا ولم تشجع حضارات ما بين الرافدين الزواج من صغار الاناث، بينما اجازت للفتاة الشابة الزواج او ان تصبح كاهنة او تظل في بيت والديها. غير ان هذه الحضارات قد فضلت للفتاة ان تتزوج من ان تظل عانساً وان يكون زواجها مبكراً. ومع ان وضع الزوجة وامتيازاتها قد تباينت درجة في عهود مختلفة من هذه الحضارات، الا ان الزوجة ظلت تتمتع

بالدرجة الاعلى من الحرية والامتياز الاجتماعي . ومارست من الاعمال والمهام ما يمكن ان تحسد عليه من انثى الحضارات المعاصرة. ويلي الزوجة من بعد مرتبة الانثى السرية، او ما اصطلح عليه في الاشورية بلفظة (اسيرتو) ولعلها تقابل اللفظة العربية (اسيرة). وهي عادة امرأة اجنبية اسرت في الحرب، وابقاها آسرها في منزل خاص حرم عليها مغادرته الا بصحبة زوجة آسرها. وكانت بمثابة خليلة للزوج. وكان موقعها بين الزوجة من جانب والامة من جانب آخر، وفضلت على الامة وخصت بامتيازات وحقوق تفرقها عن الامة، من ذلك ان اطفالها يعدّون ابناء شرعيين، وكان للرجل حق الزواج بارادته من السرية ولم يكن لها حق الرفض. وتأتي الامة في المرتبة الثالثة. وقد عوملت بمثابة السلعة التجارية، تباع وتشترى ويستطيع مالكها التصرف بها كما يشاء الا اذا نصت العقود على بنود خاصة تحدد هذا التصرف. وكان لمالك الامة ان يعاشرها. وفي حالة انجابها للاولاد منه فقد نص القانون على اكتسابها واولادها الحرية عند وفاته، غير انها لم تعط حقوق المساواة، حتى ولو اصبحت محظية وانجبت الاطفال، مع سيدتها زوجة مالكها. والدرجة الرابعة هي درجة البغي او المومس وقد كان في بلاد الرافدين نوعان من البغاء الاول هو (البغاء المقدس) والثاني هو البغاء العام. فالبغاء المقدس اشتق اسمه من احتفالات الزواج الرمزية التي كانت تقام في رأس كل سنة بين عشتار وتموز. واطلق على هذا الزواج اسم (الزواج المقدس) واتخذ هذا الزواج نمطاً لسلوك مماثل بين الكاهن والكاهنة، وبين الكاهنات اللواتي نذرن الى الآلهة وبين الرجال من مختلف الطبقات. وقد نظر الى هذا النوع من الصلة مع البغي انه صلة مقدسة تقرب المتصلين الى الآلهة. وقد امتد هذا النوع من البغاء الى ممارسة النسوة من غير بغايا المعبد لهذه الصلة مع كهنة المعابد، وقد انتشرت هذه العادة في ادوار الانحطاط للحضارة البابلية مما حمل المؤرخ هيرودوتس الى الاعتقاد انه كان على كل امرأة بابلية ان تذهب مرة في عمرها الى معبد فينوس، وان تواقع اجنبياً. ومما يجدر ذكره ان مثل هذه العلاقة بين النساء والكهنة عرفت ايضاً في الحضارة العبرية.

اما النوع الثاني من البغاء فقد تراوحت النظرة اليه بين الاستهجان وبين القبول. كما يتضح ذلك من متابعة ملحمة جلجامش. وقد ورد في هذه الملحمة على لسان الصياد مخاطباً للبغي: «على الوحش الغر فن المرأة. . .». ويتضح من هذا القول ان الانثى قد خصت بفن خاص بها، وبان مفاتنها تخدم غرضاً غير مجرد الانجاب، فهو يتابع قوله

«ستنكره حيواناته التي ربيت قلة في صحرائه
اذا حظي بك وانعطف حبه اليك».

وقد مورس البغاء بنفس الاساليب والتنظيمات التي يمارس بها الآن في بلدان عديدة، غير انه خضع في حضارات ما بين الرافدين لقواعد تنظيمية تدلل على فطنة المشرعين لدوافع هذه الظاهرة الاجتماعية وضرورة تقيدها بالقوانين. واهم ما في الامر ان بعض حضارات هذا الوادي قد عدت البغاء مهنة مشروعة تحتمها ضرورات اجتماعية واقتصادية، غير انها في ادوار اخرى من هذه الحضارات عدّت نمطاً غير مستحب من العيش، او نظر لممتهناتها نظرة الخزي

والعار. هذا وقد اجازت القوانين في فترة او اخرى للبغي ان تتزوج وان تترك البغي، وجعل اولادها من الزواج ابناء شرعيين، غير ان المتزوج لم يسمح له بزواج ثان من البغي ما دامت زوجته في قيد الحياة، كما لم يسمح للبغي حتى ولو ولدت اولاداً من الزوج ان تشاطر الزوجة الاولى بيتها.

من متابعة كل هذا يتضح لنا ان الانثى فيما بين الرافدين كانت تتمتع بحرية واسعة بالمقارنة مع نظيرتها في مجتمعات تاريخية ومعاصرة أخرى، غير ان حريتها اقتصرت على النواحي الاجتماعية والاقتصادية، اما (الحرية) الجنسية فقد ظلت من امتياز الرجل، فهو وان توجب عليه احترام (حرية) المرأة الحرة (زوجته) وحصانة (الزوجة) الحرة لغيره، الا انه ابيح له ما اراده من الصلات الجنسية مع ما يملك من الامات او السرايا، او ما يشتهيه من البغايا، ولم يكن لزوجته حق الاعتراض الا في تلك الحالات التي يسيء فيها الى سمعتها او يسيء الى سمعته.

* *

لقد كان لنمط العلاقة بين الذكر والانثى في حضارات ما بين الرافدين اثر عظيم امتد الى حضارات اخرى معاصرة او تالية خاصة في الشرق الاوسط. ونجد آثاره واضحة في حضارة عرب الجاهلية الذين حافظوا على المظاهر الاساسية لهذه العلاقة، فهم قد خصوا الانثى الحرة (الزوجة) بالاحترام والامتياز، كما اباحوا للرجل حرية الاتصال بانواع النساء من الدرجات الاخرى التي عددناها في حضارات ما بين الرافدين، ولم يتغير هذا النمط كثيراً الا في صدر الاسلام: (ومما سنأتي على ذكره في فترة اخرى من هذا الفصل).

الحضارة التوراتية (العبرية)

اعتمدت هذه الحضارة نصوص التوراة. او كما قدمت به هذه النصوص، ومع ان التوراة، كغيرها من الكتب السماوية قد اعتمدت مقياساً واحداً في الحياة الجنسية وهو (العفة)، الا ان الفرد في الحضارة التوراتية قد اعتمد مقياساً ثنائياً في حياته الفعلية. ففي الوقت الذي منع فيه الجماع الجنسي في الزواج او خارجه، غير ان العقاب كان اكثر شدة للعروس غير الباكر او للزوجة الضالة، من العقاب الذي يلحق بالرجل في حالات مماثلة. وفي العلاقة بين الجنسين عُدّ الزواج هو المبدأ، ولم يكن هنالك مراعاة لما يسمى بالحب. وقد عومل الجنس ضمن اطار الزواج متعة خالية من الاثم، كما عدّ الزنا جريمة عظيمة تخل بحقوق التملك للرجل، غير انه سمح للرجل بان يتخذ اكثر من زوجة، وان يتخذ لنفسه المحظيات. وعلى عكس ما عدّ مثالاً في الديانة المسيحية، فان العفة الدائمة، لم ينظر اليها بارتياح في الحضارة التوراتية، غير ان جماعات من المتعففين والزاهدين اخذت تظهر في القرن الثاني قبل المسيح. وهذه الجماعات، كما جاء في وصف المؤرخ جوزيفوس: «قد نبذت اللذة على انها اثم، وثمنت القناعة، والغلبة على الهوى وعد ذلك فضيلة ، واهملت الزواج». وقد كان لهذه الجماعات ومعتقداتها اثرها في المجتمعات التي سبقت ظهور المسيح. فساد الكثير من التزمت الجنسي وفرضت القيود المختلفة

يز ذلك، ومنها تـأثيم لعب الاولاد والبنات، وسكن الام مـع زوج ابنتها في بيت واحـد، وظهور الاب عارياً امام اولاده، كما نظر الى المرأة بانها تكـون خطراً جنسيـاً، ومنع الاستمنـاء وعدت ممارسته خطيئة عظيمة، واستشهد في امر تحريمه بما ورد عن اوتان، في التوراة، وهو الذي قذف خارج فرج زوجة اخيه المتوفي، والذي امر بان ينجب منها ولداً. ولعل التحـريم لم يكن للعادة في حد ذاتهـا بقدر مـا كان للمحـافظة عـلى المني من التبديـد والهدر. ومـع ان الحضارة التوراتية قد اعتمدت وصايا النبي موسى، وتوقعت من المؤمن بها ان يلتزم بسلوك معين، والا جلب ذلك غضب الرب على المجتمع، الا ان تطبيق هذا الالتزام في النواحي الجنسية لم يكن ثابتاً، فقد تغير الموقف من هذه النواحي بما يتناسب مع الزمان والمكان ومع المجتهدين في هذه القضايا. ويلاحظ في هذا الامر اختلاف في المواقف من الممارسات الجنسية عند العبريين في فترة ما قبل السبي وبعده. وينظر الى هذا الاختلاف على انه حدث نتيجة لخوف اليهود من الاندثار في هوية المجتمعات السائدة وللابقـاء على هـويتهم. فقبل السبي لم يكن للعبـريين الا قـواعد جنسية بسيطة ادينت فيها بعض الممارسات الجنسية وعدّت لا اخلاقية. اما بعـد السبي وحتى ظهور المسيحية، فان اليهود قد تبنوا قواعد عديدة ومعقدة، جعلت من العلائق الجنسية عاملاً ينفذ في صميم الحياة اليهودية. ومن ابرز قواعد الحياة الجنسية التي وردت في التوراة التأكيد على الاثمار،كما يدلل على ذلك النص التوراتي (كونوا مثمرين وتكاثروا). ومتابعة المـواقف الجنسية عند اليهود من السبي وحتى ظهور المسيحية، يدلل على تفاعل قوتين هامتين. فهنالك الشعور بان الجنس لا يتحدد بواجب التكاثر وبان فيه متعة، وهنالك الخشية من ان مطاوعة هذه المتعة قد يؤدي الى فقدان الهوية اليهودية. ومع ان الغلبة في الظاهر قد جاءت في اتجاه تحقيق الابقاء على الهوية اليهودية، الا انها في الواقع قد ادت الى ظهور مواقف ومقاييس ثنائية تشجع الجنس من ناحية وتقيده من ناحية اخرى. فالموقف المعلن في هذه الفترة من تاريخ اليهود كان الرأي بان الجنس شر شيطاني وبأن الرجل ضعيف، وبانه ضحية لا حول له لفعـل الشيطان، وكـان من الطبيعي لذلك ان تقيد الممارسات الجنسية والى حد تفضيل الزهد والتعفف، ومن الناحية الثانية تنامي الشعور بحاجة الجنس لا للتكاثر فحسب بل للمتعة ايضاً، ووصل في المـراحل الـزمنية السابقة للمسيحية الى حد مجاهرة رجال الدين بان الجسد ليس شراً وبان المتعـة الجنسية حق، وخاصة ضمن اطار الزواج. والحضارة العبرية على العموم قد اكـدت على القـواعد السلوكيـة التالية في الامور الجنسية وهي: الحقوق الزوجية لكل من الزوج والزوجة. ولضمان هذا الحق للزوجة فقد توجب على الزوج ان يضاجـع زوجته حتى ولـو كانت عـاقراً، كما حددت التعاليم التلمـودية الحـد الادنى للمرات التي يتـوجب على الـرجل مضـاجعة زوجتـه فيها، كـما عدّت المضاجعة امراً لازماً مساء كل يوم جمعة. واكدت التعاليم على ضرورة طهـارة كل من الـزوج وزوجته وتأهيلهم للعلاقة الجنسية، وجعل الحيض عند المرأة، وقذف المني لاي سبب ما امـراً يتطلب التطهير. هذا ولم تكن هنالك قيود على طريقة او اوضاع العلاقة الجنسية بين الزوجين ما دامت تؤدي الى (الولوج). ولم تدن اليهودية العلاقة الجنسية بين غير المتزوجين، غير انها مجدت العـذرية في الانثى وشـددت في عقوبـة الزوجـة غير البكـر او الزوجـة الضـالـة. وفيـما يتعلق

بالممارسات الممنوعة، فان الديانة التوراتية قد ادانت تماماً موقف البابليين منها كما نص عليه قانون حورابي. ومما يجدر ذكره ان التقاليد العبرية القديمة قد اوقفت طقوس الزواج المقدس بسبب دلالاتها الوثنية في العبادة، وادانت معها الممارسات الدعارية التي كان الكهنة يقومون بها فعلاً بالزواج المقدس، ومن هذا تأتي الادانة للدعارة بصورة عامة، غير ان الادانة لا تشمل العلاقات الجنسية خارج الزواج. وعلى العموم فانه يمكن النظر الى الحضارة العبرية على انها كانت حضارة سلبية من النواحي الجنسية لكثرة ما ورد فيها من قيود، وهي قيود وضعت للمحافظة على الهوية للمجتمع العبري اكثر من اهتمامها بالمحافظة على المثل والتقاليد والقوانين والحاجات الانسانية بصورة فردية او عامة.

الحضارة المصرية (الفرعونية)

اتسمت الحضارة المصرية بالتسامح فيما يتعلق بالامور الجنسية، والى الحد الذي اقتصر على القليل من الموانع والتحديدات للممارسات الجنسية، فما منع منها كان يهدف فقط الى الابقاء على طهارة الطقوس الدينية، وهكذا منع زنا المرأة، ومنعت العلاقات الجنسية في المعابد الا بعد التطهير، ومنعت اللواطية في المعابد الهامة فقط.

كان المجتمع المصري، كغيره من الحضارات القديمة، يؤكد سيطرة الرجل على المرأة بما في ذلك النواحي الجنسية، فبينما حرم على المرأة المتزوجة الزنا ، فقد حرر الرجل من هذه القيود، وسمح بتعدد الزوجات وبالاحتفاظ بالمحظيات وخاصة لافراد الاسر الحاكمة وكبار رعاياهم. وعلى العموم فقد شجع الزواج المبكر للجنسين، وشجع الاحداث من الذكور على الممارسات الجنسية حتى قبل الزواج مع من توافر في زمنهم من العبيد من الاناث. ولعل مصدر هذا التسامح في الحضارات القديمة يعود الى النظر الى الطبيعة والالهة على انها عناصر جنسية. فالاسطورة المصرية القديمة عن بداية الخلق تقول ان الرب آتون قد قام بالاستمناء، وبنتيجة ذلك فقد قذف منيه، وبذلك كان مصدر ولادة كل شيء حي او غير حي في الكون. وفي اسطورة أخرى، فان ربة السماء (نوت Nut) ورب الأرض (جب Geb) هما في نكاح متواصل، ففي كل مساء يقوم (نوت) بابتلاع الشمس، ثم تقوم بولادتها من بين ساقيها في الصباح. وقد وجد المصريون القدماء في هذه الاساطير ما يدلل على الوضع الانساني، وبانه وضع نكاح وولادة، يقلد فيه الانسان الطبيعة والآلهة على حد سواء. وهكذا نظر الى الجنس والامور الجنسية على انها ناحية مقدسة، وان العلاقة الجنسية هي شكل من العبادة، ويجمع فيه الفرد بين الخصب وبين الجنس في عملية واحدة يعتمد فيها الواحد على الاخر ويساعد عليه. وينظر الى المصريين على انهم اول من مارس عمليات الختان لكل من الاطفال من الجنسين. ومن الممارسات التي انفرد بها المصريون الزواج بين الاخ والاخت. وفيما يتعلق بالممارسات الجنسية الاخرى، فهنالك ما يشير الى ممارستهم الجنسية المثلية والعلاقة الشرجية مع الاناث. ولا يعرف حتى الآن مدى القبول او الادانة لهذه الممارسات، غير ان بعض القيود التاريخية تنوه بان الجنسية المثلية بين الذكور لم تحبذ، وبانها تدلل على خنوع الذكر المفعول به والذي عُدّ سلوكه بسبب ذلك مخلاً

بشرفه. وانتشرت في مصر القديمة العلاقات الجنسية الحيوانية، كما عرفت الالباسية. وعلى العموم فان الحضارة الفرعونية كانت حضارة متسامحة في الامور الجنسية، واذا ما قام الفرد بواجبه في انجاب الاطفال فهو حر في ممارساته الجنسية على ان لا يستغل في ذلك حرية الآخرين.

الحضارة الاغريقية

تفاوتت وتعددت المواقف الاغريقية من الامور الجنسية تبعاً للزمان والمجتمعات التي وجدت فيه. وتراوحت هذه المواقف من التزمت الشديد الى الاباحية الحرة في الممارسات الجنسية. وقد كان الاتجاه الاخير هو الاتجاه الغالب على الممارسات الجنسية. غير ان الاتجاه الاول الزاهد في الجنس، وعلى قلة تبعيته، فانه كان الاتجاه الاكثر تأثيراً في الحضارة الاوروبية المسيحية فيما بعد.

ان الحضارة اليونانية، حالها حال معظم الحضارات الاخرى، ارتكزت على الرجل. ومع ان المرأة تمتعت في بعض الفترات بحرية اجتماعية واسعة، الا ان تلك الحرية تحددت ضمن السيطرة العائلية للرجل والذي توجب عليه حماية المرأة بوصفها زوجة واماً. وفي ذلك الزمن امتدحت مسالك الانثى التي عاشت بحشمة وادب قبل زواجها. اما بعد الزواج، فقد افترض ان مهمة الانثى هي انجاب الاولاد وخاصة الذكور. وكما بين ارسطو، فان العائلة بالمعنى الصحيح هي كائن حي يتطلب التجديد في كل جيل للبقاء ولاعانة الاحياء على البقاء.

وفي العلاقة بين الجنسين فان المرأة عدّت في عين الرجل بمرتبة متدنية. ويفسر بعض الباحثين هذه النظرة للمرأة في عين الرجل بانها نتيجة تخوف الرجل من المرأة وشعوره بالنقص حيالها، وجعل ذلك مسوغاً ومفسراً لاقبال الاغريق على الممارسات الجنسية المثلية بين الذكور. وهنالك تفسيرات اخرى لانتشار هذه الممارسات منها تحول العائلة من عائلة ممتدة، الى عائلة نووية، ومنها نشوء حضارة الشباب التي مجدت العلاقة بين الذكور وكره النساء.

ان الممارسات الجنسية الاغريقية قد اتخذت المسالك والمظاهر التي نجمت عن موقف الحضارة الاغريقية في الحياة ككل. وهو موقف يعزز مكانة اللذة في الحياة، ولم يجد الا القليلون ان السعي وراء ذلك يناقض الفضيلة الكاملة التي دعا اليها ارسطو في حياة الشخص الكامل. وحتى الآلهة في اساطيرهم، فانها سعت وراء اللذة، وان كان ذلك من اجل بني البشر. وفي اباحة السعي نحو اللذة فقد شجع ذلك خارج النطاق الزوجي، اما الزوجة فقد عدّت «وسيلة لانجاب اطفال شرعيين، وحماة مخلصين لمواقد البيوت». ولم يحدد الاغريق الممارسات الجنسية، فجعلوا الحيض امراً طبيعياً، ولم ينظروا اليه على انه شيء غير طاهر، وكذلك نظروا الى الاستمناء على انها ممارسة طبيعية في حالة تعذر وسيلة اخرى لتصريف الطاقة الجنسية. ولم ينظر باستهجان الى العلاقات الجنسية السابقة او التالية للزواج، وعلى العكس فانها قد شجعت. ولم تنظر الحضارات الاغريقية نظرة استهجان لتعرية الجسم، كما فعلت بعض الحضارات الاخرى،

فالاغريق على نقيض ذلك قد مجدوا الجسم، ورأوا ان الفرد يجب ان يكون خيراً وجميلاً في آن واحد، وان الجسم الجميل هو ضرورة للروح الجميلة. وهكذا وجدوا ان في تدريب الجسم تدريباً للروح ايضاً. ونحن نجد اثر ذلك ليس في آدابهم فحسب بل في آثارهم خاصة في التماثيل العارية، ومعظمها تصور الرجال والشباب والصبيان في عري تام.

لقد كانت الجنسية المثلية بين الذكور هي اهم مظاهر الحياة الجنسية الاغريقية، ومع ان هذه العلاقة من الحب مجدت، الا انها ادينت احياناً، ويفسر هذا التناقض بانه جاء بسبب حرص المشرعين على الابقاء على الممارسة في الحدود التي تبقي عليها بوصفها ممارسة رفيعة، فهم لذلك حظروها على العبيد وغيرهم من المواطنين الذين لم يعدّوا احراراً والذين لا يستحقون امتياز هذه الممارسة. وقد اتجهت الممارسة الجنسية من الراشدين الى الصبيان، واتخذت هذه الممارسة صفات الشجاعة والبسالة التي يتمثل بها الاكبر في العلاقة، والتمثل بهذه الصفات من قبل الحدث، وهكذا سوغت العلاقة بانها تعليمية تعطي الصبي حكمة وشجاعة الكبير، وهو التسويغ الذي نفذ الى حضارات اخرى وشجع على هذه الممارسة مع الغلمان: (الغلمانية). والباحث في الآثار الادبية والتاريخية للاغريق يجد شواهد كثيرة من نصوص وآثار كلها تشير الى مدى انتشار الجنسية المثلية خاصة بين الكبار والصغار، وقد عرف من سقراط وارسطو وافلاطون مثل هذه الممارسات وتمجيدهم لها، كما عرف عن غيرهم من الشعراء والفنانين والكتاب.

اما العلاقة المثلية بين الاناث، فلا بد انها كانت واسعة الانتشار في الحضارة الاغريقية بسبب عزلة المرأة واحكام الصلة في مجتمع الذكور الذي استثنيت منه المرأة. غير ان البينات عن انتشارها قليلة، ولعل ذلك يعود الى قلة الاهتمام بالممارسات الجنسية للانثى. واهم البينات عن الجنسية المثلية قد وصلتنا عن الشاعرة المشهورةصافومن جزيرة لسبوس، والتي اعطت الجنسية المثلية عند الاناث مصطلح اسمها (الصافية) او مصطلح مولدها (اللسبية). اما الدعارة، فقد كانت معروفة في يونان الاغريق بشكليها المثلي وغير المثلي لكل من الذكور والاناث، غير انهم على العموم لم ينظروا بارتياح الى مثل هذه الممارسات لانها كانت على العموم مقابل اجر، فهم عدّوا اية علاقة جنسية تتقيد بالمادة انها علاقة مكروهة وتتنافى مع الصالح العام. ومن الممارسات الجنسية التي عرفت (التلبسية)، ومارسها الممثلون على المسرح في بعض مراسيم الزواج وفي محاولات التخفي وخداع العين الحاسدة والشريرة وفي بعض مراسيم الاحتفالات. وعرف الاغريق الجنسية المخالفة وهي محاولة الفرد تغيير جنسه الطبيعي، وكانت اكثر المحاولات من صفات الانثى الى صفات الرجل.

* *

ولم يكن افلاطون وحده من بين فلاسفة الاغريق اهتماماً بموقع الحياة الجنسية من حياة الانسان، وان كان لآرائه في هذا الموضوع الاثر العظيم على تفكير من تلاه من الفلاسفة في الحضارة الاغريقية، وبالتالي في حضارات اخرى خاصة الحضارة المسيحية والاوروبية. ومن الذين تأثروا بافلاطون الفيلسوف دايوجنيس Diogenes احد فلاسفة المدرسة الفلسفية الكلبية

Cynics (في القرن الرابع ق.م) والذي دعا الى ان يقلل الانسان من رغباته الى الحد الذي لا بد منه للحياة، والى نبذ كل الرغبات التي فرضتها المدنية ومدح جميع اولئك الذين امتنعوا عن الزواج. ويروى انه اجاب عندما سئل عن افضل سن للزواج «بالنسبة للشباب، فان الوقت لم يحن بعد، اما بالنسبة للكبار. فابداً...». ومن الفلاسفة الذين ابدوا رأياً مماثلاً الفيلسوف زينو Zeno (٣٤٠ ـ ٢٦٥ ق.م) وهو احد مشاهير المدرسة (الرواقية Stoics)، الذي نادى بانه يتوجب على الانسان ان يعيش في محيط مادي، ولهذا السبب فان الغرائز والعاطفة ليستا بالضرورة مضادتين للحياة الصحيحة، ولكنه لا بد لهما من ان يخضعا للسيطرة. والجنس بالنسبة للرواقيين ليس شيئاً سيئاً في حد ذاته، ذلك لانه يؤدي الى التوالد، والتوالد ليس للجسم فقط، وانما للروح ايضاً، فالمبدأ المسيطر على الكون يعكس نفسه على اعضاء التوالد كما يفعل ايضاً على الاحاسيس، والبذرة الناتجة هي لذلك بذرة ربانية، والانسان يحكم عليه بالرغبة والصدود كغيره من الحيوانات، غير ان الانسان يسيطر على نفسه بالعقل، وعدم الاعتدال بالفعاليات الجسدية هو امر غير عقلاني، لان ذلك يجعل الفرد معتمداً على جسده. وبالنسبة لزينو فان الجماع مسموح به فقط اذا كان الغرض منه هو الانجاب، اما الجماع ضمن الزواج من اجل المتعة فهو امر غير مرغوب فيه، ولما كانت اللواطية (او العلاقة الجنسية مع فرد من مثلة جنساً) هي من أجل اللذة فقط، فانها قد ادينت وعدّت امراً شاذاً وغير طبيعي. ومن الرواقيين الذين اتخذوا موقفاً مماثلاً، الرواقي المتأخر تاريخياً سنيكا Seneca (القرن الاول ب.م) والذي رأى ان الرجال الحكماء هم الذين يحبون زوجاتهم بالحكمة وليس بالعاطفة، وينبغي ان يسيطروا على احاسيسهم وان لا يبادروا بسرعة للنكاح، فليس هنالك ما هو اردأ من ان يحب الرجل زوجته كمثل حبه للزانية. اما المدرسة الفيثاغورية الجديدة فقد رأت ان الروح في جوهرها هي في تناغم مع اللامادي والابدي، وان العالم والجسد كلاهما اعداء للروح. وارتأت المدرسة ان الجماع بين الجنسين هو لمجرد الخلق وليس من اجل اللذة، وان خلاص الانسان هو في تحرير الروح من قيود الجسد والاحاسيس. ومن اهم فلاسفة هذه المدرسة هما نيومينيوم Numenium (القرن الثاني ب.م) وبلوطونيوس (القرن الثالث ب.م) مؤسس المدرسة الافلاطونية الجديدة، فالاول رأى ان الخلاص الفردي يأتي غن طريق تخلي صاحبه عن النشاط الجنسي، لان مثل هذا التبرؤ من الجنس يحرر الروح من العاطفة ويؤدي الى حالة الوجد الروحي. اما بلوطونيوس، وهو الذي كان في حياته خجلاً من جسده الى درجة انه عدّ ابوته ومكان ولادته اموراً غير ذات بال، فقد استغرق في الزهد والتصوف، ورأى ان الخلاص هو في ان يتحد الفرد مع روح الكون، وطريق ذلك طويل وتدريجي ويجب الاعداد له عن سيطرة شاقة وطويلة، معنوية وعقلية، وبدون التدريب على مثل هذه السيطرة فان الروح لا تستطيع ان تكون قوية بشكل كاف لتحمل الوصول الى الاعالي التي يسكن فيها الخلاص، لتحمل الرؤيا الجميلة التي تظهر معها. ومن هذه الاقوال يتضح ان الفرد يجب ان لا يكون مكترثاً بالجنس. وقد شدد بورفري Porphyry تلميذ بلوطونيوس من موقف التشدد لمعلمه والى الحد الذي عدّ فيه العلاقة الجنسية امراً مداناً الى جانب اللذات الاخرى كركوب الخيل وارتياد المسرح والرقص وتناول اللحوم. وفي مدرسة الاسكندرية (في القرن الاول قبل الميلاد) اشتهر الفيلسوف فيلو Philo الذي تأثر بفلسفة

الرواقيين. ومن آرائه ان الطبيعة الاسمى للانسان هي طبيعة غير جنسية ـ وهي طبيعة مشابهة للرب، وان الخطيئة الاولى لآدم وحواء هي نتيجة الرغبة الجنسية ولذات الجسد، وان هذه اللذات كانت بداية للاخطاء وانتهاك القوانين، وفي اعتقاده ان الانسان في سبيل الجنس قد بادل الخلود والنعيم من اجل حياة خالية وتعيسة. ولعل من اهم آرائه، وهي الآراء التي اعتنقتها الحضارة المسيحية، هي ان الجنس له ما يسوغه فقط ضمن اطار الحياة الزوجية، وحتى في هذا الاطار فانه يجب ان يكون هدفه انجاب اولاد شرعيين لادامة الجنس، اما اولئك الذين يجامعون المرأة العاقرة فانهم في نظره يستحقون اللوم، ذلك لأنهم بسعيهم نحو اللذة «فانهم قد اتلفوا بذرة الخلق بصورة متعمدة»، وهكذا فان فيلو قد ادان كل علاقة جنسية لا تهدف او تؤدي الى الانجاب، كما ادان كل تجربة سلبية من هذا القبيل كاللواطية، وعدّها بين الذكور دليلاً للعبودية والعاطفة اللاعقلانية وان الفرد الذي يمارسها قد اصابته عدوى مرض الانوثة. فالانوثة بالنسبة له تمثل الادراك للاحاسيس والعالم المخلوق، بينما الرجولية فانها مثلت له الروح والعاطفة، ولهذا فقد مجد فيلو البكارة.

الحضارة الرومانية

لقد عرف عن الرومان اسرافهم في النواحي الجنسية، الا ان هذا الاسراف ظهر مصاحباً لفتوحاتهم، واتصفت به الطبقة العليا من حكام روما وارستقراطيتها ولا يمثل الممارسات الجنسية في الحياة العامة ومواقف الرومان من القضايا الجنسية. وتدلل معظم الابحاث عن الحضارة الرومانية على ان الرومان بينما وجدوا في الجنس والجسم متعة، الا انهم ادانوا الانحدار في الاخلاق. فقد كانوا على العموم متقيدين بالاخلاق، يحبذون العلائق الجنسية الطبيعية بين الرجل والانثى، ويحبذون الاعتدال، وخصوا بالانحراف والاسراف طبقة الحاكمين وامثالهم من علية القوم. وقد تعرَّض الرومان الى التأثير الاغريقي فترة طويلة من الزمن بما في ذلك النظرة التمجيدية والرومانطيقية للعلاقة الجنسية المثلية وخاصة بين الصبيان والكبار (الغلمانية). غير انهم اعرضوا عن تقليد هذا النهج الاغريقي وادانوا الممارسة، وعارضوا الرأي الإغريقي بأن هذه العلاقة تخدم غرضاً تعليمياً في المسيرة الحياتية للصبي. فالتعلم بالنسبة للرومان كان يعني احترام الاسلاف وعاداتهم واقتفاء اثرهم، وهم لذلك اكدوا على اهمية البيت وانه المكان الصحيح للتعلم، وعهدوا بذلك الى الام حتى السابعة بدلاً للعبد، وبعد ذلك يسند الى الاب مهمة تعليم ابنه، وحتى المعلمون عندما كانت تقوم الحاجة لخدماتهم، فقد عدّوا (معلمين) وليس (محبين) على خلاف ما كان عليه الحال في الحضارة الاغريقية. وعلى نقيض الاغريق ايضاً فان الرومان جعلوا الرياضة نوعاً من اللعب والتسلية، لا عملية اداء منافسة، ورأوا لذلك ان الرياضة يجب ان تكون تدريباً، وليس مجرد لعب، وانها يجب ان تهدف الى غايات اخلاقية في نفس الوقت الذي تهدف فيه الى غايات جسمية. وقد حاول الرومان جهدهم ان يعصموا انفسهم من المؤثرات الاغريقية على حياتهم الجنسية، فهم اكدوا على اهمية الزواج والاولاد، واتخذوا موقفاً مناهضاً للانحراف، ولم يتقبلوا اي نوع منه، ومع ذلك فقد عرفت بعض

الانحرافات في الحياة الرومانية مثل الجنسية المثلية واللسبية والالباسية والجنسية المضادة، غير انها كانت محدودة الانتشار، وتناولها الكتاب والنقاد بما تستحقه من الانتقاد والادانة. وكما كان الحال في الحضارة الاغريقية، فقد قامت في الحضارة الرومانية نزعة اتجهت نحو الزهد وعدّت التعاليم الرواقية بمثابة دين لها. ومن اهم تعاليم الطريقة الرواقية: ان الفضيلة هي ان يعيش الفرد في توازن مع العقل، فذلك هو الخير الوحيد، وبان الالم والموت ليسا بالشر الذي يظنه البعض، وان اللذة ليست هي الخير. وقد التقت هذه التعاليم مع آراء الفيلسوف الاغريقي الزاهد بلوطونيوس الذي حث على سلوك الامتناع عن جميع ملذات الجسد بما في ذلك العلاقة الجنسية، والذي رأى في اتباع طريق اللذة خطيئة. وعلى العموم فقد كان للرومان وقانونهم الحازم المحدد للسلوك، اثر اعظم على المسيحية من اثر الاغارقة المسرفين في امور الجسد وغير الشاعرين بالاثم.

الحضارة الهندية

ان النظرة للامور الجنسية في الحضارة الهندية القديمة قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بمعتقداتهم الدينية والفلسفية، وبالنظر الى ان هذه المعتقدات قد اتسعت وتنوعت، فان النظرة للامور الجنسية قد تنوعت واختلفت تبعاً لذلك. ومع ذلك فان هنالك بعض القواعد المركزية فيما يتعلق بالعلائق الجنسية والتي تعود بالاصل الى قانون (مانو)، والى الكتاب المقدس الاساسي (الفيداس)، وهو الكتاب الذي يعتقد الهندوس انه وجد منذ بداية الزمن. ومن هذا الكتاب النص بانه: «. . في البداية كانت هناك الرغبة، والتي كانت البذرة الاولى للعقل. . .». وبهذا وضعت الرغبة، والجنس منها، في المقام الاول في اصول الانسان، وبسبب هذه العقيدة فان الاساطير الهندية من ناحية والملاحم الشعرية من ناحية اخرى قد مجدت العلائق الجسدية، ورأت فيها امراً خيراً لا شراً، وكان لذلك كله الاثر الاكبر في تكوين النظرة التحررية نحو الجنس. غير ان الجنس مع ذلك قد عدًّ ممارسة خاصة. ومع ان الممارسة الجنسية قد جعلت ايضاً مصدراً هاماً للذة، وهو مصدر نظر اليه من جانب الرجل فقط لا من جانب الانثى، والتي عوملت مخلوقاً شهوانياً وصيداً جميلاً للرجل المفترس. وهكذا فقد نظر الى المرأة على انها اداة لارضاء عاطفة الرجل ومحطاًلبذوره . ومثل هذه النظرة لم تجعل من الانثى في موقف سلبي لتحقيق هاتين الغايتين، بل ان دورها في ذلك هو دور ايجابي يتوافق مع دور الرجل، ذلك انه كان ينتظر من الانثى ان تتهيأ وتدخل في العلاقة الجنسية طرفاً مماثلاً للرجل، وعدّت العلاقة في نهايتها نصراً للجانبين.

واضافة الى جعل الجنس وسيلة للتكاثر ومصدراً للذة، فقد نظر اليه ايضاً بمنظار سحري وروحي، واستعمل الهندوس الرموز الجنسية في التعبير عن الافكار الفلسفية. وحصيلة هذا الاهتمام هي النظر الى العلاقة الجنسية على انها علاقة نفسية روحية، فهي توفر للمشاركين فيها حالة من السعادة تتسم بالبساطة والواقعية، كما انها في نفس الوقت الوسيلة التي تظهر للمشاركين فيها سر العالم الخفي. غير ان ادراك هذا السر لا يمكن ان يتيسر للفرد الا اذا استطاع

تجاوز الحالة الجنسية في حد ذاتها والارتفاع فوق مستوى العاطفة. وقد نجم عن هذه النظرة ظهور التصوف والتعفف الجنسي بصورة واضحة في حياة الهندوس، غير ان ذلك تحدد في الذكور، بينما نظر الى العذرية في الانثى على انه شيء مكروه.

وفيما يتعلق بالعلاقات الجنسية التي تعدّ انحرافاً في حضارات اخرى، فان النظرة الهندوسية للجنس قد اباحت، او في الاقل فقد تسامحت، في امر ممارسة جميع الاشكال الممكنة من العلائق الجنسية بما في ذلك العلاقة عن طريق الفم والتي اعتقد بعضهم ان لها قوة سحرية، وبسبب هذا المعتقد فقد نظر الى اللسبية نظرة قبول وتسامح. اما العلاقة الشرجية فهي ايضاً علاقة ابيحت في الحضارة الهندوسية، ذلك لان الهندوس نظروا الى الشرج بوصفه منطقة تكمن فيها قوة عظيمة وعدّت في الواقع مركزاً للقوة النفسية في الجسم، واثارتها لذلك بطريقة او اخرى، سواء بالولوج بين ذكر واخر او بين ذكر وانثى، او بالوسائط الإخرى التي تعوض عن الصلة المباشرة بين فردين، فان لهذه الممارسة ان تنشط القوى الفنية والشعرية والروحانية. وهكذا فان اللواطية لم تعدّ انحرافاً، وان كان قانون مانو قد بين ان الفرد الذي يمارس اللواطية يفقد منزلته الطبقية، كما نص ايضاً على ان ذلك الذي يفرط برجولته فانه يفقد نذره، وعليه ان يكفر عن اثمه بالاستجداء سبعة ايام وهو يلبس غطاء من جلد الحمار. واغلب ما يجيء هذا التفريط هو بالاستمناء الارادي، او بالقذف اللاارادي، غير ان هذه التعاليم في قانون مانو لا تتوافق مع ما عرف عن الاله الهندوسي (كريشنه) الذي عرف بانه مارس الاستمناء للحصول على الذروة. ومن الممارسات الجنسية التي لم تحرم في الحضارة الهندوسية القديمة (الحيوانية)، وعلى العكس فقد نظر الى الحيوان على انه اعظم شهوانية وحساسية من الانسان. وهكذا فقد ظهرت بعض الطقوس اليوغية التي تمكن الفرد من ان يتقمص حالة الحيوان لكي يستطيع العلاقة مع الحيوان، وبهذا التمكن من التمتع الكامل بالتجربة الجنسية. وقامت في الهند بعض المجتمعات التي تمارس طقوساً دينية تتخذ من العلاقة مع جسم الميت رمزاً لها، غير ان هذه المجتمعات وجدت في نطاق ضيق ومحدود، واتسمت الممارسة بالرمزية اكثر منها بالرغبة الجنسية في حد ذاتها. وانتشرت في الهند الممارسات الالباسية ولم تعدّ هذه ممارسة يعاقب عليها مرتكبها من ذكر او انثى. ويفسر ذلك على اساس المعتقد ان كل ذكر او انثى فيه عناصر من كل من الجنسين، فالرجل فيه غلبة من عناصر الذكورة والانثى فيها غلبة من عناصر الانوثة، والاتجاهان، الذكري والانثوي في الفرد الواحد ذكراً او انثى هما في صراع دائم. غير انهما يصبحان في توافق تام لفترة قصيرة فقط اثناء العلاقة الجنسية وعندما يحقق الشريكان حالة المطلق في الوجود. ويعتقد الهندوس ان الرجل يحقق هذه الحالة اكثر من الانثى. وهذا يفسر الظاهرة بان الالباسية اكثر وقوعاً عند الذكور منها عند الاناث. ان من الواضح مما اشرنا اليه وغيره الكثير من الممارسات الجنسية ومسوغاتها، ان الهندوس قد اولوا للجنس مكانة هامة جداً في حياتهم واكسبوها مفاهيم روحية وسحرية واسطورية. ويمكن القول بانهم في وقت او آخر وبتعليل او آخر وفي طبقة اجتماعية او دينية، قد اجازوا كل طريقة واسلوب من العلائق الجنسية الممكنة. واذا امكن استنباط الاسس الاولية لهذه المواقف من الامور الجنسية، فهي اولاً: ان

الهندوس، حالهم حال الصينيين، عدّوا بذور الذكر شيئاً مقدساً، ولا يقتضي لذلك التفريط بها، فكما جاء في احد تعاليمهم (ان الارض هي جوهر هذه الكائنات، ومن جوهر الارض الماء، ومن جوهر الماء النباتات، ومن جوهر النباتات الازهار، ومن جوهر الازهار الثمار، ومن جوهر الثمار الانسان، وجوهر الانسان المني). ومن هذا المبدأ نشأت حالات التسامح مع اي ممارسة جنسية ما دامت تبقي على حيوية الذكر. فكل رغبة في معتقدهم هي رغبة مقدسة، وليس هنالك من اثم في مطاوعتها اذا ما كان العقل صافياً. واذ سحب عن هذا التأكيد على الذكر، النظر الى عفته نظرة ايجابية، اماالانثى فقد نظر الى عذرها بعدم الرضا، ذلك انها عدّت مخلوقاً شهوانياً، وغير قادرة على تبني القواعد العليا اليوجية . .

الحضارة الصينية

هنالك شبه كبير بين المواقف الهندوسية القديمة والمواقف الصينية القديمة من الامور الجنسية. والمبدأ الذي اخذ به في الحضارة الصينية ان الجنس هو الوسيلة التي يبلغ الفرد الخلود عن طريقها. ولهذا فليس هنالك من محاذير او موانع لاية ممارسة جنسية ما دامت لا تؤدي الى هدر الطاقة التي تحقق غرض الخلود. ولهذا فان الجنس لم يعدّ اثماً، وانما شيئاً يمكن عبادته. وحتى اللواطية فانها لم تدن في حد ذاتها، وانما ادين حصر الجنس باللواطية لان ذلك يعطل عملية الانجاب، وهو الامر الذي يمنع ظهور نسل جديد يعيد الاسلاف.

الحضارة المسيحية

للحضارة المسيحية مواقف عديدة ومتباينة من الامور الجنسية وذلك تبعاً للفترة الزمنية التي مرت بها هذه الحضارة، وللموقع الجغرافي لها كما يتضح ذلك من بعض اوجه الاختلاف الهامة بين مواقف الكنيسة الشرقية (البيزنطية القديمة)، ومواقف الكنيسة الغربية. ولسبب تعدد واتساع واختلاف هذه المواقف في الحضارة المسيحية فان من الصعب اختصارها بصورة واضحة، وفيما يلي بعض الملامح الاساسية لهذه المواقف والتي تنحدر في مجملها من موقف نظري واحد وهو النظر الى الجنس نظرة اثم وعداء، وهذا الموقف كما هو متوقع، قد اصابه الكثير من التعديل والتحوير بتأثير الاطار الحضاري والاجتماعي والديني الذي تعرض له.

١ ـ في القرون الاولى من حياة الكنيسة الشرقية ساد مبدأ التزمت في الامور الجنسية، فالجنس عدّ خطراً واثماً بصفة خاصة، وحث الرهبان على البقاء يقظين في وجه الاغراء الجنسي، ذلك ان مفتاح الحياة الفاضلة هو الزهد الجنسي المطلق. غير ان هذا الموقف قد تبدل فيما بعد، ومالت الكنيسة الشرقية الى السماح بزواج رجال الدين في الوقت الذي اصرت فيه الكنيسة الغربية (اللاتينية) على منعه. وفيما يتعلق بالحياة الجنسية العامة للناس، فلم يكن هنالك موقف واضح معلن من قبل المؤسسات الكنيسية. وهنالك ما يفيد بان العديد من الممارسات الجنسية قد انتشرت بين عامة الناس بما في ذلك الجنسية المثلية بين الذكور، غير ان الممارسة في حد ذاتها جعلت امراً خطراً وجريمة عظمى، وخاصة اذا وقعت على الصبيان وتعاقب بالموت، وهي عين

العقوبة للمتهم بارتكاب الزنا. وعلى العموم فان اهم مظاهر الفترة البيزنطية من الحضارة المسيحية فيما يتعلق بالأمور الجنسية هي الحجب الشديد بين الجنسين مما شجع الجنسية المثلية وانتشار الخصي والعبيد والمحظيات في المجتمع البيزنطي.

٢ ـ اتخذت الكنيسة الغربية في القرون الاولى من العصور الوسطى موقفاً متشدداً ومتزمتاً من القضايا الجنسية، وعاملت كل علاقة جنسية على انها اثم، غير انها عدّت اقل تأثيماً اذا ما اقتصرت على اغراض الانجاب، وعدّ ما عدا ذلك اثماً بصرف النظر عن غرض وطريقة العلاقة الجنسية او الارضاء الجنسي. اما سلك الرهبنة من الجنسين فقد حرم عليهم ممارسة الجنس بأي طريقة والى اي حد. ومع هذه القيود المشددة، الا انه كان من المستحيل تطبيقها بالكامل وبصورة ناجحة خاصة في مجال العلاقات الجنسية المثلية.

٣ ـ في القرون التالية من العصور الوسطى قامت اتجاهات متضاربة من المواقف نحو الامور الجنسية، فمن ناحية عدّ الجنس شيئاً سيئاً وشراً وتجب ادانته ويقتضي تجنبه والتحسب منه، ومن ناحية اخرى قامت اتجاهات تحبذ الجنس وتشجع ممارسته. والمواقف التي ادانت الجنس من حيث المبدأ، عدّت كل انحراف جنسي ضرباً من الكفر ويعاقب صاحبه تبعاً لذلك.

٤ ـ منذ القرن الخامس عشر، بدأ تحول في الفكر المسيحي في اتجاه متباعد تدريجياً عن العقيدة التقليدية بان الزهد الجنسي هو الطريق لرضا الله. وقاد مارتن لوثر هذا الاتجاه الاصلاحي والذي لا يرى في الجنس خطيئة اكثر مما يمكن ان يوجد من خطيئة في افعال اخرى. ونظر المعتقد اللوثري الى الزواج على انه ضرورة قائمة في الطبيعة الاساسية للانسان، وانه حالة صادقة وسماوية وروحية. واعطى لوثر للمرأة في الزواج معاني اخرى غير معاني الانجاب، ومعاني اللذة وذلك في قوله: «تصور ما يمكن ان تؤول اليه الحياة بدون هذا الجنس، فالبيت، والمدن، والحياة الاقتصادية والحكومة، انها كلها ستختفي. ان الرجال لا يمكن ان يكونوا بدون النساء، وحتى ولو استطاع الرجال ان يحملوا وان ينجبوا الابناء. فانهم مع ذلك لا يستطيعون الاستغناء عن النساء. . .». وقد عارض لوثر العلاقة الجنسية خارج الزواج، وعارض ايضاً الدعارة والزنا، غير انه اتخذ نظرة اكثر اعتدالاً في موضوع تعدد الزوجات، ولكنه فضل ان يقدم الزوج عند الحاجة على اتخاذ خليلة بدل اتخاذ زوجة اخرى. وفيما يتعلق بالزنا فقد عارضه، غير انه رأى انه ما عدا الحالات التي يكون فيها الزنا مفضوحاً ومتكرراً، فانه يجب ان تبذل المحاولات لانقاذ الزواج. وقد اجتذبت اللواطية اهتماماً خاصاً من لوثر، فعدّ الممارسة انحرافاً وخروجاً عن قانون الطبيعة، وهو القانون الذي جعل الجنس في خدمة الخلق. وتلا كلفن لوثر في اجتهاداته في الامور الجنسية، واتخذ موقفاً اكثر انفتاحاً في بعض الامور واكثر تشدداً في امور جنسية اخرى. فهو لم يجد في العلاقة الجنسية خطيئة، وانما أمراً شريفاً ومقدساً لانه يقوم في مؤسسة ربانية، الا انه كان وجلا من ان عنصر اللذة في الجنس قد يكمن فيه عامل من عوامل الشر وفساد الطبيعة الانسانية، غير انه لم يجد في اللذة في حد ذاتها خطيئة ما دام الانسان يسعى اليها ضمن غايات الانجاب وبناء المجتمع. وبهذا فان كلفن حاله حال لوثر اعطى للجنس

غايات ايجابية واجتماعية، وزاد عليه في جعل الحاجات الاجتماعية اهم من الغايات الانجابية، ودعا الى متعة الزوجين بحرية في علاقاتهما الزوجية على شريطة الالتزام بالحشمة والاتزان والتوافق مع المركز الاجتماعي. وتوصل كنفن الى النظر الى الزوجة على انها رفيق وانيس للزوج، فالله في نظره لم يخلق الانثى لكي تكون مجرد شريك للانسان في عملية الانجاب، ولا علاجاً لحاجاته الجنسية والتي جاءت بسبب افساد الطبيعة الانسانية عند السقوط (سقوط آدم وحواء من السماء)، وانما المرأة هي رفيقة الرجل التي لا تنفصل عنه في الحياة او الفراش على حد سواء. ولعل اكثر الانحرافات الجنسية التي دانتها المسيحية بشدة هي الممارسات التي عدّت خروجاً على قانون الطبيعة، وهي العلاقة مع الحيوانات (الحيوانية) والجنسية المثلية بين ذكرين (اللواطية)، وبين انثيين (اللسبية)، والتي ادين ارتكابها جميعاً بالموت، تبعاً لبعض نصوص القوانين الدينية والمدنية، والتي قلما طبقت بحذافيرها.

الحضارة العربية والاسلامية

تعود اصول الحضارة العربية الى حياة عرب الجاهلية قبل الاسلام، ولهذا فان البحث في الحياة الجنسية في الحضارة الاسلامية لا بدّ أن يحيط بمعالم هذه الحياة عند عرب الجاهلية، ومثل هذه الاحاطة ضرورية أيضاً في بحث المواقف الجنسية في الحضارة الاسلامية، ذلك لأن الدين الاسلامي قد نزل اول ما نزل بتعاليمه المختلفة على عرب الجاهلية، وهو مجتمع لم يكن خالياً من العادات والتقاليد والممارسات والمواقف من الامور الجنسية. والباحث في هذا الموضوع بموضوعية، يجد ان الدين الاسلامي قد ابقى على الكثير من التقاليد الجنسية القائمة في المجتمع الجاهلي، غير انه قيد الحياة الجنسية بقواعد دينية، كما انه قد غير من بعض هذه المواقف، فادان البعض وحور في غيرها، وجمع ذلك في قواعد سلوكية اجتماعية تنظم العلائق الجنسية بصورة واضحة لا لبس فيها.

عرب الجاهلية والجنس

مصادر البحث عن عرب الجاهلية كثيرة، وهي تعتمد في معظمها على الرواية والنصوص الشعرية والنثرية التي تواترت روايتها، والكثير من هذه النصوص يفتقر الى الاسناد، وهنالك ما يثبت ان الكثير منها هو من خلق وخيال اناس عاشوا بعد انتهاء عصر الجاهلية وفي صدر الاسلام، غير ان هنالك من البينات ما يثبت وجود ممارسات ومواقف معينة من الامور الجنسية في المجتمعات الجاهلية، وان كان يصعب التقرير حول مدى انتشار هذه الممارسات ومدى ما لاقته من قبول او رفض من هذه المجتمعات.

ان الباحث في الآثار الادبية من شعر ونثر وقصص من مخلفات حضارة عرب الجاهلية يلاحظ بجلاء ان عرب الجاهلية قد اشغلوا انفسهم في مجالين رئيسين من النشاط، اولهما العنف، وثانيهما الجنس. وقد وردت لغة وعدة كل منهما بما لا يقل عن ورود لغة وعدة الآخر على السنة الشعراء والحداث والرواة، والى الحد الذي فاضت فيها تعابير ومعاني الواحد منهما على

الآخر والى استعارة بعض هذه التعابير والمعاني للتعبير عن كليهما. وربما لا يكون من الصعب تفسير هذه الظاهرة من الانشغال بهذين المجالين بصورة خاصة ومتوافقة، وبعض التفسير لذلك قد يكمن في الاساس البايولوجي لكلتا العاطفتين: العنف والجنس، فكلتاهما تسيطر عليهما مراكز عصبية متجاورة ومتداخلة في الدماغ، مما يسهل اثارة الواحد منهما باثارة الآخر والى تبادل الادوار بينهما. وبعض هذا التفسير تجده ايضاً في طبيعة حياة عرب الجاهلية، وهي طبيعة بدوية صحراوية خالية مما يمكن ان يشغل النفس من شؤون الحياة العديدة، ومما يمكن لهذه الشؤون ان تستنفده من الطاقات الحياتية للفرد، وبسبب هذا التحديد في حياة العربي الصحراوي، فلم يبق له الا مجالات محددة يمارس فيها كل طاقاته ونشاطاته، والجنس والعنف هما اكثر هذه المحاولات انفتاحاً وتيسراً امامه، ولهذا نراه يكرس طاقاته واهتماماته فيهما والى حد الهوس القسري. ولعل مما ساعد على ضرورة هذا التكريس خلو الصحراء وامتدادها، وطول الزمن وخلوه من المتغيرات، وهي ظروف وحالات قد تهلك الذي يعايشها في حياته. ولعل البدوي قد وجد في المرأة وجسدها، وفي الغزو وعدته، ما يحرك الحياة في نفسه، والا لهلك في كثبان من الرمل والملل.

وفي محاولة فهم ممارسات ومواقف عرب الجاهلية في الامور الجنسية فلا بد من الافتراض انهم قد توصلوا الى هذه الممارسات والمواقف طبقاً لضرورات الحياة وظروف البيئة التي عاشوها، وهذا لا ينفي انهم تأثروا بفعل ممارسات ومواقف حضارات اخرى اتصلوا بها عن طريق الغزو او التجارة او العبادة. وان كان من المنطقي تغليب فعل طبيعة الحياة على فعل الاتصال بحضارات اخرى.

ان اهم ما تميز به عرب الجاهلية هو انهم نظروا الى المرأة والعلاقة معها نظرة متحررة ومتفتحة. فامعنوا في وصفها وفي التعبير عن الحاجة او المتعة في الوصل بها، ولم يجدوا في الاباحة عن هذه الحاجة او المتعة اي حرج او خجل او حاجة للتستر، وهو موقف لم ينحصر في الرجل فقط، وانما شمل الانثى ايضاً، والتي وجدت مجالاً واسعاً للتعبير عن رغباتها وآمالها وميولها نحو الرجل. وكثرة النصوص حول هذا الموضوع تؤيد الاستنتاج بان مواقف مماثلة من التحرر في الامور الجنسية قد سادت المجتمعات الجاهلية. ومن الامثلة التي تدلل على هذا التحرر ظاهرة التعدد الهائل في الزوجات، وانتشار الزنا والبغاء، وانتشار الممارسات التي عدّت محرمة في تقاليد حضارات وديانات اخرى مثل الزواج بين اب وابنته، والجمع بين الاختين في الزواج او النكاح، ونكاح زوجة الاب، كما عرفت ممارسات عجيبة كسماح الزوج لزوجته من ان تنكح من شخص آخر عرف بقوته وشجاعته طمعاً في ولد يخلفه له مثل هذه الصفات، كما عرف تبادل الزوجات او ما عرف بنكاح البدل. ومن الانحرافات الجنسية التي عرفت اللواطية والسحاقية والخنثية والحيوانية.

الاسلام والجنس

نزل الدين الاسلامي اول ما نزل على عرب الجاهلية في مجتمعهم الحضاري والبدوي،

وعلى خلفية من التحرر والانفتاح والانشغال في الامور الجنسية. واتخذ الدين الاسلامي في القرآن اولاً، وفي الاحاديث من بعد ذلك، موقفاً ايجابياً من النواحي الجنسية. فالاسلام لم يدن الجنس كما ادانته بعض الحضارات والديانات الاخرى، وهو لم يَنْه عنه. وعلى العكس فانه ابقى على الكثير من مكانة الجنس التي عرفت في الجاهلية، واكسبها فوق ذلك مفهوماً اجتماعياً وانسانياً ونفسياً جديداً. وقد تناول القرآن الكريم الجنس والمواقف منه في آيات عديدة وفي سور متعددة، وفي هذا التأكيد على اهمية الجنس في الحياة الانسانية. وقد بين القرآن بوضوح نواحي الاهمية للحياة الجنسية في الحياة، من تكاثر، ومتعة، ومصاحبة، واستئناس. وهو شمول يتوافق تماماً مع المفاهيم العلمية والمثالية عن موقع الجنس في الحياة. غير ان القرآن، وان ابقى على ولع وحب العرب للجنس، الا انه هذب هذا الحب والولع، ونظم التعبير عنه بقواعد ونواميس معينة، اعطت للجنس قدسية وخصوصية، وابعدته عن مجال التبذل والانحراف، وحد من التطرف في ممارسته بما يخرج عن حدود المعقول، وادان المحرم منه باشد العقوبات. ولعل من المتعذر في هذا البحث المختصر ايراد جميع ما ورد في القرآن الكريم من اشارات عديدة حول موضوع الجنس. فقد وجد الخالق في الجنس متعة، وذلك في قوله تعالى (فما استمتعتم به منهن فاتوهن اجورهن فريضة)، وقوله: (وانكحوا ما طاب لكم. . .) وان (يخفف عنكم). ووجد القرآن بان حبس الطاقة الجنسية فيه معاناة، واجاز لذلك اطلاق هذه الطاقة بنكاح ما ملكت الايمان: (من لم يستطع منكم طَوْلاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت ايمانكم). وقوله تعالى في ما يخفف به الجنس من النفس: (يريد الله ان يخفف عنكم). ووجد القرآن في الزواج أهم علاقة جنسية ممكنة، وخص هذه العلاقة بالايناس بقوله تعالى: (وجعلنا لكم من أنفسكم أزواجاً لتأنسوا. .). وقوله أيضاً (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن إليها.). كما أدان بشدة وتكرار العلائق الجنسية التي تتعدى على الحقوق الجنسية في الزواج بالزنا. غير ان القرآن قد جعل اثبات وقوع الزنا أمراً يكاد يكون متعذراً حاله في ذلك حال اقامة العدل عند الزواج بأكثر من واحدة. واجمل القرآن الكريم المحرمات الجنسية في آية واحدة من سورة النساء.

ولم يتناول القرآن الكريم بتوسع وتفصيل مختلف الانحرافات الجنسية، غير ان مما وردت الاشارة اليه هو انحراف اللواطية. ومع ان القرآن لم يدن هذه الممارسة مباشرة، الا انه لا بد من الاستنتاج بان ما حل بقوم لوط من عقاب فيه التنويه الكافي بادانة اللواطية بين الذكور. ومثلها من الانحراف بين الاناث (السحاقية). ولم يدن القرآن كما انه لم يجز (الغلمانية)، ولعل الوعد بمكانة الغلمان في الجنة، ما يمكن تفسيره بانه دعوة للانصراف عن هذه الممارسة في الحياة الدنيا. ومع ان القرآن لم يتخذ موقفاً واضحاً من العلائق الجنسية بين الرجل والمرأة الا انه أجاز للرجل ان يأتي حرثه كيفما شاء.

* *

ان القرآن الكريم لم يتناول كل شيء، ولم يتخذ موقفاً نحو كل حالة من حالات الممارسة الجنسية. غير ان ما لم يرد نصه او تفصيله في القرآن الكريم، فقد تناولته الاحاديث النبوية.

وليس هنالك من مجال لا يراد جميع هذه الاحاديث خاصة وان المتواتر منها قليل، ويتعذر الاعتماد كلياً على اصالة الآف الاحاديث غيرها. وهناك بطبيعة الحال الاجتهادات، والتفاسير المختلفة، والتي وردت على لسان الكثيرين من المجتهدين والمفسيرين والعلماء والائمة، والتي لا بد من عدّها جزءاً من العقيدة الاسلامية، وعاملاً مؤثراً في تكوين الحضارة الاسلامية. ومن تأمل جميع هذه المصادر ابتداءً بالقرآن الكريم ونزولاً منه الى الحديث والاجتهاد والفتوى، فان الباحث لا بد ان يجد ان الديانة الاسلامية نظرت الى الحياة الجنسية نظرة ايجابية خالية من التزمت وشجعت الجنس في الحياة، غير انها في نفس الوقت حددته بم يتلاءم مع حاجات المجتمع والاخلاق.

* *

ان الحياة الجنسية في الحضارة الاسلامية لم تتمثل في كل ادوار هذه الحضارة بالتعاليم الاسلامية، ذلك ان العرب بعد القرن الاول من الهجرة قد خرجوا بصورة فاضحة على القواعد والنواميس الاسلامية في ممارسة حياتهم الجنسية، وكان بعض خلفائهم مثالاً احتذاه عامة الناس في تقليد اسرافهم ومباذلهم وانحرافاتهم الجنسية والتي بدت في عصر الامويين، وازدادت عنفاً وصخباً وخروجاً على المألوف في زمن العباسيين. والمتتبع لهذا الموضوع يجد ما يذهل من دلائل الانغماس والانحراف في النواحي الجنسية. وقد يصعب على الباحث ان يوافق بين حياة مبتذلة كهذه، وبين معالم الحضارة التي عرفت عن مثل هذه العصور. وفي تعليل هذه الظاهرة، فان الباحث لا بد ان يتطرق الى بحث عدة عوامل تفسيرية فاما ان تكون هناك مبالغة عظيمة في رواية هذا الاسراف الجنسي، او ان هنالك مبالغة في التقييم الحضاري لهذه الفترات التاريخية. وهنالك احتمال ثالث وهو ان التحرر الجنسي كان عاملاً فاعلاً في اطلاق الطاقات الابداعية التي اتصفت بها هذه العصور وقبل ان يصل فعلها الى ما هو مألوف من تداعي الحضارة وانهيارها بفعل الجنس كما حدث في الامبراطورية الرومانية والامبراطورية اليونانية وفي غيرها من الحضارات، واخيراً فهنالك احتمال وجود التسامح الجنسي جنباً الى جنب مع نزعات التزمت والتقيد بالتعاليم الاسلامية الصحيحة في ظل حضارة واحدة متعددة الجوانب. وفي رأينا ان هنالك ما يسوّغ الاخذ بمقدار من جميع هذه التفسيرات. ومهما كان حظ جميع ما روي عن التحلل والانغماس الجنسي في العصور الزاهية من الحضارة العربية والاسلامية، من الصدق ومطابقة الواقع، فان ما روي قد اساء الى الحضارة الاسلامية واتخذه اعداء الاسلام والعرب برهاناً وذريعة للطعن في تعاليم الدين الاسلامي.

ان التمعن في النصوص الدينية الاسلامية من قرآن وحديث في موضوع الحياة الجنسية يظهر ماحملته هذه النصوص من غاية وحكمة، مما لم يتوافر عليه اي دين او معتقد آخر. فقد اعطت هذه النصوص للجنس مكانته ومعانيه في الحياة، واخذت بعين الاهتمام الحاجات العظمى للجنس من بايولوجية واجتماعية ونفسية. وهي الحاجات التي دعا الدين الانساني الى تلبيتها وملاقاتها بالقدر المعقول والاخلاقي والانساني.

الحضارة المسيحية

تمتد الحضارة المسيحية منذ بدايتها حوالى الالفين من السنين. ومن الصعب لذلك اعتماد موقف واحد في فترة من هذاالتاريخ الطويل كمثال ينطبق على المجتمعات التي تقع تحت ظل الحضارة المسيحية. وعلى العموم فان موقف هذه الحضارة، خاصة في بدايتها، يمكن عدّه تواصلاً مع المواقف التوراتية، او على الاصح استمراراً لمواقف التعفف التي اتصف بها المتزهدون المتعففون في القرنين السابقين لظهور المسيحية. ففي مطلع المسيحية ساد مقياس واحد للحياة الجنسية بدلاً من المقياس الثنائي الذي عرفت به الحضارة التوراتية، وقضي هذا المقياس بمبدأ انكار اللذات الجسمية، وعدّت هذه اللذات بمثابة تحول وانحراف عن الامور الروحية، ودعت الديانة الى التعفف والامتناع عن الجنس لكل من الذكر والانثى، ونظرت الى هذا الامتناع مثلاً اعلى، كما نظرت الى كل علاقة جنسية على انها شيء دنيء، وحتى الزواج وانجاب الاطفال فقد نظر اليهما بعدم القبول وعدّا دليلاً على انهماك الانسان بحاجاته الدنيوية.. وقد دعا القديس بولص، مؤسس الكنيسة المسيحية، وكان متزهداً ومعتصماً عن الزواج، الى الالتزام بما اختطه لنفسه في قوله: «.. اقول لغير المتزوجين والأرامل ان الخير لهم ان يظلوا عازبين مثلي. ولكنهم اذا لم يستطيعوا ممارسة ضبط النفس، فعليهم الزواج. فذلك افضل من ان يشتعلوا بنار الهوى». وظل مثل هذا المبدأ قائماً. وازداد قوة في القرون التالية. وبوصول القرن الثامن ظهرت التعليمات الكنسية التي اتخذت ثلاثة مواقف صارمة ومحددة من الامور الجنسية، اولها، يقضي بان الزهد الجنسي هو السلوك المثالي. وهو فرض على الرهبان وبان العذارى كلهن عرائس المسيح، وبان العذراء ترتكب خطيئة بالزواج، ولكنهن اذا تزوجن فان عليهن ان يتعففن حتى في الزواج الى اقصى حد ممكن. اما المبدأ الثاني فيقضي بان كل علاقة جنسية مهما كان نوعها هي علاقة آثمة محرمة ما عدا تلك التي تمارس لغرض الاخصاب والانجاب. وتطبيقاً لهذا المبدأ فقد عُدّت العلاقة الجنسية اثماً اذا ما حدثت من اجل المتعة او لغرض آخر غير الانجاب، كما عُدّت كل علاقة اخرى خارج نطاق الزواج اثماً مماثلاً. وعُدّ اثماً حتى الذي يستحلم في نومه، ودعا الى ضرورة انشاد مقاطع من الانجيل تكفيراً عن ذنبه. ومما ادين ايضاً الاستمناء وعدّه القديس توما الاكويني (القرن الثالث عشر الميلادي) اكثر خطيئة من الزنا. اما المبدأ الثالث الذي اعتمدته الكنيسة فهو تحديد الممارسة الجنسية الزوجية المشروعة في حد ذاتها فحرمت الجماع ايام الاحد والاربعاء والجمعة، وحرم الجماع ٤٠ يوماً قبل عيد الفصح وقبل عيد الميلاد، وقبل ثلاثة ايام من الحيض وأثناء الحمل، وفي الأيام الأربعة الأولى بعد الولادة. وخلال أي فترة من فترات التوبة. وقد ظلت هذه القواعد قائمة بدرجات متفاوتة من التطبيق خلال القرون الوسطى، غير انها شهدت الكثير من مظاهر الخروج عليها. ومع الجواذب للخروج عليها بشكل او آخر، الا ان شعور الاثم قد توطن في المجتمعات المسيحية بسبب هذا الخروج حتى في اضيق حدوده وهو الزواج. وما زال هذا الشعور فعالاً في الحياة النفسية للكثيرين في هذه المجتمعات سواء فطنوا لذلك او لم يعوه في انفسهم. وفي عصر الرنيسانس حدث بعض التحرر في الممارسات الجنسية وخاصة في حياة الذكور، ويفسر ذلك بانه يمثل في آن واحد ضعف الكنيسة،

وبسبب نظرة مجتمع الرنيسانس لنفسه، بانه الوريث والامتداد للحضارة الاغريقية المتحررة. وفي العصر الفكتوري (عهد الملكة فكتوريا) الممتد حوالي القرن التاسع عشر بكامله سادت مواقف متزمتة من السلوك الجنسي، ووضعت قيم معينة لهذا السلوك منها ان المرأة بطبيعتها لا تجد متعة في الجنس، بينما الرجل، لسوء الحظ، يندفع بالجنس، وان الرجل الذي يسرف في الجنس يعرض نفسه لمرض (الافراط في المني). وهكذا فان المرأة المحتشمة تقي زوجها من هذا المرض. وعُدّت المرأة على العموم بدون رغبة جنسية، (وبانها تخضع لمتطلبات الرجل لارضائه)، وانها لولا رغبتها في ان تصبح اماً لاسعدها ان تكون بعيدة عن انتباهه. وهكذا فليس لرجل قلق او واهن ان يهاب الزواج بسبب فكرة مبالغ فيها عن المهام المطلوبة منه، فالمرأة المتزوجة لا رغبة لديها في ان تعامل على نفس المستوى الذي تعامل به الخليلة. ومع هذا التحديد الواضح لدور المرأة والرجل في ذلك العصر، الا ان الكثيرين من الطبقات الارسطقراتية والعاملة قد خرجوا على القاعدة، وان كان هذا الخروج في السر وفي حياة الرجل اكثر منه في حياة المراة. غير ان الكنيسة ظلت تحتفظ بمثلها المتواصلة عن الحياة الجنسية ونظرتها الى الجنس على انه الخطيئة الاولى، والذي لا يسوّغ الا بالزواج ومن اجل الانجاب فقط.

العصور الحديثة

بانتهاء العصور الوسطى، وهي العصور التي سادت فيها سلطة الكنيسة، بدأ الاتجاه نحو قيام السلطات الدنيوية بتشريع القوانين والاحكام المتعلقة بالامور الجنسية وبتطبيقها وتنفيذها. وقد تفاوتت الدول الاوروبية في درجات التشدد التي تضمنتها هذه القوانين والتي بلغت من القسوة احياناً مما يزيد على التشريعات الكنسية. وتمثل فرنسا والمانيا وبريطانيا الاتجاهات الاساسية في موضوع الجنس والعلاقات الجنسية.

ففي فرنسا حدث تطور هام في النظر الى الامور الجنسية بنتيجة الفكر الثوري الفرنسي الذي حرك الثورة الفرنسية، فالغيت عقوبة الاعدام للمخالفات الجنسية. كما نص القانون الجنائي والمعروف بالقانون النابليوني، ومن اهم ما ورد في هذا القانون ان السلوك الجنسي مهما كان نوعه ومع اي كان، هو سلوك لا يعاقب مرتكبوه اذا ما تم بين اطراف متراضية راشدة وبدون علانية. وحتى العلاقات الجنسية المنحرفة فقد عُدّت جريمة فقط في تلك الحالات التي يخل بها بشكل صريح بالآداب العامة، او عند توافر العنف، او تمت بدون التراضي، او كان احد طرفيها غير راشد او غير قادر او غير كفوء على ممارسة حق الموافقة او الرفض. اما في المانيا في ذلك الزمن، فقد حذت بعض مقاطعاتها حذو فرنسا، شأنها في ذلك شأن اسبانيا والبرتغال والرومان وروسيا وامريكا اللاتينية. غير ان بروسيا اكدت موقفها المتشدد وابقت عقوبة الاعدام على الجرائم الجنسية. وفي انجلترا قامت معارضة للقانون النابوليوني، ولم يؤخذ بتسويغ التراضي بين الطرفين المشاركين في السلوك الجنسي المخالف للطبيعة، والذين اقتضت معاقبتهم. غير ان القانون الانجليزي ظل مبهماً مدة طويلة بشأن تحديد ماهية السلوك الجنسي «المخالف للطبيعة». ومع تعدد المحاولات لاصلاح القانون الانجليزي بشأن الامور الجنسية،

الا ان اخلاقيات القرن التاسع عشر المتزمتة، قد حالت دون التوصل الى تغيير جذري في القانون ما عدا ازالة العقوبة بالاعدام على المخالفات الجنسية سنة ١٨٦١. ولعل اهم ما عني به الرأي العام الانجليزي في هذه الفترة هو موضوع الجنسية المثلية بين الذكور، وهو الموضوع الذي اشغل رجال القانون والسياسة ايضاً. وقد كان لمحاكمة الكاتب المعروف اوسكار وايلد وادانته بتهمة اللواطية مع اللورد الفرد دوجلاس، اثر كبير في التشجيع على بحث العلاقات الجنسية بشكل عام والانحرافية منها بوجه خاص، كما كان لحالة مماثلة في المانيا اتهم فيها فردريك كروب، احد المتعاقبين على رئاسة ادارة مصانع كروب المشهورة بصنع الاسلحة، بممارسة اللواطية.

القرن العشرون والجنس

ان معظم واهم التحولات في المواقف التقليدية من الامور الجنسية قد حدثت في القرن العشرين. وبعض هذه قد جاءت استمراراً لما حدث من تطور في هذه المواقف في القرون القليلة الاخيرة. غير ان معظم ما حدث من تغيير في المواقف من الجنس والسلوك الجنسي قد جاء بفعل عوامل تقنية، تظافرت كلها في احداث عملية التطور والتبديل. واهم هذه العوامل في نظر الباحثين هي الحركة التحليلية النفسية التي بدأها فرويد، والحربان العالميتان الاولى والثانية، وتحرر المرأة، واكتشاف عقاقير منع الحمل وابحاث كل من كنزي وماسترز وجونسون، وتعدد وانتشار الوسائل الاعلامية، والسياحة والسفر.

لقد بدأ القرن الحالي بثورة جديدة في الامور النفسية، وكانت الحياة الجنسية محور هذه الثورة. ومع ان بذور هذه الثورة قد وقعت قبل فرويد، الا انه كان لنظرياته وكتاباته وما اثارته هذه النظريات والكتابات من تأييد او معارضة الاثر الاعظم في اخراج الحياة الجنسية من حيز الظلام والكتمان الى حيز البحث الصريح. ويربط فرويد الحياة الجنسية بالحياة النفسية للفرد منذ الطفولة الصغيرة وحتى الكبر، وفي احوال الصحة والمرض، فقد بات من المتعذر ايقاف البحث في هذه الرابطة. وقد اتسع مجال هذا الربط ليتجاوز الامور الطبية والتربوية الى النواحي الاجتماعية والثقافية والحضارية وغيرها من المجالات، والى الحد الذي اصبح فيه من المتعذر ايجاد مجال حياتي لا يربط بالجنس بصورة مباشرة او غير مباشرة. وقد وجد الكتاب والفنانون والروائيون في موضوع هذه الرابطة مجالاً واسعاً للتعبير عن خيالاتهم والتي بدورها عدّت ظاهرة من ظواهر الارتباط بين الجنس والابداع. ومع ان الكثيرين في وقتنا هذا لا يؤمنون بحرفية نظريات فرويد، وخاصة في موضوع الجنسية الطفولية وعقدة اوديبوس وكبتها، الا ان القليلين منهم يستطيعون نفي اهمية الحياة الجنسية في تكوين الحياة النفسية الطبيعية او المضطربة في الانسان، وهكذا فقد اصبحت الحياة الجنسية لاي فرد مجالاً يقتضي تقصيه للوصول الى فهم صحيح وكامل لحياته خاصة في حالة اصابته بمرض نفسي او بانحراف سلوكي.

وقد كان للحربين العالميتين الاولى والثانية اثر كبير في تحرير الفرد في الحضارة الغربية من القيود الضيقة على حياته الجنسية. وقد جاء ذلك لا بسبب ما يمكن ان يصاحب الحروب من

حاجة وتبذل في الحياة الجنسية، وانما ايضاً بسبب ما نجم عن هاتين الحربين من شعور باليأس وخيبة الامل في القيم الانسانية ومصير الانسان. مما لقي منفذاً للتخفيف من وطأة حدة هذه اليأس وخيبة الامل بالانهماك الجنسي.

وفي القرن العشرين تعزز موقف الانثى في الحياة الاجتماعية ونالت قسطاً وافراً من الحقوق التي حرمت تقليدياً من التمتع بها. وقد كان لهذه الحركة التحريرية اثرها في الحياة الجنسية، ذلك ان الانثى اصبحت تنظر الى نفسها على انها شريكة كاملة في هذه الحياة لا مجرد تابع عليها ان تخضع لرغبات الرجل ونزواته وانانيته. ولعل من اهم عوامل الانفتاح على الامور الجنسية هي ابحاث كنزي ومعاونيه في الحياة الجنسية للذكر والحياة الجنسية للانثى. فقد كانت نتائج ابحاثه ثورة في حد ذاتها، وكانت المعلومات التي تمخضت عن استبياناته بمثابة كشف مذهل عما خفي من الحياة الجنسية والتي يعيشها الناس بالفعل. ومع ان ابحاث كنزي كانت محدودة في مداها، وممثلة على احسن تقدير للمجتمع الامريكي فقط، الا ان ما تبعها من دراسات في امريكا وفي غيرها من البلدان، قد ايدت كلها ان حقيقة حياتنا الجنسية وكيفية ممارستها تبان فقط فيما تخفيه وليس في ما هو معروف ظاهرياً وتقليدياً عن هذه الحياة. وتلت ابحاث كنزي ابحاث ماسترز وجونسون، وهي ابحاث علمية دقيقة، نقلت المواضع الجنسية من مجال التقشف الجاهل الى مجال البحث العلمي الرصين، كما انها وفرت للمصابين بعطل جنسي من الجنسين افضل وسيلة علاجية عرفت حتى الآن، وتوفير هذه الفرصة تطلب بالضرورة اقبال الفرد ومقاومته على الكشف عن دقائق حياته الجنسية، وهو ما لم يكن متوافراً حتى الآن.

ومن الامور التي ساهمت في تغيير وتطوير المواقف من الامور الجنسية اكتشاف موانع الحمل. ولعل من اهم نتائجها هي انها جعلت للانثى حقاً في السيطرة على علائقها الجنسية، كما انها دللت بصورة واضحة على ان الجنس لا يخدم فقط ضرورة التخصيب والتكاثر فقط وانما يخدم غرض اللذة والمتعة ايضاً وفي حد ذاتها. ومن الطبيعي ان يكون للسفر والسياحة ووسائل الاعلام اثرها على الحياة الجنسية وموقف الفرد منها، فتوافر هذه العوامل الفعالة في حياة الملايين من البشر قد جعل من الممكن تحرر الكثيرين من القيود الاجتماعية في حياتهم الجنسية، وفسح المجال للمحاكاة والتقليد في التصرف والسلوك الجنسي.

ان هذه المؤثرات كلها لا بد انها افادت من حيث انها رفعت الحجاب والقناع عن حقيقة حياتنا الجنسية، وبانها كشفت عما كان الكثيرون يتمثلون به في حياتهم الجنسية من اعتناقهم لمقاييس ثنائية ذات حدين، وهو اعتناق فيه الكثير من الرياء والنفاق. وقد كان من حصيلة ذلك توافر نظرة واقعية وعلمية لهذه الناحية الهامة والمهملة في حياة كل انسان. غير ان الانفتاح والتحرر في مجال الحياة الجنسية لم يكن حتى الآن بدون عواقب سلبية، فالثورة الجنسية قد نجم عنها اتجاه نحو التسامح والاباحة في السلوك الجنسي في الكثير من الاجتماعات، وما صاحب ذلك من ظهور واتساع انواع عديدة من الانحراف، سواء في المجال الجنسي او في نواحي اخرى سلوكية ترتبط مع هذا المجال. وقد بات يخشى من ان يفلت زمام المعقول من امر حياتناالجنسية،

وان يؤدي ذلك الى ابتذالها وافتقادها لروعتها وقدسيتها ومعانيهـا الاساسيـة، وهـذا هـو مـا نلاحظ بوادره او قيامه في مجتمعات كثيرة. ولعلنا سننتظر زمناً طويلاً قبل حدوث ردة في هذا الموضوع او التوصل الى درجة متوازنة وسليمة في النظر الى حياتنا الجنسية تجمع بين التحرر من الكبت وبين صواب الفهم.

الحضارات البدائية المعاصرة

يتوقع الباحث ان يكون السلوك الجنسي وما تعلق بالحياة الجنسية من تقاليد وعـادات، متشابهة في المجتمعـات البدائيـة. وذلك بـالنظر لقـرب نموهـا الحضاري مـع اصول الحضـارة الانسانية، الا ان دراسة عدد كبير من هذه المجتمعات يشير الى وجود تباين عـظيم في مظاهـر الحياة الجنسية بين هذه المجتمعات، مما له ان يدلل اما عـلى ان هذه المجتمعـات هي في ادوار متباينة من نموها الحضاري، او ان هنالك امكانيات انسانيـة عديـدة للسلوك الجنسي يمكن لمن يسلكهـا الانسان في مجتمـع او آخر، وهـو الاحتمال الاصـح. وفيما يـلي بعض انمـاط السلوك الجنسي في الحضارات البدائية المعاصرة:

١ ـ حضارة من الكبت الجنسي ـ انيس بياج Inis - Beag

قام بدراسة الحياة الاجتمـاعية والجنسيـة في هذا المجتمـع (مسنجر ١٩٧١). والمجتمـع المذكور هو مجتمع صغير يسكن جزيرة بالقرب من ايرلندا سكانها كلهم من الكـاثوليـك، وهم فقراء الحال ويعملون في الزراعة. وقد افادت الدراسة بأن الزواج، والامتنـاع عن الجنس فيما عداه، هي القاعدة المتبعة. ويؤمن المجتمع بالخرافات، ومنها عين الشر، واللعنة، والنميمـة. ويعتقد افراد المجتمع ان الرجل يميل الى الجنس، امـا المرأة فـانها تقبله على انـه واجب. وهم يفسرون القوة الجنسية للرجل عـلى انها نتيجة لاستهـلاكه الاكـثر من البطاطـا. وتتم العلاقـة الجنسية بدون مداعبة مسبقة، كما ان من غير المفروض ان تحصل المرأة على الذروة، والتي يعدّ حصولها عليها نوعاً من الانحراف والشذوذ. ويعتقد الرجال ان الجماع ينهكهم، وهم لذلـك يتجنبونه قبل العمل، وتعتبر بعض الفعاليات الطبيعية امراً معيباً كالحيض، والتعري، والتبول، والتغوط، وجميعها لذلك يجب ان تتم في السر. هذا ولا يتداول الناس الفكاهات عن الجنس، كما ان الاناث والذكور يفصلون عن بعضهم في المدرسة والكنيسة وحتى في مجتمعات الكبـار. هنالك مظاهر اخرى من الكبت تدلـل على ممـارسة السيـطرة على الشهـوة الجنسية كـالتعري لاستمناء، واللمس، والتعابير الجنسية او التنويه بها.

٢ ـ حضارة معتدلة التحرر الجنسي ـ البالا Bala

قامت بدراسة هذا المجتمع الحضاري الافـريقي في الكونغـو الباحثـة (مريـام ١٩٧١). ويتألف هذا المجتمع الصغير من العاملين في الزراعة والصيد والمتاجرة. وفي هذا المجتمع تتحدد الادوار الجنسية بوضوح، فلكل من الرجال والنساء عملهم، والذين يتخـطون الخط الواضـح

والفاصل بينهما يعدّون غريبي الاطوار. وتعدّ المرأة في هذا المجتمع خاضعة لسلطة الرجل، غير ان سلطة الرجل تضعف بعد سنين طويلة من الزواج. وهذا المجتمع هو اكثر تسامحاً من المجتمع السابق في الامور الجنسية، وهو اقل تزمتاً وخجلاً في التحدث بالامور الجنسية، والافعال والاغاني الشعبية تزخر بالتعابير والتنويهات بالامور الجنسية. وتبيح هذه الحضارة التعري بين افراد الجنس الواحد غير انها تجده معيباً فيما اذا حدث بين افراد الجنسين. ثم ان هذه الحضارة تتقبل عدم التوافق بين القواعد المعلنة للسلوك الجنسي، وبين ما يحدث بالسر، ما داما لا يختلطان. وتتقبل هذه الحضارة العبث الجنسي للاطفال بما في ذلك الاستمناء الجماعي.
ويمارس هذا المجتمع ختان الاحداث بين سن ٧ ـ ١٢، وهم يعدّون مداعبة الحدث للندبة الحادثة بسبب الختان ممارسة لعب يتدرب فيها الحدث على الاثارة الجنسية ويعدّونها رمزاً جنسياً.
وينظر الى الرجل على انه (المتعدي) في العلاقة الجنسية، غير ان المرأة عليها ان تظهر بأنها هي التي اصطادها الرجل. وللرجال مواصفات خاصة يتطلبونها في النساء، كحجم الثديين، وهويداء المشي، وهز الارداف، كما ان الاختيار للزواج يقوم على اساس التوافق في المظاهر الجسمية بين الرجل والمرأة. وهنالك بعض مظاهر التنويع في العلاقة الجنسية بما في ذلك العبث الجنسي السابق للعلاقة الفعلية. ولا يجيز هذا المجتمع الزنا ويعدّه جرماً عظيماً. غير انه يدرك ان العلاقة الجنسية عند الجنسين ربما لا يكون مناص منها عند غياب احد الطرفين مدة طويلة جداً.
والمجتمع يعدها مشكلة اذا نجم عن العلاقة حالة من الحمل. غير ان العرف يجيز للرجل الطلاق في مثل هذه الحالة، ولا يجيزه للمرأة. وعلى العموم فان هذا المجتمع يظهر تمسكه بقاعدتين نحو الامور الجنسية، الاولى تحتم الامتثال العلني للقوانين المرعية، والقاعدة الثانية تجيز او تتساهل في تطبيق هذه القوانين خاصة اذا ما كانت بعيدة عن العلنية. وبهذه المواقف والممارسات الجنسية، يكون هذا المجتمع اقرب ما يكون للمجتمعات الغربية المعاصرة التي تحتفظ بمقياسين في النظر للامور الجنسية المقياس المعلن، والمقياس غير المعلن، وان كان هذا المجتمع الحضاري البدائي اقل رياء في قبوله بهذين المقياسين.

٣ ـ حضارة الاباحة القصوى ـ مانجاي Mangaia

قام مارشال ١٩٧١، بدراسة الحياة الجنسية لهذه الجماعة التي تقطن احدى جزر كوك في اواسط بولنيزيا في جنوبي الباسفيك. وهذا المجتمع يتصف بحرية فائقة في الممارسات الجنسية، غير انه يضع قيوداً على العلاقات والصداقات العلنية بين الجنسين. فالاطفال من الجنسين يفرقان عن بعضهما منذ سن الثالثة، ويحظر على البنات والاولاد الاختلاط، غير ان من المقبول ان يتجول الحدث (المختون) عارياً. كما ان النكات الجنسية في حلقات اي من الجنسين تجد استحساناً ويشجع الاتصال الجنسي الخفي عند البلوغ، بما في ذلك الاستمناء قبيل البلوغ.
ومع ان هذه الحضارة تعبس على المظاهر الرمزية العلنية للجنس كالتقبيل والعناق، ومسك الايدي وتبادل الهدايا، الا ان انها تتسامح في قيام الجنسين بمختلف العلاقات الجنسية في السر، وفي هذا دليل على ان الحضارة تطبق مقياسين للسلوك الجنسي، العلني والسري. ومن اغرب النظرات للامور الجنسية، هو ما توليه هذه الحضارة من اهتمام وتقدير للعاطفة التي تربط بين

الجنسين، فهي بينما تقدر وتمتدح وتشجع التعاطف الذي يلي العلاقة الجنسية، الا انها على العكس، تستغرب وتدين مظاهر التعاطف التي قد تحدث مقدمة للعلاقة الجنسية. ويلقن الاطفال من الجنسين الحقائق الجنسية، ويدربون على تقنية المتعة الجنسية بين سن ١٣ ـ ١٤ سنة، وهي تقنية فيها الكثير من الرموز الجنسية من حركة وصوت. وتدرب الانثى على ان يكون دورها ايجابياً في العلاقة الجنسية والا عدّت منحرفة. وبينت الدراسة ان المرأة تصل الى ذروتها في جميع العلائق الجنسية. ومع الحظر العلني على التعامل المباشر بين الجنسين، الا ان وسائل التعامل السرية متعددة بما فيها الزحف الليلي، عندما يسعى الذكر الى شريكته في بيتها تحت جنح الظلام، وهو سلوك يعدّ مقبولاً ان لم يكن مشجعاً. ولا يمانع الاهل في ان تعاشر ابنتهم اكثر من رجل. ويعدّونها تجربة لازمة للمستقبل، وهم يعتقدون ان الحمل يأتي من الجماع المتكرر مع رجل واحد لا بسبب الجماع مع عدد من الذكور، ثم ان الاب البايولوجي للطفل ليس بالضرورة هو الزوج الشرعي، فمثل هذا الزواج يقوم على اسس القرابة والملكية والشخصية والعمل. وكما هو متوقع، فان الجنسية المثلية غير معروفة او انها نادرة في هذا المجتمع.

٤ ـ ٤ ـ مجتمع الداني Dani عديم الاكتراث بالجنس

من المجتمعات البدائية مجتمع الداني في غينيا الجديدة الغربية، وهو مجتمع غريب في سمات حياته الجنسية. فهو يتصف بعزوفه عن الجنس والى حد عدم الاكتراث. وقد قام بدراسة هذا المجتمع العالم الانثروبولوجي كارل هيدر (١٩٧٦). وجاء من ملاحظاته: ان الرجال كالنساء، لا يبدون اي اهتمام يذكر بالنواحي الجنسية. وفي النادر في حياة المجتمع ان يقوم احد بعلاقة جنسية تسبق الزواج، او بعلاقة جنسية خارج نطاق الحياة الزوجية، او بعد انتهاء الزواج بسبب الموت او الفراق او الطلاق. كما ان الاستمناء غير معروف تقريباً. وتقام مراسيم الزواج مرة كل (٤ ـ ٦) سنوات في مراسيم جماعية. هذا ولا تقوم اية علاقة جنسية بين الزوجين في خلال السنتين الاوليين من الزواج وحتى ان تمكن الزوجان من السكن في بيت مشترك خاص بهما، وفيما بعد فان العلاقة الجنسية تتم بين الزوجين في فترات متباعدة، كما ان هنالك عادة الامتناع عن الجنس لمدة (٤ ـ ٥) سنوات بعد ولادة الطفل. والدانيون لا يظهرون اية دلالة في حياتهم تشير الى اهتمامهم او توجههم نحو الجنس. والاستثناء الوحيد هو في سن المراهقة، عندما يعبر المراهقون عن اهتمامهم الجنسي عن طريق الاعمال الفنية والموسيقى. ومن الملاحظات التي أوردها الباحث عن هذا المجتمع البدائي العشائري هو تميز افراده بقلة انفعالاتهم العاطفية. فهم قليلو الغضب، هادئو الطبع ولا يمارسون العنف في علاقاتهم العامة، كما انهم لا يحملون في انفسهم شعور الحقد والكراهية.

وفي محاولة تحليل هذه الظاهرة السلوكية النادرة في الحياة الجنسية اتجه البحث الى فعل المقررات البايولوجية كالهرمونات، وفعل المحيط، وفعل العوامل الحضارية، وقد استبعد اثر العاملين الاولين، ذلك انه لم يثبت وجود اي نقص او اختلاف هرموني عما هو مألوف، كما ان

المحيط الجغرافي بكليته لا يبدو مضاداً للاتجاه الجنسي. ولهذا فان من المعتقد ان قلة الدوافع الجنسية في هذا المجتمع قد نجمت عن فعل عوامل حضارية ادت الى اضعاف فعل الجنس والضعف في الحياة النفسية لهذا المجتمع.

٥ ـ مجتمعات حضارية بدائية أخرى

قامت مارجريت ميد Mead (١٩٣٥) بدراسة مقارنة على عدد من المجتمعات الحضارية البدائية. ووجدت مجتمعين في الأقل يقل فيهما الفارق بين دور الذكر ودور المرأة في العلاقة الجنسية وما يتصل بها من هوية. فوجدت في قبيلة ارابش Arapesh في غينيا الجديدة، ان كلاً من المرأة والرجل يتسمان باللطف والمراعاة وبالشكل الذي تتصف به الأنثى في المجتمعات الغربية. بينما وجدت في قبيلة ماندوجومور Mundugumore في البلاد نفسها، ان الجنسين لهما صفات الذكور في المفهوم العام من حيث العنف وعدم المراعاة. ولاحظت ميد مجتمعاً ثالثاً في نفس البلاد، تشامبولي، والذي يبدو بمقاييسنا المألوفة منحرفاً، فالرجال هادئو الطبع، ومتواكلون على المرأة، ولا يطالبون بالحاجة الجنسية، بينما المرأة تبدو متسلطة، ومستقلة وعنيفة الجنس.

الفصل الرابع والعشرون

الحب والجنس

* المفاهيم التاريخية للحب
* الاغريق والحب
* الآراء الدينية واللاهوتية
* الشعر والحب
* علم النفس والحب
* الحب والبايولوجيا والاجتماع
* الحب علمياً
* اصناف الحب
* الامكانية الحركية للحب
* الحب والحاجات الانسانية
* تصنيف ابن حزم الاندلسي للحب
* الحب عند الرازي
* الحب العذري
* الحب الافلاطوني
* الحب الرومانسي
* الحركة الرومانسية والحب
* الحب النرجسي

الحب والجنس

قد ينزه بعض الناس الحب عن الجنس، ويرى آخرون عكس ذلك تماماً من ان الحب كله جنس. فاين الحقيقة من هـذين القطبـين المتباعـدين في الرأي؟ ومـع ان الكثيرين من النـاس يحملون الرأي بوجود تفاعل بين العاطفتين، الا ان طبيعة واسباب وغايات هذا التفاعل ما زالت غامضة. ومرد ذلك ان الحب حاله حال الجنس، له ان يظهر بمظاهر مختلفة، وله ان يجمع بين اكثر من مظهر في آن واحد، ولهـذا فانـه يقتضي لباحـث في العـلاقة بـين العاطفتـين ان يعين بالتحديد المظاهر ذات العلاقة المشتركة بينهما، او ان يذهب الى ابعد من ذلك فيعين الاصـول المشتركة التي تنبع منها العاطفتان، ان وجدت هذه الاصول.

ان الذي يبحث في تاريخ الجنس قد لا يخطىء كثيراً في التوصل الى مفهوم عام ومتواصل لهذه الناحية من الحياة الانسانية، وان كنا في هذا العصر اكثر ادراكاً من اي وقت مضى للصور والمظاهر المختلفة للحياة الجنسية من نوعية او رمزية، وهو الادراك الذي وسع من مفهوم الحياة الجنسية الى حدود ابعد بكثير من مجرد الرغبة الجنسية الواعية والارادة نحو تحقيقها. اما الباحث في تاريخ الحب، فانه يجد منذ البداية تنوعاً في فهم هذه الظاهرة وفي اسبابها ولمشكالها، كما انه يجد ما يكفي من الادلة على ان الانسان في الحضارات القديمة قـد فطن الى ان بعض اسبـاب واشكال وغايات هذه العاطفة تقـع ضمن مجال العـاطفة الجنسيـة وغايـاتها، وبهـذا تكون اراء القدامى في هذا الامر اول ادراك بان بعض الحب جنس، وبان الجنس يتخذ طرقاً غير مباشرة، ورمزية للتعبير عن وجوده في بعض الادوار والحالات، وبهذا التنويه فان القدامى كانوا اول من اعطى للجنس اكثر من مظهر واحد للتعبير، وهم لذلك اعرق من فرويد في نظريته التحويلية

للطاقة الجنسية من مجراها الجنسي المباشر الى مظاهر تعبيرية اخرى.

* *

سيكون من المتعذر على أي أحد حتى ايجاز اهم ما قيل وكتب عن الحب، او استخلاص هذه العاطفة من الفيض الذي لا حد له من وسائل التعبير عن وجودها في الحياة الانسانية من قول او فعل او سلوك او خلق. ومن الواضح لمن حاول تتبع هذه العاطفة الجارفة ان لها وجودها في الاديان وعلاقة الفرد بخالقه، ولها فعلها في تكوين المجتمع من زوج وعائلة وافراد ومؤسسات، ولها فعلها في صنع التاريخ الانساني السياسي والحضاري، وجميع مظاهر هذا الوجود واضحة وربما لا تحتاج الى مزيد من الايضاح. ومع ان همنا في هذا الفصل المحدد ان نعين مدى العلاقة والارتباط بين عاطفة الحب وبين الدافع الجنسي، الا انه لا بد لنا ان نجمل بعض ما ورد عن هذا الموضوع منذ ان فطن الانسان الى مثل هذه العلاقة. وسيلي هذا الاجمال مختصر للآراء المعاصرة في الموضوع بما في ذلك خلاصة عن الابحاث العلمية التي تهدف الى التوصل الى فهم ادق للعلاقة التي تربط بين عاطفة الحب وعاطفة الجنس. وقد يكون في متابعة هذه الامور ما يقلل من الغموض الذي يكتنف العلاقة بين العاطفتين. وقد يكون من الاسهل، او الاقل صعوبة على القارىء، ان يتلمس وجود الجنس من عدمه في عاطفة الحب، واهمية هذا الوجود ليس لعاطفة الحب وحدها وانما للجنس ايضاً وللغايات المفترضة للعاطفتين في الحياة الانسانية، اما الاكتفاء بتنزيه الحب عن الجنس، او ادانة الحب بالجنس، فانها اتجاهات في الفهم لا تعين على الفهم الصحيح. ومن شأنها ان تطمس المعالم الاساسية للعاطفتين ومحلهما في الحياة.

المفاهيم التاريخية للحب

الآراء الاغريقية

طبقاً لتصورات (هسيود Hesiod) الشاعر الملحمي الاغريقي الذي عاش في القرن السابع قبل الميلاد، والذي جمع ورتب الاساطير المتناقلة في زمنه عن عصور سابقة، فان العالم في البدء كان (فوضى Chaos)، وهي حالة الكون الاولي. وفي هذه الحالة من الوجود قام (كرونوس Chronos)، وهو روح الزمن بوضع بيضة خرج منها (ايروس Eros) ومعناه الحب، واصبح ايروس الاهاً مهماً يرتبط بالزمن، لما للزمن من عظمة وجبروت. ومع صفات ايروس العنيفة والمؤذية، غير انه خص ايضاً بقوى خلاقة وابداعية، كما انه خص بفعل التآلف والتناغم، وهو فعل يناقض (فوضى) الكون الذي كانت عليه حاله. وظل ايروس محتفظاً بهذه المكانة كآلة الحب حتى القرن السادس قبل الميلاد، غير ان هذه المكانة قد تغيرت بالفعل قبل ذلك بقرنين، فالشاعر الملحمي هوميروس لم يعده الاهاً، وعدّ اسمه في الالياذة اسماً عاماً، واخذ اسمه يمثل مجرد الرغبة في شيء كالطعام والشراب او الشهوة او الحب الجنسي. وهذه الصفة الجديدة التي اعطاها هوميروس لايروس ازدادت تأكيداً حتى اصبح ايروس رمزاً للرغبة عند اسخيلوس Aeschylus (٥٢٥ ـ ٤٥٦ق.م). وهيرودتوس Herodotus بعده (٤٨٤ -

٤٠٧ق.م). وقد ادى هذا الانحطاط في مقام ايروس الى تجزئه مقامه الالهي المفرد، الى قيام آلهة صغيرة متعددة، واصبح الحب مثل ايروس عدة اصناف (ايروسات Erotes)، وهو المصطَلح الجديد الذي وضعه (يوريبيدس Euripides) (٤٨٤ ـ ٤٢٤ق.م). وتلا ذلك ان اخذ برأيه في روما (بلاوتس وشيشرون واوفيد) واصبح الحب متعدداً في انـواعه، مختلفـاً في مواضيعـه وفي اتجاهاته وطرق التعبير عنه، وانعكس كل ذلك في آراء الكثيرين من الفلاسفة والشعراء ورجال الدين، والذين صنفوا الحب الى انواع او نظموه في درجات.

ان من اول تصنيفات الحب هي التي تقسمه الى نـوعين: (الصـداقة ـ فيليـا Philia) او الحب الروحي، وايروس، او الجـاذبية الجنسيـة. ولعل هـوميروس قـد نوه بهـذا التصنيف في ملحمـة الالياذة، بـوصفه العـلاقة التي تـربط بين اخيـل Achilles وبين صـديقه بـطروخلس Patroclus. غير ان اسخيلوس Aeschylus من بعده اعطى عنصراً جسمياً لهذا الحب، ومثـل هذا الرأي جاء في محاورات افلاطون، وفي كتابات لوسيان الصوفي، وكلهم اعطوا عنصراً جنسياً للعلاقة بينهما. وقد وضعت الفاظ لغوية جديدة للتعبير عن انـواع الحب المختلفة والاسـاسية، ففي اليـونانيـة وردت: ايروس Eros، وفيليـا Philia، وأجابي Agape ويقـابلها في الـلاتينيـة التعـابير: امـور Amor، وامسيتيا Amicitia، وكـاريتاس Caritas، وهـذه الالفاظ تعني عـلى التوالي: الحب الجنسي، وحب الصداقة، وحب الخير. وهذا التقسيم دليل على ان الحب موجود في الاصناف الثلاثة وانه يقتضي التمييز بينهما. ووضـع افلاطـون سلماً للحب (في «المأدبـة»). ويقول على لسان دايوتيما Diotema مخاطبة سقراط ان الشاب اذا ما بدأ يحب شكلاً جميلاً مرئياً، (.. فانه سرعان ما يلاحظ لنفسه ان جمال شكل واحد هو شبيه بجمال آخر. ـ ولهذا ـ كم هو احمق ان لم يدرك ان الجمال في كل شكل هو واحد وعين الشيء ـ وعندها فانه سيهدىء من حبه العنيف للواحد، ـ وسيتدرج ـ من كونه محباً للاشكال الجميلة ـ الى ادراك ـ ان جمال العقل هو اكثر شرفاً من جمال الشكل الخارجي ـ ومن ثمة فانه ينساق الى حب ـ القوانين والمؤسسات... وبعد القوانين والمؤسسات يسير نحو العلم لكي يشاهد جمالها). وكما يلخص افلاطون ذلك على لسان دايوتيما، فان الترتيب الصادق لمراتب الحب يبدأ بجمال الارض ويصعد الى اعلى.. فمن الاشكال الجميلة الى الافعال الجميلة، ومن الافعال الجميلة الى الافكار الجميلة، وإلى ان نصل من الافكار الجميلة الى فكرة الجمال المطلق. وحذا ارسطو حذو افلاطون فقسم الحب الى انواع وذلك عندما حاول تحليل الصداقة. وبنى ارسطو تقسيماته على افتراضه ان المحبوب يتكون اما من الخير واللطف. او النافع، وهكذا هنالك ثـلاثة انـواع من الصداقـة تتساوى مـع الاشياء المحبوبة. ويقول: «انه يوجد بالنسبة الى كل واحد منها حب معلوم ومتبادل. وان اولئك الذين يحبون بعضهم يتمنون الخير لبعضهم البعض في تلك الناحية التي يحبون بعضهم البعض فيها». وادرك ارسـطو ان هناك انمـاطاً من الصـداقة تبنى عـلى اساس المنفعـة، او تندفـع وراء ارضاء اللذات، غير انه لم يدن هذا النوع من الحب كلياً ورأى انه ككل هوى، اما ان يكون خيراً او شراً، فهو حب فاضل فقط عندما يعتدل ويتلطف بالعقـل ويضبط عن طرق النـظام الصحيح للخير والذي على نمطه يجب ان تأتي محبات الانسان. وادرك سقراط قبل افلاطون وارسطو وجود

امكانية توفر العاطفة الجنسية في الحب وما يمكن لهـذه العاطفـة ان تسببه لمن يحملهـا من هوى وعذاب والى حد ربما لا يستطيع فيه القانون او العقل اخمادها، ويتضح ذلك من السؤال الذي يطرحه سقراط على الرجل العجوز سيفالوس Cephalus عما اذا كانت الحياة في نهايتها ستصبح اكثر قسوة؟ ويجيب العجوز مردداً قول سوفوكليس Sophocles الذي اجاب عندمـا سئل كيف يتوافق الحب مع العمر؟ «اني اشعر وكـأني تخلصت من قبضة متسلط معتـوه وهائـج». ويعلم لوقريطس Lucretius باللذات الجنسية التي امضها الالم، وهو يدعو لذلك الى نبذ فينوس التي جرحت نبالها قلوب الرجـال. . ويقول في ذلـك: «ان الفرح يـزداد شدة ويتقـرح بالاطعـام. والجنون ينمويوماً بعد يوم، ويصبح الشقاء اكثر ثقلاً. . وهذا هو الشيء الوحيد الذي كلما زاد ما نأخذ منه، زاد احتراق قلبنا بالرغبة الملعونة». وفي رأي لوكريتوس ان مثل هذا الحب موجود في الحب الصادق والمفلح. «غير انه عندما يكون فاشلاً ولا امل فيه، فان مساوئه يمكن ان تستشف بعيون مغمضة».

وتوالت النظرات الفلسفية المختلفة عن عاطفة الحب، فيقول باسكال Pascal «ان للقلب اسبابه، والتي لا يعـرفها العقـل غير اننـا نحسها بـالف شيء». ويقول القـديس اوغسطين في اعترافاته: «ما الذي افرحني غـير ان احب وان احب؟ غير انني لم احـافظ على ميـزان الحب، العقل للعقل، الحد الوضاء للصداقة، ولكن من الرغبة الجامحة والعكرة للجسد، ومن فورات الشباب، فان ضباباً قد تصاعد وغيم وخيم على قلبي بحيث اني لم استطع تمييز الوضوح الصافي للحب عبر ضباب الشهوة». اما توما الاكويني فهو يفرق بين نوعين من الحب: ذلك الحب الذي يقع في مجال الوجد، وذلك الحب الذي يقع في مجال الارادة، وعزا الاول الى الخاصة الشهوانية للشهوة الحساسة والنوع الثاني من الحب عزاه للشهوة العقلية أو الفكرية.

النظرات الدينية واللاهوتية للحب

ان الاديان بمجموعها تنظر الى الحب على انه عاطفة قائمة بذاتها. وهذه النظرة لا تتـرك مجالاً لنفاذ الشهوة والرغبة والجنس اليها، فالحب بالنسبة لمعظم الاديان يتخذ نموذجية من حب الخالق لنفسه ولعباده، وبهذا يتماثل الحب بالله. وبسبب هذه النظرة فان الاديان تجد في هـذا النموذج من الحب ميزانـاً يقاس بـه كل حب. ويقـول القديس يـوحنا في ذلـك: «ان الله هو الحب، والذي يسكن مع الحب يسكن مع الله، ويكون الله معه».

ويقـول دانتي في الكوميـديا الالهيـة: «ان الرغبـة والارادة تدوران كـالعجلة التي تـدور بانتظام، بالحب الذي يسير الشمس والنجوم». وهكذا فان الاديـان ترى في الحب المبـدأ ليس للخليقة والعناية الالهية والخلاص فقط، وانما المقياس لجميع انماط الحب التي اما تقرب الانسان او تبعده عن الله. ومن اكثر ما اشغل اللاهوتين، هو محاولة حل الصراع بين الحب والاخلاق، ليس من حيث المبدأ وانما من حيث الممارسة. ويقول القديس اوغسطين في ذلك: «ان الرجل الطيب ـ هو ليس ـ الذي يعرف ما هو الخير، وانما الـذي يحبه، اوليس واضحـاً اننا نحب في انفسنا ذلك الحب الذي نحب به ما نحب؟ ذلك ان هنالك حباً آخر والذي نحب به ذلك الذي

يجب ان لا نحبه. وذلك الحب يكرهه ذلك الذي يجب ان يحب. ذلك ان من الممكن تماماً للحبين ان يوجدا في الشخص الواحد. وهذا التواحد حسن للانسان، ذلك انه قد يمكن ذلك الحب الذي يؤدي الى حياة خيرة من النمو، وينقص ذلك الحب الذي يسوقنا الى الشر، وللحد الذي تصبح فيه حياتنا كلها شافية ومتحولة الى الخير». وهكذا فان القديس اوغسطين يعترف باخطاء الحب، غير انه يجد ان الحب الكامل والفاضل والصادق والافضل هو ذلك الحب الذي لديه القوة اللازمة للتغلب على اخطاء الحب، وبهذا النوع الكامل من الحب في ذهنه يقول القديس اوغسطين: «احب وافعل ما تريد». اما محاولة حل الصراع القائم بين الحب والاخلاق فهو بالنسبة للمجتهدين اللاهوتيين سعي لحل الصراع بين انواع مختلفة من الحب، وهو حل يتصاحب مع عملية اكمال الحب نفسه.

الشعر والحب

تمتلىء الملاحم والقصائد الشعرية في اكثر من لغة وحضارة بعاطفة الحب. والشعراء يتناولون هذه العاطفة بمزيج متفاوت النسب من دوافع الجسد ودوافع الروح. ويصعب في الكثير من الاحيان تمييز عناصر هذا المزيج، او الوقوع على دلالات وجود عنصر او آخر منهما. فقد يبرز الوجد الروحي في شاعر، ويبرز الوجد الجسمي في شاعر آخر، وقد يبدو مخالفاً لطبيعة الشاعر ان يجمع بين حاجتين متناقضتين وهو الذي يبحث عن الحقيقة ويجد جمالها فيها. غير ان هذا الجمع قد ابيح للشاعر بما لم يبح لغيره، وكأن الشاعر قد احل له ان يعيش هذا التناقض في شعره وان يستثنى من القوانين الاعتيادية. وقد يكون ذلك بسبب حاجات الشعر ذاته، وقد يكون ذلك لسبب طبيعة الحب التي تقضي بهذا الاستثناء، وهي الطبيعة التي قد يدركها الشعراء اكثر من غيرهم. ويقول شوسر Chauser بهذا المعنى على لسان اركايت Arcite: «من الذي يضع للحب اي قانون؟.. ان الحب قانون اعظم من اي قانون اعطاه انسان ابداً لبني الارض».

ولا يقتصر الجمع بين عاطفة الروح وعاطفة الجسد على الشعر والشعراء، فمثل هذا الجمع يميز حوادث كثيرة وهامة في تاريخ الافراد والشعوب، والقصص المتوافرة عن علاقات حب تحركت بشهوة الجسد وحاجاته، واتخذت مظاهر من البطولة والوفاء والتضحية والفداء لا تخلو منها اساطير او ملاحم او سير شخصية وتاريخية. فنحن نجدها قديماً في حب عشتار لجلجامش، وفي حب باريس وهيلين في حرب طروادة (الالياذة لهوميروس). وفي حرب داحس والغبراء وحب الامير اندور ونتاشا في الحرب والسلم لتولستوي، وحب مجنون ليلى، وحب دون كيشوت ودلسينيا ودانتي وبياتريس، وشمشون ودليلة، وروميو وجوليت ـ وحب آدم وحواء.. وغيرها الكثير مما كان له اثره في حياة اصحابها وفي مجرى التاريخ والمسيرة الحضارية. ولسبب لا ينحصر فقط في مسوّغات الشعر والشعراء، فان التاريخ في حينه وحتى الآن لم يحكم بما يدين الجمع بين حاجات الروح وحاجات الجسد في عاطفة واحدة تسمى الحب، بل على العكس فان الحكم جاء في صالح هذا الجمع فمجد وخلد الذين مارسوه. ويتضح من تأمل هذا الواقع ان

هنالك تعاطفاً انسانياً يكفي في بعض الاحيان للوقوف امام القوانين الدينية والاخلاقية التقليدية، وان هذا التعاطف يقتصر في معظم الحالات على الذين يقدمون للحياة اكثر من غيرهم، وكأنهم بذلك يرفعون الى مرتبة اعلى من سائر الناس مما يجيز ويسوغ لهم ما لا يجوز او يمكن تسويغه من غيرهم، وكيف يسوغ ذلك لهم عندما يقول شكسبير في الحب: «ان جميع المخلوقات توجد عن طريق الحب، واذا فقدت الحب فانها تفقد كل ذلك الذي يمكن ان يبقى». او قوله على لسان جولييت: «ان عطائي لا حدّ له كالبحر، وحبي كعمقه، وكلما اعطيت لك ملكت، فالاثنين لا انتهاء لهما».

علم النفس والحب

كما حاول اللاهوتيون حل الصراع الظاهر بين الحب بمعناه الديني وبين الاخلاق فان علم النفس حاول حل هذا الصراع، او في الاقل فهمه. غير ان الصراع بالنسبة لعلم النفس هو الصراع القائم بين الدوافع والرغبات الجنسية وبين الاخلاق. وفي منظور علم النفس ان الحب بصورة او اخرى يتكون نتيجة هذا الصراع وطريقة حله. فهذا الصراع قائم في الحياة العقلية الداخلية للفرد، وهو قائم ايضاً في العلاقة بين الفرد ومحيطه. ويجد فرويد اصول الحب في الغريزة الجنسية وان انماط الحب المختلفة ما هي الا مظاهر انعكاس للطاقة الجنسية على مواضيع مختلفة، ويقول في ذلك: «ان نواة ما نعنيه بالحب تتكون طبيعياً من. . الحب الجنسي وبالاتصال الجنسي هدفاً له، ونحن لا نفرق في ذلك بين حب النفس، ومن الناحية الاخرى بين حب الوالدين والأولاد، والصداقة وحب الانسانية بشكل عام والاخلاص لمواضيع محددة او افكار مطلقة. . فكل هذه الميول هي تعبير عن عين الفعاليات الغريزية. وهي تختلف عن الحب الجنسي فقط لانها ـ تثني عن هدفها او انها تمنع من الوصول اليه، وان كانت تحافظ دائماً على ما يكفي من طبيعتها الاساسية للابقاء على هويتها واضحة». ويجد فرويد ما يدلل على هذه الهوية (في الحب الجنسي) فيما يظهر او يخفي من التعابير في الاطفال والكبار، وفي ما هو متزن او شاذ من السلوك، وفي ما هو لين او قاس من التعامل، وفي عملية الخلق والابداع اينما وجدت وبأي شكل.

الحب ـ والبايولوجيا والاجتماع

قد يكون من الخطأ عد الحب عاطفة يختص بها بعض الناس وتمثل شخصياتهم ونزواتهم، او القول بانها عاطفة طارئة في الحياة ولا تخدم اغراضها. وواقع الحياة الانسانية وحتى الحيوانية يفيد بغير ذلك، فالعاطفة التي يبديها كل من الانسان والحيوان في رعاية وحماية صغاره هي عاطفة لا تختلف في جوهرها عن مثلها من العاطفة التي تربط بين الناس في الحياة، وهذا ما حدا بداروين الى القول: «من الاكيد ان الحيوانات المتصلة اجتماعياً مع بعضها تحمل عاطفة الحب بعضها لبعض، مما لا تشعر به الحيوانات النامية غير المتصلة اجتماعياً». وحتى فرويد نفسه، الذي اعطى الجنس وكبته جل الاصول لعاطفة الحب بانواعها التعبيرية المختلفة، فانه ادرك ما

لهذه العاطفة من اصول اجتماعية وذلك في قوله ان تلك العاطفة التي تجمع الناس بما يسميه الحب ما هي في الواقع الا خوفهم من الاذى. وهكذا لا بد لنا ان نرى في الحب، او بعض انماطه، ما يخدم اغراضاً بايولوجية واجتماعية اساسية في حياة الانسان - والحيوان - ربما لا يستطيع البقاء بدونها، وان ما يبدو في بعض عواطف الحب من التركيز على الاهداف الجنسية، ما هو الا دعم وتأكيد لهذه الاهداف وضمان لتحقيقها وتوفير الطاقة اللازمة لذلك.

الحب علمياً

في احد الافلام المشهورة قبل حوالى الاربعين عاماً اراد بطل الفيلم ان يعبر عن حبه لبطلة الفيلم، وباستحياء من البوح بحبه بالاسم قال لها: «في اللغة الكيمياوية فإن هنالك تجاذباً بيننا». ولعل هذا القول قد سبق بكثير الابحاث المعاصرة التي تهدف الى تحليل عاطفة سلوك الحب والتوصل الى العناصر المكونة له وكيفية تكوينه ونشوئه وتشكيله على صورة او اخرى. وقد قامت ابحاث كثيرة في هذا الموضوع، واتجه بعض الباحثين الى اثبات بعض الفرضيات التي تخالف في مفهومها الآراء والمعتقدات الشائعة عن الحب. ومن هذه الفرضيات ان الحب هو تعامل او تبادل. واصحاب هذا الرأي يطبقون نظرية التبادل لتفسير الرابطة بين اثنين في عاطفة الحب. ومن الجلي ان محاولة تفسير الحب على هذا الاساس تناقض ما ينعت به الحب من انه انكار للذات والرعاية وايثار الغير والمشاركة - ويقول (روبن Robin) (١٩٧٣)، وهو اكثر اعتدالاً من غيره بالاخذ بنظرية التبادل: «.. وحتى في حالة الحب فاننا نجد الثنائية متداخلة بين ما نستطيع اخذه وما نعطيه». وقد جرت ابحاث عديدة في محاولة لاثبات هذه الفرضية، وبيان الكيفية التي يمكن فيها لعلاقة سطحية بين اثنين ان تنمو الى علاقة حب عاطفية على اساس تبادل المنفعة بينهما، وبيان السبب الذي يبقي على بعض العلاقات على المستوى السطحي، بينما يدفع بغيرها الى المستوى العاطفي بصرف النظر عن المنافع المتبادلة بين الطرفين. ونتائج معظم الابحاث في هذا الموضوع تفيد بان ما يجلب الناس للتلاقي بغيرهم يتقرر بالضرورات الاجتماعية، وفي هذا الاطار فان المتلاقين ليس لديهم خيار كبير فيمن يلتقون به ولا في محتوى التفاعل بينهما. واذا ما ادى التلاقي الى تفاعل فانه يقتضي على احد الطرفين ان يقدم عطاء يحصل بسببه على عطاء مقابل، وهكذا فان التفاعل اذا كان له ان يكون مجزياً فان الامر يعتمد على اذا ما كان البادىء قد اختار شريكاً في التعامل لديه المقدرة على توفير العطاء، وعلى ما اذا كان البادىء قد هيأ للشريك الحافز لتقديم العطاء.

وهنالك غير هذه النظرية في قيام الحب نظريات اخرى عديدة، وهذه النظريات في معظمها تحلل كيفية واسباب نشوء الجاذبية بين فردين. ومن هذه النظريات:

١ - نظرية التطبع: وهي تبين بان انجذاب الفرد نحو شخص آخر ينجم عن شعور الفرد بانه قد كوفىء في حضور ذلك الشخص.

٢ - نظرية التبادل الاجتماعي: ومفادها انه كلما زاد تقدير فرد ما لنشاط يقوم به فرد آخر،

زادت الجاذبية نحوه، وكلما زادت عدد المناسبات التي يتم فيها التفاعل بين فردين زادت الجاذبية بينهما (هومانز Homans) (١٩٦١).

٣ ـ نظرية المعاشرة: وتفسر هذه النظرية الجاذبية بين فردين على اساس ان الشخص يختار عادة فرداً من المجال المتوافر من المؤهلين، والذي يبدو اكثر من غيره امكانية لتلبية وارضاء حاجاته. (ونش Winch) (١٩٥٨).

اما النظرية العقلية: فهي ترى ان انجذابنا الواحد للآخر يمكن ان يتأثر بسلوكنا نحو بعضنا البعض. ويرى (دويتش وسلمون Deutch and Solomon) (١٩٥٩) اننا «نحب اولئك الذين يحبوننا فقط اذا كنا نحب انفسنا، واننا اذا كنا لا نحب انفسنا فاننا لا نميل الى حب اولئك الذين يحبوننا، ذلك لان مثل هذه الحالة تسبب لنا معاناة عقلية». وهذه النظرية تتفق مع قول توما الاكويني الذي فرق بين الحب الطبيعي وبين ما هو فوق ذلك من الحب، فقال في الحب الطبيعي انه ذلك «الذي تبحث فيه الاشياء عن ما يلائمها وتبعاً لطبيعتها». ومثل هذه النظرية تذكر ايضاً بالملك ريتشارد الثالث الذي لم يكن يستطيع ان يحب احداً لانه لم يكن قادراً على حب نفسه.

أصناف الحب

لعل الخطأ الاساسي الذي يرتكبه معظم المعنيين بهذه العاطفة يأتي من منطلق التصور ان هنالك عاطفة مفردة ومحددة تسمى بالحب. وقد عزز هذا الاعتقاد الخاطىء ما بني على المصطلح من كيان ادبي وشعري وحضري يتجانس في مظاهره وسماته. ومثل هذا الرأي لا يسمح بورود صفات وسمات وانماط اخرى للحب. غير اننا نتفادى فهم هذه العاطفة في اصولها ونموها وما يمكن ان يمدها من طاقات اذا نحن اخذنا بهذا الرأي المفرد والمحدد. ومن الواضح من متابعة تاريخ نشوء المصطلح وتطوره ان هنالك انماطاً اخرى من الحب غير النمط الذي جاء عليه في البداية (بداية الاسطورة في الاقل). ولعله جاء على غير هذا النمط فيما نوهت به قصة آدم من امتزاج العاطفة بين رجل وانثى بالاغراء. ومن هذه البدايات تزايدت اصناف عاطفة الحب لتشمل ايضاً حب الصداقة وحب المنفعة وحب الشهوة، واضيف اليها ما هو مصطلح عليه من (الحب العذري) و(الحب الافلاطوني) و(الحب الرومانسي) وحب الجمال وحب الانسانية وحب العدل وحب الحرية وغيرها من اصناف الحب. كما حللت وصنفت انماط الحب الانسانية تبعاً لنموها وتطورها الى خمسة اصناف هي حب الام، وحب الطفل لامه، وحب الاقران او الاتراب والحب الذي يربط الجنسين وحب الوالد. فحب الطفل لامه يأتي نتيجة الربط بين وجه الام وشكلها وبين عملية الرضاعة، ويلاحظ وجود عناصر مشتركة بين هذا الحب من الطفل لامه والحب بشكل عام، ففي كليهما نجد ان الاتصال بالعين والتماس الجسمي يعطيان الراحة واللذة. ولا بد لذلك من ان يثار السؤال فيما اذا كانت هنالك علاقة بين الجنس وبين هذا النمط من الحب، وفيما اذا كانت العلاقة الجنسية المستقبلية تبنى على هذا الاساس البايولوجي من العلاقة بين الام وطفلها. اما علاقة الحب بين الاقران من نفس الجنس او من الجنس الآخر،

فان فترتها الزمنية طويلة، ومع ان معظم مظاهر هذا الحب (تبدو افلاطونية) الا انه قد يكون مهيئاً للحدث للتحسس بحب مستقبلي مليء بالوجد، كما انه قد يمكن الحدث عن طريق اللعب، من تحقيق غرض اجتماعي مستقبلي هام وهو دور الحب بين الجنسين. اما دور الحب بين الجنسين، فانه دور طبيعي في سياق النمو للعاطفة، وهو يعتمد على اتمام عملية التماس الجسمي والقبول بها، وهي العملية التي تبدأ من علاقة الطفل بامه وتستمر في التماس بين الاطفال والاحداث في اللعب، وقبول هذا التماس قد يعني ثقة الفرد بغيره وقبوله به ووصول الفرد الى هذا الدور النامي من الحب بين الجنسين لا ينهي تماماً دور (حب الاتراب)، ويمكن النظر الى هذا الدور من الحب على انه دور اكثر تخصصا وان كان من الواضح انه يبدأ حتى قبل ان تصبح العلائق الجنسية بين الجنسين قائمة، فمكوناته موجودة في الجنسية الثنائية، كما هي موجودة في الذكر على صورة التهديد وهيئة التسلط، وفي الانثى بسلوكها الاغرائي.

وصنف جون لي Lee (١٩٧٣) في كتابه (الوان الحب) الحب الى ستة انماط واضحة، وفي رأيه ان هذه الاصناف مثالية، وانها متبادلة وان كل نمط منها واقعي، وان الفرد قد يتصف بواحد منها او بعدد منها في آن واحد. وان الحب قد يعني اشياء مختلفة بالنسبة لمختلف الناس، وان الحب عاطفة تتضمن الاحساس والفكر في آن واحد. والانماط الستة التي صنفها لي هي:

١ ـ الصداقات الدائمة Storge.
٢ ـ الحب المركز على الغير Agape.
٣ ـ المانيا ـ او حب الاعتماد الشديد Mania.
٤ ـ الحب المنطقي المعقول Pragma.
٥ ـ الحب المتركز على الذات Ludus.
٦ ـ الحب الرومانسي Eros.

وقد اخذ هذا التصنيف اساساً للحب لبيان انواع الحب السائدة في الاشخاص الذين ينتمون الى اصول عرقية او حضارية مختلفة. وبيان الفروق بين الذكور والاناث. وقد تبين من الدراسة ان الذكور اكثر تركيزاً على الذات (انانية) واكثر شهوانية Eros، من الاناث، بينما الاناث كن اكثر قليلاً في نمط الحب شديد الاعتماد «مانيا»، وحب الصداقة الدائمة والحب المنطقي ـ «المعقول». ولم يكن هنالك فرق بين الجنسين في تركيز الحب على الشخص الآخر. وافاد احد الابحاث المقارنة بان الانثى من جزر هواي(*) هي اكثر من الرجل في درجة الحب المركز على الغير Agape، بينما لا توجد هذه الفروق بين الجنسين في سكان الولايات المتحدة. وتتلخص سمات الحب الست فيما يلي: (١) حب الصداقة (التعاطف، والتواكل والافضاء بمكنونات النفس والوفاء بالحاجات. (٢) الحب المركز على الغير (العفو والمسامحة للمحبوب

---

* ـ نسبة كبيرة من سكان هواي اصولهم شرقية. وهذه النتيجة تتوافق مع ما هو معروف تقليدياً في الحضارات والمجتمعات الشرقية من ان المرأة قد ربيت على اساس تفضيلها للزوج على نفسها.

وتسويغ خطاياه وتجاوزاته ورعاية المحبوب والاهتمام بسعادته، وحتى التضحية بحبه اذا كان ذلك من صالح المحبوب). (٣) حب الاعتماد والتواكل (المانيا Mania) ويتميز بسيطرة العاطفة والتعلق بالمحبوب، ويشكو المحب في هذا النمط من فقدان الشهية وعدم المقدرة على النوم او التفكير المنطقي، ويتراوح المحب بين حالات من الانفعال وحالات من الاكتئاب، كما يعاني من قلق مفرط ومن اضطرابات في التواصل الجنسي. (٤) اما الحب المنطقي او الرزين، فهو الحب الذي يتمثل في تجنب اختيار ما لا يستحق ان يحب. والمحب في هذا النمط يزن بدقة مؤهلات (المحبوب) ويقدر قيمتها قبل الوقوع في حبه. كما انه يحافظ على حبه ويحميه ما دام يفي بمتطلباته. ومن خصائص هذا الحب ان المحب يحاول تلبية الحاجات التي ترفع من مقام المحبوب. وذلك لانها تزيد من قيمته، كما ان المحب يحرص على وزن القيمة بالامكانيات المادية والمعنوية للعائلة التي ينتمي اليها المحبوب. (٥) اما الحب الذي يرتكز على الذات (الاناني Ludus)، وشأن المحب من هذا النمط هو شأن من يلعب لعبة او يحل لغزاً، همه الوحيد ان يربح وان يظهر مهارته وعلو شأنه، ولا مانع عنده من ان يجمع بين عدة احباب في آن واحد لتلبية هذه الحاجة: والناحية الجنسية في هذا الحب هي ناحية انانية استثارية بدلاً من ان تكون ناحية رمزية. وطبيعة العلاقة الجنسية للمحب تتصف بالانانية وارضاء الفرد لنفسه بصرف النظر عن شريكه، واحتفاظه بالمحبوب قائم على الاستغلال الآني مع احتمال الخسارة والربح والانتقال من محبوب لآخر. (٦) اما النمط الاخير، الحب الايروسي (الرومانسي) وهو الحب الذي يؤمن بالحب من أول نظرة ويعتقد بأهمية الوقوع في الحب. والمحب في هذه العلاقة يريد ان يتذكر جميع وقائع حبه، وان يعلم كل شيء عن المحبوب من حيث الشخصية والعادات والميول والى حد التوصل الى ايجاد هوية مشتركة له ولمن يحب. ويميل اصحاب هذا النوع من الحب الى علاقة جنسية مبكرة. كما انه يسعى دائماً لارضاء من يحب بكل وسيلة او ايماءة او بادرة ممكنة.

ان النتائج التي تمخضت عنها هذه الدراسة عديدة واهمها ما يلي: (١) ان الفروق في انماط الحب هي فروق حضارية وليست وراثية. (٢) المرأة تتجه نحو حب الصداقة والحب الرزين اكثر من الرجال، مما ينوه باهداف الحب الزواجية، وهي الاهداف التي تشجع هذه الانماط من الحب. وهكذا فان المرأة اكثر عقلانية من جهة، وانها اقل ميلاً لحب رومانسي يغفل الانتباه الى النواحي الاقتصادية والصحية والمصاحبة الزوجية، وهي لذلك تمارس قدراً اعظم من السيطرة على عاطفتها. (٣) الفروق الحضارية قد تشجع نوعاً من الحب وتفضله على نوع آخر، كما هو الحال في حب الانثى في هواي، واصولها شرقية في معظمها، والتي تتجه نحو حب يتركز على المحبوب وتفضيله على النفس. (٤) الحب التملكي - (التواكلي - Mania) اكثر حدوثاً عند الاناث، وهو امر منطقي في الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية السائدة وموقع المرأة فيها. وهي الاوضاع التي تحمل المرأة الى التوجه في عاطفتها الى الرجل الذي تنظر اليه بوصفه سنداً وضمانة وقوة في حياتها، ومثل هذه الدوافع تجعل من حب المرأة حباً استثارياً تملكياً وغيوراً. (٥) اما الحب الرومانسي (Eros) والذي من خصائصه الاساسية الاستعجال والجاذبية الجسدية، والتفكير الرومانسي، فتفيد الدراسة بان الرجال اكثر رومانسية من الاناث في حبهم. وتفيد

دراسات اخرى عكس ذلك، وبان الاناث اكثر رومانسية، او انهن يتراوحن بين الرومانسية العالية والرومانسية القليلة. ويعلل ذلك تبعاً لمدى شعور المرأة بدافعها الجنسي وبعاطفتها الرومانسية او بقدرتها على الافضاء بما تشعر به بالفعل. (٦) دلت الدراسة على ان مكونات الحب العاطفية والعقلية مستقلة الواحد عن الآخر، وان حدة العاطفة لا علاقة لها بالمحتوى العقلي لنمط او آخر من الحب.

الامكانية الحركية للحب

هذه الدراسة هدفت الى التوصل الى نظرية تفسر الحب وطبيعة هذه العاطفة. والنظرية المفترضة عن الحب والتي تسعى الدراسة على البرهنة عليها علمياً هي النظرية المعروفة بنظرية الامكانية الحركية للحاجات الانسانية والتي رمز لها واضع النظرية بالمعادلة: حـ جـ + غ جـ = ك. ويرمز حـ جـ إلى حاجات الجسم، ف غ جـ إلى الحاجات غير الجسمية وهي الحاجات الاجتماعية والنفسية وك: إلى كم ثابت. وهكذا فكلما تقدم المجتمع تقنياً فإن الارضاء أعظم للحاجات الفيزيولوجية يصاحبه تأكيد متزايد على الحاجة الاجتماعية النفسية. (بارديس Bardis) (١٩٧٥). ونظرية باردس عن الامكانية الحركية للحب تتألف من خمس فرضيات: (١) ان كل حب بين الجنسين ينتج من حاجات جسدية وغير جسدية ويسعى إلى هدف ارضائها. (٢) هذه الحاجات قابلة لتبادل التحويل، بمعنى ان فشل حاجة جسدية أو غير جسدية يمكن تحويلها إلى حاجة أخرى جسدية أو غير جسدية. (٣) عندما يتوقف موضوع الحب «المحبوب» عن ارضاء حاجات الفرد، فان موضوعاً آخر (شخص آخر) يمكن ان يحل مكانه. (٤) عندما يكون حب الشريكين قوياً أو كاملاً تقريباً، فان ارضاء الحاجات الجسدية وغير الجسدية يكون عادة ارضاء ضعيفاً وغير متساو، أي ان مجموعة من الحاجات ترضي أكثر من غيرها.

وقد وضع باردس مقياساً لقياس الحب بين الجنسين سماه: ايروتوميتر Erotometer، وهو يتألف من خمسين وحدة، كل وحدة في المقياس تتراوح قيمتها من صفر (وهو الخلو الكامل من الحب)، و١٠٠ وهو الحد الاعلى (الحب الكامل). واجرى باردس بحثه على مجموعات مختلفة من العلاقة بين الجنسية وهم: (١) الشركاء في الزواج. (٢) طلبة الكليات. (٣) طالبات الكليات. (٤) العائلات. وقد اعطت الدراسة النتائج الهامة التالية والتي تؤيد الى حد بعيد نظرية صاحبها عن طبيعة الحب وحاجاته:

(١) تبين من الدراسة وجود عدة مستويات من الارضاء للحاجات الجسدية وغير الجسدية، اولها المستوى العالي من مقياس الايروتميتر، وهو مستوى عال ومتساو من الارضاء الجسدي وغير الجسدي. وقد شبه الباحث هذا النوع من الحب بحب اورفيوس - يورديس Orpheus - Euridice وهو الحب الذي عرف بقوته وبارضائه للرغبات الجسدية وغير الجسدية. اما المستوى الثاني فهو الذي يؤكد على النواحي الجسدية، وهو حب غير كامل، وسماه الباحث، تشبهاً بحب زيوس Zeus. اما المستوى المنخفض في مقياس الايروتميتر، فهو الحب الناقص وهو الذي يؤكد على العناصر الجسدية مع وجود احباط في النواحي الجسدية. وسماه بحب

بنولوبي Penelopy. (٢) افادت نتائج الدراسة بان اعطاء الحب كان في معظم الافراد اكثر اهمية من استلامه. مع تساو في التأكيد على اهمية الاخذ والعطاء في الحب. (٣) الرأي الغالب هو ان الحب الجسدي اقل اهمية من الحب غير الجسدي. وان كان الرجال اكثر تقبياً للحب الجسدي من الاناث (في المتزوجين). (٤) الاستجابة للعناصر غير الجسدية في الحب هي اكثر في طالبة الكلية، وادنى في الام. (٥) وجدت علاقة هامة بين العمر وبين الحب الجسدي وغير الجسدي، والارتباط ايجابي بين المراهقين وبين الحب الجسدي، بمعنى ان المراهقين يتسمون بعاطفة غير جسدية في حاجاتها، ويفسر ذلك على انه نتيجة التحريم الجنسي والقيود الاجتماعية، غير ان الاتجاه نحو الحب الجسدي يزداد تدريجياً بعد ذلك، وهي ظاهرة تغلب في حياة الاناث على الذكور. (٦) ان عكس الظاهرة السابقة يحدث في الوالدين، وقد وجد ان الامهات على العموم لهن مقياس ادنى من حيث اهمية الحب الجسدي وغير الجسدي، ومثل ذلك في اهمية اعطاء الحب، غير ان مقياسهن عال في موضوع رغبتهن في الحصول على الحب. (٧) العوامل الدينية تؤثر في النظرة الى الحب اللاجسدي، والجسدي خاصة. اما مستوى التعليم فانه يرتبط ايضاً بالنظرة الى الحب، والارتباط يوافق الرأي بانه كلما زاد المستوى الثقافي قل المستوى للحب الجسدي.

ان الدراسة التي بيناها ذات اهمية، لا لانها تحاول قياس الحب فقط، وانما بيان وقياس العناصر المكونة له وهي الجسدية وغير الجسدية: (الاجتماعية والنفسية)، كما انها تبين ان هذه العاطفة ليست كماً ثابتاً، وانما امكانية متحركة قابلة للنمو والتغير والتحول بفعل السن وطبيعة العلاقة والدين والثقافة وغيرها من العوامل التي لها ان تزيد او ان تقلل من اي من الحاجات الجسدية او الحاجات غير الجسدية او كليهما.

الحب والحاجات الانسانية

من النظريات التي يمكن لها ان تفسر الحب، هي النظرية التي جاء بها مازلو Maslow (١٩٥٤)، والتي تفترض ان الحوافز الانسانية توجد في الحياة الانسانية على شكل بناء هرمي متصاعد الدرجات، وعدّ مازلو هذه الحاجات بانها على نوعين: المستوى الاول والادنى منها في السلم الهرمي هي الحاجات الاساسية او الدنيا، اما النوع الثاني فهي في المستوى الاعلى من هذا الهرم وتشمل الحاجات التي سماها بالقيم الوجودية، اما الحاجات الاساسية او الدنيا فتشمل في ادنى مستوياتها الحاجات الفيزيولوجية كالجوع والعطش والجنس، ويلي ذلك حاجات الطمأنينة والائتمان من الاذى، ويليها حاجات الانماء والحب، وفي مرتبة اعلى حاجات التقدير للنفس من الذات ومن الغير. اما المرتبة العليا للحاجات الانسانية فهي حاجات تحقيق امكانيات الذات، وتشمل القيم الوجودية وحوافز النمو. ومن هذا السلم التدريجي يتبين وجود الحب على عدة مستويات، ادناها المستوى الجنسي. والذي عدّه مازلو مستوى الحاجات الفيزيولوجية الاساسية، ثم مستوى الانتماء والحب مما يربط الناس ببعضهم بما يتجاوز ارضاء الحاجة الجنسية، ثم المستوى الاعلى والاخير وهو مستوى يتوجه فيه حب الانسان الى ما هو جميل

وعادل وكامل. وهو اعلى درجات الحب. ومع ان الفرد لا بد له من ان يؤخذ بهذا التدريج للحاجات الانسانية، الا ان اثبات مثل هذا التدرج وبالشكل الذي جاء به مازلو ما زال يفتقر الى اثبات علمي، وهي غاية يصعب الوصول اليها في مثل هذا الموضوع.

تصنيف ابن حزم الأندلسي للحب

من التصنيفات الفريدة للحب هي تصنيفات ابن حزم الاندلسي، ويكتسب تصنيف ابن حزم اهمية لعدة اسباب منها انه اوسع التصنيفات الواردة في زمنه، كما انه اكثرها دقة. وقد وضع ابن حزم تصنيفه ضمن بحث نفسي دقيق عن ماهية الحب سماه (طوق الحمامة) في الالفة والالاف، واورد انواع المحبة واقام التفاضل بينهما كما يلي: «.. ومما يؤكد هذا القول اننا قد علمنا ان المحبة ضروب فأفضلها محبة المتحابين في الله عز وجل، فأما الاجتهاد في العمل، أما لاتفاق في الاصل النحلة او المذاهب، واما لفضل علم يمتحنه الانسان، ومحبة القرابة، ومحبة الالفة والاشتراك في المطالب، محبة التصاحب والمعرفة، ومحبة لبر يضعه المرء عند اخيه، ومحبة لطمع في جاه المحبوب، ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره، ومحبة لبلوغ اللذة وقضاء الوتر ومحبة العشق التي لا علة لها الا ما ذكرنا من اتصال النفوس. وكل هذه الاجناس منقضية مع انقضاء عللها، وزائدة بزيادتها وناقصة بنقصانها، متأكدة بدنوها، فاترة بوجدها، جاش محبة العشق الصحيح، الممكن من النفس، فهي التي لا فناء لها الا بالموت..». وقال ابن حزم في تعليل ماهية الحب: «الحب اعزك الله اوله هزل وآخره جد، ودقت معانيه لجلالتها عن ان توصف، فلا تدرك حقيقتها الا بالمعاناة». ثم يتابع القول: «.. وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا واطالوا، والذي اذهب اليه انه اتصال بين اجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة من اصل عنصرها الرفيع... مقسومة لكن على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوي ومجاورتها في هيئة تراكيبها. وقد علمنا ان سر التباين والتمازج في المخلوقات انما هو الاتصال والانفصال، والشكل دائمًا يستدعي شكله، والمثل الى مثله ساكن، وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد. والتنافر في الاضداد، والموافقة في الانداد، والنزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا، فكيف بالنفس وعالمها الصافي الخفيف، وجوهرها الجوهر الصعاد المعتدل، وسنحها المهيأ لقبول الاتفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة والنفار. كل ذلك معلوم بالحضرة في احوال تصرف الانسان، فيسكن اليها، والله عز وجل يقول، (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن اليها)، فجعل علة السكون انها منه...». وما يتلو هذه المقدمة من كتاب ابن حزم يصح اعتباره اول واوسع وادق تحليل نفسي لهذه العاطفة الانسانية من حيث الوصف وبيان المعاني والاسباب والاعراض في العديد من صور الحب كالذي يحب من يعرف في نومه، ومن يحب بالوصف، ومن يحب من نظرة واحدة، ومن لا يحب الا بالمطاولة، ومن يحب صفة لم يتحسس بعدها غيرها مما يخالفها.. ويستخلص ابن حزم من تحليله لهذه الصور من الحب الرأي العميق الذي لا يفضله رأي في هذا الامر فيقول: «... فقد علمنا ان النفس في هذا العالم الادنى قد غمرتها الحجب، ولحقتها الاعراض، واحاطت بها الطبائع الارضية الكورية، فسترت كثيراً من صفاتها، وان كانت لن تحله، لكنها حالت دونه، فلا برح الاتصال على الحقيقة الا بعد

التهيؤ في النفس والاستعداد له وبعد ايصال المعرفة اليها بما يشاكلها ويوافقها. ومقابلة الطبائع التي خفت مما يشبهها من طبائع المحبوب، فحينئذ يتصل اتصالاً صحيحاً بلا مانع. واما ما يقع من اول وهلة ببعض اعراض الاستحسان الجسدي واستطراق البصر، الذي لا يجاوز الالوان، وهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة، فاذا فصلت الشهوة وتجاوزت هذا الحد، ووافقت الفصل اتصال نفساني تشترك فيه الطبائع مع النفس، يسمى عشقاً».

الحب عند الرازي

الحب بالنسبة للرازي، او العشق كما يسميه، حالة يتجاوز فيها العشاق «.. حد البهائم من عدم ملكة النفس وزم الهوى وفي الانقياد للشهوات، وذلك انهم لم يرضوا ان يصيبوا هذه الشهوة، أعني لذة الباه... من اي موضع يمكن اصابتها منه، حتى ارادوها من موضع ما بعينه، فضموا شهوة الى شهوة، وركبوا شهوة على شهوة، وانقادوا وذلوا للهوى ذلاً على ذل وازدادوا له عبودية على عبودية.. وهؤلاء لما لم يقتصروا على المقدار البهيمي من الانقياد للطباع، بل استعانوا بالعقل - الذي فضلهم الله به على البهائم واعطاهم اياه ليروا مساوىء الهوى ويزموه ويملكوه - في التسلق على لطيف الشهوات وخفيها والتحيز لها والتتوق فيها، وجب عليهم وحق لهم الا يبلغوا منها الى غاية ولا يصيروا منها الى راحة». والرازي يفند رأي اولئك الذين يقولون «بان العشق انما يعتاده الطبائع الرقيقة والاذهان اللطيفة، وانه يدعو الى النظافة واللباقة والزينة والهيئة.. ويحتجون بمن عشق من الانبياء والشعراء والسراة والرؤساء ويتخطونهم الى الانبياء...». ويرى على عكس ذلك ان: «رقة الطبع ولطافة الذهن وصفاءه يعرفان ويعبران باشراف اصحابها على الامور الغامضة البعيدة والعلوم اللطيفة الدقيقة... واما احتجاجهم بكثرة من عشق من الادباء والشعراء والسراة والرؤساء، فانا نقول ان السرو والرياسة والشعر والفصاحة ليس مما لا يوجد ابداً الا مع كمال العقل والحكمة، واذا كان الامر كذلك امكن ان يكون العشاق من هؤلاء من اهل النقص في عقولهم وحكمتهم.. واما قولهم ان العشق يدعو الى النظافة واللباقة والهيئة والزينة، فما يصنع بجمال الجسد مع قبح النفس، وهل يحتاج الى الجمال الجسداني ويجتهد فيه الا النساء وذوو الخنث من الرجال؟ ومن هذه الاقوال وغيرها يتضح ان الرازي عدّ الحب سعياً وراء الحصول على اللذة، ولكن سعي خاطىء لا يحقق لصاحبه ذلك، فقد«.. غلط من تصورها محضة برية من الالم والاذى».

الحب العذري

يقترن هذا النوع من الحب في المفهوم العام بالعاطفة الصافية التي تخلو من الغرض الجنسي. ويلتبس المصطلح على بعض الناس فيظنونه الحب للانثى العذراء. وهنالك من الباحثين ممن يقيمون صلة تاريخية او وصفية بين هذا النوع من الحب والحب الافلاطوني، او بينه وبين الحب الرومانسي. ولعل جميع هذه المتعلقات تتضح من متابعة نشوء هذا النوع من الحب وغاياته وطرق التعبير عنه.

ينسب الحب العذري الى بني عذرة ويشتق من اسمهم، وبنو عذرة قبيلة عربية لا يعرف نسبها على وجه التعيين، غير ان معظم الاخبار تردهم الى قبيلة قضاعة اليمنية، فهم سكنوا بوادي القرى وتبوك وديار قيس، وجاوروا قبائل اخرى من قضاعة. وقد عرف عن هذه القبيلة رقة القلب والميل لما هو جميل والاحساس المرهف والوقوع في عاطفة العشق بعنف وصدق مع حفاظهم على قواعد العفة. ومعظم ما روي من قصص عن حب فرد او آخر من هذه القبيلة فانه حب تميز بتفاني صاحبه وشدة تعلقه وبصبره وتحمله لآلام حبه وبالتالي الى موته من شدة يأسه ودقة جسمه. وقد تلا هذه النتيجة في معظم الحالات موت الحبيبة من فرط حبها وفقدانها لمن بادلته الحب. ولم تكن قبيلة بني عذرة وحدها من بين القبائل العربية التي عاش ابناؤها هذا الضرب من العاطفة، فقد عرفت قبائل اخرى بمثل هذه العاطفة، ومن اشهرها قبيلة بني عامر ويلقبون بالعامريين، ومنهم قيس بن الملوح وليلى العامرية. واذا اشتهرت قبيلة بني عذرة بالحب المؤدي إلى الموت، فقد اشتهرت قبيلة بني عامر بالحب المفضي إلى الجنون، ومن أمثلة ذلك (مجنون ليلى) قيس بن الملوح. وهناك قصص أخرى وآثار شعرية عديدة تنسب إلى أناس من قبائل عديدة في الجاهلية والاسلام ممن توضح قصصهم واشعارهم انهم عانوا من هذا النوع من الحب الذي اتسم بالتعلق الشديد الذي لا فكاك فيه، ولا أمل يرجى منه، والذي يفرض على المشارك فيه التزاماً لا خلاص فيه من الاخلاص والتفاني والتكريس، كما يفرض على الرجل المحب ان يجعل من حياته صورة مطابقة لحبه وان يبدي من الشجاعة والبسالة ما يسوغ هذا الحب في عين من يحب. وهنالك جدل فيما اذا كان هذا النوع من الحب قد خص به اهل الجاهلية او اهل الاسلام الواحد دون الآخر، أو أنه كان أكثر انتشاراً في حياة البادية منه في حياة الحضر وبالعكس. ولعل الباحث يجد من نماذج هذا الحب ما يكفي في الجاهلية والاسلام وفي البادية والحضر، وان كان من المنطقي لنا ان نتوقع وفرته في حياة عرب البادية بما توافر لديهم من فراغ وانصراف الى تحسس مواطن الحسن والجمال في الطبيعة والمرأة وفي الواقع والخيال على حد سواء.

ان اهم ما يعنينا في الحب العذري هو غايته ومدى ارتباطه بالنواحي الجنسية. وقد يكون من المتعذر التوصل الى تحديد مثل هذه الغاية او تقرير مدى وطبيعة الارتباط بين الحب العذري والنواحي الجنسية. فالمصطلح ينوه في الظاهر بان هذا النوع من الحب هو عاطفة وجدانية طاغية تتركز على فتاة او امرأة معينة لا امل يرجى في الوصول اليها او الوصل معها، وليس لصاحب هذه العاطفة الا معاناة الم الحب وتباريح التعلق مما لا بد ان يفنيه. وهكذا يبدو ان مثل هذا الحب يخدم غرض تنمية وتأثيل حس الالم والمعاناة في نفس المحب، وانه لا يهدف الى متعة جسدية. والواقع ان معظم القصص والاشعار التي رويت عمن وقع بمثل هذا الحب قد خلت من التعابير والتنويهات الجنسية المباشرة، وان كانت قد تطرقت في معظم هذه القصص، وخاصة الشعرية منها، الى التغني بحسن ومفاتن المحبوبة في جسمها وحركتها وصوتها وغيرها من جواذب المرأة الاخرى. وهذا التطرق الى حسن المرأة وجمالها لا يعني بالضرورة ان غايته جنسية، ذلك ان جسد المحبوبة في مثل هذه الحالة هو نقطة ارتكاز تجعل من العاطفة امراً واقعياً لا خيالياً، وهو يملأ الفراغ في حياة المحب بكيان محسوس، وليس هنالك اجمل من جسد المرأة لتجسيد هذه

العاطفة في الواقع المحسوس. وان كان الشاعر العربي قد وجد في جمال الليل والقمر والخيل والإبل والصحراء وكثبانها والسيف والرمح ما يجسد احساسه بالجمال، غير ان اي محاولة لابعاد الحب العذري عن غايات الجسد والجنس، هي محاولة تعكس نظرة مبسطة لواقع العاطفة الانسانية ومحل الدوافع الجنسية من هذه العاطفة، وهذا لا يعني ان المحب العذري كان يموه عن حبه ويتستر بشعره على غاياته الجنسية، ولعل الاكثر صواباً في التفسير هو ان الحب العذري في حد ذاته وبما صاحبه من الم ووجد ومعاناة كان وما زال يخدم اغراضاً نفسية معينة في حياة المحب، وان كانت هذه الاغراض غير واضحة في نفسه حتى مع ارتباطها بشخص معين وتركيزها على امل الوصل به واستحالة هذا الوصل. وتحليل هذه الاغراض النفسية لا بد له ان يأخذ بعين المراعاة الخصائص الشخصية للفرد والبيئة الحضارية التي يعيشها وما يتمثل فيها من عرف وتقاليد بما في ذلك النظرة للمرأة وحدود التعبير الممكنة للتعبير عن مكانتها في نفس الرجل. ومن متابعة مسيرة الحب العذري، وخاصة ما عبر عنه في الشعر الغزلي، لا بد لنا ان نخلص الى الرأي بان الحب العذري ما هو الا العاطفة التي تربط الرجل بالمرأة في ظروف يتعذر فيها الوصل بينهما. ومأساته تكمن في انه حب لا ينقضي ولا وصول إليه ولا وصل فيه. أما فقدان الاشارة أو التنويه بأي أصول جنسية له، فان ذلك يعود إلى التقاليد السائدة، والتي أوجبت الامتناع عن هذه الاشارة أو التنويه عنها أما لأن مثل ذلك قد يفسد معنى الحب، أو لأن مثل ذلك التعبير قد يثير ردود فعل عند من يعنيهم الأمر. وهكذا يبدو ان البيئة الحضارية التي نشأ وتواصل فيها الحب العذري لم تسمح بما يتجاوز حدود الالتزام التي تقيد بها المحب في حياته أو شعره. وهكذا فلم يكن بد من بقاء الدافع الجنسي، مهما كان فعله في تحريك العاطفة أو استغلالها أو في التعبير عنها شعراً أو نثراً، خافياً ومتستراً يحرك المحب بقوة غير واعية وغير منظورة وكأنه قدر قد حل به، وعليه ان يحققه حتى ولو كان لذلك ان ينتهي بفنائه.

* *

ان محاولة تشبيه الحب العذري بالحب الافلاطوني هي محاولة خاطئة. فاصول النوعين من الحب مختلفة ومتباعدة. فالحب العذري عاطفي الاصول بدوي السمات، والحب الافلاطوني فلسفي المعاني حضري السمات، غير انهما اشتركا في ان الحب يدفع بصاحبه الى التضحية والموت في سبيل من يحب. وما يفرق النوعين من الحب اكثر من اي شيء آخر هو ان اسمى انواع الحب بالنسبة لافلاطون هو حب الشباب والذي يربط بين الرجل والشاب الذي بدأ يرشد، وهو الحب الذي تلتقي فيه عاطفة الحب للشباب مع السعي نحو الفلسفة والفضيلة. والذي فيه يعطي الحب الحكمة والفضيلة لمن يحب، بينما يسعى المحبوب للحصول عليهما. وقد عدّ افلاطون التزاوج بينهما في الروح تزاوجاً اقوى رابطة وأعظم صداقة وأبعد ايصالاً للخلود من الزواج الجسدي والذي يخلق الاولاد. وهكذا فهنالك فرق جذري بين الحب الافلاطوني والحب العذري وان التقيا في بعض الخصائص كحب ما هو جميل والسعي الدائم لتملكه، والتضحية في سبيله وتجاوز الجسد كهدف له.

اما العلاقة بين الحب العذري والحب الرومانسي فهي علاقة اكثر وضوحاً، ذلك ان الحب الرومانسي قد بدأت اصوله بتأثير مباشر من الحضارة العربية في الاندلس على الاقوام المجاورة لها في اسبانيا وفرنسا. ومن ذلك التأثير انتشار الغزل في الشعر العربي، بما في ذلك الغزل العذري، من العرب الى جيرانهم، ومع الفارق في الحضارة وظروف الحياة والخصائص النفسية بين العرب وغيرهم، الا ان الاوروبيين قد اخذوا عن العرب تقاليدهم في الغزل العذري، وقد احتفظوا بهذه التقاليد واهمها الحب العفيف والممتنع والذي لا امل فيه، مع التضحية في سبيله، غير ان هذا الحب قد تطور فيما بعد، كما تطور الحب العذري في صدر الاسلام وبعده، الى حب حسي هدفه الوصول الى امتلاك المحبوب. وكما بقيت هنالك حتى اليوم مظاهر وامثلة عديدة للحب العذري الاصيل، فقد بقيت مثله مظاهر مماثلة عديدة للحب الرومانسي في حضارات مختلفة، واستمرارية ذلك يدلل على ان العوامل التي دفعت الى نشوء هذه الانماط في الحب ما زالت قائمة في النفس الانسانية وان لا سبيل للقضاء عليها او التعويض عنها حتى بظهور وانتشار اقصى درجات التسامح في العلائق الجنسية. ولعل في بقاء مثل هذا الحب ووسائله التعبيرية اقوى دافع يحرك النفس الانسانية ويشدها الى ما هو جميل ومثالي ونبيل. وهي العناصر اللازمة للخلق وللخلود.

الحب الأفلاطوني

الحب الافلاطوني يرتبط كما هو واضح باسم افلاطون الفيلسوف الاغريقي، كما انه يقترن في اذهان الناس بانه الرابطة التي تربط بين شخصين وبدون اي غرض جسدي. ولعل هذا يقترب الى حد ما فقط مما عناه افلاطون بالحب الذي ينسب اليه.

لقد عبر افلاطون عن ارائه بالحب في محاورته «الوليمة» Symposium، وجاءت هذه الآراء على لسان المشاركين في هذا الحوار. وقد ادرك افلاطون ان هنالك انماطاً من الحب. غير انه لم يجد بينها الا نمطاً واحداً حرياً بالتقدير. ويفرق افلاطون بين نوعين من الحب، ويقول: «اننا كلنا نعلم ان الحب لا يمكن فصله عن افروديت، ولو كانت هنالك افروديت واحدة لكان هنالك حب واحد فقط، ولكن لما كانت هنالك ربتان للحب فلم يكن هنالك بد من وجود حبيبين.. فالكبرى منهما، والتي لا ام لها، والتي تسمى ايضاً افروديت السماوية فهي ابنة يورانوس، والصغرى، والتي هي ابنة لزيوس وديوان ـ وهي التي نسميها بالعادية، والحب الذي يرتبط بها يدعى صواباً بالعادي والحب الآخر يدعى بالسماوي. وعلى جميع الآلهة ان تسبح لهما. ولكن ليس بدون التمييز بين طبيعتيهما». ويرى افلاطون ان ليس كل حب هو نبيل وحري بالمديح، بل ذلك الحب الذي له هدف نبيل. فالحب الذي هو من نسل افروديت العادية، هو حب عادي بالضرورة وليس له المقدرة على التمييز، وهو من النوع الدنيء الذي يشعر به الرجال ومثلهم النساء والشباب، وهو من الجسم وليس من الروح. ويقول افلاطون عن هذا الحب: «ان اكثر الناس غباء هم موضع هذا الحب»، وهو الحب الذي يرمي فقط لكسب غايته، ولكنه لا يفكر ابداً في تحقيق هذه الغاية بنبل، وهكذا فانه يفعل الخير والشر بدون تمييز، فالربة

التي هي امه اصغر بكثير من الربة الاخرى، وقد ولدت من الجماع بين الذكر والانثى واخذت من الاثنين. غير ان نسل افروديت السماوية مستمد من ربة لا نصيب للام في ولادتها، فهي من الذكر فقط، وهذا هو ذلك الحب للشباب، والربة لكونها أكبر، فليس هنالك عندها فجور، واولئك الذين يلهمون بهذا الحب يتجهون نحو الذكر، ويجدون مسرة في ذلك الذي هو اكثر شجاعة وذكاء في طبيعته..».

* *

من هذا النص الافلاطوني وغيره، يتضح ان افلاطون نظر الى الحب نظرة ثنائية، فهنالك الحب الذي يشغل نفسه بجسد المحبوب سواء كان موضوعه شخصين من جنس واحد او جنسين مختلفين. وهو في نظره الحب الادنى مرتبة بالقياس مع الحب الآخر وهو الحب الذي يشغل نفسه بفكر وشخصية المحبوب، وهو الحب الصادق في نظره، والحب الاعلى مرتبة والذي يوصل صاحبه الى السعادة الحقيقية. وللوصول الى هذا النوع الصادق واللاجسدي من الحب، فان افلاطون يجد الساعي نحوه يتدرج على مراحل ابتداء من تأمل حسن جسد المحبوب، ثم الحسن الجسدي بصورة عامة ويلي ذلك تأمل جمال العقل والروح واخيراً تأمل الصورة الصافية او جوهر الحسن في ذاته، وهو جوهر مفرد وبسيط وابدي ولا يزداد او ينقص او يتغير وهو يضفي الجمال على الاشياء. وقد شبه افلاطون نوعي الحب الجسدي والفكري والروحي، بعربة يجرها جوادان مجنحان، احدهما جواد اصيل ولطيف، ويصبو الى ان يجر سائق العربة الى الاعلى الى حضرة المثال، بينما الجواد الآخر، فهو جواد شرس عنود ودائم الا فلات وراء ارضاء الجسد. وفي تصوير افلاطون ان السيطرة على الحب يمكن ان تحدث اذا ما درب الجواد المشاكس لكي يعود الى توافق مع الجواد الاصيل. واذا ما كان السائق ناجحاً في هذه السيطرة، فان الجوادين معاً سيحملان المحب ومن يحب بعيداً عن عالم الاحاسيس والى رؤية الحسن المطلق والذي وحده قد جعلهما حسنين ومحبوبين الواحد في عين الآخر. وهكذا فان الحب بالنسبة لأفلاطون يصبح الوصول المشترك الى السيطرة على النفس والذي يمكن، عن طريق الوصول اليه، على الشفاء من امراض الشهوة الجسدية، وخلاصة مفهوم الحب بالنسبة لافلاطون هو ان الحب الجسدي هو الحب الادنى بالقياس مع الحب الصادق، سواء كان الحب الجسدي حباً مثلياً (لنفس الجنس) او حباً للجنس الآخر ، وان العلاقة العلاقة الجنسية تنزل من قيمة الانسان والى حيث العاطفة الهوجاء التي تتميز بها الوحوش، ولذلك فقد دفع افلاطون بالرغبة الجنسية الى أدنى مراتب النفس، كما اكد على ان حالة الخير الصادقة خالية من كل فعالية جنسية.

ان افلاطون لم يكن وحده من بين فلاسفة الاغريق الذي عني بموضوع الحب، فقد تناول هذا الموضوع غيره من الفلاسفة وان كانت الآراء الافلاطونية اكثرها تركيزاً ووضوحاً وكان لها اثرها على من تلاه من الفلاسفة وبالتالي على النظرة المسيحية للحب وخاصة في الحضارة الاوروبية. ومن الذين تناولوا هذا الموضوع بالبحث هو الفيلسوف ديمقريطس Democritus، والذي رأى ان اللذة هي الغاية التي يسعى اليها بالطبيعة جميع بني البشر، بينما هم يتجنبون

الالم. غير ان جميع الملذات ليست متساوية من حيث الخير، فملذات الاحاسيس قصيرة الامد ومثيرة وتؤدي في النهاية الى الافراط والالم، وهي غير مرغوب فيها كلذات العقل الهادئة والمعتدلة والخالية من الالم. والفضيلة بالنسبة لديمقريطس هي في ممارسة الذكاء، ولما كانت الفعالية الجنسية تتدخل بلذات العقل، فقد ادان هذه الفعاليات. ومن الاقوال التي تنسب اليه في هذا الامر قوله: «هنالك بعض الرجال ممن هم سادة البلاد، غير انهم عبيد للنساء. . . ». ومن آرائه الاخرى ان اعظم عار على الفرد هو في ان تحكمه امرأة. . . وقوله ان جمال الجسد انما هو جاذب حيواني الا اذا كان الذكاء موجوداً ايضاً.

اما الفيلسوف ابيقور Epicurus تلميذ دومقريطس، فقد كان من رأيه ان عشرة النساء لم تفد رجلاً قط. وان الحياة الجيدة لا يمكن ان تنجم عن المعاشرة الجنسية للنساء. اما لوقريتوس الروماني Lucretius (٩٨ - ٥٤ق.م)، فمن رأيه ان الرغبة الجنسية مرض، وان ما من شفاء لها سواء كان ذلك بالعلاقة الجنسية المخالفة (بين ذكر وانثى) او المثلية (بين طرفين من جنس واحد)، واستنتج ان الرجل الحكيم يستطيع تفادي الوقوع في الجنون كلياً، ذلك لان الجنس لا يستطيع ان يوصل الانسان الى الحياة المثالية الصافية. ولم ينته مفهوم الحب الافلاطوني بانتهاء الحضارة اليونانية، بل تواصل هذا المفهوم في الحضارة الاوروبية. ففي ايطاليا في القرن الخامس عشر اتخذ من الحب الافلاطوني موضوعاً أدبياً، وجاء ذلك بسبب ترجمة عدد من محاورات افلاطون، وعدّ الحب الافلاطوني ظاهرة فكرية غير جنسية. ومن الذين مجدوا الحب الافلاطوني كاستليوني Castiglione (١٥٢٨) الذي عدّ الحب الجنسي على مستوى الحب الحيواني، وان الغاية من الحب الصادق هو رفع الرجال الى مرتبة اسمى، وان للحب الروحي من الرجل للمرأة ان يفعل ذلك. واكثر ما سمح به كاستليوني هو القبلة، وهي تعطى ليس لغرض ايقاظ الرغبات غير العفيفة، وانما لكي تؤدي الى وحدة الروحين. فالفم وان كان جزءاً من الجسم الا انه ايضاً منفذ للروح. وهنالك من نظر الى الحب الافلاطوني على انه يمجد العلاقة الشهوانية بين فردين من جنس واحد. ومن هؤلاء مارسيلو فينينو Marcilio Finino (١٤٤٣ - ١٤٤٩) والذي استشهد بافلاطون وكتب يقول ان اكثر الناس ملاءمة للحب الروحي هم الذكور دون الاناث والمراهقون دون الاطفال. وفي القرن السادس عشر استشهد فلامنيو نوبلي Flamino Nobili بافلاطون في خكمه بان جمال الشاب هو اكثر ملاءمة من جمال الفتاة لغرض اثارة الرغبات الوجدانية للفكر، وبان اولئك الذين يحبون النساء هم اكثر خصباً وابداعاً في الجسم منهم في الروح. وهو يرى ان جمال الرجل لا يثير الرغبة الشهوانية التي يثيرها جمال المرأة، ولهذا حسب رأيه فان افلاطون قد حث على حب الذكور لانهم لا يسمحون لانفسهم ان يندفعوا وراء شهوة خادعة والتي تمجها الطبيعة كلياً.

وفي فترة لاحقة عدّ الحب الافلاطوني وسيلة لتسويغ العلاقة التي قد تكون جنسية مثلية ومن انها علاقة فكرية اخلاقية. وحاول فسينيو Ficinio ان يجعل من الحب الافلاطوني اساساً للعلاقات الشخصية. فقد رأى ان الحب هو القوة التي تمكن الرجال من ان يتغيروا فيصيروا

نبلاء. وان هذه القوة تنشأ من المشاركة في الحياة التأملية، فالارواح التي تمتزج بنتيجة حبها للتأمل ولله فانها ترفع الرجال فوق مستوى الوحوش التي لا تفكر في الحب.

وبالنسبة لبيترو بومبو Pietro Bombo (١٤٧٠ - ١٥٤٧) فان الحب خير لا نهاية له. ولا يمكن ابداً فهمه فهماً كاملاً. وهو ليس كالرغبة، وان كانت الرغبة غير ممكنة بدون حب. ومن رأيه ان الطبيعة، وهي لا تخطيء، قد اعطت الرجل قوة الارادة لكي ينحدر عن طريق الاحاسيس ليكون حيواناً، او ان يرتفع عن طريق العقل الى مراتب اسمى. وعن طريق الحب فالفرد في نظره (اما يظل حيواناً قذراً او يصبح الهاً..).

وقد استغلت الحركة الرومانسية بعض نواحي الفكر الافلاطوني واحيت رأيه بان كل فرد هو فقط نصف وجود كامل وبانه ربما يستطيع في مكان ما ان يعثر على النصف والشقيق الروحي التوأم المفقود، وهذه الامكانية هي وحدها التي يمكن ان تحقق للفرد التمام الكامل لشخصيته. هذا وقد تناولنا آراء الحركة الرومانسية في الحب الافلاطوني في الفقرة الخاصة بالحب الرومانسي.

الحب الرومانسي

اتخذ مصطلح الحب الرومانسي معاني مختلفة في مسيرته التاريخية منذ ظهوره في العصور الوسطى وحتى عصرنا الحاضر. ففي العصور الوسطى قامت رابطة قوية بين الذكور من النبلاء الشباب ممن اقتضى تدريبهم على الفروسية ضرورة معيشتهم في جماعات صغيرة، وتعلموا خلال ذلك ان يحب بعضهم بعضاً كاخوة تحت اشراف رجل اكبر منهم سناً. وقد نما بينهم بالضرورة شعور من العداء للمرأة. ولما كات هذه الفترة الحياتية تستمر الى ما يتراوح بين سن الحادية عشرة والثلاثين عندما يتم زواجهم، فان طبيعة هذه الحياة في عزلة عن الاناث قد شجعت على ممارسة اللواطية بينهم. وهكذا فان هنالك بعض الشبه في هذه العلاقة من الحب مع الحب الافلاطوني.

وفي بداية القرن الحادي عشر للميلاد ظهرت بوادر حركة عرفت بالحركةالرومانسية، وقد ابتدأت الحركة في بدايتها في جنوب فرنسا وعلى يد بعض الشعراء. وهنالك ادلة تبين ان هؤلاء الشعراء والذين يعرفون (بالتروبادورز) قد تأثروا بقصص الحب العذري التي وردت على لسان الشعراء العرب والتي انتقلت اليهم من العرب في الاندلس. ويقال ايضاً ان هؤلاء الشعراء في تجوالهم كانوا يخصون فقط النبلاء، من الذكور بمديحهم والتغني بفروسيتهم، وأن أحدهم في تجواله قد ام قلعة لاحد النبلاء. ووقف بالباب يغني امجاده طمعاً في عشاء ومأوى، ومن سوء حظه لم يكن النبيل في قلعته عندئذ، كما ان زوجته لم تعر نشيده اي اهتمام، وبدافع قوي من الجوع والحاجة للمبيت، بدل الشاعر من هدفه وراح يغني بجمال وكرم سيدة القصر التي اخذت بهذا المديح، فآوته واطعمته واكرمته بافضل مما كان يتوقع من النبيل سيد القصر. وهكذا انتشرت تقاليد مدح النبيلات من الشعراء.. ومنهم إلى غيرهم من الفرسان النبلاء الذين جمعوا بين موهبة الشعر والغناء والفروسية، غير ان هذا المديح اقتصر فقط على النساء المتزوجات من النبيلات، كما خلا

المديح بما ينم عن اي غرض جنسي. وقد اتخذ هذا النوع من العلاقة صفة مأساوية تربط بين الشاعر او الفارس وبين من يحب، دفعته الى التفاني والقيام باعمال عظيمة لخدمة من يحب وتبرير حبه، واصبح هذا النوع من الحب حباً صادقاً لانه لا وصل فيه،فهو لا يؤدي الى العلاقة الجنسية لانِ الطرف الآخر منه هي سيدة نبيلة ومتزوجة والتي لا يمكن تصورها الا امرأة لا يمكن الوصول اليها والوصل بها. وكما هو واضح فان هنالك بعض اوجه الشبه بين هذا النوع من الحب وبين الحب العذري الذي اتسم ايضاً بمظاهر الفروسية والمأساوية من حيث انه حب لا امل ولا وصل فيه. وكما ان الحب العذري قد غنى الحب بالالم والمعاناة فان الحب الرومانسي فيه من عبادة وتغزل. وقد كان من الطبيعي ان تؤدي بعض هذه الحالات من الحب الحب الرومانسي الى الوصل والزنا. غير ان تقاليد حب الفروسية قد حزمت هذا المسلك، كما ادانه الشعراء في العصور الوسطى ونظروا الى مرتكبيه نظرة ازدراء، ومع مرور الزمن تحول هذا النمط من الحب الرومانسي والذي خلا من الجنس، الى اتجاه تدريجي نحو العلاقة الجنسية، فمن نظام الامتيازات الخاصة لحظوة النبيلة أو الملكة من قبل فرسانها، إلى جعل العلاقة الجنسية مع واحد او اكثر من هؤلاء الفرسان جزءاً من هذه الامتيازات، وهو التقليد المعروف في القرن السادس عشر وما بعده.

وفي مثل هذا الجو، لم يكن هنالك بد من عزل الحب عن الجنس وعن الزواج، وقد ساعد على هذا الفصل رأي الكنيسة في الجنس والزواج. فالكنيسة رأت في الجنس الخطيئة الاولى، وسوغته فقط في الزواج، وحتى عندئذ لاغراض الانجاب، ومن الناحية الرومانسية نظرت الى العلاقة الجنسية في الزواج على انها تفسد الحب، ولهذا فلا بد للحب ان يكون حباً غير جنسي وان لا ينتهي بالزواج. ولعل هذه النظرة هي التي شجعت ظهور حب العذراء، وما ينوه به هذا الحب من الالتزام والتفاني في خدمتها والى ظهور جماعات الفرسان باسمها. والواقع ان مباركة الكنيسة للحب الرومانسي في بدايته هو الذي سهل انتشار هذا الحب وانتقاله عبر اقطار اوروبا.

وفي القرن السابع عشر تحول الحب الرومانسي من السيدة المتزوجة الى الفتاة الباكر، وفي القرن التاسع عشر تحول الحب الرومانسي إلى علاقة حب قبل الزواج وتمهيداً له، وعدّ هذا النوع من الحب، خاصة في الطبقة الوسطى، انه العلاقة المثلى التي تربط الحب بالزواج والزواج بالوصل الجنسي. ومع هذا التحول للحب الرومانسي من عاطفة لا امل فيها للوصل، الى عاطفة تهدف الى الزواج وتنتهي بالوصل، الا ان هذا التحول الجذري لم يفقد الحب الرومانسي محتواه الاساسي وهو محتوى من المعاناة والالم في شعور المحب مع ما يدفع اليه ذلك من الالتزام والتفاني والتكريس والى الحدود المأساوية للمشاركين فيه. ولعلنا نتوقع ان يقل ورود مثل هذه النمط من الحب الرومانسي في حياة الانسان المعاصر بما تهيأ له من فرص جنسية وامكانيات التقارب بين الجنسين مما لم يتيسر له في الماضي، الا ان الواقع يدلل على ان مثل هذه الرابطة العاطفية هي في تزايد مستمر وبأنها لا تمثل العلاقة الطبيعية اللازمة قبل التفكير في الزواج والاقدام عليه، وهو الامر الذي يدلل على ان العاطفة الانسانية بما في ذلك الحاجات الجنسية تحتاج الى اشكال غير مباشرة من صور التعبير التي يتخذها الحب من نوع او آخر وفي زمن او آخر.

الحركة الرومانسية والحب

يختلط احياناً مفهوم الحب الرومانسي الذي اشرنا اليه، مع مفهوم الحركة الرومانسية. فمع اشتراكهما في المصطلح، الا ان بدايتهما مختلفة، ومحتواها الفكري مختلف ايضاً. فقد بدأت الحركة الرومانسية كرد فعل للآراء العقلانية للفلاسفة المتنورين والمتحررين والذين ادعوا ان الانسان وحاجاته في الحياة يمكن لها ان تكون موضوعية. وعلى خلاف هذه النظرة فان الرومانسيين اعتقدوا ان الانسان يمثل ما هو أكثر من مجرد المجموع لاجزائه، وان اغفال هذه المسألة معناه الاغفال لعناصر ضرورية للانسان ومعالمه. اما بداية الحركة فيمكن نسبها الى كتابات جان جاك روسو وجوهان ولفجانج Wolfgang، والشاعر جوته. وقد بلغت الحركة اوج تأثيرها في القرن التاسع عشر في المانيا ومنها انتشرت في بلدان اوروبية أخرى. وينظر الى الحركة الرومانسية على انها حركة تحررية للجنس في بعض نواحيها، وذلك انها تؤكد على الوجد والعاطفة بوصفهما شيئين مستقلين عن الفكر العقلاني، كما انها تستبدل الروح الناقدة بأخرى تخيلية وتتسم بتأكيدها على الوجد الجسدي، وباعترافها بعدم الثبات الجنسي، وبتنميتها للعاطفة والاحساس من اجل ذاتيهما. وبالنسبة للحركة الرومانسية فان للجنس فائدة ايجابية على شريطة ان يحدث ذلك ضمن علاقة نفسية عنيفة، وان الجنس يمكن ان يحدث فقط بين المتحابين والذين يتميزون باسمى العواطف. والجنس لذلك هو علاقة غير مشروعة الا اذا كان المحبان قد ربطا بروابط عاطفية وفكرية اضافة الى الرابطة الجسدية، وهكذا فان العلاقات الزوجية التي تخلو من الحب فانها تستدعي ضرورة الحل والانهاء. واذا ما وجد الحب الصادق، فان المحبين يندمجان بصورة كاملة في الجسم والروح، والى الحد الذي يصبح فيه الحب الصادق مثيلاً للاخلاص. ومن الذين حملوا مثل هذا الرأي الشاعر الرومانسي شلي، فالحب في نظره ليس شيئاً ابدياً، فالواحد يمكن ان يقع في الحب اكثر من مرة، وهو يقول: «على الزوج والزوجة ان يستمرا مرتبطين ما داما يحبان الواحد الآخر، واي قانون يحتم ارتباطها للعيش معاً لبرهة واحدة بعد نفاد عاطفتهما، فانه طغيان لا يحتمل». واتخذت الحركة الرومانسية مسارات عدة، ومن هذه الاتجاه نحو تحرير المرأة، فنظر اليها على انها حرمت من انسانيتها في عالم يحكمه الرجال، وانها في حاجة لان تتحرر من عبوديتها لهم. وفي القرن التاسع عشر تحولت الرومانسية بحيث انها نظرت الى الزواج على انه النتيجة الطبيعية للحب الرومانسي. وهنالك من اتجه، الالمان اولاً، ثم الانجليز، نحو تمجيد الحب الجنسي المثلي بين اثنين من جنس واحد.

الحب النرجسي

اشتق مصطلح النرجسية والحب النرجسي، من الاسطورة الاغريقية التي تحكي قصة الشاب الجميل نارسيسوس، او نرجس، Narcissus والذي وقع في حب خيال في الماء لم يدر بانه انعكاس لصورته هو، وبالمفهوم التحليلي النفسي فان النرجسية تعني ان الطاقة الجنسية (اللبيدو) بعد ان تكون قد امتدت الى مواضيع خارجة عن ذات الفرد فانها تسحب من هذا الموضوع من جديد إلى الفرد ذاته.

لقد كان فرويد من اول المهتمين بموضوع النرجسية، ورأى فيها ظاهرة تحدث في حياة الكثيرين من الناس سواء الطبيعي منهم، او المصابين بامراض عقلية او نفسية، وفي بعض حالات التعب والارهاق. وقد ميز فرويد بين نوعين من النرجسية، النوع الاولي والنوع الثانوي، اما النوع الاولي (النرجسية الاولية) فهي نرجسية الطفل الصغير، فهو نرجسي بكامله، وطاقته (اللبدية) ـ الجنسية ـ مكرسة كلياً لسد حاجاته والمحافظة على وجوده. وفي هذا الدور فان الطفل لا يملك شعوراً ذاتياً نفسياً، وليس هنالك عنده من فرق بين ذاته وبين عالم الاشياء. وفي هذا الواقع من عدم التمييز، فان الطفل يعدّ كل ما في عالمه انه هو، وان قوة هذا العالم وكل ما هو فيه هي قوته، ومن هذا الشعور الذي يماثل شعور الصوفي عندما يتحد مع الكون كله في ذات واحـدة. اما النوع الآخر من النرجسية (النرجسية الثانوية)، فانه ينشأ في وقت لاحق من الطفولة، وعندما تتفرق الذات عن محيط الاشياء حولها، وعندما تحول ويربط بعض الطاقة اللبدية من الذات الى بعض الاشياء في المحيط الخارجي عنها. وهذا التحول في توجيه الطاقة يأتي بسبب ادراك الطفل ان التقليل من توتراته، بما في ذلك حصوله على اللذة، يأتيه بفعل شخص آخر، وهو لذلك يخصه ببعض طاقته اللبدية. وبهذا تتطور النرجسية الاولية الى علاقة موضوعية. وقد يحدث في هذا الدور ان الطفل يواجه الفشل والخذلان او الرفض من هذه الاشياء التي امدها بطاقته اللبدية، واذا حدث ذلك فانه يعود ويسحب منها هذه الطاقة ويستثمرها لنفسه بدلاً من ذلك. (فرويد ١٩١٤ ـ ١٩١٥). وقد حاول فرويد كما حاول غيره من المحللين النفسيين تتبع ما يحدث للنرجسية في الكبر. والرأي السائد عن هذا المصير بان النرجسية تعطي الطاقة اللازمة لنمو الانا. وتكوين القدر اللازم من تقدير الجنس واحترامها. اما من حيث العلاقة بين النرجسية وبين الحب او الجنس، فينظر الى النرجسية الطفولية على انها دور وسطي في النمو والتدرج نحو النضج الجنسي وبانها تتحول في النهاية الى حب شيء آخر خارج عن النفس والى تقدير للنفس. غير ان النرجسية قد لا تصرف بهذه المخارج الطبيعية اما كلياً أو جزئياً، وهو الامر الذي يؤدي الى نمو الفرد في اتجاه يدفعه الى الظهور بشخصية نرجسية، او نحو الانحراف الجنسي، او نحو اضطراب نفسي من نوع او آخر.

لقد اولى فرويد اهتماماً خاصاً للنزعة النرجسية في الفرد، وكيفية التوفيق بين اتجاهها نحو حب النفس من ناحية، وتوظيفها في حب شيء او شخص خارج عن النفس من ناحية اخرى. وهو امر يبدو في الظاهر حباً لشخص خارج عن النفس وماهو في الواقع الا انعكاس نرجسي على الخارج. وقد اعطى فرويد نموذجاً لهذه الظاهرة في دراسته النفسية للفنان ليوناردو دا فنشي بقوله: «الولد يكبت حبه لامه، يضع نفسه مكانها، يتشبه بها، ويتخذ من نفسه نموذجاً يختار على صورته موضوعاً جديداً لحبه. وبهذه الطريقة يصبح مثلي الجنسية (اللواطية). اما ما فعله في الواقع هو انه تراجع في اتجاه الجنسية الذاتية، ذلك ان الاولاد الذين يحبهم الآن وقد كبر، فما هم الا اشكال تعويضية وخلاصة لنفسه في طفولته... اولاد يحبهم بالطريقة التي احبته امه عندما كان طفلاً. وهو يجد اشخاص حبه على طريق النرجسية...».

وهكذا فان فرويد يجد ان الفرد يختار الشخص الذي يحبه في الكبر لانه يشابه الصورة التي

يحملها الفرد عن نفسه، وهي الصورة التي اتخذها مثلاً اعلى له، او لان ذلك الشخص يشبه الشخص الذي تولى العناية به في السنوات الاولى من حياته. والاخذ بهذا التفسير يعني ان حب النرجسي لغيره هو في اصوله حب لنفسه، ذلك انه يختار عادة من هو على صورته، كما انه يعني بان العلاقات الجنسية للنرجسي، سواء كانت علاقات طبيعية او منحرفة ما هي في النهاية الا علاقات ذاتية بين النرجسي وبين ذلك الذي يشابهه وكأنه يقوم بها مع نفسه في علاقة جنسية ذاتية، إلا أن هنالك فروقاً بينهما، فبينما الفرد في الجنسية الذاتية وهي الجنسية التي يتصف بها الاطفال الصغار في الادوار الثلاثة الاولى من نموهم النفسي الجنسي (الدور الفمي والدور الشرجي والدور القضيبي). يجدون متعتهم ولذتهم فيما يثير جسدهم بصورة كلية او جزئية، الا ان النرجسي يجد لذته في حب شيء او العلاقة مع شخص يمثل ذاته، وبهذا تتخذ ذاته معنى تجريدياً يختلف مع مادية الجسم في الجنسية الذاتية.

* *

ان النرجسية ومدى علاقتها بالحب من ناحية وبين الجنس من ناحية اخرى، ما زالت موضوعاً مهمًا يثير الكثير من محاولات التحليل والتفسير. ولعل من الخطأ ان نفترض ما افترضه فرويد من أن حب النفس بعد الأدوار الأولى من الحياة يمثل حالة مرضية، فحب النفس هو إلى حد ما جزء من مشاعر الحب التي يملكها الانسان وليس هنالك من خطر من احتفاظ الفرد بالقدر اللازم من هذا الحب لتعزيز هويته ولتقديره لذاته وهي السمات اللازمة له ليس للبقاء فقط وانما لتحقيق الامكانيات الذاتية والالتزام بالقيم العظمى في حياته. غير ان ما يزيد على ذلك لا بد له ان يأتي على حساب العلاقات الانسانية. وان يعدّ دليلاً على التخلخل والاضطراب في توجيه الطاقات النفسية. والكثير من اضطرابات وانحرافات السلوك والأمراض النفسية وحتى بعض الأمراض العقلية تفسر بأنها ناجمة عن مثل هذا الخلل والاضطراب.

الفصل الخامس والعشرون

الجاذبية الجنسية

* مقدمة
* الجاذبية بين الجنسين
* اقوال العرب في الجاذبية الجنسية
  ما ينظر اليه الرجل في الانثى
  ما تنظر اليه الانثى في الرجل
  ما تستحسنه النساء في النساء.
* الابحاث المعاصرة عن جاذبية الجنسين
  جواذب الانثى الجنسية
  السمات الجسمية في الذكور التي تستهوي الاناث
* الجاذبية الجنسية

الجاذبية الجنسية

ان العوامل الفعالية في حياة الانسان والتي تدفع الناس بعضهم نحو بعض هي العوامل المسؤولة عن قيام المجتمعات المختلفة بما فيها من نظم واعراف ومظاهر حضارية. وقد ابدى علماء النفس في السنوات الاخيرة اهتماماً خاصاً بدراسة هذه العوامل واسباب قيامها وطريقة فعلها وكيفية تطويرها، لخدمة غرض او آخر من اغراض الحياة الانسانية. ومن المواضيع التي اتجه اليها البحث موضوع الجاذبية في العلاقة بين الجنسين، وهو موضوع رئيسي في العلاقات الانسانية ويتضمن فعل الكثير من العوامل المؤثرة، كما انه يكون نقطة مركزية في التعامل الانساني يبنى عليها الكثير من النتائج والآثار الاجتماعية والحضارية والنفسية. ولبحث هذا الموضوع بشكل مجد، فانه يتوجب على الباحثين الاجابة على اسئلة عديدة منها: ما الذي يجذب الانسان نحو الآخر بالاصل؟ وما الذي يقرر انجذاب الفرد نحو فرد ما دون غيره؟ وما الذي يقرر التوافق بين فردين؟ وما الذي يوجه الذكر نحو انثى دون غيرها؟ او الانثى نحو ذكر دون غيره؟ وما الذي يقرر التوافق بينهما؟ وما هي الصفات التي ينجذب اليها الواحد مما هو في الآخر من ذكر او انثى؟ وما هو تأثير المجتمع والحضارة والعصر على هذه الجواذب؟. والجانب الآخر من الموضوع يتعلق بمدى ارتباط الجاذبية بالقضايا الجنسية، ومدى تأثيرها في الواقع والرغبة والاستجابة الجنسية. ومن الواضح ان الاجابة العلمية الصحيحة على هذه الاسئلة وغيرها ليست من السهولة بمكان، ذلك ان هنالك تبايناً عظيماً بين الناس فيما يجذبهم نحو غيرهم، وهو الامر الذي يجعل من الصعب على الباحث ان يتوصل الى قواعد عامة تفسر جميع الظواهر التي تلاحظ في هذا الموضوع. ومع هذه الصعوبة فان هنالك الكثير من البينات التاريخية والملاحظات

والدراسات المعاصرة التي تلقي الكثير من الضوء على هذه النواحي المختلفة من الموضوع والتي نختصر اهم ما جاء فيها فيما يلي:

الجاذبية بين الجنسين

تتوافر الجاذبية بين الجنسين في مراتب متعددة من الكائنات الحية، ولا شك انها تخدم في حياة هذه الكائنات اغراضاً حياتية هامة تعينها على النمو والبقاء والمحافظة على استمرار الصنف. وبعض هذه الاصناف من الحشرات وحتى الطيور والقردة تقوم باداء جواذب معينة، وبصورة غريزية لاستهواء الجنس الآخر. ولعل مثل هذه الضرورات البايولوجية الموجبة في حياة هذه الاصناف، تقوم في حياة الانسان ايضاً. ولعل الاستجابة اليها تقرر ايضاً عملية (الاختيار الطبيعي)، وهي عملية هامة لبقاء الجنس، وهي متوافرة في الانسان وغيره من الكائنات، وان كان للعقل الواعي والعاطفة الشخصية الانسانية اثرها في التحكم في هذه الظاهرة الغريزية، مما قد يجذب الانسان نحو فرد آخر لا تحقق العلاقة بينهما اهداف الاختيار الطبيعي في الحياة.

قد يكون من الصعب علينا التحقق من جواذب العلاقة بين الجنسين في العصور الاولى لما قبل التاريخ وقبل ان يتدجن الانسان في نظام عائلي. وربما كانت الحاجة الجنسية والمقدرة على ارضائها بالاغتصاب او بالموافقة هو النمط المعمول به في العلاقة الجنسية، غير ان قيام حاجة الرجل للاستئثار والتملك، ورغبة الانثى في الحماية والرعاية، قد ينجم عنها بالضرورة القيام بعمليات الاختيار او الاغراء من جانب او آخر لضمان تلبية هذه الحاجات. وربما لا يكون هنالك من شك في ان كلا الجنسين قد مال الى جواذب معينة في الجنس الآخر، وانه قد حاول ابراز جواذب معينة في نفسه لاغراء الطرف الآخر. ولا يمكن ان يهمل من هذه الجواذب ما يخدم الاغراض الجنسية في حد ذاتها، او بوصفها جزءاً من الاغراض الحياتية الاخرى. هذا ويتفق الباحثون على ان الاغراض الجنسية كانت الدوافع الاولى وربما الوحيدة في العلاقة بين الذكر والانثى قبل تكوين الاسرة وتوافر الاهتمام بالنسل. كما ان الاغراض الحياتية الاخرى كالمحافظة على النسل والابقاء على العائلة، حتمت ظهور جواذب من نوع آخر في العلاقة بين الجنسين. وتدل الآثار العائدة الى عصور ما قبل التاريخ على ان التأكيد في العلاقة بين الجنسين قد تركز على الانثى في البداية، ولعل هذا التركيز يتوافق مع دور سيطرة الانثى وعبادتها، لما خصت به من خصائص الحمل والولادة، والتي عدت خصائص مستمدة من قوى خارقة او سحرية. ومعظم الاكتشافات التصويرية في هذه العصور اظهرت الانثى حبلى منفوخة البطن، مليئة النهدين اشارة الى الارضاع والاطعام، او تجلس القرفصاء على عجزين كبيرين دلالة الاستعداد للوضع. والنماذج المتوافرة من هذه الآثار لا يمكن وصفها بالجمالية، مما يدلل على ان الجاذبية الجنسية لم تكن العنصر الهام في عبادة المرأة بل انصب الاهتمام الى الخلق والوفرة. اما التحول نحو الاسس الجمالية في جاذبية الانثى والذكر، فقد تأجل حتى قل فعل الانثى الخارق، واستبدل بعهد جديد من سيادة الذكر في الحياة الاجتماعية، بما في ذلك الاستئثار بالانثى وتملكها واختيارها. وتوجب على الانثى في هذه الحالة ان تجتذب الذكر بوسيلة او آخرى من وسائل

الاغراء بقيمتها بوصفها انثى جنسية، او اماً او ربة بيت، اومعيناً. وقد نشأ من حصيلة ذلك التفاعل بين الرجل والانثى لتلبية هذه الحاجات كل ما نعرفه من الآثار التاريخية في العلاقة بين الجنسين. وفيما يلي نبين باختصار الجواذب التي اعتقد الذكر والانثى في الحضارات المختلفة انها مغرية في الطرف الآخر. او ان وجودها فيه قد تغري الطرف الآخر. وفي استعراض هذه الجواذب نلاحظ صعوبة التوصل الى جواذب معينة وثابتة في اي من الجنسين، كما نلاحظ اختلاف هذه الجواذب بين حضارة واخرى ومجتمع وآخر، وحتى في المجتمع الواحد بين فرد وآخر. ولعل من العجيب ان نجد بأن العرب في الجاهلية من الجنسين كانوا أسبق من في الحضارات القديمة الى تناول هذا الموضوع وبالدقة والتفصيل، فعينوا ما يجذب الانثى للذكر، والذكر للانثى، وما يعتقد الذكر انه جاذب فيه للانثى، وما تعتقد الانثى انه جاذب للذكر فيها. ولهذا سنولي مساهماتهم في هذا الموضوع انتباهاً خاصاً، ولا سيما ان محاولات العرب القدامى تتشابه الى حد بعيد مع الابحاث المعاصرة والحديثة التي اتجهت الى تحليل الجواذب بين الجنسين على اسس مماثلة.

العرب في جاذبية الجنسين

مصادرنا في مآثر العرب في الجاهلية وصدر الاسلام هي النصوص الادبية من شعر او نثر، وحظ هذه النصوص من صدق القول وزمنه وظروفه هو امر يتعذر تقريره، غير ان تواتر هذه النصوص في حد ذاته قد يدلل على قيام محاولات عديدة لتحديد الجواذب بين الجنسين في وقت او آخر من تاريخ العرب الطويل. والذي يلاحظ في هذه المحاولات هو ان معظمها اتجهت الى كشف نواحي الجاذبية في الانثى، ومواطن الاغراء عندها للذكر، كما يلاحظ ان التعبير عن هذه النواحي اتخذ اجمل التعابير النثرية والشعرية مما يدلل على ان العرب قد ربطوا منذ وقت مبكر بين الجواذب الجنسية وبين النواحي الجمالية الابداعية في حياتهم. ولنا لذلك ان نجد في ابداعهم الشعري او النثري في التعبير عن جاذبية الانثى ما يتساوى مع التعبير الابداعي لحضارات اخرى وباساليب متنوعة كالنحت والسيراميك في الحضارة اليونانية والرومانية، والرسم في حضارة الرينسانس والعصر الحديث.

ما ينظر إليه الرجل في الأنثى

توافرت المتناقضات عند العرب فيما يجذبهم من سمات الانثى او يدفعهم نحوها، فهم في الوقت الذي بينوا فيه الصفات الجمالية التي يجب ان تتحلى بها الانثى، الا انهم في عين الوقت اظهروا تخوفاً من الانثى الجميلة، فقد خشوا ان يكون في خضوعهم للجمال اذلالٌ لهم، وان يؤدي بهم ذلك الى «الرغبة، وبلوى المنازعة، وشدة الصبوة، وعواقب الفتنة». غير ان آخرين رأوا غير هذا الرأي، ووجدوا في جمال المرأة صفة لازمة، وأدعى لاستدامة الالفة بين الذكر والانثى. وقد تناقل العرب اوصاف المرأة الجسمية والخلقية التي تستهوي بها قلب الرجل وعقله، وكانوا اكثر اطناباً وتفنناً في انتقاء الاوصاف الجسمية، ومنها وصف الاخوين في الجاهلية

عمرو وربيعة، عندما سألهما ابوهما الشيخ عن صفات احب النساء اليهما، فاجاب عمرو: «المركولة، اللقاء المكورة الجيداء، التي يشفى السقيم كلامها، ويبرىء الوهيب المامها. . . الفاترة الطرف. الفلة الكف، العميمة الردف.». اما اخوه ربيعة فقال في وصفها: «الفتانة العينين، والاسيلة الخدين، الكاعب الثديين، الرداح الوركين، الشاكرة للقليل، المساعدة للحليل، الرخيمة الكلام.». وقال في وصفها عربي آخر وهو يوصي صاحبه بالزواج من مثلها فقال له: «خذ ملساء القدمين، لفاء الفخذين. . ناهدة الثديين حمراء الخدين، كحلاء العينين زجاء الحاجبين، لمياء الشفتين. . غيداء العنق، مكسرة البطن. .». وقال آخر: «معتدلة الخلق نقية اللون والثغر، بيضاء، وطفاء، كحلاء دعجاء، حوراء، عيناء، قنواء، شماء، برجاء، رجاء، اسيلة الخد، شهية المقبل، جثة الشعر، عظيمة الهامة. . عيطاء، عريضة الصدر، كاعب الثدي. . . لطيفة الكعب والقدم، قطوف المشي، ليست بخنساء ولا سنعاء، رقيقة الانف، عزيزة النفس. . رزينة، حليمة، ركينة كريمة الخال، قطيعة اللسان رهوة الصوت، ان اردتها اشتهت، وان تركتها انتهت. .».

وفي وصف الانثى المغرية للرجل ما قالته امرأة من كندة يقال لها عصام، ارسلها الحارث ابن عمرو ملك كندة لتخبره عن اوصاف ابنة عوف وقد اخبر بكمالها وجمالها وقوة عقلها، ولما عادت عصام استنطقها بالقول المأثور «ما وراءك يا عصام»؟، قالت: «. . . رأيت وجهاً كالمرآة المصقولة، يزينها شعر حالك كاذناب الخيل. . وحاجبين كأنهما خطا بقلم، او سودا بحمم. . بينهما انف كحد السيف الصنيع، حفت به وجنتان كالارجوان في بياض كالجمان، شفافية فم كالخاتم، لذيذ المبتسم، فيه ثنايا غر، ذات اشر، تقلب فيه لسان بفصاحة وبيان، بعقل وافر وجواب حاضر، تلتقي فيه شفتان حمراوان تجلبان ريقاً كالشهد اذ دلك، وفي رقبة بيضاء كالفضة ركبت في صدر كتمثال دمية، وعضوان مدمجان، يتصل بهما ذراعان ليس فيهما عظم يمس ولا عرق يجبس. . نتأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها، تحت ذلك بطن طوى على القاطي المدمجة. كسر عكنا كالقراطيس المدرجة، تحيط بتلك العكن سترة كالمدهن المجلو، خلف ذلك ظهر فيه كالجدول، ينتهي الى خصر، لو لا رحمة الله لانبتر، لها كفل يعقدها اذا نهضت، وينهضها اذا قعدت كأنه دعص رمل. . تحمله فخذان لفا كأنما قلبا على نضد جمال، تحتهما ساقان خدلتان، كالبردتين وشيتا بشعر اسود كأنه حلف الزرد، يحمل ذلك قدمان كحدو اللسان، فتبارك الله كيف تطيقان حمل ما فوقهما». وبسماع هذه الاوصاف ارسل ملك كندة من يخطبها له من ابيها وتزوج منها. ومن يتابع الرواية يجد ما اوصت به الام ابنتها من ان تتمثل به زينة وسلوكاً وادباً لكي تفي بحق الزوجية كاملاً. وهو كلام من اروع ما يمكن ان يقال في حالة كهذه.

ومن هذه الاوصاف في جاذبية الانثى، وفي غيرها من الاوصاف المذمومة في النساء جسماً وسلوكاً وفكراً، نجد اتفاقاً عظيماً بين الخصائص التي تضفي على الانثى صفة الجمال والجاذبية، سواء عينَّ الرجال هذه الخصائص او عينتها النساء، وهذا التوافق بينهما يدلل على ان قدامى

العرب قد نظروا الى جمال الانثى على اسس جمالية مثالية في التكامل بين الجسم والفعل. ومع ان الصفات التي اوردوها قد تكون نادرة، ان لم تكن مستحيلة في الانثى الواحدة، الا ان اوصافهم كانت اشبه ما تكون بالنحات اليوناني ينحت تمثالاً لفينوس ربة الجمال، ويتخذ نموذجاً لذلك ما هو اجمل ما في عينيه وخياله من مجموعة كبيرة من الحسان، وهذا الشبه واضح في الوصف الاخير الذي اتينا على ذكره في قول عصام: «ركبت في صدر كصدر تمثال دمية». ومن الواضح ايضاً ان العامل الجنسي لم يكن هو العامل المثير لهذه الجمالية في الوصف، بالنظر لتساوي وصف الرجل ووصف المرأة لنواحي الروعة في الانثى، غير ان ذلك لا ينفي ان الارتباط قائم بين الجمال والجنس في اذهان اصحابها وبانها وضعت لتخدم غرض اثارة الرغبة، وحفز الشهوة، واذكاء الخيال بالوصل. ومع كل ذلك، ومع ما هو واضح من المنزلة العليا الجمالية للانثى في نفوس العرب وتواقهم للوصل معها، الا انهم توخوا شرف الفضيلة في الزوجة على حسن الجسد، فكانوا اقرب ما يكون لقول صيفي بن اكثم لولده: «يا بني، لا يحملنكم جمال النساء عن صراحة النسب، فان المناكح اللئيمة مدرجة للشرف». وسعوا لذلك الى «الزوجة ماجدة الاعراق، والبادي عفافها، وذات محاسن الاخلاق والتدبير والمعاشرة». ولما لم يكن من السهل على العربي ان يوفق بين من يتمثل فيها الغاية من الجمال والصلاح للزوجة في آن واحد، فقد اتجه الى التوفيق في ذلك بالبحث عن خصائص الزوجة في مجال وخصائص الجمال في مجال آخر، فكانت لهم الزوجة الحرة، وكانت لهم من دونها الأمة او الجارية. . وفي محاولة الجمع بينهما، بدا وكأن الواحد يعيش حيزين في آن واحد. ولعل للعرب في تاريخهم القديم منذ الجاهلية وما بعدها، من مظاهر الجمع بين الحالتين ما لا يقل عن محاولات غيرهم ان لم يزد عنها بكثير، ولعلهم استطاعوا اكثر من غيرهم في حضارات اخرى الى انشاء نمط خاص من حياة الجواري تكون بسببه ابداع حضاري في الادب والشعر والموسيقى والغناء مما لا يمكن مجاراته في اي حضارة اخرى.

ما تنظر إليه المرأة في الرجل

وكما ورد على لسان عرب الجاهلية من اوصاف جاذبة في الانثى، وردت ايضاً اوصاف للرجل الذي تنجذب اليه الانثى. ومن هذه الاوصاف ما توخته ابنة قيل من أقيال حمير في من يكون زوجاً لها: «فان يكون محمود الاخلاق مأمون البوائق، فقد ادركت بغيتي. . على انه ينبغي الا ان يكون كفوءاً كريماً، يسود عشيرته ويرب فصيلته، لا اتقنع به عاراً في حياتي، ولا ارفع به شناراً لقومي بعد وفاتي. .». وطلبت البنت من صديقاتها ان يتفرقن ويبحثن عن زوج ملائم لمواصفاتها، فعدن، وقد عثرت كل واحدة منها على ما يمكن عدّه المثل الاعلى للرجل في عين الانثى، فقالت الاولى: «غيث في المحل، ثمال في الازل، مفيد مبيد. .». وقالت الثانية وجدته: «مصامص النسب، كريم راضي، كامل الادب، غزير العطايا، مقتبل الشباب. . امره ماض، وعشيره راض». وقالت الثالثة: «عظيم المرافد، يعطي قبل السؤال، ونبيل قبل ان يستنال، في العشيرة معظم، وفي الندى مكرم. . .». فاختارت الثاني، وكان لها زوجاً رضيت

به. ومثل ذلك قول ثلاث بنات في صفات الرجل الذي يتمنين زواجه، فقالت الاولى: «.. اريده اروع بساماً.. سيد ناديه، وثمال عافية، فناؤه رحب، وقياده صعب..». وقالت الثانية: «.. اريده عالي السناء عظيم نار، منمم ايسار، هو في الاصل صبي، وفي الجيش كمي، تستعبده الحليلة وتسوده الفضيلة..». وقالت الثالثة: «اريده كالمهند الصمصام، قرانه حبور، ولقاؤه سرور، ان ضم قضقضني، وان دسّر اغمض، وان اخل احمض». ولا يخرج عن ذلك كثيراً ما يروى على لسان احد عشر امرأة متزوجة في قرية من قرى اليمن في الجاهلية. وهن يصفن ازواجهن الواحدة بعد الاخرى بما يذم في الرجال وما يستحسن من صفاتهم. والاوصاف في الحالين عديدة، ومن المتعذر اثباتها في هذا المجال غير ان الرجوع اليها يعطي القارىء من دقة الوصف ومتعته ما لا يباريه دقة او متعة.

ما تستحسنه النساء في النساء

كان لنساء عرب الجاهلية رأيهن في اي النساء افضل من بعض. وهذا يعكس ما يعتقدن ان الرجال يفضلونه في المرأة. وروي في امر هذا الموضوع روايات كثيرة تصف فيها الانثى افضل النساء، ومن هذه الروايات ما رواه الميداني عن العجفاء بنت علقمة السعدي وثلاث نسوة من قومها وهن يتسامرن ويفاضلن بين الانـاث. فقالت احـداهن في وصفها: «الخرود الـودود الولود». وقالت الثانية: «خيرهن ذات الغنـاء، وطيب الثناء وشـدة الحياء». وقـالت الثالثـة: «خيرهن السموع الجمـوع النفوع غـير المنوع». وقـالت الرابعـة: «خيرهن الجـامعة لاهلهـا، الوادعة الرافعة لا الواضعة».

**

يتضح من هذه الروايات عـلى اختلافهـا وبصرف النـظر عن صحة من تنسب اليهم ان العرب في الجاهلية قد اولوا خصائص الرجال والنساء اهتماماً عظيماً. ومن الواضح ايضاً غلبة الاوصاف الجمالية التي اضفيت على الانثى المحببة والمرموقة من الرجال، وغلبة الاوصاف التي تمثل المنزلة والكرامة والشجاعة والقيادة في مـا يحبب الرجـل والانثى. ومع ان العـرب في هذه المرحلة من تاريخهم، وحتى في مراحل لاحقة، قد نظروا الى المرأة بعين الزوجة المنجبة للاولاد، فارادوها ذات عفة وشرف ونسب واصل، الا انهم نظروا في الوقت ذاته بعين جمالية ثانية، تمنوا فيها زوجة كالتي نعتوها في اوصافهم الحالمة، واذا ما تعذر ذلك الا على السيد او المقتدر، راحوا يحققون ذلك باقتناء الأمة او الجارية التي تحقق لهم ما لم يجدوه في زوجاتهم من بنات احلامهم، او ظلوا يداعبون احلامهم بالفاظ الادب ومعانيه، وكأن هذه الالفاظ والمعـاني جسد الانثى في كل موطن وشكل ولون وحركة. وربما لا يكون هنالك بد من تفسير هـذه الوفـرة العارمـة من روايات الادب والشعر في التغني بمحاسن الانثى، سواء كان ذلك في عصـر الجاهليـة او صدر الاسلام وما تلا ذلك من العصور. وقد يقال في تفسير ذلـك اشياء كثيـرة، غير ان اي تفسـير صادق لهذه الظاهرة لا بد ان يتفق مع الملاحظة بان طبيعة الحيـاة، من بيئة ونمط ومجتمـع، قد

جعلت من العربي اكثر توجهاً للقضايا الجنسية من الكثيرين من ابناء المجتمعات والحضارات الاخرى. وقد وصل هذا التوجه الى حدود التسلط على عاطفته وفكره. وهي ظاهرة ما زلنا نلمسها بوضوح حتى الآن. غير ان الخضوع المطلق لهذا التسلط عن طريق ارضائه من النواحي البايولوجية فقط، من شأنه ان يحد من قابلية الفرد على مواجهة واقع الحياة، وخاصة في بيئة قاسية صارمة، ولم يكن هنالك بد لذلك من ان يرفع العربي بعض رغباته الجنسية الى مرتبة جمالية تكون فيه رمزاً يعوضه عن بعض ما لا يستطيعه او لا يفيده في حياته الجنسية. وهذا في اعتقادي هو احد الاسباب الهامة، ان لم يكن اهمها، في تفسير هذا الاقتران الهائل بين الجنس والجمال عند العرب مما قل ان نراه في حياة شعوب اخرى. وقد نجم عن بعض هذا الاقتران ما حظيت به المرأة من الاوصاف الرائعة والمعجزة في الادب الجاهلي والادب العربي منذ صدر الاسلام وحتى يومنا هذا، وفيه تظهر المرأة وكأنها قدت من صخرة الخيال جزءاً جزءاً، وكأنها مخلوق جديد لا علاقة له بالواقع. وبهذا يكون العرب قد رفعوا المرأة الى حدود الكمال التي توخاها اليونانيون في تماثيلهم للمرأة، والى حد الكمال الكوني المبني على الرياضيات عندهم. والفارق بينهما هو الفارق بين حسابات الارقام وحسابات الرموز وتجسيد الواحد بالحجر والقياس والثاني بالالفاظ والمعاني. ولعلنا نجد الفارق الحقيقي بين الحضارتين ليس فارقاً في الحسابات او تجسيدها بالحجر او الكلمة، وانما هو فارق بين الكمال العقلي والكمال العاطفي، فالمرأة خلقت في ذهن الفنان اليوناني من فعل العقل وتأمل كمال الكون، وخلقت في خيال الفنان العربي من فعل العاطفة والرغبة. ومع ان الخلق جاء جميلاً في الحالتين، الا انه خلق بدأ من مواطن الجسم والشهوة عند العرب. وارتفع الى اعلى، وبدأ من مواطن العقل والفكر عند اليونان ومن تأمل الكون وانحدر الى اسفل.

الأبحاث المعاصرة عن جاذبية الجنسين

جرت في السنوات الاخيرة ابحاث علمية عديدة لبيان الخصائص التي تقرر عملية الجاذبية بين الجنسين، وقد شملت هذه الابحاث بيان الخصائص الجسمية والخصائص السلوكية والعقلية. وقد صممت بعض الدراسات في هذا الموضوع بحيث تتناول الخصائص الجاذبة من زوايا اربعة، ما يجذب الانثى للذكر، وما يعتقد الذكر ان ما فيه يجذب الانثى، وما يجذب الذكر للانثى، وما تظن الانثى انه يجذب الذكر اليها. وقد تمخضت عن هذه الابحاث نتائج عديدة، وان كانت متفاوتة احياناً بين باحث وآخر. وبالنظر لان هذه الابحاث قليلة ومحصورة في مجتمعات معينة، فان من الصعب تعميم نتائجها على شكل قواعد عامة يمكن تطبيقها على مجتمعات اخرى. غير ان من القواعد التي يمكن النظر اليها على انها قواعد عامة، هي ان العناصر الجسمية في العلاقات بين الناس، هي عناصر هامة وفعالة في تكوين هذه العلاقات والابقاء عليها، ومن هذه القواعد ايضاً هو ان العناصر الجسمية هي عناصر هامة في تقرير العلاقة بين الاطفال والاحداث والمراهقين. وتفيد الدراسات المتعددة على ما يجذب الاطفال والاحداث بعضهم الى بعض بان من كان جذاباً منهم، ذكراً او انثى، حظي بقبول

اكبر من اقرانهم من غيرهم ممن هم اقل جاذبية منهم، كما ان الاطفال والاحداث ذوي الجاذبية يحبون ويقبلون بشكل اعظم من اقرانهم من نفس الجنس ومن الجنس المغاير، وبان الذين لا جاذبية لهم يكرهون من اقرانهم (ديون وآخرون Dion) (١٩٧٤). وقد وجد (ديون ١٩٧٧) ان جاذبية الوجه تعدّ نقطة الارتكاز الاولى للجاذبية، وانها تساعد صاحبها او المتعامل معه، على اقامة علاقات اجتماعية اكثر استدامة واكثر اتساماً بالصداقة، كما ان لذلك اثراً بيناً في توجيه السلوك نحو مسالك لا تتسم بالضعف والعدوانية والايذاء للغير. وفي دراسات اخرى تبين بشكل عام ان الافراد الاكثر جاذبية يملكون في نظر من يتعاملون معهم خصائص ايجابية بعكس الذين لا يملكون هذه الجاذبية والذين ينظر اليهم على انهم يحملون خصائص سلبية. وفي دراسة قام بها سولومون وساكس Solomon and Saxs (١٩٧٩) عرضت فيها صور انثى بالفيديو، وبشكل جعلها تبدو احياناً جذابة واحياناً غير جذابة، من الناحية الجسمية، مع تعليق ينوه بمستوى ذكائها، افادت الدراسة بان الجاذبية الجسمية والذكاء لهما تأثير هام في تكوين انطباع الجاذبية الكلية عند المشاهد. وافادت الدراسة بان الناس على العموم في حكمهم على جاذبية الغير يتصفون بالكسل. ذلك انهم لا يكلفون انفسهم مشقة التعمق، ويحكمون على الشيء من مظاهره الواضحة فقط، وبانهم في حكمهم على ذلك، يبنون صرحاً من الاحكام على هذا الاساس الضحل من الملاحظة، وهذا ما يحدث في معظم المقابلات القصيرة لاغراض العمل والدراسة والتوظيف، وهذا يدلل على ان الذين ينفعلون بسرعة لمظاهر جسمية في شخص يرونه جذاباً يستخدمون هذا الانفعال السريع ويستعملون المعلومات التي تفيد بها في بناء احكامهم النهائية. ومثل هذه العملية من الانطباع تحدث عادة في التعارف والتعامل بين الناس. ففي دراسات معينة وزع فيها الطلبة عشوائياً بالكومبيوتر، تبين ان ما يدفع الجنسين بعضهم الى بعض بالتعارف واللقاء في البداية يعتمد الجواذب الجسمية، وهي نتيجة تؤيدها الملاحظات في المجتمعات الطلابية وغيرها من المجتمعات التي تجمع بين الجنسين لاول مرة.

جواذب الأنثى الجسمية

هنالك فروق حضارية، وفردية في الحضارة الواحدة، فيما يجذب الرجل من سمات الانثى. ومع هذه الفروق، فانه يبدو ان السمات الجسدية في الانثى هي اكثر سمات الانثى جاذبية للذكر، وان هذه السمات تقرر مدى متابعة الذكر للاهتمام بالانثى. اما الفروق بين الافراد، فانها تعكس خصائص شخصية الذكر وخلفيته الاجتماعية والحضارية والثقافية. وفي الدراسات الحديثة التي قامت بها سالي بك Sally Beck في جامعة بتلر في امريكا (١٩٧٩) ووجن Wiggins (١٩٦٨)، تبينت المعلومات التالية: «ان الرجال الذين يختارون الانثى الضخمة (البدينة) هم عادة غير مستقرين عاطفياً، وان اهتماماتهم قليلة بالتحصيل الاكاديمي او بالامور الجمالية. اما الاناث معتدلات الحجم فقد اختارهن الذكور الذين يتمتعون بالشعور بالمسؤولية الاجتماعية والذين يميلون عادة الى التقليل من شأن انفسهم وبالانتباه الى دواخل ذاتهم. اما الذكور الذين يختارون الاناث الضئيلات جسمياً، فانهم يتصفون بعدم الثبات في عاداتهم الشخصية وفي عملهم. وافادت الدراستان بان الذكور الذين يفضلون النهود الكبيرة يميلون عادة

نحو العنف والاستقلالية في الحياة، بينما اولئك الذكور الذين يفضلون النهود الصغيرة فانهم **يميلون عادة إلى السلبية، كما انهم يقللون من شأن انفسهم، اضافة الى انهم غير حاسمين في آرائهم.**
وافادت الدراستان ايضاً بان الذكور الذين يميلون الى الألية الضخمة في الانثى فانهم يتصفون عادة بتصور ضعيف لانفسهم، والتقليل منها، كما انهم يعانون من صعوبات في التكيف، اما اولئك الذين يختارون السيقان الضخمة، فهم يتمتعون بشخصية هادئة ويشعرون بالمسؤولية وهم يركزون انتباههم على افكارهم ومشاعرهم، بينما الذين يميلون الى السيقان الصغيرة الناحلة فانهم عادة يتمتعون بميول جمالية، ويجدون مشقة في مواجهة الضغوط، غير ان هنالك منهم من يتسم بالتواكل الاجتماعي او يسعى لان يجلب الانتباه.

السمات الجسمية في الذكور التي تستهوي الاناث

هنالك بعض السمات الجسمية في الذكور والتي تجتذب الاناث. وعلى العموم فان الاناث اقل من الذكور انجذاباً بالسمات الجسمية، والمواصفات التي تستهوي الاناث في الذكور لا تتوافق مع ما يعتقد الذكور انها تستهوي الاناث. وقد افادت الدراستان السابقتان بالنتائج التالية: **«يستهوي الصدر معتدل الحجم الاناث، غير ان الانجذاب إلى الصدر الضخم كان قليلاً جداً، كما ان الرجال ضخام الجسم يفضلون من قبل الاناث اللواتي يملن إلى الألعاب الرياضية** والفعالية الجسمية واللواتي ينظرن الى انفسهن على انهن اقل انوثة، اما معتدلو الحجم في الذكور فانهم يجذبون الاناث اللواتي يتصفن بالانوثة والاهتمامات البيئية. اما الذكور الضعاف **النحاف، فانهم يفضلون من قبل الاناث المتحفظات من مستويات اقتصادية واجتماعية أعلى.**
أما من حيث الأجزاء الجسدية في الذكر، فان الاناث اللواتي يملن إلى الرجل صاحب الصدر الضخم او الاليتين الصغيرتين فانهم يتجهن عادة الى التحصيل، وخاصة التحصيل الاكاديمي، اما اللواتي يخترن الصدور والسيقان الصغيرة، فهن عادة حاسمات في آرائهن كما انهن سلبيات...».

* *

ان ما يجذب الذكر في الانثى او الانثى في الذكر لاغراض الزواج او الصداقة او المصاحبة ليس بالضرورة هو ما يجلب الواحد نحو الآخر للاغراض الجنسية، وقد دللت الدراسات على وجود تباين كبير بين ما يعتقده الرجل جاذباً للانثى، وبين ما تعتقده الانثى جاذباً لها من سمات الرجل ومثيراً لرغباتها. فالذكور يعتقدون ان ما يجذب الانثى من سماتهم هي المظاهر الجسمية المثالية حسب اهميتها التنازلية وهي: الصدر والاكتاف العضلية، والاذرع العضلية، وطول القامة وضخامة الاعضاء الجنسية. غير ان ما يجذب الانثى بالفعل من خصائص الذكور تختلف عن ذلك تماماً، وقد افادت الاناث بان ما يجذبهن في الذكور هي الصفات الجسمية التالية حسب جاذبيتها التنازلية «الألية الصغيرة، والجسم الناحل المعتدل والبطن المنبسط، والعيون المعبرة».
ومن هذا التضارب في الجواذب يتضح ان الذكور يجدون ان الصفات الجذابة فيهم هي تلك التي تفرق الذكر عن الانثى، غير ان الامر غير ذلك للمرأة، وهو الامر الذي يبدو ان الذكور لا

يدركونه من ميول الاناث.

الجاذبية الجنسية

ان ما يجذب الواحد نحو الآخر لاغراض العلاقة الجنسية لا يتساوى بالضرورة مع ما يجذب الواحد نحو الآخر لاغراض اخرى. غير ان بعض العناصر المكونة للجاذبية الجنسية تتوافر عادة في معظم حالات الجاذبية بين الذكر والانثى. وهذا الواقع هو اكثر وجوداً في الذكر منه في الانثى، فالذكور، كما اتضح من نصوص الادب ومفردات الفنون، وكما تأيد من الابحاث المعاصرة التي اشرنا اليها، هم اكثر من الاناث تأثراً بالسمات الجسمية في اختيارهم من يرغبون التعرف عليها او مصادقتها او الزواج منها. كما ان ما يثيرهم جنسياً في هذه العلاقة يكون الاساس لاي علاقة اخرى سواء وعى الفرد لذلك في نفسه او لم يعه. ويمكن ان نستخلص من نفس هذه المصادر ان ما يجذب الانثى نحو الذكر يختلف جذرياً عن ما يجذب الذكر اليها، مما يعطي الانطباع بان النواحي الجنسية في جاذبية الانثى نحو الرجل ولاي غرض، تأخذ دوراً ثانوياً واقل شأناً، وهذا التفاوت بين الجنسين ربما لا يكمن في الفروق البايولوجية بين الجنسين بقدر ما يكمن في الفروق الاجتماعية والحضارية، وهي فروق تسمح للذكر بالاختيار على اسس جنسية، كنقطة ابتداء في الاقل، بينما تدفع الانثى للتوجه بجاذبية تحقق لها الحماية والرعاية والاطمئنان. ومن الواضح ان هذه العوامل المقررة لبعض نواحي الجاذبية بين الجنسين آخذة في التبدل، ذلك ان الدور الحياتي لكل من الجنسين آخذ في التبدل، والى حال يقلل من الفجوة بينهما، وذلك لسبب ما اصاب الانثى من عوامل التغيير في العصرالحديث بما في ذلك ضمان حريتها وثقافتها ومورد رزقها. وقد سمح هذا التغير للانثى بان تمارس حق الاختيار في علاقتها مع الذكر بما في ذلك العلاقة الجنسية، ولهذا يتوقع للانثى في العصر القائم والعصور القادمة، ان تظهر من ميولها الاصيلة اكثر مما ظهر حتى الآن، وان تمارس هذه الميول بحرية الذكر وصراحته. غير ان ما من احد يعلم على اي نحو ستستقر العلاقة بين الجنسين في حالة التساوي بينهما، فالواضح مما بيناه من نصوص او نتائج ابحاث دراسية او ملاحظات بديهية هو ان التباين بين الجنسين في مواقفهما المعلنة او الضمنية نحو الامور الجنسية، يكون في حد ذاته القوة الجاذبة بين الجنسين، ذلك ان تحويل الدوافع الجنسية الى دوافع اخرى يجعل الارضاء الجنسي العامل الأكثر صعوبة واقل ارضاء، وفي هذا يكمن سعي الانسان الذي لا ينقضي نحو هذا الكمال والارضاء، وهو سعي يتزايد مشقة بازدياد فعل الحضارة على البدائية البايولوجية، او بازدياد فعل العقل على العاطفة. واذا ما استطاع الانسان بفعل التطور او الانحدار ان يرتد من جديد الى اصوله البايولوجية بما تحمله من تيسير للعلاقة الجنسية المباشرة والمفرغة من الشهوة العقلية، فان لهذا التطور ان يمحو جميع عناصر الجاذبية بين الجنسين، ولمثل هذا ان يحدث التساوي او التشابه بين الجنسين في ميولهما وفي العناصر المكونة لهذه الميول وللجاذبية بينهما. فالتطابق بين الجنسين في هذه العناصر لا يحقق بالضرورة التوافق بينهما، فالتنافر بين الجنسين هو اكثر ضماناً لحدوث التكامل بينهما، فهو يكوِّن في آن واحد البعد بينهما، كما يكون امكانية فيض طاقة الواحد نحو الآخر. ولعل مثل هذا التأمل هو الذي عناه د. هـ لورنس في تعريفه للجاذبية الجنسية بانها «النار

فيها تتحد بالناري. . ». وهذا التأمل يتفق مع ما هو ملاحظ في ان الجنسين في علاقتهما الواحد بالآخر، لا يعرف الذكر ما الذي يجذب الانثى منه، ولا تعرف الانثى ما الذي يجذب الذكر منها، وكلما ظلت هذه المعرفة عصية على الاثنين، كلما حقق ذلك الجاذبية بينهما.

مساعدات الجاذبية

هنالك من العوامل المقررة للجاذبية بشكل عام، والجنسية بشكل خاص، مما هو ليس من خصائص الفرد ذاته، الجسمية منها، او غير الجسمية. وقد ادرك الانسان منذ القدم ذكراً او انثى فعل هذه العوامل في جذب الجنسين بعضاً الى بعض، وفي اثارة الرغبة الجنسية واستجاباتها. ومعظم الوسائل المستعملة كانت وما زالت تهدف الى اظهار وتأكيد محاسن الواحد او الآخر من الجنسين، مما ينقل انطباع رجولة الرجل الى الانثى، وانوثة الانثى الى الذكر، وان كان معظم التأكيد وعبء جلب الحسن قد وقع على الانثى اكثر من وقوعه على الذكر، الا ان للرجال قديماً وحديثاً طرقهم الخاصة في الظهور على ما يعتقدونه مغرياً للانثى. وهكذا فلا يمكن لاحد ان يفصل بين اساليب اللباس وفن الزينة عبر العصور، وحتى عصرنا هذا، عن معانيها في الجاذبية الجنسية سواء كانت هذه المعاني واعية وواضحة، او خفية وغير واضحة على القائم بها والمتعرض لفعلها. واذا كان لا بد من تفسير مثل هذه الجواذب التجميلية، فلعلنا نجد ذلك في ان هذه الجواذب الاضافية من قيافة ولباس وزينة تهدف الى اظهار مواطن الاثارة في اي من الجنسين على احسن حالها، او انها بجماليتها تضفي على الناقص من هذه المواطن ما يغطي النقص ويكمله. والمحاولة في مجموعها تمثل استعداد الفرد لقبول الخداع ولو الى حين. وكأنه يطبق المبدأ الذي يقول «ان كل جميل جيد». . ومع ان محاولة جلب الحسن بوسائل مصطنعة هو القاعدة في السلوك الانساني، الا ان هنالك الكثير من الشواذ عن هذه القاعدة. فهنالك البعض من الذكور والاناث ممن يجدون الجاذبية الصحيحة في الجنس المقابل في ان يكون على حاله بدون حسن مجلوب، كما ان هنالك البعض، ولعل ذلك يمثل درجة من درجات الانحراف، ممن ينجذبون جنسياً الى فرد آخر وهو في اردأ ما يكون حسناً وتجميلاً. والذي يلاحظ بشكل متزايد في بعض الحضارات هو الميل الى الظهور بشكل حيواني او بدائي من حيث الهيئة الجسميه واللباس، وحتى في استعمال العطور واختيارها وبهدف تعزيز الروائح الجسدية، وانتشار مثل هذه الاتجاهات لا يمكن تفسيره فقط على اساس من الانحراف في الميول والاستجابات الجنسية.

فيمرون والجاذبية الجنسية Phemerone

فيمرون هو المصطلح الذي سميت به المادة التي يفرزها الكائن الى خارج جسمه والتي «يستلمها إحساس كائن آخر. والتي تحدث في هذا الكائن الآخر من نفس الصنف انفعالاً محدداً اما على شكل سلوك معين أو عملية نمو». ومنذ ان وضع هذا المصطلح عام ١٩٥٩، وسع مفاده ليعني مركباً كيمياوياً معيناً وواضحاً يفرز لخدمة هذا الغرض من الانفعال والاستجابة. وقد افادت الأبحاث البايولوجية بأن هذه المادة الكيمياوية ذات أثر كبير في سلوك الحشرات، وبأنها مادة شبيهة بالهرمونات وان كان تأثيرها يقع على المستلمات الحسية الخارجية. وتحدث هذه المواد

لفعلها في المعرض لها أما بشكل أوليات أو مطلقات. ففي الشكل الأول تكون الاستجابة متأخرة، وفي الحالة الثانية تكون سريعة وآنية. وكمثال على الفيمرون المطلق، فان دودة القز الأنثى التي نطلقها تؤدي إلى الاهتزاز في الذكر والذي يبدأ في خلال ثانيتين. ويعطي العلماء البايولوجيون أمثلة عدة على النوع الأولي من الفيمرون، وهو النوع البطيء الفعالية، ومنها مثل الجراد، حيث ان الفيمرون من الأنثى الناضجة يسارع في نمو الجراد الذكر.

لقد جلبت هذه الملاحظات اهتمام الباحثين عن السلوك الحيواني، وعن اهمية خاصة الشم في هذا السلوك، وعن امكانية وجود مثل هذه المادة وتأثيراتها على مراتب عليا من الحيوان بما في ذلك الانسان. وفي حالة هذا الوجود، استقصاء امكانية استعمالها (كمشهيات) جنسية تساعد المصابين بعطل جنسي على تجاوز عطلهم. ومع ان بعض الباحثين قد بشروا بهذا الاكتشاف وبفوائده، غير انه لا يتوافر حتى الآن اي دليل قاطع على ان هذا المركب الكيمياوي موجود في الانسان كما هو في الكائنات الاخرى. ونفي هذا الوجود لا يعني ان حاسة الشم هي حاسة غير فعالة في الجاذبية الجنسية، كما لا يعني انه لا توجد هنالك افرازات معينة في جسم كل من الجنسين تخدم اغراضاً مماثلة لفعلها كجاذب للجنس في كائنات اخرى، وإن كان من الجلي ان معظم الناس يحاولون طمس روائح هذه الافرازات باستعمال العطور المختلفة. هذا وما زال موضوع (الفيمرون) بالنسبة للسلوك الجنسي الانساني قيد البحث، ومع ان العلماء ينفون ان يكون لخاصة الشم اثرها في الجاذبية الجنسية، الا ان الانسان، على غير ما هو الحال عند الكثير من المراتب الحية الاخرى، لديه القابلية على ان يعوض عن عطل حاسة، باستعمال حاسة اخرى. وعلى كل حال فقد يجد الباحثون ما يعزز نظرية (الفيمرون) في ما يلاحظ من السلوك البوهيمي البدائي في الامور الجنسية.

الفصل السادس والعشرون

الفن والجنس

* الفن والجنس
* الفن الخلاعي والجنس (البورنوغرافي)

تأثير الفن الخلاعي :

على الشخص الطبيعي

على الاشخاص غير الطبيعيين

الاستعمالات العلاجية للبورنوغرافي

الفن والجنس

الباحث في موضوع العلاقة بين الفن والجنس، يجد من اوجه هذه العلاقة ما هو اكثر واعمق مما يبدو في ظاهر الامر. فكلاهما يشتركان في غاية واحدة، وهي غاية تعين على الحياة والبقاء، الفن لان الجمالية فيه تجعل الحياة مقبولة، والجنس لانه يجعل بقاء الجنس ممكناً. وكلاهما يستغل خصائص الجانب الثاني لبلوغ غايته، فالفن يستغل السمات الانسانية من شكل ولون وصوت وحركة لتكون عناصر اساسية في النتاج الفني، والجنس يستغل الاداة الفنية لتعزيز الانتباه والرغبة والاقبال على العلاقة الجنسية. وقيام مثل هذه العلاقة بين الناحيتين، الجنس والفن، لم يكن كله بفعل الانسان، ذلك ان اساسه متوافر في طبيعة الانسان، وله ما يماثله في طبيعة الحيوانات والحشرات وغيرها من الكائنات الحية، التي تخدم العناصر الفنية في حياتها من صوت او لون او شكل او حركة غايات جنسية، وبالتالي حياتية وبقائية. والامثلة على هذه كثيرة في حياة بعض فصائل الحيوان وفي الطيور والاسماك وبعض الحشرات. وعلى هذا، ومنذ البداية، فان الجنس بالنسبة للانسان لم يكن مجرد واقع غريزي او فيزيولوجي غير مرتبط باحاسيس او مشاعر اخرى. فهذا الواقع الغريزي البايولوجي على طاقته الكامنة، الا انه يحتاج الى ما يثيره ويحفزه الى التعبير عن امكانيته، وهي الاثارة التي لا بد ان تأتي من مصادر اخرى حسية وذهنية، والتي تبدو في الظاهر انها غير جنسية، الا انها في الواقع وثيقة الاتصال بالحياة الجنسية. ومن هذا الاساس للرابطة المشتركة بين الفن والجنس في حياة الانسان، تواصل الارتباط بينهما وازداد توثقاً مع مرور الزمن ومنذ بزوغ الحضارات الانسانية وحتى الآن. وكان من نتيجة هذا الارتباط ان حمل الجنس بمعاني ومفاهيم حضارية وطقوسية ودينية وجمالية

ووجدانية، واصبح في حاجة اعظم للاستعانـة باذوات الفن والفكـر للتعبير عن هـذه المفاهيم وتعزيزها، اما بصورة مباشرة او بصورة رمزية او بغيرها من الصور التي يمكن لها ان تعبـر عن هذه المفاهيم والمعاني الواعية او غير الواعية في حياة الانسان.

**

لقد كان وما زال من الطبيعي ان يتجه الفن منذ البـداية الى جسم الانسـان، وخاصـة الانثى لتكون موضوعاً للفن. كما كان وما زال من الطبيعي ان يتخذ الجنس من الجسـم، وجسم المرأة بصفة خاصة، رمزاً للحاجة الجنسية. غير ان بداية اهتمام الفن بـالجسم وخاصـة جسم الانثى لم يكن مبعثة الجنس بوصفه لذة او متعة. وانما على اساس انه مفهوم عبادي ينظر الى المرأة من وجهة نظر الخلق والاخصاب، وبانها بذلك ربة، او مثل الرب الخالق على الارض تستطيع ما لا يستطيعه احد. وقام الفنان القديم بصنع تماثيلها العارية وهي في بدانة الخصب والحمل. ويشك في ان الفنان او المشاهد لهذه التماثيل في تلك الفترات الانسانية البعيدة في القدم قد رأى في هذه الاجسام العارية ما يثير الرغبة في الجنس من اجل الجنس، غير انه لا يستبعد انه استطاع ان يدمج في شعور واحد الرغبة في الجنس والايمان بقدسيته والجمع بينهما في صورة المرأة الخالقة. وهنالك ما يعزز هذا التصور عن الانسان القديم من ملاحظة مكانة الفن الجسمي التعبيري في حياة المجتمعات البدائية المعاصرة، ومن متابعة مثل هذا النـوع من الفن الجنسي في حضارات عريقة قديمة مثل الفن اليوناني والهندي والصيني. فالتماثيل البدائية تؤكد، وخاصة في الأنثى، على تلك المناطق الجسمية التي تـوحي بالخصب، ولعلهـا استغلت لاغراض سحـرية خـدمت هذه الاغراض في حياة مثل هذه المجتمعات. وفي الفن اليونـاني (الاغريقي) كثـرت التماثيـل التي تؤكد على الشكل الجسمي الانساني وخاصة جسم الانثى بما في ذلك الاعضاء الجنسية لكل من الجنسين. وقد كان الدافع لهذا النوع من العمل الفني في البداية دينياً او اسطورياً، كما انه هدف الى تأكيد دور الانثى في عملية الخلق، ودور الرجل من حيث السلطة والحيوية. وهنالك مخلفات اثرية عديدة في العهد الاغريقي القديم والتي تصور باسلوب فاضح مختلف العلاقـات الجنسية المثلية منها وغير المثلية. وانتشار مثل هذه الصور في التماثيل او السيراميك او المصكوكات كلها تدلل على ان الغاية من هذا الفن الجنسي هي اطلاق الطاقة الجنسية، وان اطلاقها في حياة تلك المجتمعات يتوافق مع ما خصت به الآلهة من تقـدير وعـزة. واتجه الفن الاغـريقي الى الجسم واتخذه نموذجاً للجمال والتوازن، وخص جسم الرجل باهتمام أعظم في البداية ثم تحول الاهتمام إلى جسم الأنثى. ومع هذا التحول، ظهر تحول في نظرة الفنان نحو موضوع فنه، وظهر بنتيجة ذلك ما يمكن عدّه فناً من اجل اذكاء الرغبة الجنسية، او فنا جسميا، غير ان ظهور هذا الاتجاه عند الفنان وما يقابله عند المشاهد له لم يبطل كلياً الغـاية من الفن الجسـدي كوسيلة تعبيره عن المعتقدات الدينية او الاسطورية. وما حدث في الحضارة الاغـريقية منـذ بدايـة الفن لاغراض عبادية وطقوسية، وتطوره الى خدمة اغراض جنسية، والجمع بين الغايتين بمقادير متفاوتة، فقد حدث مثله في حضارات اخرى كالحضارة الرومانية والهندية والصينية وحضارة القرون الوسطى وعصور النهضة، فكانت الغلبة احياناً للفن من اجل الدين او لغاية تخليد الاساطير وتصويرها،

واحياناً اخرى لغاية التعبير عن الدوافع الجنسية ولاثارة الرغبة. وفي هذه الحالة الاخيرة، فان الفنان كان يعبر عن اهمية العامل الجنسي في حياته، وبالتالي يعكس هذا الاهتمام في فنه. ومن الواضح ان هذا الاهتمام من جانب الفنان قد تلاقى مع اهتمام مماثل من قبل العديدين في مختلف المجتمعات، والذين وجدوا في العمل الفني من الصور والرموز اكثر من مجرد التعبير الجمالي او الديني او الاسطوري، وقد كان من الصعب على الفنان في البداية ابراز النواحي الشهوانية في الفن بصورة مباشرة وصادقة، ولذلك فقد لجأ الى ابرازها بصورة غير مباشرة باستعمال المواضيع الدينية والاسطورية الكلاسيكية كما فعل بوتشللي وروفائييل. وفي بعض الحالات لم ينجح الفنان في اخفاء دوافعه الجنسية حتى في المواضيع الدينية كما حدث في صور الفنان مايكل انجلوا في كنيسة سستين في روما، والتي عُدّت بذيئة مما دعا البابا الى الامر بازالتها، ثم عدل عن ذلك وامر بالباس الاثواب للصور العارية للملائكة ولمريم العذراء وغيرهم من الشخصيات الدينية. هذا ولم يدم التحفظ طويلاً في هذه المواضيع، فاتسع نطاق التعبير الجنسي المباشر بوسائل فنية عديدة من نحت وصور واقاصيص وشعر وروايات وكتب وادلة، ومن هذه الاشكال العارية لبوتشللي وروفائيل وروماno، واغاني اريتينو Aretino، الاباحية، وكتاب بوكاشيوا ديكامرون The Decameron، وكتاب رابلية (كاركانتوا وبانتاجرول Gargantua and Pantagruel، وقصة دون جوان التي طورت في بلدان متعددة في أوروبا وأصبحت رمزاً يوحي بالفسق والفجور، ومذكرات كازانوفا، ومذكرات امرأة اللذات، وفاني براون، وروايات المركيز دي سيد والتي رفعت شعار ان الالم وليس اللذة هو اسمى شكل من اشكال النشاط الجنسي بالنسبة للانثى، وظهور المازوخية على اثر روايات مازوخ، وظهور الملاحم التي تبين وسائل العنف والقسوة الجنسية، والكتب ذات العلاقة بالجنسية المثلية، والتي شجع ظهورها التقدير للحضارة الاغريقية وحضارة النهضة في ايطاليا. كما ظهرت كتيبات وادلة مختلفة تؤكد على الناحية الجنسية في الزواج وتشجع على العبث الجنسي السابق للجنس الفعلي. وقد تسترت هذه الكتيبات وراء ما روي من قول ارسطو ان الجنس شيء حسن، وانه جزء ضروري من الحياة وانه عطاء من الله نقبله ونتمتع به.. وقد كان لهذا القول تأثير عظيم على الحضارة الغربية ومواقفها من الجنس، ان لم يكن لشيء، الا انه قدّم مسوغاً استند اليه في التوجه نحو نظرة متسامحة للجنس في الحياة، كما انه سهل للفن الاوروبي الغربي لكي يتخذ من المواضيع الجنسية لغة رمزية، وان يختار من هذه المواضيع تلك الاشكال والرموز التي تثير الشعور. وهو الشعور الذي كان له ان يظل بدون ذلك بعيداً عن امكانية التعبير عنه، وباتخاذ الفن المواضيع ذات المغزى الاخلاقي ظاهرياً، فان ذلك قد جعل المحتوى مقبولاً ومسوغاً لدى الفنان ولدى المشاهد على حد سواء.

* *

ان انتشار الفنون ذات المواضيع او الدلالات الجنسية، قد حدث في حضارات اخرى غير الحضارة اليونانية والاوروبية، وبعض هذه الحضارات قد تأثر بالحضارة اليونانية كما هو الحال في الحضارة الهندية، وبعضها جاء نتيجة لتطور مستقل في العلاقة بين الفن والجنس. فهنالك بعض

النقوش على الصخور من بقايا حضارات العصر الحجري في جبال الاطلس الصحراوية والتي تظهر مشاهد صورية جنسية، وهذه عادة تربط بين مواضيع الصيد ومواضيع الجنس. وفي الحضارة الهندية نجد استمرارية بين الاسطورة وبين الواقع. ومع ان الفن الهندي قد تأثر بالفن اليوناني من حيث المحتوى الجنسي، الا انه اتخذ اتجاهاً اكثر اثارة في التعبير. فجاءت اشكاله، وخاصة في النحت، مثيرة للشهوة. فقد جمعت بين محاولة اظهار الامكانيات الجنسية للانثى وبين الايقاع في النحت، مما يعزز الاثارة والشهوة. ومثل ما يلاحظ في التماثيل والمنحوتات يلاحظ ايضاً في الرسوم، والتي تجمع ايضاً بين الاسطورة والواقع، كما تصور ايضاً حالات الموسيقى المختلفة. ومع انه يمكن النظر الى جميع هذه النماذج الفنية على انها تعبيرية عن العلاقة بين الجنس والمعتقد الديني، الا انها تحمل في آن واحد طاقة جنسية شهوانية، غير انها بالنسبة للمجتمع الهندي لم تثر حتى في الفنان او المشاهد لها شعور الحرج او الاثم او الخوف، بل نظر اليها في سياق الشعور بان الجنس وممارسته هو شيء جميل، وبانه يتوافق مع الاسطورة والمعتقد الديني. وبمثل هذه الخلفية من الشعور فقد بات من الممكن كتابة وتداول الكتاب المشهور، كاما سوترا Kama Sutra، وهو اقدم دليل جنسي في العالم، والذي يُنظر اليه اليوم بانه كتاب فن شهواني جنسي (برنوجرافي). مع انه مجرد اختصار للكتابات السنسكريتية القديمة عن الجنس والدين والروحانية، ونظر اليه في موطنه ولقرون طويلة بوصفه وسيلة مساعدة على التدريب الروحي. وفي الحضارة الصينية انتشرت القصص ذات المحتوى الجنسي والتي تعطي الانطباع بان اغراضها خليعة وشهوانية غير انها تتضمن دائماً تسويغاً اخلاقياً، ذلك ان شخصيات هذه القصص الجنسية يتوصلون دائماً الى اكتشاف الحقائق الدينية.

الفن الخلاعي (الفن الداعر - البورنوجرافي) Pornography

البورنوغرافي من حيث الاشتقاق يتكون من لفظتين: (بورنو)، ومعناها مومس ومن ادنى درجة، وجرافي، بمعنى خط او رسم. وهكذا فان المصطلح بكامله يدلل على ما يصور العلاقة الجنسية الداعرة بطريقة تخطيطية او اخرى، غير ان هذا المصطلح قد اتسع مداره ليشمل كل ما يوحي بالجنس ويثير الشهوة الجنسية وبأي وسيلة من الوسائل التعبيرية التي يستعملها الفن من ادب او رسم او تصوير او تمثيل او رقص او نحت او موسيقى وغيرها من الفنون التشكيلية والتعبيرية. وهنالك صعوبة في تقرير الزمن والمكان الذي بدأ فيه هذا الفن، كما ان هنالك اختلافاً فيما يكوّن الفن الداعر، وفي وضع الحدود الفارقة بين ما هو فن داعر وفن غير داعر، خاصة اذا كان الجسم الانساني هو موضوع الفن. وهنالك من يحسم الامر بالنظر الى الفن الداعر على انه ذلك الفن الذي يصاحبه اسوأ ما هو متوافر في الذوق الرديء، وان لا مكانة له في عالم الجمالية، وان اهميته الوحيدة تقع في المجال الاخلاقي والانثروبولوجي. غير ان هنالك من ينظر الى هذا النوع من الفن نظرة اخرى، فيرى فيه فناً يستغل العنصر الجنسي بشيء من الفتنة الجمالية وبرقة في الاداء.

ان من الصعب ان لم يكن من المتعذر في كثير من الاحيان ان نضع حدوداً فارقة بين الفن

الاصيل والفن البورنوغرافي ما دام الموضوع فيهما واحداً. وهذه الصعوبة تتضح من اننا في الماضي وحتى في الحاضر نظرنا الى بعض النماذج الفنية على انها فنية او بورنوغرافية طبقاً لتوجهنا الفكري والعاطفي، وهو توجه يختلف بين حضارة واخرى ومن زمن وآخر وبين فرد وآخر. وهذا الواقع قد جعل من الضروري وضع قواعد تفرق بين النوعين من الفن، فهنالك مثلاً من وضع الفارق في هدف الفنان، وهل هو جمالي او جنسي، فالهدف الاول يجعل عمله فناً، والهدف الثاني يجعله بورنوغرافيا. غير ان الفنان لا يمكن ان يسأل عن هدفه، ثم ان الفنان قد يستغل اشكاله ومواضيعه كمبرر يموّه به عن اغراضه الحقيقية من وراء فنه، ولعل الاهم من اهداف الفنان ونواياه واهدافه، هو الاثر الذي يتركه في المشاهد او المتعرض لعمله الفني وحكمه عليه. وهذا الاثر ايضاً لا يمكن اتخاذه قاعدة اساسية للتفريق بين الفن والبورنوغرافي. فالمشاهدون او المتعرضون لاي عمل فني ينفعلون تبعاً لحصيلتهم النفسية، وهي حصيلة تشمل امكانياتهم الذاتية، كما تشمل عوامل حضارية واجتماعية يعيشها المتعرض للعمل الفني. ولعل اهم ما يفرق بين الفنين هو مدى توافر الذوق والجمالية في أي منهما. وليس المهم في التفريق ان يتوافر عنصر الجنس في اي منهما، فالحقائق الجنسية لم تكن ابداً مجرد حقائق غريزية او فيزيولوجية بالنسبة للانسان، فهذه الحقائق كانت دائمة محملة بمعان ومفاهيم حضارية وطقوسية ودينية وجمالية ووجدانية، واذا كان هنالك من فارق بين الفن الاصيل بهذه المعاني والفن البورنوغرافي، فهو يكمن في ان الفن البورنوغرافي لا يملك هذه المفاهيم والمعاني ولا ينقلها للمتعرض لها، ذلك ان من طبيعة الفن البورنوغرافي ان يكون خشناً وقاسياً ولا يثير اية مسائل فلسفية او جمالية، ولا يهدف الى غاية فنية او علمية ولا يدعي بهذه الاهداف، وهو باختصار ظاهرة غير جمالية هدفها تمثيل السلوك الجنسي وترويجه في الكتب والافلام ولغرض الاثارة الجنسية في حد ذاتها.

ان مما يثير الاشكال في موضوع الفن البورتوغرافي هو ان هنالك اعمالاً فنية بورنوغرافية الهدف الا انها تتستر وراء تسويغات جمالية او علمية. ويطلق على هذا النوع من الفن البورنوغرافي (البورنوكيتش Pornokitch)، وهو اسلوب فني في الدعارة الجنسية واسع الانتشار في عصرنا هذا، ويعم مجالات عديدة من الفوتوغرافي والرسم والسينما والمسرح والموسيقى والفيديو والاعلان، ويعدّ النقاد هذا النوع من الفن اكثر انحداراً من الفن البورنوغرافي الصريح والمباشر، ذلك ان الفن البونوغرافي لا يدعي الفن ولا يحتمي وراء التقنية الفنية كما يفعل البونوكيتش، والذي يخلط بين العناصر الجنسية وعناصر التسويغ الجمالية. وبهذه العملية من الخلط فان البونروكيتش يؤدي الى اخراج الشيء من نصابه، فالمرأة مثلاً تصبح مجرد موضوع، وجنسها يخسر كل معانيه الانسانية.

ان الفنانين في الماضي، قد خلقوا الاشياء الفنية بتسويغ من انهم يفعلون ذلك من اجل اظهار مواضيع اسطورية او دينية، واذا ما وجد الهدف الجنسي في هذه المواضيع فهو هدف ثانوي. اما فنان البورنوكيتش المعاصر، فانه يدعي بان غايته تثقيفية وعلمية ومن اجل الصحة الخلقية والنفسية. وان اسلوبه الفني يوضح الطريق الى النشوة الجنسية والى التناغم الجنسي بين الشريكين، وهو لا يقر بان فنه هو حالة من التبصص، بل انها طريقة تعليمية او تثقيفية، او انها

من اجل التأمل الجمالي. والاساليب التي يتبعها هذا النوع من الفن عديدة، فهو يستعمل الاسلوب التقدمي الطلائعي في وصف هذا الفن وبانه من اجل المتعة الفنية. وهو يستعمل تعابير وتشابيه لا يربطها رابط منطقي او جمالي، وانما الغرض منها هو صدم وارباك القارىء مما يذهله ويحمله على التصور انه انما يواجه نثراً فنياً. ومن هذه الاساليب ادراج بعض الرموز الجنسية الواضحة منها او المبطنة تحت فيض غير مفهوم من النثر الكلامي، او باعطاء الاشخاص الذين يتخذهم هذا الفن موضوعاً لهوية الاسطورية، مثل اطلاق اسم الربة، او فينوس، او الحورية، وغير ذلك من التعابير التي يبدو انها قد صممت لاقناع العقلية المنافقة اكثر من هدف اقناعها للعقلية البريئة والمستقيمة. فالفرد المنافق، وهو الذي يحمل في ذهنه مقاييس ثنائية للامور الجنسية، يحتاج الى ارضاء حاجاته الجنسية، ولكنه يخشى ذلك الا اذا توافر له المسوغ الفني، والذي يموه له في الظاهر رغباته الشهوانية، وهو لذلك يقبل على هذا النوع من المتعة على اساس انها فن او علم او ثقافة. وفي هذا الواقع يكمن خطر البورنوكيتش، ليس على المتعرض له فقط، وانما على الفن بصورة عامة، فهو كما وصفه احد الكتاب (يحتوي عنصراً فاسقاً، لا من حيث انه اثم اخلاقي، وانما من حيث انه اثم فني)، وهو لذلك ظاهرة تمثل انحطاط الذوق، وعلى المستويين الجمالي والانثروبولوجي. وهكذا فان الخطر الكامن في فن البورونوكيتش، وهو فن متستر ومموه ومنافق، هو خطر أعظم على الفن وعلى حقيقة الجنس، من البورنوغرافي والذي هو فن مفضوح في اسلوبه وفي غايته ولا يحاول التخفي ولا يسعى للتسويغ.

تأثير الفن الخلاعي (البورنوغرافي)

هنالك ما يسوغ الافتراض ان الفن الخليع هو نتيجة للانحطاط الخلقي في مجتمعاتنا المعاصرة، او انه نوع من الانحطاط الجمالي الناجم عن «الاستبدال بالرذيلة واللذات المختلفة لنظائرها الاصيلة». وبهذا الاستبدال يصبح الجنس شيئاً قائماً بذاته ويخسر كل معانيه الانسانية، ويقوم الفن الخليع في هذه العملية من الاستبدال بدور الفعل المتواصل من النفي واستخلاص المعنى، او بالاحرى العامل الذي يخرج الشيء من نصابه الاصيل والى نطاق سرابي كاذب. وما يشاهده الانسان في هذا الفن: «هو ايماءات من التنازل الجنسي بما ينوه به من حياء كاذب، فهو يوحي ولكن بدون ايحائية، ويخفي ولكنه نصف اظهار». وقد لا يعنينا في هذا البحث تقييم الفن الخليع من حيث المحتوى الفني او الانساني، وما يعنينا الآن هو اثر الفن الخليع على الحياة الجنسية للفرد الذي يتعرض لفعل الادب الخليع بصورة او اخرى ولمدة قصيرة او طويلة.

لقد افترض الباحثون ان للفن الخليع آثاره في النفس والسلوك الجنسي للفرد الذي يتعرض له. وتباينت هذه الفرضيات بين القول بان الفن الخليع يزيد في السلوك الجنسي، والقول بعكس ذلك وبانه يخفض من هذا السلوك. وهنالك من ينفي ان يكون للفن الخليع اي اثر ايجابي او سلبي على الحياة الجنسية. وقد وضعت هذه الفرضيات موضع الدراسة والبحث في بلدان ومراكز دراسية مختلفة، وتم معظمها على متطوعين تعرضوا لفعل الفن الخليع لمدة قصيرة او متوسطة او طويلة. وكانت حصيلة هذه الدراسات متقاربة، وسنلخصها فيما يلي. هذا وتجب

الاشارة الى ان فعل الفن الخليع (البورنوغرافي) يختلف تأثيراً على الفرد الطبيعي منه على الفرد غير الطبيعي، وخاصة المنحرف جنسياً، والذي يرتبط انحرافه الجنسي بالعنف والجريمة.

الأثر على الشخص الطبيعي

١ ـ في دراسة واسعة على عدد كبير من المتطوعين من الجنسين تعرضوا مرة واحدة لمشاهدة فلم خليع، تبين ان اقصى ما حدث للمشاهدين هو زيادة طفيفة في السلوك الجنسي، مع محاولات محدودة جداً من استقصاء اساليب جديدة في العلاقة الجنسية لا يمكن عدّها تفنناً. كما وجد ان هؤلاء الاشخاص لم يقدموا على ارتكاب مخالفات جنسية بسبب تعرضهم لفعل هذه التجربة.

٢ ـ في تجربتين منفصلتين على مجموعتين من المتزوجين، تم تعريض المجموعة الاولى منهم الى الفن البورنوغرافي لمدة اربعة اسابيع، وطلب اليهم ان يدونوا وقائع سلوكهم الجنسي لكل يوم من الاسابيع الاربعة السابقة للتعرض والاسابيع الاربعة اثناء التعرض والاسابيع الاربعة التالية للتعرض. وقد تبين من افاداتهم ان سلوكهم الجنسي قد زاد عن معدله في خلال الأربعة اسابيع السابقة للتعرض، وان هذه الزيادة كانت اكثر من الزيادة التي حصلت خلال اسابيع التعرض، ووجد ايضاً ان الزيادة التي حصلت خلال اسابيع المشاهدة كانت في الغالب محددة فقط في ليالي مشاهدة الافلام الجنسية البورنوغرافية. وافاد القليلون فقط بحدوث اضافات جديدة في اساليب علاقاتهم الجنسية. كما انه لم تحدث اية زيادة في اساليب غير طبيعية من العلاقة الجنسية.

اما المجموعة الثانية. فلم يجر تعريض افرادها للبورنوغرافي، وانما شاهدوا افلاماً محايدة، خلال فترة الاسابيع الاربعة الوسطى، غير انهم وعدوا بمشاهدة افلام بورنوغرافية جنسية في نهاية مدة الاختبار، وافاد معظم المشاركين ان سلوكهم الجنسي لم ينخفض خلال الفترة الوسطى، وهي الفترة التي شاهدوا فيها الافلام الجنسية المحايدة كما انخفض في الفترة الوسطى للتجربة الاولى، وهي الفترة التي عرضت فيها الافلام الجنسية الخليعة. وقد خلص الباحثون من نتيجة هذا الاختبار ان توقع المشاهدة لهذه الأفلام قد يثير الرغبة الجنسية وله ان يؤثر في السلوك الجنسي اكثر من المشاهدة ذاتها.

٣ ـ في اختبار ثالث لتقييم اثر العرض المركز الطويل للفن الجنسي البورنوغرافي، عرض مجموعة من الشباب الذكور الى انماط مختلفة من البورنوغرافي ولمدة ٩٠ دقيقة كل يوم، ولخمسة ايام من الاسبوع، ولمدة ثلاثة اسابيع، ولم يتبين حدوث اي تغيير في سلوكهم الجنسي خلال هذه المدة. وقد افاد المشاركون بانهم في البداية قد توجهوا بصورة اشد للتفكير في الامور الجنسية، ولكن سرعان ما انخفض هذا التفكير الى دون المستوى الذي كان عليه قبل تعرضهم للفن البورنوغرافي. وقد تأيدت هذه التجربة من تجارب اخرى كلها دللت على انخفاض مستوى الاهتمام الجنسي الى دون مستواه الطبيعي بسبب التعرض الطويل للبورنوغرافي.

وخلاصة هذه الابحاث وغيرها، ان التعرض للبورنوغرافي يمكن ان يحدث القليل من الاثارة الجنسية. غير ان مدة الاثارة قصيرة، اما التعرض الطويل لمثل هذا الاسلوب فقد يؤدي الى التقليل من الاهتمامات الجنسية والى الصدوف عنها. وفي تعليل آثار التعرض للبورنوغرافي على الحياة الجنسية للفرد، يجب ان لا نغفل اهمية العامل النفسي، فالاثارة القصيرة التي تحدث في الرغبة الجنسية تحدث بسبب التوقع لفعل البورنوغرافي وليس للبورنوغرافي في حد ذاته، وهذا الفعل هو فعل نفسي، اما ما يحدث من انقاص في الرغبة الجنسية بسبب التعرض للبورنوغرافي بصورة فعلية، فان ذلك يحدث بسبب استنفاد البورنوغرافي للطاقة الخيالية، بما فيها طاقة التوقع، وهذا الاستنفاد يقلل من الطاقة الدافعة نحو الجنس ونحو الاداء الجنسي. ولا بد من اضافة عامل آخر فعال في عملية الهبوط في الرغبة الجنسية بسبب البورنوغرافي، وهي ان تعرية الجنس في هذا الفن تكشف عن نواحي الزيف والتمويه فيه. وهو امر يلتصق بمفهوم الجنس بالنسبة للمشاهد، مما يسلب الحياة الجنسية سرها وينوه بابتذالها. ولنا لذلك ان نتوقع ان الذي يعيش حياة مدمنة على هذا الفن الخليع سواء كان فرداً او مجتمعاً. فسينتهي به المطاف لا الى العنة فقط في جوانبها الجنسية المحضة، وانما العنة ايضاً بمفهومها النفسي والجمالي والابداعي. ولعل من حسن الحظ ان من طبيعة الانسان ان يعرض عن هذا الادمان وان يتجنب بالتالي نتائجه. وقد ادركت بعض الاقطار هذه الحقيقة، فازالت القيود على تداول البورنوغرافي بانواعه كافة، كما فعلت الدانمارك. وكانت نتيجة هذه الاباحة كما هو متوقع، زيادة في التداول في البداية، اعقبها تناقص جذري في الاقبال على البورنوغرافي، وهكذا برهن على القول المأثور (كل ممنوع مرغوب) - والعكس.

البورنوغرافي والمخالفات الجنسية

كما تبين من الابحاث التي ذكرناها، فأن التعرض للبورنوغرافي لا يؤدي الى قيام الفرد الطبيعي بممارسات جنسية مخالفة للعرف والقانون. وقد اجريت دراسات اخرى لبيان تأثير البورنوغرافي على افراد غير طبيعيين قاموا بارتكاب مخالفات او جرائم جنسية. ومن هذه دراسة قام بها كنزي وبينت نتائجها ان البورنوغرافي ليست عاملاً هاماً في الدفع الى الجرائم الجنسية في معظم المرتكبين لهذه الجرائم. ويستثنى من ذلك مرتكبو المخالفات الجنسية المثلية، ومرتكبو العنف الجنسي على القاصرين، فقد تبين ان هؤلاء هم اكثر من غيرهم استعداداً للتأثر والانفعال بالمثيرات على اختلاف انواعها بما في ذلك المثيرات البورنوغرافية. وفي دراسة اخرى تبين ان القائمين بالمخالفات والجرائم الجنسية كانوا اقل تعرضاً لفعل البورنوغرافي في ماضيهم وفي الفترة الزمنية التي ارتكبوا فيها جرائمهم الجنسية. وقد يكون في نتائج هذه الدراسة دلالة على ان التعرض للبورنوغرافي قد يستنفد بعض الخيالات الجنسية والتي تكمن وراء القوة الدافعة للجرائم الجنسية، وهنالك ما يسند هذا الاستنتاج من النتائج التي تمخضت عن اباحة حرية تداول البورنوغرافي في الدنمارك عام ١٩٦٧. وقد دلت الاحصائيات المقارنة للاجرام والمخالفات الجنسية للفترة ما قبل الاباحة (عام ١٩٥٩). وفترة ما بعد الاباحة (عام ١٩٦٣). على ان هنالك فرقاً ملحوظاً بين الفترتين، فقد انخفضت المخالفات الجنسية التالية بالنسب

المبينة بجانبها في فترة الاباحة عنها في فترة المنع. (١) الاغتصاب ١٦٪، (٢) الاستعراضية ٥٨٪، (٣) التلصص ٨٠٪، (٤) معاشرة القاصرين ٦٣٪، (٥) البذاءة اللسانية الجنسية ٧١٪، (٦) مخالفات اخرى ضد النساء ٥٦٪، (٧) مخالفات اخرى ضد البنات ٦٩٪. وهذه النتائج في مجملها تثبت ان اباحة البورنوغرافي لم تؤد الى زيادة في الاجرام الجنسي وانها على العكس قد انقصته، مما يدفع الى الاستنتاج ان البورنوغرافي يمكن ان يكون بديلاً مقبولاً للسلوك المضاد للمجتمع والذي يعاني منه بعض الأفراد.

الاستعمالات العلاجية للبورنوغرافي

يتضح من نتائج الابحاث التي اوردناها حتى الآن، ان البورنوغرافي قد تكون فيه امكانيات علاجية يمكن استغلالها في بعض الحالات المرضية الجنسية، والواقع ان هذا الاستغلال قد جرب في العديد من الحالات التي تعاني اما من عطل جنسي او انحراف جنسي، او مخالفات وجرائم جنسية.

لقد افادت بعض الدراسات بان تعريض بعض الذين يعانون من مشاكل جنسية من المتزوجين له ان يؤدي الى بعض النتائج الايجابية في علائقهما الجنسية، ذلك انه يرفع حالات النهي ان وجدت، كما انه يسهل الاتصال بينهما حول هذه المشاكل. ولمثل هذا التعرض احياناً وعلى فترات متباعدة ان يساعد على التغلب على بعض الدرجات الطفيفة من العطل الجنسي عند الذكور وخاصة كبار السن، وله ايضاً ان يقلل من مخاوف الشريكة الجنسية من العلاقة الجنسية وان يقلل من الموانع لاستجاباتها الجنسية.

وفيما يتعلق باستعمالات البورنوغرافي في علاج حالات الانحراف الجنسي، فقد بينت الدراسات التي اشرنا اليها ان للبورنوغرافي ان يقلل من هذه الانحرافات بصورة عامة في المجتمع. اما من حيث الاستعمالات الفردية، فقد استعملت البورنوغرافي لغرض التطبيع ضد الانحرافات الجنسية المثلية وحالات الفتشية وحالات انحرافية اخرى وبنتائج ايجابية. كما اشرنا الى ذلك في اماكن مختلفة من هذا الكتاب. اما استعمالات البورنوغرافي في علاج حالات الاجرام الجنسي، فان لها ما يسوغها، وقد افادت بعض الدراسات على جدواها في حالات العنف الجنسي المرتبط بالاغتصاب.

ويمكن القول بصورة عامة بان بعض التعرض للبورنوغرافي بصورة او اخرى منذ سن مبكر في الحياة وطوال فترة النمو، قد يقلل من عوامل النهي والكبت الجنسي وبالتالي الى التقليل من العطل والمشاكل والاتجاه نحو الانحراف الجنسي، غير ان الاكثار من ذلك قد يؤدي الى نتائج سلبية قد تؤدي الى الاخلال بالسلوك العام وبالمثل الاخلاقية والانسانية التي يعتنقها المجتمع اضافة الى امتهان لمفهوم الحياة الجنسية في حياة الفرد والمجتمع والى التردي في مكانة الفن في الحياة وهي مكانة جمالية تعين على الحياة وتحفز على البقاء.

الفصل السابع والعشرون

الجنس والحضارة

الجنس والحضارة

من الاقوال القديمة المأثورة القول بان الجوع والحب يتحكمان بشؤ ون العالم. ولعل القائل لم يقصد بالحب العاطفة التي تربط بين اثنين، وانما عنى بذلك الميول الجنسية. وربما لا يكون في هذا القول ما يحمل على الجدل والاختلاف في امر صحته، وهو على كل حال يتوافق مع آراء العلماء في العصر الحديث ممن يرون ان اهم ما في غرائز الانسان هما غريزة التكاثر (الجنس) وغريزة البقاء (الجوع والطعام). ولعل صاحب القول عن سيطرة الحب او الجنس في شؤ ون العالم، لم ينظر الى الجنس الا في الحدود الضيقة والمباشرة للرغبة الجنسية والسعي لارضائها بالطرق المباشرة، ولعله ايضاً لم ينظر الى شؤ ون العالم، الا في حدود ضيقة ايضاً تشمل النواحي العملية من النشاط الانساني، ولا تتعداه الى النواحي الاخرى من فكرية ومعنوية واجتماعية وجمالية وغيرها من النواحي التي ينفذ اليها الجنس بصورة فعالة وان كانت غير ظاهرة وغير مباشرة.

ان من الواضح هو ان الانسان يستطيع مواصلة الحياة والبقاء بدون ممارسة الحياة الجنسية، وهو الامر الذي قد يدلل على انه ليس للحياة الجنسية ما للدوافع الاخرى الاساسية كالجوع والعطش من اهمية حياتية، غير ان هذا الفرق هو على المدى القصير والفردي فقط، فبينما يضمن ارضاء الجوع والعطش اهداف البقاء بالنسبة للفرد، فان الجنس يضمن اهداف البقاء للجنس الانساني كله، وهي اهداف تتعدى بقاء الفرد ذاته، اذ لا يمكن للجنس الانساني البقاء بدون توافر الدافع الجنسي، والسعي لارضائه وما ينجم عن هذا السعي من تكاثر وادامة لبقاء الانسان.

لعل هذا التفسير لاهمية الجنس في الحياة الانسانية، هو من البديهيات التي لا تحتاج الى تأكيد او برهان، غير ان للجنس نواحي اخرى من التعبير والاثر في حياتنا غير ما يبدو من ظاهر هذه البديهية، وهي النواحي التي تحتاج الى بحث وايضاح. وقد جلبت هذه النواحي اهتمام الباحثين من الفلاسفة والعلماء وعلماء النفس والاجتماع وخاصة في القرنين الاخيرين من التاريخ المعاصر. وقد كان من نتائج هذه الابحاث ان القي الضوء على نواحي عديدة من حياتنا الجنسية وعلى مدى العلاقة بينها وبين مجالات عديدة ومتنوعة من حياتنا. ومن متابعة هذه الابحاث وما افادت به من بينات، فانه يتضح ان القول المأثور من ان الحب (الجنس) والجوع يتحكمان بشؤون العالم، هو قول يتلاقى مع الواقع حتى في اوسع حدوده، هذا وقد لا يكون من المتعذر اثبات الواقع من ان الدافع الجنسي والسعي الى التعبير عنه بوسيلة او اخرى هو دافع يتحكم بالواقع الانساني، ولا يكاد يخلص منه ناحية واحدة، ولو ضيقة من هذا الواقع، وله فوق هذا التأثير في الواقع الاثر البين في تطور الانسان وحضارته.

* *

ان السائد في اعتقاد معظم الناس، ان البحث في الحياة الجنسية للانسان قد جاء بنتيجة نظريات العالم النفسي فرويد وكتاباته، ومع انه لا يجادل ان فرويد كان اكثر الباحثين في النواحي الجنسية من حيث ارتباطها بحياتنا النفسية، وفي توجيه الاهتمام الى هذا الارتباط في حالات الصحة وحالات المرض، الا انه لم يكن البادىء في الاهتمام بالنواحي الجنسية ولا بموقع هذه النواحي من الحياة الانسانية، فقد سُبق فرويد في الكثير من آرائه من غيره من الفلاسفة والعلماء، غير ان فرويد استطاع احتواء هذه الآراء واعاد تنظيرها وصياغتها بصورة تعطي الانطباع بانها من عندياته، ولعل اقتباسه لأراء غيره لا ينقص كثيراً من اصالة نظرياته وكتاباته، والتي كرسها في جليتها الى البحث في موقع الطاقة الجنسية في حياة الانسان في الحدود الفردية الاجتماعية والحضارية، وليس ادل على وفرة ابحاثه في هذا الموضوع انه كرس اربع كتب كاملة والجزء الاكبر من كتاب خامس، لبحث العلاقة بين الجنس والمدنية.

ربما كان الفيلسوف شوبنهور هو اول من جلب الاهتمام الى أهمية الجنس في الحياة الانسانية وفي اعتقاد البعض ان آراء شوبنهور في هذا الموضوع قد كانت احد مصادر التأثير الموجه لاهتمامات فرويد وغيره نحو الامور الجنسية. فقد اكد شوبنهور على النواحي اللاواعية واللاعقلانية للارادة. ورأى ان وراء عمليات الارادة تكمن غريزتان، الاولى هي غريزة المحافظة على البقاء، والثانية هي الغريزة الجنسية. وعدّ شوبنهور ان الغريزة الجنسية هي اهم الغريزتين. ومن اقواله للتدليل على هذه الاهمية: «ان الانسان هو تجسيد للغريزة الجنسية». ووجد شوبنهور تعارضاً بين الجنس والفكر، وكان من رأيه ان الجنون ناجم عن عملية الكبت الجنسي، وهو رأي لا يختلف في جوهره عن النظرية الفرويدية التي تجد اساس الاضطرابات النفسية في عملية الكبت الجنسي في دور او آخر من ادوار النمو الجنسي النفسي. ومن الفلاسفة الآخرين الذين تناولوا موضوع الجنس واثره في الحياة، الفيلسوف نيتشه، والذي جاء بالرأي ان

المدنية قد بنيت على اساس التخلي عن الغريزة، وهو رأي يطابق رأي فرويد في ان المدنية ما هي الا تعبير عن تصعيد الطاقة الجنسية المحبوسة بطريقة غير جنسية، ومن ان تطور المدنية قد جاء بالدرجة الاولى على حساب التعبير الحر عن الجنس.

لعل الأثر الأعظم في توجيه التفكير العلمي والانساني نحو الأمور الجنسية في القرن التاسع عشر قد جاء بسبب اراء العالم دارون، والذي كان لتفكيره تأثير بالغ على توجه فرويد نحو هذا الموضوع. ومن آراء دارون الجريئة والصريحة في هذا الموضوع، قوله: «ان عقل الانسان ليس اكثر كمالاً من غريزة الحيوان. . . وانحدارنا هو لذلك هو اصل جدنا الشيطاني. . فالشيطان على صورة قرد هو جدنا. . .». وفي مقارنة اهمية الغريزتين، غريزة البقاء او غريزة التكاثر (الجنس) اعطى دارون الغلبة لغريزة التكاثر واكد اهميتها في عملية التطور الانساني ويقول في ذلك: «ان محك النجاح للتطور البايولوجي هو في التكاثر لا في بقاء الاصلح، ذلك ان الاصلح اذا لم يتكاثر فليس هنالك من اهمية له في تطوير الانسان». وجلب دارون الانتباه الى عمق العلاقة بين الجاذبية الجنسية وعاطفة الحب والغيرة وغيرها من العواطف الجنسية وبين تطور وفعل الجهاز العصبي، وان من نتائج هذا التطور ان استطاع الانسان اكتساب الكثير من الصفات والخصائص وهو يقول: «ان الذي يقر بمبدأ الاختيار الجنسي، فانه سينتهي الى الاستنتاج المثير ان الجهاز العصبي لا ينظم فقط معظم الوظائف القائمة للجسم، بل انه ايضاً قد اثر بصورة غير مباشرة على التطور التدريجي لاعضاء الجسم وبعض الخصائص العقلية، فالشجاعة والمخاصمة والمثابرة، وقوة وحجم الجسم، والاسلحة بانواعها، والاجهزة الموسيقية من صوتية وادواتية، والالوان البراقة وادوات الزينة، فانها كلها قد رحبها الواحد او الآخر من الجنسين بصورة غير مباشرة وعن طريق ممارسة الاختيار، وبتأثير الحب والغيرة وباستحسان الجميل في اللون والصوت والشكل، وهذه القوى للعقل فانها تعتمد بوضوح على تطور الدماغ». من هذا القول يتضح ان دارون رأى في الجنس وفي حرية اختيار الشريك الجنسي «الاختيار الطبيعي»، الاساس ليس فقط لتطور الجسم والعقل وانما ايضاً للقوة الدافعة وراء السلوك الانساني في مختلف النواحي والمجالات، بما في ذلك تلك النواحي التي تؤدي الى الخصام والحرب والنزال، او تلك النواحي التي تتجه نحو قيام وتطوير الفنون الجمالية بانواعها المختلفة.

لقد كان لآراء دارون اثرها العظيم في تكوين آراء مماثلة عند عدد كبير من الذين اهتموا بالنواحي الجنسية ومحلها في حياة الانسان، ومن هؤلاء العالم كرافت ابنج. والذي رأى وجود علاقة عظيمة بين الجنس ومعالم الحضارة الانسانية. ومن آرائه، هو ان التجرد من الذات، والاخلاق، والزهد، وحتى العاطفة الدينية، فان اساسها هو الشعور الجنسي. ومن اقواله: «اذا ما جرد الانسان من تميزه الجنسي وما ينبع عن هذا التميز من المتعة النبيلة، فالشعر، وربما كل الميول الاخلاقية، فانها جميعها تزول من الحياة». ومن آرائه ايضاً ان الحضارة والمدنية قد ظهرتا بسبب التهذيب والكبت لطاقة الانسان الجنسية. ويقول في ذلك: «ان الحياة هي نزال لا يتوقف

بين الغريزة الحيوانية وبين الاخلاق». وهكذا فان كرافت ابنج كان يؤمن، حاله حال معاصريه من الفلاسفة امثال نوفاليس وشوبنهور ونيتشه، بان المدنية والاخلاق، واسمى الفنون الشعرية، قد نشأت في الشعور الجنسي الانساني. وقد عبر عن مثل هذا الرأي العالم النفسي مودزلي، بقوله بان الشعور الجنسي هو الاساس الاولي للحياة الاجتماعية كلها.

ومن المصادر الاخرى التي تشير الدلائل على ان فرويد قد تأثر بها في موضوع الجنس وعلاقته بتطور المدنية والحضارة، ما كتبه صديقه لفترة من الزمن، فلايس Fleiss، والذي يبدو انه سبق فرويد الى الكثير من آرائه ونظرياته. ومن هذه النظريات، رأيه من ان اعلى انجازات الانسان، بما في ذلك النفسية منها، فانها نشأت من مقرراتها الدنيا الفيزيولوجية. وكان من رأيه ان هذه المقررات الفيزيولوجية هي مواد جنسية. وهذا يعني ان فلايس وجد ان انجازات الانسان العليا ما هي الا تحول لهذه المقررات الكيمياوية من المواد الجنسية، وهو رأي في مضمونه يتلاقى مع رأي فرويد في ان الطاقة الجنسية (تتسامى او تتصاعد) ليعبر عنها بانجازات حضارية اعلى. ويقول فلايس في ذلك: «اثناء الطفولة تتجمع الطاقات ـ يعني المواد الجنسية (عن طريق النمو الفيزيولوجي) ـ لكي يستطيع الانسان صرفها منذ سن البلوغ وما بعد ذلك لغايات المحافظة على الجنس الانساني». هذا وربما لا يكون من الصعب ملاحظة ان هذا القول يتضمن مبدأين هامين في السايكولوجية الفرويدية، اولهما افتراضه وجود حياة جنسية في الاطفال، والثاني الافتراض بان هذه الطاقة تحبس في حياة الطفولة لتخدم اغراضاً اخرى. ففي الامر الاول يقول فرويد: «اننا نخطىء اذا نحن اغفلنا الحياة الجنسية عند الاطفال، ففي خبرتي، ان الاطفال قادرون على كل نشاط جنسي نفسي، وعلى الكثير من النشاطات الجنسية البدنية ايضاً». ويتابع فرويد قوله ليعبر عن رأيه في الامر الثاني عن الاهمية المستقبلية للطاقة الجنسية التي تحبس في الطفولة، فيقول «. . . ومع ذلك فان من الصحيح ان تكوين وتطور الجنس الانساني يسعى لكي يتجنب اي درجة عظيمة من النشاط الجنسي اثناء الطفولة، ويبدو انه في الانسان، فان القوى الغريزية الجنسية قد قدر لها ان تحفظ، لكي يمكن عند انطلاقها في سن البلوغ، ان تخدم اغراضاً حضارية عظيمة». وبهذا القول فان فرويد يختصر حصيلة آرائه حول العلاقة بين الجنس والحضارة، وهي الآراء التي فصلها في عدد من كتبه. والتي عنيت بصفة اساسية بهذا الموضوع واهمها الطوطم والتابو، والمدنية ومساوئها، ومستقبل سراب، والمدنية والجنس والاخلاق والامراض النفسية المعاصرة، وغيرها من الكتب.

جاء فرويد بنظريته طريقة تفسير العلاقة بين الحاجة الجنسية وبين نشوء المجتمع والتطور الحضاري، ويفترض فرويد في هذه النظرية ان الانسان في وقت ما كان كغيره من الحيوانات يدب على اربعة، وكان مثلها يعتمد على حاسة الشم للاثارة الجنسية والبحث عن وسيلة لارضائها. وهو ما تفعله القردة مثلاً في فترة (الودق Oestrous). وفي وقت ما اقتضته ظروف البقاء وحاجاته، انتصب الانسان على قدميه، وبنتيجة هذا التحول فقد قل فعل حاسة الشم اداة لتحقيق الجنس، وحلت حاسة البصر مكانها، مما اقتضى ان يتوافر الشريك الجنسي، لا في فترة الودق فقط، وانما في جميع الاوقات. وهذا بطبيعة الحال دفعه الى محاولة ضمان ذلك

بالاحتفاظ بالشريك الجنسي. وقد وجد فرويد في هذه الضرورة، وفي محاولة ضمانها، بداية لتكوين المجتمع بالتكاثر، والى ظهور عاطفة الحب، (ايروس)، لتكون وسيلة لربط بني الانسان في جماعات اكبر، من عائلة وجماعات ودول، ووحدة لبني الانسان. غير ان وصول الانسان الى هذه المرحلة في نظر فرويد لم يتم بدون تضحيات من جانب الفرد، او بدون تبديل في حريته المطلقة في التعبير عن حاجاته الجنسية. وفي رأي فرويد ان التغيير في الحياة الجنسية للانسان جاء على خطوتين، الخطوة الاولى صاحبت استبدال حاسة الشم بحاسة البصر في الجاذبية الجنسية، اما الخطوة الثانية، فهي قيام الضرورة لتحديد سلطة الاب واستئثاره بالاناث لمتعته الجنسية. فالخطوة الاولى قضت باستبدال الرائحة النتنة بالنظافة، كما ادت الى نشوء شعور العيب من العري، وشعور الاشمئزاز من استعمال بعض الفتحات للافرازات الجسمية المكروهة. وظهور مثل هذا الشعور من العيب والاشمئزاز يعدّ في نظر فرويد اول عملية تصعيدية للغريزة الجنسية، وهو يجد فيها العامل الحافز الاساسي لجميع المشاعر الاخلاقية العليا، كما وجد فيه، اي الاشمئزاز مفتاحاً لعملية الكبت، وبهذا فان فرويد اعطى عملية الكبت اساساً عضوياً يرتكز في اساسه على حاسة الشم. ولم يكن فرويد وحده الذي جلب الانتباه الى اهمية الشعور بالعيب والاشمئزاز في التطور الحضاري، فالتوراة وغيرها من الديانات السماوية اللاحقة قد ردت اصول هذا الشعور الى تلك اللحظة في بداية وجود الانسان، والتي ادرك آدم فيها عريه الكامل امام خالقه، والى تحديد هذا العري بالمنطقة الجنسية في كل من آدم وحواء. ولعل فلايس، صديق فرويد، كان اسبق من فرويد الى ادراك العلاقة بين الجنس والعيب، والى اهمية هذه العلاقة في تكوين ردود الفعل في الفرد. فقد قام فلايس بدراسة لطفل في الثالثة من عمره، كان يعاني من الخجل عندما كان يعبث بقضيبه اثناء النهار، وفي الليل كان يعاني من حالات متكررة من القلق والبكاء، كما كانت تظهر على جسمه علامات من الطفح الجلدي. وجميع هذه الاعراض في نظره كانت دليلاً على اصولها الجنسية ومن انها تحولت من هذه الاصول الى اعراض مرضية. اما الخطوة الثانية في التعبير عن حرية التعبير الجنسي، فقد جاءت بسبب الحاجة الى تحديد سلطة الاب، ونشوء تقاليد (الطوطم والتابو)، وما نجم عن هذه التقاليد من نمو المؤسسات التي تؤيد وترعي وتحافظ على هذه التقاليد. وقد وجد فرويد في هذه الخطوة الثانية، المصدر الاساسي لعملية الكبت، ذلك ان تحريم قتل الاب لاغراض جنسية، قد زرع بالضرورة شعور العيب والخوف والاشمئزاز في نفس الابن الذي يسعى لمنافسة والده في مجاله الجنسي، وهذا بالتالي ادى الى كبت الرغبة الجنسية في الابن. ويجد فرويد في هذا الكبت البدائي الناجم عن (الطوطم والتابو)، اصلاً عضوياً للكبت الانساني فيما بعد، كما يجد في هذا الكبت اهمية حضارية عظيمة، فهو يقول بأن دوافع الطفل الجنسية بسبب كبتها او بتحويلها الى اهداف عليا ولا جنسية - اي بتصعيدها، Sublimation، فانه قرر لها ان توفر الطاقة في الكبر من اجل تحقيق انجازاتها الحضارية. ويقول فرويد في هذا الموضوع: «.. في فترة الكمون الجزئي او الكامل، بين سن الخامسة وسن البلوغ، تبنى القوى العقلية، والتي لها فيما بعد ان تعيق مجرى الغريزة الجنسية. وكالسدود، فانها اي - الاشمئزاز - الشعور بالعيب - والمتطلبات الجمالية - والافكار الاخلاقية - تحجزها وتحد من مجراها ان الانطباع الذي يحصل عليه الفرد

هو انه في الاطفال المتمدنين فان هذه السدود هي من فعل التعليم، ومع انه مما لا شك فيه ان للتعليم علاقة كبيرة بذلك، غير ان نشوءها في الواقع مقرر عضوياً بالوراثة، وانها يمكن ان توجد في بعض الحالات حتى بدون توافر عون من التعليم. ويخلص فرويد الى الرأي بان دوافع الطفولة الجنسية خلال هذه الفترة، اي فترة الكمون، لا تتوقف وانما تتحول طاقتها كلياً، او الى حد كبير، من اهدافها واستعمالاتها الجنسية الى اهداف وغايات اخرى، وهي اما تصعّد وتسامى فيها الرغبة الجنسية، وتتجه بذلك نحو اهداف وغايات حضارية، واما تتجه نحو تكوين ردود فعل مرضية تربط الطاقة الجنسية باعراض مرضية وسلوكية.

* *

ان من الواضح من متابعة هذه الآراء وغيرها من الآراء ممن ورد ذكرهم، او لغيرهم، ليس فقط مدى الاهتمام الذي حظيت به الامور الجنسية في تفكير الفلاسفة والعلماء والاطباء النفسانيين، وانما ايضاً التأكيد على انها طاقة اساسية في الحياة، لا تتحدد فقط في مجال التعبير الجنسي المباشر، وانما يتسع التعبير عنها ليشمل مجالات واسعة وغير مباشرة في حياة الانسان والى الحد الذي يتعذر فيه استثناء ناحية من نواحي الحياة لا ينفذ اليها الجنس بصورة او اخرى، وهو الواقع الذي لا يجعل من القول القديم من ان الجنس والجوع يتحكمان بشؤ ون العالم، قولاً غير مبالغ فيه. فالتاريخ والحضارة والمثل والتقاليد والاديان واللباس والزينة والغناء والرقص والشعر والفن بضروبه المختلفة والمعمار والحب والعواطف الانسانية الجميلة منها والنابية، والسلوك الانساني في احواله ومجالاته المختلفة، كلها تحمل طابع الجنس، حتى ولو لم يبد هذا الطابع واضحاً او متوقعاً. وبمثل هذا الواقع فليس لنا ان ننظر الى الجنس نظرة استنكار واشمئزاز وصدود. فوجودنا يعتمد عليه، وحضارتنا بنيت بسببه، وللاثنين ان يزولا اذا لم يتوافر الشعور الكافي بالحاجة اليه، وبالحاجة الى التعبير عن هذه الحاجة بحرية احياناً، وبكبت احياناً اخرى، وبصورة مباشرة في وقت ما، وبصورة غير مباشرة في اوقات اخرى. ولعل هنالك ما يسوغ لنا النظر إلى تميز الانسان في التطور الحضاري وبين الكائنات الحية كلها، قد جاء بسبب، أو على الاقل قد صاحب تميزه الجنسي، وهو التميز الذي هيأ له امكانية كبت طاقته الجنسية احياناً وتحويل مجراها الى مجالات اخرى تضمن حاجاته الانسانية العليا احياناً اخرى.

الفصل الثامن والعشرون

الجنس والابداع

الجنس والابداع

بينا فيما سبق بعض الآراء والنظريات حول فعل الطاقة الجنسية في حياة الانسان وفي تطوير الحياة والحضارة الانسانية، ولهذه الآراء والنظريات ان تفسر ليس فقط الفعل الجماعي والعام للحياة الجنسية في المسيرة الحضارية، وانما ايضاً فعلها على المستوى الفردي بوصفها عاملاً اساسياً في عملية الخلق والابداع. وقد تناول الكثيرون من الباحثين هذا الموضوع في محاولة بيان ماهية الابداع والعوامل المقررة له ومحل الطاقة الجنسية ضمن هذه العوامل.

هنالك اتفاق يكاد يكون عاماً بين الباحثين من ان المبدعين، من عباقرة وخلاقين في المجالات الابداعية المختلفة، يولدون وهم يحملون في ذاتهم مواهب خاصة. غير ان من الصعب علينا حتى الآن معرفة الطبيعة المحددة لهذه المواهب، والى اي حد تتقرر الموهبة بعوامل تكوينية (وراثية)، او الى اي حد تقرر هذه العوامل التكوينية ظهور الحساسية الادراكية المرهفة للموهوب ومقدرته غير الطبيعية على ربط ودمج الافكار بالخيالات في عملية الخلق والابداع.

لقد لاحظ بعض الباحثين في سير وشخصيات اصحاب المواهب الابداعية ان نسبة غير قليلة منهم يتصفون بخاصية العنف والتعدي، وهي صفة تتقرر بفعل قوى غريزية، واثارت هذه الملاحظة احتمال ارتباط الخلاقية بقوة غريزية اخرى، وهي الغريزة الجنسية. ولعل اكثر من وجه الانتباه الى قيام مثل هذه الرابطة هو فرويد، والذي ارتكزت معظم كتاباته على اهمية الطاقة الجنسية في الحياة الانسانية بما في ذلك فعل هذه الطاقة على التطور الحضاري العام، وعلى فعلها الخلاق على المستوى الفردي، وقام بدراسات عدة عن فعل هذه الطاقة في حياة بعض المبدعين ومنهم الفنان ليوناردو دي فنشي.

ويفسر فرويد العملية الابداعية في الموهوب بانها عملية تصعيد او تسامي للطاقة الجنسية التي لم يكن هنالك بد من كبتها في مرحلة ما من مراحل النمو، ومن ثمة تحويل مجراها الى فعل ابداعي خلاق. وقد حدد فرويد فترة الكبت للطاقة الجنسية بانها تقع في (دور الكمون) من ادوار النمو النفسي، والتي تقع بين سن الخامسة وسن البلوغ. وبسبب احتباس الطاقة في هذه الفترة، فانها تتحول وتتوجه الى غايات اخرى، فهي اما تتحول الى مجال التعبير الابداعي، وهو ما يعبر عنه بعملية التسامي او التصعيد، او انها تتحول الى شكاوي واعراض من الاضطراب النفسي، او ما يسمى بردود الفعل، وهو تحول غير ابداعي. والاخذ برأي فرويد على علاته له ان يعطي الانطباع بان الفرد اما يتجه نحو الابداع بسبب كبت وتحويل طاقته الجنسية، او انه يتوجه نحو تكوين ردود فعل مرضية. غير ان الامر ليس على هذه الدرجة من التبسيط، اذ يقتضي اولاً ان يحمل الفرد في تكوينه امكانية الموهبة الابداعية، اما ما يحدث بعد ذلك، فانه يعتمد على توافر عوامل اخرى اما توجهه نحو الابداع او نحو المرض، وللفرد المبدع ان يكون طبيعياً في حياته النفسية، او ان يعاني من اضطراب نفسي في نفس الوقت، ولمعاناته النفسية اما ان تساعده في عملية الخلق والابداع، او ان تسد عليه الطريقة امام تحقيق هذه الامكانية، وهو الواقع الذي يفسر ما يلاحظ من ان بعض المبدعين يتمتعون بحياة نفسية طبيعية، وبعضهم يعاني من اضطرابات نفسية قد تكون شديدة في بعضهم، وفي آخرين، فان قيام المرض النفسي اما يوقف عملية الخلق مؤقتاً او يؤدي الى انهائها.

من الملاحظات التي وردت حول موضوع العلاقة بين الجنس والابداع. الملاحظة بان مراحل النمو الجنسي التي يمر بها الفرد في طفولته وحداثته هي في المبدع مراحل غير واضحة المعالم، كما لوحظ ان شخصية المبدعين على العموم فيها من الشبه بشخصية المنحرفين جنسياً اكثر مما فيها من شخصية الاسوياء في حياتهم الجنسية، وهذه الملاحظة لا تدلل بالضرورة على توافر مظاهر السلوك الجنسي المنحرف عند المبدعين، وان كان هنالك بعض الباحثين الذين يربطون بين الانحراف الجنسي وبين الابداع، خاصة في حالات الانحراف الجنسي المثلي. ويرى باحثون آخرون ان ذوي المواهب الابداعية، يملكون طاقة جنسية أعظم وتعطيهم قدراً اكبر من التحرك في سلوكهم الجنسي، ليس بالضرورة عن طريق الممارسة الجنسية، وانما بالتعبير عنها بطرق اخرى كالحب مثلاً. وتقول الباحثة (جرين ايكر Green Acre) في هذا الامر: «ان الخلاقية هي هبة من الله، وفي موقف يقوم فيه المبدع بعملية حب جماعية مع العالم، وهو يوفر عطايا الحب لهذا العالم، وهو في ذلك لا يسعى فقط لمجرد الحصول على الارضاء الجنسي».

هنالك من يرى ان تمتع الفرد بالارضاء الجنسي المجدي والمريح له ان يمنعه من القيام بعمل خلاق. وقد ابدى ايسلر Eissler مثل هذا الرأي بقوله: «ان العلاقة المجدية جنسياً والقائمة بين الفرد وبين موضوع معين هي علاقة لا تتوافق مع الخلاقية». ويعطي مثلاً على ذلك ان (جيته) كان فاشلاً في خلق اي عمل ابداعي عندما كانت تتوافر له علاقات حب مجدية. وهكذا فهو يعدّ الارضاء الجنسي عاملاً مثبطاً للخلاقية. ومثل هذا الرأي قد عرف منذ قرون عديدة، فالعرب في الجاهلية جعلوا الاسراف في الجنس عاملاً مؤذياً لفعل العقل، واتخذ الرا ي

رأياً مماثلاً عندما اكد على ما يلحقه الركون الى الشهوة الجنسية من آثار على العقل والحكمة.

قد يبدو ان هنالك تضارباً في الآراء حول القيمة الابداعية للطاقة الجنسية بين اولئك الذين يرون في هذه الطاقة مصدراً ابداعياً، وبين اولئك الذين يرون على عكس ذلك ان مطاوعتها وارضاءها يعيق عملية الابداع. وربما لا يكون هنالك من التضارب الذي يبدو في ظاهر الامر اذا ما سلمنا باهمية الطاقة الجنسية على انها طاقة خلاقة على ان لا تبذر هذه الطاقة عن فعلها الخلاق، سواء جاء هذا التبذير بربطها بحالات مرضية، او باستهلاكها المتواصل عن طريق الامعان في الممارسة. واذا كان للطاقة الجنسية اهميتها في عملية الابداع، وهو ما يراه الكثيرون، فانه لا بد لها من ان تستثمر لهذا الغرض، وهي اذا استنفدت في سبيل آخر، نضب مجراها في عملية الابداع. ولعل هذا الرأي هو ما عبر عنه الكاتب كافكا في تجنبه للعلاقات الجنسية، وذلك في قوله: «ان ما يعطى للجنس يؤخذ من الكتابة». وقد يكون بيكاسو على غير ما رآه كافكا، فهو حتى في عمره المتقدم جاء بالقول: «لو كنت معمارياً لصممت واجهات البيوت على صور جسم المرأة». وفي القولين، على ما يبدو بينهما من تباعد، ان يعيّنا بعض ابعاد الحياة الجنسية واهميتها في عملية الخلق والابداع.

لقد اتضح مما بيناه ايضاً مدى العلاقة بين وجود الغريزة الجنسية في الانسان وبين التطور الحضاري للانسان. وربما لم يكن لهذه الغريزة مثل هذا الفعل لو ان الانسان لم يملك في نفس الوقت تلك الدرجة من تطور الامكانيات العقلية والعاطفية والتي لا بد من توافرها اذا كان للجنس ان يستغلها بوصفها وسيلة للتعبير واداة لتطوير الحضارة الانسانية. ولعل من الخطأ النظر الى كل من الطاقة الجنسية من ناحية، والطاقة العقلية والعاطفية من ناحية اخرى، على انها طاقات مفرقة الواحدة عن الاخرى، وانها تتفاعل مع بعضها على هذا الاساس، ذلك ان جميع هذه الطاقات مترابطة في الواقع البايولوجي للانسان ومن المتعذر وضع الحدود الفارقة بينها، ولهذا فان التفاعل بينها هو تفاعل مستمر، ويتم ضمن العمليات البايولوجية الملكية، وهو تفاعل لا يؤدي الى الابقاء على حالة من التوازن الحياتي، او للابقاء على الجنس فقط، وانما يضمن ايضاً عملية التطور الانساني، وهي عملية يفرض فيها العقل من الاثر على الحياة الجنسية قدراً لا يقل عن اثر الجنس على الحياة العقلية. وهذا الواقع هو الذي اعطى الحياة الجنسية في الانسان صورة متميزة عن الحياة الجنسية عن غيره من الحيوانات، كما اعطى الانسان امكانية التطور الاجتماعي والحضاري التي لا تستطيعها الحيوانات الاخرى. ولعله لذلك اذا قدر لاحد الطاقتين الجنسية او العقلية ان تتضاءل قوة وتميزاً في الحياة الانسانية، فان للطاقة الاخرى ان تقل او تتضاءل قوّة، وان يؤدي ذلك بالتالي الى التوقف او الانحدار الحضاري في الحياة الانسانية.

الفصل التاسع والعشرون

الذكر والانثى ومواقفهما من الأمور الجنسية

* مقدمة
* دراسة أيزانك (إستبيان إيزاك)
* إستبيان حديث حول المواقف من الجنس

الذكر والانثى ومواقفهما من الامور الجنسية

ان المواقف التي تناولناها بالبحث في الصفحات السابقة تتعلق بالحياة الجنسية بشكل عام وفي النطاق الحضاري والاجتماعي عبر العصور المتعاقبة، وهي على العموم تصور موقف الرجل بالنسبة للمرأة ضمن هذا النطاق. ولا تتعدى ذلك الى بحث المواقف الفردية لكل من الذكر والانثى فيما يتعلق بالحياة الجنسية ذاتها. ولم يكن هنالك بد من الانتظار مدة طويلة قبل ان يكون بالامكان استبيان هذه المواقف بشكل علمي ودقيق وخاصة مواقف المرأة منها. ومما يقتضي مراعاته هو ان هذه الاستبيانات على دقتها، فانها تعطي نتائج ظرفية ومرحلية معينة. فمواقف الجنسين تتغير باستمرار وخاصة مواقف الانثى، ثم ان ما ينطبق على ظروف اجتماعية واقتصادية وثقافية وحضارية وجغرافية معينة لا ينطبق على ظروف اخرى مخالفة او حتى متماثلة. ويمثل هذا الاحتراز من التعميم نعطي مختصراً لاحدث الاستبيانات العلمية الدقيقة في هذا الموضوع وهو الاستبيان الذي ورد في دراسة مطولة للعالم النفسي الباحث ايزانك والذي ضمنه كتابه بعنوان (الجنس والشخصية) والذي اشرنا اليه في اكثر من مكان في هذا المؤلف. وفي نهاية هذا الفصل سنأتي على استبيان هام آخر قام به هوبارت Hobart في جامعة البرتا في كندا، وهي دراسة مقارنة تبين الفروق بين مواقف الجنسين من الطلبة في استبيانين متباعدين زمنياً الاول عام ١٩٦٨ والثاني عام ١٩٧٧. ومن الواضح من متابعة مواد الدراستين، الاولى في انجلترا، والثانية في كندا، ان من العسير تطبيق هذه الاستبيانات في مجتمعات محافظة كالمجتمع العربي، ونحن لذلك سنجتزىء منها بعض المواد التي تعطي انطباعاً عن المواقف الجنسية في حضارة بلدين غربيين معاصرين.

دراسة ايزانك

قامت الدراسة الاستبيانية على ٤٢٧ من الذكور و٤٣٦ من الاناث وفي اعمار تتراوح بين ١٨ ـ ٦٠ سنة وبمعدل ٣٠ سنة تقريباً. وكانت العينات المختارة للاستبيان تمثل مختلف الطبقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وفي اعمال مهنية متعددة. وقد قال ايزانك في هدف الدراسة بانها لا تهدف الى تعيين مقاييس سكانية، وانما «لمحاولة ايجاد الدرجة التي تتوافق فيها الاجابات على الاسئلة والمعاملات التي تظهرها، والدرجة التي ترتبط فيها هذه المعاملات بمتغيرات الشخصية». وقد وضع ايزانك ١٥٨ سؤالاً، وكانت متماثلة في الذكور والاناث وان اقتضى صياغة السؤال بشكل يتناسب مع الهوية الجنسية في بعض الاسئلة. وطلب للمشاركين ان تكون اجابتهم (بنعم) او (لا)، او بالموافقة او عدمها. واعطى ايزانك الى جانب كل سؤال النسبة المئوية للمجيبين (بنعم او بالموافقة) لكل من الذكور والاناث المشاركين.

الاستبيان

نسبة الاجابة بنعم من الجنسين

الرقم		الذكور	الاناث
١	ان الجنس المقابل يزيد احترامه لك اذا لم تكن رافعاً للتكلف معه.	٪٤٥	٪٤٨
٢	الجنس بدون (حب): (الجنس المجرد)، امر غير مرض البتة.	٪٤٣	٪٦٠
٣	ان الظروف يجب ان تكون موافقة تماماً لكي اثار جنسياً.	٪١٥	٪٤٠
٤	اني افكر نادراً بالجنس.	٪٥	٪١٢
٥	الاستمناء غير صحي.	٪٤	٪٤
٦	اني اشعر بمتعة من لمس اعضائي الجنسية.	٪٨١	٪٦٦
٧	اني لا احتاج الى احترام (الانثى) او (الذكر) لكي اجد لذة في العبث او العلاقة الجنسية.	٪٤٣	٪٢٦
٨	بصراحة اني افضل اشخاصاً من نفس جنسي.	٪٤	٪٣
٩	اني احاول عن وعي دفع الافكار الجنسية عن ذهني.	٪٣	٪٤
١٠	لقد حدثت لي صراعات نفسية بسبب مشاعري الجنسية نحو شخص من جنسي.	٪٢٠	٪١٤
١١	لا احتاج الى الكثير من الجهد لكي اثار جنسياً.	٪٧٥	٪٤٤
١٢	ان الآخرين من نفس جنسي يجتذبوني بكثرة.	٪٥	٪١٠
١٣	الاطفال يجب ان يعلموا الحقائق الجنسية	٪٩٦	٪٩٧
١٤	اني افكر بالجنس يومياً.	٪٨٧	٪٦١
١٥	اني اثار جنسياً بسهولة عظيمة.	٪٦٨	٪٤٠
١٦	احب النظر الى الصور الجنسية.	٪٨٠	٪٤٥
١٧	رؤية الشخص عارياً لا يهمني.	٪٦	٪٢٨

الرقم	الذكور	الاناث
١٨ الافكار المنحرفة تضايقني احيانا.	٪٢٤	٪١٥
١٩ يقتضي ان تكون الانثى (عنيفة) جنسياً احياناً.	٪٩٥	٪٨٨
٢٠ اني اعتقد ان آخذ لذاتي اينما وجدت.	٪٣٤	٪١٩
٢١ اني اشعر احياناً بالرغبة لاذلال شريكي الجنسي.	٪٢٢	٪١٦
٢٢ ان الترفيه عن النفس ليس بخطر اذا ما عمل بصورة صحيحة.	٪٨٤	٪٨٠
٢٣ اني اشعر احياناً بالعداء نحو شريكي الجنسي.	٪٥٤	٪٥٩
٢٤ ان علينا ان نلغي الزواج بشكل تام.	٪٨	٪٨
٢٥ ان الجنس هو الاهم من بين لذاتي.	٪٣٥	٪٢٦
٢٦ ان التسامح الجنسي يهدد بتحطيم جميع الاسس لحضارتنا.	٪٩	٪١٤
٢٧ ان الجنس يجب ان يستعمل لاغراض التكاثر وليس من اجل المتعة الشخصية.	صفر	٪١
٢٨ ان الاخلاص الكامل للشريك الجنسي مدى الحياة هو امر سخيف كالتبتل(العزوبية).	٪٤١	٪٢٨
٢٩ ان الانشغال المعاصر بالجنس في مجتمعنا قد خلق في معظمه من الافلام والصحف والتلفيزون والاعلان.	٪٤٥	٪٥٤
٣٠ ان العبث الجنسي بين الاطفال لا ضرر فيه.	٪٧٨	٪٧٤
٣١ الاناث ليست لهن رغبة جنسية قوية كالذكور.	٪١٧	٪٢٢
٣٢ اني اصوت لقانون يبيح تعدد الزوجات.	٪٣٠	٪١١
٣٣ مع ان الشخص يمارس الجماع الجنسي، الا ان الاستمناء احياناً هو شيء طيب.	٪٥٥	٪٣٩
٣٤ اني افضل شريكاً جنسياً يكبرني بسنوات عديدة.	٪٦	٪٢٥
٣٥ اني لا استطيع بحث الامور الجنسية مع والدي ابداً.	٪٦٤	٪٦٠
٣٦ هنالك بعض الاشياء التي افعلها فقط لارضله شريكي.	٪٤٥	٪٤٧
٣٧ اني لا اعلم بالتأكيد اني حصلت على الذروة	٪٣	٪٢٣
٣٨ بالنسبة لي توجد هنالك اشياء قليلة فقط اهم من الجنس.	٪٤٤	٪٢٦
٣٩ اني تواق جداً لانجاب الاطفال.	٪٢٩	٪٤٥
٤٠ ان الجنس الجسدي هو اهم شيء في الزواج.	٪٢١	٪٢٠
٤١ ان الجاذبية الجسمية هامة جداً بالنسبة لي.	٪٦٣	٥٦
٤٢ في العلاقة الجنسية فان الرقة هي اهم صفة.	٪٥٣	٥٨
٤٣ ان الحب الرومانسي هو سراب صبياني.		
٤٤ اني اعتقد ان تناول حبوب منع الحمل لاي مدة هو خطر على المرأة.	٪٢٦	٤
٤٥ ان الرجل اكثر انانية من الانثى في علاقته الجنسية.	٪٥٥	٠
ان الانثى اكثر انانية من الرجل في علاقتها الجنسية.		

٤٦ ان الانثى تستعمل للحصول على مختلف الامتيازات .	٥٩ ٪	٦٨ ٪
٤٧ في الأمور الجنسية يكون حظ الانثى الثاني .	٢٠٪	٢٠٪

ويلي هذه أسئلة أخرى تتعلق بالممارسة الجنسية ذاتها من حيث الرغبة والتكرار ، والعنة والبرودةوالذروة والقذف وغيرها من المواضيع الجنسية البحتة ، مما لا علاقة مباشرة له بالمواقف من الأمور الجنسية ، ومما لا نجد ضرورة لاثباته هنا .

استبيان حديث (١٩٩١) حول الأمور الجنسية:

أجرت هذا الاستبيان مؤسسة Mori في المملكة المتحدة بهدف التحقق من المسالك والمواقف المتعلقة بالمواضيع الجنسية في الوقت الحاضر ، وقد أفاد الاستبيان بالنتائج التالية :

- أن واحداً من كل ثلاثة من المراهقين ممن هم بين سن ١٤ ـ ١٨ ، قد أفاد بأنه قد فقد عذريته (أو عذريتها) قبل بلوغه سن السادسة عشرة من العمر ، وذلك بالمقارنة مع ما أفاد به واحد من كل خمسة أشخاص بلغوا الآن سن ٢٥ ـ ٤٠ ، مما يدلل على أن فقدان العذرية كان أقل حدوثاً في الجيل الماضي للمراهقين بالمقارنة مع الجيل الحالي ، وبأن الجيل الحالي من المراهقين راح يفقد عذريته في سن مبكرة .

- أفاد الاستبيان بأن الجيل الجديد من المراهقين يعرف عن الأمور الجنسية أكثر بكثير مما كان يعرفه الجيل أو الأجيال السابقة منهم ، وقد اتضح ذلك من أن ٤٣ في المئة من أفراد الجيل الحالي من المراهقين قد أفادوا بمعرفتهم للأمور الجنسية بالمقارنة مع ٣ في المئة من أفراد الجيل الماضي من المراهقين والذين بلغوا الان مرحلة العمر ما بين ٣١ ـ ٥٠ سنة .

- أفاد ٨٢ في المئة من المتزوجين من الذكور و ٩١ في المئة من الإناث المتزوجات بأنهم لم يمارسوا أبداً الخيانة الزوجية ، وهي نسبة عالية جداً تفوق الانطباع السائد حول حجم الخيانة الزوجية في المجتمعات الغربية .

- أفاد ٨٣ في المئة من الذكور بأن شخصية الانثى هي الجاذب الاهم عندهم للمرأة .

- وأفاد ٢٤ في المئة من الذكور بأن الذي جذبهم للأنثى هي ساقيها ، بينما أفاد ٢٣ ٪ منهم بأنهم جذبوا إليها عن طريق صدرها.

- أفاد سبعة من كل عشرة ذكور وثمانية من كل عشرة اناث ، بأن عاطفة الحب هي عنصر هام

جداً في العلاقة الجنسية الناجحة والمرضية بين الجنسين ، وهي نسبة متقاربة في الجنسين ، (٧٢٪ من الذكور ، و٧٨٪ في الاناث) ، وأفاد ١٩ في المئة من الذكور ، و٢٧٪ من الاناث بأن الحب هو عنصر هام في العلاقة الجنسية الناجحة ، بينما أفاد ٩ في المئة من الذكور ، و٥ في المئة من الإناث بأن الحب لا يكوِّن عنصراً هاماً في العلاقة الجنسية .

الفصل الثلاثون

الفروق بين الذكر والانثى في السلوك الجنسي

* التنويع والتعدد
* التملك
* الهجران
* المحرمات
* فروق العمر
* العروض الجنسية
* الاثارة الجنسية
* الذروة
* اللذة والالم
* الدورات الجنسية

الفروق بين الذكر والانثى في السلوك الجنسي

البحث في الحياة الجنسية لكـل من الذكـر والانثى يظهـر بعض الفروق العـامة بينهـما. وتشمل هذه الفروق الدافع الجنسي والسلوك الجنسي لغرض ارضائه. ويبدو لاول وهلة ان هذه الفروق تعيق التوافق بين الجنسين وبالتالي من تحقيق الاهداف الآنية او النهائية للجنس. غير ان تأمل هذه الفروق يفيد بأنها تخدم عملية التكامل الجنسي وتؤدي الى تحقيق ضرورات بايولوجية واجتماعية وحضارية يسعى وراءها الانسان من كلا الجنسين بدون ان يفكر في امـرها تفكيـراً واعياً. ومع ان هذه الفروق لا تتضح في كل حالة، الا انها مع ذلك متـوافرة والى الحـد الذي يمكن ملاحظته والبحث فيه، غير ان لها ان تزيد او تقل طبقاً لـطبيعة كـل فرد ذكـراً او انثى، وبفعل عوامل اجتماعية وحضارية متعددة، وفيما يلي بعض مجالات الفروق بين الجنسين في معالم حياتهم الجنسية من دافع او سلوك.

التنويع والتعدد

تفيد الملاحظات والدراسات بان الذكر هو اكثر ميـلاً للتنويـع في علاقـاته الجنسيـة من الانثى. وهذه ملاحظة متكررة في كل مجتمع وكل بلد في العالم، كما انها ملاحـظة متواتـرة عبر العصـور والحضارات. ولعـل جميع الـذكور تقـريباً يميلون الى تحقيق هـذا التنـوع والتعـدد في علاقاتهم الجنسية لو لم تكن هنالك موانع اجتماعية. وقد افادت احدى الدراسات الواسعة حول هذا الموضوع بان حوالى ٨٤٪ من ١٦٥ مجتمعاً معاصراً تمت دراستها، يسمح فيها للرجل بـان يتخذ اكثر من شريكة جنسية في زمنٍ واحد، بالزواج او بصفة اخرى. وافادت دراسة اخـرى بان الرجال اكثر بكثير من النساء ميلاً للتنويع في العلاقات الجنسية. وقد فسرت هذه الظاهرة

على اسس بايولوجية، فالتنويع عند الذكور يخدم غرض تأثيل وتأكيد استمرارية الوراثة، كما يخدم غرض تمكينه من توسيع مجال الاختيار الطبيعي والذي يخدم بدوره استمرارية الوراثة والتنويع والتطور. اما من ناحية الانثى، فان تحديد ميلها للتنويع يفسر على اساس بايولوجي اجتماعي، فهي بحكم طبيعتها البايولوجية وموقعها الاجتماعي لا تستطيع ان تضمن استمرارية وراثتها الا عن طريق ذاتها، ومثل هذه الامكانية تتحدد بفترات الحمل المتباعدة والمحدودة، وهي لذلك يجب ان تحصر علاقاتها الجنسية بما لا يخرج عن اطار الزواج.

المبادرة

ان الذكر وليس الانثى، هو الذي يقوم بالمبادرة الاولى لاستمالة الجنس الآخر، وعلى عكس ما هو الحال عند الانثى التي تبدي تحفظاً وقدراً من ضبط العاطفة وحتى الى حدود الاعراض والممانعة، وهذه ظاهرة توجد في مراتب اخرى دون مرتبة الانسان، ومحاولة الذكر لاستمالة الانثى، وممانعة الانثى، لا يمثل فقط سمة حضارية واجتماعية، وانما فيه على الغالب ما يقرره بايولوجياً، ذلك ان هذا الفارق في سلوك الذكر والانثى قد يذكي رغبة الذكر، وان يعطي المجال الكافي للانثى للبدء في استجاباتها الجنسية وهي على العموم ابطأ من الرجل بكثير في تكوين هذه الاستجابات.

التملك

النزعة لتملك الشريك تظهر عند كل من الذكر والانثى، وقد تكون بدرجات متساوية عندهما، وان كانت دوافع التملك مختلفة. ففي الذكر، فان الرغبة في التملك قد تكون بدافع الرغبة في الابقاء على ذريته واستمراريتها، وهو امر لا يضمن الا بالاحتفاظ بشريكه الجنسي، اما الانثى فان نزعتها للتملك لشريكها تمثل مسعاها للابقاء على ما يفي بحاجاتها وحاجات اطفالها. ولعل هنالك دافعاً مشتركاً للتملك بين الاثنين، وهو دافع نجد اصوله في حاجتهما للالفة والمصاحبة.

الهجران

ظاهرة هجران احد الجنسين لشريكه توجد في الانسان كما توجد في كائنات اخرى وخاصة الطيور. والهدف من الهجران هو تمكين الذكر من تأكيد النجاح من التكاثر بالانتقال إلى انثى اخرى، اما الانثى فهي لا تقدم على ذلك لما يعنيه ذلك من خسارة لاستثمارها البطيء في الاولاد. وقد افادت الاحصائيات في امريكا مثلاً بان هجران الرجل للمرأة يحدث بنسبة تقارب العشرين ضعفاً لهجران المرأة للذكر.

المحرمات

السلوك الجنسي (المحرم) حضارياً واجتماعياً ودينياً، يرتكبه الذكور بنسبة اعلى بكثير من ارتكاب الاناث له، فأكثر انواع الجنسية المحرمة وقوعاً هي العلاقة بين الاب وابنته، واقلها

وقوعاً هي العلاقة بين الام وابنها. وقد افادت الدراسات والاحصائيات في اكثر من مجتمع بان علاقة الاب بابنته، وهي جنسية محرمة يرتكبها الذكر بحق الانثى، تزيد وقوعاً بما لا يقل بمئة مرة عن العلاقة الجنسية المحرمة بين الام وابنها، وهي علاقة تندفع اليها الانثى. وتفسر قلة اقبال الانثى على الجنسية المحرمة بالمقارنة مع الذكر على اساس بايولوجي وحضاري. ومن الحقائق الطريفة في هذا الموضوع. ان القردة والشمبانزي تظهر فروقاً في ممارسة الجنسية المحرمة، فبينما يمارسها الذكر الاب مع الانثى من نسله، الا ان الام لا تمارسها مع الذكر من نسلها، مما يؤكد وجود عامل بايولوجي مقرر. وهنالك نظرية بايولوجية اجتماعية تفسر ممارسة الذكر اكثر من الانثى للعلاقة الجنسية المحرمة على اساس ان هذا السلوك هو سلوك تكيفي ويخدم في الاصل غرض التكاثر حاله في ذلك حال تعدد الزوجات او تعدد العلاقات الجنسية، غير ان هذا الغرض لا يصبح فعالاً في حضارتنا الا اذا تهيأت الظروف النفسية والاجتماعية الملائمة ضمن المجال العائلي، غير ان هذه الظروف يجب ان تكون شديدة القوة لكي تستطيع التغلب على التحريم الحضاري للممارسة.

فروق العمر

ان الذكر يكبر الانثى بعدة سنوات عند ابتداء قيام العلاقة الزوجية او العلاقة مع شريك جنسي، وهذا واقع قديم وما زال قائماً حتى الآن في معظم الحضارات والمجتمعات. وفي تفسير هذه الظاهرة تقدم النظرية بان الذي يقرر هذا التفاوت في العمر هو عامل بايولوجي يضمن توفير انسب الامكانيات للتخصيب والتكاثر، فامكانيات الانثى محدودة، وهي تبدأ بصورة افضل في الصغر وتقل تدريجياً مع تقدم العمر. اما العامل الثاني فهو عامل اجتماعي، ذلك ان توافر شريك للانثى يكون اكبر منها سناً فيه ضمانة اعظم لمستقبلها ومستقبل اولادها.

العروض الجنسية

يمارس الكثير من الكائنات الحية من الحشرات وحتى مراتب الانسان سلوكاً ينوه بالرغبة او الحاجة الى شريك جنسي معين. ومثل هذه المبادرات تحقق اهدافاً بايولوجية، فهي تجذب الانتباه وتثير الرغبة وقد تنتهي بالعلاقة الجنسية وما يترتب عليها من مصاحبة او تكاثر. وفي حياة الانسان يمارس كلا الجنسين شكلاً او آخر من السلوك الذي يعرض اختيار ورغبة طرف لطرف آخر، غير ان للرجل اسلوبه وللانثى اسلوبها. وعلى العموم فان الانثى اقل لجوءاً واستغلالاً لاعضائها الجنسية من الرجل لغرض جلب الانتباه والاثارة. ولعل الذكر من بني الانسان اكثر اقتراباً من الحيوانات في طرق ممارسته لعروضه الجنسية، وهي الطرق التي تهدف في الاساس الى تحقيق الاجتذاب بين الجنسين لغرض التكاثر وتوافر الغذاء والحماية للانثى ونسلها. ولعل ما يقوم به كل من الذكر او الانثى من جواذب خاصة به ما زال يخدم هذه الاغراض وان كانا لا يعيرانه اهتماماً واعياً.

الإثارة الجنسية

قلما تحدث الاثارة الجنسية بصورة تلقائية، وفي الحالات التي يبدو فيها ان مثل هذه الاثارة قد حدثت تلقائياً، فان البحث يفضي عادة الى توافر عامل مثير للرغبة. وحتى في النوم، فان الاثارة الجنسية وما قد ينجم عنها من استجابة الاستحلام، فان محتوى الحلم يكوّن العامل المثير للدافع والاستجابة الجنسية. والبحث فيما يثير الدافع الجنسي في الانثى والذكر يظهر فروقاً واضحة بينهما، فالذكر على العموم يثار اكثر من الانثى عن طريق الفكر والخيال والاحاسيس العامة، بينما الانثى تثار موضعياً اكثر من الذكر، وهي تعتمد اعتماداً اساسياً على هذه الاثارة الموضعية لاذكاء رغبتها واستجاباتها الجنسية. والذكر يثار بما يراه بعينيه من الجواذب الجنسية في الانثى، اما الانثى فهي اكثر تأثراً باذنيها، ولعله لهذا السبب قيل ان الرجل يحب بعينيه والانثى تحب باذنيها. وربما لهذا السبب ايضاً يفضل الذكر ممارسته الجنسية بعين مفتوحة وفي الضياء، بينما تفضل الانثى اغماض عينيها حتى في الظلام. ولهذا ان يفسر ايضاً اعتماد الذكر على الجواذب المرئية في الانثى بما في ذلك وسائل التطرية والتجميل واللباس، وسعي الانثى لارضاء هذه الحاجة عند الذكر، بينما يحاول الذكر جهده اثارة الانثى بالصوت. والباحث في السلوك الجنسي عند مراتب حيوانية عديدة يجد بعض مظاهر هذه الفروق من حيث تأثير اللون والصوت في الذكر او الانثى. وللرائحة اثر هام في الاثارة الجنسية عند الذكر والانثى، ولعل لهذه الحاسية اهمية اقل بالنسبة للذكر، ولذلك فهو يحتاج الى روائح نافذة ومصطنعة لاثارته، بينما الانثى تثار بصورة اكثر وضوحاً بالروائح الجسمية للذكر وعلى صورتها الطبيعية.

الذروة

من الفروق الاساسية بين الجنسين في حياتهما الجنسية هو تحقيق الذروة. فالاكتفاء الجنسي والشعور باللذة والانفراج، كلها لا تتم عند الذكر الا بحصول الذروة، وهي المرحلة القصيرة والاخيرة من عمليات الاستجابات الجنسية، وبدون الوصول الى هذه المرحلة واتمامها، فان الذكر يشعر بان استجابته الجنسية قد توقفت عند حد الاحباط والفشل. وعلى العموم فان الذروة لا تحدث في نسبة عالية من الاناث، وفي نسبة كبيرة من العلاقات الجنسية، وتظهر استطلاعات رأي الاناث في هذا الموضوع ان عدم حصول الذروة لا يسبب بالضرورة احباطاً جنسياً للانثى، فهي تعتمد الى حد بعيد، وربما اعتماداً كلياً في الكثير من الحالات، على عملية المشاركة الجنسية والتوافق في العاطفة مع شريكها الجنسي وبصرف النظر عن تحقيق الذروة او عدمه.

اللذة والألم

تتوافر عناصر اللذة والالم في الحياة الجنسية لكل من الذكر والانثى، وهذه العناصر تظهر في المجالين النفسي والجسمي، وبدرجات متفاوتة بين المجال او الآخر وبين فرد وآخر وبين علاقة جنسية واخرى. وتؤيد معظم الملاحظات ان عامل اللذة هو اكثر فعالية وتوجيهاً للحياة

الجنسية عند الذكر، كما ان ممارسة الايلام للانثى اكثر وضحاً وتكراراً عند الذكور. اما عنصر الالم فهو اكثر وقوعاً عند الانثى، فهي اقل سادية من الذكر واكثر مازوخية منه. وفي تفسير هذه الفوارق بين الجنسين ترد نظريات عديدة منها ان الذكر اكثر انانية، او ان الذكر يؤكد سطوته بايلام الانثى، او ان ايلامها يذكي دافعها الجنسي، او ان قبول الانثى بالالم هو الثمن الذي تدفعه مقابل ما يعطيه الذكر لها من ضمانة اجتماعية ومادية ومعنوية. غير اننا في تفسير هذه الظاهرة يجب ان لا نغفل امكانية توافر مقررات بايلوجية تقضي بضرورة قيام هذه الفوارق بين الجنسين. ومن النظريات في هذا الشأن ان احداث الالم في الذكر وقبوله في الانثى فيه اشارة الى الهدف من العلاقات الجنسية ومن انها نفذت بالصورة التي تضمن الى حد بعيد عملية التخصيب والتكاثر. ولعل هذه النظرية تتفق مع ما يلاحظ من توافر عناصر السادية والمازوخية في حيوانات اخرى دون مرتبة الانسان والتي فيها يوقع الذكر على الانثى قدراً غير قليل من الايلام.

الدورات الجنسية

هنالك فروق اساسية بين الجنسين في موضوع العلاقة بين الزمن والجنس، فبينما الذكر لا يتأثر كثيراً بالدورات الزمنية بعد وصوله الى سن البلوغ، الا ان الانثى تتأثر كثيراً في حياتها الجنسية بما تتعرض له من دورات او ادوار بايولوجية مقررة كالدورة الشهرية، وسن اليأس، والحمل، والولادة، والرضاعة. وهنالك ايضاً فعل الزمن في حد ذاته على الدافع والقوة الجنسية في الجنسين. فبينما الذكر يبلغ اقصى دوافعه في مرحلة المراهقة ثم يتنازل تدريجياً مع مرور الزمن، الا ان الانثى تبدأ دوافعها الجنسية بعدسنوات من الذكر، وتحافظ على مستواها الى سن يزيد على سن الذكر. ولعل اهم الفروق بين الجنسين تقع في مجال الدورة الشهرية، وهي الدورة التي تميز حياة الانثى وليس لها ما يماثلها في الذكر. ان الدورة الشهرية للانثى تبدأ بالعادة الاولى (الحيض الاول Menarche)، غير ان ابتداء ذلك لا يدلل في الانثى لا على ابتداء الحياة الجنسية ولا على مقدرتها على الحصول على الذروة، على عكس ما يحدث في حياة الذكر عند البلوغ، والذي يأذن بلوغه باكتمال دافعه الجنسي ومقدرته على التخصيب والحصول على الذروة. ولا بد للانثى من الانتظار لسنتين في الاقل لكي تستيقظ دوافعها الجنسية، ولمدة اطول لكي يمكن حصولها على الذروة. وحتى هذا فهو غير مضمون في العديد من الاناث. وباستقرار الدورة الشهرية، فقدبينت الدراسات ان الانثى تمر بنسقْ معين من حيث دوافعها واستجاباتها الجنسية، فهذه تكون ادنى ما تكون في بداية الدورة الشهرية ثم تزداد تدريجياً لتبلغ اقصى قوتها في منتصف الدورة، ومن بعدها تقل تدريجياً وحتى اليوم الثالث او الرابع قبيل انتهاء الدورة وابتداء الحيض، وعندها يصعد الدافع ومعه الاستجابة الجنسية الى حد اقصى وبصورة حادة، والى مستوى يماثل المستوى عند منتصف الدورة. ومن الجلي ان هذه الخصائص اضافة الى ما يلاحظ من تغيرات في الحياة الجنسية للانثى في حالات الحمل والولادة والرضاعة وسن اليأس، فانها تخضع الى فعل مقررات بايولوجية وفيزيولوجية خارجة عن ارادة الانثى او عن فعل العوامل الاجتماعية والحضارية، وهي لا بد ان تهدف الى تحقيق التكاثر وبقاء الجنس.

الفصل الحادي والثلاثون

الكتب والابحاث الجنسية

الكتب والابحاث الجنسية

على الرغم من الاهتمامات الواسعة في الامور الجنسية من حضارات عديدة من العالم القديم وحتى عصرنا الحاضر، فان عدد الكتب المؤلفة والخاصة بالمواضيع الجنسية هو عدد قليل جداً اذا ما قيس بالمؤلفات في مواضيع اخرى اقل اشغالاً للفكر الانساني. ولعل السبب في ذلك هو خشية الكتاب من تحمل مسؤولية الخوض في مواضيع ذات حساسية عظيمة وما قد يترتب على ذلك من حساب وعقاب. ومع ذلك فقد وصلتنا من العهود السابقة اشارات ونصوص عدبدة تدلل على المواقف السائدة في تلك العصور من الامور الجنسية. ومن الحضارات التي تناولت المسائل الجنسية بالبحث الواسع والشامل الحضارة العربية، والتي خلفت لنا عدداً من الكتب والمخطوطات التي اختصبت ببحث الحياة الجنسية من جوانب عديدة. هذا الى جانب العديد من الروايات والنصوص التي وردت في الكتب الاخرى من ادبية او اجتماعية او دينية. ومن دراسة هذه الآثار يتضح للقارىء ان بعض المؤلفات في الامور الجنسية كان يهدف الى المتعة والمؤانسة، وبعضها كان يهدف الى جلاء بعض نواحي الحياة الجنسية مما له علاقة بالادب والفن، او ما تعلق بالامور النفسية والطبية. ومما يؤسف له ان معظم المخطوطات القديمة في هذه المواضيع اما فقدت او انها لم تنشر حتى الآن. والقليل منها فقط هو في متناول القراء والباحثين. غير ان ما يعرف من فهارس المؤلفات المفقودة او غير المنشورة يبين بوضوح ان الباحثين في هذه المواضيع لم يتركوا ناحية من نواحي الجنس والحياة الجنسية الا واشبعوها بحثاً. فبحثوا في اهمية الجنس في حياة الانسان واقامة المجتمع والديانات، وبحثوا في النواحي الجمالية من العلائق الجنسية. وفي الخصائص الجسدية والعاطفية والعقلية للشريكين في العلاقة الجنسية وخاصة

الانثى، وفي ضرورة الحياة الجنسية لراحة الانسان وسعادته، واثر الاقلال او الاكثار من الجنس على العقل والصحة والاخلاق. وتناولوا تفاصيل الاعضاء الجنسية من اوصاف ووظائف، والوسائل التي تضمن المحافظة عليها وتعزيز فعلها ونشاطها وجاذبيتها. وبحثوا في الممارسات الجنسية الطبيعية منها او المتنوعة على ما هو طبيعي، او العلائق الشاذة، كما بحثوا في الوسائل العلاجية من اغذية واشربة وادوية ومستحضرات مما له ان يقلل او يزيد من الدوافع الجنسية، وان يعالج حالات العنة ومشاكل الانزال في كل من الذكر والأنثى، الى غير ذلك من المواضيع التي لم يتطرق الباحثون حتى في هذا العصر الى تناولها بالبحث الا في السنوات الاخيرة وبدرجة اقل من الشمول والصراحة والموضوعية.

ان من اهم الكتب التي خلفت الينا من ماضي الحضارة العربية في موضوع الجنس الكتب التالية: (١) جوامع اللذة، تأليف ابي الحسن علي بن نصر الكاتب (٢) كتاب نزهة الاصحاب في معاشرة الاحباب لمؤلفه السموأل بن يحيى بن عباس المغربي. (٣) ونزهة الاسياب فيما لا يوجد في كتاب، لاحمد بن يوسف التيغاشي المغربي. (٤) كتاب الباهية والتراكيب السلطانية، لنصير الدين الطوسي. (٥) وتحفة العروس وروضة النفوس، لمحمد بن احمد المغربي: (٥) رجوع الشيخ الى صباه، لمؤلفه احمد بن سليمان. وغير هذه الكتب، مؤلفات اخرى عديدة. غير ان اشهرها على الاطلاق وان لم يكن بالضرورة اهمها، هو الكتاب الاخير: رجوع الشيخ الى صباه، والذي جمعه المؤلف من مصادر عديدة من مؤلفات سابقيه في هذا الموضوع. وقد نال الكتاب رواجاً عظيماً منذ تأليفه نتيجة طبعه في حينه. وهذا الكتاب كغيره من الكتب في هذا الموضوع قد استغل لاغراض التندر والمتعة الرخيصة والفاسدة وذلك على الرغم من ان مؤلفه لم يتوخ مثل هذا الاستغلال، وحذر منه في تقديمه للكتاب.

ان بعض المؤلفات العربية على الرغم من قدم بعضها، والتي تعود الى القرن الثالث للهجرة، لها ان تثير الكثير من العجب بالنظر لما اتصفت به من شمول ودقة وعلمانية وفي ازمان من التاريخ ساد فيه الجهل والظلام. ومع ان العرب قد استفادوا بما كتب عن هذا الموضوع في الحضارات الاخرى من هندية ويونانية ورومانية، الا ان معالجة الكثير من المواضيع قد اتسمت بطابع عربي اصيل يدل على الخبرة والفطنة وسعة الادراك والحكمة في الاستنتاج. ولو اتيح المجال لدراسة هذه الاثار دراسة موضوعية مجردة عن التحيزات الكاذبة للامور الجنسية، لامكن البرهان على ان المؤلفين العرب قد سبقوا غيرهم من المؤلفين والباحثين المعاصرين في الكثير من الآراء والنظريات وحتى الحقائق العلمية.

مؤلفات الحضارة الهندية

على خلاف المؤلفات الجنسية في الحضارات الاخرى، فان اصول المؤلفات الهندية في هذا الموضوع قد نسبت للآلهة وخاصة الآله الاعلى براجاباتي (Prajapati)، خالق السماوات والارض في المعتقدات الهندية القديمة. فقد نسبت لهذا الآله انه جمع المعرفة في مئة الف فصل قسمت الى ثلاثة اقسام الاول منها اختص بالحياة الصادقة ـ دارما Dharma، والقسم الثاني في

تحصيل الثروة والسلطة ـ ارثا Artha، والقسم الثالث في الحصول على اللذة ـ كاماKamal . وفي هذا القسم الاخير جاء مصدر الكتاب الهندي المشهور والمعروف باسم كاماسوترا Kamasutra والذي الفه الحكيم فاتسيانا Vatsyana، والذي ظل مصدراً اساسياً لما تلاه من الكتب في الحضارة الهندية التالية، والذي نظر اليه على انه من وحي الله، واكتسب بذلك روحانية وقدسية. ومن المؤلفات الهندية الاخرى الكتب التالية: (١) ساماايا ـ متريكا - Samya Matrika. (٢) راتا ـ رهسيا Rati - Rahasya. (٣) اانانجا ـ رانجا Ananga — Ranga. وهو بعد كاما سوترا أشهر الكتب المعروفة في خارج الهند. ويعني عنوان الكتاب «مسرح إله الحب». وقد كان لهذا الكتاب تأثيره في الحضارة العربية والاسلامية، ذلك لان مؤلفه كان في خدمة ملك هندي مسلم، مما سهل انتشاره في العالم الاسلامي والعربي. ويتضح من هذه الكتب وغيرها من المؤلفات، ان الهنود نظروا الى الجنس نظرة روحية دينية، وانهم لم يعانوا من التزمت والكبت ما عانته حضارات اخرى في هذا الموضوع، وهو الامر الذي سهل تناول المواضيع الجنسية بصراحة وحرية خالية من التبذل والفساد.

المؤلفات والأبحاث المعاصرة

المؤلفات والابحاث المعاصرة في المواضيع الجنسية عديدة. والكثير من هذه المؤلفات كتبها علماء اوروبيون في القرن الماضي ممن انتبهوا الى اهمية الجنس في الحياة الانسانية وخاصة في مجال التأثير النفسي. ومن اشهر الباحثين في هذا الموضوع في القرن الماضي هم: كارل الرخس K. Ulrichs وهافلوك اليس Havlock Ellis وكرافت ابنجKraft Ebing والبرت مول Albert Moll وماغنوس هرشفيلد Magnus Hirschfield. غير ان اشهرهم جميعاً واكثرهم تكريساً لمحل الجنس في الحياة النفسية للانسان هو سجموند فرويد، والذي خص الجزء الاكبر من مؤلفاته بهذا الموضوع ومتعلقاته المختلفة في الحياة الانسانية. والذي يمكن عده فاتح الباب للبحث الجنسي في حياتنا المعاصرة. ومن بعد فرويد تعددت وتشعبت نواحي وطرق البحث في موضوع الجنس وأثره في نواحي الحياة المختلفة. وتطور ذلك الى تكوين فرع متخصص من العلوم تحت اسم «علم الجنس اوSexology، غير ان حدود هذا العلم ما زالت غير واضحة او محددة، وقد يكون من الصعب تحديدها في مجال علمي واحد بالنظر لاتصال الجنس بنواح عديدة من الحياة تكاد تشمل كل ما يمكن تصوره من علاقة وترابط. ومن اكثر المؤلفات والابحاث المعاصرة شهرة واثراً في توجيه الاهتمام نحو الامور الجنسية هي ابحاث كنزي وابحاث سكوفيلد، وكلاهما ابحاث استبيانية عن واقع الحياة الجنسية للناس. وابحاث ماسترس وجونسون، وهي ابحاث فسيولوجية في موضوع الاستجابات الفسيولوجية للعلائق الجنسية. وفيما يلي مختصر لهذه الابحاث الثلاثة.

أبحاث كنزي

تعد ابحاث كنزي في الحياة الجنسية اوسع ابحاث استبيانية من نوعها في تاريخ هذا الموضوع، فقد شملت ابحاثه عينة سكانية في امريكا بلغت ١٢,٠٠٠ فرد من الجنسين، ونشر

كنزي نتائج بحثه في مؤلفين، الاول باسم السلوك الجنسي في الانسان الذكر عام ١٩٤٨، والمؤلف الثاني باسم السلوك الجنسي في الانسان الانثى عام ١٩٥٣. وقد حصل كنزي على معلوماته الاستبيانية عن طريق المقابلة المباشرة، وشملت استبياناته متعلقات السلوك الجنسي من حيث العمر، والمرتبة الاجتماعية، والمستوى التعليمي، والحالة الزوجية، والموقع الجغرافي. ومن اهم النتائج التي توصل اليها كنزي في بحثه الواسع، نورد ما يلي: (١) ان ٩٢٪ من الذكور و٥٠٪ من الاناث قاموا بالاستمناء في وقت ما في حياتهم. (٢) في العلائق الجنسية خارج نطاق الزواج، أفادت نتائج الاستبيان ان ٥٠٪ ممن استطلعت آراءهم من الذكور كانت لهم في وقت ما علائق جنسية مع غير زوجاتهم، اما الاناث فان نسبة وقوع مثل هذاه العلاقة بلغت نصف ذلك. (٣) وفيما يتعلق بالجنسية المثلية ـ اللواطية او السحاقية، بينت الدراسة ان (٨ ـ ١٠)٪ من الذكور هم جنسيون مثليون حصراً، اي انهم لا يمارسون الجنس الا مع امثالهم من نفس الجنس، بينما النسبة في الاناث انخفضت الى (٢ ـ ٦)٪. وذلك في الفترة من العمر بين (١٦ ـ ٣٥) ولمدة ثلاث سنوات في الاقل. والى جانب هذه النواحي من البحث تناول كنزي مواضيع اخرى عديدة تتعلق بالاداء الجنسي والاستجابات الجنسية والسلوك الجنسي. ويستنتج من نتائج البحث ان الحياة الجنسية للناس تقع في حدود واسعة من التنوع. مما يضطرنا إلى التسليم بأن من الصعب التقرير بين ما هو طبيعي او غير طبيعي في الحياة الجنسية.

أبحاث سكوفيلد Schofield

ابحاث سكوفيلد احدث عهداً من ابحاث كنزي، غير انها تركزت على الحياة الجنسية للشباب في انجلترا، ونشرها سنة ١٩٧٢ في كتابه تحت عنوان: «السلوك الجنسي للشباب». وقد حدد سكوفيلد مرحلة الشباب بالسن ما بين (١٥ ـ ١٩)سنة. ومن نتائج هذا البحث والذي يعدّ اكثر دقة من بحث كنزي، تبينت بعض النتائج التالية: (١) في موضوع التجربة الجنسية، تبين ان ٢٠٪ من الذكور و١٢٪ من الاناث حدثت لهم تجربة جنسية. (٢) وفي موضوع المعرفة الجنسية، تبين ان الفتى يعرف الحقائق الجنسية في سن ٢/١ ١٢ سنة، وان الفتاة تعرف هذه الحقائق في معدل سن اصغر اي ١٢,٢ سنة. اما مصادر الثقافة الجنسية، فهي مدرسية بالدرجة الاولى وخاصة للاناث، واقلها يأتي عن طريق التثقيف العائلي. (٣) فيما يتعلق بالبكارة، افاد نصف الذكور برغبتهم في البقاء بحالة عذرية من حيث التجربة الجنسية والى حين الزواج المشروع، اما في الاناث فان هذه الرغبة ابديت في ٦٤٪ منهن.

أبحاث ماسترس وجونسون Masters and Johnson

تختلف ابحاث ماسترس وجونسون عن الابحاث السابقة، في انها لا تعتمد على البينات المعطاة من الذين استبينت اراؤهم. وهي بينات ربما لا تتفق مع الواقع الفعلي للحياة الجنسية للفرد الذي يشارك في الاستبيان، وانما تعتمد الاستجابات الجنسية التي تتم ملاحظتها فعلاً اثناء الممارسة الجنسية. وهي الاستجابات التي لا يمكن تمويهها. ومع هذه الميزة لهذه الطريقة المختبرية، ان من الواضح ان السلوك الجنسي للفرد واستجاباته الجنسية ربما لا تكون متطابقة

في الظروف الطبيعية معها في الظروف الاختبارية مهما حاول الفرد في سعيه نحو هذا التوافق، سواء كان ذلك في استجاباته النفسية او استجاباته الجسدية. ومع هذه الصعوبة، الا انه تمخضت بعض الحقائق الهامة عن ابحاث ماسترس وجونسون، واهمها: (١) مراحل دورة الاستجابة الجنسية، والتي ورد تفصيلها في مكان آخر من هذا الكتاب، وخلاصتها ان الفرد في استجاباته الجنسية يمر باربع مراحل متتالية. وهي مرحلة التهيج، والتي تسمر من دقيقة الى زمن اطول قد يصل الى ساعات، وتتسم في الذكر بتوتر القضيب وانتصابه، وفي الانثى بترطيب الفرج، الى غير ذلك من الاستجابات الفيزيولوجية الموضعية او العامة في الجنسين. اما المرحلة الثانية فهي مرحلة الهضبة. وهي مرحلة تتسم بالمزيد من التهيج، وفي الانثى بتوسع الفرج، وفي الاثنين تحدث ارتعاشات عضلية لا ارادية، ويصل التوتر النفسي الى اقصى حدوده. اما في المرحلة الثالثة وهو دور الذروة، او ما يعرف ايضاً بدور الانزال، فهو دور قصير وصاخب تتزايد فيه سرعة التنفس وارتفاع ضغط الدم، وسرعة القلب، والتوتر العضلي. وفي الذكر يحدث شعور يسبق الانزال بان الانزال قد اصبح وشيكاً وحتمياً، ومن ثمة يبدأ التقلص العضلي في الجنسين على دفعات تفصلها (٨) اعشار الثانية، ومن بعدها تقل هذه التقلصات مدة وقوة. والدور الرابع والاخير هو دور الانحلال، ويتسم بالتناقص التدريجي في التوتر الجنسي وبالتناقص في مظاهر التهيج الجنسي بشقيه النفسي والجسمي، وفي الذكر يتضح ذلك من اختفاء توتر القضيب وتناقص الرغبة الجنسية، وخلال هذا الدور يكون الذكر عادة في حالة امتناع للقدرة الجنسية مهما كانت رغبته في مواصلة العمل الجنسي، اما الانثى، فان لها في بعض الحالات ان تحصل على أكثر من ذروة خلال هذه المرحلة، كما ان بامكانها معاودة النشاط الجنسي مباشرة وبدون معاناة لفترة النهي او الانحلال الذي يصيب الذكر.

ومن النتائج البارزة التي تمخضت عن ابحاث ماسترس وجونسون هو ما اكتشفه من ان معظم المشاكل الجنسية تأتي في الغالب نتيجة الخطأ في التوجه نحو الجنس، وبسبب سوء الفهم للقضايا الجنسية وبسبب الجهل، وهي اسباب لهذه المشاكل تزيد في تأثيرها عن الاسباب العقلية والامراض الجسمية. كما وجد ان الاسباب النفسية هي اكثر العوامل اهمية في معظم المشاكل الجنسية، وانها تكمن ليس في ذات الفرد الذي يعاني من المشكلة بقدر ما تكمن في علاقته مع شريكه الجنسي، ولهذا وجه اهتمامه الى هذه العلاقة، لا للوقوف على اسباب المشكلة او العطل الجنسي في الذكر او الانثى فقط. وانما للتخطيط العلاجي وبالشكل الذي يربط الشريكين معاً في مشكلة واحدة وحل مشترك لا بد من مساهمة الشريكين فيه معاً في آن واحد، ولغاية واحدة، وهي انجاح العلاقة الجنسية بينهما. وقد قام الباحثان بتقديم مناهج علاجية للعطل الجنسي، خاصة فيما يتعلق بالانتصاب والانزال (القذف) في الذكر، ومشاكل الذروة والحصول عليها في كلا الجنسين.

**

وهنالك الى جانب المؤلفات والابحاث التي اشرنا اليها، مؤلفات وابحاث عديدة من

بلدان مختلفة، والتي تتناول بالبحث نواحي عديدة من الحياة الجنسية مما لا يتسع المجال لذكرها، غير ان فصول هذا الكتاب قد اعتمدت على عدد غير قليل من هذه المصادر بقدر او آخر.

الفصل الثاني والثلاثون

الخاتمة

الخاتمة

يشهد عصرنا الحالي مظاهر عديدة من التحولات في المواقف التقليدية من الحياة الجنسية. وهذه المظاهر تعكس التحولات الحضارية بما فيها من عوامل اقتصادية واجتماعية وسكانية وثقافية. وهي عوامل غير متساوية في تأثيرها على المجتمعات المعاصرة. ومع ان المجتمعات المعاصرة ما زالت تحتفظ بالقيم الاساسية للحياة الجنسية، وهي القيم التي تعتمد الحياة الزوجية، الا ان العديد من هذه المجتمعات اتخذت مواقف اخرى الى جانب هذه القيم التقليدية واباحت **درجات متفاوتة من الممارسات التي لا تتوافق مع جانب من هذه القيم التقليدية وأباحت درجات** متفاوتة من الممارسات التي لا تتوافق مع مقتضياتها. ومع تعدد واختلاف **القيم والمواقف المتعلقة** بهذه الامور بين حضارة معاصرة واخرى، وبين مجتمع وآخر في نفس هذه الحضارة، وحتى في المجتمع ذاته بين فترة واخرى وبين طبقة واخرى من طبقاته. واذا امكن متابعة تطور هذه المواقف المختلفة واسبابها وجدنا ان معظم التطور الذي حدث قد جاء، في بدايته في الاقل، بسبب الانفتاح العلمي على هذه الناحية المتعلقة من حياة المجتمع. وبهذا الانفتاح لم يكن هنالك ما يحول دون تزايد الانفتاح على هذا الموضوع في جميع المجالات الممكنة من نفسية واجتماعية وطبية واعلامية وتربوية وحتى دينية وقانونية.

ان الذين ساهموا في عملية الانفتاح على الحياة الجنسية كثر في التاريخ الحديث، ومن اهم العلماء الذين عنوا بموضوع الحياة الجنسية على اسس علمية من الملاحظة والبحث هم هافلوك اليس Havlock - Ellis وكرافت ابنج وفان دي فيلدي Van - de Velde وولهم فلايس **Fliess**، ممن قاموا بدراسات واسعة في الموضوع شملت وصفاً للانحرافات الجنسية المختلفة، وبيانات

عن الانماط والتنوعات الجنسية في العلاقات الزوجية، ومظاهر السلوك الجنسي في الاطفال. وتوج اعمال هذا الرعيل الرائد في الابحاث ما جاء به فرويد رائد المدرسة التحليلية النفسية من نظريات وابحاث حول العلاقة بين الحياة الجنسية والحياة النفسية وخاصة في الاثار النفسية المترتبة على كبت الجنسية الطفولية. وقد تابع آخرون نظريات فرويد مثل ابراهام وستيكل، محاولين فهم الظواهر الجنسية على خلفية النظريات الجنسية النفسية التحليلية التي جاء بها فرويد. واتخذ بعض اتباع فرويد خطاً بايولوجياً ـ سايكولوجياً، ومن هؤلاء آنا فرويد وايركسون Erikson وقد كان لاتجاههم هذا اثر عظيم في محاولات غيرهم من الباحثين لفهم الحياة الجنسية عند الاحداث والمراهقين ومشاكل الانحراف الجنسي. وفي نهاية الاربعينات من هذا القرن قام كنزي ومعاونوه باول وربما اهم دراسة للحياة الجنسية للذكر ثم الانثى في المجتمع الامريكي. وقد شملت الدراسة مجموعة عشوائية من السكان من الجنسين. غير ان دراسات اخرى لاحقة اعتمدت الحياة الجنسية في حياة الشباب (سكوفيلد Schofield ١٩٦٨) والحياة الجنسية للاناث (فشر Fisher) (١٩٧٣)، ومن اهم الدراسات العلمية للحياة الجنسية خلال السنوات العشرين سنة الاخيرة هي الابحاث التي قام بها ماسترز وجونستون (١٩٦٦) و(١٩٧٠) وقد كان لابحاثها الاثر العظيم في توجه الاهتمام نحو البحث الفيزيولوجي العلمي للحياة الجنسية. كما كان لابحاثهم اثر كبير في تطوير طرق العلاج لحالات الاضطرابا او العطل الجنسي عند الرجل او المرأة. واخيراً فان ابحاث ايزانك العالم النفسي المعروف لا تقل اهمية عن ابحاث من سبق ذكرهم. وقد توجه اهتمامه نحو محاولة ربط السلوك الجنسي بايولوجياً بسمات الشخصية كما هو واضح من كتابه (١٩٧٦) بعنوان الجنس والشخصية.

ان حصيلة هذه الابحاث كلها، هي انها فتحت باباً لا يمكن اغلاقه في محاولة ملاحظة وفهم الاوجه المختلفة لحياتنا الجنسية. وقد تمخض عن ذلك كله نتيجتان اساسيتان اولاهما اثبات اننا لا نستطيع التعامي عن الناحية الجنسية في حياة اي انسان او اغفالها، والنتيجة الثانية هي الاقرار بمدى الارتباط الوثيق بين العامل الجنسي في حياتنا وبين العوامل الاخرى النفسية والاجتماعية والسلوكية والحضارية. وان هذا الارتباط هو ارتباط تفاعلي قد يغير من سلوكنا الجنسي والنفسي في الحياة وقد يبدل من مواقفنا من هذا السلوك. ومع كثرة واتساع الابحاث في المواضيع الجنسية، الا اننا ما زلنا في بداية مراحل البحث، خاصة اذا ما اخذنا بعين الاهتمام تأخر البحث في هذا المجال من حياتنا عن ركب البحث العلمي، وتشعب مجالات البحث فيه، والتي لا بد لها أن تشمل ارتباطات الحياة الجنسية بنواحي الحياة العديدة الاخرى. ويضاف الى ذلك ما هو ملاحظ من التستر او التحيز في المواضيع الجنسية مما يعيق البحث او يشوه نتائجه. هذا ومن الصعب على احد ان يتكهن بشأن امكانيات البحث العلمي في المستقبل، فتقدم التقنية العلمية لا تقرر وحدها امكانية التطبيق الفعلي لهذه التقنية. وقد يحدث ما هو غير متوقع. فتسدل الستارة السوداء من جديد لتحيط الحياة الجنسية بالسرية والكتمان قبل ان تستطيع جلاء اكبر قدر ممكن من كنهها واسرارها العلمية.

* *

لقد تحققت نتائج ايجابية وسلبية كثيرة بسبب ما ادت اليه الابحاث العلمية من وضع الحياة الجنسية موضع النظر والاهتمام في حياتنا العامة. وقد جاءت النتائج الايجابية عن طريق ايضاح واقع هذه الحياة، مما ساعد على تلافي أوعلاج بعض نواحي الاضطراب فيها، كما ساعد على ازالة قدر كبير من التحيز نحو هذه الحياة في عواطف وافكار الكثيرين من الناس. وقد بات من الصعب في عصرنا ان يقبل الرأي التقليدي من انْ الجنس قد وجد في حياتنا من أجل الاخصاب والتكاثر فقط، وانه يقتضي ان يمارس بدون لذة او متعة في الاقل خارج هذا التسبيب. ويجد المجادلون صعوبة في اقناع احد بان الاطفال لا توجد لهم حياة جنسية، وبأن الجنس يبدأ عند البلوغ، او ان الحياة الجنسية للانثى لا وجود لها، وانها ان وجدت، فانما هي لمجرد الاستلام وارضاء رغبة الرجل. ومن النتائج الايجابية الهامة التي تمخضت عنها الابحاث، هو ادراك ان الكثير مما كان يعدّ انحرافاً جنسياً في الماضي، اصبح ينظر اليه اما مجرد تنويع في السلوك الجنسي، او انه تعبير عن حتمية التعبير عن الطاقة الجنسية بالوسيلة الممكنة من السلوك الجنسي. ثم النظر الى ما غير ذلك من الانحرافات على انها حالة مرضية يقتضي علاجها على اسس طبية لا اخلاقية. والنتيجة الايجابية الاخرى تتمثل في قبول الجنس شيئاً غير مشين في الحياة الانسانية. لقد كان من رأي مارتن لوثر ان (الجنس امر يؤسف له ولكن لا يمكن تجنبه). وكان قوله خروجاً على نظرة التزمت التي سبقته من ان الجنس (خطيئة)، وبعد مارتن لوثر بقرون فانه لا يمكن القول بان الجنس امر يؤسف له. اذ لا يمكن ان يؤسف لظاهرة هي من صميم الحياة الانسانية ولا يمكن وجود الانسان بدونها. واخيراً فان انتشار الابحاث في الامور الجنسية قد ادى الى القناعة بارتباط هذه الحياة مع نمو حياتنا النفسية اما بشكل طبيعي او على صور مرضية. ومع ان الكثيرين من العلماء لا يتقبلون رأي فرويد الحماسي من ان الكبت الجنسي يكمن وراء جميع الامراض النفسية، الا انه قد بات من الثابت ان كبت الطاقة الجنسية ومنع التعبير عنها في حياة الصغار او الكبار، بما في ذلك حالات العطل الجنسي، لها ان تضر بتوازن الحياة النفسية للفرد، وان يؤثر ذلك في سلوكه وعمله وعلاقاته. وان يسبب له المعاناة، وادراك هذه الحقائق كلها ربما لم يكن ممكناً لو ظلت الامور الجنسية مزاحة عن الاهتمام وتقبع تحت ستار كثيف من التزمت والخوف والعار والجهل والتحيز والرياء.

ان الاثار الايجابية للانفتاح العلمي والنفسي على الجنس لم يتحقق بدون نتائج سلبية هامة في حياتنا العامة. فانتشار الاعتقاد ان الحياة الجنسية ضرورة، وان الكبت الجنسي ضرر، وان بعض الانحراف تنوع، وان للانثى حياتها الجنسية الهامة كما للرجل، وان للاطفال سلوكهم الجنسي الخاص والفردي، كل ذلك قد دفع بالحياة الجنسية الى ولوج بعض المتاهات، بما اضر الحياة الجنسية. فقد اخذ الكثيرون من علماء النفس والاجتماع والتربية والطب بحرية النظريات الجنسية والتساوي بين الجنسين، مما دفع الى الخروج غير المدروس وغير المقيد على السلوك الجنسي التقليدي، وادى ذلك الى ظهور الكثير من مظاهر التسامح والاباحة الجنسية التي انطبعت بها معظم المجتمعات الغربية وسارت في تقليدها مجتمعات اخرى غيرها. ومن هذه المظاهر التسامح في التعبير الجنسي عند الاطفال والاحداث، والتسامح في العلاقات الجنسية

السابقة للزواج والخارجة على الزواج، والتساهل في النظرة الى معظم الانحرافات الجنسية وعدّها تنوعاً لا انحرافاً. وقد تجاوز التسامح في جميع هذه النواحي مبدأ رد الامور الى نصابها الطبيعي، وبالتالي الى قيام مشاكل اجتماعية واقتصادية وطبية وحضارية واخلاقية لا تقل في اهميتها عن اهمية النواحي الايجابية للانفتاح العلمي على الجنس. ومع انه لا يمكن القول بان هذه الموجة من التساهل قد ارتدت او انحسرت، الا ان هنالك الكثير من الدلائل على ان بعض المجتمعات التي استغلت التساهل الى حدود قصوى، قد بدأت تميل الى العودة الى حياة جنسية تتسم باتزان اكثر في تصريف الطاقة الجنسية، كما ان الكثيرين من علماء النفس والتربية الذي اخذوا بحرفية النظريات الفرويدية في البداية، وشجعوا بذلك على انفجار التساهل الجنسي على انه وقاية من المرض النفسي، فانهم اليوم اخذوا يتراجعون بعد ان ادركوا ان النتائج السلبية التي ترتبت على التساهل قد فاقت في آثارها النتائج الايجابية التي توخوها، والتي لم تحدث عن طريق ازاحة الكبت الجنسي من التجربة الحياتية ومن دفع الفرد الى الانغماس الجنسي.

وهنالك نتيجة سلبية هامة للانفتاح الجنسي قلما تحظى بملاحظة واهتمام الباحثين وهي الاثر الحضاري الناجم عن الانفتاح الجنسي المعاصر وما صاحبه من ثورة على العرف الجنسي. فالقيود المختلفة على السلوك سي العلني والمباشر عبر القرون المتعاقبة من التاريخ قد نجم عنها تحويل جزء غير قليل من حاقة الجنسية الى وسائل غير مباشرة وغير واعية. وقد كان الثمن الذي دفعه الانسان بسبب اضطراره الى هذا التحويل، الحرمان والمعاناة، غير انه ثمن جوزي بالأثر العميق على تطور الحضارة والمدنية، وهو التطور الذي يشك في انه كان سيحدث لولا اضطرار الانسان للتحكم طوعاً أو قسراً بطاقته الجنسية. وعصرنا الحالي يشهد الكثير من التعبير المسرف والسافر عن الحياة الجنسية، مما يترك القليل منها فقط للارتباط المجدي والخلاق بحياتنا النفسية. فالتسامح الجنسي له ان يرد الحياة الجنسية إلى مجرد طاقة بايولوجية، وان لا يترك ما يكمن من هذه الطاقة لكي يتسرب إلى حياتنا النفسية، وبالتالي إلى النشاطات الحياتية المختلفة من اجتماعية او حضارية. وقد كان فرويد نفسه من اول الذين ادركوا هذه الحقيقة. وهو بدلاً من ان يكون مبشراً بضرورة ازالة الكبت الجنسي من الحياة، فقد اكد على اهمية هذا الكبت في فترة الحداثة، لما في ذلك الكبت من تجميع للطاقة الجنسية لخدمة اغراض حضارية في الكبر. والذي نشاهده اليوم هو على نقيض ذلك، فالاسراف الجنسي قد قلل من امكانية حدوث هذا (التجميع) لاغراض حضارية. واصبحت الحياة الجنسية عند الكثيرين خالية من الرموز، كما اصبحت خالية من القوى التعبيرية في مجالات الحياة المختلفة. ومع ان الدراسات الاستبيانية ما زالت تدلل على ان عاطفة الحب ما زالت شائعة ونشطة في الجيل الجديد في بلدان متسامحة جنسياً، الا ان الكثير من هذه العاطفة يرتبط بالحاجات الجنسية المباشرة والمحدودة، وليس له لذلك ان يخدم الاهداف الخلاقة التي يستطيع الحب، حتى الحب الجنسي ان يحققها. وما لم تعد الحياة الجنسية الى المجتمع الانساني بصورة اكثر توافقاً مع حاجاته الانسانية والحضارية، فان لنا ان ننتظر ان يفقد الانسان مصدراً اساسياً وهائلاً، وربما اعظم المصادر قوة، في عملية تطور الانسانية الحضاري. وقد يقوم السؤال في اين نضع الحد الفاصل بين ما هو ضرر وما هو

ضروري، بين ما هو موافق او غير موافق من الحاجات الانسانية والحضارية، بين ما هو كبت لا مسوغ له وبين ما هو تسامح لا جدوى منه؟. ولعل من المتعذر الاجابة على كل ذلك بشكل قاطع ودائم. فالانسان في طبيعته لا يطاوع القيد او القاعدة، وهو يتراوح دائماً في مدى واسع من التباين والاختلاف. وكل الذي يمكن ادراكه الآن، هو اننا نمر بمرحلة زمنية وحضارية يسرف فيها الانسان المعاصر في طاقته الجنسية وبقدر لا يخدم نموه الحضاري. ولعل هذه هي ليست الظاهرة الوحيدة التي تتميز بها حضارات هذا العصر والتي تدلل في مجموعها على ترابط سببي بينها، ولعلنا نجد في كل ذلك اشارة الى افول وانحطاط الحضارة المعاصرة بما قد يكون بشيراً بظهور حضارة اخرى تعتمد على قيم انسانية جديدة بما في ذلك القيم الجنسية في الحياة.

الدكتور علي كمال

* فلسطيني الأصل ، ولد في بلدة عنبتا ، وقضى طفولته وحداثته في عدة مدن فلسطينية .
* تابع دراسته في الجامعة الامريكية في بيروت .
* اختص في دراسة الامراض النفسية والعصبية في لندن .
* عمل في حقل اختصاصه في كل من الجامعة الأمريكية - بيروت ، وجامعة لندن ، وفي العراق ، وتولى مراكز تدريسية وإدارية واختصاصية في حقل اختصاصه .
* أختير عضواً في هيئة خبراء الصحة النفسية التابع لمنظمة الصحة العالمية ، ممثلاً لبلدان شرقي البحر المتوسط .
* حاز على زمالة الكلية الملكية للأطباء النفسانيين في المملكة المتحدة واختير كزميل مؤسس .
* عمل سابقاً رئيساً لقسم الطب النفسي والاعصاب في عمادة كلية الطب - بغداد ، ومديراً للصحة النفسية - وزارة الصحة ورئيساً لمركز بحوث الصحة النفسية - جامعة بغداد ، ورئيساً لاختصاص الطب النفسي في المؤسسة العلاجية الأردنية .
* يعمل حالياً مستشاراً اخصائياً للأمراض النفسية والعصبية في مستشفى الجامعة الأردنية - الأردن .

منشورات المؤلف

١ ـ النفس (في جزئين)
٢ ـ فصام العقل (الشيزوفرينيا)
٣ ـ الجنس والنفس (في جزئين)
٤ ـ أبواب العقل الموصدة
الجزء الأول : باب النوم
الجزء الثاني : باب الأحلام
٥ ـ حالات الصرع :
أسبابها وعلاجها والتعايش معها
٦ ـ باب العبث بالعقل
٧ ـ العلاج النفسي وطرقه القديمة والحديثة

مؤلفات تحت الطبع

١ ـ العبقرية والإبداع
٢ ـ باب الخوارق
٣ ـ المتنبي من شعره
٤ ـ الشامل في الطب النفسي
٥ ـ حصاد الأيام
٦ ـ قال صاحبي
٧ ـ الوسيط في علوم الطب النفسي والعقلي
مشاركة مع الدكتور (نظام أبو حجلة) .